

# مَجَلَّةُ الزَّهْرِ

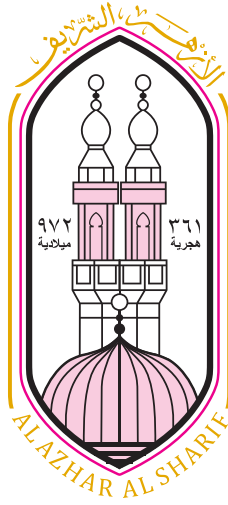
مَجَلَّةُ شَرْيَةِ جَامِعَةِ

تصدر عن شيخه الأزهري في أول كل شهر عربي

١١

المجلد الحادي عشر

السنة ١٣٥٩ هـ



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25907497 / 25899823

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

[www.azhar.eg](http://www.azhar.eg)

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م



SAQIFAT AL-SAFATRUST

لبوان - ماليزيا

[www.saqifat-alsafa.org](http://www.saqifat-alsafa.org)

E-mail : [info@saqifat-alsafa.org](mailto:info@saqifat-alsafa.org)



# مجلة الأزهر

## مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

### تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
-------------	-----------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفيع الدين

الاشتراكات عمده سنة

الإدارة

داخل القطر ... ... ... ٢٠٠ مليم  
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠  
خارج القطر ... ... ... ٣٠٠

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر - ١٩٤٠)

## فهرس

### الجزء الاول - المجلد الحادى عشر

صفحة

السنة الحادية عشرة لمجلة الأزهر ... بقلم	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣ ...
تفسير سورة الحجرات ... »	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٤
هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ... »	حضرة الأستاذ مدير المجلة ...	١٥ ...
الوصية بالمال وغيره ... »	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى	٢٣
مكان الزكاة من الشئون الاجتماعية ... »	» » محمود شلتوت	٢٨ ...
أنبل الأخلاق الإسلامية ... »	» » عبد الجليل عيسى	٣٦
نظرات فى المذاهب المتطرفة — الشيوعية »	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣٩ ...
عبد الله بن العباس ... »	فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٤٣
الضمان فى المعاملة الربوية ... »	لجنة الفتوى	٤٩
الصلاة فى مسجد بناء مسيحى ... »	» »	٤٩
بيع السمك فى البحر ... »	» »	٤٩
رضا الأب بتعميد ابنه .. »	» »	٤٩
صداق المتوفى عنها زوجها قبل الدخول »	» »	٥٠
اليانصيب ... »	» »	٥٠
فى الرضاع ... »	» »	٥٠
فى الميراث ... »	» »	٥٠
تعليم طرق الوقاية فى المساجد ... »	» »	٥١
فى الطلاق ... »	» »	٥١
الكلام والمنكلمون ... »	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٥٢
نظرات فى الأدب العربى ... »	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	٥٧
نظام الوقف فى الاسلام ... »	» » عباس طه	٦٣ ...

١٣٥٩  
 ١٩٧٨  
 ١٩٧٨  
 ١٩٧٨

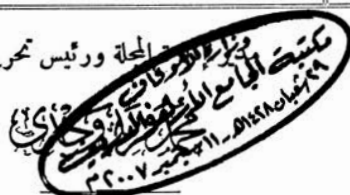
# مجله الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية  
 تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
-------------	-----------------	-------------------

المجلة ورئيس تحريرها



الاشتراكات عمده سن

داخل القطر ..... ٢٠٠  
 لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ..... ١٠٠  
 خارج القطر ..... ٣٠٠

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ مليا داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### السنة الحادية عشرة لمجلة الأزهر

الحمد لله الذي جعل للحق أعلاما تدل عليه ، وسخر له ألسنة من خلقه تهدي اليه .  
والصلاة والسلام على المثل الأكل للفطرة الإلهية ، والمظهر الأجل لجميع الكمالات الخلقية ،  
محمد خاتم رسله الأكرمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فاننا نفتتح بهذا العدد المجلد الحادى عشر لمجلة الأزهر ، راجين الحق جل وعز  
أن يمدنا من عونه بمثل ما أمدنا به فى المجلدات السابقة . فلئن كنا قد أحسنّا فى القيام بما أسند  
إلينا ، فأنما يرجع ذلك الى إمداده وتوفيقه ؛ ولئن كنا نعدّ قراءنا بالمثابرة على عملنا ، وبالذؤوب  
على زيادة تحصيله بمستأنف البحوث ، ومستطرف الموضوعات ، فأنما نفعل ذلك استنادا الى  
فضله ، واعتمادا على إحسانه .

وإننا وجميع من يعاوننا من أجلاء العلماء ، وكرام الكتّابين ، نجدد عهدنا لحضرات  
القارئین ببذل الوسع فى الاضطلاع بما نُدبنا له من إبلاغ رسالة الأزهر الى العالم الاسلامى  
كافة ، وخدمة أصول هذا الدين بما يصل اليه جهد العلم من التدليل والتدعيم ، ودحض  
الشبهات التى يثيرها خصومه أينما كانوا ، وتحت أى مظهر ظهروا .

ونحن إذا ذكرنا الأزهر ، وجب علينا أن ننوه بما لقيه ويلقاه هذا المعهد التاريخى  
الفخم من رعاية الاسرة العلوية وحمايتها ، وخاصة من فرعى دوحتهما الجليلين : المغفور له الملك  
فؤاد ، ونجله حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، الذى أحيا سيرة السلف الأولين بما جرى عليه  
من التقاليد الصالحة ، والسنن القيمة . حفظ الله وجوده عزا للدنيا والدين ، وأمتع بفضائله  
وكمالاته المسلمين .

ولا بد من الإمامة فى هذا الوطن بما يبذله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ  
محمد مصطفى المراغى شيخه الأكبر ، فإنه بما يقوم به فيه من إصلاح وطيد ، وما يستنبته  
فى بيئته من غراس طيب ، يعدّه لدور انتقال يصبح معه أفخم فى الاعين مظهرا ، وأعم  
فى تمثيل رسالة الاسلام أثرا .

وإنه ليسرنا أن نفتتح عدد هذه السنة بدرس دينى لفضيلته ألقاه فى رمضان فى حضرة  
صاحب الجلالة الملك المعظم ، وفى حشد من رجال دولته ، وهو كجميع دروس فضيلته غداء  
للأرواح والعقول . أمد الله فضيلته بروح من عنده ، وأيده بمدد من جنده ؟

محمد فريد ومبرى

# نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى  
شيخ الجامع الأزهر

الدرس الأول الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨  
بمسجد الأستاذ البوصيرى بالاسكندرية

وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

تقدموا : يصح أن يكون من قدّم المتعدى ، أو من قدّم بمعنى تقدم . وعلى الثانى يكون معناه : لا تتقدموه . وتحقيقه - كما قال الراغب - لا تسبقوه بالقول والحكم ، بل افعالوا ما يرسمه لكم ، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وذلك لازم التقدم ، لأن الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد ، يجعل لنفسه حق إبداء رأى والسبق به ، وحق المخالفة . وحكى ابن جرير أن العرب تقول : فلان يقدم بين يدى إمامه ، على معنى يجعل بالأمر والنهى دونه . وعلى الأول إما أن يلاحظ تعديه الى مفعول محذوف لقصد التعميم ، ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئاً ما بين يدى الله ورسوله ، قولاً أو فعلاً ؛ وإما أن ينزل منزلة اللزوم ، ومعناه : لا يحصل منكم تقديم ، غير منظور إلى أن المقدم ماذا ، على طريق قوله تعالى : « يحى ويميت »

وما كالمعنى على الوجوه كلها : النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وهو معنى قول الله سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ومعنى « بين يدى الله » : أمامه ، لأن المكان الذى بين العضوين المعروفين هو الأمام .  
وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله حتى  
ينظر اليه من غير تقليب حذقة . وذكر الرسول ، باعتبار أنه المبلغ المبين ، الحافظ للشرعة ،  
والمدافع عنها .

« واتقوا الله » : أى اجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه ، وهى اتباع أوامره  
 واجتناب نواهيه ، والوقوف عند الحدود التى بيّنها .

والسميع : إذا وصف به الله سبحانه كان المراد به علمه بالمسموعات وتحريره المجازاة بها .  
وكل موضع أثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نفاه عن الكافرين ، أو حث عليه ، فالقصد به  
الى تصور المعنى والتفكير فيه والاعتبار به ، نحو « الذين يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ  
أُحْسَنَهُ (١) » ، « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ (٢) » ،  
« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٣) » « وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا (٤) » . والله يعلم  
المسموعات ، ويعلم المراد منها ، ويعلم ما فى الضمير ، وما توسوس به النفوس ، لا تخفى  
عليه خافية .

وهذه الآية تقرر أصلا عظيما من أصول الاسلام ، وهو أن الحكم لله وحده ، لا معقّب  
لحكمه ، وهو أحكم الحاكمين . ويقرر هذا الأصل أتم تقرير قوله تعالى : « فَلَا وَرُبُّكَ  
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا  
تَسْلِيمًا (٥) » وقوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا  
حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ  
قَلِيلٌ » ، ولهم عذاب أليم (٦) » ، وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٧) » . وطاعة الله سبحانه هى العمل بما  
فى كتابه ، وما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وطاعة الرسول فى الحقيقة طاعة الله ، وذكر  
باعتبار أنه مبلغ ومبين . أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستثمرونه فى الحوادث ،  
وفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ؛ فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون أسرارها ،  
وفهمون أغراضها ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب  
والسنة تطبيقا صحيحا ، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة ، فى دائرة  
الكتاب والسنة ؛ وذلك معنى الرد الى الله ورسوله . وعلى هذا جرى سلف الأمة ، واستثمر

(١) الزمر : ١٨ (٢) التوبة : ٦ (٣) النحل : ٦٥ (٤) الاعراف : ١٧٩ (٥) النساء : ٦٥

(٦) النحل : ١١٦ ، ١١٧ (٧) النساء : ٥٩

العلماء نصوص الكتاب والسنة ، ووضعوا قوانين الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم ، ولم يكن لهم شهوة في الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله ؛ لكن الأحداث غيرت مجرى الأمور ، وحسب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق ؛ وكان أصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم الى الدين ليقال إنهم على الحق ، غير خارجين على حدود الله ، فتعسف الناس في التأويل ، وجدت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة ، ويتجافى عنها الدين ، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها ؛ تعصب لها أصحابها على علم بضلالها ، وتعصب لها مقلدوها على علم أو جهل وحسن نية ، فتفرق المسلمون فرقا وأحزابا ، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها ، وتحييز قتلها وهدمها ، ولم يكن مثل هذا معروفا في صدر الاسلام ، وعند صالحى الأمة وكبار الأئمة .

جرت الأمور على هذا النحو ، فضعف شأن المسلمين ، وقاتل بعضهم بعضا ، ثم وهنت العزائم ، وأحبوا الحياة ، وتحللوا من الأوامر والنواهي الإلهية ، إما بالخروج عليها ظاهرا جهارا ، وإما بالخروج عليها تأويلا ، وتقطعت بينهم الروابط ، ونسوا الوحدة ، ونسوا لوازم الأخوة الإسلامية التى عقدها الله في كتابه بين المسلمين .

هذا شأن المسلمين اليوم ، وقبل اليوم بقرون ؛ ولا نجاة لهم إلا بالرجوع الى الله ، وتفهم كتاب الله ، والعمل بما سنّه رسول الله . ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم ، كلا ! فإن في دينهم من الأخلاق الكاملة الفاضلة ، ومن الحث على العلم ، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للإنسان ، ومن النظم الدقيقة للمجتمع ، ومن الأوامر التى تحث على البذل والصدقة ، والتضحية في سبيل الحق — ما لا يوجد عند غيرهم . ومن الحق أنهم تركوا دينهم فذلوا ، وتركوا هدى الرسول فضلوا . ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين ، وتبصرهم أن الخروج عن الأديان ، واتباع المذاهب الضالة ، هو سبب ما في العالم من شرور قد تطوح بالإنسانية الى الدرك الأسفل ، كما تطوح بأصحابها في الآخرة الى النار . لعل هذه العبر توقظ النائم ، وتنبه الغافل ، وتحرك الجامد ؛ ولعل فتحة من قبلك الله تهب فتعدهم لتلقى النور الإلهي ، وتحملهم على الرجوع الى الهدى النبوى ، وما ذلك على الله بعزيز .

وجملة « بين يدي الله » : تدل بعد ما تقدم على الحضور ؛ والله سبحانه حاضر دائما مع العباد : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شئ عليم » (١)



وإذا عرفت أن الآية جاءت لتقرير أصل من أصول الاسلام عظيم ، وبيان ما يجب من الأدب مع الله سبحانه ، فلا يعنيننا بعد ذلك أن نبين سبب النزول ، وأن نذكر أنها نزلت في ممرارة الشيخين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فيمن يكون أمير وفد تميم ، أو في ذبيحة الأضحية ، أو في النهي عن صوم يوم الشك ، أو في غير ذلك .

وبضم التاء في « تقدموا » قرأ قراء الامصار . وقال ابن جرير : لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة من القراء عليها . وقرأ بعضهم « لا تَقْدَمُوا » بفتح التاء ، على معنى لا تتقدموا .

\*\*\*

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

ظهور الشيء بإفراط لحاسة السمع أو حاسة البصر : جهر . فن الأول : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به (١) » ؛ ومن الثاني : رأيت جهارا ، و « أَرِنَا الله جهرة » . والجَبْطُ : مأخوذ من الحبْط ، وهو أن تكثر الدابة من الأكل حتى ينتفخ بطنها . وفي الحديث « إن مما يُنبت الربيع ما يقتل حَبْطاً أو يُلِم » .

وحبوط الأعمال على أضرب :

أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر ، فلا تغنى في الآخرة شيئا ، كما في قوله تعالى : « وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَانَ صَبْرًا » .

والثاني : أن تكون أعمالا أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روى أنه « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به إلى النار » .

والثالث : أن تكون أعمالا صالحة ولكن توجد بإزائها سيئات تطفى عليها .

كانت الآية السابقة لبيان الأدب مع الله ، وهذه الآية وآيات بعدها لبيان الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم . فقد أمر الله المؤمنين ألا يجعلوا أصواتهم عند الحديث مع الرسول الأكرم

مرتفعة فوق صوته ، وألا يكون خطابهم إياه كخطاب بعضهم بعضا في الجهر وعلو الصوت . وقد قيل إن الأول يخص حال المسكلة ، والثاني حال صمته عليه السلام ؛ وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ، ولا تجهروا له عند دعائه إذا سكنت وتكلمتم . ويلزم من هذا كله أن يكون صوتهم أخفض من صوته ، وأن يراعوا في دعائه ومخاطبته اللين في القول ، أدبا مع مقام النبوة وجلالها . ولعل وجهه أن النهى عن رفع صوتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم يستلزم حتما ألا يكون خطابهم معه كخطاب بعضهم بعضا ، فلو لم يحمل أحد النهيين على حالة ، والآخر على حالة أخرى ، لزم التكرار ، وأن يكون الثاني تأكيذا . والظاهر أنه لا داعي الى هذا ، لأن الأول أفاد النهى عن رفع الصوت فوق صوته ، وهو وإن تضمن ما تضمنه الثاني ، لكن الثاني يفيد دلالة أن مقامه ليس كمقامهم ، وأن ما يليق بهم في التخاطب لا يليق به ، وأن الخطاب معه يجب أن يكون على حال من الأدب واللين والركة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن .

نُهِوا عن ذلك مخافة بطلان أعمالهم ، وذهابها سدى من غير مثوبة ولا جزاء ، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة ، وذلك لأن النهى جعل الجهر معصية ، لكن العادة قد تجعل الانسان غافلا عما في المنهى عنه من سوء ، وبخاصة إذا كانت العادة متأصلة ؛ وقد كان القوم جفاة غلاظا قريبي عهد بالتبدي ، ومن عادة التبدي الجفاء في الخطاب ، والإغلاظ في القول .

أدبهم الله بهذا الأدب ، ونهاهم عما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي جبارا ولا متكبرا ، بل كان جم التواضع ، كثير الحياء ، تقفه الأمة في الطريق لتحذثه فلا يتركها حتى تتركه ، وقال : « إنما أنا ولد امرأة كانت تأكل القديد » ، لكن الرسول الأكرم كان كثير الفكر والهم ، كثير الشواغل ، يتلقى الوحي من ربه ويبلغه ويبينه ، ويسوس المسلمين دنيا وأخرى . يفكر في عزتهم ودفع الأذى عنهم ، ويفكر في حرب من يحاربه ، وسلم من يسالمة ، ويفكر في توفير الخير للمسلمين ؛ وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره ، ومن كان هذا حاله ، وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة ، وأن يباعد عنه كل شيء مشوش للخطر . أدبهم الله بهذا الأدب مع الرسول ، ونهاهم عن الغلظة ؛ ومن شأن النهى أن يردعهم ، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب في القول ، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره ؛ فهذا الأدب كما أنه أدب مع الرسول ، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض . ولا تجد رجلا لين القول سهلا عند الحديث إلا وهو ذو نفس مهذبة ، صقلته الأيام ، وفاض عليه طيب عنصره وكرم أرومته مما جعله محببا عند الناس .

وعلى العاقل أن يرضى أخلاقه ، ويدوم على التنبه إليها ؛ وقد يكون ارتكاب

محرم ما دأبوا إلى استمرائه والاسترسال فيه ، فتكثر السيئات ، وتحبط الأعمال من حيث لا يشعرون . فالزيلة تكون أولاً حالاً ، ثم تصير ملكة ؛ وكذلك الفضيلة . وقد نقل عن أفلاطون : لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق وأنت لا تدري . وقد روى أن أبا بكر رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية قال : يا رسول الله : والله لا أكلّمك إلا السرّار أو أخص السرار حتى ألقى الله ! وكان إذا قدم على رسول الله الوفود ، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة . وقد روى أيضاً أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية ، جلس في بيته يبكي ، وقال : إني رجل جهير الصوت ، وأخاف أن يكون قد حبط عملي ! فبعث إليه صلى الله عليه وسلم وقال له : إنك لست من أهل النار ، تعيش بخير ، وتموت بخير . وقد مات شهيداً ، رضي الله عنه .



( إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ) :

الغض : النقصان من الطرف والصوت ، ومنه « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم (١) » و« اغضض من صوتك (٢) » .

والامتحان في الأصل : إذابة الذهب ليخلص إبريزه من الخبث وينقى منه . ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة ، يقال : امتحن فلاناً لأمر كذا فوجده قوياً عليه ، أي جربته ؛ ويلزم من هذا معرفته .

تضمنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت ، وتضمنت هذه الترغيب في القول اللين ، فقد جعل جزاؤه المغفرة والأجر العظيم . والمعنى : إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفها وأعدها للتقوى ؛ أو عرف الله قلوبهم معدة للتقوى بعد الاختبار ، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح عما اقترفوه من السيئات ، ولهم أجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات .



( إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ) :

الحجرة: القطعة من الأرض تحجر ، أى يمنع من الدخول فيها بحائط أو نحوه . ووراء : فيه معنى المواراة والاستتار ، فكل ما استتر فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، إذا لم تره ؛ فالوراء بالنسبة للحجرات : ما كان خارجها .

وقد أخرج البخارى فى الأدب عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغطاة من خارجها بمسوح الشعر . وعن الحسن : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي ، وقد أدخلت فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبكى الناس لذلك . وقد قال سعيد بن المسيب إذ ذاك : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك داعيا الى ترك التفاخر والتكاثر .

وعن زيد بن أرقم : جاء أناس من العرب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكا عشنا فى جناحه ؛ ثم جاءوا الى حجر النبي ينادونه : يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية ؛ وقد تأذى الرسول صلى الله عليه وسلم من نداءهم على هذه الصفة .

وقد حكم الله على أكثرهم بعدم العقل ، إما لأن فيهم من لم يكن موافقا ، أو لأنه أقام الأكثر مقام السكل ، على عادة البلغاء فى عباراتهم . وعدم العقل جاء من ناحية الجهل بقانون الأدب فى النداء ، والجهل بما ينبغى أن يكون عليه الطالب ، من تخير الوقت ، وتخير المكان ، وتخير العبارة . وقد كان عليه السلام لا يحتجب عن الناس إلا حيث تتقاضاه دواعيه الخاصة فى بيته ، فليس من الحق ولا من الأدب ألا تترك له الفرصة للاستجمام .

ولو أن هؤلاء صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرا لهم ، لكن الله غفور : يغفر مثل هذه الزلات التى لم تصدر عن سوء قصد ، ولم يكن سببها إلا تلك الطبيعة الجافة التى لم تهذب من قبل بعلم ولا دين . ورحيم : يرحم مثل هؤلاء ، ومن رحمته أن ينزل من الآيات الخالدة ، ما يؤدب عباده بالأدب الذى ترضاه النفوس الكريمة ، والطباع الشريفة . وهكذا يدخل القرآن فى شئون العباد ، فيعلمهم طريق النداء ، وطريق الاستئذان . وقد حكى عن ابن عبيد : ما دقت بابا على عالم حتى يخرج فى وقت خروجه . وكان ابن عباس يذهب الى أبى فى بيته لأخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يدق الباب حتى يخرج .

هكذا فعل القرآن ، وصقل الناس بآدبه الكريم ؛ وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن ، وتهتدى بهديه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) :

فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب ، إذا خرج عن قشره . يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر ، لكن أكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بأحكامه كلها أو بعضها . وقوله تعالى : « أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا (١) » يدل على أن الفسق أعم من الكفر ، لأنه قابل به الإيمان .

والبيان : الكشف عن الشيء . وبينته وأبنته ، إذا جعلت له بيانا يكشفه . والتبيين : التعرف وطلب البيان . والندم : التحسر من خطأ الرأي في أمر فائت . والتركيب يدل على الملازمة ، ومنه المنادمة والمداومة . فالندم : تحسر يلزم صاحبه . وعامة قراء المدينة : فتنبؤوا . وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة في صدقات بني المصطلق ، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقائه ، تعظيما لمن بعثه رسول الله ، فخدثه الشيطان أنهم قاتلوه ، فرجع وقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم ؛ فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه ، وهم بغزوهم ، فلما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا له حين صلاة الظهر ، وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ! بعثت إلينا مصدقا فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله ؛ فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن لصلاة العصر ، ثم نزلت الآية .

وأيا ما كان سبب النزول ، فالآية تقرر أصلا عظيما له خطره في الحياة . وكم فرق الكذب بين الأصدقاء ، وكم سفك من الدماء ، وكم شن من غارات ، وأثار إحنا وترات ، وكم فرق العشائر ، وذهب بالأنفس والأموال ! لذلك كان للصدق من المسكاة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة » ، وكان للكذب من الرداءة والحطة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار » ، ألا لعنة الله على الكاذبين !

وخطر الأخبار لا يجيء من ناحية الفسق وتعمد الكذب وحده ، بل يجيء من نواح أخرى ، فقد يكون الرجل عدلا لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها ،

فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء ؛ وقد يكون الرجل عدلا ذا غفلة فتدس إليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على ظن الصدق .

والثبوتُ في الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون ، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تحفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار .

وكثيرا ما يقع عدم الثبوت من العطاء الذين يملكون النفع والضرر ، يجهيهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطاعتهم عليهم ، وهو مدخل للخطر عظيم .

والذين هم في أشد الحاجة الى العمل بهذه الآلية ، هم الذين يبدعهم مقاليد الأمور ، ويبدعهم الضر والنفع ؛ أما الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا لحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء . والآية على العموم أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس ، وإعدادها لتعرف الحق ، والبعد عن مواطن الباطل .

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم عمل بقول ابن عقبة لغزا قوما مؤمنين يحبون الله ورسوله ، وسفك منهم دماء ، وأخذ منهم أموالا بغير حق .

فإنه تعالى يرشد عباده الى هذا الأدب الكامل ، ويحذرهم أن يعملوا بالأخبار قبل الكشف عنها ، وقبل الثبوت ، لئلا يصيبوا أقواما بسبب الجهل ، وبسبب الأخبار الكاذبة التي لا تفيد علما عند العقلاء ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلزمهم الحزن على ما فرط منهم . فيجب الكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة ، ويجب على المؤمن أن يتعلم طرق الكشف عن الأخبار ، ويروض نفسه عليها . وقد قال الحسن : فوالله لئن كانت الآية نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة الى يوم القيامة ما نسخها شيء .

والنبا : هو الخبر العظيم . أما الأخبار التافهة التي لا يترتب شيء عليها ، فهي في غير حاجة الى التبين والثبوت .

\* \* \*

(واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم ) :

العنت : الجهد والمشقة والهلاك . والزينة ثلاثة أنواع : نفسية كالعلم ، وبدنية كالقوة وطول القامة ، وخارجة عنهما كالجاه والمال .

كفر النعمة وكفرانها : سترها بترك أداء شكرها . والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحداية ، أو الشريعة ، أو النبوة ، أو ثلاثها . وقد يقال : كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله ، نحو « مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » إذ هو مقابل لقوله : « وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِمَعْدُونٍ » (١) . والذي تنطوى عليه الطبيعة الانسانية هو كفران النعمة وعدم القيام بشكرها ، يدل عليه « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ » (٢) ، « لكنه قد يخرج بالتعليم والتهديب وتقويم الدين الى حالة أخرى ، وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ » . فهو لاء صحابته صلى الله عليه وسلم : فاض عليهم نوره ، وغرهم أدبه ، وهذبهم تعليمه ورياضته ، خبب إليهم الإيمان ، وصار زينة عندهم ، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان .

والعصيان : خروج عن الطاعة . ويقال لمن فارق الجماعة : شق عصا الطاعة . وأصله أن يمتنع الرجل بعصاه .

والرشد : خلاف الغي ، يستعمل استعمال الهداية . وقيل الرشد في الأمور الدنيوية والأخروية ، والرشد في الأمور الأخروية لا غير . والراشد والرشد يقال فيهما جميعا . والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . والحكمة بالنسبة لله : علم الأشياء ، وإيجادها على غاية الأحكام ، وبالنسبة للإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات .

تذكر الروايات التي رويت في قصة ابن عقبة وبنى المصطلق ، أن النبي عليه السلام ، حدثته نفسه بغزوهم ، وأنه غضب على بنى المصطلق بعد أن سمع خبر ابن عقبة ، وأنه لم يصدق وقدم عند حضوره إلا بعد نزول الآية ، وأنه بعث خالدًا وأمره باستطلاع حالهم ، وعدم العجلة في حربهم ، وأن من المسلمين من حسن غزوهم ، ومنهم من كان مع الرسول في التريث والتثبت . وقد دعا هذا بعض المفسرين الى توزيع الخطاب ، فجعل قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ » لمن كان همهم غزوهم ومطالبة الرسول به ، وقوله : « وَلَكِنْ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ » للفريق الذي لم يطالبه بالغزو وكان معه في التريث وطلب التثبت ؛ ورأوا أنه لا يصح أن يكون المخاطبون واحدا في الطرفين ، لأنه ذكر أولا أن طاعتهم توجب العنت ، وذكر ثانياً أنه حبب إليهم الإيمان ، وكره الفسوق والعصيان ، والأمران متناقضان لا يجتمعان في فريق واحد . غير أن توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق ببلاغة القرآن وإيجازه ، وليس هناك ضرورة تدعو اليه ؛ وسيعلم ذلك مما يأتي :

بعد أن حذر الله المؤمنين أخبار الفاسقين ، نهبهم الى أن الرسول بينهم ، وليس المقصود ظاهر الخبر ، لأن ذلك معروف بالعيان ، بل المقصود لازمه وهو وجوب التحرز من الكذب وتوقيه ، لأن المؤمنين ورؤسهم الأعظم بينهم ، يجب أن يكونوا بعيدين عن الدنيا ، وعن الكذب الذى يؤدى الى المفساد ، ويجر الى ويلات قد يشترك فيها النبي الأكرم ؛ ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، أن يوقعه فى مثل هذا الخطر الذى يؤدى اليه الكذب ؛ وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو الى الاحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق أن يقع فيه . والإعلام بأن فيهم رسول الله ، تنبيه لهم على وجود المرشد الذى يجب اتباعه ، وتجب طاعته . وبذلك عاد الحديث الى الطاعة ، والى عدم السبق بالرأى ، والتعجل فى الحكم ، وهو موضوع أول آية فى السورة .

والسر فى ذلك الوجوب : هو أن الرسول مبلغ أمر الله ، ومبين له ، وأنه أدرى بالأغراض الإلهية ، وأدرى بمصالح الأمة وما ينفعها ، من كل من كان حوله ، يؤيده الوحي ، ويمده النور الإلهي ، ومقامه مقام المتبوع ، ومقامهم مقام التابع ؛ فيجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم ؛ ولو أن الأمر انعكس وأطاعهم لناهم من طاعته إياهم غنت وجهده ، ومشقة وهلاك ؛ ولكن ذلك لا يكون ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم منصبه ، لا يتبع إلا ما يوحى اليه من ربه ، وهذا مبدأ معروف لم يجز حديث عنه فى الآيات ، ولأن جماعة المؤمنين بحكم إيمانهم لا يرضون ذلك ولا يطالبون به ، لأن الله حبب اليهم الإيمان بالله ورسوله ، وذلك يستدعى طاعة الله ، وطاعة رسوله ؛ وحسنه فى قلوبهم فهو لاصق بها ، وكره اليهم الكفر بالله ورسوله ، وكره اليهم الخروج عن الطاعة ، وركوب ما نهى الله عنه ؛ وقد جرت عادة القرآن أن يخاطب الجميع ولو كان الذى فعل الفعل البعض ، تنبيه على أن المسلمين يعدّون وحدة وإن كثرت الأعداد ، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع .

ومن المفسرين من حمل الفسوق على الكبائر ، والعصيان على الصغائر . وقد نقل عن ابن زيد : الفاسق فى كتاب الله كله : الكاذب . ولذلك حمل الفسوق على الكذب ، والعصيان على الإخلال بالآركان .

ثم وصف الله سبحانه من حبب اليهم الإيمان وكره اليهم الكفر ، على طريق الالتفات ، بأنهم الراشدون ، السالكون طريق الحق ، المهتدون اليه ؛ وبين أنه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم . وقد قيل : إن الفعل إذا نظر الى صدور من جانب الحق سمي فضلا ، وإذا نظر الى وصوله الى العبد سمي نعمة .

والله عليم : بأحوال الخلق ، وبالحسن منهم والمسيء ، ومن هو أهل لفضله ، ومن ليس أهلا للفضل . وحكيم : يضع الأشياء موضعا .



# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

وأصحابه إلى المدينة

بدء تأليف الأنصار للدعوة الإسلامية :

كانت يثرب ، وهي التي اشتهرت باسم المدينة ، يسكنها قبيلتان : بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادها وأحفادها من التنافس ما لا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يحاور هاتين القبيلتين بيثرب قبائل الجاليات اليهودية هاجرت من مواطنها ببلاد الدولة الرومانية هرباً بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم بُعثت على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قاداتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالفوا قريشا على أولاد عمهم الخزرج ، فارسلوا وفد منهم تحت قيادة إياس بن معاذ ، وأبى الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا في عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وقد أرساني الله إلى البشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فعارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلما جاء موسم الحج تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه ديناً لهم ، وقالوا لرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فان يروا رأينا في الإسلام فلا يكون رجل أعز لدينا منك ، ووعده باللقاء في الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قدم الى مكة اثنا عشر رجلا للتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ، واتفقوا معه على الاسلام ، وبأيعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوه في معروف . وقد سمي هذا الاتفاق ببيعة العقبة الأولى .

ولما أزمعوا العود الى يثرب أمحبهم النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير العبدري ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليذيعا الاسلام في القبيلتين ، ويدعوا اليه ، ويعلموا من يدخل فيه .

فنزله مصعب على أحد الذين بأيعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وأخذ يدعو الناس للاسلام . فلما نهي الخبر الى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين يفتنانا لترجرهما ؟

فنهض أسيد بن حضير يريدهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه .

فلما حاذهما قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعترلا إن كان لكما بنفسيكما حاجة . فقال له داعية الاسلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره ؟ جلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يقم من مجلسه إلا مسلما .

لما عاد أسيد بن حضير الى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا .

فاستشاط سعد غضبا وقام لهما بنفسه ، فقابله مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيرا وبركة ، فانه لما عاد لقي رجلا من بني عبد الأشهل وهم من الأوس وقال لهم : ما نعدوني فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه ، وسرعان ماعم الاسلام يثرب كلها ولم يبق لأهلها حديث غيره .

#### بيعة العقبة الثانية :

لما أقبل العام التالي لعام البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون من أهل يثرب ، فلقى النبي صلى الله عليه وسلم مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع ليلا عند العقبة ، فأمرهم أن يتلطفوا في المجيء ، وأن لا يشعروا بهم أحدا ، لكي لا يتنبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما

مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا الى مكان الاجتماع ، وما زالوا يحتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، ووافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعهم عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما أنصتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخي محمدا في منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا في ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه به من الحماية ، وما نعوذ ممن يتقصده بسوء ، فأتتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل إليه جهدهم . فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبي صلى الله عليه وسلم : خذ لربك ولنفسك ما أحببت . فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن التميمي : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهدا ، وإننا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : بل الدم الدم ، والهدر الهدر . أى إن طالبتكم بدم طالبت به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المبايعة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثني عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والنفت اليهم قائلا : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي .

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهاهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجه من أرضنا ، وتبايعونه على حربنا . فأنكر مشركوهم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شيء في ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أبي : ما كان قومي ليفتاتوا على بشيء من مثل هذا .

يثرب معقل الاسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج الى مدينتهم شاع فيها الاسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان بلغها من ممالأة أهلها للنبي صلى الله عليه وسلم صحيح ، وأدركت ما يبتنى على إغضاها عنه من الأحداث والكوارث ، فشددت الرقابة على رسول الله ، وزادت في التضيق على أصحابه لتحميلهم على الانقضاض من حوله . فأمرهم صلى الله عليه وسلم بالفرار بدنيهم الى المدينة ، فأخذوا

يتسللون اليها خفية ، حتى لم يبق في مكة غير أبي بكر وعلى وصهيب الرومي وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي ، فقال الصديق : وهل ترجو ذلك ؟ قال نعم ، فكش أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ في إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق السمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

#### مبادرة قريش الى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تكثف قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالغت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تقضى لا محالة الى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالها الى الاجتماع للمشاورة في دار ندوتهم ، على عاداتهم في الشئون الهامة ؛ وكانت هذه الندوة دار قصي بن كلاب .

فلما التأم جمعهم أخذوا يتآمرون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه . فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خرج فيوشك أن تجتمع عليه الجوع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عننا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نجبسه حتى يأتيه الموت . فعارضه بعض المؤتمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجيء أنصاره يثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأي عندى أن تشترك جميع بطون قريش وأنفاذها وعشاؤها في قتله ، بأن نندب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويزضون بأخذ دينه . فقبل جميع المؤتمرين هذا الرأي ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله الى رسوله بما بيته له قومه ، وأمره أن يهاجر الى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

#### نظرة علمية في هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفاصيل الهجرة النبوية ، وما احتموها من محاولات القرشيين في منعها وتعقبها ، رأينا أن نقف في هذا الموطن هنيهة للنظر في التعليقات التي أبدت لتفسير الاسلام الفجائي لقبيلتين لا تمانان بسبب الى أية دعوة دينية ، ولا يعنينا من أمر النهوض الاجتماعى للأمة العربية ما لا معنى غيرها . فاننا نرى أن تلك التعليقات ، حتى الاسلامية منها ، لا تنفع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية ، ولا تبين من حقيقة هذا الامر الجليل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة في هذا العصر الذى لا ينخدع أهله بالخلابات الكلامية .

إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يسجل تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية له مشبها، فان كان كل ما لا يمكن تعليله بعلة طبيعية يعتبر آية، فهو آية يزيدا مر الايام جلالات وعظما. ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعاً علمياً تصلح معه لأن تحلل الى عناصرها الأولية. وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السريان فى الديانة الاسلامية، وفى سرعة تلقف النفوس لها، والتأثر بها الى أقصى حدود التضحية، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى، وهو الاسلام، ومن صحة رسالة الداعى اليه، وهو محمد، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى.

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدونهم بقولهم لهم: إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب، فإذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم. فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للإسلام، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم، وقال بعضهم: لبعض هلم بنا اليه، لا يسبقنا الامرائيليون الى اتباعه. ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا الى تلبية نداءه، واضطلعوا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه.

هذا التعليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة، ويفرح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الاسلامية إلا أمورا عادية يمكن تعليلها بعلم طبيعية، لا يسلم من النقد، بل لا يقوى على احتماله، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الاسلام، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه، إلا بعد أن مضى على إعلان النبي صلى الله عليه وسلم له نحو ثلاث عشرة سنة، فأين كانوا من الاسلام طوال هذه المدة، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم اليه اليهود الذين توعدهم به، ولم أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة الى قبول دعوته، وقد بلغتهم بمكة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين كثيرة؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبي الجديد على مناهضهم؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبي فى بلاد العرب، وأنهم يعملون على الانضمام اليه، والاستنجد به، أكانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم الى الدخول فى دينه، ولم يعهد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود، ويبادرون الى الدخول فى دين جديد، وخاصة إذا كان الداعى

اليه مضطهدا، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا؟

كان ميلهم الى الدخول فى طاعته، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقوا بهم على

أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والنبي نفسه كان يطلب إليهم الحماية والنصرة على أعدائهم ، وليس لديه مال ولا عتاد يمكن الاعتماد عليهما ، فما يستحيل تعلقه ، وخاصة لأن الاتفاق معه بوقعهم في حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء في الوقت الذي كانوا هم فيه يريدون الاستكثار من الانصار بطلبهم محالفة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قابلهم ودعاهم للإسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج بادروا الى الاسلام للاستنصار بالنبي صلى الله عليه وسلم على أعدائهم ؟ لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء الثوريين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول في طاعته يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا مما لا يسيغه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ما جريات الحوادث على خلافه .

فأننى لقبيلتين جاهليتين أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطهدة ، مغلوبا على أمرها ، ولم يظهر بعد ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتاب ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترأى إليهما من أحاديث عامة اليهود في بلادها ؟ وأننى لأحاديثا أن يحصلوا إيمانا راسخا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويبذلوا أموالهم ، في سبيل نصرة ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعهد في طبيعة البشر ، فما ظنك به كله طفرة وعلى غير انتظار ؟

لننظر في تعليقات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال عهدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب المخرج منها بأي ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الاسلامية رأنا أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلوا في الدين الجديد ، ويعودوا الى سالف صفائهما بسببه ، فأقدا على ما أقدا عليه .

نقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الثمن يستجلبان عداوة قريش وحلفائها ، ومن يهيمه ملاشاة الدعوة الاسلامية من سائر العرب ، فتقعا في شر مما هربت منه ، وتصبحا هدفا لسخط العرب واليهود معا ؟

أما توهم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعنها فستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لضعف الأسباب كسبق حصان ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهى القيمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب آلهتها ، ويحقر ديانتها ، ويسف أحلامها ، ويتوعددها بالشر ، ويستهوئ الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أصنامها ، وأباد خضرها ؟

اللهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل الى جلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم في سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُنتقى بوسائل كثيرة ؟

الخيال في هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تنتحل لدخول الأوس والخزرج في الاسلام نجاة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام الى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الغارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق في الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذب نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكبرهوا أن يقيموا على وثنية منحطة كالتي كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا الى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القومى فكبرهوا أن يبقى العرب على الحالة القبلية إزاء أمم العالم ، وتاقوا لأن ينتقل مواطنوهم درجة أو درجات في سلم الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعوة دينية ، أو نعمة جنسية ، فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا الى التاكف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا في حالة يرجون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التناحر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه . ولم يعرف عنهم تهذب نفسى ، وتطور عقلى ، يدفعانهم الى تطلب غذاء روحى أرقى مما لغيرهم من سائر العرب . فاذا كانت قريش على كثرة صلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها الى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن يتصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لها حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير في الشؤون الدينية والاجتماعية . وهذه الأمم المتمدنة أمامنا متى وقعت في حرب تجردت للنضال ، وتركت هذه الشؤون جانبا ، حتى يجىء عهد السلام ، وتتفرغ للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتذرع بها متلمس التعليقات الطبيعية ، وهى أن قبيلتى الأوس والخزرج برمتا باليهود الى حد تلمس المخلص منهم من أى وجه كان ، فترامتا على الاسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لأننا رأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحي كانوا يرجون المخلص بالدخول في الاسلام وهو يحملهم أعباء حربية جديدة ، ويدفعهم الى التورط في منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن في تعليل مثل هذه الانتقالات الفجائية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيم الوجود تعلقّت إرادته أن يحدث في العالم الانسائي انتقالا جديدا ، بإرسال خاتم المرسلين اصطفاه من بلاد العرب ، أبعد بيئات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليكون أمره كله إعجازا في إعجاز ، فبث في رُوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول في عالم التطورات العقلية ، فقبلنا أن نضطلعا بعبء حماية الدعوة الإسلامية ضد الأبيض والأسود ، أى ضد العالم كله ، وهى مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فما ظنك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهلها خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى في ساحة الوغى أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لهما من المال ما تنفقانه على مثل هذا العسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة برمتها لخروجها عليها ، لا تعدت فرائص أشجع أبطالها ؟ بل إما هذه التوضيحية التي لا يقبلها إلا من وصل الإيمان إلى أضعاف قلبه ، حتى فنيت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج ولم يجتمعا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا لحظات مختلسة في الليالي المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع في خيره ، فما الذي جمعهم على التطوع لنصرته ، والتوضيحية بنفوسهم في سبيل دعوته ؟

اللهم إنى عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم في الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية ؟

محمد فريبر ومجدي

## التنزيه الخالص

قال الله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملائكة الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أتم » .

وقال على رضى الله عنه : « كل ما يتصور في الأوهام فإله بخلافه » .

وقال الشافعى رضى الله عنه : « من انتهض لطلب مدبره فإن اطمأن إلى موجود ينتهى إليه فسكره فهو مشبه ؛ وإن اطمأن إلى نفي محض ، فهو معطل ؛ وإن اطمأن إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد » .



# الوصية

## حكم الوصية بالمال وغيره

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « جاء النبي صلى الله عليه وسلم يَعودُنِي وأنا بمكة - وهو يكرهُ أن يموتَ بالأرض التي هاجر منها - قال : يرحمُ الله ابنَ عَفْرَاءَ ، قلت : يا رسول الله : أوصني بما لي كله ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر ؟ قال : لا ، قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تدَعَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكففون الناسَ في أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى امرأتك ؛ وعسى الله أن يرفعَكَ فينتفعَ بك ناسٌ ويُضَرَّ بك آخرون . ولم يكن له يومئذٍ إلا ابنة » . رواه البخاري في الوصايا .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الوصية وحكمها . (٢) بيان معنى الحديث إجمالاً . (٣) بيان ما تضمنه الحديث من الحث على الاقتصاد في المال حتى في عمل الخير مراعاة لحقوق الورثة .

(١) تطلق الوصية في اللغة على معانٍ ، يقال : أوصيت الى فلان بمال : جعلته له وخصصته به . ويقال : أوصيته بولده : استعطفته عليه . ويقال : أوصيته بالصلاة : أمرته بها . وتطلق لغة أيضاً على وصل الشيء بالشيء ، فيقال : وصيت الحبل بالحبل إذا وصلته به . ومناسبة هذا المعنى للمعنى الشرعي الآتي بيانه ، أن الموصي لما أوصى بالمال بعد موته كأنه وصل ما بعد الموت بما قبله في نفوذ تصرفه . وتجمع الوصية على وصايا ، على زنة هدية وهدايا .

وأما معناها في اصطلاح الفقهاء : فقد عرفها الحنفية بأنها « تمليك مضاف الى ما بعد الموت بطريق التبرع » . فقولهم : « تمليك » يشمل العقود التي تنقل الملكية ، كالبيع والهبة وغيرها . وقولهم : « مضاف لما بعد الموت » معناه أن الملك في الوصية لا يتقرر إلا بعد الموت ، بحيث لا يكون العقد نافذاً إلا بعد الموت . وهذا القيد يخرج جميع العقود ما عدا الوصية . أما قولهم : « بطريق التبرع » فانه لزيادة الإيضاح . وبعضهم أخرج به الإقرار بالدين

لأجنبي ، فلو أقر في حياته بدين لآخر ثم مات ، كان ذلك الإقرار تمليكا للدين بعد الموت . ولكن الواقع أن الإقرار ليس هو تمليكا للدين ، وإنما هو إظهار لما في الذمة من حق مملوك للدائن من أول الأمر ، فهو خارج بلفظ التمليك . ولا فرق في الموصى به بين أن يكون عينا أو منفعة . فإذا أوصى ببستان أو نقود أو غيرها فانه يصح ، كما إذا أوصى بمنفعة ذلك البستان من ثمر وغيره . ولا يشترط أن يصرح بلفظ الوصية ، كما لا يشترط أن يضيفها الى الموت لفظا ؛ إنما الشرط أن يذكر لفظ الوصية أو ما يدل عليها . فإذا قال : لفلان ألف قرش مثلا من ثلث مالي ، فان ذلك يكون وصية ؛ أما إذا قال : من نصف مالي أو ربعه ، فان ذلك لا يصح ، لأن الوصية لا تكون إلا من ثلث المال ، فلا دلالة في مثل هذه العبارة على الوصية .

وهذا التعريف قد وافق عليه بعض محققى المالكية بنصه ، ولكن المشهور في نص تعريف الوصية عندهم هو أنها « عقد يوجب حقا في ثلث مال العاقد يلزم بموته ، أو يوجب نيابة عنه » . ومعنى الجزء الأول من هذا التعريف متفق عليه بينهما ، لأنه عبارة عن تمليك مترتب على عقد التبرع بمال بعد الموت ، ولا يكون ذلك العقد لازما إلا بعد الموت . ومعنى الجزء الثانى وهو قولهم : « أو يوجب نيابة عنه » أن عقد الوصية كما يوجب حقا في ثلث المال بعد الموت كذلك يوجب نيابة عنه في التصرف في بعض الأمور بعد الموت ، كأن يوصى بأن يقوم شخص على أولاده الصغار بعد الموت ، أو يزوج بناته ، أو يفرق ثلث ماله ، أو يقوم بتجهيزه ودفنه بصفة خاصة ، أو نحو ذلك . والوصية بهذا المعنى تكون إيصاء بمعنى إقامة الوصى . فالوصية عندهم عقد يوجب حقا في مال المتوفى ، أو يوجب النيابة عنه في بعض الشؤون . والمالكية يشترطون في صيغة الوصية أن تكون مشتملة على ما يدل على الوصية من لفظ صريح : كأوصيت ، أو غير صريح ولكن تفهم منه الوصية بالقرينة : كأعطوا لفلان كذا بعد موتى .

أما الشافعية فقد عرفتوا الوصية بأنها « عقد تبرع بحق مضاف الى ما بعد الموت » سواء أضاف ذلك التبرع الى الموت لفظا أولا . ويشترط عندهم أن تكون بلفظ يدل على الوصية صريحا أو كناية ، فمثال الصريح : أوصيت بكذا لفلان ، أو أعطوه كذا ، أو هذا المال لفلان بعد موتى ، أو هو له هبة بعد موتى ؛ فكل ذلك ونحوه وصية صريحة . وأما الكناية فكان يقول : لفلان كذا من مالي ، ولم يذكر بعد الموت .

ومالا خفاء فيه أن الوصية تطلق في اللغة على الإيصاء بمعنى إقامة الوصى ، كما تطلق على ما يوصى به من مال أو غيره . وهذا المعنى لم يختلف مع المعنى الشرعى في الواقع ، لأن الشارع يعتبر إقامة الوصى وصية ، كما يعتبر العقد الذى يدل على تمليك الموصى به شيئا من مال أو غيره وصية . فإذا لوحظ هذا المعنى كان متفقا عليه عند الجميع . والحنفية يقولون :

إن لفظ التملك الذي ذكر في التعريف يتناول تملك المال وغيره ، ولا فرق في هذا بين تملك وصى أو غيره .

أما حكم الوصية : فقد اتفقت الأئمة الأربعة على أن الوصية ليست بواجبة ، ولكن قد تكون واجبة لأمر خارج عنها ، وذلك كما إذا كان عليه دين أو عنده ديدة يخشى أن تضيع على صاحبها فانه يجب عليه أن يوصى بردها الى صاحبها ، كما يجب عليه أن يوصى بسداد دينه ولو كان مؤجلا . فالوصية إنما تجب إذا أريد منها أداء حقوق الغير الواجبة . وإنما تجب في هذه الحالة إذا عجز عن تنجز ما عليه ، ولم يكن لصاحب الحق مستند يمكنه أن يثبت به حقه . وقد تكون الوصية مندوبة ، وذلك فيما إذا رجا منها كثرة الأجر . وتكون مكروهة إذا لم يرج منها كثرة الأجر ، وذلك كأن يكون انتفاع الورثة بها أكثر . وتكون مباحة إذا استوى عنده الأمران . وتكون محرمة إذا ترتب عليها إضرار بالورثة ؛ فقد روى عن ابن عباس أن الإضرار في الوصية من الكبائر . على أن بعض المجتهدين يقول إن الوصية واجبة على أى حال ، بحيث إذا كان لدى الشخص مال فانه يجب عليه أن يوصى . ومن هؤلاء داود وإسحاق . واختار هذا القول أبو عوانة الاسفراينى وابن جرير وغيرهم . ولكن جمهور المجتهدين يرى أنها ليست بواجبة ، حتى قال بعضهم : إن الإجماع قد انعقد على أنها ليست بواجبة سوى من شذ . وبذلك تعلم أن الموصى له هو ما قررناه لك من أنها تارة تكون واجبة ، وتارة تكون محرمة ، وتارة تكون مندوبة .

ولنذكر هاهنا أمثلة مما تصح الوصية فيه . ولما لا تصح عند الأئمة الأربعة : فتصح الوصية بالحج باتفاقهم جميعا ؛ فإذا أوصى شخص بأن يحج عنه بعد موته ، فإن وصيته تصح ، ويجب تنفيذها من ثلث ماله . وبعض أئمة الحنفية يرى أن من لم يحج حجة الفريضة فانه يجب عليه أن يوصى بها .

ولا تصح الوصية بقراءة القرآن على القبور أو في المنازل ، وتقع باطلة عند الحنفية . هذا إذا لم يعين شخصا يقرأ على قبره أو في منزله ، كأن يقول : أوصيت لمحمد أو لعلى أن يقرأ على القبر الذى أدفن فيه ، ونحو ذلك ؛ فإذا عين شخصا يقرأ فان في ذلك خلافا ، فبعض الحنفية يقول : لا تصح الوصية أيضا مع هذا التعيين ؛ وبعضهم يقول : إنها تصح بشرط أن يأخذ المال الموصى به بطريق البر والصلة ، لا بطريق الأجرة على القراءة .

ومثل الوصية بالقراءة ، الوصية بالتهليل ( العتاقة ) المعروفة عند الناس ، فإن الوصية بها باطلة إذا لم يعين شخصا ؛ فإذا عين شخصا ، جرى فيها الخلاف المتقدم . وقد خالفهم في ذلك المالكية والشافعية ، فقالوا : إن الوصية لمن يقرأ على القبر أو في المنزل تصح ، ويجب تنفيذها ، كالوصية بالحج ، لا فرق في ذلك بين أن يعين الشخص الموصى له أو لم يعينه .

ولا تصح الوصية بالبناء على القبور ، فإذا أوصى بأن يشيد على قبره بناء تقع الوصية باطلة بلا خلاف . نعم تصح برم القبر الذى يوضع فيه الجسم إذا تهدم بشرط أن لا يبنى عليه بناء مرتفع كالمنازل مما يفعله الناس فى زماننا . نعم تصح الوصية ببناء ما يميز القبر ؛ وحدته بعض الأئمة بمقدار شبر ؛ وبعضهم بمقدار ذراع ، ونحو ذلك .

ولا تصح الوصية بأن ينقل من الموضع الذى مات فيه الى موضع آخر ؛ وإذا نقله الوصى وأنفق عليه يكون ملزما بما أنفقه من ماله لا من التركة ، إلا إذا أجازته الورثة . وإذا أوصى بأن يدفن فى داره بطلت وصيته ، إلا أن تجعل داره مقبرة للمسلمين .

وإذا أوصى بمبلغ كبير يشتري به كفنه فإنه لا يعمل به ، ويكفن بكفن المثل .

وإذا أوصى بمصاحف توضع فى المسجد ، فإن وصيته تكون باطلة عند أبى حنيفة .

وبالجملة : فالوصية لا تصح إلا إذا كانت متعلقة بأمر من الأمور التى يحيزها الشارع .

(٢) هذا معنى الوصية وحكمها . أما شرح ألفاظ الحديث فظاهرة ، لأن سعد بن أبى وقاص سافر من المدينة الى مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فرض سعد بمكة مرضا شديدا حتى ظن أنه سيموت بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، ويود أن يموت بالمدينة التى هاجر اليها ، فعاده النبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : يرحم الله ابن غفراء ! يريد به سعد بن خولة ، وغفراء اسم أمه على التحقيق ، وخولة اسم أبيه ؛ وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم ، لأن سعد بن خولة توفى بمكة بعد أن هاجر الى المدينة ، فكان عليه الصلاة والسلام يرثى له ، وقد ذكره لمناسبة كراهية سعد بن أبى وقاص الدفن بمكة .

وقوله : « إنك إن تدع » بكسر إن على الشرطية ، وجواب الشرط قوله « خير من أن تدعهم » ، ولا يضر حذف الفاء من الجواب ، لأن ذلك قد ورد عن العرب ، بل ورد فى كلام رسول الله حيث قال : « البينة والإحد<sup>ث</sup> فى ظهرك » . وقوله : « عالة » جمع عال ، ومعناه الفقير ، تقول : عال فلان يعيل ، إذ افتقر . وقوله : « يتكففون الناس فى أيديهم » : يسألون الناس بأكفهم ؛ يقال : تكفف الناس : إذا بسط كفهم للسؤال ، أو سأل وضع الصدقة فى كفهم ، أو سأل كفهم طعام . وقوله : « فى أيديهم » معناه بأيديهم . وقوله : « وعسى الله أن يرفعك » معناه : يطيل عمرك . وبذلك تعلم أن قوله فى الحديث : « وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها » المراد به سعد بن أبى وقاص راوى الحديث ، وكان الظاهر أن يقول : وأنا أكره أن أموت بالأرض التى هاجرت منها ، ولكنه عبر بهذه العبارة بطريق الالتفات . والدليل على ذلك ما صرح به فى حديث آخر رواه البخارى ، وإن كان يحتمل هنا أن الضمير عائد الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها كما يكره سعد . وقد تحقق إخبار الرسول

صلوات الله عليه بذلك ، فان سعدا قد عاش بعد ذلك طويلا ، حتى إنه قاد الجيش الذي فتح مدائن كسرى في عهد سيدنا عمر ، ورزق أولادا كثيرين نحو عشرة من ذكور وإناث .

( ٣ ) أما بيان ماتضمنه الحديث من مراعاة حقوق الوارث فأمره ظاهر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان دائما يحث الناس على أداء حقوق من يعولون . وقد ورد حديث صريح في ذلك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول » . وهذا الحديث الذي معنا صريح في ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك » . فهذا صريح في مراعاة حال الورثة الذين يتركهم بعده . وإذا كان الشارع قد أمر بمراعاة حال الورثة في أعمال الخير والبر ، فمن باب أولى مراعاة حالهم في الإئتمان ، فليس من الحسن أن تستهوى الشهوات المرء فتسوقه الى تبذير المال وإنفاقه ذات اليمين وذات الشمال حتى ينفد ويترك ورثته في ضنك وبؤس وشقاء ؛ ومن يفعل ذلك كان آثما لا محالة ؛ ولا بد أن يسأل عن ذلك يوم لا تنفعه الشهوات التي قد انقضت كأنها لم تكن ، ويدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يجوز ابن آدم الصراط حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » ؛ وقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . فالخير كل الخير أن يعمل الانسان بقوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ؟

عبد الرحمن الجزيري

## قيمة العلم عند المسلمين

قال الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ؛ ولغدوة في طلب العلم أجدر الى الله من مائة غدوة ؛ ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ؛ ومن مات وميراثه الحابر والأقلام دخل الجنة » . وقال على رضى الله عنه : « أقل الناس قيمة أقلهم علما » .

وقال سهل بن عبد الله التستري : « ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل » .

فقل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل .

وقال على رضى الله عنه : « الحكمة ضالة المؤمن فالتقها ولو من أفواه المشركين » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتي في شيئين : ترك العلم ، وجع المال » .

## مكان الزكاة في الاسلام

### من الشئون الاجتماعية

إن للمجتمعات شئونها بإصلاحها تصلح المجتمعات ، وبفسادها تقسد المجتمعات ؛ ولا نعلم أمة عنيت بشئونها الاجتماعية ، فأصلحتها وركزتها على نظم قوية مثمرة ، إلا تماسكت حياتها ، واضطردت عزتها ؛ وكذلك لا نعلم أمة أهملت تنظيم شئونها الاجتماعية إلا تمكنت منها روح القوضى ، وتأخرت في مضمار التسابق الاجتماعي ، ثم عاجلها الله بالفناء أو الذل والاستعباد : « فأما الزبد فيذهب جفاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

هذا مبدأ شهد به التاريخ ، وأرشدت اليه المثلثات ، ولقت اليه القرآن ، ونوه به في غير آية : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .

بهذا المبدأ آمن حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر ، الذي تغذى بلبان الإصلاح النقية ، فرأى ، حفظه الله ، أن صلاح أمته لا يكون إلا عن طريق إصلاح شئونها الاجتماعية ، فأنشأ لأول مرة في تاريخ مصر حديثه وقديمه ، وزارة حملتها تنظيم هذه الشئون ، على وجه تتخذ به الأمة سبيلها الى الحياة الطيبة والعيش الرغيد .

ويسرنى ، كما يسر المصريين جميعاً ، أن هذه الوزارة تؤمن بأن لكل مجتمع طابعا خاصا ، ترسمه له قوميته الخاصة التي يكونها دين المجتمع ، ولغته ، وتقاليده الطيبة ، فتقدر أن إصلاح الشئون الاجتماعية لكل مجتمع لا بد أن يكون بإيحاء القومية الخاصة لذلك المجتمع ، وأن إيحاء القوميات المختلفة بطرق الإصلاح الاجتماعي ، لا يمكن أن يكون واحدا في جميع المجتمعات ، فأصلاح اجتماع غربي لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع شرقي ، وإصلاح اجتماع غير متدين لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع متدين .

على هذا الأساس يجب أن تستقبل وزارة الشئون الجديدة عملها ، فتتجه الى الإيحاء القومى فيما يختص بالدين الى أهل الدين ، وفيما يختص بالأخلاق والتقاليد الى أهل الأخلاق والتقاليد ، وفيما يختص بالصحة والنشاط البدنى الى أهل الصحة والنشاط البدنى ، وفيما يختص بالاقتصاد والتدبير الى أهل الاقتصاد والتدبير .

وهذا تتنوع لجان العمل ، وتمثل فيها طوائف الاخصائيين في الشؤون الاجتماعية ، بعناصر تبدى إيماء قوميتنا الخاصة ، كل فيما يختص بدائرتها .

ويجب أن يكون هذا عهدا بين الوزارة وهذه العناصر ، يوجب أولاً على هذه العناصر أن تعمل جهدها مخلصة في تحرى إيماء القومية الخاصة ، ويوجب ثانياً على الوزارة ، إذا ما تحققت من صلاح المقترح ، أن تعمل بكل ما منحت من إمداد مليكها المصلح ، على تنفيذ ذلك المقترح ، وإسداء نفعه وخيره للبلاد .

وليجعل الجميع نصب عينيه قوله تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وقوله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

وعلى هذا الأساس أتحدث عن مكان الزكاة الاسلامية من الشؤون الاجتماعية ، وبعبارة أخرى : عن الصلة التي وضعها الاسلام لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، والمصالح العامة التي تتوقف عليها نهضة الأمة وتقدمها . ويجب أن نعلن هنا أن الاسلام ليس ديناً روحياً فردياً ، تنحصر مهمته في صرف الإنسان عن دنياه الى أخراه ، وإنما هو دين اجتماعي قبل كل شيء . . . دين له في كل شأن من شؤون الاجتماع تنظيم تقصر دونه عقول الحكماء والفلاسفة ، دين مهمته أن يأخذ بالإنسان الى السعادة في الحياتين ، وأن يوجهه الى العمل للدنيا كأنه يعيش أبداً ، وإلى العمل للأخرى كأنه يموت غداً : « من كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » . دين يرى أن سعادة الآخرة من سعادة الدنيا ، وأن سعادة الآخرة تتطلب قوة في الحق ، ونهضة في العمل الصالح ، ورغبة في عمل الخير ، وأن من كان في هذه الدنيا أعمى عما تتطلبه الآخرة فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . . .

وسيمثل المسلمون في جميع بقاع الأرض حيارى مضطربين ، الى أن يفهموا علاقة دينهم بالحياة الاجتماعية ، ويستقبلوا تعاليمه ، ويتخذوها عدّة في حياتهم ، وطريقاً لسعادتهم .

وهذه الزكاة ، التي جعلها الاسلام عبادة من العبادات ، وركناً من أركان الدين ، سيري فيها حضرات القراء أن الاسلام حتى في عباداته لم يكن إلا تهذيباً للفطرة الانسانية ، وتنظيماً لشؤون الجماعة .

بني الاسلام في العقيدة والعبادة على أركان خمسة : التوحيد ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . ويطول بنا القول إذا بيتنا علاقة كل هذه الأركان بالشؤون الاجتماعية . ونجتزئ الآن بأن التوحيد هو الركن القلبي الذي يشاد عليه صرح الخير كله . والصلاة والصوم ركنان بدنيان قصد بهما إعداد النفوس لعمل الخير ، والدعوة اليه . والزكاة ركن مالى قصد به تنظيم

شأن اجتماعي عظيم له خطره في حياة الأمم ، وأخلاق الأفراد ، وهو علاقة الأغنياء بالفقراء ، وبمصلح المجتمع .

قضت الحكمة الإلهية ، أن يكون الناس مختلفين في الدرجات ، متفاوتين في الغنى والفقر ؛ وقضت بأن يعيش بعضهم تحت ظل البعض ، يعمل له ، ويستمد رزقه من رزقه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ... »

وعلى هذا النظام الاجتماعي ، قامت الأعمال ، ودارت الحركات ، واشتدت المنافسات حول الحصول على العيش ، والارتقاء ؛ ولكن الشح الذي طبع عليه الإنسان جعل من اختلاف الناس في المواهب والاستعداد ، وتفاوتهم بالغنى والفقر ، سببا في مرض اجتماعي خطير : ذلك أنه شغل الأغنياء بأموالهم حتى أهملهم عن حق الفقير والمسكين ، والعامل والضعيف ، ونمت فيهم فكرة الأثرة والاستغلال ، وأحس الفقير بضيق في صدره أخذ يتلمس له طريقا للخروج فلم يجد سبيلا ، فتولد عنده حقد على الغنى لم يلبث أن انفجرت به صدور الفقراء نارا حامية يصطلبها أرباب الأموال ، وقاموا ينادون في بعض الأمم المتحضرة ، بالغاء نظام الملكية الفردية ، فاضطرب حبل الجماعة ، واختل توازنها ، وانهى الأمر بهم إلى إنكار الأديان والقوانين ، وأريق في ذلك دماء الملايين من النفوس البشرية . وما كان ذلك إلا نتيجة إهمال الغنى لحق الفقير ، واستغلاله لمنفعته الشخصية ... !

أما الاسلام فقد قدر ، وهو في أول مرحلة من مراحل الدعوة ، قبل تهيئة النفوس للنظم والقوانين — خطر إهمال حق الفقير ، كما قدر فوضى النظام وفساد الاجتماع إذا هو ألغى الملكية الفردية ؛ فأقر الملكية الفردية ، وأجرى سنة الكون في مجراها الطبيعي ؛ ثم وضع الطرق الواقية من شر الطغيان المالى ، القاضى بتحكم أرباب الأموال ، واستغلال الفقراء . وبهذا احتفظ بسنة القوانين ، وأصول الجماعات والحقوق الفردية ، وأمن في الوقت نفسه فتنة الفوضى الشيوعية ، فوقف وسطاً بين الإفراط والتفريط ، شأنه في كل تشريع : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وإني أحذركم عن مجمل المبادئ التى اتخذها القرآن في العهدين : عهد الدعوة بمكة ، وعهد التقنين بالمدينة ، اتخذها علجا لتلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة :

أعلن القرآن أن المال في يد الأغنياء ليس إلا وديعة الله ، استخلفهم في حفظه وإدارته ، وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة مفيدة : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

أشعرهم بالوحدة القومية الموجبة للتكافل والتعاون والإيثار ، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله : « ولا تؤولوا السوءاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً » .



حارب فيهم خلق الشح الذي يمنع من التراحم والبذل ، ومساعدة الضعيف : « وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، « إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ ، فَأَمَّا هَلَكٌ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشَّحِّ : أَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخُلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا » ، « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظِلْمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، « اتَّقُوا الشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ : حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ وَيَسْتَحِلُّوا حِمَارَهُمْ » . ولعلك لا تجد أصرح ولا أقوى من هذا التعبير في تصوير الخطر الاجتماعي الذي ينبعث من الشح بحق الفقير والمحتاج . والشحُّ بلا ريب من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الانساني ، وتقضى على حياة الأمم وصلاح العمران ؛ فهو يمنع التعاون والتراحم ، ويغرس الحقد ، ويولد ثورة النفوس ، ويرمى بالمجتمعات في الهوَّات السحيقة .

هدد الأغنياء إذا هم قصروا في حق الفقير ، واستغلوا حاجته لمنفعتهم الشخصية : « يَحْقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ » ، « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . « وَبِلَافْئَةٍ مِنْ الْفُقَرَاءِ ! » « إِنَّ الصَّدَقَةَ تُدْفَعُ بِالْبَلَاءِ » « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » . وإنا لنجد تفسير هذه الحرب التي آذن الله بها المستغلين ، وتفسير ذلك الويل الذي يصيب الأغنياء من الفقراء ، وتفسير ذلك البلاء الذي تدفعه الصدقة ، وتفسير مصارع السوء التي تقي الانسان منها صنائع المعروف ، ندع تفسير كل ذلك الى ما هو الواقع الآن في أُمم الحضارة من حرب الطبقات ، والى ما تنطق به الحوادث والوقائع ، فانه أعظم مفسر يتلشى أمام روعته البيانية ، كل مقال وبيان .

حرك العواطف ، ونبه وجدان الى العطف الانساني ، والعدة عليه بالثواب والحياة الطيبة . وحسبك في عناية القرآن الكريم بالفقير والمسكين ، والحث على إطعامهما ، والقيام بكفائتهما ، أنك لا تكاد تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر للفقير والمسكين ، أو ذكر لأحدهما .

جعل لها حقا في الصدقات المفروضة (١) ، جعل لها حقا في الغنيمة (٢) ، جعل لها حقا في الفئ الذي يمكن الله منه جماعة المسلمين من غير قتال (٣) ، جعل لها حقا في المال إذا اقتسمه أربابه بمحض منهم (٤) ، جعل لها كفارة اليمين (٥) ، جعل لها كفارة اعتداء المحرم على الصيد (٦) ، جعل لها كفارة الظهار (٧) ، جعل لها فدية الإفطار في نهار رمضان (٨) .

(١) ارجع الى الآية ٦٠ من التوبة (٢) ارجع الى الآية ٤١ من الانفال (٣) ارجع الى الآية ٧ من الحشر (٤) ارجع الى الآية ٨ من النساء (٥) ارجع الى الآية ٨٩ من المائدة (٦) ارجع الى الآية ٩٥ من المائدة (٧) ارجع الى الآية ٢ من المجادلة (٨) ارجع الى الآية ١٨٤ من البقرة .

وقد بين الحكمة الاجتماعية السامية ، في إعطائهم هذا العطاء ، وهي الخوف من أن يستأثر بالأموال طائفة الأغنياء يتداولونها في أيديهم خاصة ، فيثير الفقراء عليهم حربا طاحنة ، وذلك قوله في آية النى : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ثم يجعل العطف عليهما بعد ذلك ، والقيام بحقهما ، من خصال البر الدالة على صدق الإيمان والتقوى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » .

ثم يمتدح الصدقات بوجه عام ، ويبين أنها خير للجماعة غير محدود ، أعلنت أم خفيت : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » .

ثم يبالغ فى الوصية باليتامى والمساكين ، فيقرنها بتوحيد الله والإحسان الى الوالدين ، فى غير آية ؛ اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين » ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا » . ثم يقول : « وآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل » .

ثم ينبه الناس على ما يصرفهم عن مراعاة حق الفقير والمساكين ، فيذكر البخلاء ، والآمرين بالبخل ، ويذكر العذاب المهين ، الذى أعد للكافرين الذين خلت قلوبهم من الرحمة : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا » .

ولما كان التبذير من أسباب فقدان المال وحرمان الفقير ، شدّد التنكير على المبذرين ، وبين سوء عاقبتهم ، فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . ومخافة أن يحمل ذلك البيان على التقدير فيمنع حق الفقير ، أرشد سبحانه الى الطريق المعتدل فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ثم تعالوا واستمعوا بعد ذلك الى القرآن ، وهو يعتبر أن إطعام الفقير والمساكين هو العقبة الوحيدة ، التى إذا اقتحمها الانسان وصل الى السعادة الحقة ، التى لا يشوبها تنغيص ولا ألم : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ : فَكُّ رَقَبَةٍ ، أو إطعام فى يوم ذى مَسْعَةِ ، يتما ذا مَقَرَّةً ، أو مسكينا ذا مَتَرَبَةٍ » . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة » .

حسب الفقير أن الله لم يذكر فى كتابه شأنا من الشؤون باسم العقبة إلا فى هذا الموضع ،

موضع تنظيم علاقته بالغنى ، فافقرءوا القرآن وتبعوه لتعلموا مقدار حذب القرآن على الفقير والمحتاج والضعيف .

اسمعوا قول الله فيمن لا يحض على طعام المسكين ، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين ، الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ . فذلك الذي يدعُ اليتيمَ . ولا يحضُّ على طعام المسكين . فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

اسمعوا قول الله في المجرم الذي يصيبه خزي الله ونكاله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعامٌ إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » .

اسمعوا قول الله فيمن يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله : « والذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » .

اسمعوا قوله في أرباب الأموال الذين لا يقومون بحق الفقير والمسكين : « كلا ! بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون الثراثَ أكلاً مآاً . وتحبون المالَ حباً جماً . كلا إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجاء يومئذٍ بيهم ، يومئذٍ يتذكرُ الإنسانُ وأنى له الذكرى . يقول ياليتنى قدمتُ لحياتى . فيومئذٍ لا يعذبُ عذابه أحد . ولا يؤثقُ وثاقه أحد » .

ثم تعالوا واسمعوا جواب المجرمين حين يسألون يوم القيامة : « ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين » . . .

وأخيرا تعالوا واسمعوا قول الله في أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهمهم عن حق الفقير والمسكين : « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لتروُنَّ الجحيم . ثم لتروُنَّها عين اليقين . ثم لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم » . . . هذا نزر قليل من علاج القرآن لمشكلة الفقير مع الغنى .



حرك عواطف الأغنياء بكل الطرق ، وأرهف وجدانهم ، واستدر عطفهم على الفقير والمسكين ، إصلاحا لهم وللمجموعة ، تارة بالترغيب ، وأخرى بالترهيب . وبعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهبأت النفوس للقوانين والنظم ، وضع للفقراء حقوقا كورد دائم .

وضعه في الكسفات ، والاجزية على الأخطاء التي يرتكبها الانسان في حياته الشخصية أو عباداته ، وضعه في الزكاة فرضا من الفروض الدينية ، ينفذه بالقوة ويقاقل من امتنع من أدائه ، وضعه في الذهب والفضة ، وفي البضائع التجارية ، وفي المواشي ، وفي الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وتسعف المسكين والفقير ، وتصلح شأنه ؛ بنسب يفوق مجموعها مجموع ما يصرفه أغنيائنا في ترفهم وبذخهم في البلاد الأجنبية كل عام من غير فائدة تعود عليهم وعلى أمنهم .

وقد كان للزكاة في صدر الاسلام نظام خاص ، وكان للحكام بها عناية خاصة في جمعها وصرفها . كانوا يجيزون الجيوش ، ويدفعون المغارم ، وينألفون قلوب الضعفاء ، ويعينون المحتاجين . أما اليوم فقد خف عن كاهل الزكاة كثير تصرفه الدولة من مواردها الخاصة على المصالح العامة ، كالجيش والتعليم ، ولم يبق ما يخشى شره ، ويهدد العالم بشورته سوى الفقير وحاجته .

فهل للأغنياء أن يخرجوا هذه الزكاة الواجبة عليهم ، ويصرفوها في مصالح الفقير ، فيسئلوا بها حقده عليهم ، ويصير عونا لهم ، يحرس أموالهم ، ويعمل على تنميتها ، حتى يرفرف على الجميع علم الطمأنينة والسلام ؟ !

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم ، وينشئوا بها المصانع والمستشفيات التي لا تنفي موارد الدولة بإنشائها ، فتطهر الأمة من جراثيم المرض ، ويخفف عنها ضغط هذا الجيش العاقل الذي تبدو ككتائبه في المتسولين الذين يملأون الشوارع والأزقة ، وفي المتشردين الذين يهددون الأمن ، ويقلقون راحة الجميع ، وفي المتعالمين وأنصاف المتعالمين وأشباههم ، مما تظالعنا بأحصائهم في كل عام نتائج الامتحانات ، وكشوف المنقطعين عن طلب العلم ؟ !

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم فيصلحوا من شأن هؤلاء ، ويوجدوا منهم رجالا عاملين في الحياة ، يشعرون بالعزة والكرامة ، ويشعرون بأنهم أعضاء حية من الأمة لها يعملون ، وعنها يسألون ؟ !

هل لهم أن يضعوا أيديهم في يد وزارة الشؤون الاجتماعية ويتضامنوا معها على إخراج نظام خاص للزكاة والصدقات ، به ينشئون البلاد من خطر الفقر والعاقل ، فتمتثل الجماعة على حياتها ، وتنتفع بأموالها وبنيتها ؟ !

إن الدين الاسلامي لم يترك فرصة لإحياء قلب الفقير إلا أمر بانتهازها . ولا يغيب عنكم أيها الأغنياء موقفه من الفقير عقب صيام رمضان ، في الوقت الذي تعدون فيه العدة لاستقبال العيد ، الذي جعله الله مظهر فرح شامل ، لم يفته أن أوجب صدقة الفطر توزع على الفقراء والمساكين ، فيكون لهم منها سلوة عما أصابهم من فقر ومسكنة .

فإذا قامت وزارة الشؤون الاجتماعية، تدعو الناس الى المبادرة باخراج زكاة الفطر إصلاحاً لشأن له خطره في المجتمع، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين، و واجب يحتمه عليها الاجتماع الصالح الذي تنشده وتعمل عليه . وإذا قامت تدعو الناس الى إيداع صدقاتهم في صناديق تشرف عليها جهات زهية، وتصرفه على الأمر التي أخنى عليها الدهر، ويمنعها الحياء من الظهور بمظهر السائل والمحروم، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين، و واجب يحتمه عليها المجتمع الصالح الذي تنشده وتعمل عليه . وقد ذكر الله الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض وأن الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف : « لا يسألون الناس إلحافاً » . وقد جاء في الاخبار الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل على صدقة الفطر ذلك الصحابي الجليل أبا هريرة، على الأسرة الكريمة التي يمنعها حيائها عن أن تسأل ... فلم تفعل وزارة الاجتماع إلا ترسمها خطة الصدر الأول في إعانة الفقير، والمحافظة على كرامته .



هذه مكانة الزكاة والصدقات من الشؤون الاجتماعية، وهي مكانة القطب من الرchy . وهذا هو موقف الاسلام من الزكاة والصدقات، وهو موقف يخفف من وطأة الأغنياء على الفقراء، ويبعث في الفقراء روحاً طيبة للأغنياء، ويهيئ للجماعة أن تنفع بهؤلاء وهؤلاء . وبعد : فليسمح لى حضرات الامراء، والأغنياء، والمفكرين، أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

إن التطور الفكرى المتناقض، قد تكاملت أسبابه، وبدت مظاهره، وصرنا به على ملتقى السبل، فإما أن نسير في سبيل الرأسمالية، كما يلوح في أفق الأغنياء، فنصطبها ناراً حامية من العاطلين والفقراء؛ وإما أن نسير في سبيل الشيوعية، كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء، فنصطبها تحريماً وتدميراً!! ولقد جاءنا من الانباء ما فيه مزدجر، وأرشدنا ديننا، وكتابه قائم بين أيدينا، الى السبيل السوى الذى يقينا شر هذه، وشر تلك، ويجعل الأمة وحدة متكافئة فى البر والتقوى : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

اللهم هل بلغت ؟ !! اللهم اشهد !

محمود شلتوت

## أنبل الأفعال الإسلامية

لعل مما يستلفت النظر ، ويبهز العقول ، من غيث الرحمة الإسلامية ، الذى أدرك العالم ، وقد مزقه الفساد ، وقوضته النفوس فى كل شئ : فى الأنفس ، والأعراض ، والأموال ، ولوث النفوس فيه داء الأثرة ، والطمع ، ورذيلة الغدر والخيانة ، الى غير ذلك من عوامل الفناء والشقاء ، نقول : إن أنبل ما يبهز العقول مما جاء به الاسلام من الأخلاق ، المحافظة على العهد ، والصدق فى احترام المواثيق ، والتحذير من نكثها ، والوعيد الشديد على الخيس بها ، والحنث فيها ، لتصفو العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وتطمئن النفوس ، وتحسن الصلات بين الأمم ، وتسير فى جو كله هدى ونور ، لا غدر فيه ولا خيانة ، فيتسع بذلك طريق الحق ، يسبح كيف يشاء ، وأنى شاء ، يعمر البلاد ، ويصلح العباد .

مرت على الإنسان دهور طويلة ، وتقلبت عليه أطوار وأحوال ، وغشيتة غواشٍ ، وأحاطته أحداث ، وحالج إنقاذه مصلحون كثيرون ، وأرسل الله رسلا مبشرين ومنذرين . . . فأى دين من الأديان ، أو شريعة من الشرائع ، عنيت عناية الاسلام بالمحافظة على العهود والمواثيق ؟ فهذا كتابه الكريم ، يجعل حفظ العهد من دعائم الفلاح والسعادة ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الى قوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وها هو ذا رسول الاسلام ، يرفع من شأن المحافظة على العهد ، واحترام الميثاق ، فيوجب على جميع من يدينون به أن يحترموا عهدا أعطاه للأعداء أقل رجل مسلم ، وتوعد بالشقاء فى الدنيا ، والعذاب الشديد فى الآخرة ، من فرط فى ذلك ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى (١) بها أذنانهم ، فمن أخفر (٢) مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبلُ منه صرف (٣) ولا عدل » .

وقال أيضا : « ثلاثةٌ المسلم والكافر فيهن سواء : من عاهدته فوفَّ بعهدة ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها ، مسلما كان أو كافرا ، ومن أئتمنك على أمانة فأدها اليه ، مسلما كان أو كافرا »

فهل سمع العالم قديمه وحديثه ، بدين أو شرعة ساوت بين جميع أتباعها فى احترام عهودهم ،

(١) أى يتصرف فيها . (٢) أى نقض عهده الذى أعطاه لغيره . (٣) الصرف : التوبة . والعدل : الغدية . وقيل الصرف : الشفاعة ، والعدل : الغدية .

ووجوب تنفيذها ، ولم تفرق في ذلك بين عهد القائد والجندى ، والصغير والكبير ، والحر والعبد ، والرجل والمرأة ؟ فكل أولئك محترم عهده ، نافذ على جميع من عده من المسلمين . هذا فضلا عما تضمنه هذا المبدأ السامى من تربية ملكة الإحساس بالكرامة فى نفس كل مسلم ، وإيقاظ الشعور بعزة النفس ، والاعتداد بالرأى ، وتحمل المسئوليات ، فيقوى تفكيره ، وينضج رأيه ، وتسمو عن الصغائر نفسه .

فهل بَصُرَ المنصفون بهذا النبل فى الاسلام ، بعد ما ملأ أسماعهم ، وشَخَّصَ أمام أعينهم ، ما يزر به محيط العالم المادى اليوم ، من تهالك عبَاد المادة ، وعشاق السيطرة الغاشمة ، على تمزيق العهود بعد توكيدها ، وانتهاك حرمة الموائيق التى أغلظوا الأيمان على احترامها ، وسجلتها هياكلهم النيابية ، وأقرها وزراؤهم ؟ ! يرتكبون كل ذلك ، ويفخرون به إن رأوا وراءه مغنا ولو حقيرا ، وأحسوا بضعف صاحب العهد ، وفقدته القدرة على صد طغيانهم !! أما الكرامة ... أما الشرف ... أما العظمة الصحيحة ... فكل أولئك لا يقيم له وزن ، ولا يقدر له حساب !! ألم نشهد فى عصرنا هذا بعضَ مَنْ نفخه غرور القوة يقف على ربوة الاستهتار ، ويؤذن فى الناس بأن المعاهدات لا تعدو قصاصات أوراق لا يتمسك بها على غير ما تقع إلا الضعفاء ؟ ألم نر هؤلاء يعدون الغدر والخيانة من الكياسة ، والنظاير بالود وإضرار الكيد والإيذاء من السياسة ، حتى صار معروفا لديهم أن هناك معاهدات علنية ، ومن ورائها معاهدات سرية ، تنقضها عروة عروة ، وتهدمها لبنة لبنة ، وأصبح مقررا أن ليس للأقوياء أمان ، ولا لعهودهم حفاظ ، ولا لموائيقهم حرمة ؟ !

كل هذا والاسلام واقف فى هذا الجو المظلم ، أبيض ناصعا ، يتلو على الناس كافة :  
« وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » .  
خَرَّمَ على أتباعه أن يفاجئوا معاهديهم ، إذا أحسوا منهم خيانة ، أو يأخذوهم على غرة ، وأوجب عليهم إعلانهم بقطع العلائق ، وانقضاء حكم الميثاق ، حتى لا تكون هناك لمتوهم ظنة ، ولا لمتقول عذر . ثم يتلو :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا (١) ، تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (٢) بَيْنَكُمْ ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَلِكَيْبِئِنَّكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » .

(١) الانكاث : جمع نكث كعبل وأحال . والنكث : مانع من ليفزل ثانية ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان على تضمين نقض معنى جعل ، كما تقول : فرق الشيء أجزاء أى جعله أجزاء .  
(٢) الدخل بفتح الدال والحاء : الدغل والغش والخيانة .

فهل هناك نبل ومحو وراء هذا النبل وهذا السمو؟ كتاب يحفز أهله على الوفاء بالعهد، ويُشعرهم مراقبة الله وحسابه، ويحظر عليهم الدخّل، والغش، والخيانة في الإيمان، ويحذرهم من أن يكونوا عبيد القوة، فيعاهدوا هذا إذا كان قويا، وينبذوا إليه عهده إذا رآوا من هو أقوى منه، أو يحددوا خصومهم باليهود والإيمان حتى تحين لهم الفرص، فيتقلبوا عليهم أعداء.

كل أولئك خلال شر وضعة، حرّمها الاسلام على أتباعه، تنزيها لهم، وتشريفا لأقدارهم، ورفعوا لمزلتهم في نظر الكمال الخلقى، والحق والفضيلة، التي لا تقوى عوامل الهدم على النيل منها، مهما تقلبت الأحوال، أو تغيرت العادات.

وهل يتصور عقل، أو يخطر على قلب بشر، أن يبلغ تقديس العهد عند شرع من الشرائع حداً يتحتم فيه على المؤمن به أن يترك أخاه في الدين، وهو يستغث به ويستنصره، يلتمه ظلم الكافرين، وتنال منه قسوتهم تقتيلا وتشريدا، مع قدرته على نصرته، وصد عدوانهم عنه، وليس لكل ذلك من سبب سوى المحافظة على العهد الذى قطعه مع هؤلاء العادين، فلم يستطع منه فسكاكا، ولا عنه تحويلا؟

«وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير». ذلك لأن الاسلام شرعة لا تعرف الغدر والخيانة، ولا تقرر إلا السياسة العادلة التي يستوى فيها الاتباع والأعداء.

وإنما عنى الاسلام هذه العناية بالمواثيق والإيمان، لأنها غالبا تكون وليدة تفكير عميق توزن فيه الأمور بدقة، وتقدر بحساب، وينظر فيه الى العواقب القريبة والبعيدة، ويضحي فيه بنزوات النفوس وشهواتها.

وبالجملة، فالحكم فيه - غالبا - يسعى وراء المصلحة الحقّة، والعدالة المطلقة، بقدر الإمكان. فاذا لم يحصنها الشارع بما يحفظها، انطلق الشر من عقاله لاي بادرة ولو صغيرة، وجمحت سورة الغضب والطيش، وجلب الشيطان خيله ورجله، فزق الصلات، وقطع العلائق، وطاث في الأرض فسادا.

لكل ذلك يقول كتاب الاسلام، بعد أن أوصى وشدد بالمحافظة على العهود :

«إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

من كل هذا، ومن بعضه، نقف على قطرة من فيض فضل الله على الانسانية كافة، بهذا الشرع الحكيم، الذى انتفع به من آمن به ومن كفر، ومن أطاعه ومن عصاه، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

عبد الجليل عيسى

شيخ معهد شبين الكوم





(ثانيها) حذف رءوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيمة عليها .

(ثالثها) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضي في زعمهم .

ونحن نناقش هذا المذهب الحساب في كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم فحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التي تعمل على حفظ الانسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو الملكية الفردية ، فنناقض للوضع الطبيعي ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم الملكية ، لانهصار العناية في أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمنون على وجوههم في القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هودوا الى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الانسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وجدت الملكية ، فالملكية ترق عن حالة الشيوعية التي سبقتها ، وكما وجدت الملكية وجد الزواج ، ووجدت الحقوق والواجبات ، ووجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحواظفه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تركبه نشأت قوة تماسكه ، ومتانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركب كل ما للانسانية من حظ في البقاء والاستمرار والترقى الى أبعد الغايات . ومجرد النظر الى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركب الاجتماعى ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التي ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيدا من المدنية . فالملكية ترق عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زایلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناعاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحليل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه في دائرة الاستقرار الاجتماعى بالقهر والإرهاب ، ويكون هو في أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك ليفتزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون محو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التي لن يكون لها أثر يذكر في تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون في نفوس الأحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية في الفاقة

والعُدم ، ويُجرّم المجتمع من المشروعات العظيمة التي يتوق إليها ذوو الكفايات العالية طلبا للكسب .

ولا يعترض علينا بأن وجود الحكومة قيّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فاننا نرد هذا الاعتراض بقولنا : إن في قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لعاطفة الإقدام في نفوس الآحاد ، وإحالة للمجتمع الى حالة القصر الذي ارتقى عنه أمثاله من الجماعات ، فيصبجون في حاجة ماسة الى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضى بث العيون والأرصاد ، فيضحي بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فاذا مر على الأمة في هذه الحالة ربح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعي صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية في تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهو الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم في رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ، وهو وهم كبير لا يطوف إلا بروس الدين لا حظ لهم من العلم الاقتصادي . كتب العلامة الاجتماعي الروسي ( نوفيكو ) في كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر في العالم رأى كاد يعم الهيمنة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشأ أظفاره في الدهماء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياع هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدي المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الانساني في أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهني بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا . . . !

« ولكن الحال والأسفا ليست على ما يصفون ، فان الدهماء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التي تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجذوره في العالم ، لأن النوع البشري لم يعد الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذي يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التي تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ، وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ في المائة من دخله الحالي . وبما أن الناس لا يصلون الى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف

دخله الحالى ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الاغنياء على الفقراء . . . . فان العامل الذى يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو من الشكوى من الفاقة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر فى المائة التى تخصه من مصادرة أموال الاغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فإذا عسى أن تحسن هذه العالوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثانى فهو ناشئ من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكى ٨٣ مليوناً من الفرنكات فى السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكى ؟

« ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكتسب فى السنة التالية ٨٣ مليوناً أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصى ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الاغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فمن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد فى كل حين ؟ » .

ثم عمدا الأستاذ الروسى الى بيان العلاج العلمى فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشرى سيئة جدا ، وأننا فقراء لأن منحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافى من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاتنا بما هو ضرورى لنا ؟ إن كان الجواب إيجابيا وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمرا لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن فى قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازى ١٠٠٠٠ فرنك سنويا لكل منا فحسب ، ولكن فى قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن يباع الثروة فيها — كما قال الجغرافى المشهور ( البزيه ركوز ) — لا حد لها على الإطلاق » . انتهى

نقول : إذا كان هذا هو رأى العلمى فلا يكون لحذف طبقة الاغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس فى الصدور ، وشل ملكات الإقدام فى نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة فى إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكفاية بحالة من العدم تصل بالأمة الى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص المحلص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتى بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند الى أساس علمى ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخى النظام الاجتماعى ، وتحمل من ربطه ، وتذهب بجوافظه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها فى مناوأة الدين واعتباره سببا فى إثارة العداوات بين الأمم ؟

محمد فريد ومبرى

# حَيَاتُ حَبْلَاتِ سَبَاكِ

عبد الله بن العباس

تحدثنا في مقالاتنا السابقة عن حياة عبقرين من أساتيد مدرسة الاسلام الاولى الذين تخرجوا في مدارج الوحي ، فكانوا آية من آيات النبوة الخاتمة ، وشرعة من شرائع الهداية السامية ، ومعجزة من معجزات معلم الانسانية ورسولها الاعظم ، تحمل في مطاويها التحدي بها لفلاسفة العالم وحكائه وعلمائه وساسته ، وقادة الفكر في شرقه وغربه ، أن يأتوا بمثلها تكييفاً روح الايمان بالعتيدة حتى تكون صبغة الجيل وأمل الحياة في زمنها عن طريق القطرة الصادقة والعقل المستقيم ، ذاك هما : عمر بن الخطاب فاروق الاسلام ، وعلي بن أبي طالب بطل الاسلام .

والآن نحاول أن نجعل صورة جديدة لشخصية من طرز جديد في أساتيد تلك المدرسة المحمدية الخالدة ، هذه الشخصية عبت من بحر العبقرية الاسلامية ، وعلي أساتيدتها من رعي الانصار الأبرار وسادة المهاجرين الاولين تخرجت ، ومن منبع النبوة وفيض الوحي استقت ، ولكنها أخذت من الحياة بجانب العقل والفكر ، فانصرفت الى العلم ترويه وتحفظه ، وتبثه وتنشره ، جائلة في كنوز الاسلام وشرائعه ، وآدابه وتعاليمه ، غائصة في بحاره للتقاط درره ، ذلكم هو عبد الله بن العباس ، حبر الامة ، وعلم الاسلام ، وعلم العلماء ، وترجمان القرآن ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يحدثنا التاريخ أن عبد الله بن العباس رحمه الله ولد وبنو هاشم محاصرون في شعب أبي طالب ، أيام المحنة العظمى للدعوة الاسلامية ، بما تضافر عليها من اجتماع أنصار الباطل وحلفاء الوثنية ، حتى كانوا إلْباً على رسول الله وقومه ، لا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ؛ وكانت هذه الحادثة أشد مآلتي الهاشميون من أذى قريش في سبيل ذيادهم عن النبي صلى الله عليه وسلم عصبية له ، وكانت أيضاً أول بدء للنضال القوي الصارم في سبيل توطيد أركان الايمان بالعتيدة العتيدة ، ومناهضة موروثات الوثنية البالية عن طريق إيقاظ العقل وتخليصه من ربقة الاسر في أغلال التقليد البليد ، فانها كشفت عن روح التحكم الاستبدادي والعسف الآثم في مملكة قريش مع إختوتها وأبناء عمومتها ، حتى نهض بعض الآباة من أضراب هشام بن عمرو وزمعة بن الأسود وزهير بن أبي أمية وأبي البختری بن هشام والمطعم بن عدی ، ينكرون

على قريش شتمتها ، ويأبون إلا أن يعيش الهاشميون مع الناس يأخذون ويعطون ، ويحيون حياتهم الأولى في غير حرج ولا إغناات ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون الى طبيعة الحياة حتى نكبوا بموت زعيمهم شيخ قريش ونبيلها أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، والقائم دونه يحميه ويذود عن دعوته ، فكانت وفاته من أشد ما آلم نفس النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، ونفوس الهاشميين عامة ، لمكانة أبي طالب فيهم وفي عامة العرب .

كان طبيعيا بعد موت أبي طالب وانحياز أبي لهب الى جانب قريش ، أن يقوم العباس ابن عبد المطلب مقام أخيه أبي طالب في زعامة الهاشميين ، وكان مظهر الزعامة وقتئذ الوقوف في وجه قريش دفاعا عن محمد بن عبد الله ودعوته ، فعضد العباس الدعوة المحمدية كما كان يعضدها أبو طالب . وكتب السيرة مجمعة على رواية حضوره بيعة العقبة العظمى مع النبي صلى الله عليه وسلم مستوثقا له من اليتريين ؛ وكان العباس أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز اليكم والحق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتوه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مساميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه » . وتمت البيعة بحضور من العباس ، وفتح بها باب الهجرة الذي نفذ منه المسلمون الى جهاد عدوهم ونشر دعوتهم ؛ وعبد الله بن العباس لمّا يشبّ عن الطوق ، ولكنه يرى ويسمع ، والحوادث تتوالى في شدة وسرعة ، والآيات تترى ، والوحي يتتابع ، وشوكة الاسلام تقوى ، وكلّمته تعلو ، وساعده يشتد ، وأنصاره يكثررون ، ومكة العvisة تفتح ، وقريش الجاحجة تؤمن ، وسادتها تطيع وتسلم ، والعباس يؤمن ويهاجر ، والحجاج العقلي يتعاضم ، والعرب قاصيها ودانيها تقبل في وفود رءوسها مسامة لله مبايعة لرسوله عليه السلام .

هذه هي العناصر الحيوية ، والمقومات الطبيعية ، والمبادئ الاجتماعية ، التي كونت حياة عبد الله بن العباس حبر الأمة وبحرها ، وقد كان لكل ناحية منها أثرها في حياته ، ولكن حرصه على العلم كان أربى وأعمى نواحيه ؛ يحدث عن نفسه فيقول فيما يرويه عنه مولاه عكرمة : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم اليوم كثير ، قال : واعجبا لك ! أترى الناس يفتقرون اليك ؟ ! فترك ذلك ، وأقبلت أسأل ، فان كان ليبلغني الحديث عن رجل فأتى بابهُ وهو قائل ، ولو شئت أن يؤذن لي لأذن ، لكن أبغى بذلك طيب نفسه ، فأتوسد ردائي على بابهِ يسنى على الرّيح من التراب ، فيخرج فيراني ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ماجاء بك ؟ هلا أرسلت اليّ فأتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن أتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد

اجتمع الناس حولي يسألوني ، فقال : هذا الفتى كان أعقل مني . وفي هذا الحديث من ضروب التربية التعليمية وأدب التهذيب ما يرفعه الى أن يكون دستوراً لحياة طالب العلم الذي رزق همة نبيلة ، ففيه تصوير لمقدار الحرص على التعلم ، وفيه تصوير لأدب تلقى العلم ، وفيه تصوير لما يحتاج اليه طالب العلم من الصبر على لأواء الحياة ، وفيه تصوير لقيمة الاعتداد بالنفس ومضاء العزيمة ، فان ابن عباس لم يكن حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره ، فيما يجزم به الواقدي ، ومع ذلك فقد أبت همته أن يستصغر نفسه ، فدأب يسأل ويتعلم حتى بلغ هذا المبلغ الذي لقب من أجله بالبحر ، فيما يقوله مجاهد ، ويرويه البخاري عن جابر بن زيد « سألت البحر عن لحوم الحمر — وكان ابن عباس يسمى البحر » .

وقد حقق الله بما آتاه من العلم والحكمة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له ، فقد روى عنه أنه قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدي حتى جعلني حذاءه ، فلما أقبل على صلاته حبست ، فلما انصرف قال : ما شأنك ؟ فقلت : يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعاني أن يزيدني الله فيها وعلماً . وروى أنه بات عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم الى الخلاء فسكب له وضوءاً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من وضع هذا ؟ فقالت السيدة ميمونة : ابن عباس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . وكان عبد الله بن عمر يقول له : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك فمسح رأسك وتقل في فيك وقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقد عرف له أجلاء الصحابة وعلماءهم هذا الفضل ، فكان عمر بن الخطاب يحبه ويقدمه على الأكابر من المهاجرين ، فقالوا له : ألا تدعوننا كما تدعو ابن عباس ؟ فقال عمر : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول . ويقول عبد الله بن عتبة : كان عمر يأخذ بقول ابن عباس في العزل ، وعمر عمراً !! ويخبرنا ابن عباس عن بعض شأن عمر معه فيقول : قدم على عمر رجل فسأله عن الناس ، فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن آي القرآن ، قال : فزيرني عمر ، فانطلقت الى منزلي ، فقلت : ما أراني إلا قد سقطت من نفسه ، فبينما أنا كذلك إذ جاءني رجل فقال : أجب ، فأخذ بيدي ثم خلاصني ، فقال : ما كرهت مما قال الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فاستغفر الله ! قال : لتحدثني ، قلت : إنهم متى تنازعوا اختلفوا ، ومتى اختلفوا ضلوا . قال : لله أبوك لقد كنت أكنتمها الناس !

وكان على كرم الله وجهه يقول فيه : إنه لغواص . وينبئنا ابن عبد ربه في كتاب العقد أن ابن عباس قال لعلي يوم التحكيم : اجعلني أحد الحكمين ، فوالله لأقتلن لك حبلاً لا ينقطع وسطه



ولا ينتشر طرفاه ! فقال له على : لست من كيدك ولا من كيد معاوية في شيء ، لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق ، قال : وهو لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك تطاع اليوم وتعصى غدا ، وإنه يطاع ولا يعصى ! فلما انتشر عن على أصحابه قال : لله بلاد ابن عباس ! إنه لينظر الى الغيب من ستر رقيق . وسأل رجل عبد الله بن عمر عن آية ، فقال : انطلق الى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقى بما أنزل الله تعالى على محمد . وفيه يقول عبد الله بن مسعود : أما إن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد ، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس ! ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات خبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل من ابن عباس خلفا . وكان ابن عباس شديد الاجلال لزيد بن ثابت ، فقد روى الشعبي قال : ركب زيد ابن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعمائنا ، فقَبِلَ زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقد جمع ابن عباس من صنوف العلم وفنونه ما لم يكن لأحد من معاصريه ، لا يستثنى غير أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، حتى إن ابن سعد في الطبقات يروى أنهم كانوا يميلون بينهما فيقولون : « إن عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ، وكان على أعلمهما بالمهمات » . وما نظن هذا إلا لأن عليا شغلته السياسة عن الكلام في تفسير القرآن ، وابن عباس تفرغ له فأكثر ، ومهما يكن فإن ابن عباس تلميذ على أخذ عنه كثيرا . والشعبة يروون أن ابن عباس سئل : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . ويروى عن عطاء بن أبي رباح أنه قال : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها ، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع . وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجل الناس ، فإذا نطق قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس . وروى أنه قرأ سورة النور وجعل يفسرها ، فقال رجل : لو سمعت هذا الديلم لأسلمت ! وكان سعيد بن جبيرة يقول : كنت أسمع الحديث من ابن عباس فلو يأذن لي لقبلت رأسه .

وكان ابن عباس واسع العلم بلغة العرب وآدابها ، روى أبو العباس في الكامل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن عكرمة مولى ابن عباس قال : رأيت ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق - أحد رؤوس الخوارج - وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه : « والليل وما وسق » فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال نافع : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إف لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لويجدين سائقا



وسأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتك سراً » فقال ابن عباس : هو الجدول ، وأنشده :

سأما ترى الدالج منه أزورا إذا تعب في السرى هريرا

وسأله عن قوله تعالى : « عتَلَّ بعد ذلك زَينِم » ما الزينم ؟ قال ابن عباس : هو الدهى المزق ، أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زينم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وسأله عن قوله جل اسمه : « والتفت الساق بالساق » فقال ابن عباس : الشدة بالشدة ، وأنشده :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وسأله عن قوله عز وجل : « لهم أجر غير ممنون » فقال له ابن عباس : غير مقطوع ، فقال نافع : وهل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بني يشكر حيث يقول :

وترى خلفهن من سرعة الرّجـ ع منينا كأنه أهباء

ولم يزل به يسأله حتى أمّله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر . وطلع عمر بن عبد الله ابن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك ، فأنتبه فصيحه التي يقول في مطلعها :

أمن آل نعم فأنسى آل كرم  
بجاجة نفس لم تقل عذرا والمقالة تُعذر

حتى أكملها وهي ثمانون بيتا ، فقال له ابن عباس : يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الابل نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قریش فينشدك سفها فتسمعه ؟ ! فقال : ناله ما سمعت سفها ! فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فقال : ما هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخسر

قال نافع : أو تحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ، قال : فأنى أشاء ، فأنشده إياها ، فقال له نافع : ما رأيت أروى منك قط ، فقال ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من على .

وذكر المبرد فى السكامل أن عليا وجّه ابن عباس الى الخوارج لينظرهم ، فقال لهم : ما الذى تقمّم على أمير المؤمنين : قالوا : قد كان للمؤمنين أميرا فلما حكم فى دين الله خرج من الايمان

فليتب بعد إقراره بالكفر نَعُدُّ له ، فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة قد أشكت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته ، وكذلك الحكماء لما خالفوا نبذت أقاويلهما ، فقالوا : إذ كان على حق لم يشكك فيه وحكم مضطرا فما باله حيث ظفر لم يسب ؟ فقال ابن عباس : قد سمعتم الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في السباء ، أفكنتم سابين أمكم عائشة ؟ فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا : أمسك عنا غرب لسانك يا ابن عباس فانه طُلِقَ ذُلُقٌ ، غواص على موضع الحجة . وقد صدق الخوارج في وصفهم له ، فانه أوتي من البراعة في البيان وقوة الحجة ماسد عليهم مسالك الجدل مع قوتهم في الاحتجاج .

روى أن الخطيئة الشاعر نظر الى ابن عباس في مجلس عمر بن الخطاب وقد قرع بكلامه ، فقال : من هذا الذي نزل على القوم بسنه وعلام في قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس ، فأنشأ يقول :

إني وجدت بيان المرء ناقلة يهدي له ووجدت العي كالصمم  
المرء يبلى وتبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوما ولم يلم

وحدث شاعر الاسلام حسان بن ثابت قال : كانت لنا عند عثمان حاجة فطلبناها اليه بجماعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وكانت حاجة صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه الى أن عذروه ، وقاموا إلا ابن عباس ، فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة ، فلم يربدا من أن يقضى حاجتنا ، ففرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس ، ففررنا على أولئك الذين كانوا عذروا وضعفوا ، فقلت : كان عبد الله أولاكم بها ، قالوا : أجل ، فقلت أمدحه :

كفى وشفى ما في الصدور ولم يدع لدى إربة في القول جدا ولا هزلا  
سموت الى العليا بغير شبهة فنلت ذراها لا دنيّا ولا وعلا

وكان ابن عباس من علماء العرب ، فقد روى أن رجلا شتمه فقال له ابن عباس : إنك لتشتمنني وفي ثلاث : إني لأسمع بالحكم من حكام المسلمين يعدل فأجبه ولعلني لا أقاضى اليه أبداً ؛ وإني لأسمع بالغيت يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية ؛ وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم . والحديث عنه طويل الذيل نخسبنا هذه الصورة الإجمالية عن عبقرية لنتحدث عن إخوان

له جروا في شوطه

صاوي إبراهيم عمره

## بَابُ السُّئَالِ وَالْفَتَاوَى

### الضمان في المعاملة الربوية :

هل يجوز شرعا أن يضمن الانسان صديقا له عند أحد البنوك ؟

### الجواب :

إذا كان هذا السلف بفائدة فهو معاملة ربا، وقد حرم الربا على أخذه، ومعطيه، وكتابه، وشاهده، كما أشار الى ذلك الحديث الشريف ؛ فأولى أن يحرم على الضامن لأنه شريك في التعاقد .

### الصورة في مسجد بناء مسيحي - بيع السمك في البحر :

( ١ ) هل تجوز صلاة الجمعة في مسجد بناء مسيحي ؟

( ٢ ) هل يجوز بيع السمك في البحر وهو مجهول ؟

### الجواب :

( ١ ) مذهب الحنابلة والشافعية والحنفية لا يرى مانعا من صلاة الجمعة وغيرها من سائر الصلوات في المسجد الذي يبنيه مسيحي .

( ٢ ) لا يجوز في المذاهب الأربعة بيع السمك في البحر وهو مجهول .

### رضا الأب بتعميد ابنه :

مسلم تزوج مسيحية وقد سمح بتعميد ابنه منها، وتم بحضوره هذا التعميد، ثم هو يريه تربية مسيحية، هل هذا الأب يظل مع هذا العمل مسلما ؟

### الجواب :

التعميد والتنصير منافيان للإسلام، فرضا الأب بذلك يعد خروجاً عن الإسلام، ويكون الأب بعمله هذا كافرا غير مسلم .

### صدوق المتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، وميراثها:

توفى رجل صبيحة عقده على زوجة ولم يدخل بها ، فإذا تستحق من الصداق والميراث ؟

#### الجواب :

تستحق هذه الزوجة جميع صداقها المعجل والمؤجل ، ولها نصيبها المقدر شرعا في تركة الميت : الربع إن لم يكن للزوج ولد ، والثلث إن كان له ولد .

#### اليانصيب :

هل اليانصيب حلال شرعا ؟

#### الجواب :

ليست عملية اليانصيب مشروعة في الاسلام ، والربح منها سحت ، لأنه من الميسر المحرم شرعا .

#### في الرضاع :

أختان من الرضاعة ، هل يصح الجمع بينهما في عصمة واحدة ؟

#### الجواب :

الجمع بين الأختين من الرضاع في عصمة واحدة محرم ، كالجمع بين الأختين من النسب .

#### في الميراث :

(١) توفيت امرأة وترك ابنها وثلاث بنات هن أخوات هذا الابن منها فقط ، فما نصيب كل شخص ؟

(٢) وهل يحسب من التركة صداقها وثمنها وما ورثته من غيرها ؟

#### الجواب :

(١) تقسم التركة على الأشخاص الأربعة للذكر مثل حظ الأنثيين .

(٢) وتركه هذه المرأة هي كل ما تركته من صداقها ، وجميع ما ورثته من غيرها ، وما آلت إليها حال حياتها .

فى الميراث :

توفى رجل عن : زوجة وثلاث بنات وأخت شقيقتين ، فما نصيب كل ؟

الجواب :

جميع من ذكر فى السؤال يرث ، أما نصيب كل منهم من التركة فكما يأتى :  
للزوجة الثمن ، وللثلاث البنات الثلثان ، يقسم بينهما على سواء ، والباقى للأخ والأخت  
الشقيقتين ، على أن للأخ ثلثى هذا الباقى ، وللأخت ثلثه .

تعليم طرق الوقاية فى المساجد :

هل يجوز إلقاء دروس طرق الوقاية من الغازات السامة فى المساجد ؟

الجواب :

الوقاية من التهلكة مقصد سام من المقاصد التى أحلها الاسلام المنزلة الجديرة بها  
من الرعاية ، وهو أصل بنيت عليه أحكام كثيرة فى الدين ، وتعليم الناس طرق الوقاية سبب  
من أسبابها ، فلا بأس به مع المحافظة على ألا يشوش على المصلين .

فى الطهارة :

ملخص السؤال : طلاق ثلاثا معلق على شئ حصل . طلاق بلفظ ( خالصة ) معلق على  
شئ حصل . طلاق بالثلاث معلق على أن تكون خالصة إذا فعات شيئا معيناً .

الجواب :

حيث إن مذهب المستفتى مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، فنفيده أن مذهبه يرى  
وقوع الطلاق ثلاثا بمجرد حصول المحلوف عليه أول مرة ، وعلى ذلك تعتبر زوجته من ذلك  
التاريخ الأجنبية بالنسبة له ، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا مستوفيا شروط  
الحل للأول .

أما المذهب الذى جرت عليه المحاكم الشرعية المصرية أخيرا ، فيتلخص فى أن الميمين  
المعلقة إذا كان القصد بها الحث على فعل أو المنع منه ثم حصل المعلق عليه ، فانه لا يلزم بها  
شئ ، وأيمان المستفتى كلها من هذا القبيل . وعلى ذلك فلا يلزمه شئ ، وزوجته لا تزال له  
لم تخرج عن عصمته ما

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## الكلام والمتكلمون

تعريف علم الكلام ، وموضوعه ، وغايته ، وظروف نشأته

أثبتنا في فصول مضت أنه كان للمسلمين فلسفة قبل عصر الترجمة ، وأن هذه الفلسفة قد عالجت موضوعات هامة قبل أن يعرف العرب فلسفة الإغريق ، وذلك مثل وجود الله ووحدانيته ، وأزليته وأبديته ، وكماله وقدرته وعلمه ، واستحالة رؤيته بالحواس أو إمكان ذلك ، ومثل خلود الروح والحياة الأخرى والجزاء فيها ، وغير ذلك من المشاكل العويصة التي دوخت الفلاسفة منذ عهد المدرسة الأليائية إلى ذلك الحين ؛ وأثبتنا أيضا أن الجدل الذي احتدم حول هذه المشاكل قد سمي في تاريخ الفكر الاسلامي باسم « علم الكلام » . وقد رأى الاستاذان : « مانك » و « كارادى فو » هذا الرأى ، فقررا أن العرب كان لهم فلسفة ولدت ودرجت في حضن الاسلام تحت اسم « علم الكلام » كما سمي المشتغلون بها بالتكلمين (١) .

فلننظر الآن ماهو حد علم الكلام ، وموضوعه ، والغاية المقصودة منه ، وما منشأ تسميته ، ومن هم وضاعه ، وما هي التطورات التي مر بها ؟

حده صاحب « المواقف » بقوله : « والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية . والمراد بالعقائد : ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية : المنسوبة إلى دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن الخضم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما موضوعه عنده فهو : « المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا » (٢) .

وحده ابن خلدون بأنه : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » (٣)

لا ريب أن من يتأمل هذين التعريفين يبين له أن بينهما فرقا عظيما ، إذ يرى الأيحي يعرف علم الكلام بما كان يعرف به قبل تغلب المدرسة الاشعرية على خصومها : أى حين كان يشمل آراء جميع الفرق ، من : صفاتية ، وقدرية ، وجبرية ، وغير ذلك . وهو لهذا يعلق على تعريفه إياه بقوله : « فإن الخضم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما ابن خلدون فإنه خضع في تعريفه للأمر الذى أصدرته الاشعرية باقصاء جميع آراء خصومها عن علم الكلام ،

(١) انظر صفحتى ٣٠٩ و ٣١٠ من كتاب « مزيج من الفلسفتين : اليهودية والعربية ، للاستاذ « مانك » ، و صفحة ١٥ من كتاب « ابن سينا للبارون كارادى فو . (٢) انظر صفحة ٧ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ٤٠٠ من مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة .

وباختصاصها أهل السنة وحدهم باسم المتكلمين . وهو لهذا يقول : « والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » .

أما غايته : فهي الوصول عن طريق البرهان الى دفع الشبه التي اتجهت الى العقيدة المتلقاة عن الوحي . وقد أوجل الأيحيى فوائده والغاية المثلى من الاشتغال به ، فقال : « وهي أمور : الأول : الترقى من حضيض التقليد الى ذروة الايقان . ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . الثاني : إرشاد المسترشدين بایضاح المحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة . الثالث : حفظ قواعد الدين عن أن تزولها شبه المبطلين . الرابع : أن تنبئ عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها . الخامس : صحة النية والاعتقاد ، إذ بهما يرجى قبول العمل . وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين » (١)

ويرى الأيحيى أيضا أنه إنما سعى علم الكلام « لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم » (٢)

غير أن هذا التحديد الذي وضعه الأيحيى للتعريف والموضوع والغاية والتسمية ، إنما هو ناجم عن نظريته الى علم الكلام بعد عصر الترجمة ، لا في نشأته الأولى إبان خلافة عبد الملك ابن مروان ، كما سنبينه في موضعه . وآية ذلك أنه يقول : إما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثرت فيه التناحر والسفك ، فغلب عليه . إذ من المعلوم أن المنطق لم يعرف عند العرب إلا في العصر العباسي ، وكذلك التناحر والسفك لم يحدثا حول مسألة الكلام إلا بعد نشأة علم الكلام وتسميته كلاما بأكثر من ستين سنة . وإذا ، فذكره إياها يدل على أن نظرة المؤلف إلى علم الكلام متأخرة عن تاريخ نشأته بزمن بعيد ، وهذا يحيل أن تكون إحداها علة في التسمية .

وقد ذهب الأستاذ « اشمولدريس » الى « أن المتكلمين هم من اشتغلوا بكلام الإله » . وهذه عبارة متموجة يمكن أن تفهم منها مشايعة هذا المستشرق رأى الأيحيى الذي ذكرناه آنفا ، وأن يفهم منها كذلك أن كلمة المتكلمين تطلق على من اشتغلوا بالقرآن شرحا وتأويلا واستنباطا . وقد فهم « البارون كارادي فو » هذا المعنى الأخير فنقده بقوله : « لو كان هذا الرأي صحيحا ، لكان المفسرون والفقهاء والنحويون والأدباء جميعا متكلمين . وهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين ، ولا من الباحثين المحدثين » (٣) .

(١ و ٢) انظر صفحتي ٨ و ٩ من « المواقيف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ١٢ من كتاب « النزالي » تأليف « البارون كارادي فو » .

والحق بعد كل الذى تقدم هو أن كلمة «كلام» كان معناها فى أول الأمر : كل حوار حول مسألة من المسائل ، ثم تطورت فأصبح معناها النظر العقلى فى مشكلة من مشاكل الغيبيات . أما واضعه : فيقرر المستشرقون أنه غير معروف ، ويميلون الى أنه لم يوجد له واضع بعينه ، وإنما تكون من مجموعة المحاورات الأولى التى دارت حول ما ورد فى القرآن من مشاكل فلسفية نص عليها فى آيات متشابهات ، ثم من شبه نتجت بعد ذلك من الأخذ والرد اللذين اتسع مجالهما على توالى الزمن ، ولكنهم يرون أيضا أن كبار الفقهاء كآبى حنيفة وآبى يوسف قد ساهموا فى تأسيس علم الكلام بقسط وافر ، أما الشافعى فقد هاجمه وحمل عليه فى شيء من العنف وإن كان لم يستطع أن يتخلص منه بحكم عقليته المنقفة ، ومهنته كفقهاء عظيم .

أما ظروف نشأته وتطوره : فهى تتلخص فى أنه لما وقعت الاضطرابات السياسية ، وعظمت الفتنة بين المسلمين ، جرف تيارها جميع نواحي الحياة ، وجروا الدخلاء والمنافقون على بث شبههم بين المسلمين مستترين خلف حجب الآيات المتشابهة ، محتمين بأمر القرآن الصريح فى إباحة النظر . فألجأت هذه الحركة مفكرى المسلمين الى المساهمة مع محاورهم فى مزاولة الجدل واستخدام التأويل .

ومنذ ذلك العهد أخذ المتأدبون يجتمعون حول مشاهير الأساتذة ، يتلقون عنهم المعرفة ، ويحاورونهم فى البراهين والشبه ، ومن هذه المحاورات تكون علم الكلام .  
قال التفنيزانى فى شرح العقائد النسفية ما نصه :

« وقد كان الأوائل من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي عليه السلام وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة الى الثقات ، مستغنين عن تدوين العلمين وترتيبهما أبوابا وفصولا ، وتقرير مباحثهما فروعا وأصولا ، الى أن حدثت الفتن بين المسلمين ، وغلب البغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والواقعات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال ، والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول ، وترتيب الأبواب والفصول ، وتكثير المسائل بأدلتها ، وإيراد الشبه بأجوبتها ، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات ، وسموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالا فى إفادتها الأحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام ... ثم لما نقلت الفلسفة الى العربية وخاض فيها الاسلاميون ، حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة ، فخطوا بالكلام كثيرا من الفلاسفة ، ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها ، وهلم جرا ، الى أن درجوا فيه معظم الطبيعيات والألهيات ، وخاضوا فى الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتباهه على السمعيات ، وهذا هو كلام



المتأخرين (١) . وقال ابن خلدون بعد أن ذكر بيانا لأهميات المعتقدات الإسلامية التي ورد بها القرآن وآمن بها الصدر الأول كما جاءت دون بحث عما عسى أن يكون في ثنائياها من شبه : « هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية . وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة » .

عن تلك الأدلة أخذها السلف ، وأرشد اليها العلماء ، وحققها الأئمة ، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد ، أكثر مثارها من الآي المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل ، فحدث بذلك علم الكلام (٢) .

هذا هو مجمل الآراء في تعريف علم الكلام وموضوعه وغايته ، وعلة تسميته ، وظروف نشأته وتطوره . فلننظر الآن نشأة أهم مدارس المنكلمين ، وأبرز آرائها ، سالكين في ذلك نهج الترتيب الزمني لنشوء تلك المدارس .

#### القدرية أو أهل العدل :

كانت المشكلة الأولى التي دار حولها الجدل هي مشكلة : القضاء والقدر وما نتج منها من الآراء المختلفة بإزاء الجبر والاختيار ، وتحديد ما لدى الفرد من هذا الأخير ، وهل هو محدود منحصراً في دائرة معينة ، أو لا حده في جميع الأفعال التي من شأن الفرد أن يقوم بها . وأول من قال بالرأى الثاني هو معبد الجهنى ، ثم عطاء بن يसार ، وأبو مروان الدمشقي .

جاهر أولئك العلماء بحرية الفرد المطلقة ، وعززوا ما ذهبوا إليه بالأدلة العقلية ، فأعلنوا أنه لا معنى للتكليف ولا للثواب والعقاب إلا إذا كانت الحرية مكفولة ، وإلا لكان التكليف عبثاً أو تعجزاً ، وكان الثواب منحة من غير استحقاق ، والعقاب ظلماً على غير إثم . وقد أيدوا حججهم كذلك بطائفة من الآيات القرآنية تنص على أن الفرد مختار فيما يسلك في حياته من سبل ، مسئول عما يبرز من أفعال ، وذلك مثل قول القرآن : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، « اعملوا ما شئتم » ، « بل سئلت لكم أنفسكم أمراً » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « من يعمل سوءاً يجز به » ، « كل امرئ بما كسب رهين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، « إني كنت من الظالمين » ، « رب إني ظلمت نفسي » .

ولما كان خلفاء بني أمية يدينون بأن كل شيء قد أثبت في سجل القدر قبل وقوعه ، وأن فريق الناجين والهالكين قد عينا في أم الكتاب التي لا محو فيها ولا إنبات ، وبالتالي : ليس في وسع الفرد إلا أن يخضع لهذا القدر المحتوم ، فقد سخطوا على القائلين بهذا الرأي

(١) انظر صفحة ٤٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية للتفتازاني طبعة محمود شاكر بالقاهرة .

(٢) انظر صفحة ٤٠٤ من مقدمة ابن خلدون .

وتعقبوهم . فأمر عبد الملك بتعذيب معبد ثم بقتله في سنة ٨٠ هـ بحجة أن مذهبه أحدث اضطراباً في الأمة الإسلامية . وقد تبع هذا الرأي — رغم معارضة الخلفاء إياه — عدد من خاصة المفكرين ، منهم أبو مروان الدمشقي الذي أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق . أما عطاء بن يسار ، فقد فر ، وتوفي وفاة طبيعية عند نهاية القرن الأول الهجري .

ولما كان الحديث الشريف صريحاً في أن القدرية هم خصماء الله في القدر ، وأنهم مجوس هذه الأمة ، فقد أطلق أنصار القضاء المحتوم على أنصار حرية الفرد اسم « القدرية » ليكونوا هم المقصودين بالحديث ، لأنهم خصموا الله في قدره ، وأسندوا إلى أنفسهم القدرة على الاستقلال بالأفعال . غير أن هؤلاء الخصوم لم يرتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأعلنوا أن القائلين بالقدر : خيره وشره هم أولى منهم بهذه التسمية . وبالتالي : هم أولى بأن يكونوا مجوس هذه الأمة . أما هم فجديرون بأن يطلق عليهم اسم : « أصحاب العدل » لأنهم وحدهم أنصاره الحقيقيون ، إذ أن العدل الحقيقي لا يكون إلا حيث تتحقق الحرية الكاملة في الأفعال ، وإلا فهل من العدالة أن تعاقب فرداً على ما أجبرته على فعله ؟

الدكتور محمد غناب

« يتبع »

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## الشهرة ومبغضوها

الشهرة وبعد الصيت أحب الأشياء إلى قلوب الناس وقد يؤثرونها على الثروة ، وقد رأينا من أنفق ماله كله وأصبح معدماً في سبيلهما ، ولكن من الناس من تغلب عليهم هم أعلى وأرفع من هم أنفسهم ، فكانوا يهربون منهما هربهم من البوائق الجائحة خشية أن يصرفهم العرض الزائل عن الجوهر الخالد . وهذا من غريب أمر الأفاذاذ ، وهو يدل على عراقة النفس البشرية في السمو ، وإنما تحجبها عنهم الشهوات الجسدية ، والأهواء الوقتية .

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه . والأحنف هو ابن قيس سيد بني حنيفة ومن أخص أنصار علي رضي الله عنه ، الذي قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب .

وقال الحسن البصري : لقد صحبت أقواماً إن الرجل لتعرض له الكلمة من الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه فما يمنعه إلا مخافة الشهرة .

وقال ابن سيرين : لم يمنعي من مجالستكم إلا مخافة الشهرة ، فلم يزل بي البلاء حتى أخذ بلحيتي فأقت على المصطبة ، فقيل : هذا ابن سيرين .

وقال الفضيل بن عياض : كان أحدهم إذا جلس إليه أربعة أو أكثر ، قام مخافة الشهرة .

# فِي عَالَمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الأدب العربي

جاهليته وإسلاميته

كان يقعد بي عن الاندماج في الحياة الأدبية العامة ، والانضواء تحت لوائها ، والسير في ركابها ، والخضوع لناموسها العام ، بمواصلة الكتابة ، وموافاة الصحف والمجلات ، بالمساجلات والبحوث ، والآراء في الشعر والأدب ، وما الى ذلك ؛ وبالحرص على الاتصال بالأدباء ، وشهود مجتمعاتهم ، وعمارة منتدياتهم - أقول : كان يقعد بي عن هذا المذهب ، أو بعبارة أدق ، عن معالجة ما لا ينبو بي موضوعي عن معالجته منها ، أني امتنعت التدريس من عهد مبكر ؛ وفيما جرى من نفسي مجرى النفس ، من آداب أساتذتي الجلّة - أحسن الله اليهم أحياء وأمواتا - أن الكرامة الشخصية رأس مال المدرس ، وسر الانتفاع بعلمه وبخلقته ؛ ولا ريب أن في معالجته لما يخرج عن واجبه الدراسي ، إشراكا ، يضعف مُنته في الداخل وفي الخارج ، ويعرضه للخطأ ، وشذوذ الرأي ، ثم للتخطئة والنقاش والجدل ، الذي لا سبيل الى تحريره مما يتجافى به عن مناهج أدب الخطاب ؛ على حين أنه لم يعتد في درسه إلا نفوذ الكلمة وقوة السلطان ، وفلج الحجة ، بتوفره على عمله ، والانقطاع له ، والإخلاص في الحرص على عرضه في أقرب الصور الى الكمال .

فلما تقدمت بنا السن ، واتصلت حجر دراستنا بشوارع الحياة العامة ، فسلكتها بعض طلبتنا ، ووقف على أبوابها آخرون ، ومن دونهم طبقات آخر من الشادين ، كان يعزينا الاتصال غير المباشر بوساطة أبنائنا ، عن الاتصال المباشر بأنفسنا ؛ على أنه - مع ذلك - كان لنا فضل المرشد الناصح الأمين ، الذي يضع الهناء موضع النقب ، ويرى من صميم واجبه أن يوجه أبناءه الى أفضل مناهج الحياة وغاياتها ، كما يوجههم - على قدر جهده - الى أنفع مناهج التعليم وغاياتها . ولعل أغنى أيامي بالسعادة ، ذلك اليوم الذي أقرأ فيه لأحد أبنائي بحثا علميا أو أدبيا ، أو قصيدة شعرية ، في صحيفة راقية ، أو مجلة محترمة ، أو أطالع له مؤلفا مفيدا مطبوعا ، أو ديوانا من الشعر . وكنت في التشجيع والحث على الإقدام والشجاعة وأطلب الإجابة بشتى وسائلها في هذا السبيل ، من مواقف كان لها شيء من القوة والاثار الحمود :

فكأنى وما أزين منها      قَعَدِي يَزِين التحكيميا  
كَلَّ عن حمله السلاح الى الحر      ب ، فأوصى المطيق ألا يقيا

\*\*\*

بيد أن الزمان قد تقدم تقدما يشبه الثورة الجامحة ، وطغت موجة النشاط الجسمي والعقلي طغيانا اجتراف أو كاد كل واقف على الحياء ، بفضل ما نضجت به السرعة وقوة المواصلات ، من احتكاك الأفكار ، وانتشار المعرفة ، وتقدم العلم والفن ، حتى أصبح التخلف عن مجارة الحياة الحاضرة خورا في الطبيعة ، وشذوذا في الفطرة ، ودليلا على عدم الصلاحية للحياة .

لذلك ، ولوجوه من الآراء والمذاهب الأدبية يعالجها الصف الآخر من صفى الحياة العلمية في هذا البلد ، أكتب في هذا الموضوع ، شارحا وجهة النظر الأزهرى في الأدب ، ومدافعا عنها ، ومبيننا ما يقبل عندنا — معشر الأزهريين — وما لا يقبل ، من روائع النقد الحديث ؛ وسأولى البحث ، وأتابع الحديث ، إن شاء الله .

#### ١ — الأدب الجاهلى :

جاءت في الأدب ، في القرن الحاضر ، بحوث ومذاهب ، منها الإجمالى العام ، ومنها التفصيلي الخاص ؛ ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن النقد التفصيلي الخاص في هذا العصر ، كان فتحا جديدا ، جنى الأدب من غزواته طرائف ، فيها جدة ، وفيها جمال ، وفيها حياة ، وقد صادف التوفيق كثيرا منها ؛ وما لم يوفق منها الى تمام الغرض ، لم يخطئه التوفيق في الطريق . على أنى لست بسبيل أن أتكلم على النقد الخاص الآن ، فقد جعلت منزلته بعد الحديث عن النقد العام جملة .

أهم ما جاء في النقد العام للأدب الجاهلى في القرن الحاضر رأيان ، أحدهما : أن الأدب الجاهلى أكثره مشكوك فيه ؛ والثانى : أن الأدب الجاهلى جنى على ما جاء بعده من أدب العصور الاسلامية الى اليوم . وكلا الرأيين جدير بالعناية ، جدير بالدرس ، جدير ببيان ما فيه من صواب ، وما خالطه مما يجافى الصواب ، إذ الرأيان كلاهما ، صدرا عن دراسة طويلة ، وعن بحث عميق ، واستندا الى دلائل وشواهد ، لا مناص من مناقشتها ، ومعرفة مبلغ ما تحمل من قوة وصحة ، قبل الحكم بسداد الرأى أو فساده ، نزولا على طبيعة البحث ، وعلى حكم النظر .

ومنشأ الرأى الأول : أن العرب — كما هو معروف — ينقسمون الى قسمين : قحطانيين ، ومنازلهم اليمين ؛ وعدنانيين ، وهؤلاء : ربعيون ومضربون ، ومنازلهم شمال الجزيرة العربية . فأما شعر اليمينيين ، فهو موضوع منحول في الاسلام لليمنيين لأغراض دينية أو سياسية أو عصبية أو أدبية أو اجتماعية ، لأن أشعار اليمين قد رويت بلغة قريش ، مع أن اليمين لغة

تخالف لغة الشمال ؛ قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا . وأثبت البحث الحديث اختلاف اللغتين إثباتا لا يحتمل الشك . فنحن بين أمرين : إما أن نبطل هذا التقسيم الوطني والقبلي بين العدنانيين والقططانيين ، وإما أن نرفض نسبة ما روى من شعر اليمن إلى اليمنيين . والرأي الأخير أرجح ، لأسباب فصلها صاحب هذا الرأي تفصيلا لا يغنى إلاجمال عن الرجوع إليه ، منها أن الحال السياسية والاجتماعية ، كانت تقتضى غلبة الحميرية اليمنية على العدنانية ، لا العكس ؛ ومنها أن بين بعض شعراء اليمن وشعراء ربيعة ، رحما واشجة ، ونسبا قريبا ، كامرئ القيس ومهلل ، ومع ذلك لم نجد في شعر أولها أقل تعرض لمقتضيات هذه القرابة . . . إلى غير ذلك .

أما شعر ربيعة من العدنانيين ، فشكوك فيه ، لأسباب ، منها اختلاف اللغتين : الربعية ، والقرشية ، اختلافا أيسر من الاختلاف بين هذه وبين الحميرية ، وقد رويت أشعار الربيعين في بيان قرشي مبين ؛ ومنها ذلك الضعف الذي يلحس لمسا في أكثر ما روى للربيعين من الأشعار ؛ ومنها غير ذلك .

بقي شعر مضر ، وهو مقبول في الجملة قطعا ، بيد أن الرواة لم يعفوه من التزديد والجل ، فقد نخلوا شعراء مضر كثيرا من الشعر الذي لم يقولوه ، ولم تنضح به قرائحهم ؛ وأقوى الأسباب التي تجعل الشعر المضرى مقبولا ، أن كثيرا من الشعراء المضريين أدركوا الاسلام ، واستمرت سلسلة مدرسة أوس بن حَجَر أستاذ شعراء مضر حتى كثير وجيل من شعراء الدولة الاموية ؛ وأن للشعر المضري خصائص فنية يدرکہا الناقد الأديب واضحة جليلة في كل ما أثر من الشعر الصحيح عن المضريين ؛ فما لم تظهر فيه مما نسب إليهم ، فهو مظلم النسبة ، منجول مدخول .



والناقد الأديب المبرأ من الغرض ، لا يرى في هذا المذهب شيئا يزيد على ما روى عن قدامى النقاد من العرب ، إلا فرق ما بين الإجمال والتفصيل ، فكبار النقاد مجمعون على أن زعيم الكوفة في الرواية والحفظ هو حماد الراوية ، وأن زعيم البصرة في الرواية والحفظ خلف الاحمر ؛ وأهل الكوفة والبصرة مجمعون على تخرج الرجلين في دينهما وخلقهما ومروءتهما ، ومجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ، ويحسان روايته ليس غير ، وإنما كانا شاعرين مجيدين ، يصلان من التقليد والمهارة فيه إلى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان . فأما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : إنه قد أفسد الشعر إفسادا لا يصلح بعده أبدا ؛ فلما سئل عن سبب ذلك : ألحن أم خطأ ؟ قال : ليته كان كذلك ! فان أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها ، إلا عند عالم ناقد ؛ وأين ذلك ؟ .

ويروى ابن سلام : أن حمادا دخل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، فقال له بلال : ما أظرفتنى شيئا ؛ فغدا عليه حماد ، فأنشده قصيدة للحطيئة في مدح أبي موسى عدة أبياتها أربعة عشر بيتا ، يقول في مطلعها :

هل تعرف الدار مذعابين أو عام دار لهند بجزع الخرج فالدام

قال بلال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى ، ولا أعرف ذلك ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ! ولكن دعها تذهب في الناس .

وقد تركها حماد فذهبت في الناس ، وهي في ديوان الحطيئة . قال العلامة الرافعي رحمه الله : والبصير بالشعر ومذاهبه ، إذا قرأ شعر الحطيئة ، أخرج هذه القصيدة منه ، لأنها تقليد ومقاربة ، وإن كان المدائني قد صحح أنها للحطيئة في أبي موسى ، ونفى أن يكون حماد نحلها الحطيئة تقربا الى بلال ، فإن نفْس الشاعر أصدق في نسبة كلامه من ألسنة الرواة .

وأما خلف الأحمر ، فيقول ابن سلام : إنه كان أفرس الناس ببيت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الكوفة ما شاء الله أن يضع ، ثم نسك في آخر أيامه ، فأنبأ أهل الكوفة بما كان قد وضع لهم من الشعر ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ! فبقيت أشعاره على حالها . ويقال إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ، ولامية الحماسة التي مطلعها :

إنّ بالشَّعبِ الى جنبٍ سَلْعٍ لِقَتِيلَا دمه ما يطلّـل

على ابن أخت تأبط شرا في رثاء خاله . قالوا : ومن علائم وضعها هذه الدقة التي لم تكن من خصائص العصر بعد ، في قوله منها :

حادثٌ ما نابني مُصْمَلٌ جِلّ حتى دقّ فيه الأجلّ

وقال الأصمعي : سمعت خلفا يقول : أنا وضعت على النابغة القصيدة التي يقول فيها :

خيل صيام ، وخيل غـير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلقك اللجا

وقد ذكر غير واحد من العلماء : أنه لما جاء الاسلام ، واندفع به العرب الى الفتوح ، اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينما من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك ، وقد أخذ منهم السيف والحيف ، وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته ، صنعت القبائل الأشعار ، ونسبتها الى غير أهلها ، تتكثرت بها ، وتعتاض مما فقدته . وكان في العرب قوم آخرون قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بذوى الكثرة من ذلك ، وإنما العزة للكثير ، فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه ، وأخذ عنهم الرواة . وأول القبائل التي وضعت الشعر في الاسلام قريش ، وكانت أقل العرب شعرا وشعراء ؛ فانها لما تعاضت واستبنت وكذب بعضها على بعض أول العهد بالاسلام ، حين كان منها المسلمون ، ومنها

القاسطون ، ومنها دون ذلك ، وضعوا على حساب بن ثابت رضى الله عنه أشعارا كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه ، وما ترى العرب إلا أخذت إخذها في ذلك من بعد .

\*\*\*

إذا علمنا هذا — وهو متعالم معروف — نحقق لدينا أن هذا الرأي ليس جديدا في جوهره ، ولا بدعة في الأدب لم يسبق إليها ، وإنما الجديد فيه ، هو هذا التفصيل والإيضاح والشرح ، وضرب المثل ، مما نوّع نواحي البحث فيه ، وفتح للباحث أبوابا ، لم تكن تخضر له قبل ذلك ببال . إن القدامى من النقاد ، أرسلوا شكهم في الأدب الجاهلي إرسالا ، وعمّموه تعميما ، فلم يفرقوا في هذا الشك بين شعر وشعر ، ولا بين عرب وعرب ؛ فأما صاحب هذا الرأي ، فقد تناول الموضوع ففصله تفصيلا ، وقسمه أقساما ، ثم أصدر حكمه على كل قسم ، معللا مبرهنا ، تارة بما ترتاح إليه نفس الأديب ، وأخرى بما لا يخلو من تعسف واضطراب ؛ وكلتا الحالتين مجدية على الأدب ، لا يخلو النظر فيها من جدّة ، ولا يقصّر عن نفع . ولعمري لو صدر هذا الرأي عن غير من صدر عنه ، ثم جرد من تلك الفضول التي تضر الأدب أبلغ مما تنفعه ، لقوبل في العالم العربي بغير ما قوبل به إبان ظهوره ، ولسكنت أقلام كثيرة حركها مبعثه بما كان الى العلم والمنطق ، أقرب منه الى النقد الأدبي والأدب . فالثورة على الرأي ، في حقيقة الأمر ، لم تكن لما أصاب الأدب من شك في نسبته ، إذ هو أدب سواء أكان صحيح النسبة أم كان منحولا ، وإنما كانت ثورة على تلك الفضول التي استتبعها التوسع في استخدام حرية الرأي — من رجل معروف بالغلو في حرية الرأي — الى حد غير مقبول ولا مجد على أدب ، ولا على غير أدب .

\*\*\*

فالأزهر يلتقي مع صاحب هذا الرأي في الناحية الأدبية في جملتها ، ويفيد بما تعلق به من بحوث وأطراف ، فيها لذة ، وفيها متعة ، وفيها فنون من الأدب خصيبة ؛ ليس من البر بالأدب مطاردتها وإغلاق الأبواب دونها ، وضرب الأسداد على الطلاب حتى لا يتناولوها فيفتنوا بما فيها من خير ، عما في طواياها من شر ؛ فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، والخير لا يصد الوجوه عنه ، مصاحبة الشر له .

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ؟ وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر .  
وإن نحن أولاء نبعث البعث الى أوروبا ، لتأخذ فلسفة العلوم والفنون عن علماء الغرب ، وفيهم اللاديني ، وفيهم الملحد ، وفيهم اليهودي والنصراني ، وغيرهم ، ولا تصرفنا عداوتهم لنا في الدين والمعتقد ، عن مصادقتهم في العلم والفن ووسائل ترقية الحياة .

\*\*\*

بيد أننا نفترق عن صاحب هذا الرأي ، وعن السواد الغالب من شيعته وأشباهه ، لا في تلك الفضول التي مررنا بها مرّاً آنفاً خُشب ، بل وفيما يحاولونه ويدأبون في السعى إليه في أناة وحسن تأتٍ ورقة أسلوب ، وهو فصل اللغة عن الدين ، والبحث فيها مجردة عن مسّحتة ، وعن ملاساته ، وعدم التقيد في بحثها بالقيود التي تربطها به ، وتقصّرها عليه ؛ وعندى أن هذا أخطر الأمرين ، وأسوأ الناحيتين ، إذ أن الدين من اللغة ، بمنزلة الروح من الجسد ، ففصل أحدهما عن الآخر ، قضاء عليهما جميعاً ؛ وليس هذا رأينا — معشر الأزهرين — وحدنا ؛ فالرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وهو صاحب مذهب في الأدب العربي معتقد ، ومكانته في البحث والنظر لا تجحد ، يقول في كتابه ( تاريخ آداب العرب ص ١٣ ج ١ ) : وأنت خير بأن الرجال في تاريخ الآداب الأوربية ، هم قِطْعُهُ التي يتألف منها ، لأنهم متصرفون في اللغة كأنها إنما توضع لمعهدهم أوضاعاً جديدة . فكل رجل منهم في طريقته ومذهبه فن علم ، أو هو على الحقيقة قطعة متميزة في تركيب التاريخ العقلي . ولكن الرجال عندنا في قياسهم بأولئك ينزلون منزلة التشبيهات من المعاني الأصلية ، إلا ماندر ، ولا حكم للنادر . وذلك لأن في لغتنا معنى دينيا ، هو سرها وحقيقتها ، فلا تجد من رجل روى أو صنّف أو أملى في فن من فنون الآداب ، أول عهدهم بذلك ، إلا خدمة للقرآن الكريم ؛ ثم استقلت الفنون بعد ذلك ، وبقي أثر هذا المعنى في فواتح الكتب . والقرآن نفسه حادثة أدبية ، من المعجزات الحقيقية التي لا شبهة فيها ، وإن لم يفهم سر ذلك « من لا يفهمونه » اه : هكذا وضع — رحمة الله عليه — من لا يفهمونه ، بين قوسين ، يريد بذلك أن يفهم من لا يفهم ، إلى أنه يقصد إلى قوم معينين ، تبين جنوحهم إلى هذا الرأي ، وعمالهم على تطبيقه ، والسعى في سبيله . وما كان الرأي الذي أسلفنا الحديث عنه في هذا البحث إلا طليعة ومقدمة لتطبيق هذا المذهب الذي لم يمُتّه قيام الثورة في وجهه ، بل ها هوذا :

يبدو وتضمّره البلاد كأنه سيف على شرف يسلّ ويعمد

فتراه اليوم في متجهات النقد الحديث ، ونظم التعليم ، كما رأيته أمس في الأدب الجاهلي . وعلى الجلّة ، فصميم الفرق بين مذهب الأزهر في اللغة والآداب ، وبين مذهب الجامعة فيهما ، أن الأزهر يخدم يدرّسهما الكتاب والسنة ، وهما أصل الدين الذي يأخذ نفسه بحياضته والقيام عليه ، وأن الجامعة تدرّسهما على أنها من خصائص الشرق ، وأدوات تاريخه ، ومقومات حياته .

وفيما يلي من فصول هذه النظرات ، مزيد إيضاح لمظاهر هذا الاختلاف ؛ فإلى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان

كلية اللغة العربية



## نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

عرضنا في بحوث سابقة لنظام الوقف وآثاره . والوقف لغة : الحبس والمنع ، وهو مصدر وقف ، تقول : وقفت الدابة إذا منعتها من السير فوقفت ، ووقفت الدار إذا حبستها ، ولا تقول : أوقفها فانها لغردثة . وقد اشتهر إطلاق المصدر بمعنى اسم المفعول ، فيقال : هذا البيت وقف أى موقوف ، ومن ثم جمع على أوقاف .

يبقى بعد ذلك أن أئمة الفقه الاسلامي رضوان الله عليهم اختلفوا في معنى الوقف شرعا ، فيذهب أبو حنيفة رضي الله عنه الى أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف مع التصديق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها الى من أحب . فالنوع الاول كما لو وقف الواقف عينا من أول أمره على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساجد والمدارس والمستشفيات والحصون والمقابر والسقايات والقناطر والملاجئ والتسكيات ونحو ذلك . والنوع الثاني كما لو وقف على جماعة من الأغنياء عينا ومن بعدهم على جهة بر لا تنقطع . وفي هذه الحالة يعتبر الامام النوع الثاني وقفا قبل انقراض الموقوف عليهم ولا يعتبره صدقة . ومذهبه مبني على أنه رضي الله عنه لا يقول بلزوم الوقف ، فهو يرى كما يفهم من تفاصيل مذهبه أن العين الموقوفة تجري عليها أحكام الملكية بعد موت الواقف ، فتورث وتوهب ، وتعرض لها صفات الملكية كما لو لم تكن موقوفة .

ويذهب صاحبان : أبو يوسف ، ومحمد رضي الله عنهما ، الى أن معنى الوقف هو حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد ، فيما يروى العلامة ابن عابدين ، والتصديق بمنفعتها ابتداء وانتهاء ، أو انتهاء فقط . فالحالة الاولى كما لو وقف من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا خيرا . والحالة الثانية كما لو وقف على من يحتمل الانقطاع واحدا كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقة ثم جعلها من بعدهم لجهة بر لا تنقطع ، كما إذا وقف على نفسه وذريته ومن بعدهم للعساكين ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا أهليا ، فاذا آل الى جهة بر دائمة صار خيرا . وتلك التسمية الثانية تسمية عصرية ، وإن كانت في مدلولها متمشية مع كل عصر وجيل . وعلى مذهب صاحبين يكون الوقف لازما ، فلا يوهب ولا يورث ولا يوصى به لأنه لا يملك لأحد من العباد .

ومما لا مرأى فيه أن الوقف بنوعيه الخيري والأهلي عمل من أعمال البر والخير ، ووسيلة من وسائل التقرب الى الله ، وهو فيما وراء ذلك نظام صالح يسيغه العقل وتدعو إليه نواميس المجتمع ، وهو مع ذلك لا يعدو أن يكون نظاما لتوثيق ما بين الأغنياء والفقراء من صلوات

تقوم على التعاون بينهما ، فالأغنياء يبذلون نواهم ، والفقراء يكفون عن الحقد عليهم والتبرم بما في أيديهم .

وهو فوق ذلك نظام أرشد إليه الكتاب والسنة ، وتواصت به أمم مسيحية مع اختلاف في الأوضاع والأساليب والمقاصد ، فيندرج في كثير من الآيات التي حثت على فعل الخير والتزود به للأخرة ، مثل قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « وابتنوا إليه الوسيلة » ، وقوله : « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، وقوله : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » .

وقد دلت على مشروعيته أيضاً الأحاديث الكثيرة والآثار المتضاربة ، واستمرار عمل الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا على الأخذ بالوقف من غير تكثير . وهذا إجماع عملي على مشروعيته ، وهو حجة . قال زيد بن ثابت رضى الله عنه : لم نر خيراً للميت ولا للحى من هذه الجبوس الموقوفة . أما الميت فيجرب أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

فنظام الوقف بنوعيه في الشريعة الإسلامية أوفى غرضاً للمجتمع ، وأعم فائدة لمصلحة الجماعة والفرد . وما يعرض له من المساوئ في تصرف النظار مما يطرح كل يوم في ساحة القضاء لا يفض من قيمته ولا يؤثر في مشروعيته . فإذا أحسكت طريقه مراقبة النظار والأخذ على أيدي العابثين منهم ، أنتج نظام الوقف لنوع من بنى الانسان أفضل وجوه المعونة ، وأكفل طرائق العطف والثوبة

عباس ط

## الى حضرات القارئین

لم نستطع في هذا العدد أن ننشر كل ما لدينا من مقالات حضرات العلماء والكتاب التي تراكمت لدينا في الشهرين اللذين لا تصدر فيهما المجلة ، وهما ذو القعدة وذو الحجة ، فنعتذر الى حضراتهم راجين أن نوفق الى نشرها تباعاً .

وكذلك نعتذر لحضرات المؤلفين الذين رغبوا إلينا في نقد مؤلفاتهم ، فقد ضاق هذا العدد عن نشر شيء من ذلك ، آملين أن نوفقها حقها في الأعداد المقبلة ، إن شاء الله



# نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى  
شيخ الجامع الأزهر  
الدرس الثانى الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨  
بمسجد السيدة نفيسة بالقاهرة  
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى  
فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَنفِرَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ، وَأَقْسَطُوا  
إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ) :

الطائفة من الناس : جماعة منهم ، ومن الشيء : قطعة منه ، وهى جمع طائف ، وقد يكفى  
بالجمع عن الواحد ، فإراد بها الواحد .

والبغى : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتجرى فيه ، سواء تجاوزه أم لم يتجاوزه . وهو  
قسبان : محمود ، ومذموم . فالأول : تجاوز العدل إلى الإحسان ؛ والثانى : تجاوز الحق إلى الباطل ،  
أو تجاوز الحق إلى الشبهة ؛ وقد قال عليه السلام : « الحق (١) بَيْنَ والباطل بَيْنَ ، وبين ذلك  
مشتبهات ، ومن رجع حول الحمى أوشك أن يقع فيه » . وقولُ الله سبحانه : « إِنَّمَا السَّبِيلُ  
عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَشْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » دليل على أن هناك بغيا بالحق .  
والنفي والنفيأة : الرجوع إلى حالة محمودة . والعدل : هو التقيسط على سواء ، وهو  
مساواة في المكافأة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ،  
والشر بأقل منه . ويقال : قسط الرجل ، إذا جار فأخذ قسط غيره ؛ وأقسط ، إذا عدل  
فأعطى قسط غيره .

(١) المشهور فى الرواية « الحلال بين والحرام بين الخ » . والرواية المذكورة ساقها الراغب فى مفرداته .

روى عن ابن عباس أن الآية في الرجلين ، أو النفر والنفر ، أو القبيلة والقبيلة من أهل الاسلام : يقتتلان ، فأمر الله تعالى أمّة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذي أنزله الله في كتابه : إما القصاص والقود ، وإما العقل والدية ؛ فإن بغت إحداها على الأخرى بعد ذلك ، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله . وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان في الآية واجب للإمام ، لأنه قائم مقام المسلمين ، ونائب عنهم ، وخليفتهم ؛ فإذا وجد بلد لا يمتد إليه سلطان إمام المسلمين ، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الإمام . ولجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة في كتب المذاهب . وروى الزهري عن سالم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » .

وعلى هذا فإذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين ، فعلى الإمام الإصلاحي بينهما ، بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، وبالنصح وإزالة الشبهة ؛ فإن تعدت إحداها ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وطلبت العلو بغير الحق ، ورضيت به الطائفة الأخرى ، قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم كتاب الله ؛ فإن رجعت بعد القتال ، أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإصلاحي ، ولا يكتفى بالمشاركة والمحاجة والكف عن القتال ، بل لابد من الإصلاحي بالعدل ، لتزول الضغينة ، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك إلى القتال . والله تعالى يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم .

تقاتل الفئة الباغية ما قاتلت ، فإذا قبضت أيديها عن الحرب وكفّت ، تركت ؛ وإذا ولت وركنت إلى الفرار لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها ؛ وإن بغى الفئتان معا ، أصلح بينهما على الطريقة التي يراها المسلمون كافلة للموادعة والمكافة ؛ فإن لم تتحاجزا وأقامتا على البغي ، وجبت مقاتلتهما معا ، لأن البغي فساد في الأرض ، وخروج على السنن الإلهية ، وتعدّي على العدل الذي يحبه الله ويأمر به ؛ وعلى المسلمين أن يطهروا الأرض من البغي والفساد ، لتعمر بالعدل والإحسان .

هكذا يطلب الله من المسلمين أن يكونوا حراسا للعدل ، وقوفاً عليه . ومن حق من يضعه الله في هذا الموضع ، ويمنحه هذه الدرجة من الشرف ، أن يعدّ نفسه لهذا الشرف ، وأن يقدم كل شيء يملكه لتلبية لهذا الواجب الرفيع الشأن ، من نفس ومال .

وإن اقتتل فئتان بشبهة دخلت عليهما ، وكلتاها ترى نفسها محقة ، وجب إزالة الشبهة وإطلاعهما على مرشد الحق ؛ فإن ركبنا متن الغواية واللجاجة ، ولم نعمل بما هديتنا إليه ونصحتنا به ، اعتبرنا في حكم الباغيتين .

وللفقهاء أحكام مفصلة فيما يتلوه العادل على الباغي ، وبالعكس . ولا بأس من ذكر بعضها هنا إجمالاً :

أما المتلفات في غير القتال فمضمونة ، على القواعد الممهدة في قصاص النفوس وغرامة الأموال . وأما متلفات القتال فلا تضمن ؛ لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ، ولا يضمن الباغى لأن إزالة الضغينة وحب الإسراع في وقف القتال يدعو إلى التسامح فيما أتلّف من نفس ومال . وعلى ذلك كانت الوقائع التي جرت في عصر الصحابة والتابعين ، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال . لكن الأموال المأخوذة في القتال ترد بعد انقضاء الحرب إلى أهلها من الجانبين . وهذا كله في البغاة الذين لهم شوكة من عدد وعدة ، ولهم تأويل باطل ؛ أما الذين لا شوكة لهم فهم في حكم قطاع الطريق ، عليهم ضمان ما أتلّفوه من نفس ومال .

والذين لهم شوكة وليس لهم تأويل ، اختلف الفقهاء فيهم ، فمنهم من ضمنهم ، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، ومنهم من نفى الضمان عنهم .



( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) :

في هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح في الآية السابقة ، وبيان للعلة فيه . ذلك أن الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب ، والنسب اللاصق ، ما هو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها . وقد جرت العادة بين الناس على أنه إذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد لزم سائر الناس أن ينهضوا في إزالته ورفعها ، ويمشوا بالصلح بينهما إلى أن يرقعوا ما وهى من الوفاق ؛ فالأخوة في الدين أحق بذلك ، وأحق بأكثر منه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الرجح إلا بإذنه » .

وطلب الله بعد عقد الأخوة بين المؤمنين أن يتقوه ؛ وبين أن تقواه سبيل التواصل والتراحم ، وأن هذا سبب وصول رحمة الله إليهم .



( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تُلَازِمُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَبَايَضُوا بِاللِّقَابِ ، وَبِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ) :

السخرية : الاستهزاء والنظر الى المسخور منه بعين النقص ، واحتقاره قولاً أو فعلاً ، بحضرته .

والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القائمون على شئون النساء ؛ ومنه قول زهير : أقوم آل حصن أم نساء \* وأما قوم فرعون وقوم نوح وعاد ، فن باب تغليب الذكور على الإناث .  
واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والتنبيه على المعاييب في حضرته . ولا يدخل في مفهومه قصد الاحتقار ، كما يدخل في السخرية . وهذا هو الفارق بينهما .

والتناز بالالقباب : التداعى بها . والامم : معناه الذكر ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه في الآفاق .

ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس . وقد جاء النهى في الآية منصبا على سخرية القوم من القوم ، والنساء من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية في المجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء . على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوى على النهى عن السخرية على أى وجه من الوجوه .

ثم بين الله تعالى العلة في النهى ، وهى أن المسخور منه قد يكون خيرا من الساخر في الواقع ونفس الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يظلمون إلا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيات ، وليس هناك شئ يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر ، وهو وحده الذى يعلمها ، ولا علم للعباد بشئ منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترئ على السخرية بأحد ، ولو كان ممن تزدريه العيون لثأته حاله ، وقلة ماله ، وقبح صورته ، وعى لسانه وفهايته ، فلعله أخلص ضميرا ، وأبقى قلبا ، وأظهر سريرة ؛ ولعله يحمل بين جنبيه نفسا كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهيبة بالعلم ، ولعله في هذا كله أحسن حالا من الساخر ؛ وفي السخرية ظلم بتحقيق من هو في نفسه عظيم لا يستحق التحقير .

ثم نهى الله المؤمنين عن اللمز والطعن ، وعن نداء بعضهم بعضا بما يكرهونه من الألقاب ؛ ونههم الى أنهم ، وهم كنفس واحدة ، وكجسد واحد ، لا يليق أن يطعن بعضهم بعضا ، لأن الطاعن في هذه الحالة يطعن نفسه ، ويطعن جسده ؛ وهذا هو السر في قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » مع أن اللازم إنما يلزم غيره لا نفسه . وذهب صاحب الكشاف الى أن المعنى : وخصصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهى عن اللمز ، ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على دينكم أو ممن ليس على سيرتكم ، وهم المجاهرون بالفسق . وفي الحديث الشريف : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذر الناس » . وقد روى أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء اليه .

ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن . وقال عمر : أشيعوا الكنى فإنها منبهة . وقل من تجده من المشاهير في الجاهلية أو الاسلام ولا تجده له لقبا حسنا أو كنية : كالعتيق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وسيف الله خالد . ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجرى في الأمم كلها في تخاطبهم وكتابتهم من غير نكير .

تقدم النهي عن التلقب بما هو مكروه ؛ ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرها ممن له به صلة . وروى عن الحسن : أدركنا السلف وهم يرون العبادة الكف عن أعراض الناس . وقد قال الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » . والهمزة : الطعان في الناس .

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية واللمز والتداعي بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن الذي حل قلبه بالإيمان أن يطلق عليه كلمة فاسق ، وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عرف بالإيمان .

فمعنى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » : بئس الذكر أن يُذكر المؤمن بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان ، أى أنه لا ينبغي اجتماع هذين الوصفين : الإيمان والفسق ، كقولهم : بئس الشأن بعد الكبر الصبوة . وهم يريدون استقباح الجمع بين الصبوة - أى ما يكون في حال الشباب من الميل الى الجهل - وكبر السن .

وينبغي أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه ، وقد تدعو اليه الضرورة فيذكر لا على قصد التحقير ، كما يقول المحدثون : سليمان الاعمش ، وواصل الأحذب . وفي هذه الحالة لا ينهى عنه .

ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبة لازمة كالتوبة عن سائر المعاصي ، وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه ، لأنه عرضها لسخط الله وعذابه .

وينبغي أن نذكر هنا كلمة عن التوبة : فهي ليست قول الشخص : أستغفر الله وأتوب إليه . كلا ! هذا القول لا يسمى توبة ، ولا هو الذي يطلبه الله سبحانه ويحبه : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . التوبة تستدعي معرفة عظم ضرر الذنوب والإدمان عليها ؛ وتستدعي ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الانسان بوصول الألم الى العظم ، وحزّه فيه ، وبأن كبده تكاد تذوب ، وبأن الكرب يحيط به ولا مفرج له إلا الله سبحانه ؛ وتستدعي العزم على ترك الذنب والإقلاع عنه .

حقائق التوبة : علم ، وندم ، وقصد . وإذا فقد أحدها فقدت . وغير خاف أن معرفة كون المعاصي مهلكات جزء من الإيمان ؛ وعدم المبادرة الى التوبة مفوت لجزء من أجزاء

الإيمان ؛ ولو كان الإيمان كاملاً لما أقدم مؤمن على معصية . وهذا يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . ولا بد في التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار » ، أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً (١) . وقد يسترسل المذنب في ذنوبه حتى يصير طبعاً ، ويران على القلب فلا تحله الندامة على الذنب ، ولا القصد الى الخلوص منه ؛ فإذا قال صاحب هذا القلب : إني تبت إليك ، كان قوله كقول القصاب الذي يغسل الثياب : إني غسلت الثوب ، دون أن يغسله .



( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَسَكَّرْهُتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ) :

اجتنبه : كان على جانب منه ، ثم شاع في التباعد اللازم له .

والظن : اسم لما يحصل عن أماره قوية أو ضعيفة ؛ فإن قويت جدا أدت الى العلم ، وإن ضعفت جدا لم تتجاوز حد الوهم .

والإثم : الفعل المبطى عن النواب ، ووجه آثام . وقوله : « أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » (٢) معناه : حملته على فعل ما يؤثم . والآثم : الذي يحتمل الإثم .

والجس : مسّ العرق وتعريف نبضه للحكم به على الصحة والسقم . وهو أخص من الحس ، فإن الحس تعرف ما يدركه الحس . ويرى بعضهم أنهما متقاربان ، وأن مشاعر الإنسان يقال لها الجواس ، كما يقال لها الحواس .

والغيبه : أن يذكر الإنسان غيره بسوء ، وبما فيه من عيب في غيبته ، من غير أن يخرج الى ذلك . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبتبه ، وإن لم يكن فيه فقد بهتته » .



من الظن ما يباح اتباعه : كالظن في أمور المعاش وما أشبه ذلك ؛ ومنه ما يجب اتباعه : كالظن في الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ؛ ومنه ما يحرم اتباعه : كالظن في الإلهيات والنبوات ، والظن حيث يوجد دليل شرعى قطعى يخالفه . ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين ؛ فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه ، وأن تظن به السوء . والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ؛ أما حديث النفس ، والخواطر ، والشك ، فكل ذلك معفو عنه . والمنهى عنه ركون النفس وميل القلب . والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب ؛ فليس لك أن تعتقد سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان ، أو ثبت ببرهان . أما ما لم تشاهده ولم تسمعه في أذنك ، بل وقع في قلبك ، فالشيطان يلقيه ، والشيطان فاسق كاذب . ولا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بيعة عادلة . وأمانة سوء الظن وعقد القلب ، تغير القلب عما كان . نعم قد يعذر الانسان في ظن السوء إذا أخبره العدل الثقة .

هذا الذى سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ، ومن أولست فيه الأمانة ، أو شوهد منه التستر ؛ أما المجاهر بالمعاصى ، ومن يتعاطى الريب ، فلا يحرم سوء الظن به وإن لم يره الظان على معصية ، لأنه مكّن من صفحته ، وأزال حرمة عرضه .

ومن الظن ما هو قهري غير مستطاع الدفع ، فلا يتعلق به النهى لعدم القدرة عليه ، بل يتعلق بعدم العمل بموجبه . وقد يظن شخص أن أحدا يريد به سوءاً ، فهذا الظان لا يضره أن يجترس ، لكن يضره أن يقع أذى بالمظنون منه السوء . وعن سعيد بن المسيب قال : كتب الى بعض إخواني : « أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ومن عرض نفسه لتهمة فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، وعليك بإخوان الصدق ، فكن في اكتسابهم ، فانهم زينة في الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، وشاور في أمرك الذين يحشون ربهم بالغيب » .

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، لأنه مدعاة الى التحقير والسخرية واللعن ، ومدعاة الى إيقاع الضرر بالمظنون به . وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد صان الله عرض المسلم كما صان دمه . وقد عرف مما سبق وجه قول الله : « اجتنبوا كثيراً » ، فإن بعض الظن يباح اتباعه ، وبعضه يجب اتباعه .

نهى الله عن ظن السوء ، ونهى عن النجس ، وتتبع عورات المسلمين ؛ ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته ؛ ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة . وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبعت عورات الناس أفستهم ، أو كدت تفسدهم » . وقال

أبو بكر : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ، ولا دعوت إليه أحدا حتى يكون معي غيري . وفي الحديث الشريف : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته » . وكل من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه ، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية . وقد دفعت كراهة المنكرات عمر بن الخطاب الى تتبع العورات بعض الأحيان ، فقد كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل في بيته يتغنى ، فتسور عليه ، ووجد عنده امرأة ، وعنده خمر ، فقال عمر : يا عدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ ! فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي ! إن كنت عصيتُ الله تعالى واحدة فقد عصيتُ أنت الله في ثلاث : قال : « ولا تجسوسوا » وقد تجسسست ؛ وقال : « وأتوا البيوت من أبوابها » وقد تسورت ؛ وقال : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وقد دخلت بغير إذني ! ! ! وكأنه قال له : وأنت أمير المؤمنين تبعتك وعصيانك أشد ! فقال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود الى مثلها أبدا ! فعفا عنه عمر ، وخرج وتركه .

نهى الله تعالى عن الظن ، وعن التجسس ؛ ونهى عن الغيبة أيضا ، وهي أن يذكر الانسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه ، سواء كان الذكر صراحة ، أو كناية ، أو إشارة ، أو رمزا ؛ وسواء كان ما يذكره متعلقا بدينه أو دنياه ، وبخلقه أو خلقه ؛ وسواء أكان متصلا به أو بمن له به رابطة وصلة : من ولد ، وزوجة ، وأب ، وأم . وتحرم غيبة المعروف بالصالح ، ومستور الحال ؛ ولا تحرم غيبة المجاهر بالفسق ، والداخل في مواطن الريب . وقد نقل القرطبي إجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر . وبعد أن صورها الله أبشع تصوير في آخر الآية ، لا يصح أن تعد في الصغائر . ثم منها ما هو هين كعيب الشخص في لباسه أو دابته ، وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق ؛ فاذا قيل : إن مثله من الصغائر كان مقبولا .

ويجوز لمن ظلم أن يشكو ظالمه ، ويذكر ما فعله معه مما يعد عيبا ، كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ؛ ويجوز تحذير المسلمين من شر ، بتجريح الشهود والرواة ، وإطلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الاسلامي ، كما يجوز ذكر ما في الولاة والقضاة من شر للقادر على عزلهم .

وقد تضمنت الآية لطائف : ففيها ذكرت أمور ثلاثة مرتب بعضها على بعض : نهى عن الظن في المسلم ، والقول فيه بغير علم ؛ ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه ؛ ونهى عن إذاعة ذلك إذا تحقق . وختمت الآية بإطاع المؤمنين في رحمة الله بالتوبة ؛ وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة : « إن الله تواب رحيم » .

ومن أخبت أنواع الغيبة ، غيبة القراء والعلماء ، يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون سماعها ، ولكنهم يمتثلون عليها بالبأساء ثوب الدماء والاشفاق لمن يريدون اغتيابه . مثلاً يذكر أمامهم شخص فيقولون : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، ولا يطلب حطام الدنيا ! أو يقولون : والله ما أحسنه ! ما كان يقصر في عبادة ، لكنه ابتلى بما يبتلى به سائر الناس ، لطف الله به ! أو يقولون : والله لقد غنما أمره وما ابتلى به ، مسكين ، أحسن الله حاله !

وقد يُظهر القارئ والعالم الغضب لله سبحانه ، والغيرة على دينه ، أو يتعجب من ظهور المنكرات ، وفشو الفسق ، فيقول مثلاً : انظر إنما نحن في آخر الزمان ، لقد شوهد فلان وهو يفعل كذا ، أو بلغني أن فلانا فعل كذا .

والغيبة أسباب ، أهمها : الغيظ ، وهياج الغضب ، فيذكر الانسان عيوب غيره لشقاء النفس من غضبها ، ومجاملة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الانسان نفسه بالنقص من غيره . ومنها الحسد ، وهو أهم الأسباب . ومنها اللعب ، والهزل ، والمفاكة ، وإضاعة الوقت .

وقد صور الله المغتاب على أخس وجه وأشنع ، وضرب له مثلاً من يأكل لحم أخيه ميتاً ؛ وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه ؛ فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه . ولما كان ممزق اللحم غير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة ، كان كالميت إذا مزق لحمه ، وكان المغتاب آكل لحم أخيه ميتاً .

وقوله تعالى : « فكرهتموه » واقع موقع جواب شرط ، وكأنه قيل : لا يحب أحد أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فإن صح هذا منكم ، وهو لابد صحيح ، فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة .

وهو ثواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه . وهو رحيم : يرحم النائبين .

وتقول العرب للمغتاب : فلان يأكل لحوم الناس . ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب      ويأكل بعضنا بعضاً عياناً

وقول الآخر :

فإن يأكلوا الحي وفرت لحومهم      وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجداً

## كلمة الاستاذ الاكبر

في احتفال الأزهر بعمى الهجرة والميلاد الملكى

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر موافق في مناسبة الذكريات الإسلامية يترقبها المسلمون في العالم بأسره ، أخصها ذكرى الهجرة النبوية ؛ فقد اعتاد فضيلته أن يلقى فيها خطبة مغالطة يتناقلها الناس في الآفاق ، ويتدارسونها في نواديهم . وقد أفاض الله على فضيلته في هذه السنة كلمة جمعت بين ماضى المسلمين وحاضرهم ، وعرضت من أدوائهم ودوائهم ما شعوبهم في أشد الحاجة إليه لا صلاح شئونهم ، ورأب صدوعهم ، في سمو يأخذ بالآلباب ، وبيان يستهوى الأسماع . وقد اتفق أن كان قد أظّل عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، نفختم فضيلته خطابته بذكر مناقب جلالته ، وما أفاض الله على مصر والعالم الإسلامى من فضائله وفواضله ، فازداد الاحتفال بذلك جلالاته على جلاله .

والى القراء نص خطبة الأستاذ الإمام حفظه الله :

\*\*\*

بسم الله الرحمن الرحيم . ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا .  
أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بالعام الهجرى الجديد ، الذى اجتمعنا الليلة في الأزهر تحية له ، وتمجيذاً للهجرة ، ولصاحبها سيدنا محمد بن عبد الله ، أشرف من سعى على الأرض ، وأطهر الخلق ضميراً ، وأشرفهم غاية وقصدا . وأبعث من هذا المسكان الطاهر تهنئتي وتحياتي الى الأمم الإسلامية في أقطار الأرض قاصيها ودانيها .

هاجر محمد من وطنه ، والوطن لاصق بنفس صاحبه ، عزيز عليه أن يفارقه ؛ وإذا فارقه فالنفس نازعة اليه ، شديدة الشوق والحنين . وقد قيل قديما : ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنعَ منهم بأوطانهم . وقد عمر الله البلدان بحب الأوطان .

وليس أدل على أن الوطن عدل النفس ، وعدل الأبناء ، من قول الله سبحانه : « ألم تر إلى الملاء من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ؟ ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، » وقول الله سبحانه : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا

من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ». فهؤلاء الأشراف من بني إسرائيل قد قالوا : كيف لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فجعلوا الإخراج من الديار داعيا قويا ملحا في الإقدام على سفك الدم ، والاستهانة بالأرواح ، ولم يكن سبيل الله عندهم كافيا وحده للقتال ، بل الذى أغرامهم به وهاج نفوسهم اليه هو الإخراج من الديار والأبناء ؛ وقد سوى الله سبحانه بين الأمر بقتل النفس والأمر بالخروج من الديار في أنه لا يفعله إلا القليل .

هذه قيمة الوطن عند الأشراف ، وتلك قيمته عند عامة الناس أيضا .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الذؤابة من قريش ، وكان أظهرهم نفسا ، وأكرمهم خلقا ؛ وكان شديد الحرص على هداية قومه ، حتى خاطبه الله سبحانه بقوله : « فلعلك بإخضع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ؛ فلم يكن من الهين على نفسه الكريمة أن يفارق وطننا ولد فيه ، وطعم طعامه ، وشرب ماءه ، وتنفس في جوه ، وأشرقت عليه فيه شمس الهداية الربانية ، واتصلت روحه فيه بالوحى الإلهي ، ولقي فيه أخاه جبريل موفدا من قبل الله سبحانه لهداية قومه والناس ؛ لكن الدواعى قوية ملحة ؛ فقد حاربه قومه ، وحاولوا الخط من شأنه : كذبوه في دعوى النبوة ، وأغروا به الشعراء بهجونه ، وأعنتوه فطلبوا منه معجزة كونية كمعجزة موسى وعيسى « وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحانه ربى هل كنت إلا بشرا رسولا .

ضافت قريش ذرعا به وضاق بها ذرعا ، فلم يكن إلا شيء واحد : أن تظفر به أو يظفر بها ، فقد تاب معتقداتهم ، وسخر من آلهتهم ، وضلل آباءهم ، وسفه عقولهم ، وفتح للناس باب الحرية ، وسأوى بين الشريف والضيع ، ولم يبق إلا أنساب وزنا ، وجعل الكرامة للفقير ، وهون شأن المال ؛ وكل هذا يفرس البغضاء في نفوس أهل الثراء ، ويولد الحقد عند ذوى الأنساب ، وهو لا يحتمل مثله اليوم بعد أن مضى على الإسلام قرابة أربعة عشر قرنا ، فأولى ألا يحتمل عند أشراف قريش في الجاهلية .

لذلك قامت قريش تحاربه بكل ما تستطيع من الحول والقوة ، تناولته بالأذى ، وشردت أتباعه ، وأذاقتهم عذاب الهون ؛ ولا يخفى ما للحسد من القوة على بعث الشر وإيقاظ الفتنة ، وما للقرابة من الأثر في إيقاد نار الحسد والبغضاء . وقد كان الوليد بن المغيرة يقول : أينزل الوحى على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك عروة بن مسعود الثقفى سيد ثقيف ؟ « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا »

وقد نقل عن أبي جهل قوله : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فاعطينا ، حتى إذا تهاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؛ فنتي ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !

حاربوه بالدعابة ، وحاربوه بالحصار الاقتصادي كما تفعل الدول اليوم ، فقالوا : ساحر كذاب ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه ، وقالوا : معلم مجنون يفرق بين المرء وزوجه ، والولد ووالده ، والعشيرة والعشيرة ، والقبيلة والقبيلة ، وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، لا يصهرون اليهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، وعلقوه في جوف الكعبة توكيدا لما فيه .

بعد هذا كله ، لم يكن بد من الهجرة ، لأنه لم يكن هو وأتباعه من القوة بحيث يكون لهم الظفر على قريش ، فهاجر فرارا بنفسه وبدينه من هذه البيئة المليئة بالحقد ، وبظلمة الكفر ، الى بيئة يجد فيها راحة ومتنفسا ، وله فيها أمل وثيق في قبول دعوته وفي الأخذ بيده . وقد كان موقف قريش معه وموقفه معها من أكبر العوامل في نجاحه بعد الهجرة ، فان ثباته على الدعوة واحتماله هو وأتباعه كل ما وجه اليهم من أذى ، كان من شأنه أن تنواتر أخباره ، وأن تترامى الى القبائل ، وكان من شأنه أن يفتح العيون لا بصار نور الحق ، وأن يفتح بابا للتفكير ، حتى عند أشد الناس جمودا ، وأقوام صلابة في الباطل ، وهكذا يخدم الحق بما يوجه اليه من الأذى ، ومن هذا يجب أن تؤخذ العبرة .

ولا أظن أنه قد بقي في الهجرة معنى لم يتناولوه الناس في خطبهم ومقالاتهم وأشعارهم ، فنحن إذا قلنا فإنما نقول مكررا معادا .

لكننا مع هذا نحاول العودة الى العبرة ، ولا يجوز لنا أن نمر بها وبما يلبسها دون أن نعتبر ونتعظ ؛ وما قيمة ذكرى الهجرة إذا مرت ونحن عن العبر معرضون ، فندخل في قوله سبحانه : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون » ! وما ابتليت الأمم عامة ، وما ابتلى المسلمون خاصة ، بأشد من البلاء إلا عراض عن الآيات والنذر ، والغفلة عن وجوه العبر .

أنظنون أن قوم نوح وعاداً وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، ركبوا من الإثم والبهتان أكثر مما ركبت الأمم في هذا الزمان ؟ وهل استمرءوا من الشهوات أكثر مما استمرأت الأمم اليوم ؟

وهل تظنون أن الله يهمل أمم اليوم فلا يعاقبهم كما عاقب تلك الأمم التي قص علينا في كتابه ما حل بها ؟ كلا ! إن الله قد بدأ ينزل على العالم بسبب طغيانه وتمرده مثل ما أنزله على الأمم الغابرة .

أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأرسل على عاد وحمور صرصرأ عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، وأرسل حاصبا على آل لوط ، وأهلك آل ثمود بصيحة . كل هذه الآيات فاجأت تلك الأمم ، ولم يطل انتظارهم إياها من قبل .

وأين هذا من الرعب المستولى على العالم جميعه الآن ، حيث لا يعرف أحد عاقبة ما تصل إليه ويلات الحروب ، ولا يعرف هل يكون له مدى من العمر يستمتع فيه بأهله وزوجه وأولاده وأصحابه ، أو يختطف في لحظة من اللحظات ، في البر أو في البحر ، ومن صاعقة السماء أو من خسف الأرض ؟! وهذا الرعب تصاحبه صواعق القذائف ، من الجو ، ومن الأرض ، ومن البحر ؛ ويصاحبه الحرق والغرق . وقذائف الطائرات لا ترحم طفلا في مهده ، ولا مريضا في سريره ، ولا ناسكا في معبده ، ولا عالما في معبده ، ولا مقعدا ولا شيخا قانيا .

لا شبهة أيها الإخوان في أن هذا كله إنما هو جزء ما اقترب من الشرور ، من إلحاد وكفر ، وفسوق وعصيان ، وافتنان في الشهوات ؛ وجزاء الآثمة والإعراض عن استغانة الضعفاء والمظلومين ، من هول ما يلقونه من الأقوياء والظالمين ؛ وجزاء تسخير الأقوياء للأمم الضعيفة وعدّها أنعاما ساعة ترضى ثم تستمتع بخيراتهما على ألوان من المتاع لم يكن يعرفها الناس من قبل هذه المدنية ، المارقة ، الفاجرة ، التي أغرق أهلها في الشهوات ، وأغرقوا في الإشادة بها والدعوة إليها .

أيها الناس :

تدبروا قول الله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين . وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »

الإيمان بأن مجدا صلى الله عليه وسلم يدعو هو ومن اتبعه الى الله على بصيرة ، قاض بإجابة تلك الدعوة والعمل بها ، وهي قاضية بالإقلاع عن الشرور والمعاصي ، والنزاهة حدود الله ، والاتعاظ بما قصه الله سبحانه من سير الأولين ، والتدبر في عاقبة ما حل بالأمم جزء ما اقترفته ؛ فقد آن للمؤمنين أن يتدبروا ، وأن للأئم أن تعتبر وتنعظ ، وأن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقد حل بأسه ، وسينجي الذين اتقوا ، وستكون لهم دار الآخرة ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ !

لا يأس من روح الله ؛ وقد آن للمسلمين أن يستعدوا لحمل نصيب وافر من مدينة فاضلة روحية تخلف هذه المدنية الفاسدة ، التي جعلت العالم أئسونا ، وساقط الى ذلك الأتون أبناءها

طعاما ووقودا؛ وآن لنا أن نفكر في حياة عزيزة يصفو لنا فيها العيش ، فستمتع بشمرات جهودنا ، ونضرب في العلم بسهم ، وننصر مدنية فاضلة ؛ وآن أن نجاهد في سبيل هذا لا نزيد ظلما ولا نزيد عدوانا « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمُ الْأَرْضَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : « إِنْ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا أَنْفُسَهُمْ » . ونحن لم نذلَّ عن قلة ؛ ونحن كثر ، ولكننا كغناء السبيل ، لكننا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قلة نولى وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفا نسعى إليه ؛ وإذا كنا ضعافا فنحن نقوى بالاتحاد ، ونقوى بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسى وقومه أمام فرعون وملئه ؛ وقد قال الله تعالى : « وَزَيْدٌ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

أيها المسلمون :

فكروا وتدبروا ، وقابلوا الحوادث بالصبر ، واغتنموا الفرص فهي لا تسنح في كل وقت ، واحرصوا على الإيمان فهو لصيق العزة ، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكونوا تلك الأمة الصالحة المؤمنة التي وعد الله أن يمكن لها في الأرض ، ويبدلها من بعد خوفها أمنا : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاسًا لَهُمْ وَأُضْلٌ أَعْمَالُهُمْ » .

أيها السادة :

كان من الحظ والسعادة في مصر وفي الأزهر ، أن يقارن الاحتفال بالهجرة المباركة الاحتفال بعيد ميلاد ملك البلاد المفدى المحبوب ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أيدته الله وأدام توفيقه ! والأزهر يصطفى جلاله الملك بحب طاهر ، وجلالته ينحصر الأزهر برعاية تامة ، عرفها الأزهريون في أوقات عدة ، وفي مظاهر مختلفة ؛ وقد ورث جلالته هذه الرعاية عن المغفور له والده العظيم ، وكلاهما يعتقد اعتقادا خالصا أن الأزهر يؤدي رسالة دينية سامية للبلاد المصرية وللعالم الإسلامي ، وأن حياة الأمم حياة صالحة لا تكون إلا بفهم الدين وبيانه وإرشاد الناس اليه .

وكما أن مصر موضع آمال الأمم الإسلامية في الثقافة والعلم والمدنية ، وفيما يجيش بصدور تلك الأمم من آمال جسام للإسلام وأهله ، من مجد وعزة ، الى صولة وقوة ودفاع عن الحق ، الى مقاومة للطغيان ، حتى يعود التاريخ الإسلامي سيرته الأولى في أروع مظاهرها ، كذلك الفاروق - أطال الله حياته في السعادة والعز - هو قبلة الجميع ، ومعقد رجائهم ، وله من الفطرة



السليمة ، والسريرة الطاهرة ، والنظر الناقب ، والإحاطة التامة بأحوال الأمم الإسلامية ،  
والحرص على أن يراها عزيزة متضامنة في الغاية والقصد ، عزيزة بالعلم والدين ، لها من  
المكانة الرفيعة ما يجعلها في الصف الأول من صفوف الأمم ، قائمة بقسط عظيم في سلام العالم ،  
وتضميد جراحات الإنسانية ؛ له من ذلك كله ما يجعله أهلاً لأن تتجه إليه الأبصار .

وكما نحتفل بالهجرة لما لها من الآثار البالغة في قوة الإسلام وعزه ، نحتفل بعيد الفاروق ،  
خلاله الكريمة الجديرة بالإعجاب ، ولما نؤمله فيه من عز للإسلام عظيم يكون لجلالته فيه أكبر  
الآثر وأحسن التوجيه .

ونسأل الله القادر على كل شيء للأمة المصرية رعاية من الله وعونا ، وهدايا وتوفيقاً ، وللأمة  
الإسلامية جميعها صفاء وأمناً وسلاماً ، وأن يعيد للعالم جميعه عهد سلام ورجوع الى الله سبحانه ،  
وأن يؤيد الفاروق بروح من عنده ، ويدم له التوفيق ، ويعزّه بالدين !

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة

انتهى أمر قريش الى التآمر على حياة النبي صلى الله عليه وسلم على حالة لا تمكن عشيرته من الثأر له ، فتسكنى بقبول الفدية عنه ، وذلك جريا على رأى أحدهم فى أن يشترك فى ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأخذها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا البدء فى العمل من فورهم .

فأنبأ الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره باللاحاق بصحابه فى المدينة ، فجاء من ساعته الى أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له فى الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصديق براحتيه اللتين أعدهما ، وبجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . ثم ترك أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم ، مواعدا إياه التقابل فى جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقره مؤتمرهم ، فأمر النبي عليا أن يرقد فى سريره ، وموها أنه هو حتى يشغلهم عنه بعض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذ يسيران جادين حتى انتهيا الى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخل فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا لاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا فى أثناء ذلك ينظرون من خصاص الباب ( أى فُرْجَه ) فيرون رجلا على سرير النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم مسجى ، فيظنون أنه هو فيطمثنون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فتنبه النائم وإذا هو على بن أبى طالب ، فسألوه : أين محمد ؟ فقال : لا أدري ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الاقدام ، فزالوا يسرون حتى انتهى القائف الى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الاقدام . فلما نظروا الى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان فى أثناء ترددهم على الغار يرى أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم

وهذا روعه ، وبشره بأن الله منقذه ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » . وقد صدقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأقام رسول الله وصاحبه في الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان بيت معهما عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقیف لقین ( أى حاذق سريع الفهم ) ، فكان يُدَلج من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيسمع الأخبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما واه . وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرطاهم ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءها الدليل بالراحتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلوون على شيء ، وكان أهل المدينة قد أخبروا بسفره إليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين مغتبطين وساروا معه ، فعُدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقاء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك في ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأقام صلى الله عليه وسلم بقاء ليالي أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المسلمين واليثربيين ، وقد دُعي الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم تحول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فاستقبله أهلها نساء ورجالا بما يستقبل به كبار الفاتحين ، وكان الناس يسرون خلفه مشاة وركبانا يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

وأدرسته صلاة الجمعة وهو في ديار بني سالم بن عوف ، فنزل وصلّاها ؛ وهذه أول جمعة صلاها جماعة ، وخطب فيها ، صلى الله عليه وسلم .

ثم سار وكلما مر على ديار للأنصار دعوه للنزول عندهم ، ولكنه فضل أن ينزل بدار خالد ابن زيد ، وهو الذي عُرف بعد بأبي أيوب الأنصاري ، وكان من بني عدى بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده .

وفي المحل الذي أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل إليه بعد أن لبث في دار أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب في إيواء المهاجرين حتى حكموا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

### نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فانه يشف عن عقيدة راسخة في رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو في ميعة السن ، ورَبِّق الصبا ، لأمكن تحليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازاتها في سبيل الشهرة ، ولكنه كان في عشرة الخسین ثم آلت الى عشرة الستین حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها الى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لكان أمرها على التعليل ، فان من الناس من يأسون الى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدي المشركين على أصحابه وعليه بالأذى حتى اضطر عدد كبير منهم الى المهاجرة مرتين ، ضنا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذي يحمل الأسر برمتها على الهجرة الى البلاد القاصية ، بالأمر الذي يستهان به . ناهيك بالمخاوف التي تحمل أصحاب النبي على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التي تحمل مثل عمر في شدته على النجاة بنفسه والمهاجرة الى يثرب ، وتدفع بأبي بكر في تقانيه في حب نبيه على أن يستأذنه في أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا منع رسول الله له ليهاجر في صحبته .

فالداعية الذي يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا في نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصده ، ولكن الذي يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا اليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة في قوله تعالى : « يأياها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين » .

وهذه الثقة من النبي صلى الله عليه وسلم في وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه في بقاءه بمكة الى الليلة التي تأسر فيها المشركون على قتله ؛ وكان في وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل في كسر شره خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يرضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبي ليلاحق به ، إلا والخطر محقق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه كان في غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم قريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتكلمون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصديق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت اليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم كما رآه قراؤنا في الآية المذكورة في هذا الفصل .

فهذا الثبات المحير للعقل في وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفدّج ، وهذا لا يكون بغير وحى . ومن يتأمل في انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى اليه الأثر ، يأخذ العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يحتاج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصاً مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبلية ، وقد دلهم قائمهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة في قائمهم (١) ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار فاعراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدي الكلب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول الى الغار لنفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أذراجهم دون أن يحاصروه أياماً وليالى حتى يتحققوا من خلوه ، والا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال في أمر خطير في نظرهم الى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفي بهذا ، ولكننا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا في كل الطرق التي يمكن أن يتسرب منها الى يثرب كبسكة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هي عادة من يهجم القبض على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليلهم بأرفع صفات الحيلة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدى دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنني التزمت في هذه السيرة أن لا أنجاوز أصول الدستور العلمى ، فلا ألجأ الى الظن في موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها الى ما يمكن الخصوم من تخرجه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغاب من قريش عما هم بصدد ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة الى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبي الى حيث لا يراه العرب في مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته .

بقى علينا أن ننظر في النظام الذى أقامه النبي صلى الله عليه وسلم لجماعته ، وفي الأصول التي وضعها للقيام بمهمته ، وفي المنازعات التي ائتمت على دعوته ، والحروب التي أثارها الوثنية لمعاكسته ، وفي الأسلوب الذي جرى عليه صلى الله عليه وسلم في بناء دولته . كل هذه المناحي متوِّدِّنا الى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجبة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرنا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله ؟

محمد فريد ومبرى

(١) القائف : من يتبع آثار الأقدام لمعرفة ابن انتهت . وهو يستعمل في تعقب الهاربين ، جمه قافة . وقَيْفَ

## أفعال العباد

طلب إلينا أن نكتب كلمة في أفعال العباد نبين فيها الحق مما عليه الفرق الإسلامية . فنذكر ما حضرنا من كلام العلماء ، ومما أفيض علينا ، مما لعله أعظم الحلول وأفضل الآراء ، فنقول :

إنه ليكنى لنصرة مذهب أهل السنة ، وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البدئية ، وخالفوا المحسوس ، فإن كل إنسان يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ؛ وكل ما صادم الضرورة وناقض البدئية فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه ؛ وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ، ولا يضربوا من ضربهم ، ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الانسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، وجمع العجائب والغرائب ، لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الانساني ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم ، فترى المعتزلة والجهمية قد غالوا في التوحيد زعمهم حتى وصلوا الى التعطيل ، بنى الصفات ، وستسمع شيئا عنهم بعد ؛ والمشبهة تصدوا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام ؛ والرافضة غالوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا الى الحلول ، والقول بالمعصمة في غير الأنبياء ؛ والخوارج فرطوا حتى كفروا بالذنب ؛ والمرجئة أفرطوا حتى أغرروا الناس بالمعاصي ولم يقيموا لها وزنا ، الى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر الى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفي نقيض : كالمعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا ؛ وقال آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التي يصعب تحديدها ؛ وكذلك اختلافهم في الوجود ، وفي الضوء ، الى آخر ما يلهيك عن أعظم المصائب وأكبر الألعاب . ولا غرو فقد قال الله في حق الانسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، وقال في بيان طيشه : « خلق الانسان من نجل » « وكان الانسان عجولا » . وإن من ضعفه الذي خلق عليه جهله بضعفه ، « ولو عرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه » . وقد يفسد استعداد الانسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك ؛ والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة .

ولو تأمل المعتزلة قليلا لعلوا أن الموجودات تنقسم الى ماله الوجود من ذاته ، والى ماله الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ؛ بل إذا اعتبرت ذاته من

حيث هي كان عدما محضا . وقد عرف في أحكام الممكن أنه ليس له شيء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد في قبضة الحق يصرفه كيف شاء أنه تعالى أظهر للناس كل شيء ، وبين لهم كل طريقة ، ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الآخروية إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لهم : « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » ، فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدي الى صراط مستقيم ؛ وكم سمعوا من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ؛ وكل ذلك واضح المعنى ، طالى المبني ، سافر الحيا غير مبرق ولا محجوب ، فهو على طرف الثمام للعتاول ، ولكنهم يمرون به فلا يرون ضوءه المتلالي ، ولا يسمعون نداه العالى ؛ وكأن في آذانهم وقرا ، وعلى أبصارهم غشاوة !

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت في الأغنياء الذين لا يعرفون كيف يسرون ، والاذكياء الذين قتلوا كل شيء بحثا ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها ، وأدق خوافيها ، وجميع مبادئها ، وغاية مراميها ؛ فكأن لسان القدرة الإلهية يقول : أوجدت كل شيء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحا بينا على جانبي الطريق الذى تمر فيه كل يوم ، تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض ، ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تنظّلوا بشيء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا الى سعادتكم بشيء من تلك الوسائل التى جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكأنكم لا تبصرون أو لا تعقلون ! أفلا تعرفون بذلك أنكم مسيرون بقدرتنا نصر فكم كيف نشاء ، ولم يمنعنا من ذلك كله جعل الإعلام واضحات ، والطرق بينات ، والدلائل ناطقات ، ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا وأظهر في بيان تصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيك الأبصار تحرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لا ترون ذلك النور ، فلا تسلكون ولا تستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شيء محيط ، وأنه على كل شيء قدير ؛ فأين تذهبون أيها المحجوبون ؟! سنستدرجكم من حيث لا تعلمون ؛ وإنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ؛ وبيدنا ملكوت كل شيء وإلينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجل ، فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله ! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » !

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر ، حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات

أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمسكنا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، ولم يساعدنا الحظ ، الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .  
وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله في خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، فناشئ عن جهلهم بالله ، وجهلهم بأنفسهم ، فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلي يستدعي أن تدرك كنهه علاقة الخالق بالخلق . والفكر الانساني له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه ، وكأن من خواصه أنه لا يصل الى كنه الأشياء وحقائقها ؛ ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير ، فليس له بالعلم إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها ، ولذلك كانت الفلسفة في كل زمان مشار الأوهام ، ومعمش الخيالات ، ومنبع الشبهات .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر في كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهيمه أو قريبا منه . ولديك الوجدانيات التي لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام لم تذقه قط ، ولا ذقت ما يشبهه ؛ ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقاع ، ولا من خلق أكمه تلك الألوان المختلفة ؛ وهكذا الأشياء كلها . وأنت تعلم أن الحيوان البهيمن لا يبلغ بما له من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه ؛ فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام ، وهو هو ، صحة ما فعل الخضر بعد القطع ببطلانه . ومما يجب الالتفات اليه أن الطبع في هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع الى الله في إمداده بهديته .

وينبغي للانسان في هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه من شدة الجهل وقلة العلم ، وتردده في الأمور وحيرته في أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه ؛ وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه في كتابه العزيز بأنه ظلوم جهول .  
وقد كان ينبغي أن تعلم من التجربة المتكررة ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخلق في معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل !

ولنتنزل غاية التنزل فنقول : لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل في النصف الآخر ، فأتى الانسان في توهمه نفى الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجلي بحكمة ربه كاف شاف ، وأن علمه بكمال ربه



في جميع أسمائه الحسنى مع نقص العبد في كل شيء وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعاً عن اتباع سنة إيليس حيث نازع ربه في حسن سجوده لآدم . وهذه هي سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : « ما ولائم عن قبلتهم التي كانوا عليها » . وقد قال سبحانه وتعالى للملائكة : « إني أعلم ما لا تعلمون » . قال على كرم الله وجهه لمن سأله عن مثل هذا : اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسعى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخاً . وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجذاله ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !

ولنتقف هنا اليوم ، وموعدا العدد الآتي ، إن شاء الله ؟  
يوسف الهموي  
عضو جماعة كبار العلماء

## فضيلة العمل والكسب

قال على رضي الله عنه : من مات تعباً من كسب الحلال ، مات والله عنه راض .  
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لأرى الرجل يعجبني فأقول : هل له حرفة ؟ فإن قالوا : لا ، سقط من عيني .  
وروي أن داود عليه السلام مر بأسكاف فقال له : يا هذا اعمل وكل فإن الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل .  
وقال أحد الحكماء : كسب الحلال ، والنفقة على العيال ، من أعمال الأبدال .  
وقيل لبعض العلماء : ما المروءة ؟ فقال : العفة والحرفة .  
وقال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة : ما يسرني أني كفت أمر الدنيا كله لثلاث أتعود العجز .  
وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطاً . وقال ابن شاذب : كان إدريس عليه السلام خياطاً .

# السنة

## طاعة ولاة الامور

عن جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ ، قَالَ : « دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ ، قُلْنَا : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! حَدَّثَ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ : دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَايَعَنَاهُ ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا ، وَاثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ؛ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا ، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بَرَهَانٌ » . رواه البخاري في كتاب الفتن .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران : (١) بيان معناه إجمالاً ؛ (٢) حكم طاعة ولي الأمر في الشريعة الاسلامية ، وبيان ما يترتب على مخالفته في السر والعلانية من الأضرار .

١ — أما معنى هذا الحديث : فهو أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا أحرص الناس على تعلم كل ما عساه أن يصلح دينهم أو دنياهم ، وكانوا لا ينفكون عن البحث عن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ، ليكون لهم به أسوة حسنة . وهذا هو السر في نجاحهم وتفوقهم على الأمم القوية التي كانت في عهدهم .

جُنَادَةُ بْنُ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ذهب لعيادة عبادة بن الصامت وهو مريض ، فلم يترك الفرصة تمر دون أن يستفيد منه فائدة من الفوائد التي استفادها عبادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يحدثه ببعض ما سمعه منه عليه الصلاة والسلام ، وقال له : إن هذا الحديث ينفعك الله به ، لأن من ينفع الناس بعلمه يناله من ذلك النفع قسط كبير ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ وَعَدَ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ يَنْفَعُونَ النَّاسَ بِعِلْمِهِمْ وَعِدًّا حَسَنًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وفي ذلك حث على نشر الفضائل الدينية وإذاعتها بين الناس ، لأن الذين يعلمون شيئاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ويكتمونه ولا يذيعونه ، لا ينتفعون به على الوجه الكامل الذي يرضاه الله ورسوله ، بل هم مسئولون عن ذلك ومؤاخذون عليه إذا تعمدوا كتمانهم أو سئلوا عنه فلم يجيبوا . ولقد تأدب جُنَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يقل لعبادة

ذلك ، لأنه يعلم أن عبادة لا يضمن بنقل ما يعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب خاطر ، وهذا ما وقع فعلاً ، فإن عبادة قد حدثه بحديث جامع لكل ما يترتب عليه نظام الحياة الدنيوية والأخروية ، فقال له : إننا قد بايعنا النبي صلوات الله عليه على أشياء ، ثم ذكر له أهم هذه الأشياء ، وأعظمها قدراً ، وهو أمران :

(أحدهما) : « السمع والطاعة » في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، في جميع الأحوال التي يستطيعون فيها العمل بذلك ؛ وهو صلى الله عليه وسلم قد أمرهم بكل الفضائل الخلقية التي يترتب عليها صلاح معاشهم ومعادهم ، ونهاهم عن كل الرذائل الخلقية التي تضرهم وتضر المجتمع الانساني .

(ثانيها) : « ألا ينازعوا ولاية الأمور » ولا يخرجوا عليهم في أمر من الأمور ، إلا إذا أمرهم بالمروق من دينهم ، فإنهم في هذه الحالة لا يستجيبون لهم ؛ وذلك لأن الخروج على ولاية الأمور وعدم تنفيذ أوامره مثار للفتن الضارة التي قد تذهب بكيان الأمة ، كما سنبينه بعد .

وقوله في الحديث : « في منشطنا ومكرهنا » ، معناه في حال نشاطنا وفي حال كرهنا . فالمنشط بفتح الشين : مصدر ميمي معناه النشاط ، يقال : نشط بكسر الشين نشاطاً فهو نشيط . والمكره بفتح الميم والراء : مصدر ميمي كذلك معناه الكره بضم الكاف وهو المشقة . وغرض عبادة أن يقول : بايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حالة النشاط وحالة الكسل ، فلا يحل لمسلم أن يتبع العوامل المنبطة عن القيام بما أمره الله به ورسوله من كسل وغيره .

أما قوله بعد ذلك : « وعسرنا ويسرنا » ، فمعناه أننا بايعنا الرسول صلوات الله عليه على السمع والطاعة والقيام بما يأمرنا به في حالة اليسر وفي حالة العسر . وليس معنى هذا أن الرسول قد كلفهم بما هو خارج عن مقدورهم ؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وإنما معناه أن يقوم كل فرد من الأفراد بما هو في طاقته ، فمن كان معسراً لا يستطيع أن يبذل مالا فعليه أن يعمل بجوراحه السليمة التي يستطيع أن يستخدمها في طاعة الله ورسوله ، وخدمة دينه ووطنه ، كما ورد في حديث آخر .

وقوله : « وأثرة علينا » بفتح الهمزة والراء والثاء ، أو بضم الهمزة وسكون المثناة ، أو بكسرها مع الإسكان ، معناه الانفراد بالشئ والاختصاص به مع كونه مشتركاً . والمعنى أنه لا يستأثر على أصحابه بما لهم فيه استحقاق . فهو يقول : بايعنا الرسول على ألا نتحرف عن العمل الذي يكلفنا الله به ورسوله ومن يلى أمرنا من أجل أن يمنعنا حقنا في الغنائم أو المناصب أو نحو ذلك ويؤثر بها غيرنا علينا ؛ بل يجب علينا أن ننفذ الأوامر والنواهي بصرف النظر عن كل اعتبار .

وذلك هو الفناء في سبيل الإصلاح الاجتماعي والخلقى ، فان العامل في سبيل الإصلاح ينبغي له أن ينفذ ما هو منوط به ، بصرف النظر عن كل ما يحيط به من عوائق ، فلا ينظر الى مصاحته الشخصية أيًا كان حالها ، ولا يبالى بالأمور المادية التي تحيط به ، بل يجب أن يكون كل همه منحصرا في أداء ما هو مكلف به من خدمة المجتمع الذي هو فرد من أفراد مجده وإخلاص ، بصرف النظر عما وراء ذلك من متاع الحياة الدنيا وزينتها . وذلك في الواقع أساس الإصلاح الاجتماعي ، فإن العامل الذي يريد أن يرضى الله عز وجل في قوله وعمله ، يجب عليه أن لا يتطلع الى ما وراء ذلك من مال أو جاه أو منصب ؛ ومن يفعل ذلك فقد أساء الى عمله المنوط به ، وأساء الى المجتمع الانساني ، بل وأساء الى نفسه من حيث لا يدري ، لأنه بذلك يكون قد أدخل بأداء واجب من الواجبات المقدسة في سبيل منافع زائل لا قيمة له في الواقع ، وكان مثلا سيئا لمن عساه أن يقلده في فعله فيتضاعف شره . ولعل كثيرا من الناس يغفلون عن هذا المعنى الجليل ، وهذا الأدب الخلقى العظيم ، فيقتصرون في أداء واجباتهم لأنهم يرون في ذلك تشفيا لأنفسهم من حيف لحق بهم ، ولكنهم في ذلك مخطئون كل الخطأ ، لأن الأعمال النافعة يجب أن تؤدي لذاتها ، وأن يقصد العاملون ابتغاء مرضاة ربهم بصرف النظر عما سواه .

أما قوله : « وألا ننازع الأمر أهله » ، فعناه ظاهر ، وسيأتى بيانه بعد . وقوله : « إلا أن تروا كفرا بواحا » فعناه « كفرا ظاهرا » . تقول : باح بالشئ يباح به بواحا ، إذا أذاعه وأظهره . وبعضهم يقول : يجب أن يكون اللفظ بواحا بالهمز ، لا بواحا . وعلى كل حال فالغرض منه مفهوم كما ذكرنا .

٢ — أما حكم طاعة ولى الأمر في الشريعة الإسلامية فهي فرض مقدس لا يجوز لأحد من الناس أن يخرج عنه قيد شعرة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . فطاعة ولاية الأمور مقرونة بطاعة الله ورسوله ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في وجوب طاعتهم ؛ منها قوله صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ؛ وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوز وعلى الرعية الصبر » . من حديث رواه ابن ماجه وغيره .

وهذا الحديث الذى معنا يدل دلالة صريحة على أن طاعة ولى الأمر فرض مقدس على المحكومين ، فإن عبادة يقول : إننا بايعنا الرسول عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة في كل حال من أحوالنا ولو شق علينا فعله ؛ وبايعناه على أن لا ننازع ولاية أمورنا فيما يأمر ونا به ، بل ننفذه ولو لاقينا فيه عسرا ومشقة ، ماداموا لم يأمرونا بالخروج على ديننا .

وهذا المعنى يدور عليه نظام الأمة الإسلامية في كل أدوار حياتها ، لأن الدين الإسلامي قد حذر المسلمين عن إثارة الفتن التي يترتب عليها فساد نظامهم ، مهما لاقوا في سبيل ذلك من العنت والإرهاق والعسر والمشقة . فإن الصبر على مثل هذا يوطد دعائم الوحدة ، ويثبت أركانها ، ويجعلهم في مأمن من أعدائهم في الخارج ، لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تذهب بقوتهم ، وتضعف شوكتهم ، وتجعلهم عرضة للمغيرين دائماً . على أن الصبر على ما قد يشعرون به من المكارِه قد يكون فيه مصلحة آجلة لهم تخفي عليهم حقيقتها ، فليس من الصواب أن يخرجوا على سلطانهم لمجرد مشقة أو عسرة يجذبونها منه .

هكذا إذا كان في أمر السلطان ونهيه خفاء ؛ أما إذا أمرهم بما فيه مصلحة ظاهرة يقوم عليها شرفهم وحفظ كيانهم ، فإنه يفترض عليهم أن يطيعوه في تنفيذها طاعة عمياء ، مهما كلفهم ذلك من مشقة وحرج ، وبذل نفس أو مال . ذلك لأنهم في هذه الحالة لم يشعروا بنتائج الأمور ، ولم يقدروا الفضيلة حق قدرها . مثلاً : إذا أمرهم السلطان بإعداد العدة للقاء عدو أو اتقاء شر ، فإنهم في هذه الحالة يفترض عليهم أن يتلقوا هذا الأمر بالسمع والطاعة ، وأن يتعاونوا جميعاً معه على تنفيذه ، وأن لا يجحدوا في أنفسهم حرجاً من هذا الأمر بأية حالة من الحالات ؛ فإن الله تعالى قد أمرهم بمثل ذلك الأمر صريحاً ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولقد كان لهم في المسلمين الأولين أسوة حسنة ؛ فسيدنا عثمان رضى الله عنه بذل جل ماله لتجهيز جيش كامل في وقت كان المسلمون في ضيق وعسر . وكثير من المسلمين كانوا يأتون إلى رسول الله يحملون كل ما تملكه أيديهم من متاع ويقولون له : هذا ما تملكه أتيينا به لينفق في سبيل الجهاد .

سار المسلمون الأولون على هذا المنوال من تضحية المال والأنفس والشهوات في سبيل العزة والكرامة ومقاومة الأعداء ، فأصبحوا بذلك سادة العالم يومئذ .

وياحبذا لو اقتدى بهم من بعدهم في هذا العمل الجليل ، وذلك الخلق الفاضل ، فإنهم لو فعلوا ذلك لظلت لهم شوكتهم قائمة ، وعزتهم باقية خالدة . ولكن من الأسف الشديد غلب عليهم حب الشهوات والأنفس والأموال ، فضاعت بذلك شجاعتهم الأولى ، واستمرءوا عيش الذلة والهوان ، فضنوا بما يصون كرامتهم ، ويحفظ لهم عزتهم التي كانوا عليها !

عبد الرحمن الجزيري

## ذكري هجرة محمد

صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : « إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ . » وقال تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَا كِرِينَ » :

للحوادث الجسام رنين قوى على الاسماع حين ورودها عليها ، إذ تحدث برناتها القوية على السمع تكيفاً للنفس ، وتأثيراً على الروح والعقل ، فتجعل السامع ينتقل بفكره من حالته العادية الى حالة السمو والارتفاع الى الدرجة التى تجعله فى مستوى من شاهد تلك الحوادث وكان منها على مرأى ومشاهدة . وأعظمُ حادث عرفه التاريخ الاسلامى ، حادث الهجرة التى انطلق فيها محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق من مكة خفية ، إذ خرجا من دار أبى بكر فى الثلث الأخير من إحدى ليالى الصيف قاصدين الى يثرب ، وقد كانا يعلمان حمارة القيظ ، وما تتلظى به رمال الصحراء المحرقة الفسيحة فى تلك الآونة من الزمن ، ولكنهما لشدة إيمانها وقوة يقينهما ومنتهى تضحيتهما من أجل غايتهما ، نسيا أهوال السفر ومتاعب السير ومشاق الرمال ، وهانت عليهما هذه الصعوبات المهلكة ، وتناسيا تلك الخطوب المدهمة ، نظرا لأنهما قد ارتفعت أرواحهما ، وصفت نفوسهما ، ورقت أفكارهما الى درجة جعلت غايتهما منحصرة فى الوصول الى سلامة الدعوة التى حملها الرسول وآزره عليها صاحبه أبو بكر الصديق .

ولم يكن التفكير فى الهجرة والباعث اليها وليد الأسابيع والأشهر ، بل هو وليد السنين والظروف القاسية ، والحوادث المتتالية ، التى أنبتتها الأحقاد والحسد فى نفوس قريش ، وما خافوا عليه من زوال سلطانهم ، وعفاء عزهم ، وانحساء سيطرتهم على أهل تلك الجزيرة ، وذلك لأنهم كانوا حراس الكعبة ، ويبدؤهم مقاليد البيت الذى تخرج اليه العرب جميعها ، ويفدون اليه من كل صوب ؛ فإذا تفكير محمد فى الهجرة وبحنه عن مكان يثب فيه الدعوة قد جال بنفسه عقيب البعثة ، عند ما نزل عليه قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، عند ما دعا أهله وعشيرته ليتخذ منهم عوناً على نجاح دعوته وإبلاغ رسالته ، فما كان منهم إلا أن سخرُوا منه ، وكانوا حرباً عليه وعلى ما جاء به من الدعوة الى عبادة الله وحده ، وترك السجود لأصنامهم التى ورثوا عبادتها عن آبائهم ، وكانت ينبوع المجد والفخار عندهم .

ولقد أخذ التفكير في الهجرة يزداد في نفس محمد يوما بعد يوم ، فكلما وجد من أهل مكة إعراضا عن دعوته ، ومعا كسة لها ، ازداد تفكيره واشتد بحثه في إيجاد بقعة صالحة يغرس فيها شجرة الإيمان ، ويثبت فيها أصلها ويعلو فرعها ، بعد أن اشتد يأسه من إسلام أهل مكة ومن جاورها ، وبعد أن ردت ثقيف حين ذهب الى الطائف يلتمس من أهلها الظهير والمعين ، فما كان منها إلا أن أغرت به سفهاءا وصبيانها للسخرية منه ، والاستهزاء بما دهاهم اليه ، حتى لقد بلغ به اليأس والقنوط ؛ فجلس بعد جهد سفهاء قريش له عند حائط لعبنة وشيبة ابني ربيعة يجتمعي به من عبث السفهاء وسخرية الأغبياء من أهل ثقيف ؛ ولقد جالس الى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران اليه الى ما هو فيه من شدة الكرب وظلمة الدنيا في وجهه وضيقها عليه على ما هي به من رحابة وسعة ، حتى لقد دفعته هذه الحادثة إذ يتس من النصير والمعين الى أن يرفع أكف الضراعة الى الله تعالى ، ويقوه بقوله عليه السلام : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حياتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تسكني ، الى بعيد يتجهمني ، أو الى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، ولكن طافبتك أوسع لي ! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، !

ولم يكن نصيب محمد من ثقيف بأكثر مما كان نصيبه من كندة وكتب وبنى عامر وبنى حنيفة وغيرها من قبائل العرب التي اشتد أذاها وخش قولها له ، فقد قل نصيره ، واشتد أعداؤه ، حتى بلغ التفكير بهم الى العمل على إيمانه مع من تابعه جوعا ، وكتبت بذلك صحيفة علقت في جوف السكبة تتضمن قطع العلاقات بين محمد وأتباعه ، وبين سائر قريش ، حتى لقد حرموا البيع والشراء بينهم ، وتوعدوا من خالف تلك الصحيفة أو حمل على نقض حرف مما جاء بها بالندير الشديد والعذاب الأليم ، طمعا منهم في أن يعدل محمد عن الدعوة التي جاء بها ، ويبقى على سلطانهم وعزمهم وغارهم في تلك الجزيرة ، فكلما فشلت قريش في مكيدة من مكائدها عمدت الى مكيدة أخرى .

ولقد كانت آخر تلك المكائد ونهاية السهام التي توجهها قريش الى محمد ، هو ذلك الاجتماع وتلك المؤامرة التي حدثت بدار الندوة ، إذ تشاوروا في أمر محمد وكيفية الخلاص منه والقضاء عليه ، واستراحتهم من المخاوف التي ينتظرونها ، فأشار بعضهم بحبسه وتكبيله بالسلاسل والأغلال حتى ينحصر شره وتخمند نار دعوته وينساه أصحابه ؛ فعورض ذلك الرأي بأن أصحاب محمد لا يتركونه دون أن يخوضوا غمار حرب تصطبى نارها جزيرة العرب وتدور الدائرة عليها . وقال البعض الآخر : أخرجوه من مكة حتى تنقطع دعوته عن أهلها ويزول اتصاله بأتباعه ؛ فعورض ذلك الرأي أشد المعارضة لما كان يتوقعه المعارضون الذين

لم يفسوا بيعتي العقبة الصغرى والكبرى اللتين أبرمهما محمد مع أهل يثرب ؛ وكان المعارضون يعرفون شدة الوفاء والمناصرة من أهل يثرب الذين قالوا عند العقبة الكبرى ، وهم زعماء الأوس والخزرج ، قوله صدق يفدوننا بالمال والولد والنفوس والنفيس : « بإيعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » . فقد جال بخاطر المعارضين وطرقت أذانهم تلك المبايعة ، وما قطعته الأوس والخزرج على نفسها من مناصرة محمد ، والوقوف بجانبه ، والدفاع عن الحق الذي جاء به . كل هذه العوامل لم تغب عن أذهان هؤلاء المعارضين ، فاندفعوا لمعارضة هذا الرأي وقالوا : لا تخرجوه لأنه سيرجع عليكم مع أتباعه من أهل يثرب ، ويوقعون بكم شر البلاء وأعظمه .

وحينما عورض هذان الرأيان انبرى أبو جهل في صلف وكبر وزهو ، لما عرف به بين أهله من قوة الشكيمة وشدة المعارضة والخصومة لمحمد وأتباعه ، وقال : الرأي أن نجتمع من كل قبيلة رجالا جليدا فيضربوه بأسيا فهم ضربة واحدة ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها ، فيرضون بأخذ الدية . فانصاع الكل الى هذا الرأي ، وأخذوا يحبذونه .

وحينذاك صح العزم من الرسول صلى الله عليه وسلم على الهجرة ، حماية للدعوة ؛ وأمر على بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه ، وأن يتسجى ببردته ، فبادر على الى طاعته ، مع اعتقاده أن القوم يتربصون الفرصة لافتحام الدار لقتل محمد ، ولكن عليا لم يعبا بهذه المخاطر ، بل عزم على التضحية بنفسه اقتداء لمحمد ودعوته ، وصحب النبي أبا بكر في السير حتى دخلا غار ثور ، ولم يفتهما أن قريشا لا بد أن تطلبهما في غداة اليوم الذي تركا فيه مكة ، وقد تحقق ذلك ، فإن قريشا ذهبت تطلبهما ، وحلقت حول الغار الذي استترا فيه ، وفي تلك اللحظة من الزمن اشتد خوف أبي بكر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا نزل قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » .

ولما اطمانت نفسيهما من خوف قريش ، واصلتا السير حتى وصلا الى المدينة التي تهيا للقاء أهلهما ، واستعدوا جميعا من يهود ومشركين ومن آمن به من الأوس والخزرج ممن بايعوا بيعة العقبة الكبرى والصغرى ومن تابعه على الإيمان .

وهناك اشتد الزحام ، وخرج الكل يحتل طلعة هذا القادام العظيم . وكان أول ما فكر فيه الرسول حينما دخل يثرب ، أن شرع في بناء المسجد ، ومسكنه الذي يأوى اليه . وطبيعي من محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل أول تفكيره بناء المسجد الذي يؤدي فيه الركن الأعظم من أركان دعوته ، والعماد القوى ، ألا وهو ركن الصلاة ، فانها عماد الدين وقوامه .



ثم فكر بعد ذلك في جمع كلمة أهل مكة، وإزالة ما بينهم من اختلافات من أجلها اشتدت الحروب وطال أمدها ؛ فهو واجد أمامه الأوس والخزرج اللذين نشأت بينهما الحروب التي اختتمت ببعث ، أكبر حرب عرفها الأوس والخزرج ؛ ووجد أمامه اليهود تحتل بقاها كثيرة في المدينة وحولها ، وتحتمل التجارة ، وغير هؤلاء وهم المهاجرون الذين تبعوه في الهجرة وتركوا أموالهم وأولادهم بمكة . إذ لا بد لمحمد من أن يعمل على جمع الكلمة ومحو أسباب الخلاف .

ولقد وفق الى طريق يحقق له بعض ما أراد ، وذلك هو طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار ، فقد آخى بين نفسه وبين علي بن أبي طالب ، وبين عمه حمزة ومولاه زبير ، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد ، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الخزرجي ، وتأخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إزاء رتب عليه الرسول أحكام إخاء الدم والنسب . وبهذه الوسيلة استطاع محمد أن يوحد بين المسلمين القاطنين بيثرب ، واستطاع أن يقضى على الدسائس والوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، واستطاع أن يجعل للحرية في العقيدة منزلة محترمة لا يقدر أحد على مهاجمتها ، ولا يعذب صاحب الرأي ولا صاحب العقيدة من أجل المخالفة وترك ما ورثه من التقاليد وعبادة الأوثان .

وفكر بعد ذلك أن يوثق الرابطة بين المسلمين واليهود حتى يأمن من شرهم على الدعوة ، فأبرم بينه وبينهم معاهدات حسن الجوار وعدم العدوان وتمكين الحرية ، وبذلك استطاع النبي أن يتفرغ لبث تعاليم الاسلام ، ويوثق الروابط بين المسلمين ، ويزيد المودة بينهم والإخاء ، بتعاليمه ومثله العليا التي كان يضر بها لهم بأفعاله وأقواله ، إذ يقول في بعض خطبه : « من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها » . وكان يضرب لهم الأمثال بتواضعه وزهده في الحياة ، وما عليه من التقشف في المعيشة من مأكل وملبس ومسكن .

ولقد ظهرت تعاليمه واضحة جلية حينما سأله علي بن أبي طالب عن السنة التي يرتضيها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه فقال : « المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسى ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر رداى ، والرضا غنيمتى ، والفقر نفى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبي ، والجهد خلقي ، وقرة عيني في الصلاة »

كل جملة من هذه الجمل تصلح دستوراً تبني عليه أقوى الحضارات وأرقاها ، إذ بالعقل وحده تستطيع الحضارة والمدنية أن تتقوى دعائهما ، فما بالك إذا انضم الى العقل سلاح العلم ؟ وما بالك أيضاً إذا انضم إليهما جميع هذه الصفات التي جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم من سنته وأصول تعاليمه ، التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم في المدينة وما جاورها ، مما أوقع الرعب في قلوب

اليهود ، وجعل قوتهم تضعف يوما بعد يوم ، ودسستهم تشدد بين المسلمين دون جدوى ولا فائدة ، حتى لقد خيل إليهم أن يستميلوا محمدا ويعملوا على إخراجه من المدينة موطن عزهم ومحط تجارتهم بدعوى أن الرسل جميعا قد استقر بهم الأمر ببית المقدس ، فأولى بمحمد أن يترك المدينة وينزل بيت المقدس مهبط وحى الأنبياء ومحط تعاليمهم . وهناك فكر محمدا مليا فى القضاء على هذه المسكيدة ، وقلب وجهه فى السماء مبتغيا الى الله الوسيلة ، وفى تلك الآونة حقق الله مراده ، واختار طريق الخلاص من هذه الفتنة ، وأنزل عليه قوله تعالى : « قد ترى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وبذلك خاب رجاء اليهود فيما أملوا ، وتبين لهم فشل المسكيدة التى دبروها ، وتحطمت آمالهم فوق الصخرة التى وضعها الرسول لىبنى عايبها تعاليمه ، ويثبت عليها دعائم الايمان .

وبعد كل هذه المحاولات والقضاء عليها ، فكر محمدا طويلا فى مكة ومن ترك بها من أهله وعشيرته ، وفكر طويلا فيما صنعته قريش به من الأذى وما أذاقوه له ولأتباعه من العذاب والهوان ، وفكر أيضا فى تمكين دعوته وبثها فى جزيرة العرب وما جاورها ، بل فكر فوق ذلك فى محو الشرك والوثنية والعمل على توحيد الله والإخلاص له ، وحدد عبادته بما فى قوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

هذا هو أساس التوحيد الذى دعا إليه ، ومن أجله آذته قريش ، ومن أجله طاردته ثقيف وكندة ، ومن أجله اجتمع المشركون فى دار الندوة مؤتمرين على قتله ، ومن أجله ترك مكة ملتسما المدينة ، ومن أجله تحمل كل المصاعب وضحي بكل شيء .

ولم يترك الرسول أمر مكة وكفار قريش ، وكذلك لم يترك أهل مكة محمدا دون أن يعملوا على السكيد له ، وبذلك وقعت الغزوات بينه وبينهم ، من بدر ، وأحد ، وغيرهما ؛ وحصل بينه وبينهم صلح الحديبية الذى نقضت قريش ما جاء فيه وما قطعته على نفسها من عهود . ولقد كانت نتيجة النقض أن لا يجحد محمد بدأ من القضاء على قريش ، وأن يضع الحد الفاصل ويقول الكلمة النهائية بينه وبينهم ، وذلك بأن يدخل مكة ويقرر مصير أهلها حتى يأمن شرهم ، وقد أعد جيشا عرمرما بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، وزحف به الى مكة قاصدا فتحها دون إراقة دم .

ولما اقترب منها خرج اليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وسفيان بن حرب ، وبديل ، وغيرهم يستطلعون قوته ومعداته ، وينظرون الى ذلك الذى خرج من بلدهم مكرها مغلوبا على أمره بالأمس ، وإذ به يعود اليوم قويا فاتحا عزيزا يحمل راية الحق والدين الذى

دعاهم اليه ، فما كان منهم إلا المعاندة والخصومة . ولقد دخل أنصار الله الى مكة فلم يجدوا منها مقاومة ، اللهم إلا بعض مناوشات وقعت بين جيش خالد بن الوليد ومن لقيه من أهل مكة . ولما استقر المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم أخذ يستعرض صحيفة الماضي والذكريات الأليمة التي لحقت في هذه الأمكنة من قريش ، والعذاب الذي ذاقه ؛ ولكن نفس مجد أعلى من أن ينتقم لنفسه ويثأر لها ، فقد شكر الله تعالى أن هياً له الرجوع الى هذا البلد الأمين مكة ، أم القرى ، ومهبط وحيه ؛ ثم أخذ يطوف بالكعبة التي تشوقت نفسه إليها ، ولم ينقطع تفكيره عنها . ولما قضى طوافه وقف على باب الكعبة وتكاثر الناس حوله ، فقام فيهم خطيباً يتلو عليهم كتاب الله ، ويبين لهم حدوده وتعاليمه ، وأوامره ونواهيه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ثم سألهم بعد ذلك فقال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأتتم الطلقاء .

لقد عفا محمد صلى الله عليه وسلم عن الأعداء بعد أن ملك ناصية أمرهم ، واستولى على أرواحهم ، وأموالهم ، وما ذلك إلا لأنه قد وصل الى غايته ، وأدى رسالة ربه ، فليس في نفسه حفيظة أو غيظ ، أو حقد أو حسد ، لأن روحه العالية قد سمّت فوق الحفيظة والغیظ ، والحقد والحسد .

من أجل هذا كله كانت الهجرة وبواعثها من الأمور الجسيمة التي تحول الاسلام بسببها من حالة الركود والمعارضة بمكة ، الى حالة النشاط والجد والعمل بالمدينة : وهكذا كان الضرر والأذى والعنت الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أجلاه عنها سبباً في الخير ، ونصرة الحق ، وإعلاء كلمة الله . وصدق الله وحقت كلمته حيث يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .

عبد الله مصطفى المرافى

وكيل قسم المساجد بوزارة الأوقاف

## نظرات في المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء أثرها في الهيئات الاجتماعية



نظرنا في المقال السابق في الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهي الناحية التي يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قبلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعي يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حل وحدتهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر في هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهي أخص ما نعى به هذه المجلة :

عَرَفَ الدينَ موجد الشيوعية ( كارل ماركس ) الاسرائيلي الألماني في بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تهديدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجد الدين .

ويقول الذين يدعون الى هذا المذهب : « في كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادي ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعي . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التي كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميتاً لا تأثير له في الاقتصاد وفي النظام الاجتماعي » .

ونحن نبادر الى دحض هذه الآراء قبل الانتقال الى غيرها حتى لا يلتبس الأمر على القارئین : أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تهديدات الجماعات المظلومة ، فهي عبارة شعيرية ليس فيها عبقة من علمي النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى في عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعا وتزهدا ؛ وفي الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش في ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التي تعتبر في عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشباع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادي ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تولد في الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعني بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فاذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤملن من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت براثن

القادة الظالمين ، ولكنه يستمد من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الانسان إذا كانت قواه مستوعبة في طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتق الحيل للوصول اليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر في نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر في آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ؛ وكثيرا ما أداه شظف العيش الى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء اليها بالمشاهدة ، فانك حيث تصادف الفاقة والمُدم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث توافس اليسار والخفض ، تافى التوق للسمو الأدبي ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين في حقيقته غير الانتهاء الى المثل العليا في الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المسكود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فان تخيلت كائنا ميتا تسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلا كل الظلم ، لا عند الجماعات التي نالت حظها من الرغد ، وفرغت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتكامل . ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوَّى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية في أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويمرر الميول العدوانية نحو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم في أوروبا لا في مجاهل أفريقيا ، ولا في سهوب الأقيانوسية ؛ وليس في العالم مظهر أروع ، ولا مشهد أكل ، من الأمثال التي تضربها شعوب أوروبا في التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفي تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفي تحطيم أغلال العبودية ؛ وفي تلطيف سلطان العصبية ، وتعديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتجيف حقوق الضعفاء في الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد في كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها في الغرب في القرنين الأخيرين : فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من الثقة بين حاكم ومحكوم في هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين في الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولكن

شريكا له في الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التي تضمن حقوقه الطبيعية ، وتهيمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه في حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم في ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت في تحرير النساء حتى اتهمت بمحاباتهن ، وبث روح التمرد في قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح في شيء .

فلا أدري بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ولم تباغ الجماعات التي أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التي نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا في تفوقها ، وفي سرعة تطورها ؛ فأى سبب تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهي لا تحفظ وجودها في عقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وتين كل من تحدته نفسه برفع نيرها عن طاقه ؛ وتلك الأمم تعيش في مجبوحة الحرية ، لسكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعي فوق سلطان أحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيبتها .

لعل الذي أطال من لسان الشيوعية ضد الدين الى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الاولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التي اعترفت الفلسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لا تركازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملامشتها إلا باسقاط الإنسان الى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الانسانية تعود فتنتبه للنظر في ذاتها وعلاقتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فاذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية في النفس البشرية بالقوة ، أدام ذلك الى ارتكاب ضروب من العسف ترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين تزح تحت كلا كله ، ولا تنتعش من كبوتها حتى تتخلص منه ، كان للشيوعيين عذر في العمل على ملاشاته في جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتقاء

الأمم الى أرفع درجات المدنية في خلال العهود الانسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالامة العربية ، فقد نثت فيها الاسلام روحا عالية ، فأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية الى أوج لا يزال مضرب الأمثال الى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهاام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشئ الحكوماتها كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها الى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقصر سلطان العقائد على الحيز الشخصي ، واتسع للمجتمع بجملمته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف في توثباته عند حد .

فالمذهب الشيعي لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم في الاستثمار والادخار ، فنحول نفسه فوق ذلك الحق في تقييد عقولهم ، وحصرها في دائرة يحدها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الانسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت في سبيل التخلص منها أرواح أبناءها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يمسخوها في دائرة العقائد الدينية التي تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون الى ملاشاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أثبت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذي تتكلفه الشيوعية وتحتفظ به في سيل عرم من دماء البشر ، في سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضي ، فليس الانسان بالكائن الذي إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحاني الذي يحس بحاجته الماسة اليه . فالشيوعية تريد الانسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كبرشه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث في حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فاذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين ؟

محمد رفيع وعمرى

# حياة حبيب الإسلام

## عبد الله بن عمر

أشرقَت شمس الإسلام فارسلت بأشعتها إلى بيوتات مكة ، وكان من أول ما انفرج لها سقف آل الخطاب ، فأضاءت قلب فتى الفتيان عمر بن الخطاب فأصبح فاروق الإسلام ، وسرت منه سريان الكهرباء إلى قلب ناشئه وفلذة كبده وأكرم أهله عليه : ابنه عبد الله بن عمر ، فأمن معه ولما يشبَّ عن الطوق ؛ وقد اشتدت قناة الإسلام ، وعزت شوكته بهذه العناصر الجديدة التي دلفت إليه في ظل الفاروق وحمايته ، وضائق قريش بهذه العزة وتلك الحماية ، فتسمرَّ حقدُها ، وازداد بالموثمين أذاها ، حتى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، فكانت فتحا مبينا ؛ وهاجر عمر ، وتبعه من أهله ابنه عبد الله وسنَّه لا تعدو العشر ، وإذا فُضِّل اللسان والحجة يتحول إلى جهاد السيف والقوة ، ويخرج جنود الحق يقودهم رسول الله ، ويحدوهم الإيمان إلى غزوة النصر : إلى بدر الكبرى ؛ ويتقدم عبد الله بن عمر في أسنان أمثاله يعرضون أنفسهم على القائد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، فيردُّهم لصغرهم ، فيرجع عبد الله ونفسه - على طفولته - تضطرم شوقا إلى الجهاد ، فيرتقب الفرص ؛ وسرعان ما تقبل غزوة المحنة التي صهر الله بها نفوس المؤمنين ، واستخلص رجولتهم ، وطهر قلوبهم ، ومحص بطولتهم ، وأدبهم أكل الأدب ، فينهض عبد الله في غضارة شبابه ، وحاسة طفولته ، يعرض نفسه جنديا مجود بروحه في سبيل دينه وعقيدته التي ولد في أحضانها ، ونهد في مهدها ، فيأبى رسول الله إلا الصبر ، لظراءة إهابه وصغر سنه ، فيعود عبد الله وفي نفسه ما فيها متربصا الشَّهْر ، وكأنما هو في تشوقه إلى وقفة في صفوف المجاهدين يدفع بالزمن دفعا ليتقدم به إلى سن الجهاد حتى وقف به على سلم الخامسة عشرة من عمره ؛ وأقبلت على المجاهدين غزوة الخندق ، فتقدم إليها عبد الله يعرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوجس خيفة من الرد ، ولكنه في هذه المرة انتصر وفاز برضاء القائد الأعظم أن يسلكه في عقد الرجولة ، وينظمه في سلك المجاهدين ؛ ومن يؤمئذ لم يعرف أنه تخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن مم كان من أحرص الصحابة على ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعرف أحواله في حركاته وسكناته ، ونطقه وصمته ، وإقامته وسفره ، وإلى جانبه أكابر أصحابه ؛ روى ابن القاسم عن الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه قال : « أقام ابن عمر بعدي النبي صلى الله عليه وسلم



ستين سنة يقدم عليه وفود الناس ، فلم يخف عليه شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ؛ وكان ابن عمر من أئمة الدين . وسأل يحيى بن يحيى مالمسكا : هل سمعت المشايخ يقولون : من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا ؟ قال : نعم !

ولقد كان بعض أئمة التابعين يميل بينه وبين أبيه ، وهذه منزلة رفيعة جدا ، حتى كان سلمة بن عبد الرحمن يقول : « مات ابن عمر وهو مثل عمر في الفضل ، كان عمر في زمان له فيه نظراء ، وكان ابن عمر في زمن ليس له فيه نظير » .

وحقا لقد أوتي عبد الله بن عمر من المزايا والخصائص ما جعل حياته خصبة حافلة ، فلامزمته للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحرصه الشديد على المتابعة في كل شأن من شئونه ، وقرابة المصاهرة به ، ومكانه من نفس أبيه ، الى مكانة أبيه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، كل أولئك جعل لحياة عبد الله شانا عظيما في الحياة الاسلامية ، فكان من أوسع الصحابة علما ، وأملهم بالأحاديث النبوية ، وأقومهم بفهم القرآن .

وكان في فقهه يمثل مذهب المحافظين المتبعين أكمل تمثيل ، وهو يرى أن جميع حركات النبي صلى الله عليه وسلم وسكناته مكفولة بالعصمة ؛ قال الزبير بن بكار : « كان ابن عمر يتحفظ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأل من حضر من الصحابة إذا غاب عن قوله وفعله ، وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه ، وكان يعترض بإحاطته في طريق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض ناقته ، وكان لا يترك الحج ، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان رضى الله عنه من أشد الناس اتقاء للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحذرا من الإقدام على الفتيا ، فقد روى أنه سئل عن شيء فقال : لا أدري ، ثم قال : أريدون أن تجعلوا ظهورنا جسورا في جهنم ؟ تقولون : أفتانا بهذا ابن عمر !

وقد ذاق حلو الحياة ومرها ، فأقبلت عليه الدنيا حتى كان يضارب بالأربعين والخمسين ألفا . روى ابن الجوزي عن ابن عمر التيمي قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : شهدت جلولا وابنت من الغنائم بأربعين ألفا ، فقال عمر : يا عبد الله بن عمر لو انطلق بي الى النار كنت مفتدى ؟ قلت : نعم بكل شيء أملك ، قال : فاني مخاصم ، وكأني بك تباع بجلولا ، يقولون : هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أمير المؤمنين ، وأكرم أهله عليه ، وأن يرخصوا عليك كذا وكذا درهما أحب اليهم من أن يغفلوا عليك بدرهم ، وسأعطيك من الريح أفضل ما ربح رجل من قرش ؛ ثم أتى باب صفية بنت أبي عبيد فقال : يا صفية بنت أبي عبيد : أقسمت عليك أن تخرجي من بيتك شيئا وإن كان عنق ظبية ! قالت : يا أمير المؤمنين ذلك لك ؛ ثم تركني سبعة أيام ، ثم دعا التجار فباع منهم متاعا بأربعمائة ألف ، فأعطاني

ثمانين ألفاً وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفاً الى سعد ، فقال : اقسم هذا المال فيمن شهد الواقعة ، فان كان مات منهم أحد فابعث بنصيبه الى ورثته .

ولكن الدنيا بإقبالها لم تكن لتأخذ من قلب عبد الله بن عمر حيز ذرة ، بل كان معها أملك شباب قريش لنفسه ، وأبعدهم عن الميل للدنيا . يقول عبد الله بن مسعود : « لقد رأيتنا ونحن شباب متوافرون فما بيننا شاب هو أملك لنفسه عن الدنيا من عبد الله بن عمر » . ويقول جابر بن عبد الله : « ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مات به ومال بها غير عبد الله بن عمر » . ويقول السدي : « رأيت نفرا من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابن عمر » . ولهذا يقول سعيد بن المسيب : « كان ابن عمر حين مات خير من بقي ، ولو شهدت لاحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر » .

وكان رضى الله عنه بالدنيا جوادا في سبيل الله ، يؤثر الاتفاق بأحب شيء لديه ، روى أن عبد الله بن جعفر أعطاه في مولاه نافع عشرة آلاف درهم أو ألف دينار ، فقليل له : ماذا تنظر ؟ قال : فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو حر !! ومن مثله العليا في الإيثار ما رواه نافع قال : كانت لابن عمر جارية معجبة تدعى رمسه ، فاشتد عجبها بها فأعتقها ، وزوجها مولى له ، فأتت منه بولد ، فكان ابن عمر يأخذ الصبي فيقبله ثم يقول : واهالريح فلانة ! فقليل له في ذلك ، فقال : سمعت قول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى نافع أيضا أن عبد الله اشتكى فاشتري له عنقود بدرهم ، فأناه مسكين ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان فاشتراه منه بدرهم ثم جاء به اليه ، فجاء السائل ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرهم ، ثم أراد السائل أن يرجع فمنع ، ولو علم بذلك ابن عمر لما ذاقه .

وكان ابن عمر يتخادع في الله لمواليه فيعنت الصلحاء منهم ، فعرفوا منه ذلك فكانوا يخدعون به بكثرة عبادتهم ، فقليل له في ذلك ، فقال : « من خدعنا في الله قبلنا منه » . وروى زيد بن أسلم أن عبد الله مرّ براع فقال : هل من جزرة ؟ قال : ليس هاهنا ربها ، قال : تقول له : إن الذئب أكلها ، قال : فأتق الله ! فاشتري ابن عمر الراعى والغنم وأعتقه ووهبها له ؟

صاحب ابراهيم عربونه

## التجديد في الاسلام

— ٩ —

المجددون في القرن الثاني الهجري

١ — الإمام أبو حنيفة

١ — من هو أبو حنيفة ؟

هو الإمام الأعظم ، والحبر المقدم ، أول من دوّن علم الفقه ، ورتبه كتباً وأبواباً ؛ الذي أطبق العلماء على علمه ودينه ؛ اتخذوه المسلمون حجة فيما بينهم وبين الله تعالى ؛ صاحب المذهب الذي اتبعه وأخذ به مئات الملايين من المسلمين ، وعبدوا الله بمقتضاه ، وحكموا به في الأموال والدماء والأعراض ؛ وهو الذي يقول فيه الإمام مالك رضى الله عنه : لم أر مثل أبي حنيفة ، تالله لو قال إن هذه الأسطوانة من ذهب ، لأقام الدليل القياسى على صحة قوله . والذي يقول فيه الإمام الشافعى رضى الله عنه : الناس في الفقه عيالٌ على أبي حنيفة . والذي يقول فيه الإمام ابن المبارك : من جعل أبا حنيفة بينه وبين الله تعالى لا يخاف ، ولا يكون فرط في الاختيار لنفسه . والذي يقول فيه العلامة ابن خلدون : أبو حنيفة النعمان ، مقامه في الفقه لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلدته ، خصوصاً مالكا والشافعى .

٢ — نشأة أبي حنيفة وعصره وبيئته :

نشأ الإمام بالكوفة ، وولد بها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، في زمن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . ولقد عاش أبو حنيفة في النصف الأخير من القرن الأول ، قرن الصدر الأول ، كما عاش نصف القرن الثاني ، حتى توفي سنة ١٥٠ هـ

فعاصر التابعين ، وكان من كبارهم ، وعاصر الدولة الأموية من عهد عبد الملك بن مروان الى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ورأى كيف ألفت الجمعية السرية ، وكيف حملت على نقل الخلافة من الأمويين الى العباسيين ؛ وعاصر الدولة العباسية في مستهلها ؛ وعاصر من خلفائها السفاح ، والمنصور ؛ وعاصر الحوادث التي حدثت من عهد عبد الملك بن مروان الى عهد المنصور . وعاش بالكوفة وبغداد ، وكاننا زاهيتين زاهرتين بمجالس العلم ، وأندية الأدب ، وكان بهما عدد لا يحصى من العلماء ، والفقهاء ، والحكماء ، والأدباء ، والشعراء ، والنحاة ، وغيرهم ؛ فلقد عاش الإمام أبو حنيفة إذًا في أفضل البيئات الاسلامية الحافلة بأعظم الرجال ، وأكابر العلماء ، والعاملة بتعاليم الاسلام وثقافته وفضائله ، تلك الفضائل التي تكون أفضل الرجال ، وتجلب لمن اتبعها سعادة الدنيا والآخرة .

في ذلك العصر ، كان المسلمون قد اتصلوا بغيرهم من الأمم ، وشرعوا يعلمونهم الدين الاسلامي ، واللغة العربية ، ونشأ عن هذا الاتصال بين الأمة الاسلامية الممتلئة نشاطا وإيماناً وبين الأمم القديمة ، ذات الحضارات الخصبية العظيمة : نشاط عقلي عظيم ؛ وكان العراق من أهم مراكز هذا النشاط ؛ ولعل من الأسباب التي دعت الى هذا النشاط ، كما قال أحد الباحثين ، أن العراق كان مركز المعارضة السياسية لبني أمية ، يثيرها شيعة بني هاشم من ناحية ، والخوارج من ناحية أخرى ، ويثيرها عربها أنفسهم لأنهم لم يكونوا من قريش ، ولم يكونوا من مضر ، وكانوا يطمعون ألا تكون السلطة مقصورة على القرشيين ، أو المضريين ، بل تكون في العرب جميعا . في هذا العصر ، وفي هذه البيئة ، كانت الصلات قد استوثقت بين العرب ، وبين غيرهم من الأمم الاخرى ، وكان الذين اتصل بهم المسلمون قد أخذوا يتقنون العلوم الاسلامية ؛ وكان الموالي قد بلغوا حظا عظيما من النشاط في العلوم الاسلامية على اختلافها ، وفي كل ما كان يرويه العرب ، ويتوارثونه عن آبائهم في جميع أنواع المعارف ؛ وكانت الأحزاب السياسية في العراق قد بلغت من الخصومة مبالغاً كبيراً ، وانتهت من التضارب بالسيف والسنان ، الى نتيجة طبيعية : وهي التناضل بالقلم واللسان ؛ وأخذت تنظم آراءها ، وتدافع عنها في المساجد والمجالس ؛ وكان أئمة المسلمين من رؤساء الأحزاب ، يجتمعون في مساجد العراق ، خصوصاً في مساجد الكوفة والبصرة ، كل يعرض مذهبه ، وينظر فيه ، ويدافع عنه ، ويرد على خصومه ؛ وكان الناس يختلفون الى هؤلاء الأئمة يسمعون منهم ؛ وفي هذا العصر ، وفي هذه البيئة ، نشأ الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه وأرضاه ، فكان لهما من الأثر فيه ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

### ٣ — هل هو من الموالي أو من غيرهم ؟

(١) وردت نصوص تاريخية صحيحة يظهر منها أن الإمام أبا حنيفة كان من الموالي ، كما وردت نصوص أخرى تدل على أنه ليس منهم . ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن نذكر نصوص الطرفين : فأما الذين قالوا إنه من الموالي ، فمنهم يعقوب بن أبي شيبة بن الصلت ، فقد قال : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، مولى لبني تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل . ومنهم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي الذي يقول : سألت ابن اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة فقلت : لمن ولاؤكم ؟ فقال : سبى ثابت أبو أبي حنيفة ، من كابل شاه ، فاشتريته امرأة من بني تيم الله ابن ثعلبة ، فمئت عليه بالعتاق ، فولاؤنا لها . ومنهم عبد الرحمن المقرئ القائل : قال لي أبو حنيفة : ممن أنت ؟ قلت : من أهل دورق ؛ قال : فما يمنعك أن تعترى الى بعض أحياء العرب ؟ فهكذا كنت أنا ، حتى اعتزيت الى هذا الحى من بكر بن وائل ، فوجدتهم حى صدق . وأما الذين قالوا إنه ليس من الموالي ، فمنهم إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، فقد

قال : أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت ، بن النعمان ، بن المَرْزُبَان ، من أبناء فارس ، من الأحرار ، والله ما وقع علينا رق قط ! ومنهم صالح بن الحسن العابد الذي يقول : حسدت العرب أبا حنيفة لأنه لم يكن منهم ؛ وحسده الموالى لأنه لم يكن منهم . فقيل له : يا أبا الفضل ، ممن كان أبو حنيفة ؟ فقال : سأله رجل يوما فقال له : من أنت ؟ من ولدك ؟ فقال : أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ممن من الله على وعلى والدتي بالاسلام ، أنت في حل .

(٢) وعلى كل حال ، فالامام أبو حنيفة عربى المولد والنشأة والثقافة ؛ وإن كان جدوده من فارس ، ولا غضاضة في ذلك ؛ فقد سوتى الاسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فهي أعلى الأنساب ، وأقوى الأسباب ، فشرف العلم والتقوى فوق شرف النسب .

وكم للموالى ، وعلماء الفرس في الاسلام من فضل ، وكم لهم من مآثر ، وكم خدموا الاسلام وعلومه ، قال عطاء : « دخت على هشام بن عبد الملك بالرفافة فقال : يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ؛ فقال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت : نافع مولى ابن عمر . قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن أبى كثير . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصرى وابن سيرين ؟ قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : موليان . قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعى . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : عربى . قال هشام : لولا قولك عربى ، لكادت نفسى تخرج . »

وعلى الجلفة خملة العلم في الاسلام أكثرهم من الموالى والعجم ؛ وقد علل ذلك ابن خلدون فقال : « السبب في ذلك : أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة ، وإنما أحكام الشريعة كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة ، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ؛ وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ؛ فلما بعد النقل احتيج الى وضع التفاسير القرآنية ، وتقييم الحديث ، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات ، واحتاجت الى علوم أخرى هي قوانين العربية ، فصارت العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت

في جملة الصناعات ، وهى من منتحل الحضرة ؛ والعرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ؛ والحضر لذلك العهد هم العجم ، أو من فى معناهم من الموالى ، وأهل الحواضر الذين هم تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصناعات والحرف ؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ؛ فكان صاحب صناعة النجو سيبويه ، والفارسي من بعده ، والزجاج من بعدهما ؛ وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى ، فاكسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصبروه قوانين وفنا لمن بعدهم ؛ وكذلك حملة الحديث أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ؛ وكان علماء الأصول كلهم عجم ؛ وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين ؛ ولم يقيم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ؛ وظهر مصداق قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء ، لناله قوم من أهل فارس » . ومن هذا يتبين أنه لا غضاضة مطلقا إذا كان الإمام الأعظم من الموالى ، أو فارسي الأصل ، بعد أن ظهر أنه لم يقيم بتدوين العلم وحفظه إلا الموالى والأعاجم ، وبعد أن سوى الاسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لمخلوق على مخلوق إلا بالتقوى والعمل الصالح ؟

السيد عفيفى

## حكم متفرقة

قال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والجاهل لا يوافق الجاهل ولا العاقل ؛ مَثَل ذلك : المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ، فأما المعوج فإنه لا ينطبق على المعوج ولا على المستقيم .  
دخل خالد بن صفوان الخطيب المشهور الحمام ، فسمع رجلا يقول لابنه وهو يريد أن يعرف خالدا بلاغته : ابدأ بيداك وثني برجلاك . ثم نظر الى خالد وقال له : يا ابن صفوان هذا زمان قد ذهب أهله . فقال له خالد : بل ما خلق الله له أهلا !  
قال أبو الأسود الدؤلى : إن أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا .  
وقال أفلاطون : ما أملت نفسى إلا من ثلاث : من غنى افتقر ، وعزى ذل ، وحكيم تلاعبت به الجهال .

وقال أرسطو : الجاهل عدو لنفسه فكيف يكون صديقا لغيره ؟

وأحسن ما قيل فى ذم الجهل :

وأجسامهم قبل القبور قبور	وفى الجهل قبل الموت موت لأهله
وليس له حتى النشور نشور	وكل امرئ لم يحى بالعلم ميت

# الكلام والملتكلمون

— ٢ —

المعـتـزلة

ظهورها ومنشأ تسميتها :

أخفت الاضطهاد صوت أنصار حرية الفرد زمننا ، فظلت البيئات العلمية تتناقل هذا الرأي وتتجادل سرا ، حتى دخل يوما رجل على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين : لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ؛ وجماعة يرجئون أصحاب الكبار ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل — على مذهبه — ليس ركننا من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ؛ فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا ؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول : إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة .

هذه هي الأقصوصة الشهيرة التي يرجع اليها مؤرخو الحركة العربية نشأة المعتزلة وتسميتها . وقد ردها الأستاذ ه . س . « نينبرج » في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فصرح بأنه يستبعد أن يتباهى زعماء المعتزلة باسم وضعه لهم خصومهم ورموا به الى أن هؤلاء الزعماء قد حادوا بأرائهم عن الطريق السوى ، كما أعلن أهل الحديث هذه التسمية فيما بعد ليرفعوا من شأن الجماعة ويحطوا من شأن خصومهم . وعند هذا المستشرق أن منشأ هذه التسمية سياسى ، وأن واصل ليس أول من سمي معتزلا كما تزعم الأقصوصة السابقة ، وإنما هذا الاسم يصعد في تاريخ الاسلام الى سنة ٣٥ هـ حيث بدأت الفتنة السياسية ، وامتنع عدد من أكابر الصحابة عن مبايعة على ، وبايعه عدد عن طيب خاطر ، وعدد من وراء قلوبهم ، وظل كثير منهم على الحياد ، فتناقلت الالسنه أنهم اعتزلوا الخصومة القائمة ، ثم أخذت هذه الكلمة تتطور وتضطبع شيئا فشيئا بالصبغة السياسية ، الى أن كوث سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، حزب المحايدين ، ورفضوا علنا مقاتلة على كما رفضوا القتال في صفه ، وإن كانوا قد أعلنوا أنهم معه بقلوبهم ، وأنهم يحولونه ويتقون فيه ، فأطلق عليهم اسم المعتزلة ، وكان ذلك أساما لتسمية المعتزلة الذين أتوا بعد ذلك .

ويعلق ذلك الأستاذ المستشرق على هذا بقوله : وإذا فمعتزلة السياسة قد سبقوا معتزلة النوحيد ، والأولى هي التي كونت الثانية ، لا سيما وأن مسألة المنزلة بين المنزلتين التي هي سبب الاعتزال النظري لم تسكن إلا مسألة سياسية تتعلق في عمقها ببعض مشاهير الأشخاص الذين ساهموا في القنال ، وليس أدل على ذلك من الأمكنة التي تشغلها شخصيات على وعائشة وطلحة والزبير بين محاورات واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرها من زعماء المعتزلة . وفوق ذلك فإن هؤلاء الزعماء السياسيين كانوا في نظر أولئك العلماء المعتزلين مؤمنين أتقياء ، ولكن الحرب التي اشتعلت بينهم شطرتهم شطرين متعادين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، لأن الحق لا يتعدد . وهذا يقتضى أن يكون أحد الفريقين آتقيا ، ولكننا لا نعرف أيهما الآثم ، فينبغي أن يترك أمره لمن يعلمه . أما نحن فواجبنا أن نقف على الحياد ، وأن نحكم بأن أحد الفريقين فاسق لا تقبل شهادته ، بل إن عمرو بن عبيد — فيما يرى أهل الحديث — كان أفسى على هذين الفريقين من واصل ، إذ صرح بأن كل من اشترك في واقعة الجمل فاسق لأنه ارتكب كبيرة ، ولما كان قد تقرر أن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلة الكافر والمؤمن ، فقد ظل كل هؤلاء المحاربين بين الكفر والإيمان . وبما أن هؤلاء المحاربين هم إما أسلاف العلويين أو أسلاف الأمويين ، فقد وجب أن يكون أخلافهم على باطل . ومن هذا يتضح أن نشأة الاعتزال النظري كانت أول الأمر دعاية للعباسيين قبل استيلائهم على العرش ، ولهذا حينما ظهرت الدعوة العباسية كان أنصارها ينادون علينا بوجوب اعتناق آراء المعتزلة ، وأن هذه الآراء ظلت آراء البلاط العباسي زهاء قرن كامل .

وكما أرجع هذا المستشرق نشأة الاعتزال إلى السياسة ، أرجع كذلك إليها نشأة الجبرية ، حيث رأى أن جهم بن صفوان الذي كان ينادى بالجبرية المطلقة ، كان من دعاة الأمويين ، دفعوه إلى مخاصمة المعتزلة الذين كانوا يقولون بحرية الفرد التي كانت متناقضة مع عقيدة ملوك بني أمية ، ومتلائمة مع أنصار الانقلاب المنتظر .

ونحن لا نستبعد أن يكون كل ذلك حقا ، لأن تعذيب معبد ثم قتله بأمر عبد الملك ابن مروان ، وصلب أبي مروان الدمشقي على باب دمشق بأمر هشام بن عبد الملك ، وضعف هذه الحركة في عهد الأمويين ، وانتعاشها وتباهى أنصارها بها في عصر العباسيين ، وكذلك صداقة أبي جعفر المنصور لعمر بن عبيد وشهادته له بالسمو والتزاهة في قوله : « كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد » . واحتضان المهدي والرشيد والمأمون لرؤساء المعتزلة في عصورهم ، وإعلان المأمون في غير موارد أنه يدين بالآراء الاعتزالية ، وتعذيبه بعض الفقهاء وأهل السنة الذين لم يدينوا بآرائه . كل ذلك يدل في وضوح على صحة ما ذهب إليه هذا المستشرق .



غير أن العباسيين لم يكادوا يستولون على العرش حتى التفقتوا الى العلويين ليقضوا عليهم كما قضوا على الأمويين . وكانت هذه الحركة أيضا في حاجة الى دعاية ، فأوحوا الى رؤساء المعتزلة أن يخاصموا الشيعة ويشهروا بهم ، فأطاعهم أكثر معتزلة البصرة — وعلى رأسهم عمرو بن عبيد — من غير قيد ولا شرط ، وشذ عدد آخر عن هذا الامر ، وأبى أن يكون لعبة في أيدي السياسة ، فأعلن أنه لا يذم إلا المفرطين في التشيع ، أما المعتدلون فهم على حق . فكان ذلك أحد أسباب اختلافات المعتزلة وتفرقهم الى هذه الفرق التي سفشير إليها هنا .  
فرقها المختلفة :

أوصل المؤرخون المعتزلة الى عشرين فرقة ، هي :

- (١) الواصلية أصحاب واصل بن عطاء . (٢) العمريّة أصحاب عمرو بن عبيد . (٣) الهذيلية أصحاب أبي الهذيل العلاف . (٤) النظامية أصحاب ابراهيم بن سيار النظام . (٥) الاسوارية أتباع الاسوارى . (٦) الاسكافية أتباع أبي جعفر الاسكاف . (٧) الجعفرية أصحاب الجعفرين : ابن مبشر وابن حرب . (٨) البشرية أصحاب بشر بن المعتمر . (٩) المزدارية أتباع عيسى بن صبيح المزدار . (١٠) الهشامية أصحاب هشام بن عمرو الغوطى . (١١) الصالحية أصحاب الصالحى . (١٢) الحابطية أتباع أحمد بن حابط . (١٣) الحديدية هم أتباع فضل الحذبى . (١٤) المعمرية هم أصحاب معمر بن عباد السلمي . (١٥) الثامية هم أصحاب ثمامة بن أشرس النخري . (١٦) الخياطية أتباع أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط . (١٧) الجاحظية هم أنصار عمرو بن بحر الجاحظ . (١٨) الكعبية هم أتباع أبو القاسم بن محمد الكعبى . (١٩) الجبائية هم أنصار أبي على الجبائى . (٢٠) البهشية أنصار أبي هاشم (١) .

نبذة من تاريخ مدارسها :

لم يكد القرن الثالث يحل حتى كان المعتزلة قد كونوا مذاهب ذوات صبغات خاصة تمكنها من أن تجابه خصومها مجابهة الند للند ، وأسسوا لهم مدارس خصبة لم تلبث أن أزهرت وآت ثمارها في البصرة وبغداد والقاهرة وسوريا والأندلس ، وكان من الطبيعى أن تنتج من هذه الحركة القوية مجادلات واختلافات ، وأن تنفرع من كل مدرسة فروع متباينة في آرائها العلمية ونزعاتها السياسية . وهذا هو الذى حدث بالفعل .

ففي البصرة مثلا : أنشأ يوسف بن عبد الله الشحام ، وأبو على الاسوارى وآخرون ، دعاية كبرى لمذهب أبي الهذيل ، كما قام عباد بن سليمان بمناصرة مذهب الغوطى ، وإبراهيم بن إسماعيل

(١) انظر صفحة ٥١٤ وما بعدها من المواقف للإيجى ، وصفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب الشهر ستانى ، وصفحة ٤٠ وما بعدها من كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشرىين للامام فخر الدين الرازى .

المعروف بابن عليّة بمناصرة مذهب الأصم . ثم انفرد النظام من بين تلاميذ أبي الهذيل فأسس مذهبه الخاص الذي كان من دعائه فيما بعد : عمرو بن بحر الجاحظ . وفي النصف الأخير من القرن الثالث كان أبرز معتزلي البصرة الجبائي الذي أثرت مدرسته في كثير من شباب عصره ، ولكن لم يكد القرن الرابع يبتدىء حتى تفوقت عليها مدرسة ابنه أبي هاشم الذي كان من تلاميذه أبو عبد الله الحسين بن علي البصري المتوفى في سنة ٣٦٩ هـ — سنة ٩٧٩ م ، وأبو الحسين الأزرق التنوخي المتوفى في سنة ٣٧٧ هـ — سنة ٩٨٧ م ، وأبو إسحاق إبراهيم بن عياش البصري وتلميذه القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني الذي ارتحل في سنة ٣٦٠ هـ إلى الري وأسس فيها مدرسة هامة ، ثم توفي في سنة ٤١٥ هـ — سنة ١٠٢٤ م

وفي بغداد أسس بشر بن المعتمر المتوفى في سنة ٢١٠ هـ — سنة ٨٢٥ م أول مدرسة اعتزالية في تلك الحاضرة . وقد خالف مبادئ العباسيين وتشيع لعل ، فاضطهده هارون الرشيد ، ولكن المأمون الذي كان يقول بتفضيل عليّ على أبي بكر قد منح هذه المدرسة حمايته ومساعدته ، فتقوت وكثر أنصارها الأذكياء الذين نخص منهم بالذكر ثمانية بن أشرس المتوفى في سنة ٢١٠ هـ — سنة ٨٢٥ م ، وقد تفرعت من هذه المدرسة فروع أخرى اتفقت في بعض المبادئ واختلفت في البعض الآخر . ومما اتفقت فيه القول بخلق القرآن ، والجملة العنيفة على خصوم ذلك الرأي . وهذا هو أحد أسباب حماية المأمون لهذه المدرسة بفروعها المختلفة ، لأنه كان من أنصار القول بخلق القرآن . غير أن هذا الرأي كان شؤما على أصحابه ، إذ أن المتوكل الذي لم يكن يدين به هجرهم بين أيدي خصوم قساة حملوا عليهم وشهروا بهم ، كابن الرواندي الذي ترك الاعتزال في النصف الأخير من القرن الثالث والتحق بالرافضية المغالية ، وكتب ضد المعتزلة نقدا عنيفا عزا إليهم فيه آراء لم تدر لهم بخلد ، فبرهن بذلك على بعده عن النزاهة والإنصاف .

ومن المدارس الاعتزالية التي نشأت في بغداد مدرسة عيسى بن صبيح المزدار ، وكان معاصرا لبشر بن المعتمر ، ومدرسة الجعفرين : جعفر بن بشر المتوفى في سنة ٣٢٤ هـ — سنة ٨٤٨ م ، وجعفر بن حرب المتوفى في سنة ٢٣٦ هـ — سنة ٨٥٠ م ، ومدرسة محمد بن شداد المسمعى زرقان المتوفى في سنة ٢٧٨ هـ — سنة ٨٩١ م ، ومدرسة أبي الحسين عبد الرحيم ابن محمد الخياط المتوفى في نهاية القرن الثالث ، والذي كان فيما يظهر أعلم أهل عصره بتاريخ المعتزلة ، كما يشهد بذلك كتاب « الانتصار » ، ومدرسة أبي بكر أحمد بن علي الأخشيذ المتوفى في سنة ٣٢٠ هـ — سنة ٩٣٢ م ، ومدرسة أبي القاسم عبد الله بن أحمد الباخي الكعبي تلميذ الخياط الذي بدأ مذهبه في بغداد ثم ارتحل إلى نيسابور فأسس فيها مدرسته الخاصة ، وتوفي بها في سنة ٣١٩ هـ — سنة ٩٣١ م .

الدكتور محمد غنوب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

## البناء الاساسى للاسلام

Edwin E. Calverley بقلم

نقلا عن المجلة الملكية لآسيا الوسطى

استعمل لفظة (إسلام) ومشتقتها (مسلم) فى أربعة معانٍ مختلفة ، لكل منها مدلولها التاريخي . وقد راجع استعمال هذه المعاني الأربعة فى الكتب الانجليزية ، وإن كانت لم تدخل بعد فى قواميس هذه اللغة .

فى الناحية الأولى : يستعمل اللفظان بمعنى ديني عام للدلالة على الخضوع والتسليم لله ، وهذا المعنى راعاه كل من المستشرقين (Sale) و (Roawill) و (Palmer) فى ترجمة القرآن .  
ولقد لُفِتَ النظر بحق الى هذا الإطلاق العام ، ولكن ليس صحيحا أن القرآن لا يحتوى على نص طائفي .

ومن الناحية الثانية . يستعمل اللفظان فى القرآن بمعنى شامل للدلالة على الدين الواحد الحق الذى أوحى به الله الى الشعوب المختلفة فى العصور المتباعدة ، عن طريق رسله وأنبيائه المتعاقبين .  
وعلى هذا التفسير يمكن اعتبار اليهود والصابئين والنصارى الخ مسلمين ، ودياتهم الاسلام .  
ويعتبر هذا تفسيرا شاملا . وقد ذاع بين جماعات من المصلحين الحديثين فى تركيا والهند وغيرهما من الذين يريدون أن يعتبروا أنفسهم مسلمين من حيث الديانة ، ولكنهم يرفضون التسليم بالقوانين واللوائح التى يرجع إليها أتباع النبي فى شئونهم الدنيوية .

وفى الناحية الثالثة : يطلق لفظ (إسلام) على القيام بالواجبات الدينية المطلوب من المسلمين قاطبة «تأديتها» . وعلى هذا الاعتبار يكون لفظ (إسلام) مرادفا للعبادات (الخمس) ، ومرتبطة أولاً (بالإيمان) بقواعده الستة المطلوب من كل مسلم التصديق بها ، وثانياً (بالإحسان) الذى يحض على عمل الخير المفروض على كل مسلم مراعاته .

وفى الناحية الرابعة : يطلق لفظ (إسلام) على ذلك النظام الدينى بمخذافيه الذى أسسه محمد ، والعمل على مقتضاه .

وعلى هذا يكون الاسلام مرادفا للفظ (مسلمين) ، ويصبح له معنى طائفي لا شك فيه .  
وقد حصرنا بحثنا فى هذا المقال على الاسلام بمعناه الرابع (الآخر) إذ هو الشائع والمقصود عادة من هذا الاصطلاح ، لأننا إذا ذكر الاسلام نتذكر الديانات العالمية الأخرى كالنصرانية والبوذية والهندوسية وما أشبهها .

ولكننا إذا وضعنا الديانة الإسلامية ضمن الديانات العالمية الأخرى ، وجب أن لا يفوتنا أن نعلم أن الإسلام كدين عالمي ، ينطوي على معانٍ أكثر مما تظن الشعوب الغربية الحديثة عندما يستعملون كلمة الدين .

فللعالم الحديث طابعان خاصان يتميز أحدهما عن الآخر : أحدهما يقسم الحياة الى قسمين : ديني ودنيوي . والثاني يقصر السلطة الدينية على التأثير النفساني . لهذا ننظر نحن الى الدين كناحية من نواحي الحياة الأخرى ، مثله كمثل الناحية أو المصلحة الدنيوية التي تتفرع منها بالتالي نواح متعددة : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، واقتصادية .

أما الإسلام فليس هو مجرد ناحية من نواحي الحياة كما يفهمه الغربيون ، ولكنه نظام شامل لمصالح الحياة كافة . وهو من هذه الناحية شأنه شأن الأديان الأخرى في البلاد الشرقية ؛ فهو يدبر اتجاهات وأعمال أتباعه ، ولذلك لم يخطئ الذين وصفوا الإسلام بأنه ( الجامع ) . وطبقا لهذا الوصف يمكن تعريف الإسلام بأنه عبارة عن نظام الحياة كما وضعه محمد ، لأن محمداً مع علاقته بالله — جعل للدين السيطرة الكاملة على كل مصالحه الشخصية ، سواء أكانت دينية أم خاصة أم عامة .

فأول ما تلقاه من الوحي جعله رسولا ونبيا وداعيا من الله الى عباده ، لا يشاركه أحد في قياد زمام الناس وتعليمهم وإرشادهم الى مافيه صلاح شئونهم الدينية والدنيوية . وقد غير قبلة الصلاة طبقا للوحي ، خوفاً من بيت المقدس الى مكة . وكثيراً ما كان يتلمس الوحي والإلهام في إدارة شئونه المنزلية الداخلية المحضة ، وقد نزلت الآيات تحض المسلمين على إطاعة الله والرسول ليوطد بها علاقاته العامة والسياسية .

ولقد آمن الكثيرون بمحمد فأصبحوا ( محمديين ) أو مسلمين ، وشايعه تلاميذه وأصحابه ومن قلدتهم وتابعهم في كل ناحية من النواحي الاجتماعية والسياسية ، وتمسكوا بمبادئه وقلده في كل أعماله ، وكان تقليدهم له مبنياً على القرآن ، وتوسع فيه الحديث . ومع ذلك فما كان لهم أن يقلدوه في كل شيء . ونكتفي هنا بالإشارة الى مثل واحد ( وسأأتى غيره في سياق الكلام في هذه الرسالة ) : ذلك أن الدين قد أباح للرجل الافتتان في وقت واحد بعدد من الزوجات جعل حده الأقصى أربعاً . غير أن الحد الأقصى للنبي غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان أصحابه يطيعونه في كل ما يأمرهم به . فقد أسس جماعة جديدة ، وأصبح هو القائد والمدير لمن أسلم ، يرشدهم ويسوسهم في أمورهم المنزلية والاجتماعية والمدنية والدينية ، يؤيده الله في قيادته ونبوته ؟

محمود شاهين

(مجلة الأزهر) :

أتينا على ما كتبه المستر إدوين ا. كلا فيرلى فى معنى الاسلام ، وقد عربته حضرة صاحب العزة محمود شاهين بك ، وسنأتى على بقية ما كتبه فى بناءه السياسى والاجتماعى والدينى فى الأعداد المقبلة مع التعقيب عليها ، إن شاء الله ، كما نفعل فى هذا الفصل اليوم .

لأبأس بالنقسم الذى ذكره المستر إدوين فى نواحى الاسلام ، ولكنه فى الناحية الثانية من معانى الاسلام ، وهى « دلالاته على أنه الدين الواحد الحق الذى أوحى الله به الى الشعوب المختلفة فى العصور المتباينة » ، لم يأت السكاتب فيها بالبيان الذى يقتضيه هذا المقام ، وهو أخص مدلولات الاسلام ، وأولاه بالنظر والاعتبار ، لأنها هى وحدها التى جعلت منه ديناً عاماً للبشرية بأسرها ، وهى التى كانت سبباً فى قوة سريانه فى النفوس ، وسلطانه على العقول ، ولا تزال ذات التأثير الكبير فى لفت الأنظار اليه ، وجمع القلوب عليه .

ألا ترى أنه يوجد فرق عظيم بين أن يحسب الناس الاسلام واحداً من الأديان السماوية يدعو الى المعروف وينهى عن المنكر ، مشاركاً فى هذه الخصائص جميع الأديان ، وبين أن يعتبروه دين الله الأقدم الذى أرسل به جميع رسله فى خلال العصور ، ثم أعاد إنزاله على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فى الزمان الأخير ، ليخلص الناس مما وقعوا فيه من الضلال فى العقائد ، والشطط فى الشرائع ، وما لبوا به من شرور التشبيه والتعديد فى ذات الخالق ، ببعضها ، ومن الخلط والخبط فى القواعد ، ومن طغيان التأويلات والشروح على الحقائق ؟ فبالاعتبار الأول لا يكون للإسلام ميزة على الأديان ، ولا لا يزال من موجب فى نظر الانسان . ولكنه بالاعتبار الثانى تكون له مهمة طالية عالية ، وهى إعادة الوحي الإلهى الأول الى صورته الصحيحة ، خالصاً من كل ما ألحق به من الأوهام البشرية ، والآراء الخيالية ، ليلجأ اليه من حار بين المتناقضات المذهبية ، فلم يهتد الى الصواب منها ، ومن أمضته الخزعبلات الاعتقادية فلم يثلج صدره على كونها إلهية ، فبقى متردداً بين أن يكفر بها جملة ، وبين أن يؤمن ببعضها تاركاً ما يترجح عنده أنه من الموضوعات البشرية .

فالاسلام بهذا الاعتبار يعد إصلاحاً عاماً للأديان ، وموحداً لها ، ليصبح للإنسانية دين واحد يسيغه عقلها ، والمسامات المنطقية لا تتعدد لدى جميع أفرادها .

والذى يقرره الاسلام فى هذا الأمر الجلل : هو أن الدين عند الله الاسلام ، أى الاستسلام لإرادة الله ، والتخلى عن جميع الأهواء والأوهام ، واتباع ما يأمر به الله ، وهو لا يأمر إلا بما يسيغه العقل ، وتستقيم عليه الحياة ، ويصلح به أمر الاجتماع ، ويمكن الاستدلال على صحته بكل ذرائع الاستدلال ، قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الدين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب .

فإن حاسوبك (أى جادلوك) فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين ( يريد بالأمينين العرب ) أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد .

ثم بين الله أن هذا الدين هو دين الله الأقوم ، وهو العروة الوثقى الذى تجتمع عليه الإنسانية فى وحدة لا انفصام لها ، وأنه لا معدى عنه للعالمين أجمع ، قال تعالى مستنكراً فعل من يحاول أن يتخذ غيره ديناً له : « أفغير دين الله يبعثون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

ثم ذكر الكتاب أن من الناس من يحاول فطم عرى الإنسانية فيؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض ، تعصبا لقومية ، أو مشايعة لنزعة مذهبية ، منها أن هؤلاء يعتبرون كافرين حقا ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا لكافرين عذابا مهينا » .

من هنا يتبين كل قارئ أن دين الله من حيث هو واحد لا يتعدد ، وأن رسله يعتبرون رسلا للعالم كافة لا لامة دون أخرى . فيجب الايمان بهم جميعا لتحقيق الوحدة الدينية للإنسانية بأسرها . وتجلية هذه الحقيقة حق تجليتها يضع الاسلام فى الموضع الذى أراده الحق له ، ويرفعه الى المكانة التى هى مكانته ، ويدفع بالأمم الى تبين حقيقته ، وتعرف صحة طريقته ، وليس ذبوعه فى العالم كافة بحاجة الى أكثر من هذا ؛ فإن الناظر فيه لن يفوته أحد أمرين : وهما إما أن يجد فيه مثله الأعلى فيدخل فيه ، وإما أن يعتقد اعتقادا جازما بأن المستقبل كله له ، وأنه سيرث الأديان جميعا فلا يوجد فى الأرض دين غيره ، وهو إن لم يبلغ هذا الشأ وبعد ، فسيلبغه يوم تخلص البشرية من أوهامها ، وتتجرد من موروثاتها ، وليس هذا اليوم ببعيد ، فإن العلوم الكونية تقوم بهذه المهمة التطهيرية منذ ثلاثة قرون .

فاذا فات المستر إدوين لفت النظر الى هذه الحقيقة بعد بيانها على الوجه الذى تقدم ، فقد قنأ به ، وله الشكر على أن أتاح لنا هذه الفرصة .

محمد فريد وهبى

## الشعوبية وأثرها في الادب العربي

— ٦ —

سواء أكانت تلك المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر وبين كسرى ، وما استتبعها من بعث وفد من وجوه العرب ليقوم بمهمة الإعلان عنهم ، كما رأيت في المقالين السابقين ، ممعنة في الصحة أم مسرفة في البطلان ، فإنها تدل في صراحة ومن غير التواء على أن التعصب للجنس طبيعة لا تحول ولا تزول . ذاك لأن المخترع لهذا ولا مثاله يلزم نفسه خطة المحاكاة الدقيقة التي تتم عن روح العصر الذي يحاكيه ، وتحدث عنه كأنها وقعت فيه ؛ وعلى غرار هذا نهج رواة الشعر الذين اشتهر عنهم أنهم يقرضون القصيد المعجب الرائق ، وينحلونه أعلام الشعر الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، لإشباع نهم خاص في مشاربهم ، وإرضاء نزعة معلومة في نفوسهم !! ولما كانت روح الاسلام قوية غالبة في عصره الأول ، لم يظهر تعصب من الجانين في الصورة الشائنة التي ظهر بها فيما بعد .

ومما يدل على أن العاطفة الجنسية ، وإن كانت كبتها أصول الاسلام العالمية ، بقيت في أعماق النفوس حية لم تمت ، ما رواه بعض المؤرخين من أن طائفة من أصحاب عليّ مشوا اليه فقالوا : يا أمير المؤمنين : أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستعمل من تخاف خلافه من الناس ؛ فقال لهم : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ؟ ! فذلك يدل في غير موارد على أن قادة الرأي في عصر الاسلام الأول ، أخذوا بهذا الأصل القيم ، وجروا عليه ، فضربوا بذلك مثلاً أعلى بقي الى اليوم علماً على سمو الاسلام وصلاحيته لأن يكون ديناً لجميع البشر .

فلما كان الحكم الأموي ، وأصاب النفوس بعض الوهن في الدين ، رفع العرب عقيرة العصبية ، وجأروا بصوتها ، ونادوا بامتيازهم على جميع الأمم .

والى القارئ الكريم بعض الشواهد التي تؤازر ما نقول وتوضحه :

نزل جرير يقوم من بنى العنبر ، فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى ، فأنصرف وهو يقول :

يا مالک بن طریف إني ببيعکم      رُفد القرى مفسد للدين والحسب

قالوا : نبيعُکُم بيبعا فقلت لهم :      يبيعوا الموالي واستحيوا من العرب

ففرق في المعاملة بين العرب والموالي ، وقد حرم الاسلام هذه التفرقة .

وروى أبو الفرج في أغانيه قال : إن رجلاً من الموالي خطب بقفا من أعراب بني سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة ، ووالها يومئذ ابراهيم بن هشام

ابن إسماعيل ، فشكا اليه ، فأرسل الوالى الى المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق لحيته ورأسه وحاجبيه ؛ فقال محمد بن بشير فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد  
ومنها :

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والحدود  
إذا كافأتهم ببينات كسرى فهل يرجد المولى من مزيد  
فأى الحق أنصف للمولى من اصهار العبيد الى العبيد ؟  
وهذا كما لا يخفى بعيد عن روح الاسلام ، ومخالف للتجديد الخطير الذى أتى به .

وذهب أعرابى الى سوء القاضى فقال : إن أبى مات وتركنى وأخا لى - وخط خطين ناحية - ثم قال : وهجينا لنا (١) - وخط خطا آخر ناحية - ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثا ؛ فقال له الأعرابى : لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى وأخى وهجينا لنا ؛ فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابى : يأخذ الهجين كما أخذ ويأخذ أخى ؟ قال : أجل ؛ فغضب الأعرابى وقال : تعلم والله إنك قليل الخالات بالدهناء !

وأنت ترى أن القاضى حكم عدلا على مذهب الاسلام ، ولكن الأعرابى لم يرضه ذلك . وقال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ، ويحذرهم هذا العدو الداخلى عليهم من الأجناس الأخرى :

أبلغ ربيعة فى مرمو وإخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب  
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حربا ، يحرق فى حافاتها الحطب  
ما بالكم تلتقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم تُعزب  
وتتركون عدوا قد أظلكم مما تأشب ، لا دين ولا حسب  
قدما يدينون ديننا ما سمعت به عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب  
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمو فان دينهمو أن تقتل العرب

وما كان للأعاجم أن يغمضوا أعينهم عن هذه الصورة التى ظهر بها العرب إبان حكم بنى أمية ، بل ناخوا - وبخاصة الفرس منهم - عن جنسهم ، وغفروا بسالف مجدهم وسابق عزمهم ، وتغنوا بحضارتهم التى شغلت سمع التاريخ وبصره أمدا غير قصير ؛

فهذا هو إسماعيل بن يسار الشاعر الشعوبى يفخر على العرب بملء شديقه إذ يقول :

رُبَّ خال متوَجِّحٍ لى وعم ما جدد مجتدئى كريم النصاب



إنما سمي الفوارس بالفرس مضاعفة رفعة الأنساب  
فاتركي الفخر يا أمّامُ علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب  
واسألِي - إن جهلت - عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب  
إذ نربّي نباتنا وتدسو ن سفاهاً بناتكم في التراب  
ودخل يوما على هشام بن عبد الملك في خلافته ، فأشده قصيدة يقول فيها :

إني وجدك ما عودي بذى خور عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم  
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم  
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قرم بتاج الملك معوم  
ججاجح سادة بلّاج مرازبة جرد عتاق مساميح مطاعيم  
من مثل كسرى وسابور الجنود معا والهزمُزّان لفخر أو لتعظيم ؟  
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم  
يمشون في حلق الماذى سابعة مشى الضراغمة الأسد اللهايم  
هناك إن تسألِي تُنبيّ بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائم

فغضب هشام وقال : أعلّ تفتخر ! وإياى تنشّد قصيدة تمدح بها نفسك وأعالج قومك !!  
غطّوه في الماء ؛ فغطّوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بأخراجه وهو يشرب ، ونقاه  
من وقته الى الحجاز .

وما لبث هذا الصوت الخافت الضعيف الذى سمعناه وسمعتة من إسماعيل بن يسار في العصر  
الأموى ، أن انقلب الى صوت جهورى دوى في أنحاء البلاد الاسلامية في أواخر أيام الدولة  
الأموية ، ولولا أن الله حفظ الاسلام بالسمو الذى أودعه أصوله ، والحق الذى ضمنه تعاليمه ،  
لتخاذلت الأجناس التى كان يتألف منهم المسلمون ثم تناحرت ، ولكن هذه الفتنه لم تلبث أن  
تلاشت ، وعاش جميع المسلمين مدى تاريخهم كله على اختلاف أجناسهم متآخين متحابين حتى  
حقق الله بهم وعده ، وهم اليوم على أكمل ما يكونون ألفه ما ؟

أحمد إبراهيم موسى البارودى

تخصص البلاغة والأدب

## نية القتل

في الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية

ما زال كثير من خاصة الناس يجهلون التشريع الاسلامي ونظرة لحوادث وحكمه فيها ، وما زال فريق آخر ينظر الى أحكام هذا التشريع الجليل نظرة خاطئة فينكب عنه ولا يلتفت اليه كلما أعوزه البحث والتفكير لمعرفة وجه الحق في قضية من القضايا .

وكان من الخير والعدل أن اتجهت الانظار أخيرا الى هذا التشريع ، وطلب من رجاله الاجلاء أن يمثلوه في المؤتمر الدولي الذي عقد بمدينة لاهاى فى العام المنصرم ، إذ ما كاد المؤتمر يصغون لرسالة الأزهر الشريف حتى أجمعوا على أن مبادئ الشريعة الاسلامية منبع فياض ، ومنهل عذب للقضاء والتشريع .

ولما كنت ممن تفقهوا فى الأزهر ، ودرسوا القوانين الحديثة فى غيره ، رأيت واجبا على أن أتقدم الى قراء مجلة الأزهر الغراء بين آونة وأخرى بأبحاث فقهية أقارن فيها بين حكم الشريعة الاسلامية وحكم القوانين الوضعية فى مسائل معينة ، مشيرا الى ما قد يكون من اختلاف فى وجهة النظر ، والى ما يظهر لى رجحانه جهد استطاعتي ، آملا أن يكون التوفيق رائدى فى هذه الأبحاث ، وأن يجد فيها من يعينهم ذلك ما تطمئن له النفس ، ويرتاح له الفكر ، ويستقيم معه المنطق .

وسأبحث اليوم فى أم الجرائم التى تقع من الانسان على أخيه الانسان ، وهى جريمة القتل ، وأبين مكان النية منها فى القوانين الجنائية الحديثة ، وفى الشريعة الاسلامية ، وما يترتب على معاصرتها لفعل القتل أو عدم معاصرتها له من اختلاف فى الحكم ، وكيف يستدل علماء الشريعة وعلماء القانون على وجود هذه النية وعدم وجودها :

قانون العقوبات المصرى — وهو على غرار القانون الفرنسى — ينص على أن : من قتل نفسا عمدا مع سبق الإصرار على ذلك أو الترصد ، يعاقب بالإعدام ( م ١٩٤ ع ) ، ومن قتل نفسا عمدا من غير سبق إصرار ولا ترصد ، يعاقب بالأشغال الشاقة ... ( م ١٩٨ ع ) ، ومن قتل نفسا خطأ بغير قصد ولا تعمد يعاقب بالسجن ... ( م ٢٠٢ ع ) .

وأحكام الشريعة الاسلامية تنظر الى القتل فى ذاته وتقسمه الى أنواع ثلاثة فتقول : القتل إما عمد ، بأن يعمد الى ضرب المجنى عليه بما يقتل غالبا ، وجزاؤه القصاص ؛ وإما شبه عمد ، بأن يعمد الى ضربه بما لا يقتل غالبا ، وجزاؤه دية مغلظة ، وزاد عليها أبو حنيفة

الكفارة ؛ وإما خطأ ، بأن لا يقصد الجناية أصلاً أو يقصد زيدا فيصيب حمرا ، وجزاؤه دية مخففة ، وزاد عليها أبو حنيفة أيضا الكفارة .

ونظرة سريعة في هذه النصوص تدل على أن القوانين الجنائية الحديثة تقسم هذه الجريمة الى فرعين أساسيين ، وهما : القتل عمدا ، وعقوبته الاشغال الشاقة ؛ والقتل خطأ ، وعقوبته الحبس ؛ وأن القتل العمد قد يقتزن بما يسمونه ظرفا مشددا كسبق الإصرار على ارتكابه ، فتتغير العقوبة الى الإعدام ، بينما نرى أحكام الفقه الاسلامي تنوع هذه الجريمة الى ثلاثة أنواع كما تقدم .

والتوجيه العقلي لتنويع القتل الى أنواعه الثلاثة في الفقه الاسلامي ، هو أن الجاني إما أن يقصد ضرب المجنى عليه بالذات أو لا يقصده ، ففي الحالة الاولى لا يخلو الامر من أن يكون الجاني قد قصد ضربه بما يقتل غالبا فقتله ، وحينئذ فالجريمة هي القتل العمد ، أو يكون قد قصد ضربه بما لا يقتل غالبا ولكنه قتله أيضا ، وحينئذ فالجريمة هي القتل شبه العمد ؛ وفي الحالة الثانية ، وهي ما إذا لم يقصد الجاني ذات المجنى عليه بأن لم يقصد الجريمة أصلا أو قصد زيدا فأصاب حمرا ، تكون الجريمة هي القتل خطأ .

أما علماء القانون فانهم يعتمدون في تقسيمهم على النية ، أي قصد ارتكاب الجريمة فقط ، فتمى وجد كان القتل عمدا وإلا كان خطأ . والمراد عندهم قصد القتل لا قصد الضرب ، خلافا لما ورد في النصوص الشرعية التي تتحقق العمدية فيها بقصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا .

ونظرة فاحصة في التشريعين ترشد الى أن القتل في كل منهما نوعان : عمد ، وخطأ . غاية الامر أن الشريعة الاسلامية اعتبرت من يقصد هذه الجريمة ويستعمل لتنفيذها آلة قاتلة أشد خطرا من غيره ، فشددت عليه العقاب ؛ ويكون استعمال الآلة القاتلة ظرفا مشددا في الشريعة الاسلامية يؤدي الى وجوب القود ، كظرف سبق الإصرار أو التردد الذي اعتبره القانون ظرفا مشددا ، ورتب على تحقيقه عقوبة الإعدام .

لكن هناك أمرا تنبغى الإشارة اليه : ذلك أن العمدية تتحقق في نظر الشريعة الاسلامية بوجود قصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا ؛ أما النصوص القانونية فتشترط قصد القتل .

وقد يفهم من ذلك أن في أحكام الشريعة قسوة ليست في أحكام القانون ، لكن هذا مردود بأن المشرعين العصريين في أرقى الأمم حضارة ومدنية يذهبون الى ما يماثل نظر المشرع الاسلامي في أحوال كثيرة . من ذلك أن قانون العقوبات الانجليزي يقضى بعقوبة القتل العمد على من قصد قتل آخر فضربه بعصا خفيفة ثم مات المجنى عليه ولم يكن موته نتيجة مباشرة

لهذا الضرب الخفيف بل كان بسبب مرض باطنى مثلاً حركة هذا الضرب . وهذه الحالة بالذات يعتبرها الشرع الاسلامى قتلاً شبه عمد لا قصاص فيه .

وأكثر من هذا دلالة على رجوع متشرعى الأمم المنحصرة الى وجهة النظر الاسلامية ، أن علماء الانجليز وغيرهم يذهبون الى قيام القصد الاحتمالى مقام القصد الثابت فى جريمة القتل ، ويحكمون بعقوبة القتل العمد فيما لو ضرب إنسان آخر بزجاجة فى رأسه قاصدا الضرب فقط ، دون إحداث الموت ، ولكنه يقدر أن حدوث الموت ممكن ؛ ففى هذا المثل يرى أن الجانى لم يقصد القتل وإنما قصد الضرب ، ولم يبال بما عساه أن يحدث . وهو ضرب فى مقتل من شأنه إحداث الموت أى بما يقتل غالباً ، يعنى أن جميع العناصر اللازمة لاعتبار الحادثة قتلاً عمداً فى نظر المشرع الاسلامى ثابتة ، فهو قتل عمد فى نظره ، وهو أيضاً قتل عمد فى نظر المشرع الحديث .

عرفنا مما سبق أن النية ركن للعمدية فى الشرع الاسلامى والقوانين الوضعية ، وأن المقصود منها فى الاول نية الضرب ، وفى الثانية نية القتل ، وأن أحدث التشريعات يكتفى بنية الاعتداء دون أن يكون القتل مقصوداً ، لاعتبار الجريمة عمدية ؛ وضرربنا لذلك بعض الأمثال ، فلم يبق إلا أن نعرف متى تعتبر النية حاصلة ، وكيف يستدل على وجودها أو عدمه .

هذه النية التى هى من مقومات القتل العمد يستدل عليها الشرعيون بالآلة التى تستعمل لارتكاب الجريمة ، فمتى كانت مما يقتل غالباً أى من شأنه إحداث الموت ، اعتبر القتل عمداً وإلا فلا . ويقولون فى توجيه ذلك : إن النية هى القصد ، ولا سبيل للوقوف عليه إلا بدليله ؛ ودليله استعمال القاتل آلة قاتلة ، فأقيم الدليل وهو آلة القتل مقام المدلول وهو القصد ، وذلك لأن الدلائل تقوم مقام مدلولاتها فى المعارف الظنية الشرعية . ومعنى هذا أنه يجب على القاضى تطبيق عقوبة الجريمة العمدية حتى لو أنكر الجانى التعمد ، أو لم يذكر شهوداً لإثبات أنه كان متعمداً . وإذا كان علماء الشريعة يستدلون على وجود النية بالآلة التى استعملت وقت ارتكاب الجريمة ، فلا معنى للبحث عندهم فى معاصرة النية أو عدم معاصرتها للفعل ، لأن المعاصرة من لوازم ذلك .

أما علماء القانون فانهم يستدلون على وجود نية القتل بكافة الطرق حتى القرائن البسيطة ، ويشترطون معاصرتها للفعل المادى وهو القتل ؛ ولكنهم يجيزون إثبات عكس هذه القرائن بكافة الطرق أيضاً . وعلى هذا فالجانى الذى يمكنه إثبات أنه لم يقصد القتل مع أنه استعمل سلاحاً فانسكاً ، لا يعتبر قاتلاً عمداً ، ولا تطبق عليه عقوبة هذه الجريمة .

ولا شك أن هذه الطريقة فى الاستدلال على النية قد تفتح باباً واسعاً للاجتهاد الذى قد يخطئ صاحبه ، ولشهادة الشهود الذين قد لا يقررون الحق ، بينما تحول وجهة النظر الاسلامية دون ما عساه يحدث من ذلك ، والله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ؟

سير سليم درويش

# معرض لأراء المجتهدين في الإسلام والمسلمين

حكم الإسلام كان أجدى للأجانب من نظام الامتيازات الحالى

نشر الأستاذ شكرى قرداحى العضو بالمجمع العلمى للحقوق الدولية ، والمدرس بمدرسة الحقوق الفرنسية فى بيروت ، كتابا بالفرنسية فى باريس أسماه ( إيجاد وممارسة القانون الدولى الخاص فى بلاد الاسلام ) ، تكلم فيه عن حالة الأجانب فى بلاد المسلمين ، متتبعا فى بحثه أدوار التاريخ . فأفاض فى تفصيل الأطوار التى دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بداً من الاعتراف بأن معاملة الأجانب فى بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله فى معاملة الدول الغربية للأجانب عنها .

فلما تقرر نظام الامتيازات الأجنبية فى بلاد المسلمين بإلحاح الدول ، وهو النظام الذى جعلوه مشابها لنظام الأقليات العنصرية فى العهد الراهن ، ظهر جليا أمر لم يكن منتظرا ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه ، من حالتهم على عهد الدولة العربية . فأتضح أن عاطفة التسامح الإسلامى كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التى يتمتعون بها الآن .

نقول : هذه شهادة على سمو أصول الإسلام لا تخفى قيمتها الأدبية والعلمية . فإن المسلمين فى معاملتهم الأجانب ، يقومون على أصول شرعية لا يعقل أن يتخيل العقل خيرا منها ، أساسها الأول قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فلم يكتف سبحانه وتعالى بالأمر بالعدل معهم ، ولكنه تجاوزه الى التوصية بالبر بهم ، والبر غاية الإحسان . ومثل هذا التسامح لم يدون فى تاريخ أمة من الأمم وخاصة قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، حيث كان المتدينون يقتل بعضهم بعضا لا لشيء غير أنهم متخالفون فى الدين ، حتى بادت أمم برمتها فى هذه السبيل . فالمعاملة التى شرعها الإسلام للأجانب عنه تعتبر تطورا عالميا لا يشتهه بغيره ، يسجل لهذا الدين فى تاريخ المدنية الانسانية سابقة لا يحوها تقادم العهد بها ، بل يزيدها من الأيام جدة ؛ ولو أضفت إليها أمثالها فى كل ضرب من ضروب الشئون الانسانية ، لتألف منها مجموع ضخم يرتد عن جلالته الطرف ، ويكون من أدل الأدلة على أن الاسلام وحى إلهى لا عمل إنسانى ، وإلا فأتى للأمم فى عهد جاهليتها ، واعتازها بقومياتها وأديانها ، أن تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام

من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدة للحوادث دامت قرونا طويلة ، وبعد أن بلغت العلوم شأوا لم يكن ليتخيله الأقدمون في أيامهم الأولى ؟

أليس من أعجب الأمور أن يعترف أساتذة القانون الدولي أن ما كانت عليه حالة الأجانب تحت ظل التسامح الإسلامى على عهد الدولة الإسلامية ولا مراقب عليها ولا حسيب ، كان أحسن مما آلت إليه على عهد الامتيازات التى منحوها بإملاء الدول الأجنبية أنفسهم ، وقد اختارت لرعاياها أفضل ما تخيلته من ضروب الحماية ، وصنوف الضمانات ؟ فإى دليل بعد هذا على أن الوضع الإلهى لحماية الأقليات الضعيفة كان أجدى عليها مما اختارته لها دولها القوية ؟

هذا الأمر ليس بعجيب فحسب ، ولكننه يريك بدليل محسوس مصداق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فكان أثر هذه الرحمة على تلك الأقليات أجل مما اختاره لها أقوامها الأقوياء ، وقد حاطوهم بأكل ما تخيلوه لصيانة أموالهم وأنفسهم ، وحماية مصالحهم وتنمية مواردكم .

ومما يلفت النظر ، العناية العظيمة التى بذلها المسلمون لتنفيذ ما أمر به الله من البر بالأجانب حتى أصبح ذلك مضرب الأمثال اليوم ، فعلوا ذلك طيبةً به نفوسهم ، غير مكرهين ولا مدفوعين ، وفيه دليل محسوس على أن نظرهم لاختلاف الأديان والأجناس واللغات كان نظرا عاليا لا تشوبه شائبة تعصب ، وهذا من الشعوب قبل ألف وأربعمائة سنة كان من أبعد الاحتمالات . فان تلك الشعوب كانت تفهم أديانها على وجه لا يسمح بوجود أى تسامح معه فى حق الأديان الأخرى ، بل كانت تعد ذلك تراخيا منها فى ورعها .



### المعضلة الإسلامية

هذا عنوان كتاب لمدام (مارى بوجييا) قالت فى مقدمته : إنه كفاح عن حقوق أخواتها المسلمات . أما مدام بوجييا فهى سيدة مغربية أمها جزائرية وأبوها فرنسى ، كان مديرا لإحدى المصالح . ذكرت فى كتابها هذا أنها تأملت كثيرا من رؤية الحالة السيئة التى عليها المرأة المسلمة فى بلادها ، ووقوعها فى أسر زوجها ورضائها بهذه الحالة وعدم ثورتها عليها . كل هذا دفعها الى موالاة البحث فى مشكلة المرأة المسلمة منذ خمس عشرة سنة ، فوضعت عشرة كتب فى ذلك . وقد وصفت المرأة المسلمة فقالت : إن حياتها الاجتماعية شذوذ طال عليه الأمد ، ومعضلة ليست بمستحيلة الحل ، وهى سبة حية لمدينتنا الحالية . الخ

ولكن ما هو الدواء فى نظر مدام مارى بوجييا لهذه العلة ؟

قالت : الدواء هو أن تحرر أخواتنا المسلمات من العبودية التى يرسفون فى قيودها داخل

ستور وخلف أقفال من حديد ، ولكن لأجل أن يكون هذا الدواء شافيا يجب أن يأتي منها هي لا من الرجل . وطريق إيجادها هو أن تتعلم ما هو ضرورى لحياتها ، وأن تربى ملكاتها ومواهبها . فيجب الإكثار من فتح المدارس لها ليجد جميع أفراد جنسها محلات تسمعن فيها ، ويجب مع هذه المعارف الضرورية التى تعطاها أن تعرف بحقوقها ، وبوجوه الكفاح للوصول اليها ، وأن توقف على ما يحتوش مسألة الزواج فى بلادها من الشذوذات الخائفة لحربتها ، القاضية على حياتها . الخ الخ .



نقول : إننا قد ألفنا هذه اللهجة الإصلاحية حتى لم تعد تلفت لنا نظرا ، لالأننا لانهم للإصلاح حالة المرأة عندنا ، فليس فينا من لا يعترف بحاجتها الى الإصلاح والتقويم ، ولكن لانها تتردد منذ نحو أربعين سنة ، فكانت ثمرتها وبالأعلى المرأة من كل وجه . نعم إنها نقلتها درجة من ناحية الشكل والمظهر ، فأصبحت لا تتميز المصرية عن الأوربية ، ولكنها صارت أكثر عبودية مما كانت عليه ، وليست المرأة الغربية بأحسن حالا منها من هذه الناحية . لأن العبودية لا تنحصر فى أن تمنع المرأة عن التبرج والاختلاط ، ولكنها تمتد فتتناول حالتها الأدبية والاقتصادية . فالمرأة المتمدنة من الناحية الأدبية ليست فى المكانة التى يرجى أن تكون فيها ، وليس أدل على ما نقول مما يكتب فى حقها من إثارة الإمراف فى التبرج ، والإغراق فى التبذل . وليس هنا محل تعيين من تقع عليه التبعة ، فى سقوطها فى هذه الهوة .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فإن المرأة اليوم أصبحت فى العالم المتمدن أشد عبودية مما كانت عليه فى أى زمان مضى . فلقد خلقت المرأة لأن تكون زوجة ، وأن لا تكلف حاجتها الضرورية ، لتتفرغ لمهمتها الطبيعية الكريمة ، من تكثير النوع الانسانى وتربيته ، ولكنها اليوم على وجه عام تعمل لتكسب قوتها اليومى ، فى كل ناحية من نواحي النشاط العملى ، وبأجور لا تكاد تكفى ضرورياتها . وقد غصت بهن دور التجارة ، وأما كن اللهو والشراب ، وبيئات الفساد والفجور ، وليست توجد عبودية دون هذه العبودية لكائن خالق لأن يكون بمنجاة من كل هذه الأعمال المرهقة ، والمزال الموبقة .

فالذى تشكو منه مدام مارى بوجيبا وتنصح بالعمل على معالجته ، ربما كان خيرا مما ترجوأن تؤول اليه حالها متى أكثر لها من فتح المدارس ، ونفقت فيها بدروسها روح التردد والثورة .

لو كانت تعلم مدام مارى بوجيبا ماخص الاسلام به المرأة من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، وما منحها إياه من الامتيازات فى الحياة الزوجية ، لأدركت أن أية امرأة فى العالم لا تحلم بأكثر من هذه المنح ، وأن السبب فى حرمانها منها لاجلها نخسب ، ولكن جهل رجلها أيضا ، بل

لتتحقق أن جهل رجلها أشد تأثيراً في حرمانها منها من جهلها هي بها . فيجب على كل غيور على المرأة أن يطالب بنشر نور العلم بين الرجال وتفهيمهم واجباتهم نحو نسائهم .

ومن العجب أن كثيراً من المسلمين الذين أخذوا إخذ المدينية الغربية ، يظنون ظن مدام ماري بوجييا ، فيتخيّلون أن الاسلام هو الذى قضى على المرأة الجاهلة بما هي فيه ؛ والواقع أن السبب في نكبتها هو جهل الرجال بحقوقها المشروعة ، وحرمانها منها . فمادام الرجال يجهلون أن لنسائهم كرامة يجب أن تصان ، وأن لهم حقوقاً يجب أن توفى لهم ، فلا عجب أن عاملوا نساءهم معاملة البهائم مادمّن لا يساوونهم في القوة الجسدية . والرجال الجهلاء لا يحسنون معاشرّة أصحابهم بالمعروف ، ولا حفظ كراماتهم الشخصية ، فتراهم إذا جاسوا يتصاحبون ويصطرخون ، ثم يتسابون ويتلاعنون ، وقد يزداد ما بهم فيتضاربون ويصطرعون . هذه حالتهم العادية تشاهد لمن يعتمد رؤيتها في بيئاتهم . فهل تريد من هؤلاء الوحوش الآدمية أن يحسنوا معاشرّة زوجاتهم ، وأن ياطفوا من سلطانهم عليهن الى الحد الذى يرضى به منهم ؟

الشرع الاسلامى يحض الرجال على معاشرّة زوجاتهم بالمعروف ، وعلى القيام بجميع حاجاتهن ، حتى لم يكلفهن بمخدمتهن ، ولا خدمة أولادهن وأنفسهن ، إلا إذا كان رجالهن فقراء لا يستطيعون أن يستأجروا لهم خدماً ؛ وطلب الشرع منهم فوق ذلك أن لا يضاروهن ولا يسبوهن ، ولا يعاملوهن معاملة الأطفال القصر ؛ وعرف الزواج بأنه سكّن لـكـلا الجنسين يجدان فيه العطف والمحبة ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والاسلام لا يقول بقصر المرأة ، فقد أباح لها أن تدير أموالها بنفسها ، وأن تنصرف فيها بدون تدخل من زوجها في شئونها ، وأن تقضى في الدين ، وتقضى بين المتخاصمين ، وتدرّس العلوم العالية إذا تأهلت لذلك كله . ومنحها فوق ذلك حق التصرف في عصمتها ، فتستبقى زوجها ما شاءت أن تستبقيه ، فإذا لاح لها أن تفارقه فعلت ذلك لا يعارضها فيه معارض .

فهذا كله إعلان من الاسلام برشدها وصلاحياتها لكل ضروب التصرفات ، فهل درست مدام ماري بوجييا الاسلام قبل أن تظعن فيه وتسوّى سمعته في بلاد المتمدنين ؟

تقول مدام بوجييا : إن المرأة المسلمة مسجونة ، وإن الاسلام قضى عليها بذلك ؛ وهذا خطأ عظيم ، فإن الاسلام لم يأمر الرجل بحبس المرأة ، ولكنه أمر بحفظ عرضها سليماً من الدنس ، وسمعتها نقية من سوء القالة . فإذا غلا بعض الجهال في ذلك فليس هذا مما تقع تبعته على الاسلام ، ولكن على جهل العامة ، فإذا أحسنّا تعليمهم ظهرت المرأة من وراء هذه الكسف الخلقية أكثر حقوقاً من المرأة الغربية ، فلنعلمهم كيف يكونون مسلمين .



## نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

قدّمنا لحضرات القراء أن حكم الوقف عند أبي حنيفة جائز غير لازم ، فهو عنده بمنزلة العارية ، على معنى أن للواقف أن يرجع عنه ، وأن يتصرف في العين الموقوفة بالبيع والرهن والهبة والوصية وسائر التصرفات الناقلة للملكية ، فإذا مات الواقف ورث عنه كما يجوز للمعير أن يرجع في عاريته ويتصرف فيها تصرف المالك فيما ملك ، حتى تقسم بين ورثته لو مات . فيجوز للواقف أن يتصرف في العين الموقوفة بعد وقفها بسائر أنواع التصرفات الناقلة للملكية . فلو مات قسمت هذه العين بين ورثته كما لو كانت غير موقوفة . هذا معنى عدم لزوم الوقف عند الإمام أبي حنيفة .

فحكم الوقف عند أبي حنيفة جوازه مع عدم لزومه لما بيّنّا . وحكمه عند الصاحبين أبي يوسف ومحمد لزومه لجرد تمام ضبطه وصيغته ، فليس للواقف أن يرجع عنه قيد حياته ، ولا أن يتصرف فيه تصرفا من التصرفات الناقلة للملكية إطلاقا ، وإذا مات لا يورث عنه . قال العلامة ابن عابدين في إحدى رسائله : « لأنه خرج بعد ضبطه ، وتماحه من ملك الواقف الى ذمة الله ، فلا يجزى عليه تصرف من التصرفات اللاحقة للملكية ، وهذا علة لزومه عند الصاحبين »

وبه أفتى جبهة ساحقة من السلف والخلف ، وكاد ينعقد عليه الإجماع بين جبهة من المتأخرين وفريق من الفقهاء المشتريين ، وعليه عمل القضاء والفتيا منذ قام نظام القضاء الشرعي في الأمم الاسلامية ، ومصر منها في الطليعة ، ولم يتصل بعلم أحد من المشتغلين بنظريات الوقف أن محكمة من محاكم الموضوع نقضت إسهادا بوقف توفرت شرائطه وأركانه ، وسلمت أسبابه وبواعثه . فذهب الصاحبين كما أسلفنا هو المفتى به ، وهو المعول عليه .

استدل الامام أبو حنيفة على عدم لزوم الوقف بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله تعالى » . ومعناه أنه لا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته ، تطبيقا لآية المواريث في القرآن ، فهو ظاهر في عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف المقتضى لعدم لزوم الوقف ، وإلا كان اللزوم مصطدما بآية المواريث ، وخارجا عن مدلول هذا الحديث .

هذا أولا ، وثانيا : أن شريحا القاضى رضى الله عنه صرح فيما صرح بتلك القالة المشهورة ، وهي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس » بضميتين ، وهي جمع حبس بضم فسكون

وهو المال الموقوف . وصريح تلك الرواية عن شريح أن الأموال المحبوسة كان بيعها محظورا في عصور الجاهلية ، فلما بعث الرسول الاعظم أجاز بيعها والتصرف فيها ، فكان لكل مالك عين حبسها على بعض عبدة الاوثان أو على جهة من جهات المنفعة أن يتحلل من ذلك القيد في الاسلام ، وأن يستمتع بنعمة الحرية التي هي ملك عام للناس جميعا ، فيجوز له أن يتصرف في العين المحبوسة على سبيل الوقف ، كما لو كانت ملكا خالصا للواقف انتهاء ، والوقف على كل حال يشبه العارية ، والعارية جائزة الرجوع فيها ، والواقف حين رصد عينها على جهة إنما رصدها لله وفي سبيل الله ، فليس لأحد أن يسلبه حق الاختيار في بقائها موقوفة أو رجوعها الى ملكه لأنه تصرف لا يعدو تبرعا . وأيضا فإن حقوق العباد لم تنقطع حال قيام صفة الوقف عن العين الموقوفة ، حيث لهم أن ينتفعوا بالموقوف زراعة وسكنى مثلا ، فبقاء هذه الحقوق متصلة بالموقوف دليل بقاء الملكية للواقف ، ولا ملك لغيره ما دام صاحب العين الموقوفة منه ابتداء . وهذا قدر متفق عليه بين الامام وصاحبيه ، فلزم عن ذلك أن يكون الملك للواقف لا لغيره .

ومما يؤيد اتجاه الامام رضى الله عنه أن للواقف نصب النظار على وقفه يختارهم بأسمائهم أو بشرائهم المعينة لخصائصهم التي استحقوا بها الارجحية عنده عن سواهم ، كما له عزلهم ، وله صرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وأحكام المحاكم الشرعية قائمة على احترام تلك الشروط التي شرطها الواقف لنفسه في كتاب وقفه ، وهذا دليل بقاء أثر الملكية للواقف في العين الموقوفة ؟ « يتبع » عباس ط

### المقالات والتقارير المتأخرة

منعنا تزامم المواد من نشر بحوث ومقالات ممتعة ، منها زيادة بيان في بحث الزكاة لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ؛ ومنها الحلقة الثانية من بحوث فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الجواد رمضان في الأدب ، ودراسات قيمة أخرى في التراجم والاقتصاد والنقد ، وتقارير لمؤلفات ثمينة وصلت إلينا ، فنعتذر عن ذلك ، ونعد بنشرها في الأعداد المقبلة إن شاء الله .



# نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى  
شيخ الجامع الأزهر  
الدرس الثالث الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨  
بمسجد البيومى بالقاهرة  
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ،  
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ) :

**الشعب :** الطبقة الأولى من الطبقات التى عليها العرب ، أعنى أنها أعم الطبقات ، فهو أعم من القبيلة ، والقبيلة أعم من العمارة ، والعمارّة أعم من البطن ، والبطن أعم من الفخذ ، والفخذ أعم من الفصيلة . فخرجة مثلاً شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت شعوباً لأن القبائل وما بعدها تتشعب منها وتتفرع عليها . وقيل : إن الشعوب فى العجم ، والقبائل فى العرب ، والاسباط فى اليهود .

ومعنى الآية : أن الله سبحانه خلق كل واحد من الناس من أب وأم ، فهم متساوون فى أصل الخلقة ، وفى المادة التى منها الخلقة ، كما أنهم متساوون فى الصدور عن الإله جل شأنه ؛ وأن الله جعلهم شعوباً وقبائل ليعرف بعضهم بعضاً ، فى قرب القرابة وبعدّها ، وليعلموا الأرحام ، ولا يعتزى أحد الى غير آبائه . والنسب غير مكتسب للإنسان ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مداراً للفخر . والتقوى هى المكتسبة ، وهى التى عليها تجري المقاييس عند الله تعالى ؛ فإذا جاز الفخر بشيء ، فإن أحق شيء بالفخر هو التقوى فانفروا بها ، فإن أكرمكم عند الله أتقاكم . فقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » لتعليم للنهى عن الفخر بالأنساب ، وبيان للطريق الصحيح فى الفخر . والله خير بأحوال الناس ، عليم بأعمالهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، ويقدم أحسنهم عملاً ، لا أشرفهم نسباً .

وقد استفاضت الأخبار بأن الكرامة لا ترتبط بالأنساب ، بل بالعمل . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس رجلان : برقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ؛ الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » ؛ ثم قرأ هذه الآية . وخطب صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال : « ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحر ، ولا لأحمر على أسود ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : فليبلغ الشاهد الغائب » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ تَهَيَّئُ قَوْمَ يَفْخَرُونَ بِأَبَائِهِمْ أَوْ لِيَكُونُوا أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَعْلَانِ (١) » .

الاسلام دين عام خالده ، قد اعتبر المؤمنين جميعهم أمة واحدة ، واعتبرهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب العجم تحت راية الاسلام ، تقاتل مخالفيه ، وتنتشر تعاليمه ، وتثبت قواعد التوحيد ، إذا استمرت القبائل تفخر على القبائل ، والشعوب تفخر على الشعوب . وما عرف أن أمة توحدت وفيها أجناس تشعر بالنفوات والتغاير . ولا بد لوحدة الأمة من أن تندمج جميع عناصرها ، وتنتظمها وحدة تكون هي الغاية التي يحافظ عليها ، ويقاقل من أجلها . وهذه الوحدة التي اعتبرت ، رباطها الإيمان ؛ فهو الجامع لجميع الأجناس ، والموحد لجميع القبائل والشعوب ؛ وهو الذي يدافع عنه ، ويقاقل من أجله .

بهذه الآية وجد الرباط القوى بين الأمم والأجناس ، وقضى على النزعة الهدامة التي كانت تسود العرب ، حيث كانوا يفاخرون بالأنساب ، ويفخرون بنسبهم على العجم ؛ وكان هذا النفاخر يوجد بينهم أحيانا عداوات وترات . وبهذه القاعدة مهدد الاسلام للعامل المجدد ، أن يفتح أمامه طريق المجد ، وأن ينال في الدنيا ما يصل اليه جهده ، وفي الآخرة ما تعده له تقواه . والتقوى تذال بالأعمال الصالحة ، وليست الأعمال الصالحة وصوما وحجبا فحسب ، بل هي هذه وحيطة الاسلام ، والجهاد في سبيله وفي سبيل الحق . وفي آخر هذه السورة : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » ، فمن الممكن أن يكون أى شخص هو الأكرم عند الله . وإذ قد عرف المسلمون أن الكرامة عند الله بالتقوى ، فقد وجب عليهم أن يكون ذلك هو المعيار عندهم ، وأن يكون المنقون هم الأكرمين .

هذا هو السمو بالنفس الانسانية الى أعلى الدرجات ؛ وهذا ما جاء به الاسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؛ وكان الناس إذ ذاك في ظلمة العبودية وتقديس الطغيان . وبعد أن عرفت

(١) الجعلان بكسر الجيم : جمع جعل بضم الجيم وفتح العين : دابة سوداء كالخنفساء . وقيل هو أبو جعران .

الأمم هذا نفرت به ، وظنت أنها وقعت على شيء جديد لم يعرف ، والاسلام طائر الجذب بينهم بما هو براء منه ، وبما جاء لهدمه .

جاء الاسلام بهدم مزايا الأجناس ، وبالتعويل على التقوى والعمل الصالح . وأين هذا مما عليه المسلمون الآن ، من اعتزاز كل أمة بجنسها ، وكل واحد بقبيلته أو أسرته ، مما أدى الى تقطيع الروابط ، والى ألا يكون المسلمون تحت وحدة يدافعون عنها ، فأصبحوا أذلة بعد العزة ، وضعفاء بعد القوة ، فهم على كثرتهم كأنهم غناء السيل ، لا يقيم لهم وزن :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيْبُ تِمِّ وَلَا يَسْتَأْمِرُونَ وَهُمْ شُهُودٌ

هذه الآداب التي ساقها الله في الآيات السابقة ، والتي طلب أن يكون عليها المؤمنون ، قائمة على أصول هي اعتبار المسلمين وحدة ، واعتبار أفرادهم إخوة ، وقائمة أيضا على أصل خطير في الحياة ، وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم ، والأخذ بيد الحق ، والوقوف في صف المظلومين . هذه درجة سامية كرمهم الله تعالى بها ، ومن الواجب أن يفقهوها ، ويتدبروها ، ويعملوا عليها ، ليكونوا أشرف الناس ، وأعزهم جانبا ، وأكرمهم مبدأ . ونسأل الله الهداية والتوفيق !!

\*\*\*

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تَوَدِّعُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

الآمن : طمأنينة النفس وزوال الخوف . وقد أخذ منه الإيمان وجعل اسما للتصديق الذي معه الآمن ، وهو الإذعان للحق ؛ ومنه قول الله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا (١) » أى بمصدق . والاسلام : استسلام وانقياد وترك للتمرد والعناد . والتسليم عام ، يكون في القلب واللسان والجوارح . فالاسلام أعم ، والإيمان أخص ، وهو أشرف أجزاء الاسلام . هذا ما تعطيه اللغة ، لكن الإيمان والاسلام حدث لهما استعمالات شرعية أخرى ، فقد استعملا مترادفين ، ومختلفين ، ومتداخلين .

ومن الترادف قول الله تعالى : « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢) » ، ولم يكن فيها بالاتفاق إلا بيت واحد . وفي الحديث الشريف « بنى الاسلام على خمس » . وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بمثل هذا .

ومن الاختلاف قول الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، أراد بالإيمان التصديق وطمأنينة النفس ، وبالإسلام الانقياد والاستسلام في الظاهر . وفي حديث جبريل لما سألَه عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب ، وبالقدر خيره وشره » ؛ ولما سألَه عن الإسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » .

ومن الندائل : سئل صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإسلام ؛ فقليل : أى الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . وهو دليل على أن الإسلام أعم والإيمان أخص . وهذا يوافق الاستعمال اللغوى ، لأن الإيمان عمل من الأعمال هو أفضل جزء فى الإسلام ، لأن الإسلام يشمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح . وأفضل هذه الثلاثة تصديق القلب ، وهو الإيمان .

وعند الترادف يكون هناك تعميم فى الإيمان ، بإطلاقه على التصديق ، وعلى ثمرة التصديق ، وهى النطق باللسان ، والإتيان بالأعمال . وعند الاختلاف يكون هناك تخصيص فى الإسلام ، حيث خص بالتسليم الظاهرى ، وهو الإقرار باللسان ، والطاعة بالأعمال .

وقد جاء استعمال الإيمان فى العمل الصالح : « وما كان الله ليضيع إيمانكم (١) » . وفى الحديث الشريف : جعل إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة من الإيمان .

ولا خلاف فى أن النطق بالشهادتين كاف فى إجراء أحكام الإيمان فى الدنيا ، ويعتبر المقر بلسانه مؤمنا ، وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه قلبه ؛ كما أنه لا خلاف فى أنه إذا لم يكن مصدقا بقلبه فهو كافر مخلد فى النار . لكن هناك خلاف فيما يجب أن يضم إلى التصديق القلبي للنجاة فى الآخرة ، وعدم الخلود فى النار :

فمن جمع بين التصديق والإقرار ، والإتيان بالأعمال الصالحة ، فلا خلاف فى أن الجنة مستقره ؛ ومن صدق وأقر وارتكب شيئا من الكبائر فهو لا يدخل النار عند المرجئة ، لأنهم يرون أنه لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ؛ ويخلد فى النار عند المعتزلة ، لأن مرتكب المعصية يخرج فى رأيهم عن الإيمان ، والجنة لا يدخلها إلا مؤمن . وهو عند الجمهور رجل عاص يدخل النار فيطهر فيها ثم يخرج منها ، لأنه لا يخلد فى النار إلا الكافرون .

ويمكن بعد هذا أن نقول : إن الإيمان الذى لا يخلد صاحبه فى النار هو التصديق وحده عند الجمهور وعند المرجئة . أما الإيمان عند المعتزلة فهو مركب من ثلاثة أشياء : التصديق ،

والإقرار ، والعمل الصالح . ومذهب المعتزلة على هذه الصفة هو المروى عن السلف ، رضى الله عنهم ؛ فقد نقل اتفاقهم على أن الإيمان تصديق ، وقول ، وعمل . لكن الجمهور يقولون : إن المروى عن السلف هو تفسير للإيمان الكامل الذى يجعل مستقر صاحبه الجنة ، وينجيه من دخول النار ، وذلك للقطع بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتبرون العصاة غير مؤمنين . ولا شبهة فى أن المنتبغ لآيات الله سبحانه ، وللسنة المحمدية ، وأقوال الأئمة ، يقطع بأن الاسلام يعتبر العصاة مؤمنين ، يعذبون ويظهرون ثم يخرجون الى دار النعيم .

لأنه عن كذا يليته : صرفه عنه ونقصه حقاً له . والمصدر لبت .

ولا يلتصكم من أعمالكم : أى لا ينقصكم من أعمالكم . ولات وألات بمعنى نقص . هؤلاء الأعراب إما أن يكونوا مصدقين مقرين ، وإما أن يكونوا مقرين غير مصدقين . فان كانوا مصدقين مقرين ، كان المعنى : لا يصح لكم أن تقولوا آمنا على الإطلاق ، لأن معنى آمنا ، على الإطلاق : حققنا القول بالعمل ، ويصح لكم أن تقولوا قولاً لا إشكال فيه على سامعيه ، وإن قلمتموه كنتم محقين فى قوله ، وهو أن تقولوا : أسلمنا ، أى دخلنا فى الملة بالشهادة التى تحقن الدم وتصون الأموال . وعلى هذا يكون معنى قوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » : لم يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائقه ومعانيه فى قلوبكم . وإن طيعوا الله ورسوله ، وتعملوا بما فرضه الله عليكم ، وتلتزموا عما نهاكم عنه ، لا يظلمكم شيئاً من أجور أعمالكم ، ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً . وهو غفور لمن تاب ، ورحيم لا يعاقب بعد التوبة . ويمكن أن تكون الطاعة هنا بمعنى التوبة عن النفاق ، وعقد القلب على الإيمان ، ليوافق القلب اللسان ، فإذا فعلتم ذلك قبل الله التوبة منكم ، وغفر لكم .

وإن كانوا مقرين غير مصدقين ، كان المعنى : لم تؤمنوا إيماناً وافق القلب فيه اللسان ، لأنكم لم تصدقوا ، وقولوا : أسلمنا ، أى انقدنا ودخلنا فى زمرة أهل السلم ، ولما يدخل الإيمان الحقيقى وهو التصديق فى قلوبكم . ولا تكرار بين قوله : « لم تؤمنوا » وقوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » لأن الجملة الثانية فى موضع الحال من الضمير فى « قولوا » ؛ وهو توقيت لما أمروا أن يقولوه ؛ فالمعنى : قولوا أسلمنا فى الوقت الذى لم يدخل الإيمان فيه قلوبكم .



( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ) :

رأيه : أوقعه في الشك والتهمة ؛ وارتاب : مطاوعه ؛ وريب المنون : ليس الشك فيه من جهة حصوله ، بل من جهة وقته .

والمجاهدة : استقراغ الوسع في مدافعة العدو . والجهاد : يشمل جهاد العدو الظاهر ، وجهاد النفس . وفي الحديث : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » . والجهاد الظاهري يكون باليد ويكون باللسان . وفي الحديث : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » .

يقول الله سبحانه : ليس الإيمان هو ما زعمتم من قول لا يوافقه عقد القلب ، أو من تصديق وقول لم توازرها الأعمال ، ولم تشدها الطاعة ، بل الإيمان الذي يعتمد الله سبحانه ، ويستحق أهله الحمد والنماء ، ويباعد بين أهله وبين النار ، هو تصديق لا أثر للريب فيه ، يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح ، بالطاعة ، وأداء ما فرضه الله سبحانه من التكليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والتضحية بالنفس والمال ، في سبيل الله الذي ارتضاه لعباده ، وهو إعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع البغي ، وعمارة الأرض ، وتطهيرها من الفساد . أولئك الذين هذه خصائصهم ، وهذا إيمانهم ، هم الصادقون إذا قالوا آمنا على الإطلاق ، وهم الذين إيمانهم إيمان صدق ، وحق ، وجد ، وثبات .

وخص الله الجهاد بالنفس والمال بالذكر ، لأنه أشق أنواع الطاعة .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » إما أن يكون معناه : آمنوا واستمروا على التصديق والإذعان للحق ، ولم يعترضهم الريب بعد ذلك ، لأن المؤمن قد يبتلى بمن يضلله ويقذف في قلبه ما يثلم اليقين ، أو ينظر نظرا خاطئا يسقط به على الشك فيركب رأسه ، لا يطلب المخرج ؛ فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذا . وإما أن يكون معناه : آمنوا ولم يداخل إيمانهم ريب ؛ وأفرد بالذكر مع أن الإيمان يقتضيه ، للدلالة على مكانة نفي الريب والشك من الإيمان . وجاء « ثم » للدلالة على استقرار الإيمان في الأزمنة المتتالية المتطاولة ، غضا طريا .

الجهاد بالنفس يشمل القتال ، والمرابطة في الغور على حدود بلاد الاسلام ، ويشمل الحراسة ، وكل عمل من الأعمال التي يحتاج اليها القتال . والجهاد بالمال يشمل جميع أنواع البر ، من الزكاة ، والصدقة ، وبناء المساجد ، والمصحات ، وإنشاء المرافق العامة للمسلمين . ومن أهم أنواع الجهاد بالمال ، تجهيز الغزاة بالمعدات ، والإتياف عليهم في طعامهم وشرابهم ولباسهم .

ذكر الجهاد في هذه الآية وحده من بين أنواع الطاعة ؛ وفرض على المسلمين في آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يرجع الى الحق . والجهاد في سبيل الله معناه الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ؛ وإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين



إعلاء للحق ؛ فكأن المسلم ندب من الله لنصر الحق وإعزازه ، والضرب على أيدي البغاة ؛ وندب لتطهير الأرض من الفساد .

هذه منزلة وضع بها في الدرجة العليا من منازل الكرامة ؛ فعليه أن يعد نفسه لها ، وأن يعتبر نفسه جنديا ، إما في القتال والغزو ، وإما في الرباط ، وإما على أهبة أن يدعى لواحد منها . وقد جعل الله أجر الجهاد عظيما ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه . ولا أريد أن أعرض لحكم الجهاد في بقاء فرضيته الى الأبد ، وفي أنه فرض عين أو كفاية ، فهذه مسائل تكفلت بها كتب الفقه . ولكن بما لا نزاع فيه عند أحد أنه إذا قاتل المسلمون واعتدى عليهم ، قتالا للدين أو للوطن ، وجب على المسلمين الجهاد ، وقتال المعتدين ، وأنهم يأثمون جميعا إذا لم يتعاونوا جميعا على قتال الأعداء . والجهاد في سبيل الله هو الجهاد الذي لا يقصد منه مغنم دنيوى . فعن أبى موسى أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، فمن في سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله » .

ويمكن أن تعتبر الآية الكريمة الآتية دستور الاسلام في القتال : « لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١) » .

أمر الله ورسوله بالجهاد ، وبين فضله ، ورغب فيه . وفي الكتاب العزيز : « فليقاتلْ في سبيل الله الذين يَشْرُونَ الحياةَ الدنيا بالآخرة ، وَمَنْ يقاتلْ في سبيل الله فيُقتلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٢) » ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً ، وكلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما : درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً ، وكان الله غفورا رحيما (٣) » ، « أ جعلتم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبدئهم ربهم برحمة منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدين فيها أبدا ، إِنَّ اللَّهَ عنده أَجْرٌ عَظِيمٌ (٤) » . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ضَمِنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ وَإِيمَانٌ بِهِ ، وَتَصَدِيقٌ بِرَسُولِهِ ، أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ » .

نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . وعنه أيضاً : « عيناان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله . ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس في أرض خوفٍ لعله ألا يرجع الى أهله ؛ ومن رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام » . والرباط : هو الذي يكون آخر بلاد الاسلام على حدود بلاد الأعداء .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من أعان مجاهدا في سبيل الله أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » . وقال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما فيها » .

أمر الله بالجهاد ، وأمر بأن يعد للأعداء العدة ، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة ، فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ (١) » . والقوة تختلف باختلاف العصور ، وتجد في كل عصر عدة وأسلحة للقتال ، فلا يجوز أن يكون المسلمون متأخرين عن غيرهم في العدة ، وعليهم أن يتقنوها ، وعليهم أن يصنعوها ، وعليهم أن يحرزوا موادها ، وعليهم أن يعرفوا أسرار المواد ، وأسرار الصنعة ، كل هذه معارف يجب على المسلمين أن يحيطوا بها ، كما يجب أن يحيطوا بالدين وأسراره ، واللغة العربية وعلومها .

لكن المسلمين قد حرموا بعض هذه المعارف ، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان !! يجب على المسلم أن يعد نفسه جسمانيا ليكون دائما على أهبة القتال ، فيتعلم ضروب الرماية ، والسباحة ، ويمرن عقله ، ويمرن نفسه على الصبر واحتمال الأخطار . كل هذا يدخل تحت قول الله سبحانه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفي الحديث الشريف : « كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهوٌ ، إلا أربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين ( أى بين الهدفين اللذين يوضعان للرماية ) ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله ، وتعليم السباحة » . وعنه أيضا : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ، ومن تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جردها » .

وحرم الله في القتال الفرار من الزحف : « يأياها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زَحْفًا فلا تُوكِّوهم الأدبار ، ومن يؤلِّهم يومئذ بُرْهَ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبُسُ الْمَصِيرُ (٢) » .

وحث الله تعالى على الإسراع في إجابة الدعوة الى القتال في سبيل الله ، وحرم التناقل ، فقال تعالى : « يأياها الذين آمنوا ما لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمْ افْعِلُوا في سبيل الله أنْ تَقَاتِلُوا في الأرض ؟ ! أَرْضُنِي بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ! فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .

إِلَّا تَنْفِرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » . وفي حديث آخر : « خمس ليس لهن كفارة — وعدنّ منهن : الفرار من الزحف » .

هذه هي أحكام الجهاد ، وفضله . ولم يشرعه الاسلام للتوسع والغنم ، بل شرعه دفاعا عن الحق ، وذودا عن حياض الدين .

أعد الله المسلم ليكون في القتال رجلا إذا دعا الداعي وحانت ساعة الإقدام ، وليكون ملكا مهذب الأخلاق ، سمح الطباع ، لا يسخر من أحد ولا يلزمه ، مؤدبا مع الله سبحانه : لا يقدم رأيا على رأيه ، ومع الرسول الكريم : يخاطبه بالدين والرفق ، ويجاهد نفسه وهواه . هذا هو المسلم الذي يريده الاسلام .

فهل آن للمسلمين أن يفهموا المسلم ، وأن يتدبروا ما هو مطلوب من المسلمين ، وأن يهتّبوا لدفع الأخطار المحيطة ببلادهم ، والأخطار التي ربما قوضت مبادئ الدين ؟ !  
أعتقد أن ناقوس الخطر دق ، وأن مؤذن الفلاح والصلاح قد صاح ، وأن الفرصة سانحة الآن لخير الاسلام والمسلمين .

\* \* \*

﴿ قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ :

يعنى : أتعلمونه عقيدتكم وتقولون أمنا ؟ ومعناه : أطعنا وتحققنا بالشرائع ، أو صدقنا ووافق قولنا ما في قلبنا وأتم على غير ذلك ، وهو عالم بما كان ويكون وما هو كائن ، لا تخفى عليه خافية .

\* \* \*

﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ إِيْسَلَمُوا ، قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمِ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ :

كان هؤلاء الأعراب يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا أسلمنا بغير قتال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله هو الذى يمن عليكم أن وفقكم للإيمان بالله ورسوله على حسب زعمكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم آمنا ، فالله وحده هو الذى هداكم لهذا الإيمان الذى تزعمنه وتدعون أنكم أرشدتم إليه .

يقال : منّ عليه بيد أسداها إليه . والمنّة : النعمة التى لا يستثيب مسديها ، من المن وهو القطع ، لأن مسديها أراد قطع حاجة صاحبها ، ولم يطلب المنوبة . ومنّ عليه صنعه : إذا اعتده عليه .

قال صاحب الكشف : سياق الآية فيه لطف ورشاقة : ذلك أن الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون إيمانا كما زعموا ، فلما منّوا ما كان منهم قال الله لرسوله : إن هؤلاء يعتدون عليك ما ليس جديرا بالاعتداد به ، من حديثهم الذى حقه أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تمتدوا على إسلامكم ، أى حديثكم المسمى عندى إسلاما لا إيمانا ، بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حسب زعمكم للإيمان ؛ فإن صح زعمكم ، وصدقت دعواكم فالله صاحب المنّة ؛ لكنه زعم يعلم الله خلافه .



( إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ) :

وإذا كان يعلم الغيب فى السموات والأرض ، فهو يعلم الصادق منك والكاذب ، والداخل فى الاسلام رغبة فيه ، والداخل خوفا من جسد الله وحقنا لدمه ، فلا يصح لكم أن تعلموه ما أنتم عليه ، فهو يعلم ما تكنه الضمائر ، وما تحدث به النفس ، وما غاب عنكم فاستتر فى خبايا السموات والأرض ؛ وهو بصير بأعمالكم التى تعملونها سرا وجهراً ، وطاعة ومعصية ؛ وهو مجاز على هذا كله ، يجزى على الشر بالشر ، وعلى الخير بالخير .

وأسأل الله العلىّ القدير ، أن يوفق المسلمين لمعرفة دينهم ، والعمل على سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، إنه سميع مجيب .

# السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

## نشوء الدولة الإسلامية

بين العوامل المختلفة

لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، احتفل به أهلها أيما احتفال ، وانتشر بينهم الاسلام أيما انتشار ، حتى لم يبق بيت إلا دخله نوره الساطع ، فكان انقلاب في عشية وضحاها لم تشهد مدينة قبلها في الأرض ، وأى مدينة جاهلية في أية بيئة من بيئات المعمور ، يجلو عنها دين رسخت أصوله في عقول أبنائها منذ ألوف من السنين ، ويحل محله دين جديد ، ليس الداعي إليه بملك عظيم يرجى أن تعمم عطاياه ، وتحميمهم من أعدائهم جيوشه وسراياه ، ولكنه صاحب دعوة نبت به دياره ، وعاداه قومه ، ولحق به من شيعته رجال لا يملكون شروى نكير ، حاملاً إليهم معه الجهاد الفادح ، والنضال العنيف ؟ فلو كان سألهم سائل : بأى شيء تقرحون ، وأنتم بقايا سيوف لا تزال تنطف دما ، وجزر معارك لا يفتأ صداها يملأ الجواء ؟ لقد جئتم إلى قریش لتستنصروا بها ، أفتمودون وقد استجلبتم سخطها ، واستهدفتم حربها ؟ وكنتم تستجدون البعيدين عنكم ، على عدو كان يساويكم عددا وعدة ، أفتنقلبون وقد أكرم عليكم العرب كلهم ؟ فإذا ترجون من وراء هذه المغامرة التي لم تندفع في تيارها جماعة قبلكم إلا بآت بالويل الوائل ، والهول الهائل ؛ فلنا لو كان سألهم سائل هذه المسألة ، ولعلمهم لم يعدموا من سألهم إياها ، لكان جوابهم أنهم يرجون إحدى الحسنيين : إما إقامة دولة الحق في الأرض ، وإما الشهادة في سبيلها .

إيمان راسخ يعجز علم النفس عن تعليله لو حدث لرجل واحد ، فما ظنك وقد حدث لقبيلتين متحاقتين ؟ في هذه البيئة من الإيمان المتين ، والتسليم المطلق ، أسس النبي صلى الله عليه وسلم حكومته (النبوية) ، وهي طراز من الحكومات لا تقوم إلا في عهد الرسالات الدينية ، أساسها الوحي الإلهي والشورى ؛ الوحي في الأمور الكلية التي تتأصل فيها الأصول ، وتتدمر المبادئ الأولى للدين والدولة المستقبلين ، والشورى في الأمور الجزئية التي تترك لتصرف العقل . فالجانب المطلق من هذه الحكومة كان لله وحده ، والجانب الشورى كان للجماعة

على نظام الحكومات الدستورية . فكان إذا حدث أمر سأل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن وجه السداد فيه ، فكانوا يقولون له : أنزل فيه قرآن يا رسول الله ؟ فكان يقول لهم : لو نزل فيه قرآن ما سألتكم . فكانوا يتباحثون فيه . وربما خالف رأيهم رأيه فيعدل عن رأيه الى رأيهم . على موجب هذا النظام تألفت جماعة المسلمين ، وتم فيها نزول القرآن على حسب الحوادث التي يقتضيها قيام جماعة من أول تكوُّنها الى أن تصل الى درجة أمة ، ولا يخفى أن بين هذين الطرفين تتعاقب أحداث ، وتطرأ مشاكل ، تارة تصادف حلولاً ، وطورا تؤدي الى ما رزق تصطهر فيها النفوس ، وتبلى السرائر ، وتبلغ الروح الحناجر ، لذلك جاء هذا القرآن الكريم حاويا كل ما تحتاج اليه كل نفس بشرية في تسكُّلها ، وكل هيئة اجتماعية في تطورها ، فكان كما وصفه جل وعز : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

فالباحث الاجتماعي يستطيع بتتبع أطوار جماعة المسلمين ، وما اقتضت نزوله من الآيات القرآنية ، أن يشرف على نشوء نواة أكبر أمة عالمية نالت من زعامة الأرض مكانة لم تنلها أمة قبلها ولا بعدها ، ووضعت من صرح المدنية الفاضلة أصولا لا تزال أثبت وأقوى قواعدها الى اليوم . وهذا ما سنقوم به في هذه السيرة متبعين أصول الدستور العلمى ، وفاء بما شرطناه في مقدمتها على أنفسنا ، فنقول :

استقر النبي صلى الله عليه وسلم من يثرب في جماعة قبلت الاسلام دينا ، وسلمت له مقادتها يقودها الى حيث يشير به عليه الوحي من سلم وحرب ، لا ينازعه منهم منازع ، ولا يعقب على حكمه معقب ، وهى قيادة لم ينلها قبله في قبيلة أجنبي عنها . فقد جرت العادة عند العرب وغيرهم أن الذى يسود القبيلة ويقودها واحد منها ، فكان يستحيل أن يسود قريشا غطفانى ، ولا غطفان تميمى . هذا كان بين القبائل التى تنتمى الى أصل واحد ، كالقبائل التى يتصل نسبها بعدنان ، فما ظنك بمن تنتمى الى أصلين مختلفين ؟ لا جرم كان هذا من أشد المحالات .

كان في بلاد العرب نومان من القبائل : عدنانية ، ويمانىة ، نزحت هذه الأخيرة من اليمن عقب كارثة سيل العرم الى جهات كثيرة من الشمال ، لحافظت على لهجتها وعاداتها وتقاليدها ، منها قبيلتا الأوس والخزرج اللتان عمرتا يثرب ، فقد كانتا يمانيتين قحطانيتين ، وكان من المحال عليهما أن تفضعا على رأسيهما زعميا عدنانيا ، تلك كانتا تعدناهما مسبة لا تزول عنهما وصمتها مابقى الفرقدان . فكان قبولهما لزعامة محمد صلى الله عليه وسلم وهو من صميم قريش ، غير آهتتين بعاداتهما التقليدية ، انقلابا عجيبيبا في نفسية أولئك القوم ، لا يمكن عزوه إلا الى عظم سلطان الاسلام على قلوبهم ، حتى جعلهم لا يبالون بأقدس تقاليدهم الاجتماعية .

ولكن الاسلام لم يكن قد عم جميع آحاد تينك القبيلتين ، فبقى منهم قوم على كفرهم باطنًا ، وإن كانوا التحفوا الاسلام ظاهرا ، وأولئك كانوا يدعون بالمنافقين ، وكان أمرهم لا يخفى

على النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أخصائه، ولكنه كان يقبل منهم ظاهرهم، وإكلاً سرائهم إلى الله، ما داموا خاضعين لحكومته، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته. فكان ضررهم ينحصر في حل عزائم المؤمنين، إذا دحاهم الرسول للجهاد، بنفث الذعر في قلوبهم، وبث اليأس في نفوسهم، بالتهويل في قوى أعدائهم، والمبالغة في عددهم. فإذا لم تفلح وسائلهم في صرفهم، عمدوا إلى ما هو أفعال في إفشالهم، فخرجوا معهم، حتى إذا تلاقى الجمعان في ساحة الوغى تبادروا إلى الهزيمة ليحجروا المؤمنين معهم؛ وهو تدبير خطير يؤثر في القوى المعنوية للمقاتلة أسوأ تأثير؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفيض الطرف عن فعلهم، ويقبل واهن أعدائهم.

فإذا وضعت الحرب أوزارها، وعاد المسلمون إلى بلدهم، عادوا إلى سابق إرجافهم، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم، وروجوا من سىء المبادئ، وسقيم الآراء، ما تتسم به النفوس، وترتبك العقول، فكانوا أشد على النبي وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوتهم، المتوعدين بحل جماعته. كل هذا ولا يأذن صلى الله عليه وسلم في اصطلاحهم لاتقاء شرهم، لمخالفة ذلك للمبدأ الاسلاي العظيم من قبول الظاهر، وترك الباطن لعلام السرائر؛ وهذا مبدأ جليل القدر، بعيد الأثر في تربية الأمم على احترام الحياة البشرية، وعدم الإسراف في سفك الدماء جرياً وراء الرظن الحزبية. والأمة التي تربي على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول، تمضي في تطبيقه في جميع أدوارها، كتقليد من تقاليد الاجتماعية، فتنتفي شرور الناحر في حياتها المدنية، حيث تختلف المبادئ، وتتباين المذاهب، فلا تنصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر. وهذا الضبط للنفس من أجل ما تتصف به الأمم الرشيدة، وقد اعتبر اليوم وليد الثورة الفرنسية، وهو كما ترى وليد الديانة الإسلامية.

ومما يوجب الدهش في أمر الاحتمال الذي أمر به الإسلام حيال المنافقين، أن ما وصفهم به القرآن من الخداعة والمراوغة، وبذر بذور الفتنة بين الفئام، واستغلال الحوادث لحل جماعة المؤمنين، مما لا تطيقه إلا أمة بلغت من ضبط النفس، وكبح الهوى، درجة ليس بعدها مرتقى. ونحن نورد لك بعض ما جاء عنهم في الكتاب الكريم لإدلالاً على ما نقول:

قال تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم (أي إلى إخوانهم في الكفر) قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون.»

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون » .

استمر المنافقون يدأبون على حل جماعة المسلمين وهم في صميمها ، والنبي غير مبال بهم ، حتى تفاقم شرهم ، فنزل في حقهم قرآن يهددهم بأخذهم بالعنف ، فقال تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » ، أى لئن لم يلقع المنافقون عما هم بسبيله من المفساد ، لنسلطنك عليهم ، فيضطرون للجلاء عن المدينة ، وعدم مجاورتك فيها ، ويصبحون بعد ذلك ملعونين ، وتهدر دماؤهم أينما صودفوا . ومع هذا استمر الاسلام على مطاولتهم حتى لم يبق في جزيرة العرب من يصغى الى إفكهم ، ففنوا في جماعة المسلمين ، وطهرها الله منهم . وهذا ما لم يسمع بمثله في تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، حيث تراق الدماء ، وترتكب الإفراطات ، وتروج الظنن والانهامات ، حتى تتغلب الآراء الجديدة ، فتثوب الجماعة الى رشدتها ، وتستقر الامور في نصابها ( راجع تواريخ الثورات الكبرى ) .

\*\*\*

لم تكن عوامل الفساد في جماعة المسلمين الاولين مقصورة على المنافقين ، فقد كانت تجاور المدينة ثلاث قبائل يهودية : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وقد ساءها أن تتأسس في يثرب ديانة يتوقع أن يكون أشياعها أشد عليهم من قبيلتي الأوس والخزرج ، فتجلبهم عن البيئة التي اتخذوها دار هجرة لهم ، وتعيد لهم عهد الاضطهاد الذي ذاقوا مرارته تحت سلطان الدولة الرومانية ، فاتفقوا مع المنافقين على مناوئتها العدا ما استطاعوا اليه سبيلا . فكان أولئك بما تظاهروا به من الاسلام يخالطون المسلمين ، ويسعون بينهم بالتأثم والإرجافات ، وينقلون الى الآخرين ما يقفون عليه من الأخبار ، وما يترامى اليهم من الأسرار .

ولكن نظرا لأن هؤلاء كانوا أهل دين سماوى ، وكان فيهم أخبار متضلعون في النقافة الدينية ، وطارفون بالأساليب الجدلية ، كانوا من هذه الناحية أشد على جماعة المسلمين من جميع أعدائهم . لأن قوام الدعوة الاسلامية كان يتوقف على تأثيرها في العقول والقلوب ، وهؤلاء الاحبار كانوا لا ينون في مهاجمة عقائد الاسلام وأصول شريعته ، بقصد بذر الشبهات ضدها ،



فكانوا بهذا العمل منيرين على الاسلام حربا أدبية ، أفعل في الصد عنه من الحرب المادية ؛ فلو كان في مكان النبي صلى الله عليه وسلم الأمة العربية بأسرها في أميتها وجاهليتها وبعدها عن العلم ، لما نهضت لها حجة إزاء هؤلاء الأخبار ، الذين كانوا من أخبار النبوات وتواريخ الأمم القديمة والمعاصرة ، وشئون الحياة المدنية ، في مستوى أمثالهم من رجال الدين في البيئات المتحضرة . واليهودية أقدم الأديان السامية بعد دين ابراهيم ، وأهلها يدعون أن ماجاء بعدها قد استمد وجوده منها ، وهم لا يزالون يروجون هذه الدعوى الى اليوم ؛ فأراد الحق سبحانه وتعالى أن ينزل الاسلام في هذه البيئة من النضال الديني ليثبت للعالم بدليل محسوس أنه لم يستمد وجوده من دين سابق عليه ، ولكنه هو نفسه الدين الأول الذي استمد كل دين مادته منه ، كما قرر ذلك بقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

لهذا السبب جاءت في القرآن آيات كثيرة جدا في مجادلة اليهود وإلزامهم الحجة ، فسردت ما كانوا عليه من الاستعصاء على عهد أنبيائهم الأولين قبل موسى عليه السلام ، وما كانوا يقابلونهم به من الالتواء والمراوغة ، وما استحقوه بسبب ذلك من تسلط الوثنيين عليهم ، ثم عقب ذلك بما كانوا عليه على عهد موسى من الشقاق ، وما أظهره في مواطن شتى من العصيان والخلاف ، وما جناه ذلك عليهم من الوقوع في أسر الأمم الفاتحة ، حتى أدى ذلك الى هدم هيكلهم المقدس مرات ، وتشنيبتهم في الأرض ، وضياع استقلالهم في عقر دارهم ، يتخلل ذلك ما عمدوا اليه من مسايرة أهوائهم ، ومتابعة شهواتهم ، وما جنوه على أصولهم بالتأويل والتحريف حتى حللوا كثيرا مما كان محرما عليهم .

فهذه الناحية من القرآن الكريم كشفت عن أصلاته في سمو المبادئ ، واستقامة الأصول ، وعن تحليه بضروب المناعات حيال كل شبهة تثار عليه ، فإن المقابلة التي اقتضاها الجدل بين الدينين أبانت بدليل محسوس عن الفرق البعيد بينهما ؛ فقد دل الأول على أنه دين أسرة واحدة ، مرتبطة بأرض معينة ، لا يصح لها وجود بدونها ، وأنه خلاصة عقلية تلك الأسرة في أطوارها المختلفة ، فلا يصلح لغيرها ؛ ودل الثاني على أنه دين البشرية بأسرها ، وأنه جامع لكل ما بلغته من خير في جميع أطوارها ، وأنه بما طبع عليه من صفة العمومية ، وما تحلى به من مزية الإللاقية ، وما وقف عنده من المثل العليا ، يصلح لكل زمان ومكان .

في هذه البيئة وما حوته من العوامل الأدبية والمادية المختلفة ، ناضل الاسلام عن وجوده وإقام دولته ، ومنها امتد الى أقطار الأرض ، ولما يبلغ مداه بعد ما ( يتبع )

# السنة

## الوفاء بالعهد

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعٌ خلالٍ من كنَّ فيه كان منافقا خالصا : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » ؛ ومن كانت فيه خصلةٌ منهم كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها . رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، وفى كتاب الايمان .

يتعلق يشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) بيان معنى النفاق ، وهل ينطبق هذا المعنى على من كانت فيه هذه الخصال أو بعضها ؟ ( ٢ ) بيان قيمة الوفاء بالعهود فى نظر الشريعة الاسلامية وما يترتب على نكثها من آثام وأضرار . ( ٣ ) بيان ما يترتب على كل خصلة من باقى الخصال المذكورة فى الحديث من مضار خلقية واجتماعية .

( ١ ) معنى النفاق فى اللغة : مخالفة الظاهر للباطن . ومعناه فى الشرع : الاعتراف بصدق الرسول باللسان فقط مع كون القلب منكرا غير مقرر . وإن شئت قلت : هو الإقرار باللسان والإنكار بالقلب . فالمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ فكانوا شرا على المسلمين من المشركين الذين كانوا يجاهرون بالعدوان ، ويعلمون عبادة الأوثان ؛ لأنهم كانوا يختلطون بهم ويعرفون أسرارهم المتعلقة بالجهاد وغيره ، ويحاولون التأثير على بعض المؤمنين الخلفيين ليفسدوا عليهم اعتقادهم . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متصلا بالوحى الإلهى حقا ، وكان الله سبحانه يحذر النبى وأصحابه من شرهم ، ويبين لهم ما يخفون من عقائد ، لكان خطرهم على الاسلام يومئذ عظيما . ولكن الله سبحانه حذر منهم نبيه ، وأنزل فيهم كثيرا من الآيات ، وهددهم بالعذاب العاجل والآجل .

وقد كانت تبدر منهم هنات تدل على نفاقهم ، كمتخلفهم عن الغزو ، واتهياز الفرص للإيقاع بين المهاجرين والأنصار ، وبث بذور العداوة والبغضاء بينهم . فمن ذلك ما روى البخارى معناه من أن المسلمين كانوا فى غزوة ، فوقع شقاق بين رجلين ، أحدهما من الأنصار ،

والآخر من المهاجرين ، فاستغاث كل منهما بقومه على عادة الجاهلية كي يستفزهم لمناصرته فيقع القتال بين الفريقين ؛ وكان في القوم رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول ، فاتهر الفرصة ، وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ . فلما بلغ رؤساء الانصار ورؤساء المهاجرين هذا الامر ، غضبوا وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بقتل ابن أبي ؛ فأبى عليهم ذلك ، وقال لهم : إنكم إذا قتلتموه يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه . وأصلح بينهم ، ونهاهم عن التمسك بعادات الجاهلية الفاسدة .

وقد أنزل الله في ذلك سورة المنافقين ، فقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » الخ ، وقال فيها : « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ » ، والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون .

ولعل قائل يقول : إنك قد عرّفت النفاق بأنه الإقرار باللسان مع الإنكار بالقلب ؛ والكذب وصف للإقرار اللسانى ؛ وهؤلاء قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، فكيف يصفهم الله بالكذب في هذا القول مع كونه صدقا لا شك فيه ؟

والجواب : أن قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، وإن كان مطابقا للواقع ونفس الامر ، ولكنه ليس مطابقا للواقع عندهم ؛ والكذب هو عبارة عن عدم مطابقة الواقع في نفس الامر أو في زعم المخبر ؛ فالذى يخبر بخبر يعتقد أنه ليس بصحيح يكون كاذبا في نظر الشرع ، وإن كانت صيغة الخبر صحيحة ، لأن الشارع يعتبر النية في هذا المقام ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » . ألا ترى أن المجتهد إذا أخبر بخبر يعتقد صدقه ولم يكن صادقا فيه يثاب عليه ؟ لأنه إنما أخبر بناء على اعتقاد يرضاه الشرع ويقره وبعضهم يقول : إنهم كاذبون في الشهادة ، لأن قولهم نشهد ، يتضمن دعوى أن هذا يسرى شهادة ؛ والشهادة في لسان الشرع يشترط فيها أن يكون ما في القلب مطابقا للنطق باللسان . وتسمية قول الزور شهادة من باب التجوز ، لأن المفروض فيها أن يكون اللسان فيها مطابقا لما في القلب ؛ فمن شهد الزور فقد سقط في نظر الشريعة عن الاعتبار . وهناك وجهان آخران في الجواب لاجابة الى ذكرهما هنا .

من هذا تعلم أن المنافقين بهذا المعنى من أردل الكافرين وأخسهم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولذا قال تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » . فلم يخزى في الدنيا ، ولهم في الآخرة سوء العذاب .

ومما لا خفاء فيه أن النفاق بهذا المعنى ليس بمقصود في هذا الحديث ، وإنما المراد أن هذه الخصال السيئة يتجافها المؤمنون حقا ، الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام ، وعملوا بما جاء به

الرسول صلوات الله عليه من مكارم الأخلاق وأحسن الصفات . فهذه الخصال المذكورة في الحديث لا ينبغي أن تصدر إلا من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وعلى هذا يكون معنى الحديث أن صاحب هذه الخصال شبيه بالمنافقين في أعمالهم ، وإن كان مؤمنا بقلبه مقرا بلسانه .

وبعضهم يقول : إن النفاق ينقسم الى قسمين : نفاق في العمل ، ونفاق في الاعتقاد . فالذين يعملون ما نهى عنه الشارع من الرذائل الخلقية مع اعتقادهم بصدق الرسول فيما جاء به ، منافقون في العمل دون الاعتقاد . ومن ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لحذيفة : هل تعلم في شيئا من النفاق ؟ فإن مراده نفاق العمل طبعاً .

(٢) الوفاء بالعهود في نظر الشريعة الاسلامية فرض من الفرائض المقدسة التي ينبغي القيام بها على وجه تام لا انحراف في أى ناحية من نواحيه . ويطلق العهد في اللغة على معان كثيرة ، منها الأمان ، يقال : أعطى لفلان عهداً ، إذا أئمنه من شر ؛ ومنها الجين ، يقال : على عهد لأفعلن كذا ، أى يمين ؛ ومنها الذمة ، يقال : لفلان على عهد ، أى ذمة . وهذه المعاني كلها قد أمرت الشريعة الاسلامية بالوفاء بها . وهذا الحديث الذى معنا صريح في أن من خالف عهداً من العهود كانت فيه خصلة من خصال المنافقين المذمومة .

من أجل ذلك قال الله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . والوفاء والإيفاء أيضاً : هو القيام بما يقتضيه العقد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقاً بأمر مادى أو أدبى ، كالتعاقد على معونة في عمل من الأعمال ، أو ضمان ، أو كفالة ، أو مناصرة على عدو أو دفع أذى ، أو غير ذلك من الأمور المشروعة التي تستلزمها الحياة الانسانية .

فمن عاهد ثم غدر كان من شر الفجار الآثمين في نظر الاسلام ، ولذا ذم الله سبحانه وتعالى المشركين بنكث العهود أقبح ذم ، فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون » ؛ فقد وصفهم الله بأنهم أسوأ حالا من الدواب التي لا تعقل معنى الشرف والكرامة ، ولا تقيم للعهود والمواثيق وزناً ، وذلك لأن الانسانية تقتضى تبادل المنافع ودفع الشر بقدر المستطاع ، فإذا تعهد أفراد أو جماعات على أن يكف بعضهم عن إيذاء بعض ، أو ينفع بعضهم بعضاً ، فانه يجب عليهم أن ينفذوا ما تعاهدوا عليه بالدقة ؛ وإذا لم تسكن للعهود والمواثيق قيمة عندهم ، ارتفعت الثقة من بينهم ، وأصبحوا كالحیوانات العجم الذين لا هم لهم إلا انتهاز القرص لقضاء شهواتهم وملء بطونهم ، بل كانوا أضر على المجتمع الانسانى من الحيوانات ، لأن الحيوان شره محدود يمكن دفعه بسهولة ، أما الانسان فشره مستطير لا يقف عند حد ، ولا يمكن دفعه إلا بمد مشقة وعناء .

(٣) أما الفجر في المخاصمة ، فمعناه أن يكثر الشخص في القول على وجه غير صحيح كي يظهر على خصمه ويقتطع منه حقا بالباطل ، فيأتي بزخرف القول ، ويستعمل العبارات التي لا يستطيع خصمه إخمادها فيها ، وبزین الباطل كلها وجد لذلك سبيلا .

ولا ريب في أن ذلك مذموم كل الذم ، فقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أبغض الرجال الى الله تعالى الآلد الخَصِم » . والآلد : الشديد في خصومته ؛ والخَصِم بفتح الخاء وكسر الصاد : الشديد في خصومته أيضا ؛ قال تعالى : « وهو آلد الخصام » أى شديد المخاصمة في الباطل . وكفى بذلك زجرا لمن تحدته نفسه باقتطاع حق الغير ، وأخذة منه بالباطل ، اعتمادا على قوة في المنطق ونحوها . فمن الفجور المردول أن ينتزع شخص من آخر ما ليس له بقوة المنطق وحسن البيان ونحوها من الوسائل المفجعة للخصم بالباطل . ومن قضى له بشئ من ذلك فكأنما قطعت له قطعة من النار ، كما ورد في حديث آخر .

أما الكذب : فهو أن يقول الانسان الباطل الذي يعرف أنه باطل ويعتقد أنه باطل ، وهو ضد الصدق . فإن كان ذلك متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم كان من أشد الكبائر وأشنع الجرائم التي تضر المجتمع الانساني ، وتقضى على العدل والنظام الاجتماعي شر قضاء . فإن الذي يكذب ويقول الزور يقتطع حقوق عباد الله أو يثلمهم في أعراضهم أو يؤذيهم في أنفسهم ، فهو أضر على المجتمع الانساني من كل ما يضره ويؤذيه . فقد يكون ذلك سببا في بث الفوضى ، وإغراء المجرمين على اقتراف الجرائم ، فينالون من أعراض الناس وأموالهم ما يشتهون تحت ستار الكذب .

ومن ذلك الكذب على الله ورسوله ، فمن استهوته شهوته الى أن يقول : قال الله كذا ، أو قال رسوله كذا ، وهو يعلم أنه كاذب في ذلك ، فإنه يكون قد ارتكب جريمة من أرذل الجرائم الخلقية ، وليس لصاحبها إلا أن يتبوأ مقعده من النار .

هذا وقد يعنى عن الإخبار بغير الواقع في بعض المواطن ، كالكذب لا نقاذ مظلوم من المهلاك ، أو تعظيم قوة الأمة الحربية في نظر الخصم ليرهب جانبها ، أو تضليل الخصم المتعدى ليدفع شر عدوانه ، أو نحو ذلك من مهام الأمور ، بل قد يكون ذلك واجبا إذا اقتضاه النظام الاجتماعي . وقد ورد في ذلك أحاديث ، وليس في ذلك ضرر على الصدق ، لأن هذه الأحوال ليست هادمة له ، بل هي في الواقع تزيد معناه تأييدا ، لأن الصدق إنما كان ممدوحا لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع وفائدة الانسان . ولا نظر في هذه الأحوال إلا للفائدة التي ينشدها العقل والدين ، ويمتدح من أجلها الصدق .

عبد الرحمن الجزيري

## ذكري شهر ربيع الاول

ميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

يوافق صدور هذا العدد اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، وهو الشهر الذي شرفه الله بميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان ذلك في اليوم التاسع منه ، من العام الأول لحادثة الفيل ، وهو يوافق اليوم العشرين من إبريل سنة ( ٥٧١ ) بالتاريخ الميلادي .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم في دار عمه أبي طالب بشعب بني هاشم . وقد تولت الإشراف على ولادته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، وهو الذي صار بعد بعثته من أجلاء أصحابه .

لما أشرق العالم بنور وجهه الوضاح ، أرسلت أمه أمنة بنت وهب لجده عبد المطلب سيد قريش ، تبشره بميلاد حفيد له ، فأقبل من فوره وأسماء محمداً .

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، وأول من أرضعته ثوية أمة عمه أبي لهب .

وكان من عادة العرب أن يرسلوا بأولادهم الى البادية ليمضوا فيها عهد الرضاع ، اعتقاداً منهم أن ذلك يكون أدعى الى النجابة ، ذهاباً منهم أن تمضية أولادهم هذا العهد في المدن يجعلهم خامدى الذهن ، ضعيفي الإرادة . فكان الطفل محمد بن عبد الله من حظ حليلة بنت أبي ذؤيب من بني سعد . وكان اسم زوجها أباكبشة وهو والده من الرضاع .

ذكرنا هنا أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت في السنة الأولى من حادثة الفيل . وتلخص هذه الحادثة في أن أصحمة ملك الحبشة كلف أبرهة عامله على اليمن ، وكانت خاضعة لسلطانه ، أن يبنئ كنيسة بصنعاء ، ويصرف العرب من الحج الى الكعبة الى الحج إليها . فصدع بأمره وسار على رأس جيش لجب الى مكة لهدم الكعبة ، وكان من مطاياه في حروبه فيل ضخم على عادة الفرس والهنود وغيرهم في اعتمال الفيلة في حروبهم ، ولم يكن للعرب عهد بها ، فقتل بجوار مكة يتأهب للشروع فيما هو بسبيله ، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ( أى جماعات ) ، ترميهم بحجارة من سجيل ( أى من طين متحجر ) ، فجعلهم كعصف مأكول ، أى جعلهم كورق الشجر الذي أكلته الديدان . أخذ جمهور المفسرين هذه الآية على ظاهرها ، وأولها بعضهم بأن المراد منها أن الله أرسل عليهم ميكروبات الطاعون فاجتاحهم .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الرابعة من عمره استردته أمه ، وتوجهت به الى يثرب لزيارة أخوال أبيه بني عدى بن النجار . وبينما هي آية الى مكة مرضت بالطريق وأدركتها الوفاة

بقربة في الطريق أقرب الى يثرب منها الى مكة يقال لها الابواء . خضنته أم أيمن بركة الحبشية ، حاضنته الاولى ، وكفله جده عبد المطلب ، ولكنه لم يلبث أن توفي ، فكفله عمه أبو طالب والد علي كرم الله وجهه ، وكانت سن رسول الله إذ ذاك ثمانى سنين .

ولما بلغت سنه صلى الله عليه وسلم الثانية عشرة استصحبه عمه معه الى الشام .

ولما بلغت سنه العشرين حضر حرب الفجار ، وهى حرب كانت بين قريش ومعها كنانة ، وبين بنى قيس . وسببها أن واحدا من كنانة قتل رجلا من بنى قيس ، فثار الحرب بينهما وتورطت فيها قريش الى جانب كنانة ثم تصالحوا .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين سافر الى الشام للمرة الثانية فى تجارة لحديجة بنت خويلد ، وكانت ذات مال . ولما آب بالرجع الوفير وتحققت فيه الأمانة والكرامة ، أرسلت اليه تحيطه لنفسها ، فقبل صلى الله عليه وسلم زواجها ، فكان يعظمها ويحلبها لعقلها وفضلها ، وهى أم أولاده جميعا إلا ابراهيم فإنه ولد من سريته مارية .

ولما صدع السيل بعض جدران الكعبة ، وشرعت قريش فى ترميمها اختلف رجالها فى فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي : حكموا بينكم رجلا ترضونه . فقالوا : نكل الأمر لأول داخل علينا ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أول داخل عليهم ، فحكموه ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وأمر أن تأخذ كل قبيلة بناحية منه ، فلما انتهوا الى موضعه رفعه بيده ووضع فيه .

أما سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فى شببته فكانت مثالا لشرف النفس وعلو الهمة ، والبعد عن السفاسف ، والإخلاص والعفاف والصدق وكرم الأخلاق والجود والحلم والشجاعة والتواضع ، لم تحفظ عليه هفوة ، ولم تحص عليه زلة . وما زال يتقدم فى سنه المباركة على هذا النحو من الكمال الفطرى حتى بلغ الأربعين ، فشرفه الله بوحيه وأرسله الى الناس كافة . وهما نحن نجهد العقل ، ونكد القلم ، ونستخدم العلم الحديث كله ، لنصل الى تصوير بعض ما أفاض الله على يديه من الخير العام ، والحياة الفاضلة ، علينا وعلى الناس قاطبة ، فلا نكاد نبليغ منه إلا غيضا من فيض . ولا غرو فإن إدراك النهايات البعيدة التى كان عليها خاتم المرسلين فى أخلاقه وشمائله ، والمثل العليا التى أتى بها العالم كله ليقيمها على سواء الصراط ، والوقوف على العوامل التى صاحبت هذا الانتقال الانسانى الجلل ، كل ذلك لا يكون إلا على قدر عقولنا لا على قدر ما هو عليه فى ذاته .



## مكان الزكاة من الشؤون الاجتماعية

الضرائب والخراج لا يمنعان وجوب الزكاة

حضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد : فقد نشرت لنا المجلة في الجزء الأول الصادر في المحرم سنة ١٣٥٩ مقالا في « مكان الزكاة في الاسلام من الشؤون الاجتماعية » ، بسطنا فيه عناية القرآن بحق الفقير ، وما يجب على الأغنياء من التراحم ، والبذل ، ومساعدة الضعفاء ، والمساهمة بأموالهم في صلاح الأمة وحياتها حياة طيبة قوية . وقلنا : إن الاسلام جعل الزكاة فرضا من الفروض الدينية ينفذه بالقوة ، ويقا تل من امتنع عن أدائه ؛ جعلها في الذهب والفضة ، وفي البضائع التجارية ، وفي المشاية ، وفي الزرع ، بنسب لا تهرق الغنى ، وهي في الوقت نفسه تسعف المسكين والفقير ، وتصلح من شأنهما ، وترد من غائلتهما . وقلنا : إن هذا النظام سلكته الشريعة بعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهيأت النفوس للقوانين والنظم كمرور دائم للفقراء والمساكين ؛ ولم تقف عند هذا الحد ، بل وكلت الأمر فيما وراء هذه المقادير - إذا استدعته الحاجة - الى العاطفة الدينية الأخوية ، ورغبت في البذل بعظيم الثواب في الآخرة ، وبعظم الإخلاف في الدنيا .

وقد جاءنا خطاب من الفاضل « محمود الرويني » بالمنصورة من قراء مجلة الأزهر ، يتلخص في أنه يرى أن أرباب الأموال يدفعون من أموالهم فوق مقادير الزكاة التي حددتها الشريعة الى الحكومة ، باسم الضرائب والخراج ، والحكومة تنفق ما تأخذه في مصارفها المبينة في ميزانيتها . ويرى أن بعض هذه المصارف من مصارف الزكاة . ويقول بعد ذلك : « فإذا ترون قد بقي في ذمة الملاك من حق الزكاة ؟ » . ويرى بذلك أن حاجة الفقراء التي يجب سدها على المسلمين الأغنياء أصبحت بهذا الوضع في عنق الحكومة التي لا سبيل لنا عليها ؛ وكأنه يريد أن يصل من ذلك الى سقوط حق الزكاة عن الأغنياء ، والى إلقاء التبعة في إهمال الفقير الذي يهدد الغنى في حياته على الحكومة ، ويرجو أن يقرأ في ذلك بيانا مفصلا يرضى الله ورسوله .

ويكفيننا في هذا البيان المفصل الذي يلتمسه أن نقول :

إن الضرائب نظام مالي سياسي ، استدعته في نظر الحكومة المصلحة العامة ، تفرضه الحكومة - بناء على ما تراه في المصلحة - مرة ، وتلغيه أخرى ، وتخففه ثالثة . فليس لها الوضع الديني الدائم المفروض عينا على المالك القادر باعتباره مسلما ، كما فرضت عليه الصلاة والصوم . ولا يمكن أن تقوم الضرائب - ووضعا كما نعلم - مقام الزكاة التي يقول الله فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » . وإذا كان الناس يحسون بشيء من الإرهاق في بعض



ما يفرض عليهم من ضرائب ، فتبعة ذلك لا ترجع الى الفقير بحرمانه من حقه الذى أوجبه الله له . وسبيله مطالبة الحكومة بالاقتصاد فى مصارفها ، ومحاسبتها على ما تجمع وتنفق . ومحاسبة الحكومة على أعمالها عامة ، مما تشهد به أصول الاسلام ، وتقضى به المصلحة الاجتماعية العامة التى يضعها الدين فى المسكان الاول

أما الخراج الذى تأخذه الحكومة على الاراضى الزراعية ، فيرى جمهور أئمة المسلمين أنه حق مغاير لحق الزكاة ، فى دليله ، وسببه ، ومصرفه ، وحكمته ؛ فلا يمنع أحدهما الآخر . وبالمقارنة بين أدلة هؤلاء وأدلة مخالفهم يتبين جليا رجحان مذهب هؤلاء الجمهور ، مع ملاحظة أن مخالفهم لا يرون تأثير الخراج على كل أنواع الزكاة ، وإنما يرون تأثيره خاصا بزكاة الزروع ؛ أما زكاة الاموال وما اليها فلا تأثير للخراج عليها ، لأنه غير متعلق بها ، وإنما يتعلق بالأرض التى يتعلق بها أو بزعرها العشر .

وإذا كان الاتجاه فى الضرائب والخراج هو ما ذكرنا ، وليس أحدهما مبذولا بحكم الدين وقضاء واجب النفس فى التطهير من خلق الشح ، ولا بقضاء واجب الاخوة الدينية التى أراد الله أن يستكمل بها إنسانية المؤمن ، فلا ينبغى التفكير فى محاولة اعتبارها قائمين مقام الزكاة . فالزكاة فرض دينى كالصلاة والصوم يجب على الانسان محاسبة نفسه عليه متى ملك النصاب فارغا - كما يقول الفقهاء - عن حاجته الأصلية .

ولعل صاحب السؤال يذكر الكلمة التى ختمنا بها مقالنا الذى يشير إليه . وتذكيرا له بها نختم بها هذا البيان :

« وبعد فليسمح لى حضرات الامراء والأغنياء والمفكرين أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

« إن التطور الفكرى المتناقض قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصرنا به على ملتقى السبل ، فإما أن نسير فى سبيل الرأسمالية كما يلوح فى أفق الأغنياء فنصطليها نارا حامية من العاطلين والفقراء ، وإما أن نسير فى سبيل الشيوعية كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء فنصطليها تحريبا وتدميرا . ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا - وكتابه قائم بين أيدينا - الى السبيل السوى الذى يقينا شر هذه وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة متكافلة فى البر والتقوى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . والسلام عليكم ورحمة الله ما

## العوامل الأدبية التي اعتمد عليها الاسلام

في تقويم الشخصية الانسانية بسرعة لم يعهدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الاسلام نشأ في شبه الجزيرة العربية ، فأخى في سنين معدودة بين قبائلها المتضاغنة ، وألّف منهم أمة ؛ وحلّى تلك الأمة بالرُّبُط الأدبية والمادية التي لا بد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحوافظ الذاتية بما صان وجودها ، في جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سليما قويا ؛ وأودع كيائها من بواعث التطور ما دفعها للترقى في جميع مجالات النشاط العلمي والعمل ، خاصة من جميع القيود التقليدية التي تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطل من سيرها ، فوصلت في نحو قرنين الى مستوى رفيع حصلت معه على الزعامة العالمية . وهي ميزة لم تُمنحها إلا أمم معدودة في الأرض .

وصلت الى هذا الأوج في خُطى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبّر ومُثل عليها ، شأن كل جماعة تصدر عن ذخّر أدبي متّصل في طبيعتها ، أو تُمَرّست به أجيالا متعاقبة من حياتها . فإذا كان هذا الحادث الفذ في تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه في صعوبة التعليل تأثيره طفرة في جماعات مفككة الأوصال لم تعد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤثّر في تاريخها أن داعيا دعاها إليها في عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الجلل مظهرا امتازا ، أنه كان مصاحبا لسمو لم تشهد البشرية من قبل ، في أخلاق القائمين به وأدأبهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الانسانية أجمع ، في أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائشة هوجاء ، ثور ثوران الزوبعة لا تفرق في هبوبها المفراط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، في طغيان من القائمين بها ، لا تردها حكمة ، ولا تردعها شكيمة ، فإن الانتقال الذريع الذي أحدثه الاسلام ، رافقته رحمة بالمتهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخائفين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مدبرة في مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أو خطة مقررة دُرست مقدماتها ونتائجها في ملاوة من الزمان صُرفت في الحسبان والتقدير ؛ وليست الحركات العادية للجماعات في شيء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التي مرت بالانسانية في عهدها الطويل بالوجود ؛ والانقلابات التي يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التي سبقتها من هذه الناحية .

فصدور أكبر انتقال في العالم الانساني ، في بيئة لا عهد لها بمثله ، بل ولم تشارك العالم في غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرًا ، ومصاحبًا لأعظم انقلاب أدبي لم يصل اليه النوع الانساني بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطًا بعيد المدى في تغطية الحوادث ، وتعقب تطوراتها ، للوصول الى أبعاد مناسبتها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواث صدورها ؛ فإذا أُنحِجنا في ذلك أطرفنا العالم بمجديد من البحوث لا تقف دعايته للإسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

#### مواطن التأثير في النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة في الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقلي لا معدى عن الخضوع له .

فموطن التأثير بالدعوات هو العقل ، لذلك تعقب أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصددده من العقائد يعلو متناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ؛ ويفوتهم أنهم لو كانوا مصيبين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجح لأقربها الى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل الى كماله بعد ، فثا يقرر حقيقته اليوم ، وهو في درجة من التطور ، ينقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما عاد الى ما كان نقضه من قبل . قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حُملَ بفطرته من العلم الضروري بمجواز الممكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البدئية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشيء في مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة في جميع أفراد النوع البشري لا تتخلف في بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتخليقها .

فهذا السلطان الفطري للعقل كاف في حمايته من الضلال في أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المؤاخذة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض غمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المجردة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تتسنى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فاذا أقام الناس سلطان العقل الفطري ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسمموا نفوسهم بالعقائد الضالة .

#### العوامل التي تمكن بها المضللون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطري بين الناس ، وترتيبهم أعمالهم الدنيوية عليه ، استطاع

المضللون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا في فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهليتهم ، حتى صار مألوفا أن الأمم التي تقع في التحجر الاجتماعي لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضللون في هدم سلطان العقل الفطري ، باعتمادهم على جهل الجماعات التي تبلى بهم ، وبالهاثئ بالخيالات والأوهام ، وبالتذرع في إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذي لها ، وتقبل من رؤساء دينها كل ما يلقنونها إياه من التعاليم وإن جافت حكم العقل ، لأنها جردته في هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل إليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورعا ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثالات الى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من غنقها باعتبار أنه سبب جودها ، نير الدين ، الدين الذي أَلَفَّته الأوهام ، لا الدين الفطري الذي تُجبلت عليه كل نفس بشرية كما ستره .

ما اعتمد عليه الاسلام في بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الاسلام في بنائه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركناف الطبيعيان اللذان تقوم جميع الشؤون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الانسان ، يعتريه من الجود والتحجر ما يعتري الاصول الموقوفة ، ولكنه جعله في دائرة محاولاته يترقى في إدراك أسرارها ، واستشراق أنوارها ، كما يترقى في فهم الوجود الذي يعيش فيه ، وفي تحصيل العلم الذي يتعرف به ، فأصبح الاسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الانسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشيء إذا وافق عقله وفطرته ، وكان الاسلام من هذه الناحية حاصلًا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معًا ، وهو مادل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود اسبانيا الغربية بأوربا ، الى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقيا كله ، في نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أم برمتها قبلته دينًا لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث عالمي فذ يجب درسه ، وتعرف ما يهدي اليه العلم من عجائبه .

هذا هو السبب الرئيسى في تسارع الناس الى قبول الاسلام ، وفي شدة تمسكهم به ، وتمسكهم له ، وبذلهم المهرج رخيصة في سبيله . ونحن في دراستنا للاسلام من ناحية سرعة تطويره للشخصية الانسانية ، وشدة تأثيره فيها ، سنسير تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ، والله نسأل أن يجعل السداد رائدنا في هذا الموضوع الخطير ، الذى نرجو أن يكون تأثيره عميقا

في نفوس الشباب المتعلمين م  
محمد فرير ومجرب

# حَيَاتُ رَجُلَاتِ الْإِسْلَامِ

عبد الله بن عمر

— ٢ —

خرّجت مدرسة الاسلام الأولى من قادة الفكر ، وزعماء العلماء ورجال العرفان ، كثرة لا تعرف في التاريخ لمدرسة أخرى في أمة من الأمم التي سبقت الأمة الاسلامية أو عاصرتها . وقد كانت تلك الكثرة متفاوتة فيما بينها تفاوت قواها المدركة واستعدادها الفطري ؛ وقد اشتهرت منهم جماعات في جوانب الحياة المتناوحة ، وكان من أشهر هؤلاء عبّادُلة الاسلام ، الذين برزوا في العلم وتميزوا بالنبل ، يقدمهم عبد الله بن عمر أحد ستة من تلاميذ هذه المدرسة لم يكن في رجال الاسلام أروى للحديث ، ولا أعلم بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، وكان عبد الله منذ نعومة أظفاره ذكي الفؤاد ملهما ، لقنا لبقا . روى البخاري في صحيحه عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي ممّثل المسلم ، حدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البادية ، ووقع في نفسى أنها النخلة ، قال عبد الله : فاستحييت ، وفي رواية : فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدهم ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكهرت أن أتكلم ، فقالوا : يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي النخلة . قال عبد الله : خدنت أبى بما وقع في نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لي حُمْر النّعم . »

وكان ابن عمر شديد الأخذ لنفسه وتكليفها بما يعلم ، لا يتكأده في سبيل العمل شيء ، ففي الصحيحين عنه : « كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاما أعزب أنام في المسجد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في المنام كأن ملكين أخذاني فذهبا بى الى النار فإذا هي مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان كقرنى البئر ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ! فلقيهما ملك آخر ، فقال لى : لم ترع !! فقصصتها على حفصة ، فقصصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل ! قال سالم — هو ابن عبد الله بن عمر — فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا . » وفي بعض الروايات « رأيت في يدى سُرْقَة من حرير فما أهوى بها الى مكان

في الجنة إلا طارت بي إليه ، فقصصتها على حفصة ، فقصصتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن عبد الله رجل صالح . وهذه شهادة عظمى من الصادق المصدوق ، ترفع درجة عبد الله الى ذروة اليقين .

ويحدثنا نافع موله : « أنه كان له مهراس فيه ماء ، فيصلي ما قُدّر له ثم يصير الى فراشه فيغني إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ، ثم يرجع الى فراشه فيغني إغفاء الطائر ، ثم يثب فيتوضأ ثم يصلي ، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً . وكان رضى الله عنه يكره من الناس الملق له ، فقد روى « أن رجلاً قال له : لا يزال الناس بخير ما أبقيك الله !! فغضب وقال : إني لأحسبك عراقياً ، وما يدريك علام أغلق بابي !! » . وكان من أحلم العرب ، جعل رجل يسبه وهو ساكت ، فلما بلغ باب داره التفت اليه فقال : « إني وأخي عاصم لا نسب الناس » . وكانت له في الله تعالى ثقة لا تحد ، فقد روى ميمون بن مهران « أن أصحاب نجدة الحروري مروا بإبل لابن عمر فاستاقوها ، فجاء الراعي فقال : يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل ، وأخبره الخبر ، قال : فكيف تركوك ؟ قال : انقلت منهم لأنك أحب الى منهم ؛ فاستحلفه خلف ، فقال : إني أحتسبك معها ! فأعتقه ؛ فقليل له بعد ذلك : هل لك في ناقتك الفلانية فإنها تباع في السوق ؟ فاراد أن يذهب إليها ، ثم قال : قد كنت احتسبت الإبل فلأى معنى أطلب الناقة ؟ !

وقد رزق الله تعالى عبد الله عمراً طويلاً ، فنبل وساد حتى كان شيخ قريش وعالمها ، يرجع إليه في الملمات ، ولا سيما في أحداث الفتن التي فرقت كلمة المسلمين . وكان شديد التكبير على زعماء الفرق الذين تحدثهم أنقصهم بمس جانب الاحترام والإجلال في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخاري في الصحيح « جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوساً ، فقال : من هؤلاء القوم ؟ قال : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبد الله ابن عمر ، قال : يا ابن عمر إني سألك عن شيء فحدثني عنه : هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم ؛ فقال : تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم ؛ قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدا ؟ قال : نعم ؛ قال : الله أكبر ! قال ابن عمر : تعال أبين لك : أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ! وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لك أجر رجل من شهد بدرا وسهمه ؛ وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده فقال : هذه لعثمان . فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك .

وروى البخاري أيضاً « جاء رجل الى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر عن محاسن عمله ،

قال : لعل ذاك يسوءك ؟ ! قال : نعم ، قال : فأرغم الله بأنفك ! ثم سأله عن عليّ فذكر محاسن عمله ، قال : هو ذاك بيته أوسط بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لعل ذاك يسوءك ؟ ! قال : أجل ، قال : فأرغم الله بأنفك ! قال : انطلق فاجهد عليّ جهدك .

وقد كان لعبد الله بن عمر موقف من النزاع الذي مزق وحدة المسلمين بسبب الخلافة من أنبل المواقف وأسامها ، استمع فيه الى نصيحة أبيه الفاروق رضى الله عنه : روى الثقات من المؤرخين أن عمر بن الخطاب لما طعن وأيس من نفسه قال لابنه عبد الله : اذهب الى عائشة واقربها منى السلام ، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع صاحبي ، فأناها عبد الله فأعلمها ، فقالت : نعم وكرامة ؛ ثم قالت : يا بني أبلغ عمر سلامي ، وقل له : لاتدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاني أخشى عليهم الفتنة . فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرني أن أستخلف ؟ ثم قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وسامهم ، ثم قال لهم : وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله ابن عباس فإن لهما قرابة وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء ، قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعا فاستخلفه فانا راضون به ، فقال : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ، ليس له من الأمر شيء ! ثم قال : يا عبد الله إياك ثم إياك لا تنلبس بها !!

وأخلص عبد الله لموقفه وامتناله نصيحة عمر إخلاصا لم يميله ، مع الترغيب والإطاع اللذين بسطهما له حزب الزبير وطلحة في خروجهما وإخراجهما أم المؤمنين عائشة ، فانه لما اجتمعت كلمتهم على المسير الى البصرة قال طلحة للزبير : إنه ليس شيء أوقع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نشخص عبد الله بن عمر ، فأتياء فقالا : يا أبا عبد الرحمن إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فانت أحق بها . فقال ابن عمر : أيها الشيخان أتريدان أن تخرجاني من بيتي ، ثم تلقيانى بين مغالب ابن أبي طالب ؟ ! إن الناس إنما يخذعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عيانا في عافية أناها ! فانصرفا عنه ؛ ثم غدا مروان بن الحكم الى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلعله ينيب ، فعاوداه فتكلم طلحة فقال : يا أبا عبد الرحمن إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالخط ، إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبائع له ، وإنا نرى أن زدها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة ! فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقا ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأتما المدينة خير لكما من البصرة !!



لم يجد عبد الله بن عمر عن هذا المبدأ رغم تقلب الأعاصير ، ورغم توسل زعماء الأشياخ والأحزاب بكل وسيلة الى ضمه اليها لما له من المكانة السامية في نفوس المسلمين ، فان الموقف لم يكده يصنّف بين عليّ وحزب عائشة ، ويقف معاوية وجها لوجه أمام عليّ كرم الله وجهه ، حتى النجاء معاوية الى ابن عمر يطعمه ويرغبه لينضم اليه ، فكان موقفه معه هو موقفه مع طلحة والزبير ، فقد كتب اليه معاوية « أما بعد : فانه لم يكن أحد من قريش أحب الىّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان ، وإنى لست أريد الإمارة عليك ، وليكني أريدها لك ، فان أنت أبيت كانت شورى بين المسلمين » . فكتب اليه عبد الله في رده « أما بعد : فان رأى الذى أطعمك فى هذا هو الذى صيرك الى مصيرك ، وقد حدث أمر لم يكن الينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففزعْتُ الى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فضلا تركته ، وإن كان ضلالة فشر منه نجوت ، فأغن عني نفسك » .

وقد زاد هذا الموقف المسالم من عبد الله بن عمر مكانه في قلوب المسلمين ، وبهذه المكانة وصل عمرو بن العاص الى قلب أبى موسى الأشعرى في التحكيم ، فقال له في اجتماعهما : « هل لك أن نخلعكما جميعا ونجعل الأمر لعبد الله بن عمر ، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبسط في هذه الحرب يدا ولا لسانا ، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه ؟ ! فقال أبو موسى : جزاك الله بنصيحتك خيرا ! وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله ابن عمر أحدا ، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، ولفضل عبد الله فى نفسه » . فلما بلغ عبد الله ما كان من رأى أبى موسى كتب اليه « أما بعد : يا أبا موسى فانك تقربت إلىّ بأمر لم تعلم هواى فيه ، أكنت تظن أنى أبسط يدا الى أمر نهانى عنه عمر ، أو كنت ترانى أتقدم على عليّ وهو خير منى ؟ !

رحم الله عبد الله ، فقد خالص نفسه من فتنة جاحجة جاحجة ، ونجا منها صفيا ، ومات والمسلمون لا يرون أحدا يعاصره أفضل منه ؟

صادق إبراهيم عربونه

## آداب الجلوس

من آداب الجلوس أن يجلس الانسان حيث يجد متسعا له ، وقد كان هذا دأب الركلة من أهل هذه الملة . أما التضييق على الجالسين بقصد التصدر فلا يكسب أهله إلا ضعة .

قال الأحنف بن قيس : ما جلست مجلسا خفت أن أقام منه لغيرى .

وقال الشعبي : لأن أدعى من بعيد أحب الىّ من أن أدفع من قريب .



## عمر به عبد العزيز

— ٥ —

رأيه فيمن سب الخليفة :

نشأ عمر على قول الحق ، لا يحابي كبيرا ، ولا يمالئ عظيمًا ؛ فشاوره سليمان بن عبد الملك يوما في رجل سبّه ، فقال من حوله من الناس : اكتب بضرب عنقه ، وعمر بن عبد العزيز ساكت لا يتكلم ، فقال له سليمان : ما الذي أسكتك يا عمر ؟ فأجاب قائلا : أما إذ سألتني رأيي فلا أعلم في شرعة من الشرائع أن سبة أحات دم امرئ مسلم كان أو غيره ، إلا سبة نبي . فقام من عنده ومنهم عمر ، فقال سليمان : لله بلادك يا عمر ! والله لو قرشي طبخت في مرقنه لأنضجتها .

بعثه العلماء الى البادية :

أراد عمر أن يذهب أهل البادية تنشئة دينية ، ويعلمهم ما فيه صلاح حالهم دينا ودنيا ، فبعث لهم يزيد بن عبد الملك ، والحارث بن محمد ، ليبينا لهم كتاب الله وسنة رسوله ، وجعل لهما أجرا على ذلك ، فقبل يزيد ، ولم يقبل الحارث ، وقال : ما كنت لأخذ على علم علمنيه الله أجرا ! فلما ذكر ذلك لعمر قال : ما نعلم بما صنع يزيد بأسا ، وأكثر الله فينا مثل الحارث !

عطفه على الفقراء :

كان يعطى السائل ولا ينهره ، ويعطف على الفقراء تارة من ماله ، وأخرى من بيت مال المسلمين ، كل هذا لوجه الله ، لا يريد منهم جزاء ولا شكورا ؛ فوفدت عليه امرأة من العراق لها من البنات خمس قد لبسن لباس الجوع والفقر ، فلما وصات الى باب بيته قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فدخلت المرأة على فاطمة زوجها وهي جالسة في بيتها وفي يدها قطن تعالجه ، فسامت ، فردت عليها فاطمة السلام وأذنت لها في الجلوس ، جلست وجالت ببصرها في البيت فلم تر شيئا ذا بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : ما خبره إلا عمارة بيوت أمثالك ! فأقبل عمر حتى دخل الدار فقال الى بئر في ناحيتها ، وانتزع منها دلاء صبها على طين كان يحضره في البيت ، ولم يغض الطرف عن فاطمة ، فقالت لها تلك المرأة : استترى من هذا الطيان فاني أراه يديم النظر اليك ، فقالت : ليس هو بطيان وإنما هو أمير المؤمنين ! !

فلما انتهى عمر من عمله هذا ، دخل مصلاه فصلى ما شاء الله أن يصلي ، ثم سأل عن المرأة وأخذ يحبوها بعطفه وحنانه ، ويختار لها أطيب ما عنده من عنب كان بمكثله ويطعمها إياه ،

فلما استقر بها المقام قال لها : ما حاجتك ، ومن أنت ؟ فقالت : امرأة من العراق لى خمس بنات كُسد ، يفترشن الأرض ، ويلتحفن بالهواء ، ويضعن الأحجار على بطونهن من شدة الجوع ، وجئتكم أبتغى حسن نفرك إليهن ! فجعل يقول : كُلُّ كُسد ! وأخذ القرطاس والمحبرة وقال لها : سمى كبراهن ، فسمتها ، ففرض لها ، خمدت الله ، ثم قال لها : سمى الثانية والثالثة والرابعة ، فسمتهن ، ففرض لهن ، خمدت الله .

فلما فرض للأربع أخذتها نشوة من الفرح ، واستفزها السرور فشكرته ودعت له ، فرفع يده ولم يفرض للخامسة ، وقال : كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله ، أما وإنك أوليتنيه وأنا لست أهلا له فرى هؤلاء الأربع يفضن على الخامسة منهن . وكتب بذلك الى والى العراق ، وسامها الكتاب لتعطيه له ، فانطلقت به اليه ، ففضه وقرأه ثم بكى وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ! فقالت له المرأة : هل مات ؟ قال لها : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال لها : لا بأس عليك ، ما كنت لأرد كتابه فى شيء ، ثم قضى لها وفرض لبناتها .

#### حالته قبل الخلافة وبعدها :

كان عمر قبل الخلافة من أعظم الأمويين ترفها وتمسكا ، غذى بالملك ، ونشأ فيه لا يعرف إلا هو ، يلبس الحرير فيستخشنه ، ويتطيب بالدهن فتشع رائحته فى أى مكان حل به ، ويرخى ثيابه ، ويمشى مشية التبخت حتى تعلمتها الجوارى من حسننها ، وسميتها « العمرية » ، فلما استخلف أفلح عن كل شيء غير مشيته ، فإنه لم يستطع الإقلاع عنها ، لاحدا منه ، ولكن لتعذر تركها مرة واحدة ، لذلك أمر مزاحما أن يذكره كلما عاد اليها .

عاش عيشة التقشف ، وتبذل حتى استنعم الصوف واستلانه ، فعجب له رباح بن عبيدة ، وكان تاجرا من أهل البصرة يشتري له ما أراد حين كان واليا ، فاشترى له جبة من الخز بعشرة دنانير ، فامسها فاستخشنها ، فلما ولى الخلافة اشترى له بأمره جبة من الصوف بدینار ، فامسها فاستلانه ، فقال له رباح : عجبا لك يا أمير المؤمنين تستخشن الحرير بالأمس وتستلين الصوف اليوم ! فقال له : هذه حال وتلك حال .

وزهد فى الدنيا طلبا للأخرة ، وآثر النعيم الدائم على المتاع الزائل ، فكان ينفق كل ماله على المساكين وفى حوائجهم ، فعاده الناس فى مرض موته فلم يجدوا عليه غير قميص مرقع ، فقال مسلمة لأخته فاطمة : اثنتى بقميص غير هذا ، فنظر اليه عمر وقال : دعها يامسلمة فما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذى يرى عليه !

#### المأثور من كلامه :

ياكم والمزاح فانه يورث الضغينة وينبت الغل . إذا جاءك الخصم وعينه فى كفه ، فلا

تقضى له حتى يحييتك خصمه . من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . قد أفلح من عصم من المرء والغضب والطمع . أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضى الله عنه . ما يسرنى لو أن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة . خذوا من رأى ما قاله من كان قبلكم ، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهم ، لأنهم كانوا خيرا منكم وأعلم . الرضا قليل ، والصبر معقل المؤمن . قيدوا النعمة بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب . العفاف الأكبر القناعة وكف الأذى . إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً نهاراً فقد استحقوا العقوبة كلهم .

وقال في وصف القاضى : ينبغي أن يجتمع للقاضى خمس خصال : أن يكون عالماً بما قضى به الكتاب والسنة ، سليماً ، ذا أناة ، عفيفاً . فإن اجتمع فيه ذلك كان قاضياً ، وإن نقص منهن شيء كان وصافيه .

ودخل عليه رجل يشكو ظمأ فقال له : إنك إن تلتى الله ومظلمتك كما هى ، خير لك من أن تلقاه وقد انتقصتها .

وقال : ملاقة الرجال تلقيح لألبابها ، القلوب أو عية السرائر والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرئ منكم مفتاح وعاء سره . إذا وافق الحق الهوى فهو ألد من الشهد وأحلى . وما وجدت في إمارتى هذه شيئاً ألد من حق وافق هواى .

#### عمر والغلام :

دخل على عمر في بدء ولايته وفود المهنيين ، فتقدم وفد الحجازيين بين يديه ، ثم قام من بينهم غلام لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأراد أن يتكلم عن قومه فقال له عمر : اجلس أنت وليقم من هو أسن منك . فقال الغلام : أيدك الله يا أمير المؤمنين ! إن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لا فظاً ، وقلبا حافظاً ، فقد استحق الكلام ، ولو كان الأمر بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا ! فسر عمر من حسن جوابه وفصاحة لسانه ، وأكرمه ، وسمع منه شكاة فتنه ، وقضى حوائجهم .

#### نفور بنى أمية من عدله واجتماعهم اليه :

حينما ولى عمر الخلافة أقبل على رد المظالم الى أهلها ، فقطع بذلك عن بنى أمية جوائزهم ، وأرزاق أحراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ، فساءت حالتهم ، وتبدل أمنهم خوفاً ، وثراؤهم فقراً ، الأمر الذى دفعهم الى الاجتماع اليه ، ثم قالوا له : إنك قد أجلبت بيت مال المسلمين وأفقرت بنى أبيك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كانوا يفعلون ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت . فقال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم ، قال : ولكنى لا أرى ذلك ، والله لوددت أن لا تبقى في الأرض مظنة

إلا رددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ، ثم يعود كما كان حيا ، فاذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها ! نخرجوا من عنده ودخلوا على بعض ولد الوليد وكان كبيرهم وشيخهم ، فسألوه أن يكتب الى عمر يوجه لعله يرجع عن إساءتهم ، فكتب اليه : أما بعد : أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم ، تقصا لهم وعيبا لأعمالهم ، وشتما لمن كان بعدهم من أولادهم ، ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق في قرابتك ، وعمدت الى أموال قريش ومواريتهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظالما وجورا وعدوانا ، فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه ، فانك قد شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت ذوى قرابتك بالظلم والقطيعة ، فوالذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لقد ازددت من الله بعدا في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء من الله عليك ، وهي كذلك ، فاقصد في بعض ميلك وتعاملك ، اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فرد عليه عمر قائلا : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، إنك نشأت جبارا شقيا ، كتبت الى تظلمني وزعمت أني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين الذي فيه حق القرابة والضعيف والمساكين وابن السبيل ، إنما أنت كأحدكم ، لك ما لهم وعليك ما عليهم ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله ، الذي استعملك صبيا سقيها تحكم في دماء المسلمين وأموالهم برأيك ، لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ، ولم يكن ذلك له ولا حق له فيه ، فويل لك وويل لأبيك ! ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن أكثر خصماؤه ! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما في قتل المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت نكلتك أمك ، أم بايعت بيعة الرضوان فاستوجبت سهام المقاتلين ! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جالفا جافيا على مصر ، وأذن له في المعازف والبرابط وشرب الخمر ! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من ولي يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يجبي المال الحرام ، ويسفك الدم الحرام . رويدك لو قد التفت عليك حلقتا البطان وطالت بي حياة ورد الله الحق الى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فطالما أخذتم بنيات الطريق وتركتم الحق وراءكم ظهريا ؛ ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأى أبنته بيع رقبته ، فإن لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله . والسلام على من اتبع الهدى . ولا ينال سلام الله الظالمين !

محمد مصطفى شادي

# بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْاوَى

## التصوير والصور

ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر من حضرة المحترم (حمزة يوسف أفندي ميجاج) ببلدة هرجيسة - الصومال البريطاني - استفتاء عن حكم الصورة ، أحلال هي أم حرام ؟

### الجواب

جاء في صحيح البخارى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » ، وأنه قال : « إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » ، وأن ابن عباس رضى الله عنهما أتاه رجل فقال : إني أصور هذه الصور فأفتنى فيها ، فقال : ادن منى ، فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مصوّر في النار » ، ثم قال : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس فيه . الى غير ذلك مما صحح في النهى عن التصوير واتخاذ الصور من أحاديث كثيرة تكاد تبلغ حد الشهرة .

قال الجمهور من العلماء في شرح هذه الأحاديث : إنما عظمت عقوبة المصور ، لأن الصور كانت تعبد من دون الله ، وكانت أصنام الجاهلية في العرب تماثيل على صور الإنسان ؛ فتكون حكمة النهى عن التصوير راجعة الى الاحتياط في سد أبواب الشرك ، والحفاظة على عقيدة التوحيد ، بتجنب كل ما قد يؤدي الى عبادة غير الله ، ولو في النادر القليل .

وقد أجمع الفقهاء - أخذاً من هذه الأحاديث - على حرمة تصوير الحيوان مجسماً كاملاً ، لا نعلم لأحد في ذلك خلافاً ؛ أما الصور غير الكاملة كالتماثيل النصفية التي لا تمثل إنساناً أو حيواناً يستطيع أن يعيش ، فإنها ليست من الصور المتوعّد عليها بهذه العقوبة الشديدة ، ومع ذلك فقد كرهها العلماء واستحسنوا تركها .

وقد استثنى بعض العلماء من الصور المحرمة ، التماثيل الصغيرة التي يتخذها الأطفال لعبة لهم ، استناداً لما ورد في صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنت أَلْعِبُ بالبَنَاتِ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لى صواحب يلعبن معى » . وفي فتح البارى : أخرج أبو عوانة وغيره عن عائشة قالت : « كنت أَلْعِبُ بالبَنَاتِ ، وهن اللعب » . وحكى القاضى عياض عن الجمهور أنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريهن من صغرن على أمر بيوتهن وأولادهن .

وكذلك اتفق العلماء على إباحة تصوير الشجر وما لانفس له ، لما تقدم في حديث ابن عباس رضى الله عنهما . قال الخطابي : « إنما فرقوا بين ما له روح وما ليس له روح ، لأن الأول من جنس ما كان يعبد من دون الله ، وأما ما ليس له روح فانه لم يعبد من دون الله » .

أما الصور غير المجسمة التى لا ظل لها : كالصور الفوتوغرافية ، والصور الزيتية ، والصور المنقوشة فى الثياب وعلى الجدران ، فهى فى مجال النظر عند الفقهاء ، فمنهم من حرمها ، ومنهم من أباحها . وتميل اللجنة الى رأى الثانى صملا بما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم من استثناء الصور المرقومة فى الثياب من الصور المحرمة ، ولأنه لم ينقل أن أمة عبدت صورة مرقومة غير مجسدة .

هذا ، وإذا قيل : « إن المصورين الآن لا يقصدون من التصوير توجيه الناس الى عبادة الأوثان ، وإنما يقصدون من تماثيلهم أن تكون مظهرا من مظاهر الفنون الجميلة التى لا يابأها الدين ، وفى التماثيل فوق ذلك إحياء لذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم التى تكون مثار الاقتداء بهم والنسج على منوالهم ، وقد ارتقى العقل البشرى وصار من المستحيل أن يعتقد فى حجر منحوت باليد استحقاقه العبادة من دون الله ، فالعاقبة إذن مأمونة ، وعلة التحريم غير قائمة ، وحينئذ يكون التصوير الآن على اختلاف أنواعه مباحا لا تحريم فيه » .

إذا قيل ذلك ، فجوابه : أن توارث العقيدة بين الأبناء والآباء ، وتشبه الأم بالأم ، وتأثير البيئة على الانسان ، كل ذلك قد يطغى على العقل والتفكير ، ويبعد الانسان عن التفكير الصحيح ، والتمييز بين الحق والباطل ، فلا يصل الى الدين الحق ؛ وقد عبدت الاشخاص والأصنام والأرواح حتى فى أزهى العصور العلمية وأرقاها ، وفى العصور الناضرة من عصور الحضارة والارتقاء ، فى وقتنا الحاضر وفى غير وقتنا الحاضر ، فعلة التحريم قائمة .

وإذا كان الغرض من التصوير ، كما قيل ، إحياء ذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم ، وبعث النفوس الى الاقتداء بهم ، وكان هذا الباعث الشريف غاية الناس من هذا العمل ، فانه قد ينجم عنه بتطاول الزمن ما لا محمد عقباه فى عقيدة التوحيد . فقد صح عن ابن عباس فى أوثان قوم نوح أنه قال : « كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عبدت » . أخرجه البخارى وغيره .

وإن الفنون الجميلة لا ينحصر مجالها فى التصوير الذى حرمه الاسلام محافظة على عقيدة التوحيد ، وسدا لعبادة الأحجار والأوثان ؛ وكذلك الأسوة بالعظماء لا تتوقف على نحت

تمائيل حجرية تقام في الميادين وتمر عليها السنون والدهور ولا تكون مثارا لشيء مما يرجع الى الأسوة والافتداء؛ وإن في العمل الصالح وتدوين تاريخ العاملين والإشادة بذكرهم لأوضح مرشد لمن يريد الاقتداء بهم، والنسج على منوالهم.

إن تماثيل العظماء التي تقام في الميادين تقتضى نفقات طائلة لو أنها أنفقت باسم هؤلاء العظماء في أعمال البر والصدقات الجارية، لكان ذلك أجدى وأنفع في تخليد ذكراهم، واستدراة رحمة الله عليهم في دار الخلد وجنات النعيم.

والله الهادي الموفق الى سواء السبيل.

\*\*\*

## محارِب المساجد

وورد الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء عن المحارِب الجوفية في المساجد، أهي بدعة منكورة في الدين، أم هي أمر مستحسن يعين على معرفة جهة القبلة؟

### الجواب

إن التجويف الذي اتُّخِذَ علامة على القبلة في المساجد وسماه الناس «محراباً» لا يعدو شأن أية علامة تتخذ للقبلة. وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخشبة علامة عليها؛ ورأى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اتخاذ هذا التجويف علامة على القبلة في المسجد النبوي الشريف أيام كان والياً على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك، في أواخر القرن الأول الهجري، ولم ينكر عليه أحد من علماء التابعين، بل إنهم استحسنوه لأنه عام النفع في جميع الأشخاص والأوقات؛ وتتابع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على اتخاذه ليكون علامة على القبلة؛ ولم ينقل أن أحداً من متقدمي العلماء اعتبر ذلك ابتداء في الدين، أو إحداثاً لما ليس منه.

إن الابتداء المنهى عنه لا يتناول مثل هذا التجويف، لأنه لم يُتَعَبَّد به الله، ولكنه جعل وسيلة لمعرفة القبلة التي تُجعل التوجه إليها شرطاً في صحة الصلاة. وإنما يدخل الابتداء فيما يتعبد به: من إحداث عباداة مستقلة، أو زيادة في عباداة، أو تغيير في كيفية عباداة، على أن يقصد التعبد بالمستحدث كما يتعبد بأصل المشروع. وهذا هو ما يدل عليه حديث النهي عن الابتداء، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد»، فإن الإحداث (في الدين) لا يتناول إلا ما استحدث على أنه عباداة أو زيادة في عباداة كما قلنا. أما وسائل العبادات فإن استحداثها لا يقال له إحداث (في الدين)، فلا يدخل في حد الابتداء أصلاً؛ وذلك كنقل الأذان من باب المسجد الى سطحه ثم الى المنارة، لا يعد ذلك ابتداءً،

بل هو من الوسائل التي تحقق الغرض من الأذان في أكمل معانيه ؛ وكذلك مدافع الإفطار والإمساك في شهر رمضان ليست ابتداء في الدين ، مادام الغرض منها ضبط الوقت الذي ينتهي به الصوم ، والوقت الذي يبدأ فيه بالصوم ؛ وكذلك اتخاذ منبر للخطابة ذي درج مرتفع لغرض إسماع الناس في المساجد الكبيرة ليس من الابتداء في شيء ، وإن كان مخالفاً لمنبر الرسول عليه الصلاة والسلام في مادته وشكله وعدد درجاته .

فهذا أصل يجب أن يتحاكم إليه في معرفة كون المحدث بدعة منهاها أو ليس بدعة . وفي اعتقادنا أن التحاكم إلى هذا الأصل يقرب مسافة الخلاف بين الطوائف الإسلامية في كثير من الفروع التي يختلفون في مشروعيتها وعدم مشروعيتها ، ويجعلهم ذوي دين واحد ، ووجهة واحدة ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .

أما تعصب كل فريق لموروثه ، وعناده لما سواه ، فهذا شيء ياباه الدين ويمقتة ، ويصور المسلمين بصورة أرباب الأديان المختلفة ، وبصورة الجاهلين بدينهم هذه الأجيال المتعاقبة .

ورب قائل يقول : كيف ترون اتخاذ المحاريب مباحاً وليس بدعة ، وقد روى البيهقي في سننه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا هذه المذاهب » ، وفسرها البيهقي بالمحاريب ؟

وجوابه : أن هذا الحديث قد ضعف بعض رجاله . على أن النهي فيه موجه إلى اتخاذ المسلمين مذاهب في مساجدهم كمذاهب النصارى ؛ وقد صرح بذلك في حديث موسى الجهني ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذاهب كمذاهب النصارى » . فالنهي لا يتناول التجويف الذي يسميه الناس الآن محراباً ، لأنه يخالف المذبح في ذاته ، وشكله ، والغرض منه ، كما يعرف بالمقارنة بينهما .

وحاشا لعمر بن عبد العزيز ، الرجل الفقيه التقي الورع ، أن يعمد إلى مسجد الرسول الكريم ومهبط الوحي الأمين ، فيحدث فيه مذبحاً كمذاهب النصارى في كنائسهم ! وحاشا لعلماء المدينة أن يقرروه على هذا المنكر الشنيع ! وحاشا لأئمة المذاهب المجتهدين من بعدهم أن يسكتوا على هذا الحدث العظيم ، بل أنه أن يعتمدوه في مذاهبهم فيعتبروا محاريب المسلمين مرتبة مقدمة في العلم بجهة القبلة على مرتبة الاجتهاد والنجوى !

نعم قد أطلق لفظ البدعة في كثير من كتب الحديث والفقه على كل ما لم يكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وعلى هذا الإطلاق قسّم بعض الفقهاء البدعة إلى بدعة حسنة ، وبدعة سيئة . والغرض هو ما أشرنا إليه من أن ما استحدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يرجع إلى إحداث عبادة ، أو زيادة في عبادة ، أو تغيير في كيفية عبادة ، فهو بدعة سيئة ، لأنه يرجع إلى التعبد بما لم يأذن به الله . أما إحداث أمور أخرى لم تكن على عهد



رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تسكن من هذا القبيل ، بل كانت من قبيل الوسائل التي تساعد على أداء العبادة ، فهو بدعة حسنة ، وعلى هذا التوجيه يحمل ما ورد في كتب الفقه من أن إحداث المحارِب بدعة :

وبعد : فإلى كل الطوائف والجماعات التي تحارب البدع وتحرص على خدمة الاسلام ونشر تعاليمه ، توجه هذه النصيحة .

يا قوم ! دعوا هذه التوافه التي لا تقيد إلا أن تثير الفتنة ، وتزيد في عوامل الفرق بين المسلمين ، وتجعل بعضهم حربا على بعض .

دعوا المحارِب — وقصارى أمرها في نظركم أنها فرع من الفروع الخلافية في المذاهب الاسلامية — واعمدوا الى المنكرات المجمع على إنكارها ، وحاربوها بكل ما استطعتم من قوة ، وهنالك يحمد لكم المسلمون جهادكم ، ولا يضيع عند الله جزاؤكم .

وفقنا الله وإياكم لخدمة الاسلام والمسلمين  
رئيس لجنة الفتوى  
محمد عبد اللطيف الفحام

## اتخاذ الصداقة

قال محمود الوراق الشاعر :

تكثر من الاخوان ما اسطعت إنهم صناد إذا استنجدتهم وظهور  
فما بكثير ألف خيل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير  
قيل لابن المقفع : أصديقك أحب إليك أم نسيبك ؟ فقال : إنما أحب النسيب إذا كان صديقا ، والصديق نسيب الروح .  
وإلى هذا المعنى أشار شاعر فقال :

نسيبك من ناسبت بالود قلبه وجارك من صافيته لا المصائب

المصائب : المجاور ، من صرقت الدار أى قربت .

وقد بالغ بعض الأدباء فقال : الأخ الصالح خير لك من نفسك ، لأن النفس قد تأمر بسوء ، والأخ الصالح لا يأمر إلا بالخير .

وقال المأمون : الاخوان ثلاثة : أخ كالغذاء يحتاج اليه في كل وقت ، وأخ كالدواء يحتاج اليه أحيانا ، وأخ كالداء لا يحتاج اليه أبدا .

وقال عمر بن الخطاب : احذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله

## الكلام والمتكلمون

— ٣ —

المعتزلة

تمتة الحديث عن مدارسهم :

وفي أصفهان أنشأ أبو بكر محمد بن إبراهيم الزبيرى ، وهو من أنصار أبي الهذيل ، دعاية للاعتزال ؛ وقد توفى فى القرن الرابع .

وفى القرن الرابع نشأت دعايات لمختلف المذاهب الاعتزالية فى مدن : قرميسين ، وجرجان ، ونيسابور ، وغيرها . وكل هذه المذاهب تعتبر فروعا للمدرسة البغدادية العامة . وفى القرن الخامس بدأت المذاهب الاعتزالية تندمج فى الزيدية . ويعتبر الزمخشري المتوفى فى سنة ٥٣٨ هـ - سنة ١١٤٣ م أشهر زعماء متأخرى المعتزلة فى القرنين : الخامس والسادس ، ولكن اندماج هذه المذاهب فى الزيدية لم يقض عليها ، بل ظلت حية الى عهد الاجتياح المغولى .

وفى مصر كان إبراهيم بن إسماعيل الملقب بابن عليّة ، الذى رأيناه فى البصرة خصما لمدرسة العلاف ، والمتوفى فى سنة ٢١٨ هـ — سنة ٨٣٣ م ، أول المعتزلة ، إذ أسس مدرسته فى أوائل القرن الثالث ، وتبعه فيها حفص الفرد ، الذى ظل ممثلا للأراء الدينية الرسمية فى الدولة طول مدة محنة الواثق ، غير أن الخياط أعلن فسوقه وخروجه على الشريعة .

وفى الأندلس كان أبو بكر فرج القرطبي أول من نشر المبادئ الاعتزالية ، وذلك بعد أن ارتحل الى الشرق وتلقى العلم على الجاحظ . وإذاً ، فالمبادئ التى أذاعها فى الأندلس هى المبادئ الجاحظية ، أو بعبارة أدق : النظامية محوورة بعض الشيء ، ولكن هذه المبادئ لم تلبث أن امتزجت فى تلك الاصقاع بالباطنية ، وخالطتها عناصر أجنبية خطيرة لم تخطر لأصحابها الأولين ببال (١) .

لمحة عن أشهر زعماء المعتزلة

واصل بن عطاء :

هو أبو حذيفة الغزال واصل بن عطاء ؛ وقد ولد فى المدينة فى سنة ٨٠ هـ — سنة ٦٩٩ م ،

(١) انظر صفحة ٨٤١ وما بعدها من المجلد الثالث من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

وكان من موالى بنى مخزوم أو بنى ضبة ثم أعتق . وعلى أثر تحرره سافر الى البصرة فالتحق بمدرسة الحسن البصرى ، وإذ ذاك اتصل بجهم بن صفوان ، وبشار بن برد الذى كان كثيرا ما يسخر من طول عنقه ، فيقول : إن واصلا يحمل رأسه فوق عنق زرافة . ولكن صلته بهؤلاء الرجال الثلاثة لم تلبث أن فترت ثم انقطعت .

كان واصل حسن الخلق ، نزيها محسنا ، حتى إنه - لفرط إحسانه على الغزالات الفقيرات - لقب بالغزال . وكان زاهدا فى المال فلا يتقاضى منه إلا ما هو من حقه ؛ وكان فصيحاً قادراً على امتلاك ناصية الكلام الى حد أنه - للشغى فى حرف الرأى - قد استطاع أن يتجنب هذا الحرف فى خطبه ودروسه ، بل فى محادثاته العادية ؛ وقد كان تلميذاً للحسن البصرى الى أن وقع بينهما الخلاف فى مسألة « المنزلة بين المنزلتين » فافترقا كما أسلفنا . وأخيراً توفى فى سنة مائة وإحدى وثلاثين للهجرة - سبعمائة وثمان وأربعين ميلادية .

ويعتبر واصل المؤسس الأول لفرق المعتزلة ، وإن كان معبد الجهنى ، وعطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقى وأنصارهم قد سبقوه الى مبدأ حرية الفرد . كان السبب الذى تذرع واصل بأنه هو الذى دفعه الى الاعتزال ، هو تنزيه الإله عن جميع شوائب الظلم والعجز والتعدد . فلكى ينفى شائبة الظلم قال بقدرة الفرد على جميع أفعاله ، لتتحدد مسئوليته ، فتتحقق العدالة بعقابه وثوابه .

ولكى ينفى شائبة العجز عن الإله قال بأنه قدر الشرور المادية كالأعراض والآلام والموت ، ولكنه لم يقدر الشرور الأخلاقية ، لأنه فى الحالة الأخيرة يكون قد قدر ما يكرهه ، ولا يفعل ذلك إلا العاجز .

ولكى ينفى شائبة التعدد ، قال بنى جميع الصفات ، لأن ثبوتها يتنافى مع الوحدةانية ، كما ينبسط ذلك حين نتناول المذهب العام للمعتزلة .

لم تكن مدرسة واصل أولى مدارس المعتزلة فحسب ، بل كانت أهم المدارس التى ظهرت فى عصر ما قبل الترجمة على الإطلاق ؛ وقد ظلت مستمتعة بالحياة والانصار الى أن خفتت حركة الاعتزال فى عهد المدرسة الأشعرية .

#### عمرو بن عبيد :

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن رباب ، وهو مولى بنى تميم ، وكان جده رباب من سبى كابل من رجال السند ، ولا يعرف تاريخ مولده بالضبط ، وإنما كل ما عرف من هذا التاريخ هو أنه كان معاصراً لواصل بن عطاء ، وأنه توفى فى سنة ١٤٤ هـ ، وأنه كان بعد وفاة واصل شيخاً للمعتزلة ، وأن له خطباً ورسائل لها قيمتها ، وأنه قد بلغ من الصراحة والنزاهة وعزة النفس والنبيل حدا لا يكاد يوجد لدى معاصريه جميعاً . ومن دلائل ذلك أنه مثل يوماً بين يدي أبى جعفر المنصور ،

فقال له الخليفة : عظمي، فوعظه ، فأمر له بعشرة آلاف ، فقال : لا حاجة لي فيها . فقال أبو جعفر : والله لتأخذنها ! قال : لا ، والله لا آخذها ! وكان المهدي حاضرا فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فالتفت عمرو الى أبي جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابني ، وهو المهدي ، وهو ولي عهدي . قال : أما والله لقد ألبسته لباسا ماهو من لباس الأبرار ، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمنع ما يكون عنه ! ثم أقبل عمرو على المهدي فقال : نعم يا بن أخي ، إذا حلف أبوك أحسنه صمك ، لأن أباك أقوى على الكفارات من صمك ! فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهي ؟ قال : ألا تبعث الى حتى أتيك . قال : إذا لا نلتقي . قال : هي حاجتي ! فمضى وأتبعه المنصور بطرفه ثم قال :

« كلكم يمشي رويد \* كلكم يطلب صيد \* غير عمرو بن عبيد » !

وقد دخل على المنصور بعد ما بايع للمهدي فقال له : عظمي يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذي في يدك لو بقي في يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ! أما مذهبه ، فهو يشبه مذهب واصل في النظريات الفلسفية ، ولا يختلف عنه إلا في مبدئه السياسي الذي يقضى بتفسيق الفريقين المتحاربين من المسلمين .

### أبو هذيل العلاف :

هو محمد بن الهذيل العبدي العلاف ، ولد في البصرة في سنة ١٣٥ هـ — سنة ٧٥٢ م ، وكان من موالي بني عبد القيس . ولما شب تلقى العلم في بغداد على عثمان بن خالد الطويل أحد تلاميذ واصل بن عطاء ، وكان في زمانه شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ، ومقرر الطريقة ، والمناظر عليها ؛ وكان من أشهر أهل زمانه في القدرة على الجدل . وقد حدثنا المؤرخون أنه لم يكبد يستقر في بغداد حتى بلغت شهرته مسمع المأمون ، فقربه من مجلسه ، وجعل يثير بينه وبين خصومه وأنصاره منازعات علمية جدية ، وكذلك طالما كان الجدل يشتعل بينه وبين هشام بن الحكم زعيم الروافض في ذلك الحين . وقد اعتبر العلماء أبا الهذيل أول منشئ الاعتزال الفلسفي المؤسس على الاطلاع الواسع . وأخيرا توفي أبو الهذيل في سنة ٢٢٦ هـ — سنة ٨٤٠ م ، أو في سنة ٢٣٥ هـ — سنة ٨٤٩ م أي عن إحدى وتسعين سنة فيما يرى الأول ، ومائة سنة فيما يرى الثاني . وقد رجح الأستاذ كارادي في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية الرأي الأول .

كتب أبو الهذيل كثيرا من المؤلفات ، ولكنها فقدت جميعها . وكل ما وصل إلينا من آرائه هو نقول عن تلاميذه وخصومه وعن المؤرخين المحايدين .

غير أن ما وصل إلينا من هذه الآراء يدلنا دلالة واضحة على أن المترجمات الاغريقية كانت

قد بدأت تعمل عملها في البيئات العربية ، إذ لا يكاد الباحث يتأمل في آراء أبي الهذيل حتى يتبين له أنها قد غذيت بعناصر جديدة لا عهد للقدماء بها ، فهو مثلاً لم يعتنق الرأي القديم القائل بنفي الصفات بتاتا ، بل قال بأن الباري عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرته ، وقدرته ذاته ، وهلم جرا . وقد تأثر في هذا الرأي بقول الفلاسفة : إن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته ، وترجع الى السلوب أو اللوازم . وقد علق الشهرستاني على هذا الرأي بقوله : « والفرق بين قول القائل : عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل : عالم بعلم ، هو ذاته ، أن الأول نفي الصفة ، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة ، أو إثبات صفة هي بعينها ذات . وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهي بعينها أقانيم النصراني أو أحوال أبي هاشم (١) » .

وهذه الصلة التي يعقدها الشهرستاني بين وجوه أبي الهذيل وأحوال أبي هاشم ، وبين أقانيم المسيحيين ، لها وجاهتها فيما أرى ، على الرغم من أن الأستاذ كارادي فوي يقول : إنه لا يرتضى هذا التشبيه . ولو أنه علل نقده للشهرستاني لناقشناه فيه ، ولكنه قد ساقه على عواهنه . أما نحن فبرهاننا على صحة التشبيه ما أثبتناه حين عرضنا لدرس الفلسفة المسيحية من أوصاف للأقانيم تشبه كثيرا وجوه أبي الهذيل وأحوال أبي هاشم ، فليرجع اليها الباحث في مواضعها . ومن أبرز آرائه التي تأثر فيها بالفلسفة الإغريقية قوله : إني لا أقول بحركة لا أول لها ولا آخر ، ولكنني أقول بسابقة السكون على الحركة وتلوه إياها ، وبأن بدء الخلق هو بدء هذه الحركة ، ونهايته نهايتها . وهذا تصوير من بعض الوجوه للنظرية الإغريقية التي ترجع الى الحركة إبراز كوانم الهيولى الأزلية وتسييرها من التوة الى الفعل ، وتوليد المشخصات المختبئة في المنحركات ، وإنما نقول : من بعض الوجوه ، لأن النظرية الإغريقية تصرح بأزلية الحركة وأبديتها على عكس رأى أبي الهذيل .

ومن هذه الآراء أيضا تقسيمه الكلام الإلهي الى قسمين : الأول لا في محل ، وهو ما يتعلق بالخلق والإيجاد ، فإن قول الباري : ليكن كذا ، ليس في محل ، لعدم وجود المحل إذ ذاك . والقسم الثاني في محل ، وهو ما يتعلق بالأمر والنهي .

ومنها كذلك قوله : بأن المقتول لا يموت بأجله ، وإنما قبله . وقوله : بأن العقلاء من أهل الفترة غير ناجين ، لأن العقل السليم هو وحده مناط التكليف .

هذا ، وله نظريات أخرى غير ما ذكرنا ، ولكننا نكتفي بهذا القدر .

(١) انظر صفحة ٥٦ جزء أول من الشهرستاني .

## تاريخ الفقه الإسلامى فى مصر

تحرير:

لا شك أن اللغة العربية قد دخلت ، بإشراق شمس الاسلام ، فى عهد جديد كله خير وبركة . ولا شك أن الفكر الانسانى ، والعقل العلمى ، قد وجدوا فى الاسلام غذاء جيدا لا يفتنى ، ومادة غزيرة لا تنفد .

فأما اللغة العربية ، فقد نزل بها القرآن الكريم ، فسمت بسموه ، وخلدت بخلوده ، وترقت ألفاظها وعباراتها بمحاكاة البلغاء إياه ، واقتباسهم منه ، وزال ما كان بها من جفوة وغلظة ، فأصبحت بيضاء نقية ، لا لبس فيها ولا إبهام ، ولا عيب مما يعتري الكلام .

ثم رفعت بما أحدثه القرآن والحديث فيها من علوم وفنون ، وانتشرت بانتشارها فيما فتح الله على المسلمين من أمصار ، واستعلت على سائر اللغات فى مواطنها ، وأصبحت لغة قوم ذوى عز وسيادة ، ومدنية وملك ، كما أصبحت لغة علوم وفنون ، وتدوين وتصنيف .

وأما الأفكار والعقول ، فقد وجدت فى الاسلام ديناً رحب الصدر ، واسع الاحتمال ، لا يهاب العقل ، ولا يصادم العلم .

وضعت قواعد الاسلام وقضاياه من أول يوم بين يدي العقل ، وطرحت على بساط العلم والبحث ، فجعلت تفحصها العقول ، وتصهرها مراحل العلوم ، وتبلوها التجارب ، وهى ترفع رأسها رويدارويدا فى ثقة وإيمان ، لا تخشى أن تخفضه الأيام وفى الناس عقول ، وفى الدنيا إنصاف .

ثم ظلت فوق ذروتها العليا ، تحدجها الأبصار حيناً ، وتكمل عنها حيناً ، وهى فى كل حال ينبعث منها نور الحق ، وينبثق منها شعاع الهدى .

ومرت عصور ، وتوالت دول ، وتولت ملوك ، وأقيمت نظم ثم بدلت ، واشتجر صراع عنيف بين العلوم ، والأديان ، واللغات . فإذا كان حظ الاسلام فى لغته وعلومه ، من هذا الصراع العنيف ؟ وبماذا خرج من هذه المعارك المختلفة الألوان والأغراض ؟

إنه خرج منها منتصراً مرفوع الرأس ، يحمل بإحدى يديه عقيدته سليمة طاهرة ، نقية صافية ، ويحمل بالأخرى علومه ولغته وتاريخه !

لو أن أحدا مثل له تاريخ الاسلام العلمى، فوقف بحيث يستعرضه، وتمر عليه جيوشه، وتجرى أمامه كتائبه، لرأى ما يعلأ النفس روعة وجلالا، وما يعمر القلب يقينا وإيمانا.

فهذه كنوز ثمينة، فى التأليف والتصنيف، ورثناها عن آباؤنا وجدودنا.

كنوز فى اللغة : متونها، وآدابها، وشعرها، ونثرها، ونحوها وصرفها، واشتقاقها، ومعانيها، وبيانها، وبديعها، وسائر فنونها.

وكنوز فى علوم القرآن : تفسيره وتأويله، ومجازه، وأسباب نزوله، وطرق الاستنباط منه، وهدايته، ومبادئه فى الإصلاح وبناء الأمم، وأسلوبه فى التربية والتشريع.

أسرار لا تحصى، للفقهاء فيها نظر، وللأديب نظر، وللغوى نظر، ولصاحب النحو نظر. وفى دائرتها يعمل المصلح، والمربى، والمرشد، ورجل الدين، ورجل القانون.

وكنوز فى علوم السنة : من رواية ودراية، وتجريح وتعديل، وناسخ ومنسوخ، ومذاهب فقه، وأصول أحكام، وتاريخ رجال. وغير ذلك من علوم وفنون.

هذه صفحة من تاريخ الاسلام العلمى، كتبها أبطاله الأولون، وسار على سنتهم أبناءهم وأحفادهم، الى هذا العصر الذى نعيش فيه.

وهذه قافلة العلم مازالت تسير، لا تقف عند حد، ولا تعرف الركود ولا الجود.

ونحن — أبناء هذا العصر — من حقنا، بل من واجبنا أن نسير فى هذا الركب كما سار الذين من قبلنا، وأن يضع كل منا كسبته فى هذا البناء الشاخ الذى شيده آباؤنا.

ومن الخير أن يعيد القادرون منا الى استكشاف النواحي التى مازال بها شئ من الغموض، وارتياح المواطن التى تحتاج الى التمهيد والتعبيد، فقد طال ما جرينا فى السهل، وتخلىنا عن الوعر، وكثر ما آثرنا المنال القريب، على المنال البعيد !!

إن العلم لا يعرف الترفه ولا التنعيم، وإنما يسلس جاحه، وينال صعبه، بالتقشف والتخشن. وإنى أضرب لهذا مثلا قريبا حاضرا : لماذا لم يعن أحد من المؤلفين أو الكتاب فى عصرنا الحاضر العناية الواجبة بتاريخ الحركات العلمية واللغوية والأدبية فى مصر خاصة ؟

إننا إذا أردنا أن نقف على تاريخ هذه الحركات فى مصر، اضطررنا الى الرحلة الى بلاد غير البلاد، لا أقصد الرحلة الحقيقية التى هى سفر واغتراب، وإنما أريد الرحلة الى الكتب العامة، التى لم تتقيد ببلد دون بلد، وإنما تتحدث عن الآداب والعلوم فى البلاد جميعا بوجه عام.

فلما تجد كتابا يجمع بين دفتيه الحديث عن الأدب المصرى قديمه وحديثه، ويخصص أبوابه وفصوله لهذا الموضوع تخصيصا، فإذا أردت أن تقف على هذه الناحية فإنك لا بد راحل

الى الكتب العامة ، التى تسوق الحديث عن الأدب مختلطا من غير تمييز ، فتجمع أدب الحجاز الى أدب الشام ، الى أدب العراق ، وربما عرجت على الأدب المصرى فسته مسا رقيقا رفيقا ، لا أثر فيه لدراسة أو تمحيص ، ولا لتعمق أو استيعاب ، عندئذ ترى جملا متفرقة ، وتتفا مبعثرة ، لا تقوم بها شخصية مستقلة ، ولا تتألف منها صورة واضحة ! وتكون النتيجة أنك تعود من هذه الرحلة كما بدأت ، خالى اليدين مما أردت !!

وقل مثل هذا عن النحو والنحاة ، فلا شك أنه كان لمصر نحو ، كما كان لها أدب ؛ ولا شك أنه كان فى مصر نحاة ، كما كان فيها أدباء وشعراء ؛ ولا شك أنه كان لهؤلاء النحاة طرق تتفق أحيانا مع طرق غيرهم ، وتختلف أحيانا ، وأن هذا الاختلاف تارة يكون يسيرا هادئا ، وتارة يكون عنيفا شديدا ، ولكن ، هل تستطيع أن ترسم للنحو صورة مصرية واضحة ؟ وهل تستطيع أن تجمع من النحاة المصريين هيئة مستقلة متميزة ؟

لا ! وأنت مضطر أيضا الى الرحلة الى كتب النحو العامة ، لتقرأ ، من حيث يحلوك أو لا يحلوك ، الأحاديث الطوال عن نحو البصرة ، ونحو الكوفة ، ونحاة البصرة ، ونحاة الكوفة . فاذا عثرت على شئ من الحديث عن المصريين ، ونحو المصريين ، وجدته مجملا مقتضبا مشقتا ، وحينئذ تعود مسرعا من حيث أتيت ، خالى اليدين مما أردت !

وتعال معى الى الفقه ، وتاريخ الفقه ، أو كما يقولون عنه « تاريخ التشريع » : أكان فى مصر فقهاء ؟ أكان لهم فقه ؟ أكان لهم رواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ما لون هذا الفقه فى عصوره المختلفة من عهد الفتح الى اليوم ؟ وما هذه الرواية ؟ وما مدى انتفاعهم بها ؟

ارجع الى الكتب المؤلفة فى « تاريخ الفقه » . ارجع الى الكتب التى تتحدث عن أصول الفقه ، وتذكر الأسس التى بنى عليها الأئمة والفقهاء مذاهم . ارجع الى كتب التاريخ العام ، ارجع الى كتب المذاهب المختلفة التى تتحدث عن فقه أصحابها وتجمع رأى الحجازى والعراقى والشامى والمصرى والمغربى ، لا تفرق بين أحد منهم ، ولا تعنى بتبيين وجهات أنظارهم .

ارجع الى ذلك كله ، وارحل اليه ، ولتطل رحلتك كما تحب أن تطول ، ثم حدثنى : هل عدت فى هذه المرة من رحلتك مملوء اليدين ؟ وهل استطعت أن ترى للفقه المصرى صورة واضحة ، وأن تبين ملامح هذه الصورة ثابتة غير مهتزة ولا متأرجحة ؟ وهل استطعت أن تخلق بفكرك فى جو من الفقه الاسلامى له طابع مصر ، وفيه روح مصر ؟ وهل استطعت أن تصل بروحك بروح فقيه مصرى خالص أو غير خالص ، لتهتدى الى نفسه وعقله ، وثقافته ، وطريقة تفكيره ؟ لا بد من « لا » .



هذه نواحى نقص من غير شك ، ولكننا مع ذلك نصرف النظر عنها ، وترى مؤلفنا أو كاتبنا يفر منها فرارا ، لأنه يؤثر الراحة ، والطمأنينة ، ويكره أن يقلق راحته بحث عميق ، ويعكر صفوه نظر دقيق ، ويرى أنه لا بأس عليه إذا ترك الورد لما حوله من أشواك !!

يجب أن يتقدم أصحاب الأدب لتلافى هذا النقص من الناحية الأدبية ، فيقوم منهم من يؤرخ أدبنا المصرى العربى ، ويحرص على أن يعطى قراءه فكرة واضحة عنه ، وعن أدبائه وشعرائه ، وعن عهود انحطاطه وارتقائه .

يجب أن يكون لنا شأن غير هذا الشأن ، وأن تكون لنا مهمة أعلى من هذه المهمة .

ويجب أن يتقدم المشتغلون بالنحو بمثل ذلك فى ناحيتهم ، فيدرسوا النحو المصرى العربى ويؤرخوا رجاله ، ويدلوا على ما عسى أن يكون لهم من آثار علمية أو عملية فى هذا العلم العظيم .

ويجب أن يتقدم المشتغلون بتاريخ الفقه غير هيايين ولا وجلين ، فيزاملوا الفقه الإسلامى من عهد الفتح الى اليوم ، ويبينوا كيف كان شأنه فى مصر ، ويعطوا صورة عما اشتركوا فى فتح البلاد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمن جاء بعدهم من التابعين والفقهاء ، وماذا كان نصيب مصر من المذاهب الفقهية ، وما شأن القضاء فيها ، وهل كان لها فقه ( فى حدود الشريعة ) يمتاز عن فقه غيرها من الأمصار ؟ والى أى مدى كانت تتأثر بفقه الحجاز والعراق مثلا ؟ والى أى مدى كانت تأخذ بالرأى أو تعمل بالحديث ؟

عليهم أن يتنقلوا مع هذا التاريخ مرحلة بعد مرحلة حتى تنتهى بهم الرحلة الى عصرنا ، وينظروا فيما عليه اليوم فقهننا .

هذا اقتراح أعرضه على الأدباء والعلماء راجيا أن يصادف منهم قبولا .

ولعلنا بذلك نخدم التاريخ العلمى لمصر ، كما خدتم تاريخها السياسى قديما وحديثا .

وإنى أتقدم للمساهمة فى هذا العمل ، وأخذ على عاتقى نصيبا من عبئه ، وأرجو أن يوفقنى الله الى الحديث عن « تاريخ الفقه الإسلامى فى مصر » فى مقالات متتابعة ، ابتداء من العدد القادم ، وبالله أستعين ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

محمد محمد المرنى

المدرس بكلية الشريعة

## الورع والمال

ترك عبد الله بن المبارك دنائير وقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجمعها إلا لأصون بها حسبى ودينى . وقال ابن عيينة : من كان له مال فليصلحه ، فإنكم فى زمان من احتاج فيه الى الناس كان أول ما يبذله دينه .

# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الادب العربي

جاهليته وإسلاميته

— ٢ —

جناية الادب الجاهلي على الادب العربي

ظهر هذا البحث في الربيع الماضي ، ونشرت لنا مجلة الرسالة فيه كلمة ، تحت عنوان : « بين جناية الادب الجاهلي والجناية عليه » كانت على هامش الموضوع ، ولم تكن في صميمه ؛ ولا يخامرني ريب في أنها كانت واضحة أو قريبة من الوضوح ، في معناها المراد ، بدرجة تغنيني عن الشرح والتوجيه .

ومثير هذا البحث ، رجل قوى الخلق ، متين الدين ، معروف التاريخ ، يحميه سياج من تربيته ، وعقله ، واتزانه ، أن ينفذ الشك الى نيّته ، أو يستتراب في نبل الغاية التي رمى إليها . ولعل من الخير أن أشير هنا ، الى أنه ليس أخطر على آرائنا — معاصر الازهرين — من أن ننزع فيها عن قوس عاطفتنا الحادة ، التي ركبتها في طبيعتنا تلك البيئة الدينية الغالية ، التي لا يمكن حمل فضلها على الناس ؛ فليس أكمل لرجل الدين من سعة الصدر ، واصطناع الاناة ، وتقليب الرأي على وجوهه ، قبل إصدار الحكم فيه . وإن خيرا للدين ألف مرة ومرة ، أن أجمع عليه البر والمسيء ، من أن أفرق عنه كل من قصّر به عمله عن أن يكون من كبار الصالحين ؛ ومن يدري ؟ فقد يكون لمن أذوده عن الدين باسم الدين ، وجهة نظر هي أشبه بحقيقة الدين من وجهة نظري ؛ وبخاصة من تربّي تربيتي ، وتكتمل بما حرمتني الاقدار بعضه أو كله . أنا رجل رجعي ، يعرف خلطائي جميعا ، أننى أرى الدين والازهر بخير ، ما بقيت فينا طائفة تمثل الجود الديني بأنتم معانيه ، حتى تردنا الى الحد الوسط ، أمام طغيان الحضارة الغربية الفاتنة الرهيب ، ولكنى أريدها لحفظ التوازن ، لا للحرمان ؛ ونحن في طور انتقال .

لم يكن لهذا البحث من خطر الشأن ، بعض ما كان لبحث « الشعر الجاهلي » ، ولعله كان يمرّ على القراء في عناية معتادة أو فوق المعتادة بقليل ، لو لم تُسحّ به فرصة لحصم مُصاَول ،

اهْتَبَلَهَا، فَتَعَمَّرَهَا فِيمَا أَجْدَى عَلَى شِيوعِ الْبَحْثِ مِنْ جِهَةٍ، وَعَلَى إِظْهَارِ بَرَاغِثِهِ هُوَ فِي تَشْقِيقِ الْكَلَامِ، وَبَصَرِهِ بِفَنُونِ الْأَدَبِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْاسْتِطْرَادِ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَمَرَدَّ الْفَرْقِ بَيْنَ الْبَحْثَيْنِ، إِلَى أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ لَا اتِّصَالَ لَهُ بِالَّذِينَ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةٍ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ، كَمَا سَتَعْرِفُ؛ ثُمَّ إِلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ الْبَاحِثَيْنِ؛ فَهَذَا بَاحِثٌ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ النَّزْعَةُ الْعِلْمِيَّةُ، وَذَاكَ بَاحِثٌ أَدِيبٌ؛ وَالْمَوْضُوعُ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْأَدَبِ، يَقْوَمُهُ الذَّوْقُ الْأَدَبِيُّ، أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَقْوَمُهُ النِّظَرُ الْعِلْمِيُّ. وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرِيدُ الشُّعْرَاءَ عَلَى أَنْ يَنْسَزِلُوا عَلَى حُكْمِ الْعَقْلِ وَالْوَاجِبِ غَيْرِ الْعُلَمَاءِ؟ فَأَمَّا الْأَدَبَاءُ، فَانْهَمُ أَرْقَ أَكْبَادًا مِنْ أَنْ يَنْحَرِمُوا الشُّعْرَاءَ حُرِيَّةَ التَّحْلِيقِ فِي آفَاقِ الْخَيَالِ. وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْبَحْثِ قَدْ أَرَادَ بِهِ رِيَاضَةً نَفْسَهُ بِحَمْلِهَا عَلَى مَا تَأْتِي، وَرِيَاضَةً قَلَمَهُ بِاجْتِرَائِهِ فِيمَا يُعَارِضُ هَوَاهُ؛ أَوْ أَنَّهُ — وَقَدْ جَدَّدَ فِي زَيْهِ — ظَنُّهُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ كَذَلِكَ أَنْ يَجِدَّدَ فِي آرَائِهِ، فَأَبَتْ عَلَيْهِ الْخَلْقَةُ الْأَزْهَرِيَّةُ الْمَحَافِظَةُ، الَّتِي تَبْدُو مِنْ خَلَلِ حُلَّتِهِ الْفَرَنْجِيَّةِ، أَنَّ يَنَالُ كَبِيرَ حِفْظٍ مِنَ النِّجَاحِ؛ وَقَدِيمًا قَلِيلَ:

يَرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسْيَانُكُمْ وَتَأْتِي الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

تَرَجَعَ أَهْمِيَّةُ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ فِي نَظَرِ كُلِّ عَرَبِيٍّ بِخَاصَّةٍ، وَفِي نَظَرِ كُلِّ مُسْلِمٍ بَعَامَّةٍ، إِلَى أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ؛ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا، فَهُوَ مَا أُشَارَ إِلَيْهِ بِصَاحِبِ ضَحْيِ الْإِسْلَامِ نَفْسَهُ ج ١ ص ٣١١ بِقَوْلِهِ: «وَوَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ أَلْفَاظٌ لَعُوبَةٌ، فَضَرَبُوا أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَى الْبَادِيَةِ، يَسْتَفْسِرُونَ عَنْ لَفْظٍ، أَوْ يَقْفُونَ عَلَى تَعْبِيرٍ؛ وَدَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى حِفْظِ الْأَشْعَارِ، فَبِهَا أحيانًا مَا يَفْسِرُ لَفْظًا قُرْآنِيًّا، أَوْ يَسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ تَعْبِيرٍ قُرْآنِيٍّ. فَأَكْثَرُوا مِنْ رَوَايَةِ اللَّغَةِ وَالْأَشْعَارِ لَذَلِكَ، وَدَقَّقُوا فِيهَا، وَتَحَرَّوْا الْمَوْضُوعَ مِنَ الصَّحِيحِ؛ وَمَا كَانَ يَبْذُلُ هَذَا الْجُهْدَ، وَذَلِكَ التَّحَرُّى، لَوْلَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ بَاعْثٍ دِينِي». اهـ بِنَصِّهِ. وَعَلَّقَ عَلَيْهِ فِي هَامِشِ الصَّفْحَةِ نَفْسَهَا بِقَوْلِهِ: «قَالَ الشَّعَالِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ فَقَّهَ اللَّغَةَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ أَحَبَّ رَسُولَهُ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ الْعَرَبِيَّ أَحَبَّ الْعَرَبَ؛ وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ، أَحَبَّ اللَّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، الَّتِي بَهَا أَنْزَلَ أَفْضَلَ الْكُتُبِ، عَلَى أَفْضَلِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ؛ وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ، عُنِيَ بِهَا، وَثَابَرَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا». وَيَقُولُ: «وَالْعَرَبِيَّةُ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى فَهْمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ، إِذْ هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ، وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ. الْح.»

«وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الشُّعْرُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ، فَذَا خَفِيَ عَلَيْنَا الْحَرْفُ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، رَجَعْنَا إِلَى دِيْوَانِهَا فَالْتَمَسْنَا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ مِنْهُ». وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ» قَالَ: عَزِينَ: الْحَلِيقَ الرَّقَاقَ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ: نَجَاءُهَا وَيَهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مَنْبَرِهِ عَزِينًا

انْظُرِ الْاِتِّقَانُ: ١ — ١٤٩ وما بعدها. اهـ بِنَصِّهِ مِنْ ضَحْيِ الْإِسْلَامِ.

ومما يتصل بقول الثعالبي : « والعربية خير اللغات والألسنة » ما ذكره صاحب المثل السائر ، قال : « وحضر عندى فى بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت إذ ذاك بالديار المصرية ، وكان لليهود فى هذا الرجل اعتقاد ، لمكان علمه فى دينهم وغيره ؛ وكان - لعمري - كذلك ؛ فجرى ذكر اللغات ، وأن اللغة العربية هى سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعاً ، فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك ، وقد جاءت آخراً ، فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؛ ثم إن واضعها تصرف فى جميع اللغات السالفة ، فاختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ؛ فن ذلك اسم « الجمل » فانه عندنا فى اللسان العبرانى : كوميل ، مُمَلاً ، على وزن فوعيل ، فجاء واضع اللغة العربية ، وحذف منها الثقيل المُسْتَبْشَع ، وقال : جل ، فصار خفيفاً حسناً . وكذلك فعل فى كذا وكذا ، وذكر أشياء كثيرة . ولقد صدق فى الذى ذكره ، وهو كلامُ عالم به » اهـ بنصه ص ٧٣ المطبعة البهية .

ومن هذا الذى ذكره صاحب الضحى ، ومما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن الثعالبي ، يظهر السبب فى شدة الرشيد على الحسن بن هانىء لما خرج على سنة شعراء العرب ، ونعى عليهم افتتاح القصائد بوصف الطول ، والوقوف بالديار ، والتألم للفراق ، والحنين الى اللقاء ، الخ . واستبدل بذلك فى كثير من مطالع قصائده وصف الحجر ؛ فسجنه الرشيد ، وبالع فى تهديده ؛ وزاد من حنقه عليه استهانتة بالعرب : عدنائهم ، وقحطانهم ؛ فقد هجا عدنان ، وافتخر بقحطان ، بقصيدته التى مطلعها :

لَيْسَتْ بِدَارٍ عَفَتْ وَغَيْرَهَا ضَرَبَانٌ مِنْ قَطَرِهَا وَحَاصِهَا  
وفىها يقول :

فَانْفَخِرْ بِقَحْطَانٍ غَيْرِ مَكْتَدَبٍ خَاتَمُ الْجُودِ مِنْ مَنَاقِبِهَا  
وَاهْجُ زَارَا وَافِرِ جِلْدَتِهَا وَهَتَكَ السَّيْرَ عَنْ مَثَالِهَا

ثم عاد فهجاً لىن فى قصائد كثيرة ؛ منها قصيدته التى يقول فيها :

لَا زِدْ عِمَامٍ بِالْمُهْلَبِ زَوْهَ إِذَا افْتَخَرَ الْأَقْوَامُ ، ثُمَّ تَلَيْنُ  
وَبَكَرَ تَرَى أَنْ النَّبْوَةَ أَنْزَلَتْ عَلَى مَسْمَعٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ جَنِينُ (١)  
وَقَالَتْ تَمِيمٌ : لَا زِيَّ أَنْ وَاحِدَا كَأَحْنَفْنَا - حَتَّى الْمَاتِ - يَكُونُ (٢)  
فَمَا لَمْ تُقِيسَا بَعْدَهَا فِي قَتِيْبَةٍ وَنَحْرٍ بِهِ ، إِنْ الْفَخَارُ فَنُونُ (٣)

(١) مسمع ، ككنبر : أبوقيلة من ربيعة ، وآل مسمع : بيت بكر بن وائل فى الاسلام . (٢) الأحنف بن قيس التميمى الذى يضرب به المثل فى الحلم . (٣) هو قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، القائد الاسلامى العظيم ، يقال إنه فتح سبع مدن فى خراسان ، فيها سبعة حصون ، لم يصل إليها أحد قبله .

وقد أرغم أبو نواس على العودة الى وصف الطلول ، فعاد في خيث ، وذلك حيث يقول :

أعـرّ شعرك الأطلال والمزل القفرا      فقد طالما أزرى به نعتك الخـرا  
دعاني الى نعت الطلول مسلط      تضيق ذراعي أف أرد له أمرا  
فسمعا — أمير المؤمنين — وطاعة      وإن كنت قد كلفني مركبا وعرا

وكذلك فعل الرشيد مع الفضل بن يحيى ، حين أنكر على الأصمعي إمعانه في وصف الجبل من قصيدة للعجاج ، ليلة سمره مع الرشيد ، إذ قال الفضل للأصمعي : « مالك تضيق علينا كل ما اتسع من مشاهدة السمر في ليلتنا هذه ، بذكر جل أجرب ؟ » فقال الرشيد : « اسكت ، هي التي أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبت تاج ملكك ، ثم ماتت ، فعُملت جلودها سياطا يضرب بها قومك ضرب العبيد . ثم قهقه ، ثم قال : لا تدع نفسك والتعرض لما تكره » ! فقال الفضل : « لقد عوقبت على غير ذنب ، والحمد لله » ! قال الرشيد : « أخطأت في كلامك ، يرحمك الله ! لو قلت : وأستعين الله ، قلت صوابا ، إنما يحمد الله على النعم » .

ولما نهض تبادر الخدم فأمسكوا بيده ، حتى نزل عن فرشه ، ثم قدمت النعل ، فجعل الخادم يسوى عقب النعل في رجله ، فقال : ارفق ، ويحك ، حسبك ، قد عقرتني . قال الفضل : لله در العجم ! ما أحكم صنعتهم ! لو كانت سنديّة ، ما احتجت الى هذه الكلفة . قال الرشيد : هذه نعلي ، ونعل آبائي ، ورحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل آبائك . لا تزال تعارضني في الشيء ، ولا أدعك بدون جواب بمفـتـك !!! « العقد الفريد لابن عبد ربه »

وعلى صلة بهذا ، قول يزيد المهلبى ، يعيب على بنى العباس تقريب الموالى وإبعاد العرب ، من مرثية له في الخليفة المتوكل على الله ، قتيل الأتراك :

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم      ضعتم ، وضيعتم من كان يُعتقد  
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم      حتمكم السادة المنسوبة الحُشد  
قوم هم الخِدم ، والأنساب تجمعهم      والمجد ، والدين ، والأرحام ، والبلد  
إذا قريش أرادوا شد ملكهم      بغير قطّاف ، لم يبرح به أود  
أضحى شهيد بنى العباس موعظة      لكل ذى عزة ، فى رأسه صَيّد

\*\*\*

وأما الآخر ، فهو توقف تعلم صناعة الشعر على رواية الأدب الجاهلى وحفظه ؛ فقد اتفق أهل البصر بالشعر ، على أن من قل حفظه أو عَـدِم ، لا يكون له شعر ؛ وإذا جاء بشيء منه ، كان نظما ساقطا ، لا قيمة له عند أهل الصناعة ؛ وفى درجته ما كان من جنسه ، كأشعار العصرين : الاسلامى والعباسى ؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه ، وكثرته وقلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . قال العلامة ابن خلدون :

« اعلم أن الأساليب عندهم عبارة عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ؛ ولا يرجع الى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة ، كلية ، باعتبار الطباق على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم يلتقى التراكيب الصحيحة عند العرب ، باعتبار الإعراب والبيان ، فيرصها فيه رصاً ، كما يفعل البناء فى القالب ، أو النساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بمحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ؛ فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ؛ فسؤال الطول فى الشعر ، يكون بخطاب الطول ، كقوله : يادارية بالعلياء فالسند ؛ ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال ، كقوله : قفا نسأل الدار التى خف أهلها ؛ أو باستبكاء الصحب على الطلل ، كقوله : قفانك من ذكرى حبيب ومنزل ؛ أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين ، كقوله : ألم تسأل فتخبرك الرسوم ؟ ومثل تحية الطول بالأمير لمخاطب غير معين بتحياتها ، كقوله : حى الطول بجانب السّغزل ؛ أو بالدعاء لها بالسّقيا ، كقوله :

اسقى طولهمو أجش هذيم      وغدت عليهم نضرة ونعيم  
أو سؤاله السقيا لها من البرق ، كقوله :

يا برق ، طالع منزل بالبرق      واحد السحاب لها حذاء الأينق  
أو مثل النفجع فى الجزع باستدعاء البكاء ، كقوله :

كذا فليجل الخطب ، وليفدح الأمر      وليس لعين لم يفيض ماؤها عذر  
أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده ، كقوله :

منابت العشب ، لا حرم ، ولا راعى      مضى الردى بطويل الرمح والباع  
أو بهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته ، كقوله :

ألقى الرماح ربيعة بن نزار      أودى الردى بفريقك المغوار

ولا يفيد هذه الأساليب ، إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً « اه مقدمة ص ٧٢ طبعة فهمى .

ومن هنا كان أهل العلوم كلهم ، من الفقهاء والنحاة وغيرهم ، قاصرين فى الشعر ، لقلة محفوظهم من جهة ، ولخدش ملكة البلاغة عندهم بما يسبق الى محفوظهم ويمتلى به من

القوانين العلمية ، والمعارف الفقهية التي لا حظ لها في البلاغة . ولقد كان الأزهريون ، ولا يزالون ، يعتقدون أن الأدب والعلم لا يجتمعان . وهم في ذلك جِدُّ مصيبين ؛ ويشهد لهم أننا لم نر أزهرياً أحرز فَوْقاً في الأدب ، إلا جاء مقصراً في العلم ، أو ترك ساحته جملة .

\*\*\*

يساند الأمرين الآتقين ، أننا قومٌ عرب ، والعرب أشدُّ الأمم عصبية وحنينا الى وطنهم الأول وعيشتهم الأولى ؛ لذلك لم تلهم مفاتيح ما فتحوها من البلاد والممالك ، عن التغنى بذكر بلادهم ، وعن اتخاذ الشعر القديم نموذجاً لهم في الصناعة وفي الخيال . وأن الحنين الذي هز أبا الحسن عليّ بن جُودى ، وهو في رياض الأندلس ، الى نجد ، فأطلق لسانه بقوله :

أحنّ الى ربح الشمال فانها      تذكّرنا نجداً ، وما ذكّرت نجداً  
تمر على ربح أقام به الهوى      وبذل من أهليه جامعة رُبداً

وقوله :

خليلىّ ، عن نجد ؛ فان بنجدهم      مصيفاً لبیت العاصمى ومربداً  
ألا رجّعنا عنها الحديث ، فاننى      لأغبط من ليلى الحديث المرجعاً  
عزيز علينا - يابسة القوم - أننا      غريبان كشتى ، لا نطيق التجمعاً  
فريق هوى منا : يَمَاف ومُشَم      يحاول يأسا ، أو يحاول مطعماً  
كانا خلقنا للنوى ، وكأنا      حرام على الأيام أف نتجمعاً

أقول : إن الحنين الذى هز هذا الأندلسى الرافه ، الى مرابع نجد ومصايفها ، فأطلقه سجعاً مردداً ، وغرّداً ساحراً ، هو هو الذى يهز المصرى والشامى والأفريقى والسودانى ؛ أو بعبارة أعم وأشمل ، هو نفسه الذى يهز مشاعر كل مسلم الى معاهد الاسلام الأولى ، فيطلق لسانه بمحاكاة أول أسلوب عرفه الاسلام .

\*\*\*

أما بعد ما تقدم ، فاعتبارُ تأثير الأدب العربى ، بالأدب الجاهلى ، جنائية ، هو — كجنائية الآباء على الأبناء التى اشتريها الحكيم الشاعر أبو العلاء المعرى ، بقوله : هذا جناه أبى علىّ ، وما جنيت على أحد — اعتراض على الطبيعة ، أو على شىء غير الطبيعة ، بوأ الأدب الجاهلى من الأدب العربى هذا المَبْوَءَ ، لا اعتراض على جوهر الأدب .

وتحقيق قضية هذه الجنائية ، فى المقال التالى ، إن شاء الله ؛ فلقد طال هذا الحديث

عبد المجواد رمضان

كلية اللغة العربية

# فى حفلة الحمل

## دورات الحمل السبع

كثير كلام الناس فى « حفلة الحمل » و « دورات الحمل السبع » ، فمنهم من يجب التمسك بها إبقاء للتقديم على قدمه ، ومنهم من يرى إلغائها لأنها من المحدثات التى لم تؤثر عن الصدر الأول .

وإرشادا للحق فى هذه المسألة أقول :

لحفلة الحمل ناحيتان : ناحية تاريخية ، وناحية دينية . فأما الناحية التاريخية فلا أعرض لها ، ولا أذكر فيها إلا ما هو معروف من أن العصر الذى نشأت فيه فكرة الحمل ، لم يكن من عصور الرقى الفكرى والدينى ، وإنما كان من عصور التأخر والانحطاط التى أضيف فيها الى الدين ما ليس منه .

وأما الناحية الدينية ، فإننا إذا نظرنا الى حفلة الحمل كحفلة يقصد منها الدعاوة للحج ، وخروج الكسوة بمظهر يلفت إليها أنظار المسلمين ، فيثير فى نفوسهم الرغبة فى أداء فريضة الحج ، وجدناها حفلة لا يأبأها الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، ما دامت مبرأة من كل ما يسيء إليها ، ويشوه وجهها السمح . ذلك أن الاسلام لا يأبى أن يأخذ بأية وسيلة من شأنها أن تعين على إظهار شعيرة ، أو الإعلان عن سنة .

فهو مثلاً ، لا ينكر المحراب لأنه وسيلة الى معرفة القبلة ، ولا ينكر مدفع الظهر لأنه وسيلة لتحديد وقت الصلاة ، ولا ينكر إعلاء صوت الخطيب بأداة تضخيم الأصوات ، ما دام ذلك وسيلة لا لبلاغ صوت الحق الى الناس ، وإذاعته بينهم .

وإنما الذى يأباه الدين ، هو العادات المنافية له ، المخالفة لأغراضه ، أو التى تثير فى نفوس الناس اعتقاداً غير صحيح فى الأحكام الدينية .

فمن ذلك ما يحدث عادة يوم الاحتفال بالحمل من اختلاط النساء بالرجال على صورة شائنة ، تنكرها الآداب ، وتمجها الأذواق ، ولا ترضى بها الشرائع والأخلاق .

ومن ذلك دوران الحمل سبع مررات كما يدور الطائفون بالبيت ، واستلام مقوده كما يستلم الحجر الأسود ، فى إجلال وتقدير .

فلا سلام لا يعرف طوافاً إلا حول البيت ، ولا يعترف بالتقبيل والتعظيم لشيء يستلم



إلا للحجر الأسود ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطف بشيء إلا بالبيت ، ولم يقبل شيئا إلا هذا الحجر ، ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

هذه هي روح الاسلام ، ومبادئ الاسلام ، التى يعرفها الفقهاء ، ويقررها الأئمة . يقول الفقهاء : « إن وقوف الناس — غير الحجاج — يوم عرفة مجتمعين فى مكان تشبها بالواقفين بعرفات ، مكروه كراهة تحريم ، لأنه مخترع فى الدين ، إذ الوقوف إنما عهد قرابة بمكان مخصوص ، فلا يجوز فعله فى غيره ، كالطواف ونحوه . ألا ترى أنه لا يجوز الطواف حول مسجد أو بيت سوى الكعبة » .

هذا نص صريح من كلام الفقهاء . فدورات المحمل إذا صورة لما يحدث من الطواف حول البيت ، فى ذاتها ، وفى عددها ؛ وهى مخترعة لا يعرفها الدين ، وليست ضرورية فى الدعاوة للحج ، لأنه يمكن أن تتم هذه الدعاوة على خير وجه بدونها ؛ وكذلك القول فى استلام المقود وتقبيله ؛ وهما بعد ذلك صورتان تشوهان وجه الدين ، وتعينان خصومه على ما يبتغون من تلمس أسباب الطعن فيه ، والغرض منه . فمن الطبيعى إذاً أن يتناولها هذا النص الفقهى الذى قدمنا ، وأن يعمل أولو الأمر على حماية الناس من اعتقاد أنهما من الدين ، وحماية الدين من أن يلصق به ما ليس منه .

وبعد : فهذا هو رأينا فى المسألة من وجهتها الدينية ، أرجو أن يجد القراء فيه ما ينير لهم سبيل الحق والهدى ما

محمد سُلَوت

## هما قيل فى المال

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بالله من الفقر . والفقر هو أن لا يجد الانسان حاجته وحاجة عياله ، لا المتفق عليه اليوم من الاقلال مع الكفاف . فالفقر بمعناه الصحيح مذموم لأنه من أكبر القواطع عن ممارسة الفضائل . ولذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه محمد : يا بنى إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه ، فإن الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل ، داعية للعقت .

وروى عن لقمان أنه كان إذا مر بالأغنياء قال لهم : يا أهل النعيم الأصغر ، لا تنسوا النعيم الأكبر . وإذا مر بالفقراء قال : يا كرم أن تغبنوا مرتين .

وقيل لأفلاطون : لم صار الرجل يقتنى مالا وهو شيخ ؟ فأجاب : لأن يموت الانسان فيخلف مالا لأعدائه ، خير من أن يحتاج فى حياته الى أصدقائه .

## فى بلاغة القرآن

« اللهم ارزقنى التفكير والندبر لما يتلوه لسانى من كتابك ،  
والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك  
ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير . » عمر بن الخطاب

جلوت لك فى الحديث السابق بعض ما تهدهى إليه عقلى ، واستطفت لى بياه من أسرار  
البلاغة فى آيتين من آى الذكر الحكيم ؛ ولعلك عجبت منها العجب كله . « وأى شىء أعجب  
من أن تتجاذبك معانى الوضع فى ألفاظ القرآن ، فترى اللفظ قارا فى موضعه لأنه الأليق  
فى النظم ، ثم لأنه مع ذلك الأوسع فى المعنى ، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة ، ومع ذلك الأحكم  
فى الإبانة ، ومع ذلك الأبداع فى وجوه البلاغة ، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية  
مما يتقدمه أو يتأدى عليه ؟ » . وهذا من أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القرآن وبين هذه  
الأنواع فى كلام البلغاء . فنظم القرآن يقتضى كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيا بحيث يبني هو عليها  
لأنها فى أصل تركيبه ، ولا تبني هى عليه ؛ فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ، ولا شىء  
من مثل هذا يصح فى الجواز أو فيما يسهل الإمكان أن يصلح غيره فى موضعه إذا تبدلت منه ،  
فضلا عن أن يبنى به ، وفضلا عن أن يُربى عليه ولو أدت اللغة كلها على هذا الموضع . فكان  
البلاغة فيه إنما هى وجه من نظم حروفه ؛ بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء ، فإن بلاغته  
إنما تصنع لموضعها ، وتبنى عليه ؛ فربما وفّت وربما أخلفت ، وهى لو رفعت من نظم الكلام  
ثم نزل غيرها فى مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف ، بل لكان عمى أن يصح ويجود  
فى مواضع كثيرة من كلامهم .

كم حارت العقول الواصفة فى وصفه ، وكلت الألسنة البارعة عن نعته ، لأنه المطمع  
بظاهره فى نفسه ، والممتنع فى باطنه بنفسه ، ولأنه لا يشبه كلاما تقدمه ، ولا يشبه كلام  
تأخر عنه ، ولا يتصل بما قبله ، ولا يتصل به ما بعده ، فهو الكلام القائم بنفسه ، البائن  
من جنسه ، العالى على كل كلام قرن إليه وقيس به . وإنه ليرى فيه عند الانفراد بتلاوته من  
غرائب الفصاحة ، وثواب البلاغة ، ونوادر السكّم ، وينابيع الحكم ، ما يعجز الخواطر عن  
الكلام فيه ، والإيضاح عن عجائب ما فيه . حقا إنك « لتحار إذا تأملت تركيب القرآن  
ونظم مكانته فى الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها ، وتقعّد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضى  
فى وصفه ، حتى لا ترى فى اللغة كلها أدل على غرضك ، وأجمع لما فى نفسك ، وأبين لهذه الحقيقة  
غير كلمة « الإعجاز » .

« ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب وأنت ترى أن أعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذي يستنفد كل ما في العقول البينانية من الفكر ، وكل ما في القوى من أسباب البحث ، كأنما ركب على مقادير العقول والقوى ، وآلات العلوم وأحوال العصر المغيبة .

« ولن تجد في وصفه كلاماً أدق ولا أبرع ، ولا أخصر ولا أجمع مما وصفه به من أوتي الحكمة وجوامع الكلم ، الذي لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعديل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقفاً ، ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في خواصه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ؛ فهو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ، وهو الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاها بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإيفاء وقلة عدد الكلام . ولعل بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيين والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغ قدره ؛ كلا والذي حرم التزديد على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ! لا يظن هذا إلا من ضل سعيه (١) »

لن تجد في وصف القرآن أحسن من وصفه صلى الله عليه وسلم : حدث الترمذى أن ابن أبي طالب رضى الله عنه سمع الرسول وهو يقول : « أما إنها ستكون فتنة » . فقال له : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس باهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله تعالى ؛ وهو جبل الله المنين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلبس به الالسنه ؛ ولا تشيع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ؛ وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرأنا عجبا يهدي إلى الرشد فأمنا به » ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

أضف إلى هذا أنه كلما دار الزمان ، وتقدمت العلوم ، وتكشفت للإنسان أسرار الكون ، استبان للناس من عظمة القرآن ، واتضح لهم من وجوه إعجازه ما لم يدر لهم ولا لآبائهم بخلد . فهذه أسرار طبية ، وهذه أسرار فلسفية ، وتلك أسرار زراعية كشف عنها العلم الحديث ؛ وإلى الأخيرة نلفت النظر لطرافتها وغضارتها :

قال الله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » .

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

لقد ساءلت نفسى وأنا أندبر هذه الآية : لماذا كانت هذه الجنة ربوة ؟ ولماذا عبر الله عن سقيها بإصابة الواابل ؟ وهل لذلك من فائدة فى كونها تؤتى أكلها ضعفين ؟

قال الخليل : الربوة : أرض مرتفعة طيبة ، وخص الله بالذكر التى لا يجرى فيها ماء من حيث العرف فى بلاد العرب ، فئل لهم ما يحسنونه ويدركونه . وله رحمه الله :

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت عن المعاطش واستغنت بسقيها  
فمال بالخشوخ والرماف أسفلها واعتم بالنخل والزيتون أعلاها

وقال ابن عباس الربوة : المكان المرتفع الذى لا يجرى فيه الأنهار ، لأن قوله : « أصابها وابل » يدل على أنها ليس فيها ماء جار . قال أبوحيان : وتفسير ابن عباس الربوة بالمكان المرتفع الذى لا يجرى فيه ماء إنما يريد المذكورة هنا ، لقوله : أصابها وابل ، فدل على أنها ليس فيها ماء جار ، ولم يرد جنس الربوة لا يجرى فيها ماء ، ألا ترى الى قوله تعالى « ربوة ذات قرار ومعين » ؟ وخصت بأن سقيها الواابل لا الماء الجارى فيها على عادة بلاد العرب بما يحسنونه كثيرا ؛ وخص الربوة لحسن شجرها وزكاه ثمرها . فهل من الحق أن القرآن عبر بإصابة الواابل عن السقيا لأن هذه الربوة التى أشار إليها لا تجري فيها الأنهار كما روى عن ابن عباس ، أم جريا على عادة بلاد العرب ، وتمثيلا لهم بما يحسنونه ويدركونه كما يقول غيره من المفسرين ؟ عندى أن القرآن لم يرد ذلك ، ولم يذهب إليه ، وإنما ذهب الى سر عظيم كشف عنه العلم الزراعى : فقد أثبت علماء النبات بعد تجارب أخطأها الحصر وما أخطأها الصواب ، أن الحدايق التى تنشأ فى الاراضى المرتفعة تغل أحسن من الحدايق المنفشة فى الاراضى الواطئة ، لأنها بعيدة عن الرشح الزائد ، والماء الراكد ، ولأن الهواء يتخلل بين طبقاتها فى يسر وسهولة ، فيساعد على التأكسد وصلاح المواد الغذائية ، التى تمتصها الشعيرات الجذرية طيبة سائغة وتغذى بها الساق ، والأوراق والزهور ، فيزكو الزرع ويستغلظ ويستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ويؤتى أكله ضعفين بإذن الله .

ولقد أثبت هؤلاء العلماء أيضا أن أحسن طريقة للسقى ، طريقة المطر الصناعى ، لأنه يزيل ما على الأشجار من أضرار ، فتفتتح مسام الأوراق ، وتسهل عليها الفتحة والتنفس ، أو « التمثيل السكوروبلى » .

ولأنه ينشر الماء على سطح الأرض بالتساوى ، فتأخذ منه كل بقعة حاجتها ، ولا تتعرض الأشجار والنباتات للآذى . فهذا سر إشار « الربوة » وسر « إصابة الواابل » كما بينه العلم الحديث ؛ وجاء بيانه مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

# معروض لأراء المجتهد

## في الإسلام والمسلمين

المستشرق إميل ديميرجهام الفرنسى

يشهد بأن الاسلام دين عالمى عام

أوفدت جريدة ( لا بورص اجيبسيان ) مندوبا لها الى أشهر رجالات التفكير العالى في فرنسا لمعرفة آرائهم في موضوع ( فرنسا والاسلام ) ، ونشرت له في عدد ٢٧ مارس من هذه السنة كلاما للمستشرق الجليل إميل ديميرجهام تحت العنوان المتقدم صدرته بقولها :

« بعد أن نشر إميل ديميرجهام ( Emile Demergham ) بحثا على جوزيف دوميستر وتوما مور ، ومفكرى عهد النهضة الأوروبية ، رأى نفسه مأخوذا بروحانية الاسلام وخاصة بناحيته الباطنية ، فعنى منذ سنين بدراسة كل ما يختص بهذا الدين . فبعد أن نظر في كل ما صادفه من عادات المراكشين وتقاليدهم الدينية ، ترجم ( خرية ) عمر بن الفارض الصوفى سلطان العاشقين وشرحها للشيخ عبد الغنى النابلسى . وقد نشر كتابا أسماه ( حياة محمد ) ، وهو عمل نهائى في سيرة النبي ، أبان فيه عن ألمعية ، وتفوق في بعد النظر ، وعن مواهب في الاستشهاد بالتاريخ ، وخاصة عن الميل الى ديانة التوحيد التى نشأت في البلاد العربية ، ولم تغب عنه عظمتها وقوة انتشارها باعتبار أنه كاتوليكي وفرنسى الجنس .

« إن إميل ديميرجهام يشغل منذ زمان طويل في عمل كتاب على « حياة الاولياء المسلمين » سيملا نشره أهل المعرفة غبطة ، وسيعتبره القارئ الغربى البعيد عن هذه الأمور كسفا . هذه الدراسة ، كما يسره الاعتراف به ، قد سمحت له بالتروض على « الصبر » و « الفقر » و « التوكل » ، وهى الثلاث الفضائل الاسلامية المحض . ولا يوجد أمامنا أمثل من ديميرجهام ليشفى غلتنا فيما نحن بسبيله من الاستفتاء الذى شرعنا فيه . ذلك لأنه مع إكبابه على دراسة النصوص العربية ، تضلع في معرفة العقلية الاسلامية لأهل أفريقيا الشمالية . فإليك ماقاله لمندوبنا : « إن المسلمين باعتبار كونهم أمة وسطا بتسمية القرآن ، يلوح لى أنهم معدون جغرافيا وروحيا لأن يكونوا جماعة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وبين شعوب شمال البحر المتوسط وأفريقيا . فهذا الارتباط الذى لا بد منه دون شك لحفظ التوازن الروحى للعالم ، وهذا

الموضع من قلب الكوكب الأرضي من جاوة والهند الى المغرب ، يظهر أنه اختص هذه الكسنة المؤلفة من ثلاثمائة مليون من البشر أن يكونوا مركز الثقل للعالم القديم . ولهذا السبب نجدها محل عناية العناصر المختلفة — وقد صار ذلك أشد وضوحا اليوم — في أوروبا التي يمزق بعضها بعضا أمام نظرها الآن .

« للمؤرخ ظاهرة في هذا الموطن يفرض عليه تسجيلها ، وهي أن أساس التقليد التاريخي المشترك بين أوروبا والعالم الاسلامي هو الوحي الذي أنزله الله الى ابراهيم ومن جاءوا بعده ، ومنهم موسى وعيسى ؛ والثقافة اليونانية التي نقلها العرب الى الغرب مع رياضيتهم وفلاسفتهم : أفلاطون وأرسطو وبلوتان من مصر ؛ وفكرة القانون والنظام الشرعي الذي كان قائما في روما .

« فليس يدهشنا والحالة هذه أن الضمير الاسلامي يستنكر ، جريا على مبدئه وغرخته ، كل مذهب يدعو الى العنصرية والنيشية (١) والى الفلسفة المادية لتاريخ البشرية ، والى أية حكومة استبدادية ، ذهابا الى أن الله قدس الشخصية الانسانية والهيئة الاجتماعية معا . فالخضوع الاسلامي المرموز اليه بكلمة (عبد) لمولاه الحق ، يعتبر ضمانا لكرامة المسلم الذاتية . وعند المسلمين أن كل الكائنات المستمدة وجودها من واجب الوجود المطلق ، التي يطلق عليها عالم الشهادة وتكلم عنها الانبياء ، تتساوى كلها في قيمتها وفي تلاشيتها أمام رب العالمين ، ولكن ما أوتيته من الإلهام الإلهي لا ينسخ . وقد وجه الاسلام دعوته لجميع الشعوب دون اعتداد منه بالجنسيات والأصول . وجميع الذين اتبعوه يأتون من أربعة أفاق الأرض كل سنة محرمين بالحج . معتقدين أن الناس أجمعين سيلتقون يوم الحساب عارى الاجسام يتصببون عرقا ، ويطفحون كربا .

« إن الشعوب الاسلامية والشعوب المسيحية التي لم تصبأ الى الوثنية الحديثة ، تستوى في اكتوائها بتغلغل الظلمة والمتذهبين بالمأكياتيلية ، وبالخضوع لفتاحين متعشمرين ، فلا شيء يمنع أن يكون قد وفر في صميم ضمايرهم الايمان بالمكانة العامة للعلم ، والعدالة ، وقدسية الأمر الواقع » .

(مجلة الأزهر) : إنا مع شكرنا للأستاذ ديمرجهام المستشرق على حسن نظره في الاسلام ، ننكر عليه صرفه لدلول آية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عن مرماها الديني الى مرمى اجتماعي ، وخاصة في موطن كبير الدلالة على مهمة الاسلام ، وعلى ميزته على سائر الأديان . فقله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » ليس معناه : وكذلك جعلناكم أمة في بلاد تصلح لأن تكونوا فيها جماعة اتصال بين الشرق والغرب ، ولكن معناه : وكذلك

(١) النيشية : مذهب فريدريك نيتشه الفيلسوف الالماني . وقد أسسه على وجوب تربية القوة الحيوية والارادة بصرف النظر عن كل اعتبار روحي أو إنساني ، وهو يعتبر الرحمة والعطف ضعفا في النفس وخورا في الطبيعة .

جعلناكم أمة هي من عقائدها وأصولها وآدابها على الصراط السوى ، بعيدة عن الإفراط والتفريط ، لتكونوا شهودا على غيركم في غلوهم وتقصيرهم ، وخرجهم عن سواء السبيل في عقائدهم وتقاليدهم . وهذه أمانة أدبية لم تحمّلها أمة غير الأمة الإسلامية ، وإنحذرا من أن تتحول عن معناها بمثل ما ذكره الأستاذ ديمرجهام رأينا أن نعقب على قوله بهذه الملاحظة .

### الاسلام والعصر الراهن

للكاتبة المغربية ( سيدة سافيتري )

هذه السيدة المغربية تحييد الفرنسية الى درجة التأليف بها ؛ ألقت كتابا في الإسلام باسم ( الإسلام والعصر الراهن ) وصفه المسيو جاك نارجو في جريدة ( البتي بلو ) الباريسية بقوله : « إن هذا الكتاب سيسهل كثيرا على الأوروبيين معرفة الدين الاسلامي ، وإنه سيعدل آراء ضالة عنه ، ويكشف عن أصوله القيمة للانسانية المتجهة بمجموعها نحو مدنية فاضلة » . وقالت السيدة سيدة :

« نحن معشر النساء المسلمات لا نزال بعيدات عن الآراء الغربية وكلها في مصلحة الاسلام . أما اللاتي أخذن طريقهن في الترقى على الطراز الغربي فلا نظن أنهن سعيدات . فان المرأة التي تمنى أن تنحدر لترتع في الملاذ الدنيوية لم تفهم الغاية التي خلقت من أجلها ، ولا مثلها الأعلى وقيمتها بالنسبة لها .

« أما خلاصة ما أريد قوله ، فهو أن لدى المسامة التي تريد أن تعقل من عناصر إيمانها قاعدة صالحة لأن تقيم عليها حياة سعيدة . فهي ليست مضللة بعقيدة الخطيئة الأولى ، ولها أن تنجس الى الحياة بقلب نقي ، متتبعة مثلا أعلى لا غبار عليه ، وشاعرة بقيمتها الذاتية التي لا نزاع فيها » .

ولم تهمل السيدة سيدة أن تلم بمسألة تعدد الزوجات ، وهي المسألة التي اتخذها خصوم الاسلام تكة للنيل منه ، قالت :

« أما مسألة تعدد الزوجات فهي تشريع حكومة تعترف بالقوانين الطبيعية بغير نفاق ، ولا هرب من التبعات . فالاسلام لا يوجب تعدد الزوجات إيجاباً ، ولكنه يسمح به . والاسلام بقبوله تعدد الزوجات استطاع أن يحرم الزنا على الرجال والنساء » .

نقول : لقد أحسنت السيدة سيدة كل الاحسان بعملها الجليل الذي يقول عنه محرر البتي بلو إنه يزيل كثيرا من ضلالات الأوروبيين عن الاسلام ، فما أولاها بقول المتنبئ :

فلو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

## نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

ذكرنا في العدد السابق أن خلافاً نشب بين أبي حنيفة وصاحبيه في لزوم الوقف وعدمه ؛ وأن مذهب أبي حنيفة هو عدم لزومه ، بخلاف الصاحبين فإن مذهبهما لزوم الوقف وتأبيده . فنذكر اليوم بإيجاز أدلة كل من المذهبين ، ولكن يجدر بنا أن ننبه قبل ذلك الى أن أبا حنيفة لا ينكر ألبتة مبدأ الوقف ، فهو مبدأ متفق عليه ، بل على أنه قربة الى الله عند الجميع .  
فمن أدلة الصاحبين :

(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخير لم أصب ما لا قط أنفس عندي منه ، فما تأمرني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت حبست أصله وتصدقت بثمرته . فجعلها مهر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث . . . وقد أشهد عمر في زمن خلافته على كتاب وقفه نقرأ من المهاجرين والأنصار . قال جابر بن عبد الله : فما أعلم أحداً ذاميسرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حبس ماله صدقة مؤبدة لا تشتري ولا توهب ولا تورث .

خادثة عمر رضى الله عنه وما يتبعها من رصد موسرى الصحابة الأعيان وإطلاق غلتها على الفقراء ، آية على أن العين الموقوفة يمتنع التصرف فيها بالبيع ونحوه . وهذا هو معنى لزوم الوقف عند الصاحبين .

(٢) استمرار عمل الأمة الاسلامية من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حادثة عمر من الصحابة والتابعين ومن بعدهم خلفاً عن ساف ، وجبلاً بعد جبل ، على وقف الأموال وحبسها أبداً . فقد وقف أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير بن العوام وعائشة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، أموالاً على سبيل التأبيد ، واستمر العمل بعدم الى يومنا هذا من غير تكير . وهذا إجماع عملي على خلاف قول الإمام أبي حنيفة ، وهو حجة شرماً .

(٣) أن نية الواقف يوم أشهد على وقفه كانت قائمة على تأبيد ما وقف ، ليستديم بهذا التأبيد استمرار المثوبة من الله ما دامت منفعة وقفه جارية على أهلها حسب ما شرط في إشهد وقفه . فلو قدر الواقف في دخيلة نفسه عدم لزوم الوقف وانحلال الموقوف بعد موته ليقسم بين ورثته لما أشهد على كتاب وقفه .

هذا تلخيص ما اعتمد عليه الصاحبان في التدليل على ما ذهبوا اليه من لزوم الوقف .



أما الإمام الأعظم أبو حنيفة فقد استدل على عدم لزوم الوقف ، وجواز الرجوع فيه من الواقف ، أو التصرف فيه بالبيع والشراء والهبة ، بما يلي ملخصا :

(١) قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله سبحانه وتعالى » . ومعنى الحديث ألا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته . فاللزام عن هذا الحديث عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف . وإذاً يكون الوقف غير لازم .

(٢) ما روى عن شريح رضى الله عنه أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس . . وقد ذهب صاحب البدائع الى أن الأموال الموقوفة كان بيعها محظوراً في الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أباح بيعها ، وتلك الإباحة صريحة في جواز التصرف في الموقوف وعدم لزومه .

(٣) مما يستدل به لمذهب أبي حنيفة أيضاً ما حرره العلامة السكال بن الهمام ، وخلصته : أن حقوق العباد لم تنقطع عن الموقوف ، فلهم حق الانتفاع به زراعة إن كان مما يزرع ، أو سكنى إن كان مما يسكن ، مثلاً ؛ وبقاء الحقوق في الموقوف دليل بقاء الملكية فيه ، ولا ملك لغير الواقف من العباد اتفاقاً ، فلزم عن تلك المقدمات المسئلة أن يكون الملك للواقف . ويؤيد هذه القضية أن للواقف نصب النظار على وقفه وعزلهم ، وصرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وملك التصرفات مجتمعة أو منفردة أمانة على بقاء الملكية في يد الواقف وعدم زوالها عنه .

(٤) أنه يلزم على قول صاحبين أن يخرج الموقوف عن ملك الواقف الى غير ماله ، وهو خلاف المعهود ، على أنه غير معلوم من مبادئ الشريعة .

هذه هي أدلة الفريقين باختصار . ولا أدري كيف يقع بين الإمام وصاحبيه هذا الخلاف ، وكيف تترتب عليه آثاره في يومنا الراهن بعد أن نقل عن الامام رضى الله عنه أنه يستثنى من قاعدته الجارية على عدم لزوم الوقف حالة أخرى ، وهي أن يصدر بالوقف حكم حاكم . ومعنى ذلك أن حكم القاضي يرفع الخلاف بين الامام وصاحبيه ، فيصبح الوقف المقضى فيه بحكم القاضي وقفاً لازماً عند أبي حنيفة .

وبدهي أن عهدنا الراهن قامت فيه خصومات حول الحبوس كلها تقريباً ، فما من وقف إلا وقد عرضت أعيانه وغلاته على القضاء فيقضى فيه قضاءه ؛ وما من وقف إلا اتصل به علم القضاء فيقول فيه كلمته ، فأصبحت الأوقاف لازمة عند أبي حنيفة تطبيقاً لهذا الاستثناء ، ولقاعدة « كل حكم من القاضي يرفع الخلاف » ، فلا أدري بعد ذلك مدى للخلاف ، ولا أثرأ يترتب عليه ؟

### الفتح الرباني :

تم الجزء الثاني عشر من كتاب الفتح الرباني وهو جامع لمسند الامام احمد بن حنبل . قام بترتيبه وتبويبه فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ احمد عبد الرحمن البنا . وقد وضع عليه شرحا أسماه « بلوغ الأمانى » لا يترك حاجة فى نفس قارئه إلا وفاها . جاء عملا جليلا يشكر عليه الأستاذ . وفقه الله لاتمامه ونفع المسلمين به .  
عنوانه عطفة الرسام رقم ٥ بالغورية بالقاهرة .

### بين صديقين :

هذا عنوان كتاب وضعه حضرة الأستاذ الأديب الشيخ احمد جمعه الشرباصى الطالب بكلية اللغة ، موضوعه تحاور بينه وبين صديق له ، أهداه لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وقال فى إهدائه : « هذا كتاب تنبعت منه بوادر الثورة الاصلاحية التى سيقوم بها الشباب فى المجتمع عما قريب » . وكتابه يشمل عددا وفيرا من علمنا الاجتماعية ، وآراء جذيرة بالعباية لعلاجها . ولكن مما يعيبه ويضع من قيمته ، صراحته فيما يجب أن يكتب ، بل فيما الخير كله أن يكتب ، من الاعتراف بالانحرافات الخلقية ، والرعونات الشهوانية . وإنا لنأمل فى الغيرة الملتزمة للأستاذ أن يرأب هذا الصدع فى أسلوبه ليكون ما يحبب منه جميلا كله .

### ثورة الاسلام وبطل الانبياء : أبو القاسم محمد بن عبد الله

للاستاذ الأصولى الجليل محمد لطفي جمعه جولات علمية يقوم بها فى أثناء اشتغاله بالمحاماة يأتى فيها بالطريف الغض من الدراسات ، فاذا ألم بالقديم الذى روضته الأقلام ، جاء بأسلوب فيه يكشف منه نواحي جديدة تتطلبها النزعة العقلية فى العصر الراهن . عرفت للأستاذ هذه الموهبة الثمينة فصار لما يكتبه أثر بليغ فى توجيه الثقافة قل فى الكتاب والمؤلفين من يساويه فيها .

وقد أنحف المطبوعات العربية حديثنا بكتاب جليل القيمة أسماه ( ثورة الاسلام وبطل الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله ) موضوعه دراسة تفصيلية للبيئة العربية والنشأة المحمدية ، فجاءت من خير ما كتب على أسلوبه الذى أشرنا إليه ، طالج فيه موضوعات لم يعالجها مؤلف قبله ، وكشف عن نواح تعتبر ذات دلالات حاسمة فى تقدير نفسية النبي وسمو نشأته .

فنثنى على همة الأستاذ الجليل محمد لطفي جمعه ، ونرجوه أن يتابع هذه السلسلة القيمة حتى يأتى بجميع ما تشمله السيرة المحمدية من بحوث ، على أسلوبه هذا ، فهو من أفعال الأساليب فى تجلية الحقائق ، وفى بناء فكرة صحيحة ثابتة للقارئ .

# احتفال الجامع الأزهر بعيد المجلس

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يرأس الاحتفال  
ويلقى فيه خطابة يشيد فيها بذكر جلالة الملك

حفل الجامع الأزهر مساء الأحد ٥ مايو سنة ١٩٤٠ بألوف من العلماء وكبار رجال الدولة والطلبة احتفالاً بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول . فبدئ الاحتفال بقراءة آيات من القرآن الحكيم ؛ ولما فرغ القارئ ، نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى كلمة جمعت من شمائل جلالة الملك وماثره ، ما النفوس تتطلع الى سماعه ، والنيمن بتكراره ، ولا سيما إذا صدر من إمام الدين الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، موشاة بعباراته الشائقة ، وكلماته النابغة . وقد استطرذ فضيلته الى ذكر الأزهر ، وما أداه من الخدم العظيمة للعالم الاسلامي ، وما يفتنر أن يؤديه في مدى حياته الخالدة ، من نشر الثقافة الدينية ، والأصول الاسلامية ؛ فجاءت كلمة رائعة على غرار جميع كلمات فضيلته . وختمها بالدعاء لجلالة الملك ، فأمن على دعائه الحاضرون بقلوب عامرة بالإخلاص ، فأئضة بالولاء والإكبار .

وعقب فضيلته حضرة الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، فألقى كلمة بليغة في الموضوع نفسه ، قوبلت بالإعجاب والتقدير .  
والى القراء ما ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام :

أيها السادة :

اعتُبرت هذه الليلة السعيدة ، ليلة عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أطال الله حياته ، وأدام له العز والسعادة ، في ذاته الكريمة ، ونفسه ، وفي بلاده العزيزة المحبوبة . واسم الفاروق في هذه البلاد ، وفي غير هذه البلاد ، اسم محبوب ، يصاحبه دائماً الإجلال والتقدير والإعجاب ، ويقترن به الإخلاص والولاء . اقترن أول عهده المبارك بإكمال استقلال البلاد ، واضطلاع الأمة بتدبير شأنها ، وقيامها بأمرها ، بعد أن مرت عليها حقب طويلة تسعى اليه ، وتنازع من أجله .

جاء الفاروق وفي شباب الأمة نزعات الى الخير ، والى الدين ، والى العزة القومية ، ونزعات الى إصلاح شامل يتناول مرافق الحياة جميعها . والفاروق بطبعه الخير نزاع الى كل هذه الرغبات ، تتواق الى تحقيقها ، فعمل جاهداً لرفعة قدر البلاد ، وعمل جاهداً للإصلاح في جميع نواحيه .

عزة البلاد تملك على الفاروق نفسه ؛ فهو يصدر في جميع أعماله عن هذا المبدأ الراسخ في طبيعته ، ويضع خير البلاد ومجدها أمامه هدفاً أسمى ، يسعى إليه ، ويرى واجباً على كل مصرى أن يسعى للوصول إليه . وإذا قيل عزة البلاد ، فقد قيل كل شيء ؛ فهي كلمة تنطوي على مناحي الخير جميعها ؛ على إعداد الأمة إعداداً صالحاً قوياً ، جسمياً ، وعقلياً ، وخلقياً ، ودينياً ؛ وعلى إعدادها إعداداً صالحاً قوياً ، حربياً ، وزراعياً ، وتجارياً ، وصناعياً ؛ وعلى إعدادها لتسخير كنوزها وذخائرها ، وعلمها ومعرفتها ، في سبيل الواجب ، وفي سبيل إسعاد البلاد .

كذلك وضع الفاروق أمامه مبدأ وجوب اتصال الأمة بجميع الأمم ، اتصالاً أدبياً ، وثقافياً ، لتأخذ من الأمم أحسن ما عندها ، وتقدم إليها أحسن ما لديها . تبادل الثقافة والأدب ، كما تبادل السلع والعروض والفلات . وهو — أعزه الله — حريص أشد الحرص على وحدة الأمة الإسلامية ، وتعاونها ، وعلى إزالة الفوارق بينها ، وإزالة التعصب الطائفي والجنسي ، لتقابل كل طائفة أختها مقابلة الأخ لأخيه ، والنصير للنصير . والمسلمون أمة واحدة ، وتحددها القرآن ، ووحدتها القبلة ، فلا يجوز أن تفرقها الأغراض والشهوات ، واختلاف المذاهب والجنسيات .

منح الفاروق — أعزه الله — ملكة دقة الملاحظة ، وحب الاستطلاع والبحث ، وحب المعرفة الحقة ؛ فهو يسأل عن كل شيء ، ولا يقنعه إلا الجواب الصحيح . ورث هذا عن المغفور له والده العظيم ، الذي استجمع وسائل العلم وحب المعرفة ، وكان حريصاً دائماً على الاستزادة منها ؛ وكان يرى العلم شرفاً ، وغراً يجب أن يقارن عزة الملك وشرف الملك ؛ فليس عجباً أن يكون الفاروق في شرح الشباب جارياً على هذا المنهاج . ذلك إلى فطرة سليمة جبلت على حب الخير والبر ، وحب العلماء وإجلالهم ، وتوفير الخير والسعادة لهم . والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة ، وهي في غنى عن العدة والبيان .

أيها السادة :

لا شيء أنفع للأمم ، ولا أجلب للخير والسعادة ، من الحكمة ، وأداء الواجب ، على أن يكون أدائه عن عقيدة وإخلاص ، لا عن خوف من ذوى السلطان . والحكمة ، وهي المعرفة الحقة ، تستدعي تجريد النفوس عن الأغراض والشهوات ، وتستدعي دراسة المسائل دراسة صحيحة ، ودراسة الوسط الذي تنبت فيه . ووظيفة الحكم كما تستدعي دقة الفهم والتحرى ، تستدعي مع هذا وجود الحلول على وجه السرعة والحزم . والشعور بالواجب شعور بوجوب الأمانة والجِد ، وألا يؤخر عمل اليوم للغد ، وألا يُدخِر وسع وقوة في سبيل الأداء . وكل إصلاح لا يكون على هذا الأساس فهو زخرف باطل . ولا بد أن يكون حرص الأفراد والجماعات على أداء الواجب حرص المسلم التقي على الطاعة لله . ويجب ألا يخلط بين الجِد والهزل ، وأن يكون لكل منهما موطنه .

أيها الإخوان من العلماء ، والابناء من الطلبة :

إن معهدكم هذا اضطلع بحفظ الشريعة الاسلامية وقواعد الملة ، وبحفظ اللغة العربية وعلومها عشرة قرون كاملة ، درجت فأفنت أما ومعاهد ، وأحيت أما ومعاهد ، ومررت عليه أطوار من قوة وضعف ، شأنه شأن كل كائن حي . وهناك حقيقة لا ينكرها أحد ، وهى أنه أستاذ جميع المعاهد التى تشاركه فى معارفه ، وأستاذ كل خطيب وكاتب فى مصر ، بطريق مباشر أو غير مباشر . ولا ينكر فضله إلا رجل عاق يغلى الحسد فى صدره ، وتأكل صدره الضغينة والحقد . ومن العجيب أن أشد الناس عداوة له هم الذين لولاه لما استطاعوا التعليم فى معهد غيره ، ولولاه لكانوا من عامة الناس .

مرّت على الأزهر أطوار قوة وضعف ، لكنه فى طوره الحاضر نهض ينافح عن مجده ، ونهض يحيى معارف الأولين ، ويضم اليها معارف المحدثين ؛ وهو سائر فى طريقه ؛ لكن بعض التراث الذى لم يخلص منه حتى الآن يُظهره بمظهر البطىء فى الحركة الى الرقى . والمطلع على الحقيقة يعلم أن عناصر الحياة قوية ، ويعلم أن أهله جادّون .

إنى أرتحب بالنقد البرىء ؛ وأنصح لكم ألا يضيق به صدركم ؛ فإن كان حقاً فاشكروا الناقد واعملوا على الخلاص من الخصال التى كانت سبب النقد ؛ وإن كان غير حق فادفعوه بالحسن وأظهروا براءتكم مما وجه إليكم .

أما النقد الصادر عن حسكة فى الصدر ، وعن ضغينة ، فمروا به مر الكرام ، عملاً بقول الله سبحانه : « وإذا مرّوا باللغو مروا كراماً » . وليس فى مقدور أحد إطفاء نور الله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وأسأل الله جلّت قدرته أن يحفظ حضرة صاحب الجلالة فاروقا الأول ، مليكنا المحبوب ؛ وأن يجعله مسدد الخطى ، دائم التوفيق ؛ وأن يجعل هذه البلاد دار أمن وسعادة ، ملحوظة بعون الله ، مشمولة بتوقيفه ورضاه .



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

في احتفال الازهر بليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم

احتفل الجامع الازهر المعمور في مساء يوم السبت الثاني عشر من شهر ربيع الاول لسنة ١٣٥٩ باحياء ذكرى المولد النبوى الكريم ، فاحتشدت فيه ألوف كثيرة من أقطاب العلم ورجال الدولة وطلبة العلم ووجهاء الناس ، وبعد تلاوة ما تسنى من آيات الكتاب الحكيم ألقى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام خطبة طنانة جمعت بين الحكمة الدينية والبيان الباهر ، فكانت قبسة من نور الحق أفيضت عليه ، فأشعها على الحاضرين ، وحملتها موجات الاثير الى جميع أكناف الارض .

لا جرم أن فضيلة الاستاذ الامام قد جمع من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وعظم خصائصه في صحف معدودة ، وبعبارات هي غاية في السمو الكتابي ، ما ضاقت عنه المطولات ، فكان ذلك منه إعجازا في الإيجاز ، لا يعرف قدره إلا من عانى هذه المواقف . واختتم فضيلته الاحتفال بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك معز الاسلام ، ومؤيد الدين .

قال فضيلة الاستاذ الامام حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، به نستعين ، وعليه نتوكل ، ومنه نطلب التوفيق والسداد ، والهدى والرشاد .

رسول الله محمد بن عبد الله ! عليك صلوات الله وتحياته وسلامه وبركاته ، ما ذرّ شارق ولمع طارق . خصصت بصفات ميزك الله بها عن سائر ولد آدم ، في جسمك ، ونفسك ، وعقلك ، وعلمك ، وخلقتك ، ولسانك ، وبيانك ؛ وأكمل لك هذا بما لم يؤته أحداً من خلقه ؛ فأنت الشجرة المباركة الكاملة في دوحة الانسانية ، أخذت أكل ما في الدوحة من خصائص ثم آتت أحسن ما تؤتي شجرة مباركة من ظل وثمر .

أيها السادة :

كلما تعاقبت الأيام على الحوادث أبلتها ، لكن جسيمات الحوادث يزيد مرّة الأيام ذكرها ، ويعلى قدرها ، ويكشف عن جلالها وبهائها ، وقوتها وعظمتها . وحادث ميلاد النبي العربي الأسمى من أكبر الحوادث خطراً ، وأبعدها أثراً . غير وجه التاريخ ، وأفاض على الانسانية من الخير والبركة ، والعلم والعرفان ، ما لم يكن لها به عهد من قبل . ولكل نوع من الخليفة مثال

يُخَالُ إن لم يكن موجوداً ؛ وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك المثال الكامل من نوع الانسانية ، إذا نظرت إليه من جميع أقطاره ونواحيه ، بهرك وملاك إعجاباً ، وقهرك على التأمل والبحث .

وإذا كان سرّ الوجود لا يزال محجّباً ، والناس تجدد فلا تصل إليه ، ولا تدرك إلا بعض الخصائص ، وأمامهم إليها سفر طويل ، ومراحل لا نهاية لها : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ، « أشهدوا خلقهم » ، سئكتب شهادتهم » ، فكذلك سرّ العظمة المحمدية لا يزال محجّباً ، ولم يعرف الناس إلا بعض الخصائص ؛ ولا يزال سرّ العظمة مبرقعا بالجلال والجمال ، منيعاً بروعة الضوء وقوة النور ، لكن الآثار تهدي العارفين ، وتسوق أرباب البصائر الى العظة والاعتبار .

وإذا كان الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، قد اختار محمداً صلى الله عليه وسلم أميناً على وحيه ، مبلغاً أكمل دين وأتم نعمة ، وأقوم هدى وأقوى رشاد ، واختاره خاتم الأنبياء ، واصطفاه للانسانية بعد أن قطعت مراحل شاسعة في سبيل الكمال ، واصطفاه للعالم جميعه أحرره وأسوده ، فقد صنعه الله على عينه مثالا كاملا خصه بأكمل الصفات ، وأرفع الدرجات .

وماذا أصنع أنا أو غيري أمام هذه العظمة التي ترد الطرف كليلا ، سوى أن ألقت النظر الى بعض تلك الشائل للعظة والذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

كل ما صح في الروايات عن أوصافه الخلقية ، يدل على أنه منح أجل صفات الرجل وأكملها : بسط الله له في الجسم ، ومنحه من القوة ما أعدّه به لمصارعة الحوادث ، واحتمل الشدائد ، والصبر على المسكاره ، ليكون رجل جلال وجهاد ، إذا صارعه الباطل صرعه ، وإذا دعاه الحق نصره . وقدروا أنه صرع (ركانة) وكان أشد أهل وقته ، وصارع أبا ركانة في الجاهلية مرات وصرعه ، فهو شبيه في هذا بأخيه موسى عليه السلام حيث وكز شخصا فقضى عليه ، وقيل فيه : « إن خير من استأجرت القوى الامين » .

وإذا نظرتم الى حسن تديره ظواهر الخلق وبواطنهم ، وإلى سياسته العامة والخاصة ، وما أفاضه على الوسط حوله من علم وتهذيب ، وخلق وقوة وعزم وحسن معاشرة ، حتى خرج من هؤلاء الذين لم يدرسوا في مدرسة ، ولم يخرجهم جامعة ، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمر وخاله وأبي عبيدة وابن عباس وابن مسعود ، من خول العلماء ، وجلة الفقهاء ، وأبرع القواد ، ودهاقين السياسة ، وحماة الأخلاق ، وذوى البر والرحمة والشجاعة والنجدة - علمتم مقدار ما كان له من الأثر البالغ في تربية الرجال ، وتهذيب النفوس ، وتطهير الأخلاق .



ولقد كان مثلاً أعلى للابطال في الشجاعة، يؤيدها سلاح اليقين بالله. حضر المواقف كلها ثابتاً لا يبرح، مقبلاً لا يدبر، وقد فر من حوله السكامة والابطال مرات ولم تحفظ عنه فرة، حتى قال ابن عمر: « ما رأيت أشجع ولا أنجذ ولا أجود من رسول الله ».

وقال علي: « كنا إذا حمى البأس، واهمرت الحديق، اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه؛ ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو، وكان يومئذ أشد الناس بأساً ». ولقد فرغ أهل المدينة، وانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم النبي راجعاً قد سبقهم الى الصوت، واستبرأ الخبر، والسيف في عنقه، وهو يقول: « لن تراعوا ».

هذه القوة، وهاتيك الشجاعة، كانت لله، وفي سبيل الله، يصاحبها قلب رحيم، وصبر لا يفنى، وحلم لا ينفد. قال في أحدٍ لما كُتِرت رُبَاعِيته، وشُجَّ وجهه: « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون ». فقدم لهم العذر بالجهاالة، ودعا لهم بالهداية، ولم يشارك أخاه نوحاً في الداء على قومه، حيث قال: « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »، بل قال: « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً ». ومثله في هذه الرحمة مثل أخيه عيسى حيث قال: « إن تعدّبهم فانهم عبادك، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ».

كانت أخلاقه القوية الباهرة، يؤيدها الوحي الإلهي، والفناء في امتثال أوامر الله: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »، « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » - مادةً لهذا المزيج العجيب الذي يرضى إذا رضى الوحي والكتاب، ويغضب إذا سخط الوحي والكتاب، ويغضي عما فرط من أعدائه في حق شخصه، ويدعو لهم بالهداية، ويقول يوم فتح مكة: « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».

ولقد دلت أطواره جميعها، قبل النبوة وبعدها، على أنه كان شديد الرأي، قوى الفطنة، واسع الحكمة. انظر الى تصرفه في وضع الحجر عند اختلاف قريش على من يضعه منهم، حيث أمر بثوب وضع فيه الحجر وأمسك كل فريق منهم بطرف من أطرافه، حتى إذا دنا من موضعه أخذه بيده الطاهرة فوضعه موضعه، وبذلك أزال الضغينة، وحقن الدماء.

هذه الحكمة التي كانت قبل النبوة، زادت بها النبوة قوة وثباتاً، فلم تقارقه في تبليغ الوحي، ولا في الحروب، ولا في تأليف الناس، ولا في سياسة العامة والخاصة. وكتب السير مليئة بالأمثلة والشواهد التي يخطئها العد، وتقوق عن الحصر.

أسعده في هذا كله طيب العنصر، وشرف النسب، والحياء، والتواضع، والشكر، والزهد، والعفة، والجود، والمروءة، وبيان ساحر يملك على النفوس أمرها، ويقفها موقف المشدوه العاجز.

وسع الناس جميعهم خلقه ، فصار أبا رحيمًا ، وصاروا أبناء بررة ، كلهم عنده في الحق سواء ، لا يذكر أحدا بسوء ، وإن اقترف أحد سيئة قال : « ما بال أقوام يصنعون كذا » . لم يطو عن أحد شره . على أنه كان أعرف الناس بالناس ، وكان شديد الحذر . كان يقول : « أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » . يكرم كريم الأقوام ، ويتفقد أصحابه لا يغفل عنهم . لكل حالة عنده عتاد . يقرب الأخيار ، وأفضلهم عنده أهمهم نصيحة الله والرسول وللمؤمنين ، وأكرمهم عنده أحسنهم مواساة ومؤازرة . يلبس الشملة والكساء الخشن ، والبرد الغليظ . لا يبيت عنده دينار إلا دينارا أعدده لقضاء دين عليه .

ثابر على الصراط المستقيم ، وثابر على الدعوة إليه ؛ فنى في الحق ، ولم ير له وجوداً إلا بالحق ، فنعم ببلذته ، ونعم بجوار ربه حيا ، ونعم بجوار ربه ميتاً ، فسلام الله عليه يوم ولد ، وسلام الله عليه يوم مات ويوم بعث حيا .

ولقد فاز بكل مادما به ربه في دعائه المشهور ، المملوء جمالا وسجرا :

« اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعبي ، وتصلح بها فائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وتعصمني بها من كل سوء . اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » . ولقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وروى عنه أنه قال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل ديني ، واليقين قوتي » . فاقوا عند هذا ، وأطيلوا الوقوف ، وتأملوه وافقهوه ، فما الخير إلا في فهمه ، وإطالة الوقوف عنده .

لم تكن معجزته قارة من القوارع ، يراها أهل جيلها ومن حضرها منهم ثم تغيب فلا تعرف إلا بالأخبار والسماع ، فلا عصا موسى وتفجير ينبابيع من الأحجار ، ولا شفاء الأمراض المستعصية ، ولا الريح الصرصر والناقة ، ولا الطوفان ، لاشئ من ذلك باق أمام العقل والفهم ، تستمد منه الحكمة ، وتفجر منه ينبابيع البلاغة ، ويشفى أمراض المجتمع ، ويقيم العدل ، ويعرف الناس ما يليق أن يعرف من الغيب ، ويضئ الطريق أمام الإنسان فيضع لنفسه أحسن النظم وأكل القوانين .

لكن القرآن باق لا يبيد ولا ينقطع ، تجدد في كل حين آياته ، وينذكر الناس بعظاته ؛ وهو الحصن إذا اشتد الكرب ، والملاذ إذا عميت السبل ، وتشابهت الأمور ؛ وهو سفينة النجاة من هذا البحر المضطرب الذى تغشاه الظلمات .

على أساس العقل — كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم — كانت معجزته ؛ وعلى أساس العقل شرعت الشرائع وسنت القوانين ؛ وعلى أساس العقل واجه الاسلام الانسان ووضعه حيث هو ، حيوان ذو عقل ، أباح له الدنيا وزينتها ، ومكنه من الطيبات في حدود حددها ، ووفى غرائزه حقها بما يصلحها ، ثم رفع منزلته حتى جعله خليفة الله في الأرض ، وحبب إليه المعرفة ، وجعلها رأس المال ، وفتح أمامه الطريق واسعاً لإشباع شهوة العقل وفهمه في الحدود اللائقة به .

على أساس العقل قامت الدولة الاسلامية ، وقام العلماء الصالحون يفسرون الكتاب ، ويوضحون العقائد والشرائع ، فكانوا أئمة الهدى ، ومنار الرشد ، وساسة العدل ، وأساطين الحكمة ؛ وكانوا لله وفي سبيل الله ، لا لأنفسهم ، ولا لأئمة الجور والطغيان . ولما زحزح الناس الأساس ، ولم يعرفوا حرمة العقل في مصائر الأمور ، زحزح الله الخير عنهم ، وأبعدهم عن فقه الدين ، كما أبعدهم عن الدين : « أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا » .

على أساس العقل يجب أن يفهم الكتاب ، وتفهم السنة ، وتفسر الآيات ، وينظر الى مصالح البشر . ومن أهدر العقل فقد أضاع الأساس وباء بالخسران .

رأس ماله صلى الله عليه وسلم المعرفة ، فهي تصحح العقيدة في الغائب والشاهد ، وتفسر آية الكون ، وتستخر الطبيعة وتذللها للانسان ، وتجلب سعادة الدنيا والآخرة ، وترفعه على الانسانية ، وتلطف حدة الطبيعة وقوتها ، وتمزق الأم وترفع قدرها ؛ لكن على شريطة أن يصاحبها الدين ، وتشدها الأخلاق ، فإذا فارقت الدين والخلق ، نتجت شر النتائج ، وأمطرت سحبها الشر ، وقذفت صواعق الهلاك ، وكانت وبالاً على الانسانية . فما هذه الشرور الجائحة في العالم اليوم إلا نتيجة المعرفة بظواهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأنكروه فعاقبهم ، سلبهم بهجة الحياة ، من طمأنينة ، وأمن ، وسلام ، ورضا بالقدر ، وقناعة بما قدره الله .

اليقين هو القوة ، فما اعتزّت أمة إلا باليقين ؛ فهو الذي يدفع الى العمل ، ويسوق الى الأسباب .

اليقين يزيل الراسيات ، ويحول مجرى الأنهار . ينبت الأخلاق الفاضلة إن لم تكن ، ويقويه إن كانت . فهو إيمان بالله وبالحق ، وبأن الحياة الدنيا متاع الغرور ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الموت آت لا محالة ، إن كان مقدوراً لا تقي منه البروج المشيدة ، ولا الأطم المحصنة ؛ وأن الجنة أعدت للمعتقين المجاهدين في سبيل الله ، وفي سبيل الحق ، وفي سبيل الذود عن الوطن

والعرض ؛ وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة ، وأن العَدوة والروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ؛ وأن الشهداء في جوار الله ينعمون . وإيمان بأن الجبان الفارّ " حاقّ " لله وللوطن ، وغائث للأهل والعشيرة والذرية .

أيها السادة :

لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بالعقل ، والمعرفة واليقين ؛ فلم يذهب مجدها وعلمها وفقها إلا بإهدار هذه الأسس ، وبعدها عن فهم الكتاب وتعاليمه الرشيدة ، وعن هدى صاحب الرسالة ، صلوات الله عليه ؛ وقد فرقها الجبل ، وأذهب ريحها عدم استعمال العقل .

قد يكون ذلك الشر الذي تعانيه الأمم بسبب غضب الله وسخطه على عباده ، وبعدها عن الآديان وغلوها في الإلحاد ، قد يكون سببا في الآوبة والرجوع الى الله . يقول الله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . فهذه المحن والويلات قد توجه الناس الى الواحد المعبود ، يطلبون النجاة فلا يجدونها إلا عنده ، في وحيه وهديه ، وقد تنسيهم هذه الشهوات الجاحمة فيبحثون عن الشفاء . ومصائب الأمم لا تنسى سريعا ، وضرها لا ينكشف قريبا ، وآثاره تبقى ماثلة طويلا ، وفي هذه الحقبة تفكر في الدين وتعود اليه ، إن شاء الله .

أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بمولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأسأل الله لي ولكم عونا وتوفيقا ؛ وأسأله لي ولكم عيش السعداء ، وإيمان الاصفياء ؛ وأسأله للعالم عقلا يدنيه من الصواب ، ويشفيه من الجنون ، إنه اللطيف الرحيم .

وأسأله لبلاذنا العزيزة طمأنينة وسلاما ، وسعادة وهديا ، ولصاحب الجلالة العزيز المحبوب ملكنا المعظم ﴿ فاروق الاول ﴾ رعاية من الله وعزاً ، وأن يكون عونا على الحق ، ناصراً للدين .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركته

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

### الحرب في شرعة الاسلام

لما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها في الفصل المتقدم، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يُعقل أن تغمض قريش عينها، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين في البلاد العربية، عن قيام زعامة أخرى في بلد كثير يصبغ منافسا لأم القرى، وربما يزها سلطانا على العقول، وكر على قريش فأباد خضراءها، وسلبها حقها الموروث .

ولا يسع الاسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية « فاصفح عنهم وقل سلام »، أن يستمر في منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم، وعن الدين الذي أنزل للانسانية كافة، في عالم يضع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذي يشهره خصومهم في وجوههم، فأُنزل الله قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، والله عاقبة الامور . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، وقوم ابراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدین، وكذب موسى، فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير؟ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ! أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو أذان يسمعون بها، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . ويستعجلونك بالعذاب، ولن يخلف الله وعده، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة، ثم أخذتها وإلى المصير . قل يأيتها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »

هذا ولم يُغفل الاسلام حتى في هذا الموطن، موطن الدفاع عن النفس والدين، أن ينصح لاتباعه بعدم العدوان، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور .

وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لا ستنصاه ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لا ستدامة وجوده سليما قويا ، خالصة من الأمراض العضالة . والاسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتد بما أحدثته البيئات والتقسيم الجغرافية بينهم من الفروق في الألوان واللغات والأديان . لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة في مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف في سفك دماهم ، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مُثْلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوقا من السنين الى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمدونهم بالطعام والشراب ، ويعينونهم على حمل عتادهم ، وخدمة دوابهم ، وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الاجهاز على جراحهم ، وعدم تعقب مهزومهم للفتك بهم من خلفهم . فقال الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمكم شنان قوم ( أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم ) ، أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » وقال : « ولا يجرمكم شنان قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

بهذه القيود الرحيمة ، وفى هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة . ولما كان القرشيون قد صارحوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحرب ، ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصه الى المدينة لما تركوه وشأنه ، فقد اعتبرهم في حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هنا لا بد لنا من نفى شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الاسلام ضده ، إذ قالوا : إن الاسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا الى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الاولى ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهي أنزل ليكون رحمة للعالمين .

لا جرم أن الذين يُدْلون بهذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضي ومن عوامل الاجتماع الانساني ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يعرف ليحىء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولكن فيما

بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا . وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الانسان على هذا التدافع كل ترق طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئاً من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعواه ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والانسان أيضا . وقد أشار الله الى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالانسان : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » . وإنما تفسد الأرض بتغلب الأشرار ، وتقاسم الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى ضرورهم ، فانهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الكتاب الكريم بهذا فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وسبلات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصالح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، الى أن حمى من أعدائهم السيف على يد الامبراطور قسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أحمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية ديناً لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسيحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوروبا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ما حدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أو لم تر أيضا كيف تصدى الجاهليون لمحمد صلى الله عليه وسلم فنعموه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ما حدث منهم بعد أن هاجر الى المدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟

أفريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ، ودك صروح العدل ؟

يقول المعارضون : وماذا أعددت من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟ نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .



هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهي أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التي لا بد منها مادام الإنسان في عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمي يُتفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريد لها لذاتها لما نوه بهذا الحكم . ولو كان ذكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكرر على هذا القول بالدحض ، ولخص أهله على عدم الإصغاء اليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الاسلام قد أشاد من ذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعي قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الاسلام يتبادلها المسلمون في اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن في آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنة التي وُعد بها المؤمنون بدار السلام ، وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجاء البلاد الاسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التي تجعل شعارها الحرب في الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحاً أن الاسلام إنما سمح بالحرب لايجاد السلام ، لا لتأييد مبدأ التنافر بين الأنام ، فقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هي في مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لا هم لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الاسلام باقرار مذهب التنافر أن يعتبر بما سبقت اليه الأمم الديموقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا في سبيل تحطيم مبدأ التنافر لا في سبيل شيء آخر . فاذا كانت هذه الأمم التي وصلت من المدنية الى درجة رفيعة ، تضطر الى الدخول في مثل هذه الحرب الماحقة ، في القرن العشرين ، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ في الجماعات التي في دور التكوّن لتحمي وجودها ، في عالم كان كل ما فيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ما حُمِلته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالانسانية من الظلمات الى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الاسلام بالحرب ، كضرورة لا محيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ما حُمِله الاسلام من عوامل إنهاء الأم ، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه ترزح تحت كسف من الضلالات ، وتنوء تحت آصار من الاوهام ، الى عهد حرية التمثل والنظر ، والبحث والتدليل ، والمسئولية الشخصية ، وهي الثلاثة الأركان التي ابنتى عليها صرح التطور الأخير للانسانية المتجهة الى كمالها المنشود .



# التفسير

## سورة الاعراف

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### تقديم لسورة الاعراف

«الْمَعْصُومُ . كَتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْعُومِنِينَ» :

هذه سورة الاعراف ؛ والاعراف هى المواضع العالية الممتازة ، تُخصَّص لاهل الشرف والامتياز . وسميت هذه السورة بسورة الاعراف ، لما جاء فيها من حديث عن أشرف أهل القيامة الذين يجعلهم الله إذ ذاك فى مكانة الإشراف على الخلق : على المؤمنين وهم يستقبلون ما وعدوا من نعيم خالد ، وعلى الكافرين وهم يستقبلون ما أنذروا من عذاب مقيم . اقرأ قوله تعالى : « وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاً بيسمائهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » ، وقوله تعالى : « ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

وقد نزلت هذه السورة فى العهد الأول للدعوة المحمدية ، يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الأساسى لصرح الاسلام ، ويدعو الى توحيد الله ، بالتبشير والإنذار ، والتذكير بالمثلات التى خلت من قبل ؛ فلم يكن عهد نزولها عهد تشريع ، أو تفصيل الأحكام ، إذ لم يكن هناك أمة أو جماعة تنضوى تحت لواء واحد فتحتاج الى تشريع أو تفصيل لأحكام ؛ وإنما كان هناك صوت عال بالحق ، جرى فيه أمره الله ، یرن فى أجواء مكة وما حولها ، ويدوى فى آذان قوم ما كفين على أصنام لهم ، ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله قانتين ، ويتوجهون إليها مخلصين . كان هناك ذلك الصوت العالى الجرىء يدعو الى توحيد الله ، وإلى التحرر من ربة الأوهام ، وإلى السمو بالكرامة الانسانية والعقل البشرى عن وهدة الشرك التى ارتكس فيها الانسان ، فعبد الحجر ، وعبد الشمس والقمر .

هذا ما كان في ذلك العهد الذى نزلت فيه سورة الأعراف . وهى أطول سورة نزلت فى ذلك العهد ؛ وأكثر ما نزل قبلها من سور الجزأين الأخيرين .

وهى تسكاد تكون مقررة لجميع ما ذكر فى السور التى نزلت قبلها ، ولهذا لا تجد فيها نداء للمؤمنين ، ولا خطاباً لهم ، ولا لأهل الكتاب ؛ وإنما تجدها تخاطب الانسانية فى أوسع حدودها ، وبأعم أسمائها :

« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُؤارى سوءاتكم ، وريشاً ؛ ولباسُ التقوى ذلك خير . »

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ؛ »

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ؛ »

« يا بنى آدم إنما يأتينكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

الخطاب فى ذلك كله لأبناء آدم ، للناس جميعاً ، لا للعرب ولا للمسلمين ؛ حتى وهى تتحدث عن الشرك وتصف الشركاء لا تريد خصوص شرك العرب ، ولا خصوص شركائهم ، وإنما تريد الشرك فى أقدم عهوده ، يوم طغى الوهم على الناس فأنساهم خلقهم وكفروا بخالقهم ، يوم خلق الله البشر من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاهما حملت حملاً خفيفاً فررت به ، فلما أنقَلَت دَعَوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهاما صالحاً جعلاه شركاء فيما آتاها ، فتعالى الله عما يشركون . »

وكذلك لا تجد فيها أحكاماً ولا نظماً ، ولا تفصيلاً لعبادة من العبادات ، وإنما تجدها تتحدث عن المبادئ العامة ، والأخلاق الفاضلة ، تدعو إليها الناس جميعاً ، لا فرق بين جنس وجنس ، ولا دين ودين ؛ تتحدث عن المبادئ التى لو آمن الناس بها ونزلوا على حكمها لساد العالم السلم ، وشملت الطمأنينة . اقرأ : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، « وكُلُوا واشربوا ولا تسرفوا ، « قل من حَرَّمَ زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، « قل إنما حَرَّمَ رَبِّىَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحَق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، « ولِكُلِّ أمة أجل ، « لا نكلف نفساً إلا وسعها ، « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خَبِثَ لا يخرج إلا نكيداً ، « أو لم يهد للذين يروثن الأرض

من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، « سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » ، « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ لَعْنًا بَئِيسًا بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » ، « خَذَ الْعَقُوبُ وَأَمَرَ بِالْعَرْفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

وسورة الاعراف بعد ذلك تقص علينا قصة الانسانية من يوم نشأتها ، فتذكر خلق الانسان وتصويره ، وتمكينه في الأرض ، وما أخذ الله عليه من عهد فطرى ، بمنحه العقل ، وتوضيح الدلائل : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى » .

وتذكر آدم وزوجه ، وتأثرهما بقوة الشر ، ووسوسة الشيطان لهما حتى أخرجتهما مما كانا فيه ، وتضع العلاج الذى يبقى الانسان شر التأثير بالهوى والشيطان : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

والسورة أيضا تتلو علينا كتاب الدين العام ، دين الله الحق في فصوله المتعاقبة من عهد آدم ونوح ؛ وتذكر في ثنايا ذلك ما نزل بالآم التى عنت عن أمر ربها ، وكذبت رسلها ، وأن منهم من أهلكوا بالصيحة ، ومنهم من أخذتهم الرجفة ، ومنهم من أغرقهم الله ، ومنهم من ابتلاهم بأنواع من العذاب : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ » . ثم هى تقف على ذلك بأخر فصل من فصول هذا الكتاب الإلهى الخالد ، فصل النبوة المحمدية : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ، الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبَى الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » . هذا تعريف مختصر بسورة الاعراف .

### أوائل السور

قال الله تعالى : « الْأَمْصَر » :

هذه حروف مركبة تكون في رسمها شكل الكلمة ، ولكنها لا تقرأ قراءة الكلمات ، وإنما تقرأ ساكنة هكذا : ألف ، لام ، ميم ، صاد . وقد ابتدأ الله بهذه الحروف وأماها تسعا وعشرين سورة من كتابه العزيز ، كلها مكية إلا قليلا نزل بالمدينة أول عهد المسلمين بالهجرة إليها .

واللغة العربية لا تعرف لهذه الفواتح معنى غير التى تتركب منها الكلمات . ولم يرد تفسير أثرى صحيح يبين المعنى المراد منها ، كما ورد في مثل الصلاة والزكاة وسائر الكلمات التى أثبتت

الشرعية لها معنى جديدا . ولهذا وذاك ظلت تلك الفوائح منذ أن تناول الناس التفسير والتأويل موطن أقوال وتأويلات .

غير أن لهذه الحروف في جميع مواضعها خاصة لا تنكاد تفارقها ، وهي أنها يعقبها غالبا ذكر الكتاب ، والتنويه بشأنه ، وتوجيه الأنظار إليه . والكتاب هو الدين كله ، وهو الدعوة كلها ، وهو الفرقان القائم يغذى الحق ويغزو الباطل في جميع العصور والأجيال :

«السمّ» ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمعتقين ، «السمّ» ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق ، «السرّ» تلك آيات الكتاب المبين ، «السرّ» تلك آيات الكتاب ؛ والذي أنزل إليك من ربك الحق ، «السرّ» كتاب أنزلناه إليك لنخرج الناس من الظلمات الى النور ، «طسّم» تلك آيات الكتاب المبين ، «طسّ» تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين ، «طسّم» تلك آيات الكتاب المبين . تنالو عليكم من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، «ص» ، والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، «حسم» تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، «حسم» تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، «حمعسق» كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ، «ق» ، والقرآن المجيد .

وبهذه الخاصة نستطيع فقط توجيه الحكمة في افتتاح هذه السور بتلك الحروف على وجه لا يعرفه القوم في لغتهم ولا كلامهم .

إن حياة الرسول كانت في ذلك العهد الذى نزلت فيه تلك السور حياة كفاح وجلاد ، وخصومة ولدت : يبلغهم رسالة ربهم فيعرضون عنه ويتهمونه بالكذب ؛ يتلو عليهم من كتابه فيقولون : هذا سحر ، ويقولون : إنما يعلمه بشر ؛ ولكنهم مع هذا يرون للقرآن سلطانا على نفوسهم ، وتأثيرا في عقولهم ، فهم إذا سمعوه أخذتهم روعته ، وملكتهم قوته ، وبهرتهم بلاغته ، فإذا يصنعون ؟

يوصى بعضهم بعضا أن يصموا آذانهم ويغلقوا قلوبهم : « وقالوا قلوبنا غُلفٌ » ، « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » .

يوصى بعضهم بعضا أن يتصامحوا في مجلسه ، وينطقوا بالغو في أثناء قراءته ، على نحو ما تفعل السوق من التهويش والتشويش : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

هكذا كان موقفهم من القرآن ؛ فابتدأ الله بعض السور التى نزلت في ذلك العهد بهذه الحروف التى لا يألها القوم ، قرأوا لآسماعهم ، وتوجيهها لأنظارهم ، وقسراً لهم على استماع

القرآن ، واستخداما للفرصة الانسانية المولعة باستكشاف الغريب واستطلاع العجيب . ذلك بأنهم إذا سمعوا قارئاً يتلو « المص » « حمصسق » ، عجبوا لما سمعوا ، وأنصتوا بعد ما أعرضوا ، فیدخل القرآن بذلك آذانهم ، ويخدش عقولهم ، ويصل بدعوته الى نفوسهم ، وكان ذلك طريقا الى انتفاعهم بالقرآن ، وحملهم على الدخول في هداية الرحمن .

وبعد : فهذا كتاب الكون لم يزل كثير من أسرارہ محجبا لا تدركه العقول ، ولا تهتدى إليه الأفكار ، على شغف الانسان باستطلاع خباياه ، وجده في معرفة خفاياه ، واستكشاف غرائبه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وكذلك كتاب الله الممكنون ، فنه آيات محكمات من أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، استأثر الله بعلمها ، وقضت حكمته بحجبها ، ابتلاء واختبارا ؛ « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ؛ وما يذكر إلا أولو الأبواب » .

قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذَكَرَى الْمُؤْمِنِينَ » :

جاءت هذه الآية بعد « المص » على الخط الذي أشرنا اليه ، تنويعا بشأن الكتاب ، وتفخيماً لقدره ، وتقريراً لآياله على مجد صلوات الله عليه ، لغاية سامية : هي هداية البشر ، وإخراجهم به من الظلمات الى النور : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » . وخرج الصدر : ضيقه . وينشأ من فوات مرغوب أو ترقب فواته ، ومن حصول مكروه أو توقع حصوله . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقدر مشقة الرسالة من جهات : من جهة الوحي الذي ينزل عليه : « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » ، ومن جهة إيمان قومه به ، ومقدار حرصه على ذلك ؛ ومن جهة تكذيبهم إيائه ، وما يلاقى من إغنيات ومشقة . كل هذه الجهات كانت مبعث حرج وضيق ؛ وكان شأن الله معه — وقد تولى أمره ، وكفل له العصمة من الناس ، والإقدار على تبليغ الرسالة — أن يخفف عنه آلام ذلك الموقف ، ويتعهد الفينة بعد الفينة بالنصح والإرشاد والتسلي ، وحمل ما يلقي في سبيله : « لا تحزك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » ، « فلعلمك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون » .

ومن هذا القبيل قوله جلت حكمته : « فلا يكن في صدرك حرج منه » ، أي إذا كان

الواقع الذى تعلمه من قرارة نفسك أن هذا الكتاب منزل عليك من الله، فكن عند ثقتك بنفسك، ولا تدع لتكذيبهم أثرا فى قلبك، ولا لعدم إيمانهم سلطانا على نفسك، ولا لتقل الوحى اضطرابا فى قواك، فالله قد تولاك، وبفضله رباك، «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك». فلا يضق صدرك عن تحمل أعباء الرسالة، وعليك بالصبر وقوة الاحتمال لتقوم بوظيفتك التى اصطفاك لها الله.

«لِتَنْذِرْ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ» :

الإنذار : التبليغ مع التخويف . والذكرى : التبليغ مع توجيه النفس الى ما تعلم من جهات العظة والاعتبار . وقد ذكر الله فى هذه الآية الإنذار عاما ، وخص الذكرى بالمؤمنين ، وتلك سنة القرآن وطريقته غالبا فى الإنذار والذكرى : «لتنذر أم القرى ومن حولها» ، «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» ، «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» ، «فإن الذكرى تنفع المؤمنين» . ولعل ذلك يرجع الى أن الإنذار كما قلنا تبليغ مقرون بالتخويف ؛ والتخويف زجر وتأديب . وهذا يناسب السكافة بما فيهم من الاستعدادات المختلفة والطباع النادرة . أما الذكرى فاحتكام الى النفس المهذبة والشعور الحى ، والرجوع بهما الى ما فى الكون من عظات وعبر . فهى نوع من السمو جدير بالمؤمنين الذين صفت نفوسهم ، واستعدت أرواحهم لما يتلقونه من وحى وتعليم : «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» .

محمود سلوت

(يتبع)

## القلوب الكبيرة

كان كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى ممن هجا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأهدر دمه . فلما بلغه ذلك خشى عاقبة أمره بعد فتح مكة ، ونصحه بعض أصحابه بأن يستسلم لرسول الله فإنه لا يحمل ضغنا لاحد ، قائلا : إن هذا أنجى من كل وسيلة . فقصده اليه فى المسجد واندفع ينشده لاميته المشهورة حتى بلغ الى قوله :

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عن رسول الله مأمول

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برده عليه .

# السنة

## سماحة الدين الاسلامي

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأيسروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » .  
رواه البخاري في كتاب الايمان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالاً . (٢) بيان سماحة الدين الاسلامي .  
(٣) بيان ما يترتب على مخالفة هذا الدين من المضار الدنيوية والاخرية .

(١) يتضمن هذا الحديث نهياً عن التشدد في الدين تشدداً يوجب السامة والملل ، أو العجز عن أداء الواجبات ؛ وحثاً على القصد والتوسط في أداء التكاليف الشرعية بدون إفراط أو تفريط .

ومعنى التشدد في الدين : التعمق في تطبيق قواعده الحكيمة السمحة ، والإفراط في الأعمال والأقوال الدينية إفراطاً ضاراً . وذلك شر وبيل تجب مجافاته والفرار منه . فواجب على المؤمنين العاملين أن يزونا قدرتهم على الاستمرار في أعمال الخير والبر بميزان الدين الصادق ، فلا يرهقوا أنفسهم في عمل من الأعمال الدينية بدون حساب للقدرة على الاستمرار في أدائه بدون انقطاع ، سواء كان ذلك العمل صلاة ، أو صياماً ، أو صدقة ، أو جهاداً ، أو غير ذلك من الأعمال التي لا بد منها لإصلاح الأفراد والجماعات .

ولعل قائلًا يقول : إن هذا الحديث وأمثاله إنما يناسب حال المؤمنين الأولين الذين كانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، ويعبدون الله تعالى آتاء الليل وأطراف النهار بدون تؤدة أو هوادة ، فاحتاجوا الى تنبيه بأن دينهم يأمر بالرفق والتوسط في كل الأمور ؛ أما الآن فنحن في زمن قد هجر فيه كثير من الناس قواعد دينهم الأساسية ، وأخلاقه الفاضلة ، التي سعد بالاستمساك بها من كان قبلهم من المؤمنين حقاً ؛ فما لهؤلاء وما للعظة التي تأمر بالنوسط في أعمال البر وتنهى عن المبالغة فيها خوفاً من السامة والملل أو العجز عن الاستمرار في أدائها . فترى الآن كثيراً من الناس يجاهرون بالفسوق والعصيان ، والإمعان في الشهوات الفاسدة الضارة

بالأنفس والأموال ، على عكس أسلافهم من المؤمنين الذين كانوا يرهقون أنفسهم في سبيل الله ومن أجل الله . ومن أهل زماننا من بلغت به القحمة وحبه للشهوات الفاسدة والذات المحرمة مبلغا جعله يباهى بالردائل الخلقية ، ويعتبر الفضيلة جودا وانحطاطا . ومنهم من قادته زخارف المدنية الكاذبة الى التقليد الأعمى في المفاسد والموبقات ، ومحاربة الله ورسوله ، مع أنهم كانوا أحق بأن يقلدوا في التمسك بأسباب القوة والمنعة ، ووسائل الشرف والكرامة . فكان من نتيجة كل هذا أن مكن الله منهم أعداءهم ، وأذاقهم هوان الشهوات الفاسدة ، وكانت عاقبة أمرهم خسرا . فهاهؤلاء والموعظة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الأولين الأطهار ، الذين كانوا يبالغون في طاعة الله ورسوله ؟ !

والجواب : أن هذا الكلام حق لا ريب فيه ، وأن الفساد الذي طرأ على الأخلاق أصبح داء عضالا ، ولكن النظر في هذا الحديث وأمثاله فيه عظات وعبر لأولئك الذين هجروا العمل بقواعد دينهم الحكيمة . فلعن هؤلاء يخجلون من أنفسهم ومن حساباتهم في عداد المسلمين المؤمنين حقا ، إذا علموا أن أسلافهم الأولين كانوا يجهدون أنفسهم في أعمال البر ، ويبالغون في طاعة ربهم مبالغة قد تضر بأنفسهم وأموالهم وأهلهم ، فاحتاجوا الى نهى عن الزيادة الضارة التي قد تكون سببا في العجز عن العمل عاجلا أو آجلا . لعن هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله بالانقياد الى شهواتهم تؤثر فيهم أخلاق أسلافهم الفاضلة ، ويكفون عن الموبقات الضارة بأبدانهم وأموالهم ، ويسرون في أعمالهم وأقوالهم سيرة مرضية ، فيظفرون ببعض ما ظفر به أسلافهم من عز ومنعة ، وشرف وكرامة . لعن هؤلاء تؤثر فيهم الموعظة الحسنة ، ويدركون أن القدوة الصالحة تتقدم وتنقذهم من فوضى الشهوات الضارة ، وذل المعاصي الخزي ، فيكفون عن الموبقات ، ويعملون الصالحات التي تسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

ومع هذا فإنه يوجد في زماننا هذا كثير من الجهلة يرهقون أنفسهم بالقيام بالأعمال المندوبة ، من أذكاء ، وأوراد ، ونحو ذلك ، فتشغلهم عن أداء الفرائض التي لا بد منها لصلاحهم وصلاح المجتمع . ومنهم من يستمسك بعادات فاسدة ، فيرهق نفسه في سبيل إحيائها باسم الدين ، ويترك ما هو واجب عليه اكتفاء بها . فترى بعض الجهلة يتهاكفون على الاتفاق في إحياء الموالد المبتدعة التي نهى عنها الدين ، ظنا منه أنها من القرب التي يتقرب بها الى الله ، ويترك زكاة أمواله وصلة أرحامه ، وإغاثة الملهوف ، والاتفاق في سبيل الله ، اكتفاء بما قام به من الاتفاق في إحياء ليالي المولد وذبح الذبائح . ومن هؤلاء من يرهق نفسه ويستدين لإحياء تلك البدع الضارة أو لإحياء ليلة يرضى بها شيخ طريقة ، فيستدين للاتفاق على ما يعتقد عبادته من أذكاء محرفة ، وتمايل معيب وسط أغان محظورة . كل ذلك ونحوه مما يظنه بعض الناس عبادة تعنيهم عما كلفهم الله به من مهام الأعمال الخيرية ، لا يقره الله



ورسوله ، وإنما هم في الواقع يشقّون على أنفسهم بعمل ما يشقّون به عند الله عز وجل ؛ ولم يكلفهم الله إلا بعمل نافع لهم في آخرتهم ودنياهم . وهناك فريق آخر يتشدد فيما لا فائدة فيه ، أو فيما عفا الشارع عنه ، كمن يضره الوضوء أو الغسل فيغتسل ، مع أن الشارع شرع له التيمم في هذه الحالة ، أو يضره الصيام فيصوم ، مع أن الشارع نهاه عن الصيام في هذه الحالة ، وشرع له الصيام في أيام آخر .

أما قوله : « فسدّدوا » فمعناه : الزموا السداد ، وهو التوسط في الأعمال من غير إفراط ولا تقيّط . وقوله : « وقاربوا » معناه : إذا لم تستطيعوا فعل ما أمرتم به فاقبلوا ما يقرب منه مما هو في طاقتكم . وقوله : « وأبشروا » أبشروا بنواب أعمالكم ، لأن الله سبحانه لا يضيع أجر العاملين ، وقد وعدهم أن يجزيهم على ما يستطيعون من العمل أحسن الجزاء ، ولن يخلف الله وعده .

أما قوله : « واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » فمعناه أنه يجدر بالعاملين أن يتوخوا في القيام بأعمالهم أوقات النشاط ، كما يتوخى المسافر أوقات النشاط ، فيسير في الغدوة بفتح الغين ( وهي السير أول النهار ) . والروحة بفتح الراء المشددة ( وهي السير بعد الزوال ) . والدلجة بضم الدال وفتحها وإسكان اللام ( سير آخر الليل ) . وهذه الأوقات هي الأوقات المناسبة للمسافرين الذين يقطعون البوادي على راحلهم . فالعاملون ينبغي لهم أن يسلكوا سبيل المسافرين في اختيار أوقات النشاط التي لا يملون فيها . والغرض من هذا أن يقول لهم : لا يلزم أن تصرفوا كل أوقاتكم في الأعمال فتدرككم السآمة ويلحقكم الملل ، فتعجزوا عن مواصلة العمل ، كما لو واصل المسافر سيره فإنه ينقطع ويعمل .

وقد وردت أحاديث كثيرة في الدلالة على هذا المعنى ، منها ما رواه مسلم : « كان أحب الأعمال الى الله أدومها وإن قل » . وروى البخاري ما معناه أن بعض المسلمين نزل ضيفا على صديق له فرأى امرأته رثة ، فسألها عن سبب ذلك ، فقالت له : إن أخاك منصرف الى عبادة الله ، فلما جن الليل ونما قام صاحب المنزل للصلاة فنعه الضيف ، ولم يزل به حتى قرب الفجر فقاما معا للعبادة ، ثم بعد ذلك نهاه عن مواصلة العبادة وقال له : إن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا . فينبغي مراعاة هذه الحقوق كلها مع عبادة الله . وهذه هي قواعد الاسلام الذي جاء باليسر في كل شأن من شئونه .

( ٢ ) لم تكن سماحة الدين الاسلامي وسهولته مقصورة على رفع الحرج والمشقة في العبادات والمعاملات المتعلقة بأهل هذا الدين خصب ، بل سماحة الدين الاسلامي تتجلى في معاملة أعدائه وخصومه بصورة لا مثيل لها في الأديان الأخرى ، حتى مع المشركين الذين كانوا يحاربون الله ورسوله بكل ما يستطيعون من قوة وبأس ، فإنه قد اتسع صدره لهم في إبان قوته ، مع شدة خصومتهم ، ومحاولتهم القضاء عليه بكل ما يستطيعون .

عامل الدين الاسلامي الكتائبيين الذين جنحوا للسلم ورضوا بأن يدفعوا ما فرضه عليهم من ضرائب هينة، معاملة أهله من المؤمنين في كل شيء، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات المتعلقة بأمر الحياة، وأباح لهم التمتع بعقائدهم وعبادتهم التي لا يقرها، بدون حرج، وكان يقتص للضعيف منهم كما يقتص للضعيف من المؤمنين بدون فرق. وكان صلى الله عليه وسلم يضرب للمسلمين الأمثال على هذه السماحة بنفسه، فكان يعامل يهود المدينة، ويشتري منهم ما يحتاج اليه من السلع الموجود مثلاًها عند المسلمين، الى حد أنه رهن درعه عند أحدهم، مع سلطانه الواسع على جميع نفوس مواطنيه يومئذ ليكون هو بنفسه مثلاً لجميع المسلمين.

وليس أدل على شعور المسلمين نحو أهل الكتاب من قوله تعالى: «الآن غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيفغلبون، في بضع سنين». وذلك أن الفرس حاربوا الرومان في ذلك العهد في أطراف الشام، وهي أدنى أرض العرب، فانهزمت الروم وهم مسيحيون، وغلبت فارس وهي يومئذ وثنية تعبد النار. فخرن المسلمون لذلك، وفرح المشركون وقالوا: إن هزيمة الروم الكتائبيين وظهور الوثنيين عليهم فال حسن للوثنيين. فترلت هذه الآية الدالة على أن الروم ستظفر بالفرس. وقد تحقق ما أخبر به القرآن وغلبت الروم الفرس بعد ذلك في المدة التي ذكرها الله في هذه الآية.

فهذا مثل واضح يدل على ما كان في نفوس المسلمين من المودة لأهل الكتاب الذين لم يناصبهم العداء، ورضوا بأن يخضعوا للنظم الاسلامية.

ولم تقتصر معاملة المسلمين لأهل الكتاب على ما ذكرنا، بل نص القرآن الكريم على أكثر من ذلك، فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب الذي لا يختلف مع نصوصه القاطعة، كما أباح أن يتزوج الرجل من نسائهم. وإنما لم يباح للمرأة أن تتزوج كتابياً، حرصاً على الولد، لأن الشريعة الاسلامية جعلت للرجل سلطة التربية، فلو أباح للمسلمة أن تتزوج كتابياً لترتب على ذلك أن يكون الولد غير مسلم. وبديهي أن الاسلام لا يسمح باخراج أحد منه، مع أن قواعده تقتضى المحافظة عليه وعلى كل ما يزيد فيه. فلم يكن تحريم المرأة المسلمة على الكتابي لنقص ومهانة، وإنما كان لسبب عمراى لا بد له منه.

أما المشركون فإن الاسلام كغيره من الأديان الأخرى كان شديداً عليهم، فلم يقبل منهم جزية، لأنهم كانوا يعبدون غير الله، وكانوا لا ينفكون عن محاربة ما يقتضيه العقل من عبادة إله واحد منزه عن كل ما لا يليق به. ومع ذلك فقد قال بعض الأئمة: إنهم إذا دفعوا الجزية يعاملون معاملة أهل الكتاب. فهذه المعاملة لا نظير لها في الأديان الأخرى، لأن التوراة صرحت لموسى بأعداء المشركين على بكرة أبيهم، ونصت على استرقاق بعضهم، واعتبرتهم كالأنعام التي لا حرمة لها.

(٣) من هذا تعلم أن مخالفة الدين الاسلامي الذي جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل، شرم مطلق، وأن المسلمين الذين هجروا دينهم واستهانوا بآياته الحكيمة، وبقواعده الصالحة لكل زمان ومكان، قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوا كرامتهم، وأضاعوا استقلالهم، وأصبحوا أذلة بعد عزة ومنعة. فعليهم أن ينتهوا عما هم فيه من شهوات فاسدة، وعليهم أن يذكروا أن الله أمرهم بالاقتصاد في أموالهم، والمحافظة على أبدانهم من الإفراط في الشهوات، وأمرهم بأن يعدوا لأعدائهم كل ما استطاعوا من قوة وبأس. فعليهم أن يذكروا كل هذا وأن يستمسكوا به لعلهم يقلحون ما

عبد الرحمن الجزيري

### الكلم النوابع

قال ابن السكك : أعقل الناس محسن خائف ، وأجهلهم مسيء آمن .

نقول : إنما يخاف المحسن العاقل أن لا يكون قد وضع الاحسان موضعه ، لأنه يعلم أنه مسئول عن نتائج أعماله ، وأما الجاهل فيسيء وهو آمن ، ظاناً أن الأمور فوضى لا ضابط لها ؛ وهذا غاية الجهل بالحقائق ، ومدعاة لأن يعيش الانسان متخبطاً في أعماله .

قيل لجالينوس : متى ينبغي للانسان أن يموت ؟ فقال : إذا جهل ما يضره مما ينفعه .

وقال حكيم : اجتنب الجاهل فإنه يجنى على نفسه وهي أحب النفوس إليه .

وقال غيره : الجاهل يفسد لعدم تهديته للإصلاح مع رغبته في الصلاح . والاحق يفسد لأنه يتلذذ بالفساد ، ويتألم من جريان الأمور على السداد .

وقال ذو النون المصري : من جهل قدره ، هتك ستره .

وقال شاعر :

العلم أنفس شيء أنت ذاخره	من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
فاجهد بنفسك فيما أنت تجهله	فأول العلم إقبال وآخره

وقال غيره :

موت التقي حياة لا نفاد لها      قد مات قوم وهم في الناس أحياء

## بَابُ الاسْتِئْثَانِ وَالْفَتْوَى

الحكم الشرعي في حمل المسلم بساط الرحمة :

سأل الأستاذ محمد عبد الوهاب البرعي المحامي أمام محكمة النقض والإيرام بالمنصورة ، عن حكم الشرع الاسلامي في رجل مسلم اشترك في حمل بساط الرحمة مجاملة لبعض أصدقائه من المسيحيين ، لا يقصد بذلك إلا المجاملة فقط .

### الجواب

من المقرر في الدين الاسلامي أن الشعائر الدينية المختصة بأرباب الديانات الأخرى لا يحل للمسلم أن يشترك فيها بحال مهما كان الأمر . ومن المقرر أيضا أن قيام المسلم بشعيرة مختصة بهم لا يخرجهم عن الاسلام إلا إذا صحبته عقيدة الرضا به والاطمئنان اليه .

وعلى ذلك يحرم على المسلم الاشتراك في حمل بساط الرحمة الذي يسيرون به أمام جنازتهم استعطافا للرحمة على ميتهم ، كما تدل عليه تسميته بساط الرحمة . ولا يحل له أن يفعله ولو على سبيل المجاملة . وكيف يحمله المسلم وقد رسم عليه الصليب ، والصليب رمز لعقيدة معينة منافية لعقيدة الاسلام ؟ !

ولكن مهما عظمت الحرمة واشتد النهي لا يخرج المسلم بحمله عن الاسلام إلا إذا رضيه واطمأن اليه . والله أعلم ؟

### القرار الاستثنائي لقرار المسألة

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

ما قولكم دام فضلكم في رجل توفي بحادثة غفائية عن زوجته : ليلي ، وسلمى ، وبعد وفاته أبرزت زوجته ليلي كتابا تزعم أنه بخط زوجها وتوقيعه مؤرخا قبل وفاته بسنتين ؛ وهذا الكتاب يتضمن العبارة التالية « إنني طلقت زوجتي سلمى طلاقا بائنا » .

ولم تعلم الزوجة سلمى بالطلاق قبل وفاة الزوج ، ولم تطلع على كتاب الطلاق الآنف الذكر ، وكان الزوج المتوفى يرأسها فيكتب اليها بخط يده وتوقيعه ، ومن ذلك كتاب مؤرخ بتاريخ يقع بعد تاريخ كتاب الطلاق المزعوم بأربعة أشهر ، من محتوياته هذه العبارة « إنني باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » . وهناك عبارات أخرى من هذا القبيل تدل على بقاء الزوجية .

أضف الى ذلك أن الزوج المتوفى كان يدفع لزوجه سلمى نفقة على اعتبار أنها زوجته قبل وبعد تاريخ كتاب الطلاق الذى أبرزته الزوجة الثانية .

كما أن هنالك من يشهد بأن الزوج لحين وفاته كان ينكر حدوث الطلاق لزوجه سلمى ، ولاى شخص كان يحادثه فى الموضوع .

وبناء على ما مر ذكره نرجو أن تفتونا فيما يلى :

١ — ماقيمة كتاب الطلاق المزعوم إذا ثبت أنه بخط وتوقيع الزوج المتوفى ؟

٢ — هل يعتبر الكتاب الذى أبرزته الزوجة المدعى طلاقها ( سلمى ) ، والذى يحتوى على قوله « إننى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » ، هل يعتبر هذا الكتاب تجديداً للزوجة ، أو استمراراً لها على الرغم من وجود كتاب الطلاق المذكور ؟ وهل يعتبر الطلاق طلاقاً رجعيماً أم طلاقاً فار ؟ وهل تحرم الزوجة سلمى المذكورة من الإرث أم لا ؟

مشهور ضامن بركات

### الجواب

متى ثبت أن الخطاب الوارد لليلى ، المتضمن أن الزوج طلق زوجته طلاقاً بائناً ، صادر من الزوج بتوقيعه ، فهو إقرار كتابى منه على نفسه بطلاق زوجته سلمى طلاقاً بائناً . وقد قرر فقهاء الحنفية والحنابلة أن الإقرار الكتابى كالأقرار اللفظى ، كلاهما حجة ملزمة للمقر بما أقر به ، ولا يقبل منه بعد ذلك أن يدعى أنه كان كاذباً فى إقراره ، كما لا يقبل منه رجوع عنه .

وعلى هذا تكون زوجته ( سلمى ) مطلقة طلاقاً بائناً من حين إقراره المذكور ، وليس لها حق فى ميراثه بعد موته .

أما قوله لها فى الكتاب الذى أرسله إليها بعد : « إننى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » فهو لا يخرج عن كونه إنكاراً للطلاق الذى أقر به ، فلا يقبل ، ولا يصح أن يعتبر قوله هذا إقراراً بتجديد العقد بعد ذلك الطلاق المقر به ، لأن لفظه ينبوعه ، إذ يقول : إنه باق على زوجيته لها ، أى لم يصدر منه طلاق .

والطلاق الذى أقر به ليس من طلاق الفار ، لأنه صادر منه فى حال صحته ، وشرط طلاق الفار أن يصدر من الزوج وهو فى مرض الموت . والله أعلم .

رأى الامام مالك فى حكم إفساد المرأة على زوجها لغرض التزوج منها :

وجاء الى لجنة الفتوى بالأزهر سؤال ملىخصه ما يأتى :

عمل رجل على إفساد زوجة جاره ليتزوجها حتى تم له ما أراد . فهل تحمل هذه الزوجة لهذا الرجل الذى أفسدها لهذا الغرض ؟

حسنى يوسف

## الجواب

إن الدين الاسلامي يحرم السعى بالفساد بين الناس ، ويعتبره من أكبر الكبائر ، وخاصة إذا كان بين المرء وزوجه .

والذى جرى عليه العمل فى مذهب الامام مالك ، أن إفساد الرجل زوجة غيره ليتزوجها يحرمها عليه تحريماً مؤبداً ، معاملة له بنقيض قصده . وبقية المذاهب لا ترى إفساد المرأة على زوجها محرماً لها على من أفسدها ، ولكنها تعتبر هذا الفساد من أفسق الفسوق وأنكر أنواع العصيان . والله أعلم ؟

## الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أنا أريد أن أتزوج ابنة عمى ، ولكن عمى والد الفتاة كان متزوجاً بخالتي وطلقها وتزوج بغيرها ، والفتاة التى أريد أن أتزوجها ابنته من غير خالتي ، وخالتي تقول إنها أرضعتني لما كانت زوجة لعمى وتقول : إن فترة الرضاع استغرقت نحو خمسة عشر يوماً كانت ترضعني فى غالب أيامها ، ولما سألتها هل تجزم بأنها أرضعتني أكثر من أربع رضعات ، قالت إنها لا تتذكر العدد إن كان أربعاً أو أكثر أو أقل ، وأصرت على تلك الأقوال ، ولا يوجد من يؤيد أو ينفي أقوالها غيرها . وأنا أميل لتصديقها ، غير أنها ربما تضرر الشر لوالد الفتاة مطلقها ، ومن جهة أخرى فإنها كانت قليلة اللبن ويحصل تشقق بئديها عقب كل وضع .

فهل يجوز العقد على الفتاة ؟ وإن كان بعض المذاهب يحرم العقد بهذه الصورة ، فهل يوجد من المذاهب ما يبيح العقد ؟

عبد الفتاح اسماعيل

## الجواب

يرى علماء المذاهب الثلاثة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، أن الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة . ولما كان واضحاً من السؤال أن الرضاع المستفتى عنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة هى المرضعة ، لا يكون حراماً على السائل أن يتزوج بابنة عمه التى يريد أن يتزوج بها . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## حفظ الأمم من الرسل

هل أرسل الى أمريكا والاقيانوسية وأطراف العالم القديم رسل ؟

كتب إلينا غير واحد من الفضلاء يسألوننا ، من ناحية اجتماعية بحث ، عن حفظ الأمم من الرسل ؛ وآخر سؤال وصل إلينا من هذا القبيل ما وجهه إلينا طالب نجيب قال فيه : « كل ما قرأناه عن الرسل محصور في الذين أرسلوا الى الأمم القائمة فيما بين الفرات والرين ، وفيما بين بحر قزوين والنيل ، فلماذا لم يرسل الله تعالى رسلا الى أمريكا ، وإلى أطراف قارات العالم القديم كجنوب أفريقيا وشمال أوروبا ، وشرق روسيا ؟ »

« نظن أنكم ستقولون إن هذه البقاع هي التي ازدهرت فيها الحضارة ، وعمرت بالخلائق ، فانتشروا منها في كل بقعة حاملين معهم الموسوية والعيسوية إليها ؛ ولكن كيف نعد هذا الجواب شافيا والخفريات تثبت أن الانسانية وجدت قبل هذين الدينين بألاف السنين ؟ »

« ثم ماذا تقولون في الأمم التي لا تزال تعيش في سهوب الأرض ووديانها القصية ، فهل أرسل إليهم رسل ، وإذا كان لم يرسل فلماذا ، ومتى ؟ » انتهى .

\*\*\*

نجيب حضرات الذين تشغلهم هذه المسألة بقولنا :

« إذا رئي توجيه هذا السؤال الى دين قائم ، فلا محل لتوجيهه الى الاسلام ، لأن في كتابه الجواب الشافي عليه ؛ قال الله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وإن هنا بمعنى ما ؛ والمعنى : وما من أمة إلا خلا فيها نذير . وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قَصَصْنَا عليك ، ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك » .

وهذا كلام صريح فيما نحن بصده ، مؤداه أن الله لم يحرم أمة من نصيبها في هداية الرسل ، فأرسل إليهم رسله تدرى ليعلموهم ما يجب عليهم أن يعلموه ويعملوه ، ولكنه لم يقص سيرهم أجمعين ؛ والحكمة في هذا الأمر ظاهرة أجلى ظهور ، فإن عدد الرسل الذين أرسلوا من لدن وجود الانسان على الأرض يجب أن يكون من الكثرة بحيث لا تسع أسمائهم وحدها عدة أسفار . وقد جاء الكلام عنهم إجمالا في آيات كثيرة ؛ قال الله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تدرى (أى تتوالى) كلما جاء أمة رسولا كذبوه ، فأُتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ، فبعداً لقوم لا يؤمنون » . ومعنى هذا أنهم كذبوا رسل الله واتبعوا أهواءهم ؛ وهذا هو الذى حدث ؛ فإن جميع الأساطير المنقولة عن الأمم تدل على أن تلك الجماعات عولوا في بنائها على أوهامهم ، فلا يأخذون باحث من ذلك أنهم حرموا حظهم من الرسل فضلوها هذا الضلال البعيد .

أما سبب اقتصار القرآن الكريم على ذكر الرسل المعروفين لاتباع الدينين اللذين سبقاه ، فلان في ذكر غيرهم إطالة لا محل لها ، يغنى عنها الإجمال الذي أتى به في هذا الموضوع ، وهو من معجزات القرآن ، فقد علم سبحانه وتعالى أنه سيأتي زمان تتصل فيه الأمم اتصالاً وثيقاً بما يكشف من وسائل الانتقال ، فيتساءل الناس : ألم يرسل الله رسلاً إلى الأمم التي لم يكن بيننا وبينها اتصال ؟ ولِمَ حُرِّموا ذلك ؟ وربما تولدت من هذه المسألة شبهة على القرآن وفيه قوله تعالى : « ما قَرَطْنَا في الكتاب من شيء » ، فالإمام بهذه المسألة في الكتاب على هذا النحو الشافي الموجز يعتبر آية توجب الدهش لدى علماء الاجتماع ، الذين يعرفون أن الأمم على عهد نزول القرآن كانوا يتخيلون أن العالم ينتهي عند الحدود التي وصلوا إليها ، وأن ما عداها من الجماعات فهم رطاح لا يعتنى بهم الله إلا بقدر ما يعنى بالحيوانات .

ومما يزيد في عظم شأن هذه الآية ، أن الكتاب الشريف بعد أن ألمّ بذكر الأمم ، قرر أن الله كان يبعث بالرسل إليهم فكانوا لا يرفعون بهديتهم رأساً ، وكانوا منهم يستخرون ، فقال تعالى : « وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون » : وقال تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ، إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » ، وقال تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . فهذه الآيات ، ومثلها كثير في القرآن الكريم ، تدفع شبهة لم تكن قد وجدت إلى العهد الذي كان ينزل فيه القرآن ، وهي قولهم إن أديان الجماعات الانسانية في جميع أدوار التاريخ لم تكن إلا مجموعات من أضاليل ، فلو كانوا حظوا برسل يهدونهم لكانوا أحسن مذاهب مما هم عليه الآن ، فكان في تأكيد الكتاب أن الله ساوى بينهم وبين سواهم في الإرسال إليهم ، ولكنهم آثروا أن يحافظوا على أساطيرهم ، وأن ينبذوا ما أتاهم من الوحي ظهرياً ، دافع حاسم لهذه الشبهة ، ولا تزال أحوالهم تشهد بصحة هذا الدفع ، فإن جميع الشعوب التي احتك بها الأوروبيون في فتوحاتهم الأمريكية والأفريقية والافريقية ، لا تزال محافظة على أوهامها رغمًا عما جاءهم به من التعاليم النصرانية ؛ وليس يخفى أنهم حاولوا تنصيرهم على أساليب شتى ، فلم يصلوا إلى ما أرادوا بعد صرفهم قناطر مقلنة من الأموال في هذه السبيل . فلا يصح أن يقال بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم رسلاً .

يتضح من هذا البيان أن السؤال الذي وجهه إلينا بعض الفضلاء في هذا الشأن ، أجاب عنه القرآن بما لا يدع شيئاً في نفس مرتاب ، وعلى وجه يتفق ومقررات العلم من كل وجه .

محمد فريد وهدي



# حياة حلالته صلى الله عليه وسلم

## عبد الله بن مسعود

شيخ العبادة ، وفقه المهاجرين الأولين ، وحبر العراقيين ، وإمام المدرسة التشريعية في الكوفة ، وسادس ستة كانوا أسبق أهل الأرض إلى الهداية والخير ، والاستجابة إلى كلمة الحق ودعوة اليقين ، وأول من جهر بالقرآن الكريم بمكة ، فصك بقوارعه عنجهية الشرك وطغيان الجبروت ، وصاحب المهجرتين ، والغلام المعلم ، كلقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الاسلام ، وجندى بدر الكبرى ، وشاهد مواقع الاسلام بعدها ، وأخو الزبير ابن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قبل الهجرة ، وأخو سعد بن معاذ أحد سادات الأنصار فيما بعدها ، ومبعوث الفاروق إلى أهل القادسية أستاذاً ومعلماً .

ذلكم هو عبد الله بن مسعود ، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومظهرته ، وحامل نعليه ، يرى منه ما لا يرى جميع الناس ، ويدخل عليه حين يحجب طامة الخلق وخاصتهم فيسمع ما لم يسمعوا ، ويشهد ما لم يشهدوا ، حتى كان أعلم الناس بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، في مدخله ومخرجه ، وسفره وحضره ، ونومه ويقظته .

قال العلامة العيني في شرح البخاري : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم خصص ابن مسعود بنفسه اختصاصاً شديداً : كان لا يحجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء ، ولا يخفي عنه سره ، وكان يلج عليه ، ويلبسه نعليه ، وليستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ؛ وكان يعرف في الصحابة بصاحب السواد والسواك ، وكان يقول له النبي صلى الله عليه وسلم : « أذنتك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادى حتى أنهاك » .

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري أنه قال : « قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم » .

وروى الترمذي عن حذيفة « أن ناساً قالوا له : حدثنا بأقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً ودلاً ، تلقاه فنأخذ عنه ونسمع منه ، قال : كان أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ، لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلي » .

وقد كان لهذه الخصيصة أثر ظاهر في حياة عبد الله بن مسعود العلمية، جعلت منه أحد أولئك الغر البهاليل الذين حملوا لواء التشريع الاسلامي في أطراف الأرض، وخلقوا للانسانية تراثا فكريا خالدا يمدّها بما تشاء من قوانين فاضلة، وسياسة عادلة، في أي زمان أو مكان. وقد كان عبد الله بن مسعود في هذا ملاذاً يرجع اليه أ كابر الصحابة في الفتيا والفقه وأصول الدين؛ روى ابن سعد في الطبقات « أن نقرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في دار أبي موسى الأشعري يعرضون مصحفا، فقام عبد الله بن مسعود فخرج، فقال أبو مسعود: هذا أعلم من بقي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فقال أبو موسى: إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حجبتنا، ويشهد إذا غبنا ».

وكان أبو موسى يسمى ابن مسعود « الخبر »، فقد جاء في الطبقات عن أبي عطية الهمداني قال: « كنت جالسا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فسأل عن مسألة، فقال: هل سألت عنها أحدا غيري؟ قال: نعم، سألت أبا موسى، وأخبره بقوله؛ فخالفه عبد الله، ثم قام فقال: لا تسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم ». وكان عمر بن الخطاب إذا ذكر عبد الله بن مسعود يقول: « كُنْصِفْ ملىءُ علما آثرت به أهل القادسية ». ولما ستره عمر الى الكوفة معلما وبعث عمارا أميرا، قال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد فاقتدوا بهما. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: « لو كنت مؤمرا أحدا بغير مشورة لأمرت ابن أم عبد ». وفي صحيح البخاري عن مسروق قال: ذكر عبد الله (بن مسعود) عند عبد الله بن عمر فقال: ذاك رجل لأزال أحبه بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « استقرءوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، فبدأ به ».

وقال مسروق بن الأجدع: « لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالأخاذ (مجمع الماء) فالأخاذ يروى الرجل، والأخاذ يروى الرجلين، والأخاذ يروى العشرة، والأخاذ يروى المائة، والأخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الأخاذ ». وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه « كرّج عبد الله أثقل في الميزان من أحد ». ويقول بعض التابعين: « جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت أحدا أزهدي الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحب الى أن أكون في صلاحه من ابن مسعود ». وكان عمر بن الخطاب يعظم ابن مسعود تعظيما كبيرا، فقد روى أن عبد الله بن مسعود رأى رجلا قد أسبل إزاره، فقال له: ارفع إزارك، فقال الرجل: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك، فقال: إني لست مثلك، إن بساقي ثموشة وأنا آدم الناس، فبلغ ذلك عمر، فضرب الرجل وقال له: أترد على ابن مسعود؟!

وكان ابن مسعود على ضئولة جسمه يحمل بين جنبيه قلبا جريئا تمثلت فيه شجاعة الأبطال،

وقد سجل له تاريخ الاسلام في صحائفه مواقف عظيمة ؛ فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : « إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعني » ؟ قالها ثلاثا ؛ فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : « لم يحضر ليلة الجن أحد غيري فأنطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون ، نخط لى خطأ ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لفظا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لى رسول الله : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم : رجلا سودا مستغرى ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيين . »

وذكر أصحاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من غزوة بدر أمر بأبى جهل أن يلتبس في القتلى ، وقال : « اللهم لا يعجزنك » ، وكان قد عقره معاذ بن عمرو بن الجوح ، فر به وهو عقير معوز بن عفرأ ، فضربه حتى أثبتته ، ثم تركه وبه رمق ، فر عبد الله بن مسعود بأبى جهل حين سمع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتبس في القتلى ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إن خفي عليكم الى أثر جرح بركبته ، فاني ازدهمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوق على ركبتيه نخدش في إحداها خدشا لم يزل أثره فيها بعد . » فقال عبد الله بن مسعود : فوجدته بأخر رمق فعرفته ، فوضعت رجلى على عنقه — وقد كان ضبث بى مرة بمكة فأذاني ولكرزنى ، ثم قلت : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أحمد من رجل قتلتموه ؟ لمن الدبرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن مسعود يقول كما في بعض الروايات : إن أباه جهل قال لى لما وضعت رجلى على عنقه : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويعى الغنم . ثم احتزنت رأسه وجئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آله الذى لا إله غيره ؟ — وكانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم — قلت : نعم وآله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله !

وكان عبد الله بن مسعود من فصحاء الصحابة وخطبائهم الأبناء ، وله أسلوب في خطابه يشبه أسلوب أكرم بن صيفى حكيم العرب ، غير أن أكرم بن صيفى ينزع عن حكمة التجارب ووحى الفكر الصادق ، أما عبد الله بن مسعود فإنه يمتح من منبع الدين ووحى الروح . وقد روى ابن عبد ربه في كتابه ( العقد ) خطبة لعبد الله بن مسعود تؤيد ما ذهبنا اليه في أسلوبه الخطابى ، قال : « أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التوحيد . التقوى خير زاد . أكرم الملل ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم . خير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم . »

شر الأمور محدثاتها . خير الأمور عزائمها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . لنفس يحميها خير من إماراة لا يحميها . خير الغنى غنى النفس . خير ما ألقى في القلب اليقين . الخمر جماع الآثام ، النساء حبايل الشيطان . الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة . شر من الناس من لا يأتى الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله إلا هجرا . سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . من يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوب في ديوان المحسنين : من عفا عني عنه . الشقى من شقى في بطن أمه . السعيد من وعظ بغيره . الأمور بعواقبها . ملاك الأمر خواتمه ، أحسن الهدى هدى الأنبياء . أبيض الضلالة الضلالة بعد الهدى . أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره .

وإذا وازنا بين هذه الخطبة وخطبة أكرم بن صيفي بين يدي كسرى ، ظهر لنا جليا مكان المشابهة بين الأسلوبين ، ومنزع كل من الخطيبين . يقول أكرم : « إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أهمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصديق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لاجئة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية ، خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شرماعه . البلاغة الإيجاز . من شدد نقر ، ومن تراخى تألف . »

ولولا اختلاف المنزع وظهور أثر البيئة في الكلامين ، لصح لزاعم أن يزعم أنهما صدرا من نفس واحدة ؟

صادق إبراهيم عربونه

## أحسن الانتقام

قيل لفيلسوف : بم ينتقم الانسان من حاسده ؟ قال : بأن يزداد فضلا في نفسه .  
حقا إن هذا من أشد ضروب الانتقام من الحساد ، وهل ألهب في قلوبهم نيران الاحقاد إلا ما أنسوه في المحسود من إقبال الناس عليه ومحبتهم له ، والتحدث بفضائله وفواضله ؟  
فاذا أراد أن ينتقم ممن يحسده على ذلك فهل في وسعه أفضل من أن يزداد تكلا في نفسه ، ليحصل من حب الناس وتقديرهم أكثر مما له عندهم ؟ ولقد قيل :

ما ضرنى حسد اللئيم ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

# أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي

حياته وفلسفته

أصله ونشأته :

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث ابن قيس .

وأول من أسلم من آباء الكندي الأشعث بن قيس ( انظر طبقات الأمم للقاضي صاعد ص ٥٢ ) .

وجاء في كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ : قال ابن الأثير الجـزري : وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة في وفد كندة ، وكانوا ستين راكبا فأسلموا ، وكان الأشعث ممن ارتد بعد وفاة النبي ، فسير أبو بكر الجنود الى اليمن فأخذوا الأشعث أسيرا ، فأحضر بين يديه ، فقال له : استبقني لحربك ، وزوجني بأختك . فأطلقه أبو بكر وزوجه بأخته ، وهي أم محمد بن الأشعث .

سكن الكوفة وابتنى بها دارا ، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه ، وكان ممن أزم عليا بالتحكيم ، وشهد الحكمين بدومة الجندل ، وكان عثمان رضي الله عنه استعمله على أذربيجان ، وكان الحسن بن علي تزوج بنته . وتوفي سنة اثنتين وأربعين ، وقيل سنة أربعين .

وأما محمد بن الأشعث ، فقيل : إنه ولد على عهد رسول الله ، واستعمله ابن الزبير على الموصل ( أسد الغابة ج ٤ ص ٣١١ ، ٣١٢ ) . وذكر الزبير بن بكار في تسمية أولاد علي : أن مصعب ابن الزبير لما غزا المختار بعث على مقدمته محمد بن الأشعث وعبيد الله بن علي بن أبي طالب فقتلا ، وكان ذلك سنة سبع وستين .

ولمحمد بن الأشعث ولد يسمى عبد الرحمن ، فخرج على الحجاج واستولى على خراسان ، ثم سار الى جهة الحجاج وغلب على الكوفة ، وقويت شوكرته . ثم أمد عبد الملك الحجاج بالجيوش فانهمزم عبد الرحمن ولحق بملك الترك ، وأرسل الحجاج يطلبه وتهدد ملك الترك بالغزو إن أخره ، فقبض ملك الترك على عبد الرحمن وأربعين من أصحابه وبعث بهم الى الحجاج ، فلما نزل في مكان في الطريق ألقى عبد الرحمن نفسه من سطح فات ، وذلك في سنة خمس وثمانين .

جاء في مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ في بحث قيم عن الكندي للأستاذ مصطفى عبد الرازق بك قال فيه :

يظهر أن هذا الحادث جنى على منزلة بيت الأشعث بن قيس عند آل مروان، فخفت ذكرهم في التاريخ حوالى جيلين . من أجل ذلك سكت التاريخ عن اسماعيل بن محمد بن الأشعث أخى عبد الرحمن، وعن ابنه همران، وهما جدان من جدود يعقوب بن إسحاق الكندى . بل قد سكت التاريخ عن شأن الصباح، اللهم إلا ما جاء فى كتاب أخبار الحكماء نقلا عن ابن جلدجل الأندلسى، وكما جاء أيضا فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، أن يعقوب بن إسحاق الكندى شريف الأصل كان جده ولى الولايات لبني هاشم .

وإذا كانت صلة بنى الأشعث بن قيس بالخلفاء من بنى مروان قد انقطعت منذ خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك بن مروان، فإن بيت الكندى ظل فى الكوفة من بيوتات المجد والحسب الرفيع . ولما تولى الخلافة العباسيون طاد بيت الكندى الى الظهور فى ميدان السياسة والحكم، فتولى إسحاق بن الصباح الكوفة فى أيام المهدي والرشد .

والغالب أن الكندى ولد فى مطلع القرن التاسع الميلادى حوالى سنة ٨٠١ م سنة ١٨٥ هـ، كما رجحه «دى بوير» ( فى دائرة المعارف الاسلامية ) . أما تاريخ وفاته فلم يعرض لذكره أحد من ترجوا له من الأقدمين . وقد حاول المحدثون أن يحددوا ذلك التاريخ من سبيل الاستنباط، فمنهم من جعل موته سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦٠ م، كالاستاذ «مسنون» فى نصوصه الصوفية؛ ومنهم من جعله نحو سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٧٣ م، كالاستاذ «نلليو» فى محاضراته فى الفلك، وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى .

والمرجح أن الكندى ولد فى أعقاب عمر أبيه، وأن أباه تركه طفلا، فنشأ فى الكوفة مع أمه فى تراث من السؤدد والغنى، وفى حضن اليتيم، فدرت له الأم المال، ونشأته مقتصدًا مرفها غنيا، ثم ساقته فى سبيل العلم لما أنست من ذكائه وقوة طارضته، فتعلم علوم اللغة والأدب، ونهل من علوم الدين شيئا، ولكن الطفل كان بفطرته القوية يريد أن يحيط بكل شئ علما، فافتحم أبواب الفلسفة وما إليها من العلوم المنقولة عن القدماء من الفرس واليونان والهند .

ويظهر أن الكندى كان عالما بالسريانية، وكان ينقل الكتب منها الى العربية . فقد جاء فى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء : ومما اشتهر من كتب بطليموس وخرج الى العربية « كتاب الجغرافيا فى المعمور من الأرض » . وهذا الكتاب نقله الكندى الى العربية نقلا جيدا، ويوجد سريانيا . وفى كتاب طبقات الأطباء نقلا عن أبى معشر : حذاق الترجمة فى الاسلام أربعة : يعقوب بن إسحاق الكندى، وثابت بن قوة الحرانى، وعمر بن الفرخان الطبرى، وحنين بن إسحاق . و مترجمو الكندى يكادون يتفقون على أنه كان كثير الاطلاع . وفى مواضع متفرقة من كتاب الفهرست ما يدل على أن الكندى كان محيطا بمذاهب

الصباغة ومذاهب الثنوية السكندانيين . وفي كتاب طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٧ : أن الكندي كان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتمد ، وأنه كان مؤدباً لأحمد بن المعتصم .  
ومما يدل على ممارسة الكندي للأدب ما نقلوه عنه من نقد الشعر ، وفي الجدل وأسرار البلاغة العربية ، حتى ذكروا أن له كتاباً في صنعة البلاغة .

وأسلوب الكندي في الترجمة لما يدرس بعد ، كما أشار الى ذلك الأستاذ مسنيون في كتابه مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الاسلام ، ص ١٧٥

ولما كان أكثر ما كتب الكندي قد عبثت به يد الضياع ، إلا بقايا توجد في ترجمات لاتينية ، مثل رسالته في العقل ، فإن على الباحث في أسلوب الكندي أن يكتفي بالتر القليل الذي وصل البنا من مؤلفاته بالعربية كرسالته في كمية ملك العرب ، أو ما وصلنا من التراجم التي أصلها الكندي ، مثل كتاب ( أتولوجيا ) الذي نقله عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله « أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي » .

والذي يلاحظ في أسلوب الكندي اعتماداً على هذه المصادر : أن فيه غموضاً يأتي بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت في نصابها وتحدت معانيها ( مجلة كلية الآداب ديسمبر سنة ١٩٣٣ ) . بعد أن ترك الكندي الاشتغال بفنون الأدب وعلوم الكلام انصرف الى الحكمة فنبغ في علومها ، وصار كما يقول « مسنيون » إمام أول مذهب فلسفي إسلامي في بغداد ، واليه يرجع الفضل في تحرير جملة من التراجم العربية لمصنفات يونانية في الفلسفة . ونسب اليه المترجمون من الكتب في الموضوعات المختلفة سبعة عشر نوعاً .

ويقول ظهير الدين البيهقي في كتابه تاريخ الحكماء ص ١٨ : جمع الكندي في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات .

ويقول « ده بوير » عند ترجمته للكندي : إن كوردان ( Gurdan ) وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة ( La Renaissance ) يعد الكندي واحداً من اثني عشر هم أنقذ الناس عقلاً ، وأنه كان في القرون الوسطى يعتبر واحداً من ثمانية هم أئمة العلوم الفلسفية . ويقول ده بوير أيضاً : إن الكندي كان مولعاً بتطبيق الرياضيات لا في العلم الطبيعي وحده ، ولكن في الطب أيضاً . فهو مثلاً يفسر عمل الأدوية المركبة بالتناسب الهندسي الحادث من مزاج صفاتها الحسية : أي الحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة .

ولقد دفع الواقع بالكندي في الرياضيات الى أن كان يجعل من اللحن الموسيقية طباً لبعض الأمراض . وعلم الموسيقى كان يومئذ معتبراً فرعاً من الفروع الرياضية ؛ وكان الكندي عالماً بالموسيقى وبالطب ، وله فيهما مؤلفات ، كما سبق أن أوضحناه .

عنى الكندي بالكيمياء ، وأبطل دعوى الذين يدعون صنعة الذهب والفضة ، وترجم

الكندى رسالة : «إبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها» . وقد نقض هذه الرسالة على الكندى « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى »  
وللكندى دراية تامة بالجغرافيا ، إلا أن كتبه فى هذا العلم ضاعت فيما ضاع من كتبه ، وكانت مرجعا لمن جاء بعده من المؤلفين . ونجد فى كتب المسعودى نماذج منها .  
الكندى والفلسفة :

الكندى يقول عن الفلسفة فيما روى عنه ابن بناته المصرى :  
علوم الفلسفة ثلاثة : ( فأولها ) العلم الرياضى فى التعليم ، وهو أوسطها فى الطبع . و ( الثانى ) علم الطبيعيات ، وهو أسفلها فى الطبع . و ( الثالث ) علم الربوبية ، وهو أعلاها فى الطبع .  
وللكندى الفضل الأول فى توجيه الفاسفة الاسلامية وجهة الجمع بين أفلاطون وأرسطو ، وهو الذى وجهها فى سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين .  
ويجدر بنا فى هذا المقام أن نقف على التيارات المختلفة لهذا التوفيق الفلسفى .  
موقف الكندى من علم الكلام :

تمثل الكندى كل ما كان فى عصره من علم . وآراؤه فى المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة . ويذكر القفطى وابن أبى أصيبعة للكندى كتابا فى أن أفعال البارى كلها عدل لا جور فيها . ويذكر أن له كتابا فى التوحيد والعدل ، والتوحيد أكبر أصلين من أصول المعتزلة .  
وله كتاب فى إثبات النبوة على سبيل أصحاب المنطق ، وكان يحاول فى نظرية النبوة التوفيق بينها وبين العقل . وقد عارض الكندى فى رأيه فى كتابه هذا نظرية كانت تنسب الى البراهمة أساسها أن العقل وحده يكفى مصدرا للمعارف البشرية .  
موقفه من الرياضيات :

للكندى رسالة فى أنه لا تنال الفلسفة إلا بعلم الرياضة ؛ وفلسفته فى هذا الباب مزيج من الأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الجديدة .  
موقفه من الله والعالم والنفس :

كان الكندى يذهب الى أن العالم مخلوق لله ، وفعل الله فى العالم إنما هو بوسائط كثيرة ، فالأعلى يؤثر فيما دونه ؛ أما المعلوم فلا يؤثر فى العلة لأنها أرقى منه فى مرتبة الوجود ، وكل ما يقع فى الكون يرتبط ببعضه ببعض ارتباط علة بمعلول ؛ ونستطيع من معرفة العلل التنبؤ بالمستقبل .  
ويذهب الكندى الى أن نفس الانسان جوهر بسيط غير فانٍ هبط من عالم العقل الى عالم الحس ( وفى المكتبة التيمورية بدار الكتب رسالة للكندى فى النفس رقم ٥٥ )



موقفه من نظرية العقل :

يذهب الكندي إلى أن معارفنا إما أن تكون حسية، وإما أن تكون عقلية، والحواس تدرك الجزئي أو الصورة المادية، على حين أن العقل يدرك الكل، ويدرك الجنس والنوع، أي الصورة العقلية.

هذه النظرية التي استحدثها الفيلسوف الكندي أخذت مكانا كبيرا عند فلاسفة المسلمين. ( انظر رسالة في معنى العقل عند الأقدمين للكندي ) ترجمها من اللاتينية الى العربية الأستاذ يوسف كرم المدرس بكلية الآداب

ويرجع الفضل في تكوين ثقافة الكندي الفلسفية الى أخذه بتعاليم أفلاطون وأرسطو، حتى إنه قيل إنه لم يكن في الاسلام فيلسوف احتذى في تأليفه حذو أرسططاليس غير الكندي .  
شخصية الكندي من وراء كتبه ونظرياته :

كان الكندي هادئا في حياته، أخذنا بأسباب الاقتصاد والنظام، وسياسة النفس، ومجاهدة شهواتها . ومن حكمه المأثورة :

« اعص الهوى وأطع ما شئت » « لا تنجو مما تكرهه حتى تمتنع عن كثير مما تحب وتريد » .  
والكندي كان يستوحى فكره، ويستلهم ذكاء الحاد، وما تنطوى عليه نفسه الكبيرة من صفات فتتحكم في اتجاهه العقلي . فكان من نتيجة ذلك هذه الصور الذهنية الفلسفية المختلفة التي أخرجت للعالم نظاما فلسفيا قائما لا يزال محترما بين العلماء الى اليوم، إلا أنه يكاد يستحيل على الباحث في المذاهب الفلسفية للكندي أن يرجعها الى أصل واحد، أو أصول معينة فلسفية؛ لأن هذا الرجل الغامض، والذي يعد بحق أكبر فلاسفة العرب، قد أخذ من كل أصل بطرف، بل غذى مذهبه بمذاهب تشعبت طرقها، واختلفت وتناقضت كل التناقض، فلم يترك خيطا من خيوط التفكير الفلسفي إلا نسجه في مذهبه . فقد جمع الكندي في فلسفته أصولا ترجع لفلاسفة اليونان ومتقدمي العلماء من المتكلمين في الاسلام . فنرى في هذا المزيج الأفكار اليونانية بجانب الأفكار الاسلامية البحتة . كل ذلك يضطرنا الى الاعتراف بما كان للرجل من صدق الحس وثقوب النظر في استخراج الحقائق .

لم يقتصر هذا الفيلسوف القانع من الحياة بالصمت في بيته، والذي كان بيته أشبه البيوت ببیت الناسك، إلا أن يحارب نزعات الانانية والاستسلام للذات النفس، فوضع دستوراً للحدود النفس أمام مفسدات الحياة وما يعتورها من تفسخ وانحلال .

يقول الجاحظ « في كتاب البخلاء » : إن الكندي كان بخيلا . فاذا كان ذلك صحيحا فإن ما قدمناه من سخائه، وما بذله طول حياته من وقت وصحة، ثروة لا تقنى، خلفها للانسانية

# صِفَتْ فَحْيَةُ الْإِفْطَالِ بِالْفَلَسَفَةِ الْعَجَبَةِ

## لماذا أنا متدين؟

يجيب الفيلسوف ساباتييه بقوله : « لأننى لا أستطيع أن أكون غير ذلك »

بذلت الفلسفة الإلحادية فى أوربا جهد المستبسل فى هدم صرح الدين ، واستعملت لذلك كل معول وصلت اليه يدها ، حتى ما لا يصح التعويل عليه من وسائل التضليل والتزوير فى مقررات العلم ، وقد أثرت فلسفتهم تأثيرا عظيما فى الدين لم يؤثرها القدرة على دحض الشبهات ، وقد أصابنا رشاش من طاماتهم هنا ، فرأينا أن من أحسن الذرائع لإبطال مزاعمهم نقل ماصدر ضد هذه الحركة المشؤومة من أقطاب الفلسفة الغربية ، ليعرف الدين غرهم ظاهر هذه الشبهات منا أنها لا تصلح لهدم الدين ، بشهادة من هم أقرب من هؤلاء الملاحدة الى صميم العلم ، وأحذق منهم بصياغة الأدلة .

فنتحف قراء مجلة الأزهر اليوم بترجمة المقال الأول من كتاب جليل القدر للفيلسوف الكبير ( أجوست ساباتييه ) الفرنسى المدرس بجامعة باريس ، يدعى ( فلسفة الدين ) ، كافح فيه شبهات الملحدين كفاحا موفقا كان سببا فى اعتبار كتابه علما من أعلام عهد جديد للعاطفة الدينية . قال تحت عنوان :

### تأملات انتقادية أولية

« لماذا أنا متدين ؟ إنى ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عليها جوابا واحداً وهو : أنا متدين لأننى لا أستطيع أن أكون غير ذلك . فإن التدين حاجة من حاجات وجودى . يقولون لى : هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج . وقد اعترضت بذلك على نفسى . ولكن تحليل المسألة على هذا الوجه يقهقرها ولا يحلها .

« إن الحاجة الى التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية ، أشاهدها فى الحياة الاجتماعية للانسانية أكثر قوة . فإن الانسانية ليست بأقل منى تعلقا بالعاطفة الدينية . فعبثا يعترض عليها بأن الديانات التى أخذت بها وتركتها ، قد خدعتها الواحدة بعد الأخرى ؛ وشئى يهدم لها نقد الفلاسفة والعلماء خرافاتها وأصولها الاعتقادية ، وباطلا يصور لها ما تركته الأديان فى تاريخ البشرية من آثار فظيعة للدماء والنيران ؛ فإن الدين لا يزل باقيا ومائلا فى جميع أدوار الثقافة العالمية ، وجميع الانقلابات الثورية ، مثله كمثل نبات شديد الحيوية اجتث ألف مرة من

سطح الأرض ، ولكن جذوره العميقة أأدته الى ما كان عليه قويا ذا أفنان وريقة . فمن أين أتت الدين هذه الحيوية التي لا ينضب معينها ؟ وما هي علة عمومية الدين وخلوده ؟

« أنا لا أستطيع أن أفسر هذا الأمر لنفسى إلا بمحاولة إيضاح وتحقيق آرائى فى الأصول النفسية التى ترتكز عليها العاطفة الدينية ، وفى جوهرها نفسه . سيكون هذا موضوع تأملاتى الاولى .

« قبل التورط فى هذا البحث ، يجب على أن أبعد سببا خصباً من أسباب إساءة الفهم والوقوع فى الأخطاء ، وخاصة لدى الشعوب اللاتينية . هذه الأسباب مشارها كلمة ( الدين ) نفسها . فانها لا تعين الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعييناً سيئاً جداً ، لانها تحيط هذه الظاهرة بأراء تبعية ، وأحياناً غريبة عنها ، تضلل الذين هم من الثقافة العلمية فى درجة متوسطة . وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تدنيا . وليس لها مرادف لا فى لغة العبرانيين القدماء ، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسلتين والهنديين ، وأعنى بهؤلاء الأسر الانسانية التى ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تجديدا فيها . إن روما هي التى فرضت هذا اللفظ علينا ، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمها .

« فالمسيحيون الأولون لم يكونوا يعرفونه ، وليس له وجود فى كتب العهد الجديد . ولما دخل فى القرن الثالث فى اللهجة المسيحية كابد ضرباً من التنصير ، واكتسب معنى يتفق وروح الانجيل . فعرف لاكتانس الدين بقوله : « هو العلاقة التى تجمع بين الانسان وربّه » . ولكن هذا اللفظ عند كتاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطنى العميق . فبدلاً من أن يعين لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لكلمة دين ، ويشير الى أنها تعنى ظاهرة نفسية متنزلة من الروح ، حدّها من ناحيتها الظاهرية ، معتبراً إياها مجموعة تقاليد ونظم اجتماعية موروثة عن الأقدمين . وتنصير هذا اللفظ لدى المسيحيين لم يمح منه هذا المعنى ذا الأصل الرومانى . والدين لدى السواد الأعظم من الناس الى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية ، واعتقادات فيما فوق الشئون الطبيعية ، ونظماً سياسية . فهو كنيسة تملك الأسرار الإلهية ، وتقوم على نظام من الرتب الكهنوتية ، تهذيب الأرواح الآدمية . هذا هو الشكل الذى أدركت العقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه ، وحققت وجودها فى العالم الغربى . والسلطان الذى تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استنارة ، تقر مذهب اليه المسيو برونثير حينما أراد التنبيه على سمو الكاتوليكية على البروتستانتية حيث اكتفى ، متابعا فى ذلك ( بوسويت ) ، بقوله : إنها أكل شكل لحكم الشعوب .

« وفى العصور والبلاد التى تغلب فيها هذا الوصف السياسى للدين ، ظهر بضرب من ضروب الضرورة المنطقية تحليل من قبيله لتولد الدين فى الجماعات الانسانية . فقد قالوا :

لما كان الدين يصلح لحكم الشعوب على حالة توجب الإعجاب ، فقد اخترع إذاً للوصول الى هذه الغاية . فهو عمل القساوسة والبراطرة الذين أرادوا بهذه الوسيلة تثبيت سلطانهم ، وضمان استمراره . على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون ، والفلاسفة في القرن الثامن عشر . ولم تعوز المدافعين عن هذا الرأي الأدلة عليه . فمن المحقق أن الدين كثيراً ما سُخر لخدمة السياسة ، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم . وقد فُضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى في تواريج جميع الأديان .

« ولكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عددها المرموم ؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هي التي أوجدت الدين ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع . فاذا قيل : إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين ، فانا أسألهم بدورى : وما الذى أوجب وجود القساوسة ؟ ليس لأجل أن توجد القسيسية ، ولأجل أن يجد هذا الاختراع في الشعوب كلها مشاركة عامة في اعتباره ، يجب أن يكون ثاويًا في سويداء القلوب عاطفة دينية ، نحت هذا الاختراع صبغة مقدسة ؟ نعم ، فيجب قلب وضع العبارتين ، والقول بأنه ليست القسيسية هي التي تفسر وجود الدين ، ولكن الدين هو الذى يعمل وجود القسيسية .

\* \* \*

« النظرية التي وضعها الفلاسفة الوضعية أعمق معنى ، وأكثر تماسكا . قالوا إن الدين الذى كان موجودا في أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيرا ساذجا للظواهر الطبيعية العجيبة التي كانت تدهش الانسان الجاهل وتزعجه . فهو بداية العلم وصورته الطفلية . وهذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالى الاحقاب لصور أخرى أرقق منها وأكثر إنقانا . ولقد عهدنا الأطفال والمتوحشين بمنحون حياة روحية لكل ما يحيط بهم . فهم يتخيلون وجود إرادات فعالة خلف جميع الظواهر التي تثير عندهم الخوف أو الرجا . وبناء على هذا عمدت مخيلة الأناسى الأولين الى ملء الوجود بعدد لا يحصى من الأرواح الخيرة والشريرة ، وتوهموا أنهم يتأثرون بأعمالهم الخفية في كل صغيرة وكبيرة مما يصيبهم . وقد رأينا الساعة كيف عللوا وجود الدين بوجود القسيسية ، وأمامنا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الاساطير الخرافية . ولكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذى تقع فيه بسيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها .

« القول بأن الدين ضرب من العلم ، يعتبر خطأ لا يقل في خطورته عن القول بأنه نوع من النظم السياسية . نعم ، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية تكون مصاحبة دائما لشيء من العلم ، ولكن هذا العنصر العقلى مهما ظهر أنه ضرورى للعقيدة ، فهو ليس في شيء من مادتها ولا من جوهرها ، وأنه يتغير على الدوام في أدوار الانتقالات الدينية . والصينغ

المذهبية ، والعبارات الأصولية ، هي وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه ، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر في أعقاب كل أزمة فلسفية . فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول ، ولكن الدين يبقى على ما هو عليه من القوة بحيث لا يتأني لأية صورة خارجية أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية .

« يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التي مر بها الفكر الانساني فيما ذهب إليه أجوست كومت وتلاميذه ، وهي : الدور اللاهوتي في العصور الأولية ، ودور ما وراء الطبيعة في القرون الوسطى ، والدور العلمى في العهد الراهن . فاذا كان الدين في جوهره علما ، لكان مرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور ، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرق منها . والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا في شيء ، بقاء الدين وظهوره في جميع العهود ، وفي درجات من الثقافة متباينة كل التباين . والذي يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفا ليست متعاقبة ، ولكنها توجد كلها في وقت واحد . فهي لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ ، ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الانسانية . فانك تجدتها مجتمعة على درجات متخالفة في العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وتجدها في العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال وليبنز وكنت وكلود برنار وباستور . وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده ، يتميز عن الفلسفة وعن الدين . فليس من الدين البحث العلمى الذى لا يرمى إلا الى تحديد الظواهر وشروط حدوثها في الزمان والمكان ؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها ، وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح ؛ وليس من الدين أيضا الحاجة الاعتقادية التى إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهراً أدبيا للغريزة التى تحمل كل كائن على التشبث بالخلود . فكيف لا تظهر هذه الميول المختلفة للنفس فى آن واحد ، وعلى سموت متوازية ، وهي موجودة معا فى الجبلبة الانسانية وفى كل زمان ؟

« فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمثلة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشياع الفلسفة الوضعية أنفسهم ؟

« إن أجوست كومت وهربرت سبنسر وليتريه سيكونون شهودنا العدول على صدق ما نقول . فزعيم الفلسفة الوضعية ( يريد أجوست كومت ) الذى كان قد أنبأ بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية فى النفس الانسانية ، توج مذهبهم وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة ، نسجها بقله مهارة على النظام الكهنوتى ، وطقوس الكاتوليكية الرومانية . نعم ، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدّى فيها العبادة لقسديسين ، ولها مخلفات مقدسة وأعياد سنوية ، وكتاب تعاليم دينية ، على رأسها قس كبير ليس بأقل عصمة من الحبر القائم فى روما ، الامر

الذى هاج على اجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه، وأرادوا الاعتذار عنه باتهامه بالجنون . ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع . والحقيقة هى أن اجوست كومت بعدما فرغ من بناء مذهبه الاجتماعى ، أدرك الدور الذى تقوم به العاطفة والغريزة الدينية فى حياة الشعوب ، فرأى أنه لا يستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلية إلا بالدين ، فأناهاها به على أسلوبه . إنه ليقال إن بعض المبتورين يحسون بحكة شديدة فى مكان أعضائهم المقطوعة ، ويظهر أن اجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة ، فأخذوا ما أحدثوه ، فتكون الطبيعة فى سخريتها بالمستخفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم .

« ولسنا بحاجة لإطالة الكلام فى هربت سبنسر ، فالتناس يعلمون ما آل إليه فى مذهبه قوله ( بالموجود الذى لا يمكن إدراكه ) من اعتباره قوة غير محدودة ، ولا واعية ، تندعن مأخذ التفكير ، ولكنها مع ذلك فى نظره العلة المفسرة لكل تطور ، والينبوع العبد الذى يستمد منه كل شئ وجوده . فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء ، ألسنا نرى فى هذا القول المذهب القديم فى وجوب وجود علة أولية للوجود ، وصورة غير واضحة للإله الذى يقول به المؤمنون ؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الانجليزى على هذا النحو الى إعلان الدين الخالد ، وإلى حصر الحياة العقلية للانسان فى جهدين أصليين أوليين : أولهما الجهد العلمى الذى يتعقب الظواهر الطبيعية واستحالاتها ، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للموجود العام ؟

« أما ليتريه فأمره أشد تأثيرا على النفس . فانى أذكر أنى قرأت له صفحة ضخمة فى بعض مؤلفاته مؤداها أنه بعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة ، ووصل الى نهايتها القصوى ، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة الى البحر ؛ وهناك وجد نفسه محاطا بالمساتير من كل مكان كأنها محيط لا ساحل له ، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولا شراع ولا بوصلة ، فوقف يتأمله ، فاعتراه خشوع أمام هذا المجهول ، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه ، وأنزلت على قلبه السكينة والسلام . فسألت نفسى عند ذاك : ما معنى هذا التأمل فى هذا المستور الكبير إن لم يكن انفجارا فجائيا للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها ؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الموجود الذى لا يمكن إدراكه أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس بعلم ولكنه غريزة ؟

« قد وصلت الآن ، وإن كان هذا المذهب أقدم مما مر ، فإنه يوصل الى ما يقرب من الغاية التى نرى إليها . فقد قال شاعر لا تبنى : ( إن الخوف هو الذى ولد الآلهة ) . هذا التعليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح . ذلك أنه مما لا مشاحة فيه أن عاطفة التدين تنهت فى قلب

الانسان تحت تأثير الخوف الذى سببته له القوى الطبيعية الاولى المضطربة حوله . فانه وقد قذف به عارى الجسم ومجردا من السلاح على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه ، واقعا فى حالة من تنلظى ، كان يمشى وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه ، واقعا فى حالة من الفاقة والبؤس تملأ فؤاده بذعر عظيم . نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل ، فإن الخوف وحده ليس فى ذاته فى شئ من الدين ، إذا أنه يشل القوى ، ويطمس العقل ، ويسحق الانسان . فلاجل أن يكون الخوف خصبا من الناحية الدينية، يجب أن يلبسه من لدن وجوده شعور مضاده ، أى بصيص من الأمل . يجب أن يشعر الانسان وهو بين برائن الوجل بإمكان التغلب عليه ، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عونا يدفع عنه ما يتوقعه من خطر . وبناء على هذا فالخوف لا يولد الدين عند الانسان إلا لأنه يوقظ فيه الأمل ، ويلهمه الدماء الذى يفتح لنوازل متسرِّبا . هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم . وهو يقربنا من ينبوع الذى نبحت عنه بوضعنا فى المجال العملى للحياة ، لافى دائرة النظريات العلمية . فالأمر الذى يعنى الانسان من الدين هو نجاحه من العطب ، فاذا ظهر أحيانا أنه يحاول بواسطته أن يدرك سر الوجود ، فليس ذلك إلا ليحل بهذه الوسيلة سر حياته الشخصية . ونحن بعد أن وصلنا الى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة . فيتعين علينا أن نرى كيف ينبع الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية . وهو ما سنصل اليه بتحليل بيسيولوجى يستطيع كل إنسان أن يتابعه ، وأن يحققه بسهولة إذا كان ممن يملكون القدرة على ذلك بالاعتماد على تجاربهم الخاصة .

\* \* \*

( مجلة الأزهر ) : هذه محاولة فلسفية تعتبر أبعد ما أنتجته الفلسفة الأوربية لإثبات أن الدين غريزة طبيعية فى النفس البشرية ، فانظر كيف تتأدى الفلسفة العالية الى تأييد الكتاب المجيد ؟ أليس كل ما فى هذا البحث الجليل محصورا فى قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ( فطرة الله ) التى فطر الناس عليها ، لا تبدل خلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

محمد رفيع وهبى



## الكلام والمتكلمون

— ٤ —

المعـتـزلة

تتمة الحديث عن مشاهير زعمائهم :

النَّظَّام :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانى . وقد لقبه الجرجاني بأحد شياطين القدرية ، ولا يعرف ما لدينا من كتب التاريخ المعتمدة متى ولد ، وإنما كل ما يعرف عن حياته الخاصة هو أنه نشأ في البصرة وتلقى النظر على أبي الهذيل العلاف وتابعه في حملته على المانوية ، وأنه عنى عناية فائقة بالرد على الدهرية ، بل كرس لذلك شطرا عظيما من حياته ومجهوداته ، وأنه أمضى السنين الخصبية الأخيرة من حياته في بغداد ، وأنه طالما اشتعل لهيب الجدل في تلك الحاضرة بينه وبين زعماء المرجئة والجبرية ، وأهل السنة والفقهاء ، وأنه حينما اشتهر بعلمه وذكائه انفصل عن مجلس أستاذه أبي الهذيل وأسس مذهبه الخاص الذى كان له على معتزلة بغداد أثر عظيم الشأن ، وأنه هو الذى خلق أهم المشكلات التى كانت موضع الجدل في عصره ، وهو الذى وجه أعوص الاعتراضات الى أهل السنة ، وأن خصومه كانوا يشنعون عليه زاعمين أنه دهرى رغم ما صوبه الى الدهرية من سهام الطعن والتجريح ، وأن الخليفة المأمون كان يشغف بسماع مناظراته مع أبي الهذيل . وقصارى القول أنه كان حوالى سنة ٢٢٠ هـ ساطعا في سماء البيئات العربية المثقفة ، وأنه توفى فيما بين سنتى ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ — ٨٣٥ و ٨٤٥ م .

أما آراؤه الخاصة فقد كانت متأثرة بالفلسفة الى حد بعيد كآراء كل معتزلة عصر الترجمة . ولهذا يحدثننا الشهرستاني أنه قرأ كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط آراءهم بآراء المعتزلة .

غير أنه لما كانت كتبه قد فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة نقلها الينا عنه تلميذه الجاحظ ، فاننا نرى أنفسنا مضطرين الى الاحتياط مما نسب اليه من آراء ، لاسيما وأن مؤرخى الحركة العقلية عند العرب قد عزوا اليه آراء كثيرة بعضها مخنلق ، والبعض الآخر مشوه أو محرف ، ونموزج ذلك التشويه ما نسبته اليه البغدادي في كتابه « الفرق » من آراء تعتبر كما يقول أحد المستشرقين — غاية في الزيف والتضليل وسوء النية . ويرجح أن يكون البغدادي قد نقلها عن ابن الراوندى .

ينبغي ، قبل أن نجمل آراء النظام الخاصة ، أن نشير الى أن فكرتين هامتين قد غلبتا



عنده كل ما عداها، وهما : فكرة التوحيد البريء من جميع شبه التعدد وعلائق التألف  
مهما ضوّلت ، وعلى أى حال فرضت ؛ وفكرة جعل القرآن هو المصدر الأواحد للإلهيات  
والأخلاقيات ، وقد أدخلته هذه المغالاة في مخاصمات غنيقة مع جميع الفرق المعاصرة له  
حتى المعتزلة أنفسهم .

يتلخص أهم هذه الآراء التي انفرد بها فيما يلي :

( ١ ) قوله بأن القبح ليس مقدورا لله . وحجته في ذلك أن الأولين قالوا : إن الله قادر  
على الأفعال القبيحة ، ولكنه لا يفعلها لقبحها . فقال لهم : إذا كان القبح مانعا من نسبة  
الفعل اليه ، فانه يجب أن يكون مانعا من نسبة الإمكان اليه أيضا . ولما اعترض عليه بأن  
هذا يستلزم أن تحد قدرة الله ، أجاب بأن القول الآخر يستلزم أن يحد فعله ، ولا  
فرق بين الحالتين .

( ٢ ) قوله إن الانسان في الحقيقة هو النفس ، والبدن قالبها ، وإن الروح جسم  
لطيف مشابك للبدن ، مداخل له بأجزائه مداخلة المائية في الورد ، والدهنية في السمس ،  
والسمنية في اللبن ( ١ ) .

ويلحق الشهرستاني على هذا الرأي بما يفهم منه أن مبدأه محاكاة للفلاسفة « الميتافيزيكيين » ،  
ولكن النظام قصر عن فهم مبادئهم ، فمال الى الطبيعيين منهم وجارهم فيما قرروه . ولو أن  
النظام كان قد قرر أن الروح في البدن كالماء في الورد ، والدهن في السمس ، والسمن في اللبن ،  
لكان ما رماه به الشهرستاني صحيحا . ولكن بما أنه يقرر أن الروح في البدن كالمائية  
والدهنية والسمنية ، والفرق بين النوعين جلى ، فنحن نرى أنفسنا بازاء هذا مضطرين الى  
الاحتياط من تهمة الشهرستاني .

( ٣ ) قوله بنظرية الظهور والسكون التي طعن عليه من أجلها كثير من خصومه الذين لم  
يفهموه ، والتي لم تكن في الحقيقة إلا معولا قاسيا استعمله في هدم مذهب الدهرية .

( ٤ ) تصريحه بأن إعجاز القرآن منحصر فيما أنبأنا به من أخبار ماضية ومعلومات ضرورية  
لنا ، وما احتواه من مغيبات وأسرار ، لا في أسلوبه الذي كان من الممكن أن يحاكيه البشر  
لو لم يصرفهم الله عن هذه المحاكاة .

ولا يخفى أن مصدر هذا الرأي هندي ، إذ أن بعض كهنة البراهمة قرروا أن محاكاة  
كتابهم المقدس « الفيدا » ممكنة ولكن إلههم صرف المتحدثين عن هذه المحاكاة .

(٥) قوله بأن كل شيء في السكون خاضع لناموس طبيعي ، ولا يوجد بين الكائنات كائن حر في فعله وتركه إلا الانسان وحده .

(٦) رأيه القائل بنفي الجزء الذي لا يتجزأ ، وبقبول الأجسام انقسامات لا تنتهي .

(٧) قوله بأن الأعراض ، من طعوم وألوان وروائح ، أجسام . وهذا الرأي الأخير متأثر برأى « الذرّيتين » من فلاسفة الاغريق القائل بأن الطعوم والألوان والروائح مؤلفة من ذرات اجتمعت بكميات معينة وعلى حالة خاصة .

(٨) تصريحه بأن كلام الإله جسم مخلوق ، وكلام الانسان أعراض . وغير ذلك من الآراء التي قد يكون غيره شاركة فيها ، ولكنها لم تشتهر عن هذا الغير اشتهاها عنه .  
فضل بن الحديدي واحمد بن حابط :

هما من تلاميذ النظام ، وقد زادا على مذهبه أن للعالم خالقين : أحدهما قديم وهو الباري ، وثانيهما محدث وهو المسيح ، بدليل قول القرآن : « إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » ، وأن المسيح هو الذي سيحاسب الناس يوم القيامة ، وأنه هو المقصود بقول القرآن : « وجاء ربك والملك صفا » ، وهو الذي يأتي في ظلل من الغمام ، وهو المعنى بقوله تعالى : « أو يأتي ربك » ، وهو المراد بقول النبي عليه السلام : « إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن » . وانفرد أحمد بن حابط عن صاحبه بقوله : إن المسيح تدرع بالجسد ، وهو الكلمة القديمة المتجسدة .

وقد قال أيضا بالتناسخ ، فزعم أن الباري قد خلق الناس جميعا أممحاء عقلاء في دار قبل هذه الدار ، وأسبغ عليهم نعمه ، وكلفهم بأوامر ، أطاعه فيها كلها فريق ، وعصاه فيها كلها فريق ثان ، وأطاعه في بعضها دون البعض فريق ثالث ، فأبقى الفريق الأول في تلك الدار السعيدة ، وأدخل الفريق الثاني النار ، وأقر الفريق الثالث في هذه الدار على صور تختلف باختلاف أفعالهم ؛ فمن كانت آثامه أقل ، كانت صورته أقل قبحا ، ومن كانت آثامه أكثر ، كانت صورته أقبح . ولا تزال هذه الحيوانات تعود الى الدنيا مرة بعد أخرى ما دامت آثامها تصحبها .

ومما أثر عنهما أيضا : تأويل الحديث القائل بأنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، بأن الذي سيرى كالقمر هو العقل الفعال الذي قال به الفلاسفة (١) .

عمرو بن بحر الجاحظ : — المتوفى في سنة ٢٥٥ هـ وهو أول موسوعي في البلاد العربية ، وكان في مبدأ شبابه تلميذا للنظام ، فتلقى عنه العلم وتأثر بأرائه . ولما نضج صار رئيسا لمدرسة البصرة الاعتزالية ، وقد كتب عددا عظيما من الكتب في كثير من الفنون والعلوم المختلفة كالآداب والخطابة والتوحيد والفلسفة والتاريخ الطبيعي والجغرافيا ، وقد امتازت كتبه بميزات

كثيرة كالدقة والنقد وصوغ المعاني القوية في ألفاظ أنيقة ، وكنجيميل آرائه بزينة الأسلوب تارة ، وممزجها بالفكاهة تارة أخرى . وإليك ما وصف به المسعودى هذه الكتب ، قال : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبنا منه مع قوله بالعثمانية . وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع . وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلوا صدا الأذهان ، وتكسف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارئ ، وسامة السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة » . (١)

ومن أبرز آرائه قوله : إن معنى كون الإله عالما أنه لا يجوز عليه السهو ولا النسيان . ومعنى كونه مريدا أنه ليس مكرها ، وأن من اعتقد وحدة الإله ورسالة محمد لم يكلف بعد ذلك شيئا ، وأن من دان بالتشبيه أو بالجبر فهو كافر . أما أسخف ما نسب إليه من الآراء فهو قوله بأن القرآن جسم ، تارة يكون رجلا ، وتارة يكون امرأة .

محمد الجبائى وابنه أبو هاشم — هما من بقايا تلاميذ المدرسة الواسطية . وقد كانا من أبرز أهل عصرهما وأذكا مذهبنا ، وأكثرهم علما ، وأعلاما كعبا في النظر والبحث ، فأقرا كل أصول المعتزلة وزادا عليها أن إرادة الرب حادثة لا في محل ، وأنه متكلم بكلام يخلق في جسم . وانفرد الجبائى بأن معنى كون الله سميعا بصيرا هو أنه حي لا آفة به ، وأنه يجب على الله لمن يكلفه إكمال عقله ، وتهيته أسباب التكليف له . وانفرد أبو هاشم بقوله : إنه لا يتعلق علم بمعلومين على التفصيل ، وصرح بأن جحود قدماء المعتزلة الصفات بتاتا ضرب من التعسف ، وأن الحق هو أن العلم والإرادة والقدرة هي أحوال لله ، بها يعلم ويقدر ، وهي ليست معلومة ولا مجهولة ، أى أنها لا تعرف وحدها ، وإنما مع الذات فقط . وهذه الأحوال هي التي شبهها الشهرستاني بأقانيم المسيحية كما أسلفنا .

هذا ، وسنوالى البحث في الفصول المقبلة في مميزات المعتزلة ومذهبهم العام ؟

**الركنور محمد غمرب**

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحتي ١٣٥ و ١٣٦ من الجزء الرابع من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى طبعة

## ذكرى ميلاد النبي الكريم

« محمد رسول الله »

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لئفى ضلال مبين »

ليس من الحديث المكرر ، ولا من القول المردد ، أن يعاود الكاتب البحث فى شخصية النبي عليه السلام ، كلما جاءت ذكرى ميلاده ، أو ذكرى هجرته ، أو ذكريات غزواته ، أو أى عمل من الأعمال الجليلة التى قام بها ، والتى انتظمت عقداً تحلى به جيد الدهر ، وصار الناظر الى كل درة من درر هذا العقد ، يبهره سناؤها ، وتستولى على مشاعره وحواسه دهشة الإعجاب . ولا غرو أن تكون ذكرى ميلاده باعنا قويا ، وحافزا ملحا ، للكاتبين والواصفين ، فى أن يكشفوا للناس بعض صفاته الخلقية : من الشجاعة ، والكرم ، ولين الطبع ، وقوة العزم ، وكمال التضحية ، والصبر على تحمل المشاق ، فى سبيل القيام بالواجب ونصرة الحق .

فى محمد صلوات الله عليه - وقت أن كان جنينا فى بطن أمه - عبرة وعظة ؛ وفى رضاعه عبرة وعظة ، وفى معيشته والحصول على رزقه - قبل بعثه - عبرة وعظة . فهو الذى حملت به أمينة بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة ، ولما يعض على حملها إلا القليل من الزمن حتى أدركه اليتيم بموت أبيه . وحان موعد ميلاده ، الذى كان ينتظره جده عبد المطلب بفارغ الصبر ، فأشرقت الدنيا به فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول (٢٠ من ابريل سنة ٥٧١) ، فأسماه جده عبد المطلب (محمدأ) .

ولقد انتظرت أم اليتيم حبيء المراضع من بنى سعد لتدفع بطفها الى إحداهن ، ليشب فى البادية على الصفات الحميدة ، وتلك عادة أشرف أهل مكة ، فانهم كانوا يسمون أطفالهم الى المراضع من أهل البادية . ولكن من هى تلك التى ترغب فى أخذ ذلك اليتيم ، الذى لا يستطيع أهله دفع ما تطلبه المراضع ، من مال ونحوه ؟

ولقد كانت حليلة بنت أبى ذؤيب السعدية ، ممن عرض عليهن هذا اليتيم ، فأبت أن تأخذه أول الأمر ، ولما لم تجد من الاطفال من تأخذه ، رضيت بأخذ محمد صلى الله عليه وسلم . ولئن كان محمد قد أدركه اليتيم بموت أبيه وهو فى بطن أمه ، فقد ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره وهى آيبة من المدينة ، بعد زيارتها لبنى النجار ، أخوال زوجها عبد الله ابن عبد المطلب ، فرجعت به أم أيمن الى مكة ، بعد أن أصبح يتيما من الأبوين . ولم تمض

على هذه الحادثة الممضتة الاليمية إلا سنتان ، حتى توفي جده عبد المطلب ، الذي كان يحنو عليه حنوا يفوق حنوه على أبنائه .

ومحمد بعد ذلك ينتقل الى كفالة عمه أبي طالب ، ويرحل معه الى الشام ، لينتدرب على التجارة ، ويتعرف مسالكها وأضرها .

ولسنا نطيل الحديث في هذه الأدوار التي مر بها محمد قبل بعثه ، بل الذي يعنينا العناية كلها ، ما قام به من الأعمال ، بعد أن حمل رسالة ربه ، وكلف بتبليغ خلقه ، وأنزل الله عليه : « يا أيها المدثر قم فأنذر . وربك فكبر » .

حينذاك واجه محمد قبائل متنافرة ، وعادات سيئة . خروب يحمي وطيسها ، وتغلي مراحلها ، وتشدد أهوالها ، لأنفه الأسباب . ومعتقدات متضاربة نشأت من ظلمة العقول ، وانحطاطها الى الحضيض من الإدراك .

ولقد كانت جزيرة العرب ، مشتملة على أقوام لا يعقدون بالخالق ويقولون : ما هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . وقد حكى الله عنهم ذلك فقال : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . وبجانب هؤلاء وجدت فئة تؤمن بالخالق وتنكر البعث ، وفي هؤلاء يقول الله تعالى : « بل هم في لبس من خلق جديد » . وبجانب هؤلاء وأولئك ، كان عبادة الأصنام : من بنى كلب ، وهذيل ومذجع ، وهذان وثقيف ، وقريش وكنانة ، والأيوس والخزرج ، يعبدون : اللات والعزى ، ومناة ، وودأ وسواها ، ويعفوث ، ويعوق ، ونسرا . يحكى عنهم القرآن فيقول : « وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ، ولا سواعا ، ولا يعفوث ، ولا يعوق ، ونسرا » .

وبجانب من تقدم ، كان اليهود والنصارى الذين استحكم بينهم الخلاف ، واشتد الجدل ، وطال الحوار . وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله » ، الى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم ، من طعن كل من أهل هاتين الديانتين في الديانة الأخرى .

\*\*\*

ولقد كانت هذه المعتقدات المتضاربة المتنافرة ، سببا في الاضطرابات المتتالية ، والدماء المرافقة ، في هذه الجزيرة التي طوحت بها ظلمة العقول ، واشتداد الجهل ، وفشو الخرافات ؛ وكان لا بد للرسول عليه السلام من أن يوطد لدينه ، ويمهد لدعوته ، ويثبت أركان رسالته في هذه الجزيرة ، مهبط وحيه ، حتى يستطيع بعد ذلك أن يعمم رسالته ، ويبلغها الى جميع سكان المعمورة .

فكّر النبي صلى الله عليه وسلم في جمع الكلمة ، وربط القلوب ، وتوحيد الاتجاه ، وقد تم له ذلك ، إذ يقول الله تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله ، هو الذي أيدك بنصره ، وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

ولم تكن التشريعات الإسلامية تفرق بين غنى وفقير ، ولا بين قوى وضعيف ، وما ذاك إلا لأن الإسلام دما إلى الوحدة ، وإلى الأخوة ، وإلى المساواة ، إذ يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وإنما جاءت التكاليف الإسلامية موافقة للفطرة ، ملائمة للطبيعة الإنسانية : لا عسر فيها ، ولا إرهاق ، ولا إعنات ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، وقال : « واجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج » ؛ وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . فهو دين سمح ، لين سهل ، يكره الغلو ويبغض التشدد ، ويبيح للنفس التمتع بالطيبات ؛ يقول الله جل وعز : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ؛ ويقول : « يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم » .

\*\*\*

حدّد الإسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الراعى والرعية ، على أحسن وجه ؛ وأسسها على أقوم قواعد ، تنتج الصالح العام ، وعدم ضياع حق الفرد على الأمة ، وحق الأمة على الفرد ، وتحقيق تكاتف القوى ، واتجاهها لغاية سامية ؛ فجعل الحكم شورى لا استبداد فيه ، ولا تجبر ولا طغيان ، إذ يقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، ويخاطب رسوله الأمين صلوات الله عليه بقوله : « وشاورهم في الأمر » . وقد كانت أعمال النبي صلى الله عليه وسلم شاهدة بذلك ، فكثيراً ما جمع أصحابه ، واستشارهم في أمور مالية وسياسية ، وحربية ، فتراه في غزوة (أحد) يأخذ رأى أصحابه في اختيار أحد أمرين ، ها : انتظار المؤمنين في المدينة ، أو الخروج إلى لقاء العدو خارجها ، وقد كان رأيه ورأى بعض أصحابه المسكت بالمدينة ، ورأى الأغلبية الخروج إلى لقاء العدو ، فنفذ عليه السلام رأى الأغلبية ، وخرج للملاقاة العدو ؛ فكانت الشورى أساس نظامه .

وقد جعل الإسلام بجانب الشورى في الحكم ، وجوب الطاعة من الرعية لأولى الأمر ، إذ يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

\*\*\*

تلك لمحات جاشت بالنفس عند ذكرى مولد النبي الأسمى ، ذلك المصلح العظيم الذي ولد ليولد على يديه دين الفطرة ، ولتوجد في أسس هذا الدين الفطري ، مصالح الناس منظمة محققة ، تسعى لهم ويسعون لها آمنين مؤمنين .

فهل عند ذكر الميلاد المحمدى أو ذكره ، يذكر لذلك الدين مجد ، وممو ، وفضل على الدنيا ؟ الدنيا التي تشهد للاسلام بالسلام ، كما تشهد للانسان بالنسيان والطفيان .

صدق الله تعالى ، له الحجة على ابن آدم بعد أن قال له :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون »

عبر الله المرافق  
وکیل قسم المساجد

## دين الاسلام كما يحفظه المسلمون

### THE RELIGION OF ISLAM

يرى حضرات قرائنا أننا ألحقنا اليوم بمجلة الأزهر ملزمة انجليزية تحت عنوان (The Religion of Islam) وهي الملزمة الأولى من كتاب قيم وضعه حضرة الأستاذ الأمامي الجليل أحمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات في القطر المصري ، وضعه خصيصا للتعريف بالاسلام للام التي تتكلم الانجليزية ، وقد سبق لنا الاطلاع على هذا الكتاب الذي اطلع عليه عدد كبير من رجال العلم الانجليز والعرب ، فوجدناه جديرا بأن ينشر ملحقا لمجلة الأزهر تباعا حتى يتم ، والذي يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة أن واضعه الفاضل توخى فيه بيان مزايا الدين الاسلامي ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وتوفيقه لجميع حاجات القلوب والعقول ، بعبارات بليغة تؤثر في قارئه من أهل تلك اللغة أبلغ تأثير . وقد جلي فيه المسائل الاسلامية الكبرى تجلية جديدة بباحث واسع الاطلاع ، نير البصيرة .

# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الادب العربي

جاهليته وإسلاميته

— ٣ —

جناية الادب الجاهلي ، على الادب العربي أيضا

لم يكن صاحب هذا البحث ذاعذره ، ولا أول من وفق الى إثارتة ؛ فقد عرفت أن الشاعر أبا نواس قد طرقة ، واستهجنه ؛ وأكبر ظني أنه لولا تلك النزعة الشعبية التي كانت تبدو من خلل أشعاره ، لمضى به ، ونجح فيه ، ولم يأخذه عليه أحد . ويؤيد هذا الظن ما زعموا : من أن أول من تنبه الى ذلك مطيع بن إلياس العربي الكناني ، وهو شاعر من طبقة كانت في صدر الدولة العباسية ، قبل أبي نواس وأبي العتاهية ، قالوا : وقد اجتمع بقى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ؛ فقال مطيع :

لأَحْسَنَ مِنْ بَيْدٍ يَحَارُّ بِهَا الْقَطَا      وَمِنْ جَبَلٍ طَى ، وَوَصَفَا سَلْمَا  
تَلَا حَظَّ عَيْنِي عَاشِقِينَ ، كَلَاهُمَا      لَهُ مَقَلَةٌ فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ تَرَعَى

وكذلك تنبه له النقاد ؛ فهذا ابن رشيق يقول : « وليس بالتحديث من الحاجة الى أوصاف الإبل ونعوتها ، والقفار ومياها ، وحر الوحش ، والبقر ، والظلمان ، والوعول - ما بالأعراب وأهل البادية ؛ لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفا ، ليجرى على سنن الشعراء قديما ؛ وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما في تلك الطرائق ، ما هو مشهور في أشعارهم ؛ كرائية الحسن في الخصب ، وجسمية ابن المعتز المردفة في الضرب الثاني من السكامل . والاولى بنا في هذا الوقت ، صفات الخمر والقيان ، وما شاكلهما ، وما كان مناسبا لهما ، كالكووس والقناني والآباريق ، وتفاح التحيمات ، وباقات الزهر ، الى ما لا بد منه : من صفات الحدود والقدود والنهود ، والوجوه والشعور ، والريق والثغور ، والأرداف والخصور ؛ ثم صفات الرياض والبرك والقصور ، وما شاكل المولدين ؛ فان ارتفعت البضاعة ، فصفت الجيوش وما يتصل بها ، من ذكر الخيل والسيوف ،



والرماح والدروع ، والقسي والنبل ، الى نحو ذلك ، من ذكر الطبول ، والبنود ، والمنحرفات والمنجنيقات ؛ وليس يتسع بنا هذا الموضوع لاستقصاء ما في لنفس من هذه الأوصاف الخ « اه .  
يبد أن الظاهرة البارزة ، التي تبدو سافرا للقارئ الكريم : أن الشعراء والنقاد القدامى ، تناولوا الموضوع برفق ، وعالجوه في هوادة ولين ؛ فأما بحائثنا العلامة ، فقد تناوله بعنف ، وثار فيه ثورة جامحة ، كلها لخب ، وكلها صخب ، وكلها هدم ، وكلها تدمير ؛ وليس فيها مخالفات ، ولا جنح مركزية ، بل كلها جنائيات ، محكوم فيها بالإعدام ، بلا نقض ولا إبرام !!

\*\*\*

لا جرم أن للأدب الجاهلي الأثر البالغ في الأدب العربي ، لقيامه منه مقام الأصل من الفرع ، كما أسلفنا القول ؛ ولكن هذا الأثر لم يحن على الأدب العربي ، ولم يحد من فراحته ، ولم يقتصر به دون السمو الى الغايات ، في قوة النسيج ، وسمو الخيال ، واتساع الأغراض ، وبديع المعاني ؛ وما كنت لأشرح هنا ما تكفلت به كتب تاريخ الأدب للمدارس الثانوية والعالية ، من أدلة ذلك ، فهو من الحديث المعاد ؛ وإن حسبي أن أقول : إن رجال النقد الأدبي على أن الشعر الاسلامي : شعر الأخطل والفرزدق وجري ، وغيرهم من شعراء بني أمية — أفضل من شعر الجاهليين ؛ بل لقد تعدوهم ، فقدموا شعر المصدر الأول من العصر العباسي ، على الشعر الجاهلي . قال العلامة ابن خلدون : « إنا نجد شعر حسان بن ثابت ، وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجري والفرزدق وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية ، وصدر من الدولة العباسية ، في خطبهم وترسيلهم ، ومحاوراتهم للعلوكة — أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة ، وعنترة ، وابن كثوم ، وزهير ، وعلقمة بن عبدة ، وطرفة بن العبد ؛ ومن كلام الجاهلية ، في منشورهم ومحاوراتهم ؛ والطبع السليم ، والذوق الصحيح ، شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك ، أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام ، سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم ، وارتقت ملكاتهم في البلاغة ، على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصنى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفا ، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة ؛ وتأمل ذلك ، يشهد لك به ذوقك ، إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة » اه .

أما أبو الفتح بن جني ، فيقول : « المولدون يستشهد بهم في المعاني ، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ » . ويعلل ذلك ابن رشيقي ، بأن المعاني إنما اتسعت ، لاتساع الناس في الدنيا ، وانتشار العرب بالاسلام في أقطار الأرض ، فمضروا الأمصار ، وحضروا الحواضر ، وتألقوا

في المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلّتهم عليه بداهة العقول ... وصفة الانسان مارأى ، يكون — لا شك — أصوب من صفته ما لم ير ؛ وتشبيهه ما عاين بما عاين ، أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر . .

ثم قال : « ولم أدل بهذا على أن العرب خلت من المعاني جملة ، ولا أنها أفسدتها ؛ لكن دلت على أنها قليلة في أشعارها ، تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ؛ وهي كثيرة في أشعار المتأخرين ، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ، ونصبوا الأعلام للمتأخرين ... ومن هذا يتبين ما في أشعار الصدر الأول الاسلاميين ، من الزيادات على معاني القدماء والمخضرمين ، ثم ما في أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة ، التي لا يقع مثلها للقدماء ، إلا في الندرة القليلة ، والقلته المفردة ؛ ثم أتى بشار بن برد وأصحابه ، فزادوا معاني ما مررت قط بخاطر جاهلي ، ولا مخضرم ، ولا إسلامي ؛ والمعاني أبدا تتردد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضا » اهـ .

وقال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته لا يحسن إلا غريبه ؛ فرجعت الى الأخفش ، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ؛ فعمطت على أبي عبيدة ، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالآخبار ، وتعلق بالآيام والأنساب ؛ فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحنس ابن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . قال الصاحب : فله أبو عثمان ! فلقد فاص على سرّ الشعر ، واستخرج أرقّ من السحر ! ! .

ولا غرو ، فقد قيل : الكتاب دهاقين الكلام . ومما يؤيد ذلك قول ابراهيم بن العباس الصّولي ، يمدح الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد	تقاصر عنها المثل
فباطنها للندي	وظاهرها للقبل
ونائلها للغني	وسطوتها للأجل

وقد تناول ابن الرومي هذا المعنى فأجاد ، حين قال :

مقبّل ظهر الكف ، وهاب بطنها له راحة فيها الحطيم وزمزم  
فظاهرها للناس ركن مقبّل وباطنها عين من الجود عيّنم  
ولكن الأول أخف وزنا ، وأرشق لفظا ومعنى ؛ وبيتاه — وإن كان فيهما زيادة — بإزاء البيت الأوسط فقط من أبيات ابراهيم الصولي .

ومن قوله في هجاء ابن الزيات ، وقد بلغ فيه أبعد الغايات :

فكن كيف شئت ، وقل ما تشاء	وأرعد يميننا ، وأبرق شمالا
نجباك لئومك منجى الذباب	حمته مقاذيره أن ينالا

وما أحسن قول ابن الزيات :

مالي إذا غبت لم أذكر بواحدة      وإن مرضت فطال السقم ، لم أعد ؟  
ما أعجب الشيء ، ترجوه فتحرمه      قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي !!  
وعلى الجملة : كم ترك الأول للأخر !!

\*\*\*

من المفروغ منه ، أن مستوى الشعر قد انحط في المهود الأخيرة ، وأن جيده ومطبوعه لا يكاد يحس الى جانب زيفه ومصنوعه ؛ ولكن مرد ذلك ليس الى جنائية الأدب الجاهلي ، كما يرى الباحث الكريم ، أو تأثره ، كما يرى القدماء ؛ بل الى ضعف العلوم والآلات ، وانحطاط الثقافة العربية أولاً ، والجهل بالثقافات الحديثة ثانياً . وإلا فقد امتدت جنائية الأدب الجاهلي على الأدب العربي منذ صدر الاسلام ، ومع ذلك فقد تمرت عليها الآداب العباسية تمرداً ، وطفعت عليها طغيانا مبينا .

ويلد لي أن أستدل هنا بقول صاحب ضحى الاسلام ج ١ ص ١٤ : « فإذا نحن طقنا الى العصر العباسي ، وجدنا الناس ، وخاصة الفرس الذين دخلوا الاسلام ، لم يهودوا يتذوقون الشعر العربي الجاهلي ، وإنما يتذوقون ما ألفوا ، من التغني في شعرهم بالحب ، والخمر ؛ فظهر العباس بن الأحنف الخمراساني البيثة ، وأبو نواس الفارسي الأم ، يشبعان ذوقهما : الأول في عشقه ، والثاني في خمرياته . قد كان للعربي الجاهلي شعر في الحب ، وشعر في الخمر ؛ ولكن شتان بين خمريات طرفة ، وخمريات أبي نواس ؛ وشتان بين شوق امرئ القيس ، وشوق العباس . ويعجبني في ذلك قول الجاحظ : « كم بين قول امرئ القيس : تقول وقد مال الغبيط بنا معا ، وبين قول علي بن الجهم :

سقى الله ليلا ضمنا بعد هجمة      وأدنى فؤادا من فؤاد معذب  
فبتنا جميعا ، لو ثراق زجاجة      من الراح فيما بيننا لم تسرب

فقد أخذ الفرس الوزن العربي ، والقافية العربية ، والأسلوب العربي ؛ ولكن أخذوا بجانب ذلك الخيال الفارسي ، والذوق الفارسي » اهـ .

وقد تأثر حبيب والمتنبي بالعلوم الفلسفية تأثرا أسرفا فيه إسرافاً ، جرّ عليهما النقد ، لأن الشعر ما أطرب ، وهزّ النفوس ، وحرك الطباع ؛ والفلسفة باب آخر غير الشعر ؛ وهذا باب أشهر من أن يدلّ عليه ، أو ينصّ بالإشارة إليه .

وليس عصرنا الحاضر بدما من العصور الأخرى ؛ فتابعوا الحركة الفكرية فيه ، لا يعوزهم الدليل على صحة ما نرى : من ردّ ضعف الشعر ، وغير الشعر من فنون الأدب ، الى ضعف

الثقافة ، وشيوع النوع « الشيطاني » منها . وإنّ حسبك أن تستعرض تاريخ الفئة القليلة ، التي تحسن النقد الأدبي اليوم ، لتؤمن إيماناً صادقاً بأن الثواب على قدر المشقة ؛ فإن أحدا منهم لم يبلغ ما بلغ ، حتى علّ ونهل من صميم الثقافة العربية في الأزهر ، ثم انتجع أوربة ، فعلّ ونهل من مورد طريف ؛ فانتج هذا « التطعيم الثقافي » مزيحاً ، فيه متانة القديم ، وفيه طرافة الجديد ؛ ولا عجب أن تجيء منازلهم في ذلك متفاوتة ، عند من عرف تفاوت حظوظهم من النضج الأزهرى ؛ فليس من شك في أن التفوق والتبريز ، من نصيب المتفوق المبرز في الثقافة العربية وإلاّ عسر المزج ، واستحال الهضم ؛ وجاء الإنتاج أخلاطاً غير متماسكة ، وأمشاجاً غير متشابكة ، ينكرها الشرق ، وينفيها الغرب ، فلا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

أما بعد ، فقد أخذ على بعض الأصدقاء ، أنني لم أصرح بأسماء من أعرض لنقد آرائهم ؛ وجوابي : أنني ما أردت رداً ؛ فإن وقت الرد قد فات ؛ بل أردت مناقشة هذه الآراء في جملتها ، وبيان وجهة النظر الأزهرية فيها ، توجيهها لآبنائى من طلبة كلية اللغة العربية ، وتكميلاً لمادتهم الدراسية ؛ فهذه النظرات الأدبية العابرة ، أبحاث صحفية ، متممة للبحوث المدرسية . على أن مثيرى هذه الموضوعات ، أشهر بأكارهم ومراكزهم ، من أن أدل عليهم ، أو أشيد بذكورهم . وقد أشار أستاذى العلامة مدير مجلة الأزهر بالإيجاز ، فلا أنزل على أمره ؛ ولا أكتفي في تحقيق « جنابة الأدب الجاهلى » بما قدمت ، وأنقل الحديث الى موضوع آخر . فالى اللقاء ؟

عبر الجوار رمضان  
كلية اللغة العربية

## ماهية التصوف

سئل رويم الصوفى عن الصوفى فقال : هو الذى لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء .  
وسئل رويم عن الأنس فقال : هو أن تستوحش من غير الله حتى من نفسك .  
وقد سمع رويم ينشد :

ولو قلت لى مت مت سمعاً وطاعة      وقلت لداعى الموت أهلاً ومرحباً

نقول : ربما ظن بعض الناس أن التصوف يغرى صاحبه بأن يكون عالة على غيره . وقد دحض صمر الفاروق هذه الشبهة بنفسه ، وقد سأل ناساً من أهل اليمن عن حالهم فأجابوه بأنهم متوكلون ، فقال لهم : كذبتُم بل أنتم متأكلون ! ألا أخبركم بالمتوكل ؟ هو رجل ألقى حبة في بطن الأرض توكلها على الله .

وقال صمر رضى الله عنه : من أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه ، فإنما أظهر ثقافاً على ثقاق .

# دراسة في القرآن الكريم

## المجاز والكناية في كتاب الله

تحت هذا العنوان كتبت في عدد من آي القرآن الكريم . وسأكتب اليوم في قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .

وفي تفسير هذه الآية يقول المفسرون : إن معنى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » أن الله تعالى مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذرية ، ثم قال : هؤلاء النار ، واستخرج فريقاً آخر ، ثم قال : هؤلاء للجنة ؛ وبنوا على ذلك ما يدعونه عالم الذر ، وأن ذلك العهد كان في هذا الحين الذي ذكره .

يذكرون ذلك ، وإنا إذا رجعنا إلى أصول الدين المقررة المقطوع بها والجمع عليها ، وجدنا ما ذكروا في تفسير هذه الآية من حديث عالم الذر الذي تخيلوه نخلوه ، ما يتنافى مع تلك الأصول منافاة واضحة لا تحتمل جدلاً ، ولا تقبل مراء .

أليس من المعروف قطعاً ، والمعلوم ضرورة ، والمتفق عليه من جميع الفقهاء ، في جميع العصور ، أن البلوغ هو الحد لجميع التكاليف التي جاء بها الإسلام ، لأن الشارع الحكيم ، ومكون النفوس ومقدرها ، وطالم تطوراتها وقواها ، قد علم أن ذلك هو السن التي تتم فيها العقول ، وينضج فيها النظر ؟ فكما ترى ، قد اقتضت حكمته السامية ألا يكلفهم قبل هذه السن ، وإن كانوا ناطقين مميزين ، يفهمون الخطاب ويدركون مقاصده ، ولكنهم مع هذا خفيفة أناتهم ، خداج أنظارهم ، مزدهاة أحلامهم . وبهذا تعلم أنه يكون من غير المعقول ولا المتصور أن يكلفهم وهم رضع في مهودهم ، وتعلم أنه أبعد من هذا عن المعقولية والتصور أن يكلفهم وهم في بطون أمهاتهم ، وإن كانت قد نفخت الروح فيهم ؛ أو أن يكلفهم مضغاً أو علقات ، أو نطقاً في الأرحام .

وإذا كان كذلك ، وأنهم لم يكلفوا في أطوار وجودهم ، مادنا منها من العدم وما بعد ، فكيف يكون من الله أن يكلفهم في ذلك العالم : عالم الذر ، وهم فيه عدم ليس لهم من اعتبارات

الوجود إلا أن الله يعلمهم ، إذ علم الله محيط بالغابر والحاضر والمستقبل ، محيط بالواجب والممكن والمستحيل ؟

وكيف يجوز على الله وهو الحكم العدل ، أن يؤاخذ من الناس من يخالف ذلك العهد وهم ما سمعوه ولا قرءوه ولا علموه ، ولا خطر في أنفسهم ولا على أقل وجوه الخطور ، ولا كما تخطر أضغاث الأحلام ، ولا كما يهجس الخيال بالآوهام ؟

هذا ما ندحض به هذا الذى أولوا به تلك الآية الكريمة أولاً ؛

وأما ثانياً : فإن من الأصول المقررة والمتفق عليها ، هو أن أهل الفطرة ناجون ، وقد استندوا في هذا الأصل أولاً : لقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، وثانياً : لقوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . فالآية الأولى كما ترى تدل في صراحة على أن الله عز وجل لا يوجه مؤاخذه على أحد من الناس حتى يعذر اليه بإرسال الرسل ، ليوظوا الشعوب من نومهم ، وينبهوهم من غفلتهم ، ويبينوا لهم طريق الحق والمصلحة . كما أن الآية الثانية تدل في قوة وصراحة على أنه لا يقطع حجة الناس نحو ربهم وخالقهم إلا إذا بُعث اليهم الرسل يبشرون المستجيبين للحق ، وينذرون من أعرض ونأى . فهل يمكن مع هذا أن تطاوعنا عقولنا فنجز أن يؤاخذ الله الناس ويحاسنهم بعهد يؤخذ عليهم قبل أن يوجدوا ، وقبل أن توجد آبائهم بل وأجدادهم ، كما هو مقتضى تصوير عالم الذر الذى يحدوثون عنه ؟ !

على أنه لو صح أن يراد من الرسول في قوله تعالى : « حتى نبعث رسولا » العقل ، لما تغير الموقف ، ولبقيت الحجة قائمة قوية على عدم صحة هذا الذى حملوا عليه الآية : من أن العهد قد أخذ على بنى آدم يوم استخرج الله من ظهر آدم ما أراد أن يخلقه من البشر ؛ إذ أنه مع هذا التأويل يكون قد بقي أن العقل شرط للمؤاخذه والتكليف ، وقد علمت أنه حتى اشتراط العقل للتكليف لم يطلق إطلاقاً ، بل قد جعل ارتباط التكليف به مقيداً بنصاب منه خاص ، حين حدد للتكليف حالة خاصة أو سناً معينة .

وأما ثالثاً : فإنه قد جعل في نفس الآية من الحكمة في أخذ هذا العهد على الناس ، أن تنقطع حجبتهم فلا يقولوا : « إنا كنا عن هذا غافلين » . وواضح أنه لو كان الأمر كما قالوا ، وأن العهد قد أخذ يوم استخرجوا من ظهر آدم ، لما كان ذلك قاطعاً حجبتهم ، بل يبقى لهم أن يقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، وهم إذ ذاك يكونون جدد محقين في أنهم عن ذلك العهد غافلون . فإنه إذا كان خالقهم الحكيم الرحيم قد اعتبر ذلك حجة منهم إذا هو لم يرسل اليهم الرسل مع بروزهم للوجود ؛ ومع منحهم العقل أداة النظر وآلة التفكير ، ومع بسط صحائف الكائنات

أمام أنظارهم ، وقد امتلأت بالآيات البينات والبراهين الواضحة على ما يجب لله من إجلال وتقديس ، فهل يمكن بعد هذا أن يفهم فاهم أن الله ذا الحكمة البالغة ، والرحمة الشاملة ، يؤاخذ الناس بعهد ما عرفوه ولا أدركوه ، ولا خطر لواحد منهم يبال ؟ !

اللهم إن ذلك هو بعينه تكليف ما لا يستطاع . اللهم إن ذلك هو بعينه تكليف المحال ! تعالى الله عن ذلك ، فهو الذى يمتن على عباده فى مواضع مختلفة من كتابه بسعة رحمته وسمو حكمته ، يقول عز من قائل : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وأما رابعا : فإن الآية لم يكن التعبير فيها : وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ، كما هو مقتضى هذا التأويل للآية ، بل عبارة الآية كما ترى بلفظ « بنى » مضافا الى آدم ، ثم ذكر الظهر مجحوما « من ظهورهم » مما هو صريح فى أن الأخذ ليس من آدم نفسه ، ومما هو صريح فى أن الأخذ من ظهور البنين . فالآية واضحة فى أن المراد بالأخذ هو التناسل والتوليد . وعلى العموم ، فأى عقل ذلك العقل الذى يتسع لأن تكون تلك القطرة من الماء المنحدرة من ظهر إنسان قد اجتمعت فيها بذور نسلها إلى نهاية تلك الحياة ؟ ! وكيف يحاطبنا القرآن ، وهو الكتاب المبين ، بما لا تقبله العقول ، ولا تسيغه الأفهام ؟ !

أما ما روى عن عمر بن الخطاب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أنه سئل عن هذه الآية فقال : إن الله سبحانه خلق آدم ، ثم مسح ظهره . . . الى آخر ما بينا سابقا ، من أنه قد خرج من ظهره فريق للنار وفريق للجنة ؛ أما هذا فهو إن صح ، لا يمكن إلا أن يكون من باب التمثيل ، وهو فى ذلك واضح كل الوضوح .

إلى هنا يتبين للناظر فى وضوح ، أنه ليس من الصواب أن تؤوّل الآية هذا التأويل . وعلى هذا فعلينا أن نفتحى بالآية ناحية تتفق وحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ؛ تتفق وجزالة القرآن ، وقوة أسلوبه ، وجلال معانيه .

إن الذى ينبغى أن تقصر به الآية الكريمة على ما يقع فى حدود الأصول المقررة فى الدين والمعلومة منه بالضرورة ، وعلى ما يتناسب مع حكمة الله ورحمته ، هو ما سنبيده ما

عاصر محسن

« يتبع »

المدرس بكلية اللغة العربية

# مَجْلَدُ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ

## تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٢ —

### ١ - ما معنى تاريخ الفقه :

الفقه ، فى اللغة : العلم والفهم والفطنة ، قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها » .  
وفى الحديث الشريف « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .  
وفى اصطلاح أهل الشرع : « العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية » .  
فالذى يقال له الفقيه على الحقيقة ، هو العالم الفطن القادر على الاستنباط ، وهو المجتهد ؛  
وأما غيره فلا يطلق عليه اسم الفقيه إلا مجازا وتوسعا إذا كان قد وصل فى العلم بالأحكام  
وتحصيل المسائل الى درجة يستباح معها التوسع والمجاز .  
وتاريخ الفقه : هو النظر فى عهوده المختلفة ، وما طرأ عليه من أحوال ، وما اختلف عليه  
من رجال .

وهذا النظر يستتبع الكلام عن طريقة استنباط الفقهاء للأحكام ، وعن العوامل التى أثرت  
فى ذلك ، ولونت الفقه بالألوان المختلفة ؛  
ويستتبع النظر فى الأسباب التى جعلت للفقه الاسلامى مكانته المرمية فى القانون  
والمعاملات ، حينما من الزمن ، وفى الأسباب التى انتزعت منه فيما بعد ذلك هذه السيطرة ،  
وأدت الى إقصائه ، تقريبا ، عن الحياة العملية ، وقصره على المسائل الشخصية والروحية !  
ويستتبع النظر فى ثقافة رجال الفقه التى أثرت فى فقههم ، ومدى انتفاعهم بالرواية ،  
أو اعتمادهم على الرأى ؛ وبالجملة عن طريقة استنباطهم أو تفريعهم ، أو تطبيقهم للقواعد العامة  
على جزئياتها المتعددة ؛

ويستتبع النظر فى تأليفهم ، وأساليبها المختلفة ، فى عهود الرق والانحطاط ، وما كان لهذه  
التأليف من أثر فى الإحسان الى الفقه أو الإساءة اليه . هذا هو تاريخ الفقه .  
وبعض الذين يكتبون فى هذا العلم يسمونه « تاريخ التشريع » . وهذه العبارة نفسها هى  
العبارة الرسمية فى منهاج الدراسة بكلية الشريعة .

وقد أعجبني تحقيق جيد لاستاذنا العلامة الشيخ محمود شلتوت فى محاضرة من محاضراته  
القيمة ، أثبت به أن هذا الإطلاق خطأ ينبغى أن يصلح !



ذلك أن كلمة التشريع لا تصلح هنا ، لأن التشريع هو وضع الشريعة ، فلا يسمى تشريعاً إلا هذه النصوص التي ينظر فيها الفقيه ، ويجهد فيها ، ويستنبط منها ، وهي نصوص الكتاب أو السنة .

أما الاستنباط ، والاجتهاد ، والترجيح ، والتأويل ، فذلك هو الفقه . وظاهر أن الذي له أحوال ، وعهود مختلفة ، وأطوار ، ورقى وانحطاط ، ليس هو النصوص ، وإنما هو الفقه ، فهو الذي يؤرخ له إذن .

نعم : إن النصوص قد ينظر فيها من حيث الدلالة ، والنص ، والسكينة الجزئية ، والعموم ، والخصوص ، والنسخ والإحكام ، ونحو ذلك ، ولكن ذلك من أغراض علم الأصول ، فإذا عرض لها المؤرخ للفقه ، فهو يعرض لها تبعاً لا استقلالاً .

وعلماء كلية الشريعة الذين ألفوا كتبها قد فطنوا لذلك ، واعتذروا عنه بالتوسع في معنى كلمة التشريع حتى يشمل الفقه ، وفهم النصوص وغيرها . ولسنا نرى مبرراً لهذا التوسع الذي يقرب المسألة ، فيجعل الغرض المقصود تابعاً يندرج في سواء ، وحقه أن يكون متبوعاً يندرج ما سواء فيه !

وأكبر الظن أنهم أرادوا مجازاً الخطأ الرسمي في المنهاج ، ومجازاً بعض المؤلفين السابقين ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، فلعلهم ، ولعل كلية الشريعة ، يعملون على إصلاح هذا الخطأ !

## ٢ — كيف كان الفقه في عهد الفتح :

ونقص فتح مصر ، ولا بد من هذا الفصل لنستطيع أن نتبين في بحثنا مدى تآثر الفقه في مصر بالفقه في الحجاز .

ومن المعروف أن الحركة الفقهية يومئذ كان مركزها بلاد الحجاز ، بل كان مركزها المدينة خاصة ، حيث يقيم الخليفة ، وكبار الصحابة من المشتغلين بالفقه ، والرواية والتفتيا ، فاهي الطريقة التي كانت متبعة في الفقه ، والأحكام يومئذ ؟

هي الطريقة التي ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته لأصحابه : يعرضون مسائلهم على القرآن ، فإن وجدوا فيه نصاً أو دلالة ، وإلا عرضوها على سنة رسول الله ، فإن لم يكن فيها شيء أعملوا فكرتهم مسترشدين بروح الشريعة ، ثم قضوا بما يقضى به الرأي السليم .

وهذه الطريقة هي التي وردت في حديث معاذ بن جبل ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لما بعثه الى اليمن : وكيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله ، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد

رأى ولا آلو . قال معاذ : ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على صدرى وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله » !

ومثل ذلك ما روى عن سعيد بن المسيب عن على قال : « قلت يا رسول الله : الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : اجمعوا له العالمين ، أو قال : العابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد . »

تلك كانت طريقة الصحابة بالإجماع ، ولكن كان هناك عوامل أثرت بعض الآثار فى الفقه .  
( ١ ) منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينهى عن الإكثار من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الخطأ أو التحريف أو الكذب .

روى قرظة بن كعب قال : « خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا ! فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم ! فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا ، قال نهانا عمر بن الخطاب : »

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال « كنت جالسا فى مجلس من مجالس الأنصار ، جاء أبو موسى فزعا ، فقالوا : ما أفزعك ؟ قال أمرنى عمر بن الخطاب أن أتبه فأتيت ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، فرجعت ، ثم قال لى عمر : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إني أتيت فسلمت على بابك ثلاثا فلم تردوا على ، فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ، قال عمر : لتأتينى على هذا الحديث بالبينة ! فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه فشهد له ، فقال عمر لأبى موسى : إني لم أنهك ولكنه الحديث عن رسول الله ! »

وهذا من حذق عمر وفطنته ، فانه مع علمه بصدق أبى موسى وزاھته ، أراد على أن يأتى بالبينة ليطمئن قلبه ، فلما أتى بها أفهمه أن ذلك لم يكن عن شك فيه أو تهمة ، وإنما هو الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حقه أن ينفى عنه أيسر الشبهات !!  
وكان من نتائج ذلك أن هاب الناس عمر ، فلم يكثروا من رواية الحديث ، وقد كان على مذهب عمر فى ذلك جماعة من كبار الصحابة ، منهم عبد الله بن مسعود ، ومنهم على بن أبى طالب .

فأما عبد الله بن مسعود فقد كان يقل الرواية من الحديث ، ويتورع فى الالفاظ ، ويقول فى ذلك أبو عمر الشيبانى : « كنت أجلس الى ابن مسعود حول لا يقول قال رسول الله ، فإذا قالها استقلت الرعدة ، وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا ... الخ »

وأما على رضى الله عنه فقد روى عنه أنه قال : « كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعتنى الله بما شاء أن ينفعنى به ، وكان إذا حدثنى غيره استحلقتة ، فإن حلف صدقته . »

ولا شك أن هذا التشديد ، وهذا الاحتياط فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أثرا فى الفقه لهذا العهد ، بل امتد أثرهما لما بعده من عهود ، فإنه لما كثر الحديث فيما بعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصبح الخذاق يرجعون الى الأحاديث التى كانت تروى لعهد عمر ، فإنها أوثق . روى ابن علية عن رجاء بن أبى سلمة قال : « بلغنى أن معاوية كان يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

(٢) ومنها أن عمر رضى الله عنه وأبا بكر من قبله ، كانا يتحريان أن يصلأ الى ما يشبه الإجماع ، فكانا يستشيران المسلمين فيما يعرض من المسائل ، ويفسحان لهم مجال النقاش والتفاهم ثم يقضيان بما يظهر .

أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال : « كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ... الى أن قال : فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شىء قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ، فإن أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ؟ فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رؤوس الناس ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به . » وروى الضبى عن أشعث عن عامر قال : « إذا اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى فيه عمر ، فإنه لم يكن يقضى فى أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور . »

وكان من آثار ذلك قلة الخلاف بين الصحابة ، ووضع أساس فكرة الشورى ، وتقررها بين المسلمين .

(٣) ومنها أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يكلفون أنفسهم مشقة البحث فى الفروض ووضع الأحكام لما عسى أن يحدث — فيما بعد — من الأحداث ، بل كانوا يكرهون ذلك ، ويعرضون عنه .

روى عن زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فإن قيل له وقعت أفتى فيها ، وإن قيل لم تقع قال : دعوها حتى تكون ! وكان من آثار ذلك أن قلت كمية الأحكام المستنبطة تبعا لقلة الحوادث الفعلية .

هذه خلاصة لحال الفقه في مركزه الرئيسى وهو المدينة لعهد عمر ، وهو العهد الذى فتحت فيه مصر ، فلنترك هذا الآن ولننظر فى حالة مصر نفسها فى ذلك الوقت ، وكيف دخل اليها الفقه الاسلامى .

### ٣ - كيف كانت مصر قبيل الفتح :

كانت مصر قبيل الفتح الاسلامى تعيش تحت ظلال الحكم الرومانى كما يعيش الاسير المعذب ، والدليل المستعبد ، وكأنما كانت القاعدة فى حكمها هى الظلم المطلق الذى لا يعرف حدا يقف عنده ، ولا مدى ينتهى إليه .

وكانت مصر تنظر الى ذلك كله وتعانى منه ما تعانى ، من غير أن تستطيع لهذا العناء دفعا ، ولا من هذا الظلم مهربا ، لأنها كانت لا تملك أمر نفسها . ولأن هؤلاء الولاة كانت تفرضهم عليها دولة سرت فيها عوامل الفساد ، ودب اليها ديب الشيخوخة ، وآذنت حياتها بالانقضاء والزوال ، فن أين هؤلاء الولاة أن يشعروا برقابة فعالة قوية تخفف من غوائلهم ، وتخفف من كبريائهم ! !

ورأت مصر المسكينة أن تصبر على هذه الحقبة من تاريخها ، وأن تستسلم لبلواها ، وتخضع للمستبددين على كره منها ، وكأنها ترقب حادثا تاريخيا يقع فيغير منهاج حياتها ، وينقذها من مفترسها ، ويفتح لها صفحة جديدة من صفحات المجد ، ويكتب لها فصلا خالدا من فصول التاريخ . وكان الله قد أذن بذلك ، ومن سنته أن يأتى النور بعد الظلمة ، والفرج بعد الشدة ، والبعث بعد الموت والفناء .

جاء اليها المسلمون ينسلون من الصحراء ، تسبقهم هيبتهم الحربية ، وتدعو لهم شهرتهم بالعدل ومجافاة الظلم فيما يفتحون من بلاد .

فنلقتهم مصر كما تلتقى الأرض المجدبة غيث السماء ، تلقاهم الشعب بالبشر والارتياح ، وإن تلقتهم الحكومة بالحرب والكفاح : الشعب يريد أن يخلص من أسرهِ وينتقم من ظالميه ، والحكام يريدون أن يحافظوا على أنفسهم ، ومناصبهم ، ومتاعهم .

ودخل المسلمون مصر ، لأن الله أراد ذلك ، ولأن الشعب أراد ذلك ، ولأن الحكام بقسوتهم وسوء سياستهم قد مهدوا لذلك !

وابتدأت مصر تكتب صفحتها الجديدة الخالدة !

محمد محمد المدنى

المدرس فى كلية الشريعة

## المحاماة قديما وحديثا عند الامم

أسلفنا في عدد سابق من هذه المجلة شطرا من الكلام عن أوضاع المحاماة في عهود مختلفة كعهد السكديانيين والمصريين واليونانيين والرومانيين ، وكيف أن فن المحاماة بلغ من النضوج العقلي والخطابي والأخلاقي مستوى تتقاصر عنه الهمم في كثير من نواحيه في عهدها الأخير ، وكيف أن الحذر من تطرق الوهن الى مهنة المحاماة بلغ عند الجمهورية الرومانية مستوى يثير الإعجاب ويستحث الالباب ، حتى إنهم حظروا على المحامي أن يتخذ في مجلس القضاء نوما من التأثير عليه إرادة تحويله عن اتجاهه أو الهيئته على شعوره ، ليجرى القضاء على سنن واضح من العدالة ، ويتخذ الى بحث الطمأنينة في قلوب المتقاضين طريقا مستساغا .

ولذلك صدر قانون قضى على الخطباء بأن لا يتخذوا المقدمات كوسيلة لتغطية الحقائق والتأثير على القضاء في دفاعهم ، وأن يمتنعوا عن كل قول من شأنه استجلاب الرفق بموكليهم أو إثارة الغضب ضد خصومهم ؛ كما قضى على القضاة بأن لا ينظروا ولا يقيموا وزنا لما قد يبذله من وسائل استعطافهم ، حتى لقد بلغ من حرصهم على بقاء ذلك الطابع سليما من عبث العابثين ، وقوف منادين على المتقاضين والمحامين في أول افتتاح كل جلسة ليدكروهم بنصوص القانون ، حتى لا يستخدم أحدهم تلك الوسيلة لينال الفوز في خصومة باطلة .

وكان من أثر هذا القانون فتور عزائم الخطباء من المحامين ، ونجى بعضهم نحو الإطالة والإسهاب ، فصدر قانون يحدد زمان المرافعة لكل خطيب ، وجعلت مدته الكبرى ثلاث ساعات ، واتخذت في قاعة الجلسة ساعات مائية لملاحظة ذلك .

وكان من المتعارف أن لا يخرج المحامون عن جادة السكال والتواضع ، ولا يسعوا عند القضاة ليهودوا طريق النجاح ، وأن لا يخطبوا في المسألة الواحدة مرتين ، وأن يمتنعوا عن الشتم ومر الكلام ، وأن لا يضربوا بأرجلهم الأرض في خطابهم ، وأن لا يشوشوا على القضاة وهم يتداولون ، وأن ينسحبوا من الجلسة بالهدوء والسكينة ، وأن لا يجمعوا الناس حولهم . ومن خالف منهم تلك الوصايا كان عقابه التعزيم .

وكانوا غير مأجورين على عملهم ، وإنما كانوا يكافأون بارتقاء الوظائف في الحكومة ، لأن ذلك العهد كان قليل الخصومات ، ولأن انتخاب المحامين كان من بين الأسر الثرية ، لأن تقاليد الدولة كانت تعتبر المحامي عوناً للقاضي في أداء مهمته . ولو فهمت الحقائق على أوضاعها في عصرنا الذي نعيش فيه لكان للمحاماة مع القضاء نوع من الازدواج على الأقل . وهنا يحكي العلامة « فتحي باشا زغلول » أن أول من أخذ أجرا من موكله هو « أنطيفون » ، وتبعه الباقيون .

غير أن مبدأهم لم يتغير وهو نيل الشرف ، وخدمة العدالة ، ومساعدة صاحب الحق على أخذه . ولما جذب حب المال بعض أولئك الخطباء ، وصار الكسب ضالتهم ، عابهم قرناؤهم ، ولا مهم الناس لوما شديدا . ولم يغب عن الرومانيين منذ عهدهم الأول أن العدالة كيان الدولة ، وأن القضاء أهم أركان العمران في الأمم ، ولذلك اختار « دومولوس » وهو أول ملوك الرومان عددا من الأشراف وشكل منهم مجلس الاعيان ، وجعل الباقين من أمثالهم في العلم قواما على مصالح الطبقة الثانية في الأمة . فانقسم الناس الى فريقين : فريق المتبوعين ومنهم أعضاء المجلس ، وفريق التابعين . وكان التابع يحترم متبوعه كما يحترم الولد أباه والعبد سيده ، وحددت واجبات كل فريق بالنسبة الى الفريق الثاني ، فلم تقتصر نسبة المتبوع الى تابعه على ما عليه الآن من نسبة المحامي الى موكله ، بل كانت أوسع مجالا وأكثر مهاما . فكان يجب على المتبوع أن يعين تابعه في جميع أموره ، ويستخدم في مساعدته ما أتيح له من العزة والجاه ، وما لديه من العلم والمال ، وهو الذي يشد أزره في معاملاته عند الحاجة ، ويقوم بالدفاع عنه أمام القضاء . وسوف نحاول في فرصة أخرى أن نعرض للأدوار التي قطعها فن المحاماة في عصوره المختلفة . فالى الأعداد القادمة مآ

عباس ط

القول السديد ، في تفسير آيات النسخ والطلاق والربا من القرآن المجيد .

الحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسيني الطواهرى جولات في تفسير الآيات الشريفة التي يكثر البحث في موضوعها ، وهو إذا طالع مسألة وفاها حقها بحثا واستقراء ، ولم يدع مما يتصل بها قولاً إلا أتى به ومحصه واعتصر مصاصته .

فأما مسألة النسخ فقد أفسح لها من كتابه سبعا وأربعين صفحة جاء فيها بكل ما يحسن الإلمام به عنها ، وليس يخفى أن للمعتزلة والخوارج والملاحدة نظرا فيه يخالفون به أهل السنة ، فأتى بكل ذلك وحتى ما كان منه بعيد المثال مما يدل على سعة الاطلاع وحب الاستيعاب .

ثم أفاض في مسألتي الطلاق والربا على هذا النحو من الاستقراء والتفصيل ، فجاء كتابه جامعا لكل ما يود محبو التوسع في هذه المسائل أن يجدوه بين دفتي كتاب خاص .

فنشكر لفضيلة الأستاذ الموقر خدمته العلمية . لا زال موقفا في اختياره ، مسددا في تقريراته .

تأخير بعض المقالات

تأخرت لدينا مواد ، وخاصة ( معرض الآراء العالمية ) بسبب ضيق المقام .

Arabic? Are the names of Assamh, Abu Othman, Alberuni, Albeithar, Abu Ali Ibn Sina (Avicenna) the great physician and philosopher, Ibn Rushd (Averroes) of Cordova, the chief commentator of Aristotle, Ibn Bajja (Anempce) besides a host of others but dead letters? Is the great work that they have done and the fame they have left behind them in their books to be consigned to the limbo of oblivion, by an ungrateful but antipathetic Europe?

"It cannot be that already we have lost sight of the amazing intellectual activity of the Muslim world during the earlier part of the 'Abbaside' period more especially. It cannot be that we have quite forgotten the irrecoverable loss that was inflicted on Arabian literature, and on the world at large, by the wanton destruction of thousands of books that was promoted by Christian bigotry and fanaticism? It cannot be surely said of Christian Europe that for centuries now she has done her best to hide her obligations to the Arabs; yet most assuredly, obligations such as these, are far too sacred to lie much longer hidden." (1)

For further enlightenment as to the far reaching beneficial effects of Islam I quote Bosworth Smith, M. A., Asst. master in Harrow School and late fellow of Trinity College, Oxford :

"Nor does Islam lack other claims on our attention. Its ultimate acceptance by the Arabs, the new direction given to it by the later revelations to Mohammed, its rapid conquests, the literature and civilisation it brought in its train, the way in which it crumpled up the Roman Empire on one side and the Persian on the other, how it drove Christianity before it on the West and North and fire worship on the East and South; how it crushed the false prophets that always follow in the wake of a true one, as the jackals do the trail of a lion, how it spread over two continents, and how it settled in a third and at one time all but overwhelmed the whole.... all this is matter of history, at which I can only glance.

"And what is the position now ?

"It numbers at this day more than one hundred millions, probably one hundred and fifty millions (2) of believers as sincere, as devout, as true to their creed, as are the believers in any creed whatever. It still has its grip on three continents, extending from Morocco to the Malay Peninsula, from Zenzibar to the Kirghis horde....

---

(1) "Islam" Her Moral and Spiritual Value" by Major Arthur Glyn Leonard.

(2) The number is assumed at present (1940) to be about four hundred millions (Author).

The Prophet said "No man's faith shall be perfect unless he wish for his brother whatsoever he wishes for himself".

That Islam was admittedly the torch-bearer of light and learning in the West when Europe was enshrouded in ignorance and darkness, and that the followers of the Holy Prophet were undoubtedly among the very few factors creating the conditions leading to present culture and advancement, are in themselves cogent reasons to justify an appeal to the Westerner's sense of duty and justice in judging Islam and the Muslims.

An honest student of the tenets of Islam and the labours of Muslims for the regeneration and edification of mankind, especially of Europe, cannot fail to find much for which Islam should be thanked.

I quote Major Arthur Glyn Leonard in this connection:

"Never to this day has Europe acknowledged in an honest and wholehearted manner the great and everlasting debt she owes to Islamic culture and civilisation. Only in a lukewarm and perfunctory way has she recognised that when, during the dark ages, her people were sunk in feudalism and ignorance, Muslim civilisation under the Arabs reached a high standard of social and scientific splendour that kept the flickering embers of European society from utter decadence.

"Do not we, who now consider ourselves on the topmost pinnacle ever reached by culture and civilisation, recognise that, had it not been for the high culture, the civilisation and intellectual, as well as the social splendours of the Arabs and soundness of their school system, Europe would to this day have remained sunk in the darkness of ignorance? Have we forgotten that the Muslim maxim was that 'the real learning of a man is of more public importance than any particular religious opinions he may entertain', that Muslim liberality was in striking contrast with the then intolerant state of Europe? Does the magnificent valour of the Arabs, inspired as it was by a theism as lofty as it was pure, not appeal to us? Does not the moderation and comparative toleration shown by them to the conquered, notwithstanding the fierce and burning ardour to regenerate mankind that impelled them onward to conquest, also appeal to us? Does it not all the more appeal to us when we contrast this with the bitterness of the attitude of the Christian sects towards one another? Especially when we consider that in Christendom, as it was then constituted, extortion, tyranny and imperial centralisation, combining with ecclesiastical despotism and persecution, had practically extinguished patriotism, by substituting in its place schismatic and degenerate Church?"

Further the same writer continues to say:—

"Is it possible that Europe is unmindful of, and has the ingratitude to ignore, the splendid services of the scientists and philosophers of



Furthermore, it behoves those ministers and missionaries of the Christian faith whose zeal leads them to labour in the propagation of their own doctrines and in attempts to refute the tenets and precepts of other religions, to be well acquainted with those things which they undertake to impugn.

The learned Roland<sup>(1)</sup> has shown that "Christian writers of no small eminence in point of learning and reputation have egregiously misrepresented the doctrines of Muslim faith, and bestowed much useless labour, in confuting opinions which the followers of the Arabian Prophet never maintained; thus exposing themselves to the charge of ignorance and the contempt of their adversaries; and injuring the cause they had undertaken to defend, by making it appear to stand in need of false allegations for its support".

Indeed, it is misrepresentation and misinformation, from which Muslims chiefly suffer. They have had imputed to them that which has no existence whatever in their teachings and policy; baseless charges have been advanced against Islam; nay, the very beauties which Muslims account amongst their exclusive possessions have been denied them, and the very evils which Islam came to eradicate and did succeed in so doing, are ascribed to it. It is certainly a great pity that, with all this outpouring of learning and literature, very little real effort has been made to clear away the clouds of misrepresentation and defective knowledge which still envelop the religion of the Arabian Prophet in Europe and America.

It is a happy sign, however, to find plans for a universal religion being discussed in certain advanced circles in both continents, and a desire to create a better understanding among the adherents of the various denominations of the world.

To achieve this desirable end, it is inconsistent with the advanced culture of enlightened European or American inquirers that information on Islam — a religion which at present is a powerful factor in humanising millions hitherto living in ignorance and barbarity — should come through any adulterated channels and from the writings and works of propagandists hostile to Islam.

Undoubtedly a true knowledge of the life of the Prophet and of his principal teachings is full of interest to those who desire to increase their general stock of information. Indeed the doctrines of Islam tend in general to promote the welfare and prosperity of mankind, inasmuch as they cultivate charity and good will to all people<sup>(2)</sup>.

---

<sup>(1)</sup> De Relig. Mohammedica. L. II.

<sup>(2)</sup> Bosworth Smith: "Mohamed and Mohamedanism".

## INTRODUCTION

---

The diffusion of knowledge over the world and the spread of civilisation have very largely lessened the difference between one nation and another and have almost subdued the flames of animosity kindled in men's bosoms by blind fanaticism evoked by religion or creed.

History relates many awful wars waged in the name of religion.

Today, however, men are largely imbued with the spirit of toleration and love of truth and liberty. The more enlightened do respect the doctrines and principles of their fellow-men, however widely they differ from their own. The followers of different religions make earnest endeavours to spread their own faith and to plant their standards even farther afield. It is left to reason to examine and judge the respective merits of each. Christian missionaries in the Orient may be heard loudly preaching Christianity to followers of Moses and Mohammad without the least apprehension of any unlawful opposition on the part of their hearers.

From time to time, we read of some distinguished person who has abandoned the religion of his forefathers to adopt a different persuasion, which, in the light of reason he has found more acceptable. Further the spirit of intelligent curiosity has been so fully developed in human beings by education, that books are eagerly read which deal with the dogmas and tenets of different nations. The widest possible knowledge of these is sought and at times an attachment to new beliefs is not hidden, nor a readiness to adopt them.

On the other hand, the more highly a nation is civilised, the more it is inclined to make known its customs, habits and national or religious character.

Although some vague knowledge of the laws and tenets of Islam may be obtained from treatises and books which have been composed by certain Westerners, yet he who desires thoroughly to comprehend their spirit must trace them to the fountain-head. In the ordinary intercourse of life, he who is desirous of gaining the esteem and affection of those with whom he converses, will be careful not to offend against their religious precepts and notions of right and wrong, with which precepts and notions he can become acquainted by consulting their own records.

*In compiling this book I have set before me a high ideal: to be a true historian and a conscientious writer, to abstain, not only from eulogy and partizanship, but also from scoffing and misplaced criticism. My sole endeavour is to give the reader a true account of the life of the Prophet Mohammad and a fair exposition of the religion of Islam.*

*As the history of the Arabs has a very close connection with the life of the Arabian Prophet and the rise and development of Islam, the author has dedicated Part I of the Book to a summary of that history and to the exposition of the social, moral, political and religious conditions of the Arabs prior to the advent of Islam.*

*With regard to the present work, the author who is an Egyptian Muslim, lays no claim to the art of elegant composition in English. But further he is of opinion that if this ability were within his reach, it would have been misplaced in a work of this nature, the principal merit of which is simple fidelity.*

*I desire above all things, that in a humble way, this book may be the ambassador of good will and understanding between Muslims and those of other faiths.*

AHMED A. GALWASH

Cairo, April 1940.

# THE RELIGION OF ISLAM

## P R E F A C E

*The purpose of this book is to give to English readers a concise and fair history of the Prophet Mohammad and to present an accurate account of the religion of Islam wrongly called (Mohammedanism) which he taught — a religion which has become the faith of hundreds of millions of people throughout the world. I have been moved to undertake this work because I frequently met Englishmen brought to Egypt in connection with the Great War (1914-1919) who evinced a real desire to acquire a certain knowledge of the principles of Islam — the dominant religion of the country.*

*I tried to satisfy their curiosity just as much as my limited intercourse with them Permitted. Finally it was suggested to me that I should write a treatise on the subject for the use of English speaking inquirers to familiarise them in a general way with the doctrines of the religion practised by several millions of British subjects. I considered it a duty to comply with the suggestion — first in regard to the religion of Islam, as I have as yet hardly found a single treatise which properly explains the essence of that creed and is at the same time free from defects or misrepresentations; and secondly, in regard to the members of the Anglo-Saxon race, through whose language I was able to pursue my studies successfully.*

*Apparently English writers, or rather writers of the Christian persuasion who dealt with Islam, seem either to have obtained their knowledge of that religion haphazardly from untrustworthy sources, or to have allowed their judgment to have been biassed by their own Christian outlook; and this partiality has, consciously or otherwise, changed them from honest historians to critics — and at times malignant critics.*



# THE RELIGION OF ISLAM

A STANDARD BOOK

BY

AHMAD A. GALWASH, PH. D., LITT. D.

Published

by

AL-AZHAR MAGAZINE

Printed at

EL-RAGHAIEB

C.J. 462

## حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يذيع خطبة تبين ما يأمر به الاسلام أهله من الصفات حيال الخطوب

لم تر أمة ما رأى المسلمون من ضروب الانقلابات وتطوراتها ، وقد دل تاريخهم على أنهم صمدوا لكل هذه الأحداث بقلوب كالرواسي ثباتا ، وعقول كالمرايا المجلوة صفاء ، لم تزعزعهم أخبار السوء ، ولم تضعف ثقتهم بالله إرجافات الأعداء ، كل ذلك قياما بما أوجبه عليهم دينهم من الآداب السامية ، والحالة النفسية القويمة . وهل في العالم الاسلامي من يستطيع أن يجلي هذه المثل الادبية العليا مثل ما يستطيعه فضيلة الأستاذ الامام في رصانة تعبيره ، وسمو أسلوبه ؟ فتفضل حفظه الله مساء أول يونيه بإذاعة كلمة جليلة الشأن فيما يجب أن يكون عليه المسلم إبان الشدائد من الرجولة الصحيحة . ونحن ننقل هذه الكلمة هنا لتكون الى جانب مثيلاتها من كلمات فضيلته القيمة : قال أيده الله :

أيها السادة :

في بقاع من الأرض ، قبض أهلها على ناصية العلم والفلسفة ، وبلغوا في المدنية شأوا رفيعا لم يبلغه أحد من قبل ، تدور أرحاء حديثه لا تطحن الحب ، ولكنها تطحن ججام البشر وعظامهم . وفي تلك البقاع شروخ يمجج بعضها في بعض ، تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وفيها يتجلى معنى قول الله سبحانه : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم ريشا ويذيق بعضهم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون » .

ولا نملك أيها السادة أمام هذه الأحداث إلا أن نلجأ الى الله القوى العزيز « وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير » ، ونموذ بحلاله من شر البغى والعدوان ، والظلم والطغيان ، ونسأله أن ينزل على الأرض رحمته ، ويرفع مقتته وغضبه ، ليعم السلام ، وتنكشف الكروب ، ونسأله السلامة لنا ولأوطاننا ولبلاد المسلمين .

أيها السادة :

في كل أمة من الأمم ضعفاء جبناء ، تدور أعينهم من الخوف كالذي يغشى عليه من الموت ، أشعة بأنفسهم ، بخلاء بأموالهم ، وفي كل أمة مرجفون يذيعون بأخبار السوء يمتثلونها أو يرددونها عمدا للتخذيل وإضعاف الهمم وإيقاع الرعب والفرع في النفوس ، أو جهلا بما لأعمالهم من ضرر بالغ وأثر ذميم . أولئك هم الأعداء حقا ، يحاولون أن يتوطن الفرع والرعب في القلوب وبين الجوانح ، والفرع عدو فانك ، بل هو أشد فتكا من العدو المهاجم .

احذروا هؤلاء الأعداء، فأنهم الله أنى يؤفكون !

وللقرآن الكريم في مثل هذا أدب أدب به المسلمين وحشم على الأخذ به ، قال الله تعالى : « يأياها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » . فهذه الآية تقرر أصلا عظيمًا له خطره في الحياة وهو وجوب التثبت من الأخبار وتمحيصها قبل قبولها ، وعدم العمل بها قبل الاطمئنان إليها ، وعدم إذاعتها قبل التأكد من صدقها . وذبوع الأخبار الكاذبة لا يقتصر أمره على الفاسق خسب ، بل يكون من الرجل العدل الذي لا يعرف طريق سماع الخبر وطريق نقله فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء . ولمهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا ، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون .

إن الذين يذيعون أخبار السوء ينالون بها أكثر مما ينال بالسيف والقذائف ، فهي تهدم النفوس ، وتقل العزمات ، وتوقع الرعب والهلح ، وتفرق الصفوف المتضامة ، وتذهب النجدة ، وتلين شدة المقاومة ، وتخلق الخور والوهن ، لذلك يجب على الناس ألا يصدقوا كل خبر يقال ، وأن يقاوموا ما استطاعوا إذاعة أخبار السوء ، وأن يتحلوا بشيمة الصبر وضبط النفس . ويجب على المسلمين أن يتعلموا طرق الكشف عن الأخبار ، وأن يروضوا أنفسهم على تمييز صادقها من كاذبها ، وعليهم بعد ذلك أن يرجعوا إلى الله وحده ، وأن ينصروه باتباع دينه « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

هذه آداب يجب على كل مسلم أن يستمسك بها ، وأن يحافظ عليها كما يحافظ على العبادات . أيها السادة :

في هذه الآونة التي يتخبط فيها العالم في الشرور ، لا يوجد حصن أقوى من الإيمان والعمل الصالح ، ولا عمل يقرب العبد من ربه أحسن من البر والصدقة .

والإيمان تصديق لا أثر للريب فيه ، يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح بالطاعة وأداء ما فرضه الله من التكاليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله الذي ارتضاه لعباده ، وهو إعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع البغي ، وعماراة الأرض ، وتطهيرها من الفساد .

اسمعوا قول الله سبحانه : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .



أيها السادة :

قد فسرنا هذه الآية الكريمة من قبل وأذنت تفسيرها ، وقد يحسن اليوم أن أذيع عليكم مرة أخرى مقتطفات مما قلته :

« الانسان كائن يختلف عن غيره أشد الاختلاف ، فهو كثير الحاجات ، متنوع الرغبات ، بعيد الأمل ، كثير الطمع ، يحتاج لغيره فيما يقوم البدن ويستريح ويرفح عيشه ، وفيما يصلح به نفسه من علم وتهذيب ، لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج الى غيره في حماية نفسه من العاديات . ومن الخطأ أن يعتبر الفرد وحدة منفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءا من وحدة ومتمما لها ، وبهذا الاعتبار كان مطالبا بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب ، غير أن الانسان أناني أيضا يحب نفسه ويحب ماله ، يرى في المال حفظ النفس والتمتع بالمذات ، فيحرص عليه ويشتد حرصه ، فأرشد الله العباد الى ما يجب أن يكونوا عليه من التعاون ، وحثهم على إنفاق المال ، كما حثهم على تقديم النفس عند الحاجة . ولا يكون الإنفاق برا إلا حيث يكون في موضع البذل ، وحيث يكون المال المبذول محبوبا ، وحيث يكون البذل نفسه محبوبا ؛ وهذا هو قول الله جل شأنه : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » .

بين الله من يبذل اليهم المال ، وأنهم أهل القرابة واليتامى والمساكين ، من سأل منهم ومن لم يسأل ، والغرباء المحتاجون المنقطعون عن بلادهم وأموالهم ؛ وكما جعل الله الإنفاق والبذل برا جعل الصبر من أنواع البر في حالات الفقر والمرض والقتال . وقد ذكر الله الصبر في كتابه الكريم أكثر من سبعين مرة ، وأضاف اليه أكثر الخيرات ، وأعد لأصحابه أرفع الدرجات : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وقال عمر رضي الله عنه : « عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر : الصبر في المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله » .

وليس الصبر الاستسلام والخنوع أمام الحوادث ، والانتظار لما يسوقه القدر ، وإنما الصبر الثبات في مقاومة الصعاب ، وبذل الجهود للتخلص منها في غير جزع ولا هلع ولا يأس ، ولذلك يقرن الله الصبر بالعمل فيقول : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . فالصبر جهاد وعمل ، لا استسلام وكسل ، فإن الكسل والاستسلام عجز ومذلة وصغار .

أيها السادة :

يجب على الأمة لكي تكون عزيزة الجانب قوية الشأن محبة لله ، أن تتمسك بدينها ، وأن تتجه الى الله في أمرها كله ، وأن تستعين به وحده ، وأن تعرف أصول الحياة الطيبة والسنة

التي ربط الله بها عز الأمم وسعادتها، فتعمل فيها جاهدة، وتحرص عليها الحرص كله، ثم تتجلى في ذلك بأخلاق الصبر والتعاون والتناصر، والبذل في سبيل الله، ومعاونة الضعفاء والمحتاجين . ولا يوجد نظام في البر والصدقات أوفى من نظام البر والصدقات في كتاب الله وسنة رسوله المطهرة .

اسمعوا قول الله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » . « يأبى الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم » . « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوقون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطرياً » . « وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

واسمعوا قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » .

هذه هي منزلة البذل والإتفاق في الاسلام ، وهذا هو نظامه . ولا شك أنه نظام يقوى روابط الأفراد بعضهم ببعض ، ويصلح شأن الجماعات ويحقق سعادتها ، وينمي ضغينة الفقراء على الأغنياء ، ويزيل آلام أهل الزمانة والعجز ، ويوجد التراحم ، وينمي عاطفة الحنو ، ويوثق صلة الإخاء .

وهذا وقت يجب أن يتجلى فيه روح التعاون ، وأن تظهر فيه آثار البر ، وأن ترجع الى روح الاسلام وقواعده وأحكامه ، فما ضعفنا إلا بالبعد عن الهدى الإلهي ، وما تخبط العالم فيما هو فيه من شرور إلا بالبعد عن التدين والانهماك في المادة التي يتلظى بنارها المتأججة ، وأنصار المدنية هم الذين يحطبون لهذه النار ، وإذا لم يعودوا الى روحية التدين وشبوا الى الرشد والى طلب الحق عند الله جل شأنه فسوف تأكلهم النار وتذروهم الرياح .

إلهي أنت العليم الخبير ، وأنت وحدك المستعان ، أظننا بظلمك الذي لا يشقى من استظل به ، واجعلنا من الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؟

# السيرة في الحركات

## تحت ضوء العلم والفلسفة

بدء الصراع بين الحق والباطل - وقعة بدر وما سبقها من المناوشات

قلنا إنه بعد أن تمت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، كانت حالة الحرب موجودة بين المسلمين والجاهليين . ولم يكن من الكياسة أن يتجاهلها الأولون فتركوا لخصومهم الوقت الكافي للاستعداد لسحقهم في دار هجرتهم ، هم ومن قبلوا دعوتهم من أهل معقلهم الجديد، فكان من أوجب واجباتهم أن لا يغفلوا طرفة عين عن العمل لإضعاف عدوهم بكل ما يستطيعون من الوسائل . ومن أفعالهم أن يحاصروهم من الناحية الاقتصادية ليقطعوا عنهم المدد الذي يتمكنون به من الثبات في مكائهم ، وليضطروهم إلى التعجيل بمنازلتهم حتى لا يتخذوا من مطاوتهم عوناً لهم على حل جماعتهم .

فكان أول ما ارتأه النبي صلى الله عليه وسلم من وسائل مناهضة الجاهليين ، إضاد طريق التجارة الخارجية في وجوههم من ناحية الشمال . وكان من عادتهم أن يتبادلوا وسورية المحصولات والمصنوعات والمواد الأولية . ولما كان لا يمكن الوصول إلى الشام إلا من طريق يثرب ، ندب رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلاً ليستولوا على تجارة لقريش وهي آبية من سورية ، وكان يحرسها ثلاثمائة من رجال قريش تحت قيادة أبي جهل من كبار أعداء الدعوة الإسلامية . فصادف حمزة تجارة قريش عند ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص ، وهي قرية من قرى المدينة ، فتصدى لقتال حماتها ، وتصفاء الفريقان فحجز بينهم أحد رجال تلك الناحية : مجدي بن عمرو الجهنى ، ومرت القافلة بسلام . فشكر النبي صلى الله عليه وسلم مجدياً على ما عمل ، لقلة عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم .

ثم بلغ النبي أن تجارة لقريش في طريقها إلى الشام ، فندب عبيدة بن الحارث على رأس ثمانين مقاتلاً لاعتراض تلك التجارة . فصادفها ببطن رابغ ، وهو واد قريب من البحر بين مكة والمدينة ، فترامى الفريقان بالنبل ، ثم انهزم القرشيون خشيّة أن يكون هؤلاء الثمانون طليعة لجيش من المسلمين كمن لهم هنالك .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في السنة الثانية من الهجرة قاصدا أن يستولى على تجارة قريش فوجد القافلة قد أفلتت . واتهنز بنو ضمرة هذه الفرصة فانفقوا مع رسول الله على التعاون في الحرب ، ينجدهم وينجدونه وهم باقون على شركهم .

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم بمائتي مقاتل عند ما بلغه أن تجارة لقريش راجعة من الشام مؤلفة من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة مقاتل ، تحت قيادة أمية بن خلف . فلما بلغ بواط ، وهي جبال جهة ينبع ، وجد القافلة قد مرت .

ثم خرج مرة ثالثة على رأس مائة وخمسين رجلا ، وقد بلغه أن تجارة لقريش في طريقها الى الشام يحرسها بضعة وعشرون رجلا تحت قيادة أبي سفيان بن حرب ، فوجد القافلة قد مرت سالمة ، فعاد الى المدينة يترقب رجوعها . وقد بلغه أن في هذه القافلة معظم أموال قريش .

في هذه الأثناء أغار رجل من أصحاب الغارات اسمه كرز بن جابر القهري على سرح المدينة (١) واستاق عددا منها وهرب ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتأثره (٢) حتى بلغ سفوان ، وهو واد من بدر ، فوجد أن كرز قد أفلت . وتسمى هذه غزوة بدر الأولى .

وفي رجب من هذه السنة الثانية ، أرسل رسول الله فضيلة مؤلفة من ثمانية رجال تحت قيادة عبد الله بن جحش ، وسلم إليه كتابا مختوما وأمره أن لا يفضيه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين . ففعل ما أمره به ، ووجد في الكتاب هذه العبارة : « إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

لا مشاحة في أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من استخدام طريقة الأوامر المختومة كان منه عملا لم يسبقه إليه قائد حربي في جزيرة العرب ، حيث الأمية كانت ملقية بجرانها لديهم ، وربما كان عملا لم يسبق إليه في العالم كله ، وهو يدل لأول وهلة على مبدأ التجديد الذي جعله الاسلام شعار أهله في جميع محاولاتهم ، سواء أكانت في حركاتهم الحربية أم في محاولاتهم المدنية ، حتى بلغوا في سنين معدودة الى ما لم تبلغه الأمم في قرون كثيرة ، كما سنبينه في مواطنه من هذه السيرة .

سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخيا تنفيذ ما أمر به ، وقد تخلف منهم اثنان لإيصالها لبعيرا كانا يعتقبانه . فلما وصل الى مكان يقال له نخلة ، مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال ، فحمل عليها رجاله فقتلوا واحدا وأسروا اثنين ، واستاقوا الإبل وما حملت ، ورجعوا بهم الى المدينة . فعابهم المسلمون على ما فعلوا لأن قتالهم وقع في شهر رجب ، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أنا ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم .

(١) السرح : المال السائم من ابل وغنم وبقر الخ . (٢) يتأثره أى يتبع أثره

وعابهم اليهود ، وسلقتهم قريش بالسنة حداد . فندموا على ما فعلوا ، فأنزل الله على رسوله في هذه الحادثة قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصدّ عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » فسُرّي عنهم .

ومعنى هذه الآية : يسألونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه ، فقل لهم : القتال في الشهر الحرام ذنب كبير ، ولكن الصد عن سبيل الله ، والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه يعتبر عند الله ذنباً أكبر من ذنب القتال في الشهر الحرام ؛ وما فيه الكافرون من الجاهلية الجهلاء أكبر هولاً من القتل الذي ارتكبته السرية التي يرأسها عبد الله بن جحش في الشهر الحرام .

هنا لا نرى بداً من لفت الأنظار الى انتقال خطير في فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية ، افتتح به الاسلام عهداً للإصلاح الجليل الذي حمله للإنسانية ، وحى وجوده الخالد به من صدمات فادحة تقضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية في خلال الأطوار المتعاقبة التي لا تبقى من الأوضاع القديمة إلا أطلالا دارسة لا يكون لها وجود إلا في ذكريات أهلها دون أن يكون لها تأثير في حياتهم الدنيوية .

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول :

إن الذي عابته قريش على قائد السرية النبوية من خرقه حرمة الشهر الحرام ، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجود والتلاعب معاً . فقد كانوا إذا اضطروا للقتال في شهر حرام ، ارتكبوه ، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية ، وهي أنهم كانوا يتقاتلون في أي شهر حرام أياماً ويحرمون القتال أياماً على عددها من شهر غير حرام . كما يضطر مريض للفطر أياماً من رمضان ويصوم بعددها أياماً من أي شهر آخر ، أداء لما فاتته من الأيام المفروضة . وقد فضح الله أمر الجاهليين في هذه الناحية بقوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلون ما يحرمونهم وما ليوأطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » . وهذا الذي كان يسميه الجاهليون بالنسيء هو إبداهم أياماً عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا ، ليستمروا في القتال والتناحر ، وهذا العمل زيادة في الكفر يضل به الشيطان الذين كفروا ، يجعلونه حلالاً عاماً ، وحراماً عاماً آخر ، وقد زُينت لهم أعمالهم السيئة ، والله لا يهدي الكافرين .

والفرق بين الذي كان يأتيه الجاهليون وبين ما رخص فيه الله ، كبير . فالأول مبني على الحيلة التي لا تجوز على الجاهلين ، وتنطوي على معنى التلاعب والاستخفاف ، ومثل هذا التحايل في حياة الأمم الأدبية ، يفضي الى إباحات لا تحصى لا تبقى معها شريعة ، ولا يصاب منها من العبث أصل .

ولكن الثانى وهو الترخيص فى القتال فى الشهر الحرام ، فقائم على أصول قيمة يبتنى عليها انتقال بعيد المدى لعقلية الشعوب ، ويضع حداً لاجمود على الأوضاع ، ويقضى على صفة خسيصة فى النفوس ، وهى التحلل من الواجبات بحيل صبيانية .

أما الأصول التى يقوم عليها هذا الترخيص ، ولها هذا الأثر الضخم فى حياة الجماعات أدبياً واجتماعياً ، فهى :

( أولها ) أن كل تحليل أو تحريم فى الدين إنما قصد به مصلحة الانسانية ، ولم يقصد به تسخيرها أو تعطيل تقدمها ، فلا يجوز التحايل لتحريم حلال أو تحليل حرام جرياً مع الهوى . فاذا حدث ما يوجب إعادة النظر فى حِلِّية ما هو حلال ، أو حرمة ما هو حرام ، فى الدين الحق نفسه ما يغنى عن هذا التحايل . والدين فى هذا كعلم الصحة ، فإن فيه حلالاً وحرماً لا يجوز تعدى حدودهما بالتحايل ، فإن احتيج للتحلل من أحدهما فلا يجوز أن يعتمد الى ذلك إلا بالاستهداء بمبادئ ذلك العلم نفسه . فان لم يوجد فيه ما يسوغ ذلك التحلل ، وجب الوقوف عند حده ، وإلا أصبح لا فائدة من وجوده .

( ثانياً ) وجوب الاعتداد بالأحوال ، فان الشئ قد يكون ضرورياً أو نافعاً أو حسناً فى حال ، ونافلاً أو ضاراً أو قبيحاً فى حال آخر . وأصحاب الأديان قبل الاسلام كانوا ينعنون النظر فى الأحوال فيلجأ الناس للاحتيال ، ويلجأ قاداتهم إليه ، حتى أصبح الدين فى نظر الناس مع تقلب ضروب التحايلات عليه رسماً لا حياة فيه .

( ثالثاً ) وجوب تقدير الأمور ، ومعرفة حدودها ، وتطبيقها على الأمر الذى تقضى به المصلحة الحقيقية ، لا الرغبة الخيالية ، وبناءً على الأصول المقررة ذات الأثر الذى يعم الكافة ، لا على الشهوات الشخصية التى تقوم على الأثرة أو الوحشية أو الانتقام ، بصرف النظر عن المصلحة الاجتماعية .

هذا التقدير للأمر فى الاسلام يجرى على مبادئ عامة ، ويقوم على أصول لم تعلمها الأهواء الشخصية ولا القومية ، ولكن أملت مصلحة العالم الانسانى كله ؛ يشهد بهذا ما احتواه الكتاب جملةً من الوصايا بوجوب تحرى الحق مجرداً من كل صبغة ، وتطلب المصلحة العامة وإن ناقضت المصلحة الخاصة .

( رابعاً ) تقديم المنفعة العالمية على الأوضاع التقليدية ، لأن الذى يتفق والمنطق هو أن كل وضع تقليدى إنما وضع فى الاسلام للمصلحة العالمية باعتبار أنه دين عام للبشر كافة ، لا أنه وضع باعتبار آخر أيا كان نوعه ، فإن الله غنى عن العالمين ، وقد جاء فى الكتاب : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » .

فكل وضع ديني أو عمل تقليدي إنما أريد به فائدة العالم نفسه . وقد جرى الاسلام على هذا الأصل في كل ما أمر به ونهى عنه ؛ فانه فرض الفرائض واستثنى منها المرضى ومن كانوا على سفر ، وحرم أشياء وأباحها للمعظمرين اليها ، فقد قال : « فن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، حتى أنه أباح للعسل أن يتظاهر بالصبوء عن الاسلام تقاديا من هلاك نفسه ، فقال تعالى : « إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

ولكن الامر على عكس هذا لدى الأمم التي سبقت الاسلام ، فكان الامر التقليدي لا بد من القيام به ولو أتى على نفس الانسان . فوقع لهذا السبب من أهل تلك الأديان من التحايلات والمحلات ما ينجل أن يرتكبه عاقل . ولهذا السبب أيضا اعتبرت أكثر ما في الأديان السابقة من تقاليد ، آثارا قديمة لا تقبل التطبيق على أهل هذا العصر فتركت جملة .

ولكن الاسلام دين أنزل ليعمل به ، ويُسار على هديه ، فكان لا بد له من هذه القواعد التي تؤتي أوامره ونواهيه من المرونة ما تسمح له أن يوصى بها في كل زمان ومكان ، وأن يطالب بها الناس ، ويهيب بهم اليها ، في الحدود التي قررها لهم في كتاب الله وسنة رسوله .

هذا الفهم الجديد للدين وللأوضاع المقررة في الدين ، نقلت المسلمين من عداد الأمم التقليدية الى مصاف أمم خالصة من القيود لم توجد إلا في القرون المناخرة ، ولكن مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن المسلمين على أي حال كانوا حيال التقاليد الدينية خضعوا لسلطان المبادئ الأدبية الخالدة ، مهدين في هذا السبيل الفوارق القومية ، والخصوصيات المحلية . فهم في الوقت الذي يعلنون فيه أنهم يعتدُّون بالأحوال ، ويقسرون الأمور ، ويقدمون المصلحة الإنسانية على الأوضاع التقليدية ، يصرحون فيه بأنهم أشد الأم تقيداً بالمبادئ الأدبية الخالدة ، والأصول العمرانية الحقة ، ويتشددون في ذلك تشدداً كله خير وبركة على المجموعة البشرية .

والاسلام لم يقرر هذه المبادئ ليتحلل أهلها من التقاليد المرعية في الناحية الإيجابية خسب ، ولكن في الناحية السلبية أيضا ، فانه كما انتصر لعبد الله بن جحش قائد السرية فيما فعل من قتال المشركين في الشهر الحرام ، أنكر على من لم يأخذ بالظاهر من أعمال الخصوم . فقد قتل صحابي في الحرب رجلا نطق بكلمة الشهادة ، عندما أحيط به وأدرك أنه هالك ، فاخذه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وتبرأ من عمله ، ونزل في ذلك قرآن ينهى عن مثل فعله . فقال الصحابي في دفاعه عن نفسه : يا رسول الله إنما قالها والسيف هاوٍ على رأسه ، ليتقى بها التلف عن نفسه . فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شبهته بقوله : إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر .

فهذا الأصل الدال على اسمي ما يعرف عن العاطفة الإنسانية ، يجب أن يسجل للإسلام

في أوجه صحف الدعوة الدينية . وإذا أضاف القارئ الى ذلك ما يعلمه عن الوحشيات التي استخدمها متحمسة الدينين غير المسلمين في مقاتلة خصومهم ، والتنكيل بمن لا يدين بدينهم ، حتى أبادوا في فورة هذه الحاسة الجاهلية أمما برمتها ، أدرك مبلغ سمو هذا الأصل في الاسلام ، وتنور مصدره الإلهي البحث .

وهذا الفهم الجديد للتصرف حيال التقاليد الدينية في أمر هذه الحادثة البسيطة ، لازم المسلمين في جميع تصرفاتهم الاجتماعية ، فلم يجمدوا حيال الأمور ويمضوا فيها على ما توجبه التعاليم المقررة ، بدون فهم ، ولكنهم أعملوا أفهامهم - بأمر من كتابهم ويسنة من رسولهم - فلم ينكأ دهم أمر مهما أعضل ، ولا حيرهم خطب مهما أشكل ، بل واجهوا الأهوال بصدور رحبة ، ووجوه طليقة ، وعقول صمرت بأرفع المبادئ ، وقلوب استنارت بأسمى الأصول ، جاعلين غرضهم الأول جعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الكفر هي السفلى ، ولكن في غير عنف يوصم صاحبه بالجهل ، ولا عسف يقف براكبه دون الغاية ، ولا وهم يفتح أمام الخاضع له أبوابا من التخيلات تورطه فيما كان في غنى عن التورط فيه . وكذلك تفعل المبادئ القويمة إن فهمت على وجهها ، وأخذت على حقيقتها ، وقام بتلقيها رسول جمع من عقائل الصفات الانسانية ، وخصوصيات النفس النبوية ما جمعه النبي صلى الله عليه وسلم ؟

محمد فريد ومبرى

## في الظن والفراسة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن في كل أمة محدثين ، أو مروءين ، فان يكن في هذه الأمة أحد فان عمر منهم » .

المحدث : المصيب في رأيه كأنما حدث بالامر . والمروء : الذي يلقي الامر في روعه أى قلبه أو عقله .

وقال على رضى الله عنه : ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه . وقيل : اعتبر بما في قلب أخيك بعينه ، فالعين عنوان القلب . وقد نظم شاعر هذا المعنى فقال :

ألا إن عين المرء عنوان قلبه      تخبر عن أسرارها شاء أم أبى

هذا ولا يجوز أن ينسب أحد قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » ، فلا يسترسل في التظنى ، متوها أنه من المحدثين أو المروءين ، فيتهم الناس بما لم يفعلوا اعتداداً بأوهامه .



# التفسير

## سورة الاعراف<sup>(١)</sup>

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الولاية لله وحده :

قال الله تعالى : « اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ » :

بعد أن قوتى عزيمة الرسول ، ونصحه بالصبر وقوة الاحتمال ، إعداداً للقيام بمهمة الإنذار والذكرى ، بَيَّن هنا صيغة الإنذار العام الذى يوجهه الى الناس أجمعين ، فقال : « اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . وهو تحديد للتشريع الذى يجب اتباعه ولا يجوز العدول عنه ، وهو ما كان صادراً من الله ربكم ، خالقكم ومربيكم ، والعليم بنفوسكم ، فإنه قد أرسل الرسل لهدايتكم وتهذيب فطركم ، وشرع الأحكام لمصالحكم وإسعادكم فى الدنيا والآخرة .

وأما قوله : « وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » فهو فى الحقيقة نهى عن اتخاذ غير الله ولياً يرجع إليه الناس فى التشريع ، وفى التحليل والتحريم . وإذا كان مصدر التشريع الحق هو الولي الحق ، فلا ينبغي اتباع غيره ولا التوجه إليه . وقد قرر القرآن الكريم فى غير آية أن الولاية لله جميعاً ، ونهى على من يتخذ ولياً من دونه ، سواء أكان باعتقاد أن فيه سلطة غيبية ، أو فيه قداسة تحمل على اتباع آرائه وتشريعه . اقرأ إن شئت : « قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُوا وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُمْسِكُهُمْ » ، « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ! فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ » ، « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » .

هذا هو الاصل الذى يوجب على الانسان أن يلتزم ما أنزل الله ، وأن يبعد بالاديان عن تصرفات الاهواء والرؤساء ، والآباء والاجداد ، فمن عبد الله بما لم يأذن به الله وإنما استحسنة هو أو استحسنة غيره وقلده فيه ، فقد اتخذ ولياً من دون الله ؛ ومن توجه

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

في شدائده وكشف همومه ومغفرة ذنوبه الى أحد من خلق الله ، فقد اتخذ وليا من دون الله . ومن هذا وذاك حُرِّفت الأديان ، وبدلت الشرائع ، وانطمست معالم الحق فيها . وكذلك نشأت عبادة غير الله ، وعبد الانسان ما لا يضر ولا ينفع ، ووقع في طريق النى والضلال .

ثم أشار الله بعد ذلك الى أن اتخذ الله وليا ، والبعد عن ولاية غيره ، هو ما تقضى به الدلائل الفطرية ، ولكن قليلا ما يتذكر الناس هذه الأدلة وما تقضى به من إخلاص التوحيد لله ، والرجوع بكل شيء الى الكون اليه ؛ وذلك قوله تعالى : « قليلا ما تذكرون » .

ثم قال تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ » :

هذا هو التخويف الذى قرن به التبليغ السابق . وإهلاك الله للأمم إنما يكون بمخالفتها للسنة التى عقد الله بها الحياة الطيبة ، والشرائع التى أنزلها تنظيما لتلك الحياة . فاذا ما ظهر الظلم فى أمة ، وفشا فيها الغش والخداع ، وانصرف الناس عن الصالح العام ، وانتكسوا حرمان الله ، اختل نظامها ، وانحلت قواها ، وفسد أمرها ، وضعفت منعها ؛ عندئذ يبادرها الله بالإهلاك أثرا طبيعيا لطغيانها ، فيأخذها من مآمنها ، ويأتيتها من حيث لا تحتسب ، بياتا وهم نائمون ، أو نهارا وهم قائلون : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيتها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . وليس إهلاك الله للأمم قاصرا على الأخذ بالصيحة ، أو بالريح العاتية ، بل له نوع من الإهلاك أشد فى النفوس أثرا : ذلك هو فقد عزتها ، وذهاب قوميتها ، وذوبانها فى غيرها ، واستعباد غيرها لها ، فيذلها ، ويسلب منها خيراتها : « وقضينا الى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد . فجاءوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً » .

ثم قال : « فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » :

تقرير لطبيعة المذهب الذى أحاطت به خطيئته ، ونزل به ما يستحق من عقوبة : يندم ويتحير ، ويعترف بظلمه ، ويُنجى على نفسه باللائمة ؛ ولكن هيهات أن تنفعه ندامته ، أو تغنى عنه من الله معذرتة ؛ إنما العلاج الحق هو ما رسمه الله تعالى بقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فعلى الأمم التى وقعت من جراء ذنوبها فى استعباد غيرها لها ، وإذلاله إياها ، أن تنشط من عقالها ، وتذكر روح العمل والنشاط والغيرة فى نفوس أبنائها ، حتى تحيا حياة طيبة ، وتحفظ لنفسها العزة والكرامة .

ثم قال تعالى : « فلنسالن الذين ارسل إليهم ولنسالن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

بعد أن بين أنه أنزل الكتاب على الرسول لتبليغه والاينذار به ، وأمر الأمم بالاتباع ، وحذرهم المخالفة ، وأنذرهم عاقبتها بالمثلثات التي خلت - أكد في هذه الآية أن الأمر ليس قاصرا على مظاهر النكال في الدنيا التي ينتهى أمدها باتنهاؤها ، وإنما له شأن آخر في يوم يفرغ فيه للثقلين ، ويتمحض الملك فيه لقوته القاهرة وسلطانة العظيم ؛ ذلك الشأن هو أنه سيسال الجميع : يسأل الأمم التي أرسل اليها : « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ، « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتكم المرسلين » ، « فوربك لنسالنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ؛ ويسأل الرسل الذين كلفوا الاينذار والتبليغ : « ولنسالن المرسلين » ، « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتكم » ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

يسأل هؤلاء وهؤلاء ، إظهارا للخزي ، وإقامة للحجة ، وهو المحيط بكل شىء علما ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » ؛ وإنما هو العدل الحق ، يتجلى بجميع مظاهره ، وينكشف من جميع جوانبه ؛ الحق الواضح الذي لا تشوبه أبهة جاه زائل ، ولا عظمة سلطان زائف ؛ الحق السافر الذي لا يحجبه غطاء ، ولا يصانع في إخفائه بزخرف أو رواء : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

الوزن والميزان :

« فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

ثقل الميزان كناية عن عظم القدر والقيمة . وخفته كناية عن الحقارة وعدم الاعتداد . ولا يكون الانسان ذا قدر وقيمة إلا بأثره الصالح ، وعمله المبرور ، وسعيه المشكور . فاذا عدم الفضائل وانغمس في الشهوات ، وباعد بينه وبين فطرته التي خلق عليها ، وضاع منه استمداها ، كان على العكس خفيف الميزان ، عديم القدر ، ساقط المنزل . فالوزن تقدير من الله لأعمال عباده . هذا ما تؤمن به ، ولا نسترسل في الخيال فتزعم أنه سيضع ميزان له لسان

وَكِفْتَانِ ، وَأَنْ مَا يَوْضَعُ فِي الْمِيزَانِ سَيَجْسَدُ أَوْ سَيَوْضَعُ فِي أَجْسَادِ ، وَأَنْ الْمِيزَانُ جَنْسُهُ كَذَا ، وَصِفَتُهُ كَذَا ، وَطَوْلُهُ كَذَا ، وَحَوْلَتُهُ كَذَا ، إِلَى آخِرِ مَا يُقَالُ فِي هَذَا الشَّأْنِ ؛ فِهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَبَيِّنْهُ الْقُرْآنُ ، وَلَمْ تَرِدْ بِهِ سُنَّةٌ يَصِحُّ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهَا . وَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي هَدَى الْإِنْسَانَ إِلَى اخْتِرَاعِ أَدَقِّ أَنْوَاعِ الْمَوَازِينِ ، وَمَكَّنَتْهُ بِهَا مِنْ تَقْدِيرِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْعَوَاطِفِ النَّفْسِيَّةِ ، وَالْاضْطِرَابَاتِ الْفِكْرِيَّةِ ، لِأَجْلِ - وَأَعْلَى أَنْ يَكُونَ مِيزَانِ حِسَابِهِ فِي يَوْمِ سُلْطَانِهِ الْمَطْلُوقِ ذَا لِسَانٍ وَرِكَفَتَيْنِ ، وَلَوْ وَسَعَتْ كِفَتَاهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ .

قَالَ تَعَالَى : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ » :

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ الْإِنْذَارَ الْعَامَ ، وَخَوْفَ مِنْ عَذَابِهِ ، وَذَكَرَ بِيَوْمِ حِسَابِهِ ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِتَذْكِيرِ النَّاسِ بِنِعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، الْمُسْتَوْجِبَةِ لِشُكْرِهِ وَالْتِزَامِ طَاعَتِهِ : مَكَّنَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَسَخَّرَ لَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ فِيهَا مِمَّا يَكْفُلُ لَهُمْ الْحَيَاةَ طَيِّبَةً هَنِيئَةً ؛ مَنْحَهُمُ الْقُوَى وَالْقُدْرَةَ عَلَى الِاتِّفَاعِ بِمَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ حَيَوَانَ وَنَبَاتٍ ، وَمَاءٍ وَهَوَاءٍ ، وَمَعَادِنٍ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ ، وَطَيْرٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ، وَأَنْهَارٍ جَارِيَاتٍ : « وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا نَأْكُلُ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَنَسْتَخْرِجُ مِنْهُ حُلِيَّةً نَلْبَسُوهَا ، وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ ، وَلَنَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

هَذِهِ أَمْثَلَةٌ مِنْ أَنْوَاعِ تَمْكِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ ، وَهِيَ كُلُّهَا نَعْمٌ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ « وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ لَكَفَّارٍ » ، « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » « قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ » . وَلَيْسَ الشُّكْرُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ بِلِسَانِهِمْ : نَشْكُرُ اللَّهَ وَنُحَمِّدُهُ ، وَإِنَّمَا الشُّكْرُ الَّذِي يُطْلِبُهُ اللَّهُ وَيَعْدُ عَلَيْهِ بِالزِّيَادَةِ مِنْ نِعْمَةٍ ، هُوَ : أَنْ يَذْكَرَ فَلَا يَنْسَى ، وَأَنْ يَعْبُدَ فَلَا يَعْصِي ، وَأَنْ يَنْفِقَ الْعَبْدُ جَمِيعَ قَوَاهِ فِي مَرْضَاتِهِ وَخِدْمَتِهِ .

مَكَانُ الْعِبْرَةِ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ :

قَالَ تَعَالَى : (١) « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْدِثُنَا بِهَذِهِ الْقِصَّةِ .

هَذَا تَذْكِيرٌ آخَرٌ ، يَذْكُرُنَا بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَصْوِيرِهِ ، وَاسْتِخْلَافِهِ فِي الْأَرْضِ ، وَتَكْرِيمِهِ

(١) ذَكَرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي سَبْعِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : الْبَقَرَةِ ، وَالْأَعْرَافِ ، وَالْحَجَرِ ، وَالْأَسْرَاءِ ، وَالْكَهْفِ ، وَطِهٍ ، وَصٍ . وَفِي عُنَاوِرِ الْقِصَّةِ مَعَانٍ خَلْقِيَّةٌ لَهَا أَثَرٌ سَيِّئٌ فِي حَيَاةِ الْفُرَادِ وَالْجُمُعَاتِ . وَقَدْ حَارَبَ الْقُرْآنُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ جَمِيعَهَا ، وَكَرَّرَ الْقِصَّةَ كُلَّهَا عَرْضَ لَهَا أَوْ لِبَعْضِهَا . فَفِيهَا مِنْ جَانِبِ إِبْلِيسَ : اسْتِكْبَارٌ وَجَبِلٌ وَتَقَرُّبٌ وَحَسَدٌ وَسُوءُ عَاقِبَةِ الْمُتَمَرِّدِينَ ؛ وَفِيهَا مِنْ جَانِبِ آدَمَ : نِسْيَانٌ وَتَأَثُّرٌ بِالتَّغْيِيرِ وَحَسَنُ عَاقِبَةِ التَّائِبِينَ . وَبِمَثَلِ هَذَا يُوْجِهُ السَّبَبُ فِي تَكَرُّارِ مَا كَرَّرَ مِنَ الْقِصَصِ فِي الْقُرْآنِ .

على جميع خلق الله : ولقد خلقناكم بخلق أبيكم آدم ، وصورناكم فأحسننا صوركم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا كلهم تنفيذا لأمر الله ، ولكن إبليس الذي كان ممن تناوله الأمر بالسجود فسق عن أمر ربه ، وأبى عتوا واستكبارا أن يكون مع الساجدين . ومن ذلك الحين ظهرت قوة الشر ، وجرثومة التمرد ، وعامل الإغراء على الفساد . عند ذلك سأله رب العزة ، وهو العليم بكل شيء ، عن السبب الذي منعه من السجود ، وحمله على المخالفة حينما أمره مولاه ؛ فأجاب بأنه أفضل من آدم وخير منه ؛ فاعترض بذلك على أمر الله ، ولم يرق في نظره ، وأخذ يحاج ربه إمعانا في الطغيان ، فقال : إن المادة التي خلقت منها هي النار وهي أشرف من المادة التي خلق منها آدم وهي الماء والطين . يخالف الله ، ويستظهر على أمره ، ويحتج في خطابه . لما حاج ربه هكذا ، وأعلن تكبره واستخفافه ، مع اعترافه بأن الله هو الذي خلقه ، وأفاض عليه نعمة الوجود ، حكم الله بطرده من مكانة التكريم ، وإزاله في مكان التحقير والازدراء : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » ، « قال فاخرج منها فانك رجيم . وإن عليك اللعنة الى يوم الدين » . عند ذلك أدرك إبليس أن طرده من رحمة الله كان بسبب امتناعه عن الخضوع لآدم ، فسأل ربه أن يُنظره ، ويمهله ، ويمد في حياته الى يوم يبعثون . وقصدُه من ذلك أن تنهيا له الفرص فيتمكن من إفساد الأمر على آدم وذريته ، بأن يوسوس لهم الوقوع في المخالفة والعصيان كما وقع هو فيها من قبل ، فيطردوا من مكانة التكريم كما طرد هو أيضا من قبل ، فأنظره الله كما طلب ، وجعله فتنه لعباده ليميز به الخبيث من الطيب : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » . عندئذ انكشف الغطاء عن نيته ، وما أكنه في نفسه لآدم وذريته : « لافعدن لهم صراطك المستقيم » ، ولآتينهم من جميع جهات الخير فأسدها عليهم ، وجميع جهات الشر فأفتحها لهم ، أزين لهم وأغريهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، فيتبعون الشهوات ، ويمعدون الأهواء ، ويرتكبون المظالم ، ويسفكون الدماء ، ويفسقون الأوامر ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . فأجابته الحكمة الإلهية مبرمة ما أرادت ، منفذة ما قضت .

« قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا » :

يعنى مذمومًا مبعداً ؛ وسأحذرهم إياك ، وأبين لهم عداوتك ، وأذكركم بساقتك ، فمن اتبعك منهم بعد ذلك فلا ملأن جهنم منكم أجمعين . وبهذا كانت الحياة الدنيا حياة نضال وتزاحم بين الخير والشر ؛ فمن مالت روحه الى الشر واستجاب لدعوة إبليس ، فهو من حزب الشيطان « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ؛ ومن مالت روحه الى الخير ، وتعوذ بالله من إبليس وشره ، فهو من حزب الله « ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » ، « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

قال تعالى : « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » :

يصور الله لنا بهذه القصة الفرصة الأولى التي انتهزها إبليس في توعده آدم وذريته ، وهي أول محنة امتحن بها الإنسان ، وكانت في علتها وعلاجها أساساً لكل محنة تقع في الأرض بعدها : أسكن الله آدم الجنة مع زوجته ، وأباح لهما أن يأكلا منها رغداً ، وأن يتمتعا بكل ما فيها سوى شجرة معينة نهاهما عن الأكل منها . وهكذا كانت شرائع الله في أرضه : إباحة وتحريم ، وأمر ونهى ، فأخذ إبليس يوسوس لهما بالأكل مما نهاها عنه ، ويفرهما بأنواع المغريات ، قال لهما : إن ربكما لم يحرم عليكما الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو من الخالدين ، لا يقربكما موت ولا فناء ، وبالغ في الإغراء بالقسم على أنه لهما لمن النصحين ، وما زال يمد لهما حبل الغرور ويقويه حتى انزلقا به الى الأكل من الشجرة المحرمة ، ودلاهما به الى هاوية العصيان ، فأكلا منها وعصيا ربهما ؛ وهكذا كانت الحياة خداعاً وتغريباً ، يخدع الفرد الفرد ، وتخدع الأمة الأمة . نسي آدم أن الله حذره من إبليس بقوله : « إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » ، ونسى كذلك أنه أبى أن يسجد له ويطيع فيه مولاه ؛ ولكن هي الطبيعة البشرية معترك الخير والشر ، ومعترك المخالفة والامتنال ، والطاعة والعصيان ؛ وعند ذلك أدركا أنهم وقعا في المخالفة ، وتجسست أمامهما الجريمة ، وتمثلت لهما شناعة العصيان ، وظهر لهما ما كان خفياً عليهما في أنفسهما من النقائص والسوءات ، فوقعا في الحيرة والاضطراب ، ماذا يقولان الله الذي كرمهما وأحسن تصويرهما ، وأغدق عليهما بالنعيم والتمكين ؟ أخذتا يلتمسان ما يستر تلك العورة التي بدت ، ويحتالان على استرداد مكانتهما عند الله ، « وناداهما ربهما ألم أنهما كنا على اتباع الشيطان والافتراء بمعسول أمانيه . عندئذ لم يجدا بُداً من أن يعترفا بذنبيهما : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . فأجابتهما الحكمة الإلهية : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ، يريد العداوة بين آدم وذريته من ناحية ، وبين إبليس وجنوده : دوافع الشر والفساد من ناحية أخرى ؛ وقال لهم : على هذه السنة التي علمتم من عداوة الشيطان لكما ولذريتكما ، اسكنوا الأرض ، ولكم فيها مستقر ومتاع بما هيأناه لكم الى حين ، الى يوم يبعثون ، في الأرض تحيون وفي الأرض تموتون ، ومن الأرض تخرجون ، والى ربكم ترجعون .

وقانا الله وإياكم شر وسوسة الشيطان ، وبصّرنا بهداية القرآن ، إنه سميع مجيب ؟

محمود شلتوت

# السُّنَنُ

## الحرم والصبر والعفاف

عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا سعيد أخبره « أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين نفد كل شيء أنفق بيديه : ما يكون عندي من خير لا أدخره عنكم ، وإنه من يستعفف يُعِفِّهِ الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يُغْنِهِ الله ، ولن تُعْطُوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) بيان معناه إجمالاً . ( ٢ ) بيان شيء من كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ( ٣ ) بيان معنى الصبر وما يترتب عليه من محاسن . ( ٤ ) بيان فضيلة العفة وآثارها النافعة في المجتمع الانساني .

( ١ ) معنى الحديث ظاهر ، وحاصله أن بعض فقراء الأنصار دفعتهم الحاجة الى أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم مالاً يستعينون به على قضاء حاجتهم الضرورية ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ ما عنده من مال يومئذ . فنفد ( بفتح النون وكسر الفاء ) معناه فرغ . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : إنني لا أُمْنَعُ عنكم مالاً أملكه ، فما يكون عندي من خير ( أى مال ) لا أدخره عنكم ولا أجعله ذخيرة لغيركم من أهل أو غيرهم . ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يذهب بهم الى معنى السعادة الحقيقية ، وما ينبغى أن يكون عليه الانسان من الصفات الممدوحة عند النوايب والمحن ، فقال لهم : « وإنه من يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله » الخ .

وهذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي تحت على الفضائل ومكارم الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناية بتهذيب أمته وتقويم أخلاقها ، وحشها على سلوك سبيل الفضائل في كل شأن من شئونها . فلو أن المسلمين علموا بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الصحيح وفهموه حقاً ، وعملوا بما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، لكانوا أسعد الأمم حظاً ، وأجلهم قدراً في كل زمان ومكان .



يبحث هذا الحديث على ثلاث خصال من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وهى : الكرم ، والصبر على المسكاره ، والعفة . وبديهي أن هذه الصفات من الصفات النفسية القويمة التى يدور عليها صلاح الأفراد والجماعات . وقد آن للمسلمين أن يستيقظوا من نومهم العميق ، ويتدبروا ما كان عليه أسلافهم من مجد ومنعة وقوة بسبب استمساكهم بأداب دينهم وتعاليمه القويمة ، وطرحهم الشهوات الفاسدة جانبا . وإن هذا الزمان وما فيه من أحداث لهُو من أكبر العوامل التى تبعثهم على اليقظة ، وتحثهم على الاستمسك بفضائل دينهم ، والافتداء بأسلافهم الأطهار ، لعلمهم أن يظفروا ببعض ما ظفروه هؤلاء الأسلاف من عزة ومجد . نعم قد آن لهم أن يحاربوا شهواتهم الفاسدة ، ويقلعوا عما فيه ضررهم وهوانهم من الاسترسال فى الشره والشح والجزع ، وتقديم ما تقتضيه الشهوة على ما تقتضيه العزة والكرامة . وليعلموا أن كرامة النفس وعزتها هو أنفس ما يحرص عليه الأبرار ، وأعز ما يتصف به الأخيار ، وأجل تراث يتركونه لأمتهم وذريتهم من بعد « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

(٢) أما كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا حد له فيوصف ، ولا نهاية له فيعرف ، بل كان صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة ، كما ورد فى بعض الأحاديث . وحدث الكرم فى الشريعة الإسلامية هو : أن ينفق الإنسان ما تقتضيه الواجبات والحقوق ، وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع الإنسانى . وقد جعلت الشريعة الإسلامية للإلتفاف حدا لا ينبغى لأحد أن يتعداه حتى يتيسر له قطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا ، قادرا على أداء الأعمال المطلوبة منه بدون انقطاع ، فلا يكون شحيحا ، ولا يكون مبذرا . قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . وهذا ميزان عادل صالح للبيئة فى كل حين ، لأن الإنسان إذا بخل حمله ببخله على الكف عن أداء الحقوق والواجبات ، وإذا أسرف نفد ماله وعجز عن أداء تلك الحقوق . فالنتيجة فى كل حال واحدة وهى عدم أداء الحقوق والواجبات إما عاجلا أو آجلا . نعم إن البخيل أشد مقنا وأرذل خلقا وأخس أثرا من المبذر الذى ينفق ماله فى أعمال البر ، ولكن ينبغى للعاقل ألا يحيد عن ميزان الشرع القويم ، فإن من حاد عنه ندم أشد الندم ، كما قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

وقد يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نعم القدوة فى أقواله وأفعاله ، وقد ورد فى صحيح مسلم وغيره « أنه صلى الله عليه وسلم لم يسأل شيئا إلا أعطاه ، فأتاه رجل فسأله فأمره بغنم كثير ملأت بين جبلين ، فرجع الى قومه فقال : يا قوم أساموا فإن مجدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة » ، والحديث الذى معنا يدل على أنه عليه السلام قد أنفق جميع ما عنده ؛ وهذا فى ظاهره يتنافى مع ظاهر الآية ، ويتنافى مع القانون الشرعى وهو عدم التبذير والإسراف الموجب لنفاد المال والعجز عن أداء الحقوق والواجبات .



والجواب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متصل بالوحى ، وله سلطان على النفوس لا حد له ، فهو يعلم حق العلم أن إنفاقه للمال لا يعجزه في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال ، فهو دائماً قادر على الحصول على المال من طريق شريف ممدوح ، وقد كانت له صلى الله عليه وسلم حالة خاصة ، وهى توسيع نطاق الاسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، كما هو واضح في هذا الحديث ، فإن الرجل قد أثر فيه بذل المال أحسن الأثر وأمر قومه بالاسلام ، وهذه هى الغاية العظمى التى يتوخاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان فى عمله هذا مبذرا ، بل كان آمنا من شر الفاقة والاحتياج ، كما قال الأعرابي لقومه : إن عمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة » من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه » الخ . فليت المسامين يقتدون برسولهم الكريم فى أقوالهم وأعمالهم ليكونوا من المفلحين .

( ٣ ) وأما الصبر فهو من أجل صفات النفس وأعظمها قدرا . وكفى به مدحا أن الله سبحانه قد مدحه فى أكثر من سبعين موضعا من القرآن الكريم . وهو : حبس النفس عن الجزع ، ومنعها عن محارم الله ، وإلزامها بأداء فرائضه . فمن اتصف بذلك كان صابرا . وينقسم الصبر باعتبار ما يتعلق به من الأمور الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الصبر على طاعة الله تعالى ، ويشتمل هذا القسم على أداء ما أمر به الله تعالى من واجبات ، واجتناب ما نهى عنه من محرمات . ومن ذلك الثبات أمام الأعداء فى الحروب ، فمن فقد الصبر فى هذا الموطن فإنه يكون جباناً مردولاً فى نظر الشريعة الاسلامية . ولذا كان من أشد الكبر فى نظر الدين الفرار من أمام الأعداء . قال تعالى : « يأيا الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ومعنى « اصبروا » : امنعوا أنفسكم من الجزع وألزموها احتمال المكروه . ومعنى « وصابروا » : غالبوا أعداءكم فى الصبر على شدائد الحروب وويلاتها ، ولا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا . ومعنى « ورابطوا » : أقيموا فى الثغور مترصدين مستعدين للأعداء . فهذه الآية الكريمة صريحة فى كل ما يجب على الأمة الاسلامية أن تفعله بإزاء أعدائها الذين يريدون انتهاك حرمتها . فقد أمرهم الله بالصبر عن شهواتهم ولذاتهم فى سبيل الذود عن كرامتهم ، وأمرهم بأن يصابروا أعداءهم بحيث يكونون دائماً أكثر منهم صبرا وجلدا ، وأن يحافظوا على ثغورهم ولا يتركوها مفتوحة لأعدائهم . ذلك هو نص كتاب الله الذى لا ينفك المسلمون عن تلاوته ، فياليتهم يتدبرونه حقا ، ويعملون بما فيه بصدق عزيمة ورباطة جأش .

القسم الثانى : الصبر على المصيبة . وهذا القسم يتناول الصبر على فقد الأحباب ، ويتناول

الصبر على البؤس والفقر وضياح الأموال ، كما يتناول الصبر على لقاء الأعداء في ميادين القتال وغيرها ، والصبر على المرض واحتمال الآلام وغير ذلك . وقد أثنى الله تعالى على الصابرين عند المصائب وأعد لهم جزاء حسنا وأجرا كبيرا . قال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . ومعنى البأساء : الفقر . ومعنى الضراء : المرض . وقوله تعالى : « وحين البأس » يعني عند القتال ومنازلة الأعداء . فعنى هذه الآية الكريمة : إنني أمدح الصابرين في حال الفقر والمرض ، وحين قتال الأعداء ، وهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم ببرهم ، الموقنون باليوم الآخر ، فلا يبالون بمحاذات الدنيا ، ولا يرهبون عدوا ، ولا يخافون بطش أحد .

القسم الثالث : الصبر على ترك الشهوات التي نهى الله عنها . وهذا القسم لازم لسعادة الإنسان في دنياه وآخرته ، فإن الله سبحانه قد نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا في هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين ، فلا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ، ولا يعتدى أحدهم على غيره في ماله وبدنه ، ولا تغرم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون في الأرض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة . فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ، ولا يقذف أحدا ، ولا يشهد الزور ولا ينطق بالفحش ، ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ، ولا يجادل بالباطل ، إلى غير ذلك من آفات اللسان ، فإنه بذلك يكون قد صبر عن ارتكاب معاصي اللسان . ومن يصبر على حفظ فرجه فقد صبر على شهوة الفرج المحرمة . ومن صبر على ما لا يملكه من اللذات والشهوات فقد نجا من ألم الحسد والحقد وغير ذلك من الآفات المهلكات .

( ٤ ) أما العفة : فهي صفة من صفات النفس الفاضلة ؛ وهي عبارة عن التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في الشهوة والغضب ، فلا يشتهي شيئا حرمه الله تعالى ، وإن وجد في نفسه باعنا لهذه الشهوة فإنه يجب عليه مقاومته ودفعه بكل ما يستطيع من طول وحول ، لأن الله تعالى قد أباح له من الشهوات ما فيه الكفاية ، فلا يحل له أن يعتدى على غيره بعوامل الشهوة التي ليست من حقه ، وكذلك لا يغضب إلا عند موجبات الغضب التي أبانها له الدين ، فلا يؤذى أحدا بقول أو عمل بدافع الغضب بدون حق .

والله تعالى يوفق المسلمين إلى العمل بقواعد دينهم الحكيمة ، وينقذهم مما هم فيه من فوضى الشهوات والأخلاق ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيري

# دراسات في القرآن الكريم

## المجاز والكناية في كتاب الله (١)

في الآية السابقة على هذه الآية ، أعنى قوله تعالى : « وَإِذْ تَخْتَفِي الْجِبِلُّ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ، قد ذُكِرَ بنى إسرائيل بالعهد الذى وثقه معهم يوم رفع الجبل فوقهم بأن يأخذوا بما فى الكتاب المنزل على موسى صلى الله عليه وسلم ، وأن يذكروا دائماً ما فيه ويتفهموه ، لما فى الأخذ بما فيه إذعان بنبوة خاتم النبيين ، وإيمان برسالة سيد المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ولما كان العهد الذى ذُكِرُوا به فى الآية السابقة قد أخذ فى ظل آية مؤقنة ، ووُثِّقَ تحت حجةٍ هى بنت حينها ، وكان مقتضى العهد إنما هو العمل بما فى الكتاب ، وما فى الكتاب قد تخونه الأهواء وتعبث به الأغراض بالتبديل والتحريف ، كما حدثنا القرآن ، فكان يكون من تعلماتهم أن لم تشهد تلك الآية التى كان الاقتناع بحقيقة ذلك العهد فى ظلها ، والتى كانت هى الدافع إلى قوة الاستمساك به ، ولم يصلنا الكتاب إلا على هذا الوجه الذى لا يلزمنا بالاستجابة إلى الدعوة المحمدية ، لما كان كذلك ، أخذ القرآن يذكركم بعهد آيته لا تنسخ ، بل هى ثابتة على مدى الأيام ، ومقتضاه أصل من أصول الشرائع ، وهى الاعتراف بربوبية الخالق ، ذلك الأصل الذى هو غريزة فى النفوس ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : لما كان من طبيعة من غلَّقت الشهوات قلوبهم ، وأعمت الأهواء أبصارهم ، وأصمَّت الأغراض آذانهم ، أن يتلمسوا فى ساحة الحق القتام وإن كانت نيرة نقية ، وأن يتحسسوا فى أفقه الغيوم وإن كان صحو صافياً ؛ لما كان من شأنهم أن يستمسكوا بالباطيل ، ويتعلموا بواهن الشبه ، فكان لبنى إسرائيل أن يقولوا فى مقابلة تلك الآية الكريمة : إننا لا نعرف هذا العهد ، ولا هو قد أخذ علينا ، ولا وُثِّق معنا ، وإنما أخذ على أسلافنا ، فلا تؤاخذنا بما فعل آبائنا ، فإنك قلت وقولك الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

لما كان لبني إسرائيل أن يتعلموا بتلك الشبهة ، فقد أراد الله تعالى أن يقتلع تعللاتهم ، ويستأصل شبهاتهم ، ويقطع من أيديهم كل مستمسك ، فذكرهم بذلك العهد العام الشامل الذي لم يختص به جيل دون جيل ، ولا شعب دون شعب ، ولا الآباء دون الأبناء ، بل كل جيل يجتده هو مأخوذ عليهم ، وموثق معهم ؛ ذلك العهد العام الشامل هو المذكور في قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ .. » الآية . وهذا العهد إنما يتعقد بين الناس وما أودعهم من عقول أقدرها مانحها على النظر والتفكير والتدبر والاستنتاج ، وبين ما أقام في السموات والأرض وما بينهما من حجة واضحة وبرهان ناصع ، وما كتب في أكوانه من آيات بينات ، وأدلة نيرات ، على أنه لا إله إلا هو الواحد القهار ؛ غير أنه قد سلك في ذلك سبيل التمثيل على حد الاستعارة ، فأبرز ما بين العقول والكائنات من استعداد العقول القوي للنظر والتدبر ، واستخلاص الأدلة واستنتاج الآيات ، ومن وضوح ما في الكون من أدلة قدرته ، وبراهين علمه وحكمته ، وآيات علوه وعزته ؛ أبرز ذلك في صورة التقاويل والمكالمات ، لينبذ بذلك إلى قوة ما في العقول من الاستعداد للفهم ، وقوة ما في الكائنات من الاستعداد للانفعال ؛ فكأن آيات الله القائمة في الأرض والسماء ، وما بينهما من كوكب ثابت وآخر سيار ؛ ومن كوكب ساطع مضى ، وآخر دونه في ذلك ، من زروع وأشجار ، وجبال وأنهار ، إلى غير ذلك من جماد وحيوان ، وجامد وسائل ؛ كأن هذا يستنطق العقول بالاعتراف برؤية بارئها ومحكمها ، وكأن العقول إزاء ذلك تنطق في بيان معترف بمبدعها ومودعها .

هذا هو ما ينبغي أن تحمل عليه الآية الكريمة ، حتى يقع في حدود ما قرره الاسلام من قواعد وأصول ، وتساير المعلوم من الدين علما ضروريا .

وواضح : أنه لا يغير من هذا الاتجاه الذي اتجهنا به بالآية ، أن نعتبر الآيات التي تتخاطب عقول البشر وتقتضيهم الاعتراف بالربوبية ، هي آيات تطوراتهم من ظهور الآباء إلى أرحام الأمهات ، وتطوراتهم في أرحام الأمهات إلى خروجهم من بطون أمهاتهم ، إلى بلوغهم أشدهم ؛ إذ في ذلك من مظاهر الربوبية ، والتعهد والرعاية ، وآيات القدرة ، ما هو جلي واضح ، مثله يكفي لمن نظر وتدبر أن يوحد الله بالعبودية ، وأن يفرد بالاعظام والإجلال ؛ ويكون إثبات تذكيرهم بهذا النوع من الآيات دون ما أقام من آيات في الأرض والسماء وما بينهما ، يكون إثبات هذا النوع لما أن مظاهر التعهد والتربية ، وآثار الرأفة والرحمة فيها ، أجلى وأوضح ، لأنه تعهد ورحمة حين لا يستطيع أب لهم أو أم أن يجلب نحوهم نفعا ، وأن يدفع عنهم ضرا ، وحين هم كذلك لا يقدر أن لا تنقسمهم على شيء مما من خير يجلبونه أو شر يدفعونه ، فلا جرم أن كان معنى الربوبية في ذلك أجل وأوفر ، وأعظم وأكثر ؛ ولا جرم أن كان أقوى استدعاء لهم أن يعترفوا له تعالى بالربوبية دون سواه .

والى هنا ، قد يدور بالخلد سؤال : إذا كان هذا هو المعنى ، وجرينا على أن الآيات هي آيات الأرض والسماء ، لا آيات التطورات في ظهور الآباء وأرحام الأمهات ، فلم سلك له هذا الأسلوب ، وقد كان يمكن أن يؤدي بهذه العبارة : « وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى ؟ »

وإنما إزاء هذا السؤال لا بد لنا أن نوضح السر في العدول عن تلك العبارة الى العبارة التي جاء بها القرآن الكريم ، حتى يتبين لك ما في الكتاب من دقة ، وما في ثناياه من روائع معان هي التي أعجزت أرباب البلاغة وفرسان البيان ، وهي التي أعمت الرائيين شوامس القول ، والمذللين جوامع الكلام : ذلك أن الله عز وجل قد أراد أن يبين ماله على الناس من فضل كبير ، وماله بهم من رحمة واسعة ، وما هو عليه من عدل وحكمة ، مما اقتضى أن يمنحهم الاستعداد لإدراك ربوبيته ، واستحقاقه أن يعبدوه ويقصدوه ، من أول أطوار وجودهم ، ومبدأ تهيئتهم للإبراز في هذا الوجود ، فهم من ساعة أخذ بذرتهم من ظهور الآباء وإيداعها أرحام الأمهات وهم على ذلك الاستعداد الذي منحهم إياه ربهم ليدركوا به ما أقام في الآفاق وفي أنفسهم من آيات وحدانيته وأدلة ربوبيته ؛ فهم بذلك لم يولدوا ولم يبرزوا من ظلمة الأرحام الى نور هذه الحياة إلا وهم على فطرة سليمة هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، كما قال الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه » ، أعني أن الله تعالى يريد أن يقول للناس : إني لم أبرزكم الى هذا الوجود إلا وأنتم على فطرة قد زوجت بينها وبين ما في الأكوان من دلائل وآيات ، بما أودعته فيكم من الاستعداد للنظر والاستنتاج ، وما عليه الكون من وضوح آياته للناظرين ، وجلاء دلائله للعندبرين ؛ وإذن فما هو عذرکم الذي به تعتذرون ؟ وما هي شبهتكم التي بها تدفعون ؟ ما دتم لم تحلوا هذا الوجود إلا ونور الهدى والحق بين أيديكم وبأيمانكم ؛ أما تلويث فطركم بتهويد الآباء والأمهات وتنصيرهم ، أما ما نسجت خرافات بيئات نشأتم فيها من أغشية دون الحق الواضح الصريح ؛ أما ما بنته العقائد الباطلة التي حملتها أدمغة فاسدة من أوساط عشم فيها ؛ أما ذلك كله فليس بمقيم لكم حجة ، ولا بيان لكم برهانا ، ولا معفيكم من عذاب الله ، ولم يبق لكم من الحجة أن تقولوا : إننا كنا عن هذا غافلين ؛ فقد كان ينهض هذا حجة لو لم تمنحوا ذلك الاستعداد من أول أطوار وجودكم ، ولو لم تبرزوا لهذا الوجود وأنتم بتلك الفطرة النقية ، وبهذا النور الساطع المضيء أمامكم صحيفة الكون وما فيها من شواهد وحدانيته وآيات ربوبيته ، فلو نظرتم وتدبرتم ، وأدتم استعمال ذلك المنظار الرباني وتلك المنحة الإلهية ، ما تراكمت عليه أثربة الأباطيل والترهات ، ولأحاطه قنم التقليد والعادات من كل ما حجب عنكم نور الحق ، وأضلكم عن سواء السبيل ؛ كما أنه ليس لكم من الحجة أن تقولوا : إنما أشرك آبائنا من

قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ؛ فقد كان ينهض ذلك حجة لو أننا أهملناكم للآباء ، ولم نخرجكم من بطون أمهاتكم ونور الحق يحوطكم ، ولو لم نبسط أمام عيونكم صحيفة العهد من أرض وسما تقراً في ظلمة الليل كما تقراً في وضوح النهار ، فكان عليكم أن تنظروا وأن تتدبروا ، وآيات الله في كونه ملححة في دعوتكم الى النظر والتدبر ، وبالنظر والتدبر تمزق هذه الأغشية ، وتهدم تلك الحواجز ، وتقشع تلك الغيوم .

هذا هو السر في أن عدل القرآن عن التعبير بقوله : وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ، الى التعبير بما جاء عليه القرآن الكريم .

هذا ، وإن هناك الى ذلك سرّاً آخر لذلك العدول ، وهو أنه لما كان الأخذ بمقتضيات العهود ، والاستمسك بالمواثيق إنما يكون مكفولاً ومضموناً إذا اقتنعت النفوس بحقيقته وأن المصلحة والخير في العمل به ، إنما يكون مضموناً أو أقرب الى التحقق إذا آمنت به القلوب عن حجة ودليل ؛ لما كان كذلك كان من حكمة الله البالغة ألا يوثق مع عباده عهداً إلا كان إبرامه في ظل آية من آيات قدرته ، وشاهد من شواهد تفرد بالتصرف ووحدانيته في الكمال ، حتى لا يكون لهم إذا هم نقضوا عهداً بعد ميثاقه أن يقولوا تعللاً واعتذاراً : إنا كنا على التزام ذلك العهد مكروهين ؛ إذ تكون حجتهم حينئذ مدحوضة ما داموا قد التزموه عن اقتناع بالدليل . لهذا تراه في الآية السابقة قد بيّن أنه لم يأخذ على بني إسرائيل العهد الذي التزموا فيه الأخذ بما أوتوا من شرائع عن طريق رسولهم موسى صلى الله عليه وسلم إلا في ظل آية من آيات قدرته ، وهي رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة ؛ ولما ذكرهم به على لسان رسولنا الكريم ذكرهم كذلك بالآية التي وُثق العهد تحت لوائها ؛ فهو جلت حكمته يعلم أن لا قهر على عقيدة ولا إكراه في دين .

ومن هذا تدرك السر في ذكر الأخذ من الظهور قبل ذكر العهد في قوله : « ألسنت بربكم » : فهو قد أراد الإرشاد الى أن العهد الذي يجب أن يوثق بين عقول البشر وبين ما في الكون من آيات ، لم يكلفوا به إلا بعد تذكيرهم بما سبق زمن التكليف من تلك التطورات العجيبة من حين أخذوا من ظهور الآباء فأودعوا أرحام الأمهات ؛ ثم صارت النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، الى آخر التطورات التي تتقدم الاستعداد للنظر والتفكير ؛ وفي ذلك من آيات القدرة البينة ، وآثار التعهد والتربية ، ومظاهر الرحمة ، ما يستدعي منهم في قوة وإلحاح أن يستمسكوا بذلك العهد الذي توحى آيات الله في الكون على ما منحوه من عقول .

والى هنا قد فرغت مما أردت أن أؤكد به تقرير المعنى الذي يجب أن تفسر به الآية الكريمة ، وأن أبين بطلان ما عدها من التأويلات .

والى القارئ بعد هذا دقائق أخرى فى الآيات مما كان به القرآن معجزا ، ومما كان به ماسكا للنفوس ، مستوليا على العقول ، موجها لها الى الخير والحق :

يقول عز من قائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » فيذكر مبدئين للاخذ على طريقة الإبدال : فيبدل قوله : « من ظهورهم » من قوله : « من بنى آدم » ، وقد كان يكفى أحدهما لاداء المعنى ؛ إلا أنك تدرك جلال القرآن وروعته حين تقارن بين الإتيان بهما وبين الاختصار على أحدهما ؛ فانه لو اقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم ذريتهم » لما كان فى هذا لفت الأذهان الى مبدأ تهيمته مادتهم للإيجاد ، ولا الى التطورات التى اجتازوها قبل خروجهم من بطون أمهاتهم الى هذا الوجود ، مع أن ذلك مقصود إليه لينبههم الى أنه قد بذروهم لأول ما بذروهم فى صلاحية واستعداد للتدبر والنظر حتى تنقطع الحجة التى كان يصح لهم أن يحتجوا بها لو كان قد منحهم الاستعداد متأخرا ، فجاء بعد ما برزوا لهذا الوجود ، وبعد ما يكونون قد تأثروا بتقليد الآباء وتقاليدهم البهيمية ؛ نعم لا يكون فى ذلك الاختصار لفت الى ذلك ، مع إيهامه أنه أخذ كما يؤخذ من المرأة ، أو تؤخذ منه أمتعته ؛ وليس بلفت الى ذلك ، ولا مبعد لذلك الوهم إلا أن يبدل منه قوله : « من ظهورهم » . كما أنك تدرك جلال القرآن حين تقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم ذريتهم » لما يوجه ذلك الاختصار من تقصير فى نسبة الأبناء الى الآباء ، ويكون التعبير الى ذلك موهما أنه أخذ كأخذ جزء من عضو خاص . فلتامم النسبة ودفع الإيهام جاء بالمبدأ الأول ، ولما قدمنا من التوجيه جاء بالمبدأ الثانى .

وإليك دقيقة أخرى : يقول تعالى : « أأنا ربكم » ؟ ولم يقل : « أنا ربكم » ؟ مع أنه هو الذى يظهر لنا ، بناء على ما يقرره علماء التفسير من أن المقرر به فى مثل ذلك هو ما بعد النفى ؛ لم يقل عز وجل : « أنا ربكم » لأن الذى يتتبع أساليب اللغة بدقة يجد أن المقرر به دائما هو ما يوافق الحال التى يكون عليها الشخص . تقول للرجل قد أحسنت إليه ثم هو يسئ إليك : ألم أحسن إليك ؟ ! لأن صنيعه من إساءة وعدم إحسان إنما يتفق مع عدم الاحسان منك اليه . وإنما كان هذا لأن الغرض هو تنبيهه الى الحالة التى هو عليها ليقطع عنها لأنه لا يستطيع أن يواجه سائله بأنه لم يحسن اليه ، لكن يستطيع أن يواجه سائله بأنه أحسن اليه حين يسأله عن الإحسان ؛ غير أنه لا يكون فى ذلك تنبيه ، ولا يتوجه به إنكار ولا ملام .

إذا عرفت ذلك ، فلنرجع الى الآية نجدها جارية على هذا الأسلوب الدقيق ، ويكون المقرر به هو المنفى لا ما بعد النفى كما يقوله المفسرون . ألا ترى أن المطرد من أحوال المجموعة البشرية هو الجحد والكفران ؛ والجحد والكفران هو ما يتفق مع عدم الاعتراف بالربوبية



مع ما أسبغ عليهم من نعمة وأدّر عليهم من رحمة ، ومع ما أقام لهم في أنفسهم وفي عوالم الكون الأخرى من آيات ، ومن كل ما يقتضيه في قوة الاعتراف بالربوبية ! وبهذا فهم إنما يسألون عن الحالة التي هم عليها حتى إذا فطنوا لها علموا أنهم على باطل واضح لا يسعهم أن يجيبوا بإيجابه ، ولا يستطيعون أن يواجهوا سائلهم بالاستقرار عليه .

وإليك دقيقة ثالثة : إنك تعلم أن أول ما يوقّر للكلام صفة البلاغة ، ويحلّه منها في المقام الأول : أن يأخذ بذهنك الى المعنى في طريق نيرة مستقيمة غير معوجة ، من غير بطء ولا توان ، ومما هو في تلك المرتبة من أسباب توفير البلاغة وجزالة الأسلوب ، أن يسلك في أداء المعنى سبيل الإيجاز ليكون أسرع في الأداء ما دام الإيجاز لا يحلّ أقل إخلال بالغرض المقصود أدائه ؛ من ذلك تدرك السر العجيب في أن حُكي جوابُ الاستفهام في « أُلست بربكم » بقوله : « قالوا بلى » دون أن يقول : « قالوا أنت ربنا » ، إذ لو جاء بالجواب « بأنت ربنا » لكان من الاحتمالات أن يغفل الذهن عن ارتباطه بالاستفهام ، وأنه جواب له ؛ وفي ذلك وقفة بالذهن مهما كانت قليلة عن الوصول الى المراد . أما لفظة « بلى » فهي لا تكون إلا جوابا ، فلا يمكن للذهن أن يقف عن إدراك الارتباط بينها وبين الاستفهام السابق . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن في لفظة « بلى » إيجازا مشيرا الى أنهم حريصون على المسارعة بإظهار عقيدتهم وأداء اعترافهم بالربوبية . وإلى هنا ، قد يقال : إنه وإن كان في ذلك تمام الارتباط والمسارعة بالإيجاز الى الأداء ، لكن بقي أن لتفصيل الاعتراف من المزية ما ليس للإجمال ؛ وإنا نقول : لهذا ترى القرآن الكريم قد جاء بعد ذلك بقوله : « شهدنا » الذي فيه تفصيل الاعتراف ، ولكنه قد جاء بهذا التفصيل بعد أن جاء بالاول الذي قطع به كل احتمال ، وسارع به في أداء المعنى لما فيه من إيجاز .

وإلى هنا ، وعلى ذلك القدر ، أقنصر ؛ فإنه ليس لأحد أن يطمع في بيان كل ما تحتويه آيات القرآن الكريم من دقائق وعجائب ؛ فهو كلام رب العالمين ، خالق القوى ، ومكوّن القُدَر ؟

هاضر محسن

المدرس بكلية اللغة العربية

## الكمال في العقل

روى أن جبريل عليه السلام جاء آدم بثلاث خصال : الحياء ، والدين ، والعقل ؛ فقال : اختر واحدة منها . فقال : الحياء والدين ، أمرنا أن لا تفارق العقل

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الإنسان



# الكلام والمتكلمون

— ٥ —

## المعتزلة

### مميزاتهم العامة :

اتفقت فرق المعتزلة — على اختلاف نزعاتها وتباينها في بعض المبادئ — في كثير من المميزات ، كما اتفقت في أصول مذهبها العام على ماسيجي . وإليك أهم هذه المميزات :

(١) اعتمادهم على العقل قبل كل شيء ، وتأويلهم كل ما لا يتفق معه من السمعيات . وقد عللوا هذا الرأي بأن العقل هو العمدة في فهم الشرع ، وبالتالي هو مناط التكليف ، وهذا يستوجب احترامه وإنزاله منزلة الرفيعة التي منحه إياها مبدع الكون حين أضعده الى عرش الجسم الانساني ، ووجه إليه خطابه مباشرة ، وأخضع له كل قوى الطبيعة ، وسلمه مفاتيح مغلقاتها ، وأباح له بنص القرآن الخوض في التدليل على وجوده ووحدانيته وقدرته . فلو أننا أهملنا حكم العقل لخرجنا على الوضع الإلهي ، وتمردنا على من تنزل الباري جل شأنه فاحترمه وأمر جميع مبدعاته بالخضوع له . أما تأويل النصوص الشرعية فلا إهانة فيه لمحترم ، ولا اعتداء على حق ، وإنما هو انتقال من معنى كان مباحا قبل اصطداده مع العقل ، الى آخر قد أصبح واجبا بعد اتفاهه مع هذا العقل .



(٢) دفاعهم الحار عن الوحي وعن كل ما يتعلق به .

(٣) اعتبارهم القرآن هو المصدر الوحيد للأسماء والأحكام .

(٤) خصومتهم مع أهل الحديث الذين لم يلبثوا أن أعلنوا أن المعتزلة فسقة .

(٥) خصومتهم العنيفة مع الجبرية لقولهم بأن الفرد كالريشة المعلقة في الهواء ، على ماسيجي في مذهبهم من مناقضة صريحة لرأي المعتزلة القائل بأن الفرد يخلق بأنهم أنواع الحرية كل أفعاله ، وإلا لما كان هناك أي معنى للتكليف ولا للمسئولية ، ولاستوت الفضيلة والزيلة ، ولكان أقل تفريق بينهما ضربا من العنت والعبث .

(٦) حملتهم على الديانات الفارسية التي كان الشيعة قد نقلوها الى البلاد الاسلامية ، والتي كانت تروج لعبادة النار بقولها : إنها أشرف العناصر وأسمهاها ، ولهذا لم يكن من العدل أن يسجد إبليس الذي هو من العنصر الاسمي لآدم الذي هو من العنصر الادني ؛ والتي كانت إحداها وهي المانوية تدعو الى الرهينة وإبادة العالم . وقد ألجأتهم حملتهم على هذه الديانات

الى دراسة العناصر ، والى محاربة النار بالتراب . وقد نجم عن ذلك المسلك تعمقهم فى دراسة الفلسفة الطبيعية التى انتعش بانتعاشها المذهب الدهرى ، فأخذ المعتزلة يحاربونه كما حاربوا المانوية ، وإن كانوا قد تأثروا ببعض آرائه .

(٧) مهاجماتهم للرافضية التى كان هشام بن الحكم يمثلها فى عصره أصدق تمثيل . ويعتبر أبو الهذيل زعيم هذه المهاجمات التى وجهها المعتزلة الى الروافض . وقد دفعته عنايته بالرد على أولئك القوم الى دراسة كتب الفلاسفة ، فاستفاد كثيرا من الآراء التى لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، وتأثر بها فى مذهبه . ولذلك أطلق عليه الباحثون اسم مؤسس الاعتزال الفلسفى الصحيح ، كما أسلفنا . ولما جاء تلميذه ابراهيم النظام سار على منهجه فواصل حملته على الدهرية والمانوية والرافضية ، وأعلن أن القرآن كما هو أساس للأسماء والأحكام يجب أن يكون أساسا لجميع المبادئ الخلقية . وبهذا يكون أولئك الزعماء الأربعة : واصل ، وعمر ، وأبو الهذيل ، والنظام ، هم الذين وضعوا على التوالى القواعد الأساسية للاعتزال . وقد وجدت أهم قواعد المذهب العام بين آراء الأول والثانى منهم ، وتمثلت فيهم المميزات التى أسلفناها .

#### مذهبهم العام :

اتفقت فرق المعتزلة كلها على خمس قواعد أساسية هى أصول مذهبهم . فالأولى : قاعدة التوحيد ، والثانية : قاعدة العدل ، والثالثة : قاعدة الوعد والوعيد ، والرابعة : قاعدة الأفعال والأحكام ، والخامسة : قاعدة العقل والسمع . وقد تفرعت عن كل قاعدة من هذه القواعد عدة مشا كل كانت مجموعة المذهب العام للمعتزلة .

فمن قاعدة التوحيد مثلا : تفرعت مشكلة الصفات ، إذ بينما أعلنت الصفاتية أن التوحيد معناه نفي القسم فى الذات ، والنظر فى الصفات ، والشريك فى الأفعال ، صرحت المعتزلة بأن الله تعالى واحد فى ذاته لا قسم ولا صفة له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، فلا قديم غير ذاته ، ولا قسم له فى أفعاله . فحال وجود قديمين أو اجتماع مؤثرين على أثر واحد . وإذا فأن الله قادر بذاته ، مريد بذاته ، عالم بذاته ، لا بقدرة أو إرادة أو علم ، لأن القدم أخص وصفه ، فلو شاركته الصفات فيه لشاركته فى الألوهية . وقد ادعوا أن هذا وحده هو التوحيد الحقيقى . ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم « أهل التوحيد » . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة جحود رؤية الإله فى الدار الآخرة ، لانتفاء الشبه والجهة والتجيز عنه ، « لأنه لا كالأشياء ، وأنه ليس بحسم ولا عرض ، ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، وإن شيئا من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة » (١)

ولما اتسع نطاق الفلسفة الاغريقية في البيئات العربية ، ألقى المعتزلة في آراء الفلاسفة مرثعا خصبيا من الجدل ، وثروة واسعة من البراهين ، فبعد أن كان خصومهم من الصفاتية يكادون يتفوقون عليهم بقولهم : إن التقسيم لا يتحقق إلا عند التألف ، والتألف لا يكون إلا في الأجسام ، أما مسألة الذات والصفات فليس التألف فيها حقيقيا ، عاد المعتزلة فhezومهم بما وجدوه مسطرا في مؤلفات الفلاسفة من أن التأليف خمسة أنواع : الأول : التألف المادى كنألف الجسم الطبيعى من العظم واللحم ، والثانى : التألف العقلى كنألف الجسم من الهوى والصورة ، والثالث : التألف بالقول الشارح كنألف تعريف الكائن من الجنس والفصل ، والرابع : تألف الكائن من ذاته وصفاته ، والخامس : تألفه من الماهية والوجود ؛ ثم أوضحوا لهم أن أى واحد من هذه التألفات يناهى الوحدة الحقيقية ، وأن القول بالصفات يقتضى التألفات الثلاثة الأخيرة من هذه الخمسة ، إذ هو يستلزم أن يكون الإله مؤلفا من الذات والصفات ، وأن يكون تعريفه ذا جنس وفصل ، وأن يكون وجوده غير ذاته ، وبالتالي يكون قولنا : « الله موجود » قضية مؤلفة من موضوع ومحمول متغايرين ، والمغايرة تنافى الوحدة النامة ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط في أسفار فلاسفة الاسلام وخصومهم من أعلام المتكلمين كالأئمة : الأشعرى ، والغزالي ، والرازى . **ففيما ذكره المحققون**

وعن قاعدة العدل : تفرعت مشكلة وجوب فعل الصلاح على البارئ لضرورته في تحقق العدالة الإلهية ، لأنه بينما أعلنت الصفاتية أن العدل هو تصرف المالك في ملكه على مقتضى العلم والمشيئة ، والظلم ضد ذلك ، وبالتالي تكون تصرفات الإله كلها عادلة ، لأنها صدرت منه في ملكه بمقتضى علمه ومشيبته ، قررت المعتزلة أن العدل هو ما يقتضيه العقل من الحكمة ، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة . وهذا يقتضى أن يكون فعل الصلاح واجبا على الله ، لكي يتحقق العدل المتوقف على الحكمة .

ومن هذين التعريفين ، وما استقر عليه كل من الفريقين من حكم على العدل ، وعلى الاخص من براهين متأخرى المعتزلة في هذه المشكلة ، يتبين جليا أن هؤلاء الآخرين قد تأثروا بالفلسفة فنظروا الى العدالة في ذاتها ، أى من حيث فكرتها النظرية دون أى التفات الى الناحية العملية فيها . ولهذا لم يعنهم في التصرف إلا اتباع الحكمة ، ولم يهتموا بأن يكون واقعا في ملك المتصرف أو في ملك غيره ، وإنما لاحظوا في العدالة الهيئة الهندسية التى تقابل عند الفيثاغوريين الشكل المربع ، والتى بها استوى نظام السماء والأرض ، وتحقق الانسجام في جميع كليات الكون وجزيئاته . أما عقلية الصفاتية فقد نظرت الى العدالة من حيث ناحيتها العملية التى تلتفت الى النتائج لا الى الفكر النظرية . ولهذا كان كل ما شغلها هو أن يكون التصرف واقعا في ملك المتصرف ، ولو كان معاديا للنظام ، مختصا مع الانسجام .

وفي هذه القاعدة أيضا ، اندجبت مشكلة قدرة الفرد على خلقه أفعاله الاختيارية ، تلك المشكلة التي أبنا لك أنها نشأت قبل ظهور فرقة الواسلية . وقد عللوا قولهم بحرية الفرد بعلته ضرورته كذلك لتحقيق العدل الإلهي ، لأن عقاب المجرم ظلم ، وإثابته سفه ، والإله منزّه عن الظلم والسفه ، أما التفضل فتزلة وراء ذلك . ولهذا أطلقوا على أنفسهم وحدهم اسم : « أهل العدل » .

وفي قاعدة الوعد والوعيد أيضا : يمكن إدماج مشكلة حرية الفرد ، لأن الصفاتية قرروا أن وعد الله ووعيده أزليان ، فمن أثيب فبوعده ، ومن عوقب فبوعيده . أما المعتزلة فقد صرحوا بأن الوعد والوعيد محدثان ، وبأن من أثيب فبفعله ، ومن عوقب فبفعله . وإذا كان الفعل عندهم هو منشأ الثواب والعقاب ، فيجب أن يقع بأنهم الحرية . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة أزلية القرآن أو حدوثه ، لأنه كلام به أدى الوعد والوعيد المحدثان عند المعتزلة ، القديمان عند خصومهم . وقد تداخلت هذه المشكلة أيضا في قاعدة التوحيد حيث اعترض المعتزلة على القائلين بقدوم القرآن باعتراض تعدد القدماء .

وعن قاعدة الأسماء والأحكام : نشأت مشكلة المنزلة بين المنزلتين ، التي دار فيها الجدل حول مرتكب الكبيرة وهل يسمى مؤمنا أو كافرا ؟ وأعلن فيها المعتزلة القول بالتوسط بين الكفر والإيمان ، وكانت سبب اعتزال واصل عن الحسن ، أو سبب نشوء فرق المعتزلة على أحد الأقوال ، كما أبنا ذلك في موضعه .

وعن قاعدة العقل والسمع : نشأت مشكلة المعرفة والوجوب وهل هما بالعقل أو بالشرع ؟ فاعلنت الصفاتية أن المعرفة بالعقل ، والوجوب بالسمع ، أي أن العقل لا يحسن ولا يقبح ، ولا يقتضي ولا يوجب ، بل يعرف فقط ، وأن السمع لا يوجد المعرفة بل يوجبها . وقررت المعتزلة أن المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بالنظر ، وأن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبح ، فهما مدركتان بالعقل ، وأن شكر المنعم وفعل الخير وتجنب الشر واجبات بالعقل (١) . « يتبع »

الدكتور محمد غنم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

# حياة حبيبنا الإسلام

عبد الله بن مسعود

والقرآن الكريم

تحدثنا في المقال السابق عن مزيد اختصاص عبد الله بن مسعود بالنبي صلى الله عليه وسلم في خاص أحواله وخفي شتونه ، مما جعل بعض الأكابر من الصحابة يحسب أنه من آل البيت ، لما يرى من كثرة دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات وأحوال ليس لاحد غيره أن يدخل فيها عليه .

ومن الطبعي أن هذا الاختصاص لرجل مثل ابن مسعود من السابقين الأولين الذين أوتوا حساً مرهفاً ، وذكاء فطرياً ، وذهناً خصباً ، وسريرة صافية ، كان له أكبر الفضل في تمييز ابن مسعود من بين إخوانه قادة الفكر الإسلامي الذين خرجتهم المدرسة المحمدية العظيمة ، بألوان شتى من الحياة الإسلامية تولدت منها مذاهب وآراء لها في تاريخ التشريع الإسلامي خطرهما ، ولا سيما فيما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، دستور الإسلام الأعظم ، حفظاً وأداءً وتدويناً ، وفقهاً في أحكامه ، وغوصاً على حكمه وأمراره .

وقد رأينا أن هذه الناحية من المباحث الإسلامية عني بها أشد العناية علماء المشرقيات من باحثي الغرب في عصرنا الحاضر ، ونشروا في موضوعاتها كتباً وبحوثاً وتعليقات تردد صداها بين الباحثين ، واشتجرت في شأنها الأقلام ، فكان من حق البحث علينا ونحن نحاول أن نرسم لشباب الإسلام - في صدد الحديث عن رجالات الإسلام وقادة الفكر - صورة موجزة عن حياة هذا النابغة الجليل ، أن نلم الإمامة عاجلة بما تردد على أسلآت الأقلام حول تدوين القرآن وقراءاته الباعثة على جمع الناس حول مصحف عثمان رضي الله عنه ، وما يتصل بعبد الله ابن مسعود من ذلك ، متوخين ذكر ما تطمئن إليه النفس ويرتاح له الضمير .

كان عبد الله بن مسعود من أقرأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وأقومهم بأدائه ؛ روى « أن ابن عباس رضي الله عنهما قال لبعض أصحابه : أي القراءتين تعدون أولى ؟ فقالوا : قراءة عبد الله ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلا العام الذي قبض فيه فإنه عرض عليه مرتين ، فحضره عبد الله بن مسعود

فشهد ما نسخ منه وما بدل . وهذا الأثر لم يتضح منه قراءة مَنْ مِنْ قُرَاء الصحابة التي جعلها ابن عباس في مساءلته أصحابه عدلاً لقراءة عبد الله بن مسعود، وأقرب الظن أنها قراءة زيد بن ثابت . ويرشح هذا أمران :

(الاول) ما رواه ابن سعد في الطبقات عن شقيق بن سلمة قال : « خطبنا عبد الله بن مسعود حين أمر في المصاحف بما أمر ، فذكر الغلoul فقال : إنه من يَغُلُّ يأت بما غُلَّ يوم القيامة ، فغلا في المصاحف ، فلائن أقرأ على قراءة من أحب أحبُّ الىَّ من أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ؛ فوالذي لا إله غيره لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة ، وزيد بن ثابت غلام له ذو ابتان يلعب مع الغلمان ؛ والذي لا إله غيره لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه إلا بل لا تيته ! قال شقيق بن سلمة : ثم ذهب عبد الله فقعدت في الخلق وفيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم فما رأيت أحدا رد عليه ما قال . » . ففي هذه الخطبة دلالة على أن المنافس لعبد الله في قراءته هو زيد بن ثابت ، فهو أجدر أن يكون مزاحماً بقراءته التي أصبحت فيما بعد قراءة الجمهور . وأثر ابن عباس يدلنا على أنه كان يذهب مذهب ابن مسعود في قراءته ويقدمها على قراءة زيد معللاً ذلك بأن عبد الله حضر العرضة الأخيرة التي استقر عندها محكم الكتاب .

(الثاني) أن زيد بن ثابت - كما يقول السيوطي في الاتقان - انتهت اليه الرياسة في القراءة ، وأنه هو الذي عهد اليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بأول جمع للمصحف ، ولم يكن لغيره من القراء ما كان له ؛ فقراءته أقرب الى أن تكون هي الموازنة لقراءة عبد الله . والذي يظهر أن لهُذين الإمامين الجليلين ميزة في حفظ القرآن اختص كل واحد منهما بجانب منها ، وقد كانت براعة عبد الله في حسن الأداء والترتيل ، فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : اقرأ على ، فقلت : كيف أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إني أشتهى أن أسمع من غيري ، قال عبد الله : فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال لي : حسبك ! فنظرت اليه وقد اغرورت عينا النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد . » . وقد كان رضي الله عنه أعطى حظاً عظيماً في تجويد القرآن ، وكان يأمر به ويقول فيما روى عنه : « جودوا القرآن . » وفي الصحيحين عنه « أن رجلاً قال له : إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال عبد الله : هَذَا كَهَذَا الشعر ؟ إن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع . » وكان رضي الله عنه يقول لتلاميذه وأصحابه : « لا تنتروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون همَّ أحدكم آخر السورة . »

كانت هذه العناية الفائقة من ابن مسعود بالقرآن الكريم باعثا قويا على أن يدون لنفسه مصحفا يجمع بين دفتيه ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم . وحالة التدوين في أول عهد المسلمين به غامضة ، والروايات في شأنها كثيرة ، والناظر في تلك الروايات واختلاف عباراتها اختلافا شديدا يدرك منها أن الذين دونوا ما سمعوه تدوينا فرديا لم يقصدوا إلى أن يجمعوا القرآن الحكيم في مصحف ، وإنما قصدوا عمل مذكرات لهم يرجعون إليها عند الحاجة ، ولم يقصد جمع القرآن في مصحف يكون إماما للأمة ترجع إليه إذا أعوزتها آياته أحد قبل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولذلك لم يكن عملهما عملا فرديا كعمل غيرها . روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلى أبو بكر مَقْتَلَ أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استَحَرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحَرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير ! فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في ذلك ، الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهتمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن أجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال هو والله خير ! فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبع القرآن أجمعه من العُسْب واللخاف وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع غيره : « لقد جاءكم رسول » حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » . وقد لا يُبعد من يفهم في هذا الحديث أنه ظاهر جدا في شدة الاحتياط في قرآنية ما يدون تدوينا جماعيا ، لأن زيدا قال : فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ؛ فسكانه رضي الله عنه جعل لنفسه قاعدة لتدوين القرآن : أن يجد الآية أو السورة في العسب واللخاف وصدور الرجال ، وليس يكفي وجدانها في واحد من هذه المصادر ؛ ولما كان الوجود في صدور الرجال يتعدد غالبا نبه في الحديث على انفراد أبي خزيمة الأنصاري بآخر براءة مع القطع بأنها كانت مدونة في العسب واللخاف ؛ وبهذا التأويل ينقطع الإشكال على تواتر القرآن ، ويثبت له التواتر النقلي والتدويني ؛ ولا أعلم في الروايات بعد البحث ما ينافي هذا التأويل . وروى عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه كان يقول : « أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ! هو أول من جمع كتاب الله » . وهذا الجمع من أبي بكر وعمر إنما كان خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته ، لأن أصل الكتابة والتدوين كان موجودا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال الخطابي : « إنما لم يجمع صلى الله



عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من وجود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر .

انتهى هذا الدور ، ولم يظهر أثر لاختلاف المصاحف ، ولم يتردد صدى شيء من هذا النحو الذي ظهر في طور الجمع العثماني ؛ وكان ذلك لأن السبب في الجمعين مختلف ؛ قال ابن النّين : « الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا في موضع واحد ، فجمعهم في صحائف مرتّبا لآيات سورة على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وجمع عثمان كان لما كثرت الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فغشى من تفاقم الأمر في ذلك ، فسخ تلك المصحف في مصحف واحد ، مرتّبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعا للخرج والمشفة في ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقصر على لغة واحدة . » وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : « لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته ، كُتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد »

وهذا الاختلاف في القراءات الذي دعا عثمان إلى جمع المصحف الإمام ، كان موجودا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يشهد له حديث الصحيح في اختلاف عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام في سورة الفرقان وتماكهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتصويب قراءتهما جميعا ، لأن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي عليه كانت أعظم ضمان لتنزيه القرآن عن أحرف لم ينزل بها الوحي ، أما إذ انقطع الوحي بوفاته رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق مناص من سد الثغر التي ينفذ منها الخطأ ، وذلك بجمع الناس على مصحف واحد يتخذونه إماما لهم ، وذلك ما صنع عثمان رضي الله عنه .

من هذه الروايات الكثيرة يظهر أن القرآن الكريم كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا مجموعا مرتّبا ترتيبه الذي تلقته عليه الأمة جيلا بعد جيل ، من غير زيادة حرف أو نقص حرف ، أو تقديم كلمة وتأخير أخرى ؛ وهو الذي تضافرت عليه أقوال الأئمة المعتمد بهم في جميع الدهور والأعصار ؛ قال القاضي أبو بكر الباقلاني : « الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بآبائنا رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه ، وأن



ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولا آخر منه مقدم ، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة . وعن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : « إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم » .

لم يبق سبيل للاعتماد على بعض الروايات الواهية أو المحرفة في فهمها التي تنسب الى عبد الله بن مسعود من إنكار كون المعوذتين وفاتحة الكتاب ليستا من القرآن لأنهما لم يوجدتا في مصحفه . قال الامام نضر الدين الرازى : « نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ؛ وهو فى غاية اللصعوبة ؛ لانا إن قلنا إن النقل المتواتر كان حاصلًا فى عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر ، وإن قلنا لم يكن حاصلًا فى ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل . والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود باطل » . وقال النووى فى شرح المذهب : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد منها شيئًا كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ؛ وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زرّ عنه وفيها المعوذتان والفاتحة » . والذي يدل لذلك إجماع الأمة من لدن عصر النبوة على أنه لم تقع صلاة فى الاسلام بغير فاتحة الكتاب ، كما نقله صاحب الإتيقان .

وقد قدمنا لك خطبة عبد الله بن مسعود التي تفيد أن الخلاف بينه وبين غيره إنما كان على القراءات ، وقد قال له الناس حينما عزله عثمان عن الكوفة : أقم ونحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه ، فقال : « إن له على حق الطاعة ، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة » .

صادق إبراهيم عربونه

## حجاب القادة

ذم كثير من الأدباء الحجاب المضروب على القادة ، كأنهم يريدون أن يدخل عليهم من يريد وقت ما يريد . وغاب عنهم أنهم لو سمحوا بذلك لما وجدوا وقتًا لتصرف الأمور العامة . ومن هؤلاء الذى قال :

ليس الحجاب بالة الاشراف      إن الحجاب بجانب الانصاف  
ولقل من يأتي فيحجب مرة      فيعود ثانية بقلب صاف  
ولكن أفضل من هذا وأحكم قول أبى تمام :  
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا      إن السماء ترجى حين تحتجب

## بَابُ الاسْتِئْثَارِ وَالْفَتَاوَى

### في الميراث :

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

توفى رجل وترك أولاد أختين : ثلاث بنات من واحدة ، وولدا وبناتا من الأخرى ، ومقدار التركة خمسة عشر جنبها ؛ فما بيان الحكم الشرعى ؟  
شافعى سلامه  
بسرياقوس

### الجواب :

هؤلاء المذكورون من ذوى الأرحام ، وحكمهم فى هذه الحادثة أن أولاد كل أخت ينزلون منزلة أمهم ويأخذون ما كانت أمهم تأخذه لو كانت هى الموجودة وقت وفاة أخيها المتوفى .  
والظاهر من السؤال أن الأختين شقيقتان ؛ فإذا كان الواقع كذلك فإن التركة تقسم نصفين ، كل نصف يوزع على أولاد أخت ، فيأخذ البنات الثلاث أولاد الأخت الأولى كل واحدة منهن جنبهين ونصفا ، يأخذ الولد والبنات أولاد الأخت الثانية ما كانت تأخذه أمهم ، للذكر منهم مثل حظ الانثيين ، فللولد خمسة جنبها ، وللبنات جنبهان ونصف . والله أعلم .

### في الرضاع :

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

خديجة بنت محمد النهشاوى رضعت من والدتى مريم وقت أن كانت ترضع أخى الأكبر ، وإن خديجة محمد المذكورة قد تزوجت وأنجبت بنتا تسمى حياة ، وإن أخى الذى رضع معها قد توفى ؛ وأنا مرادى الزواج من بنت خديجة وهى حياة . فهل يصح لى الزواج منها أولا ؟  
ابراهيم مصطفى العوف — بمركز بوليس بئر السبع — حيفا

### الجواب :

حيث إن خديجة رضعت من مريم فقد صارت مريم أمًا لها من الرضاع ، وصار جميع أولادها إخوة لخديجة من الرضاع ، فلا يجوز لواحد منهم أن يتزوج حياة بنت خديجة ، لأنها بنت أخته من الرضاع . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام



## المستقبل للإسلام<sup>(١)</sup>

العلم والفلسفة يهتان العقول والقلوب لقبول الاسلام ديناً عالمياً

ربما خيل لمن لا يعرف الاسلام أن هذا إعلان جرىء ، ولكننا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل .

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثة والتقاليد ، وإمعانه في النقد والتحصيل ، يتمشى على غير قصد منه نحو الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة في الأرض تردده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الانسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان ، فإليك :

كُذِفَ بالإنسان الى هذا العالم جاهلاً به غاية الجهل ، حمياً عن أسرار كل الحماية ، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات ، لمات ظمأً وسغباً ؛ ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضواري التي كانت تتعقبه ، ويحتجى من العوارض الطبيعية التي كانت تنصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلاً ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ؛ حتى استطاع أن يأمن شر العوادي ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة . ثم ما برح ترقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل في المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات الممجة ، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود الى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم في نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذي يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزاد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغي أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

في أثناء تمشى الإنسان في هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط في نظره

---

(١) طُلبَ إلينا أن ندلي بأقوى ما نملك من حجج في موضوع أن المستقبل للإسلام ، ففعلنا ، ولم نشأ أن نقصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء ، فرأينا أن نعم إذاعته بنشره في مجلة الأزهر ليكون إلى جانب نظائره مما تقوى به حجة الاسلام في هذه المجلة .

الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة في أقصى ثناياه ، عاداً ذلك من متمات وجوده الأدبي .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية في هذه الناحية ، تأسيس الأصول الآتية :

( أولاً ) زوال آثار الوراثة الدينية .

( ثانياً ) انحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

( ثالثاً ) قيام النظر العقلي مقام التقليد الأعمى .

( رابعاً ) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

( خامساً ) الميل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجماعة إياها شيعة .

( سادساً ) الاتجاه الى نصب العلم فاروقاً بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا يحصى من تولدها كثرمة طبيعية للثقافة المصرية . وقد تولدت فعلاً وصارت جزءاً من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصراً رئيسياً من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لا بد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فاذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الاسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » الآية . وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فأتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهراً على الأديان كلها ، كذلك ستصدق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيُرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى

يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : « ستربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . »

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب في أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم ( برنارد شو ) أن أوروبا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الاسلام ديناً .

أى شيء يعتبر في حكمه هذا بعيداً عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التي أثبتناها هنا ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الاسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله ديناً للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلف الاسلام كل داخل فيه أن يكون متجرداً من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ؛ وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فاذا تمت له هذه التصفية ولُتقن أمور الدين ، أُمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونهى أن يأخذ بها تقليداً مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ، وكُلّف أيضاً أن يتأمل فيما نصبه الله فى السكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التحصيل والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيبشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فإليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . أى أن كل مولود يولد على الدين المطلق « الاسلام » ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور ما يغيران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم الظنون والآوهام : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم لا يخرصون » . وقال « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغنى عن الحق شيئا »

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعقلون » . وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال في ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وقال : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » . وقال : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . وقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

وقال تعالى في المسؤولية الشخصية ، وفي عدم جواز الاعتماد على الغير : « كل نفس بما كسبت رهينة » . وقال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . وقال « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعا ، ولا يؤخذ منها عدل ( أى فداء ) » .

وقال تعالى في ذم التقليد الأعمى : « وقالوا ( أى يوم القيامة ) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . وقال : « إذ تبرأ الذين اتَّبَعُوا ( أى يوم القيامة ) من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

وقال تعالى في وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفي النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . وقال في وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وقال في تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

هذا دستور ديني جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمن لم يكن فيه دستور أيا كان نوعه دولة في الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرقى الى يا فيخهم في حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة لاروس في دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تجر الى النار المحرقة في تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الديني ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتركة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسمعو داعيا يدعوهم الى تقيضه ، وإذا

أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور فقال تعالى : « وقالوا يأبها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » . وقالوا : « إنا لتأركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » . فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهي في البقعة الفسيحة من الأرض التي استولى عليها المسلمون في أول الاسلام ، هي دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تسكلها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الاسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى لحسب ، ولكن أصوله الأولية هي ذلك الدستور نفسه ، بالغا أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تقلت منه حتى همسات السرائر ، وحرركات الضائر : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

#### العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم في الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطر بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ ( هنرى بيرانجيه ) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخي قد حطم اليوم كل الأشكال المنحجرة في الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنه . ففي كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الانسان الى الداء والعبادة والتضحية ، في أخس الأديان الوثنية ، كما في أرق المذاهب الروحانية . هذه هي الشرارة البسيكولوجية ( أى النفسية ) التي استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل » .

ثم قال :

« إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية ( أى الطبيعية ) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . نحن جاك روسو ولمرتين ولامنيه وميشيليه وكيفيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان وجيو وشوريه وساباتيه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ما هي هذه الديانة الطبيعية التي يعتقد كبار المفكرين في الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلية ؟

إننا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسي ( كارو ) ، فقد قال في كتابه :

( البحوث الأدبية على الزمان الحاضر ) ما يأتي :

« أصول الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني ، ووجود روح للانسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة في هذا الجثمان المادى أمدًا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بارادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التي هي ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الانسان في مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبررتك السعادة » اهـ .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، في الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى ( أى الطبيعى ) آت لاحتمال باعتبار أنه دين عالمي للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الاسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فاذا آانس الناس تلككوا في التمشي اليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يمجدون على ما ورثوه ، ويستمتعون في تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا تليها تطهيرها لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق في الوقت نفسه تزداد ذيوفا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى في الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذا ذاك تحمل الروح الاسلامية



في العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمي يتمناه المصلحون في العصر الحاضر .

في ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالاستاذ ( هنري بيرانجييه ) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشيء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .  
نعم لا يستطيع أن يقول ذلك . لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه في قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تستند عليه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق ، فهو في شرعة هذا الدين الفطري دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل ، فهو في شرعته كفر .

هذا هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيضا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فان كان في العالم أصول كلما أمنت في البعد عنها ، ازدادت قربا منها ، فهي الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : « أغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون » ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبليون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما » .  
« يريدون ليظفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

« ويري الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ، ويهدي الى صراط العزيز الحميد » .

محمد فريد وجدي

# مَجْلَدُ الْمَسَائِدِ الْفَهْمِيَّةِ

## تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

- ٣ -

### كيف دخل الفقه الاسلامي مصر

لم يكن الفتح الاسلامي فتحا سياسيا خصب ، ولم تكن الحملة التي أرسلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حملة حربية فقط ، فان العرب كانوا دائما يحملون مع السيف علم ثقافتهم ودينهم ، وكانوا يبسطون حيثما حلوا بساط عدلهم وأمنهم ، وكانت البلاد التي يفتحونها تتمتع سريعا بحكم عادل مستقر لأنه حكم الرحمة والمصلحة ، خال من التعقيد لأنه هو البساطة بعينها ، بعيد عن المشقة لأنه لا يعرف إلا اليسر والسهولة .

ولا تجد أمة راقية تكتمن أبدا بالفتح السياسي حتى تضيف إليه الفتح الثقافي .

بل إنه لا يفلح الفتح السياسي ، ولا تتوطد أقدام القائمين به إلا في ظلال الفتح الثقافي ، والغزو الفكري .

وها نحن أولاء نرى في عصرنا الحاضر أثر الدواوة السريع ، ومقامها العظيم ، وعناية الدول الحديثة بها ؛ ونرى أن الأمم المستعمرة تقدم ثقافتها ومبادئها بين يدي ما تبغى من فتح واستعمار ، وتغزو بجيوش العلم والفكر ، قبل أن تغزو بجيوش الحرب والطعان !

على هذه السنة كان الفتح الاسلامي لمصر ، فكان مع الفاتحين حملة ثقافية علمية دينية ، أعضاءها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شهدوا الرسالة ، وصحبوا الرسول ، وقرأوا القرآن ، ورووا الحديث ، وشهدوا ما كان يفعل أبو بكر وعمر بعد وفاة الرسول فيما يعرض للمسلمين من قضايا ، وما يحدث لهم من أحداث .

ودخل مصر بعد الفتح أصحاب آخرون ، وكان من هؤلاء وأولئك أمراء تولوا حكمها ، وقضاة فصلوا في قضاياها ، ومفتون ، وفقهاء ، ورواة حديث .

فعلى يد هؤلاء جميعا دخل الفقه الاسلامي الى مصر ، وعلى يد هؤلاء جميعا وضع أساس الفقه فيها ، أو كما يقال في التعبير الحديث : أسست مدرسته الأولى .

فما هو طابع هذه المدرسة ؟ وماذا كان أثرها في مصر من حيث القوانين والأقضية ، والأحكام ؟ وهل كان لمصر أثر خاص في فقه هذه المدرسة ؟

## مدرسة الصحابة :

ألف محمد بن الربيع الجيزي كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة ، ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا ، ثم جاء جلال الدين السيوطي فألف كتابا أسماه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » جمع فيه من ذكرهم ابن الربيع ، وزاد مثلهم أو أكثر ممن ذكروا في مصادر أخرى ، فبلغت عدة هؤلاء وهؤلاء أكثر من ثلاثمائة .

وقد تتبع أخبار هؤلاء الصحابة ، فوجدت كثيرا منهم رواة حديث يتفاوتون في عدد ما يروون منه ، فمنهم المقل ، ومنهم المكثر .

ووجدت قليلا منهم ممن عرفوا بالفتوى أو اشتغلوا بالقضاء ، ووجدت بعضهم قد مر بمصر مرورا ، أو أقام بها قليلا ، وبعضهم قد استوطنها واتخذها له دارا ، وبعضهم قد تولى شأنا من شئونها .

ونحن نعرض لبعض هؤلاء الأصحاب من قبيل التمثيل ، ليكون القارئ فكرة عنهم : فالزبير بن العوام : أحد الذين شهدوا الفتح ، وكان لهم أثر ظاهر فيه ، فهو الذي قدم الى عمرو في مدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو الذي اقترح الحصن على من فيه ، فتم بذلك النصر للمسلمين .

وهو من المعروفين بالفتيا ، وقد ألحقه ابن القيم بالمتوسطين (١) ، ولكنه لم يبق في مصر إقامة تجعل له في فقهها أو روايتها أثرا بارزا ، وقد ذكروا أن المصريين لم يرووا عنه إلا حديثا واحدا .

وعبادة بن الصامت : كان سفير المسلمين الى المقوقس في أثناء الحصار ، وهو أيضا من المفتين المتوسطين ، ولكنه لم تطل إقامته كذلك ، ولم يروا المصريين عنه إلا عشرة أحاديث .

والمقداد بن الأسود : من المقلين ، وقد شهد الفتح ، والمصريين عنه حديثان . وأبو ذر الغفاري : شهد الفتح أيضا ، وأقام بمصر زمنا ، ولهم عنه عشرون حديثا ، وهو في المقلين من المفتين .

وربيعة بن شرجبيل بن حسنة : شهد الفتح ، ولم يروا المصريين عنه شيئا ، ويظهر أنه كان ذا موهبة مالية دعت عمرو بن العاص أن يستعمله على المكس وهو الخراج (٢) .

(١) نقل ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين أن الصحابة عموما باعتبار فتاوبهم قلة وكثرة ثلاث طوائف : مكثرون يمكن أن يجمع من فتوى كل منهم سفر ضخ ، ومتوسطون يجمع من فتوى كل منهم كتيب صغير ، ومقلون لا تعرف عن أحدهم إلا المسألة أو المسألان أو الزيادة اليسيرة على ذلك . . الخ ١٣ ج ١

(٢) خطط المقرئ ١٢٣ ج ٢

ومسألة بن مخلد الأنصارى : قد ولاه معاوية على مصر ، وجع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب ، ولكنه كان مشغولا بالغزوات ، فلم يرو له المصريون إلا حديثا واحدا ، ولم يعرف عنه فتاوى مع أنه أقام بمصر أميرا خمس عشرة سنة !

وهناك رجلان يحدثننا الرواة أنه كان لكل منهما أثر في المصريين ، ومقام محمود : أحدهما عقبة بن عامر الجهني ، والثاني عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي .

فأما عقبة ، فإنه لا يعد في المفتين المقلين أو المكثرين ، وإنما يعد من رواة الحديث (١) ، أقام بمصر زمنا طويلا ، ومات بها سنة ٥٨ هـ ، وتولى إمارتها من قبل معاوية بن أبي سفيان سنتين وثلاثة أشهر .

وكان من أحسن الناس صوتا بالقرآن (٢) ، وإتقاننا لقراءته ، وله مصحف كتبه بيده ، قال أبو سعيد بن يونس : رأيت مصحف عقبة بمصر على غير تأليف مصحف عثمان .

ويظهر أنه كان رجلا ظريفا ، لين الجانب ، عذب الحديث ، وهذه الصفات حببت فيه أهل مصر ، وجعلت له فيهم منزلة سامية ، فأقبلوا على حديثه يروونه عنه ، ويتناقلونه ، حتى عد من الذين أكثر عنهم المصريون ، فقد روى ابن عبد الحكم أن للمصريين عنه نحو مائة حديث .

وأما عبد الله بن عمرو ، فكان من نجباء الصحابة وعلمائهم ، عدوه في المكثرين من الحديثين ، وفي المتوسطين من المفتين ، من طبقة عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل ، ونحوهم .

كان له منزلة بين الصحابة ، حتى لقد تردد ذكره في أيام التحكيم كمرشح للخلافة ، وحتى لقد قالت عائشة لعروة بن الزبير ، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة : يا بن أخي بلغني أن عبد الله بن عمرو ما أثر بنا إلى الحج ، فאלقه فأسأله ، فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علما كثيرا (٣) .

وكان له صحيفة كتب فيها ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها « الصادقة » ويقول : « فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد » . وكان يحج ويعتمر ، ويأتي الشام ، ثم يرجع إلى مصر (٤) ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين في المدينة والشام ومصر .

(١) قال عنه الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين ، منهم ابن عباس ، وأبو أمامة ، وخلق من أهل مصر . (٢) حسن المحاضرة ١٠٣ ج ١ (٣) تاريخ التصريح الإسلامي ولسكنية القرية « ص ١٣٦ . (٤) فجر الاسلام ٢٣٤ ج ١

وأكثر علم المصريين عنه . كانوا يرجعون اليه في الفتيا ، ويكتبون عنه ما يحدث .  
 روى أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر عن حيوة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شغى  
 ابن مانع الأصبحي وهو يقول : فعل الله بفلان ! فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان  
 شغى سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم في كذا ، وقال رسول الله كذا . والآخر : ما يكون من الاحداث الى يوم القيامة ،  
 فأخذها فرمى بهما بين الحولة والباب (١) .

وهذا الخبر يعطينا فكرة عما كان يرويه المصريون عن عبد الله بن عمرو بن العاص ،  
 فهو يذكر كتابين : في أحدهما أفضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحكامه ، وفي الآخر  
 أخبار لا تتصل بالفقه ، والنوع الأول هو الفقه الذى كان يبتثه في المصري عبد الله مستعينا  
 عليه بما يروى من قضاء رسول الله وأحكامه .

ويظهر أنه كان للمصريين عناية خاصة بالنوع الثانى تزيد على عنايتهم بالنوع الأول . وسبب  
 ذلك أنهم كانوا مولعين بالقصص ، والاستماع الى غريب الاخبار ، ولانطلق الى معرفة  
 ما سيحدث في المستقبل من الاحداث ، أكثر من ولوعهم بالأحكام .

ولذلك راج القصص ، وكثر القصص في هذا العهد ، بل أصبح القصص عملا رسميا يعهد  
 به الأمير الى بعض الناس ، ويعطيه عليه أجرا ، كالذى يحدثنا به الكندى في كتابه « تاريخ  
 القضاة والولاة » من أن سليم بن عتر النجيبى كان يقص بمصر في سنة ٣٨ هـ وجمع له القضاء  
 الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص (\*)

وكان الناس يجتمعون الى القاص فيذكرونهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصا  
 عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترفيه  
 والترهيب (٢)

هذا النوع آخر انتشار الفقه زمننا طويلا ، روى الكندى والمقرئى عن أبى قبيل  
 وغيره أن أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام « وفي رواية ابن يونس : ومسائل الفقه »  
 يزيد بن أبى حبيب ، وكانوا قبل ذلك إنما يتحدثون في الترفيه والفتن (٣) . ويزيد هذا هو  
 أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر بن عبد العزيز الفتيا في مصر .

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٣٣ وفيها « قال أبو سعيد : يعنى بقوله الحولة والباب مركبتين كبيرتين من  
 سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلي القسطاط تجوز من تحتها لكبرها المراكب » .

«\*» سليم بن عتر هذا ليس صحابيا ولكنه من الطبقة الاولى من التابعين ، تولى القضاء سنة ٤٠ وتوفى

بدمياط سنة ٦٥ (٢) فجر الاسلام ص ١٩٦ ج ١ (٣) خطط المقرئى ٣٣٣ ج ٢

وقد رأيت فيما رواه المصريون عن عبد الله بن عمرو أحاديث كثيرة من هذا النوع .  
 منها ما روى في مسند الامام احمد عن أبي قبيل - وهو من الرواة المصريين - قال : « كنا  
 عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أى المدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟  
 فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، فأخرج منه كتابا ، ثم قال : بينما نحن جلوس حول النبي صلى  
 الله عليه وسلم نكتب إذ سئل رسول الله : أى المدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو  
 رومية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : مدينة هرقل تفتح أولاً ، يعنى القسطنطينية .

ومنها عن أبي قبيل عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات يوم  
 الجمعة ، أو ليلة الجمعة ، وقته فتنة القبر . . . الخ الخ  
 وإنك لتجد كثيرا من الأحاديث التى يروها المصريون عن غير عبد الله بن عمرو أيضا  
 من هذا النوع الذى يدور حول الترغيب والترهيب ، والأخبار والقصص ، والنبوءات ،  
 ونحو ذلك .

تلك صورة عن الرواية والفتيا ، لهذا العهد ، من تاريخ الفقه فى مصر ، يمكننا بعد ذلك  
 أن نستخلص منها هذه النتائج :

(١) لم تكن الرواية كثيرة ، ولم يكن فى الصحابة الذين دخلوا مصر أحد له أثر بارز  
 فى الفتوى سوى عبد الله بن عمرو .

(٢) كان المصريون يروون عن الصحابة أحاديث فى موضوعات شتى ، منها ما يتصل بالفقه  
 ومنها ما لا يتصل به ، وكانت عنايتهم بالنوع الثانى أكبر .

(٣) لم يكن الفقه فى هذا العهد منتشرا كعلم يقصد اليه خاصة .

هذا كله فيما يتعلق بالرواية والفتيا ، وكان الى جانب ذلك حركة أخرى أثرت فى الفقه  
 على يد القضاة ، ولها حديث بعد هذا الحديث إن شاء الله ؟

محمد محمد المرنى

المدرس فى كلية الشريعة

## هل العقل يشقى صاحبه ؟

قال أبو الطيب المتنبي :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ولو سألت الأكثرين وجدتهم على مذهب أبى الطيب . والحق أن العقل لا يشقى صاحبه  
 إلا إذا كسفه جهل فطال به بالحال : كأن يتمنى أن يكون نعيمه المادى مقيا ، فى عالم كل ما فيه  
 زائل ، ويغيب عما وراءه من عالم الروح الذى ليس لنعيمه وصف . فمثل هذا العقل الناقص  
 جدير أن يشقى صاحبه ولا كرامة !

# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الادب العربي

جاهليته وإسلاميته

— ٤ —

تيسير النحو

لعله لم يمر في تاريخ اللغة العربية عهد ، هو أخطر على حياتها من هذا العهد ؛ فلقد اصطلحت عليها عوامل داخلية وخارجية ، غزتها من جميع نواحيها ، وهددتها في معاقبها ؛ ولولا ما ركّب الله في طبيعة هذه اللغة من القوى الحيوية ، لآلقت سلاحها ، وأرّزت الى المساجد والمعاهد الدينية كما تأرّز الحية الى وكرها ، وانهت الى المصير الذي انتهت إليه اللغات التاريخية من قبل .

فقد تحقق وكاد يكتمل ، ما تنبأ به علماء القرن التاسع عشر ، من تقدم العلوم الطبيعية ، وترعرعها ، وسيطرتها على سياسة العالم ، وإحكام الصّلات بين أجزائه المتناثية ، حتى أصبح وكأنه قطر واحد ؛ ولا ريب أن السيادة لن تعدو لغة العلم ؛ فنصيب لغة الامة من السيادة ، تابع لمقدار حظها من العلم الطبيعي ؛ والعلوم الطبيعية كما تفرض نفسها على العالم لمكان الحاجة الى آثارها ، كذلك تفرض لغتها التي هي مفتاح رموزها ، وكشّاف أسرارها . يقول بعض شراح مذهب دارون في النشوء والارتقاء :

« والعقبة التي يقدر لها عمر أطول من سواها ، هي عقبة التفاهم ، أي اللغة ، ولكن العلوم الطبيعية نفسها — بجعلها العالم كأنه مدينة واحدة بتقريبه المسافات بينه — ستجعل التنازع شديدا جدا بين اللغات ، حتى يقضى على الكثير منها الذي لم يكن له في هذه العلوم شأن يذكر . وكأن البقاء اليوم غير مقدور إلا للغات ثلاث سيقنصر التنازع في المستقبل بينها ، وهي الانكليزية والفرنسية والالمانية ؛ وكان الراجح حتى الربع الأول من القرن الماضي أن يكون الفوز للفرنسية ؛ لأنها أسبق اللغات ، وأمتها أسبق الأمم الى المبادئ الاجتماعية الراقية ؛ ولولا شيوع كتب الادب الخيالية المجونية ، وعلم الحقوق اللذين صرفا الأفكار الراقية عن الاشتغال بالعلوم الصحيحة ، وكان ضررها على فرنسة وعلى العالم أشد

من ضرر النظريات الدينية ، التي ما كادت تتخلص من شراكها في بورتها الاولى ، حتى وقعت من ذلك في شرك أخرى أدهى وأشد . ففي القرن السادس عشر كانت إيطاليا في مقدمة الأمم في ذلك ، ثم في القرن السابع عشر إنجلترا ، وفي الثامن عشر فرنسا ، وأما في القرن التاسع عشر ، فالسابقة ألمانيا » اه .

فهذا أحد الأخطار التي تتهدد لغتنا الكريمة ، وهو أنكرها وأبلغها ؛ ويلزمه خطر آخر ، وهو السرعة التي تسود الحضارة الآلية الراهنة ؛ والسرعة عدوة الإعراب ؛ لأن اللغات المعربة تعتمد الفهم قبل القراءة ، بخلاف اللغات غير المعربة ؛ على أن اللغة آلة البيان والفهم ، فإذا توقفت على الفهم ، انعكس الحال . وعلماء اللغات يذكرون أنه ليس في لغات العالم ما هو معرب إلا الألمانية ، والحبشية ، والعربية ، ولكن أولاهن في نهاية الطريق إلى التخلص من الإعراب ، وهي بذلك حق جديرة ، بعد أن عرفت منزلتها بين أمم العالم .

يضافر السببين الآتين ، ماركب في طبائع الضعفاء من تقليد المتغلبين ، والفناء فيهم ، والإعجاب بكل ما يحيط بهم من عادات ، وأزياء ، وآداب وفنون ، وغيرها ؛ وفي كل أولئك إضعاف للناحية العنصرية ، التي أهم مشخصاتها اللغة ؛ ولأمر ما ، قالوا : حياة الأمة بحياة لغتها .



لقد دخل اللحن على العربية الفصحى ، أول عهد العرب بالفتوح الإسلامية ؛ وبقيت الدواوين بلغة البلاد المفتوحة أمدا طويلا ؛ وتسلبت غير العرب من الديالم والأتراك وغيرهم على الممالك الإسلامية ؛ ونقلت الدواوين إلى التركية إبان العهد العثماني ، ولكنه بقي للغة مع كل أولئك سلطانها المتغلب ، يرفع لواءه الخلفاء والولاة والأمراء ، والآداب والدين . فاما في هذا العهد ، فإن طغيان العلم الطبيعي ، وآثار العلم الطبيعي ، تعصف بالعزائم الصادقة ، التي تنطوى عليها نفوس ملوك الاسلام ، ورجالات الممالك الإسلامية ، وعلمائها وأدبائها ؛ وعذرهم في ذلك قائم ؛ فإن المدرسة ، والمسرح ، والسوق ، والمنزل ، والنادي ، كل أولئك قد طغى فيه اللون الغربي الوافد ، على كل لون سواه . ومن هنا كانت مهمة المجامع اللغوية ، من أشق المهام ، وأعظمها خطرا ، وكان النجاح المرجو منها محدودا ، لأن آفات اللغة العربية ، تسير في أنحاء العالم في إثر الحاجة الطبيعية ؛ فأما عمل المجامع اللغوية ، فإنه متكلف مدفوع بقوى غير طبيعية ، ولا قوية ؛ ولعل أفضل ما فيها إحياء شعائر اللغة ، والقيام على ثغر من ثغورها ، وهو بيئة الخاصة ، ثم الانتفاء من مذلة الاستسلام ، وإلقاء السلاح ، بالدفاع عن حومة مجد العربية ، ولسان الاسلام ، حتى الرمح الأخير .



لما ظهرت فكرة « تيسير النحو » ، انقسم الناس بإزائها إلى قسمين : ذهب قسم إلى أنها



أول خطوة الى التخلص من إعراب اللغة العربية ، باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، على طريقة الدولة التركية ، وهياهم لهذا الفهم ما قدمت من أسباب ؛ ثم شجعهم عليه ، خطبة خطبها وزير المعارف الذي كان تيسير النحو من إصلاحاته ، رعى فيها الى بعض ما شرحت آنفا ، من عسر القراءة باللغة العربية ، عسراً يوقع في الإلباس والضلال ؛ فمادة « علم » مثلا ، يحتمل أن تقرأ : عِلِّمْ ، وَعَلِّمْ ، وَعِلِّمْ ، وَعِلِّمْ ، وَعَلِّمْ . الخ .

وذهب آخرون - وأنا أولهم - الى أن الغاية من هذا التيسير نبيلة ، والقصد حسن ، والثرثرة أقرب وأنضج ، من ثمرات طريقة التطويل التقليدية ، التي اشترعها أبو علم الاجتماع العلامة ابن خلدون ، وتابعه عليها الأزهر والمدارس ، منذ كان التدريس ، وكانت المدارس .

ووجهة النظر في تيسير النحو ، تُجمل في الاكتفاء من النحو وقواعده بالقدر الذي لا بد منه لتقويم اللسان ، كمعرفة الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر الخ ؛ والتعويل في تمام إصلاح اللسان على الإكثار من المطالعة في الكتب الصحيحة ، حتى تتربى عند الطالب ملكة من كثرة التكرار ، وتعود النطق الصحيح ، تغنيه عن قواعد النحو وتطبيقها إذا قرأ ، وإذا كتب . وعلى الرغم من جمال هذا المنهج ، واحترام هذا الرأي ، فإن الشطر الأول منه باطل ، والشطر الثاني نظري ؛ وقد كفانا الاستدلال على بطلان الشطر الأول ، أبو عثمان الجاحظ ، إذ يقول في كتابه « الحيوان » : « قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شيمر : إذا كان لا يتوصل الى ما يحتاج إليه ، إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه ، يحتاج إليه » . اهـ

فأما أن الشطر الثاني نظري ، فذلك ما يكرره الواقع المحس ، إذ لو كانت كثرة المطالعة في الكتب الصحيحة كافية في تقويم اللسان ، لكان الأزهر وفروعه ، كدار العلوم ، ومدارس المعلمين الأولية ، أغنى المعاهد عن دراسة النحو ، والتعمق فيه ، لأن طالب هذه المعاهد لا يدخلها ، إلا وقد حفظ القرآن الكريم ، حفظا مجودا ؛ وأثر القرآن في إصلاح اللسان ، أبين من أن يشرح ؛ فإذا دخلها كان هجيرا للمطالعة في كتب تلتقي كلها في صحة التراكيب ، وسلامتها من الخطأ العربي ، وإن اختلفت أساليبها ، واضطرب حفظها من الفصاحة والبلاغة . وجميع ما يدرس في هذه المعاهد من غير العلوم الشرعية واللسانية ، قد روعي في كتبه وفي دراسته تلقينا وتلقيا ، التعريب الى أرق حد مستطاع . ومع كل أولئك ، فإن أحدا لا يستطيع أن يقول : إن الأزهرى ومن في حكمه في غنية عن دراسة النحو ، أو عن التعمق فيها ؛ ليس لمكانه من القيام على الشريعة واللغة فحسب ، بل لحاجته إليه إذا خطب ، وإذا كتب ، وإذا قرأ أيضا ؛ ومنكر ذلك جاحد للملاحظات .

وإذا كان هذا حال الأزهر وما في حكمه ، فما ظنك بالمدارس المدنية ، والحال فيها جد مختلفة

عن حال الأزهر ؟ فالطالب يدخلها خلوا من المعلومات ، إلا قليلا من مبادئ القراءة والحساب ؛ ودروس اللغة العربية فيها محدودة ؛ ودروس الدين تعطى على سبيل البركة ١ ولغة مدرسى العلوم الأخرى لا هى عربية ، ولا هى سريانية ؛ أما مدرسو اللغات الغربية ، فالويل للطالب الذى ينطق عندهم بغير لغة الدرس ؛ قد يتنزل دارس اللغة العربية ، فيخاطب طلبته بالعامية ، ويناقشهم بالعامية ، فأما دارس اللغة الغربية فلا يتساهل ، ولا يتنزل .

زارنى فى إحدى مدارس الأوقاف الملكية ، المغفور له صالح مجدى باشا المستشار ؛ فسألنى عن حال اللغة العربية والدين فى المدرسة ، فلم أحدهما ، وعلت ذلك : بأن اللغة تزاوجها اللغات الأجنبية ، والعلوم التى لا يلتزم مدرسوها النطق الصحيح ؛ وبأن الدين يدرس إضافيا . فأجبنى - أعذق الله عليه فيوض رحمته - بقوله : لا - يا أستاذ - ليس ما ذكرت هو السبب فى ضعف اللغة والدين ، وإنما سببه ضعف الروح المعنوى فى نفوس مدرسى اللغة والدين ؛ ولو أخلص المدرس للغته ودينه ، كما يخلص المبشر الأجنبى ، لوجد السبيل الى تقويتها وغرسها فى النفوس ممهداً ميسوراً . إن الرغبة أساس الانتفاع العلمى ؛ وعلى حسن حيلة المدرس تتوقف وسائل الرغبة ؛ ولو أننى كنت مدرسا مكانك ، لالتزمت الأسلوب الصحيح ، ولقصرت التمثيل فى دروس اللغة والدين والتاريخ وما الى ذلك ، على القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولظفرت بتوجيه التلاميذ توجيهها عربيا دينيا من حيث لا يشعرون ، من غير استظهار بمنهج ، ولا استعانة بقانون . فلم أحر - والله - جوابا ؛ ولا وقفت موقفا كنت فيه أضعف من ذلك الموقف !

بيد أنه مما لا يرتاب فيه ، أن التعليم أصبح آليا بحتا ، وأن الرغبة أصبحت تابعة للإيجاب والإلزام ، أو بعبارة أصح : قامت رهبة القانون فيه ، مقام الرغبة فى التمثل النفسى ؛ ورائت ضرورات الحياة وقسوتها وتكاليفها على قلوب المدرسين ، فقامت حائلا صفيقا دون الإخلاص للمهنة ، الذى هو سبيل الافتتنان فى العرض ، والاحتتيال فى التلقين ، والتفانى فى الوصول الى تربية المملكات الكفيلة بالوصول الى الغايات المبتغاة من العلم والتعليم ؛ فشكل تيسير يشترع فى كل ما أوجبه القانون ، مؤد - بلا جدال - الى التحلل والتخفف من بعض العبء حسب ؛ وليس معناه فى نظر طالب اليوم ومدرس اليوم ، تحويل باب آلى من أبواب العلم ، الى نحو عملى ، قد يكون أعسر البابين ، وأشق العملين . فلتبق الواجبات - إذا - والرسوم ، الى أن تخلص القلوب ، وترقى الفهوم ؟

# دراسة البحت الحية منوعة

## النقود وسيلة المبادلة

الاسلام دين جامع لكل المقومات الاجتماعية ؛ ومن أهم تلك المقومات انتظام الشئون المالية ؛ وفي الفقه أبواب كثيرة تبحث في الثروة العامة وطرق توزيعها بين الأفراد ، وجبايتها لمصلحة الدولة ؛ فوإن كان كل ذلك لا يتوقف على التبسط في معرفة تاريخ التعامل بالنقد وبالأوراق المالية ؛ فإن الامام بحركة النقد ، وخاصة في هذا العهد ، مما يحتاج اليه المشتغل بالفقه الاسلامي حتى لا يكون أجنيا عن حركات التعامل الاقتصادية . وللإسلام ناحية لا يجوز إغفالها من التعاون ، وهذا لا يمكن معالجته إلا بدراسة ما يتصل به من قريب وبعيد من الشئون .

لهذا كله نرى أن البحوث الاقتصادية ليست ببعيدة الاتصال بالاسلام ، بل هي من أخص ما تجب العناية به ، ولنتكلم اليوم في النقود :

كان الناس في بدء حياتهم يعيشون على ما تنتجه أرضهم ، أو يستبدلون محصولات الآخرين بمنتجاتهم للحصول على ما ينقصهم من الحاجات .

ولما نما عددهم ، وظهرت لهم صعوبة المقايضة وتعقدها ، اضطروا الى اختيار شيء ينسبون اليه قيم السلع المختلفة ، واتفقوا على أكثر الأشياء بروزا في مجتمعهم التجاري ، فاختاروا الأرز في اليابان ، والشاي في وسط آسيا ، وكنل الملح في أفريقيا الوسطى ، والفرو في الشمال من أوروبا . وأخيرا اهتموا الى المعادن النفيسة كالذهب والفضة والنحاس ، واستعملوها كوسيلة للمبادلة لما تمتاز به من صفات كياوية وطبيعية جعلت لها التفضيل على سائر السلع .

فالفضة والذهب غير قابلين للتلف ولا الصدأ ، ويمهل حملهما مع كبر قيمتهما بالنسبة لوزنهما ، فإن متوسط ما يستطيع الانسان أن يحمله فوق ظهره هو ٦٥ رطلا ، وإن ٦٥ رطلا من الفضة تساوي ٢٢٠ جنيه ، ومن الذهب ٧٠٠٠ جنيه . ومن مزاياهما دوامهما لمدد غير محدودة ، فلا تختلف قيمتهما من وقت لآخر . وعلاوة على ذلك فإنهما لا يوجدان في الطبيعة بالكثرة التي تغير من قيمتهما .

كان الناس يستعملون ذينك المعدنين في معاملاتهم في العصور الأولى في شكل سبائك بدون دمغها ، وكان ذلك يترك لهم فرصة للسرقة والتلاعب في وزنها ، فضلا عما كان يلاقيه

التجار في كل صفقة من العنت الناتج عن وزن النسب المتفق عليها من المعدن ؛ وكلما زادت لديهم الصفقات واختلقت ، اتضح لهم صعوبة تلك الطريقة وعقمها .

ولما أصبح استخدام المعادن كوسيلة لتسهيل المبادلات عادة بين الناس ، اتفقوا على تحديد وزن عام من المعدن لكل نوع من السلع ضمنته الهيئة الحاكمة ، فاتخذت بذلك المسألة النقدية صبغة رسمية ، وقسمت السبائك الى قطع صغيرة ، وأصبحت تعد بعد أن كانت توزن ؛ ثم تولت الحكومات المتعدنة دمجها وضربها عملة ، وجعلتها مستديرة ولها شرشرة ، وطبعت على أحد وجهيها رمزا للمملكة ، وعلى الوجه الآخر قيمتها الاسمية المحددة لها . ويقال إن أول من ضرب النقود ملك ليديا في آسيا الصغرى حوالى سنة ٧٠٠ أو سنة ٦٥٠ قبل الميلاد . وتوجد عينة من نقوده في المتحف البريطانى ، وهى مصنوعة من مخلوط من الذهب والفضة يسميه اليونان اليكترون ، وهى فى شكل البيضة ، وعليها علامات .

واستمر اهتمام أولى الأمر بمسألة النقد ، واحتفظت الحكومات لنفسها بحق ضربه ، واعتبرت قيام الأشخاص بذلك العمل جريمة تعاقب عليها أشد العقاب . ويرجع تاريخ هذا الاحتكار الى رغبة الأمراء والملوك فى العصور الأولى فى الاستئثار بالربح الناتج من سك النقود ، ولحرص الحكومات المتعدنة فى العصور الحالية على السهر لضمان وحدة مقياس المبادلة .

والعملة لا تضرب من المعدن وهو نقي ، لأنه وهو فى هذه الحالة لا يتحمل كثرة الاستعمال التى يقتضيها تداول النقود ، لذلك تضاف اليه نسبة مئوية من النحاس تحددتها الحكومة لتكسبه الصلابة اللازمة .

وتقدمت المدنية ، وتطورت الصناعة والزراعة ، وتنوعت المنتجات ، واتسع نطاق المعاملات التجارية ، وتعددت الحاجات ، واختلقت قيم السلع ، ولزم الحال أن يشمل نظام النقد عددا كافيا من قيم مختلفة من العملة تنفق ومطالب الحياة اليومية ، حتى إنه أصبح من المتعذر قصر العملة على الذهب أو الفضة ، لأن ذلك يقتضى أن تصبح بعض القطع صغيرة ورقيقة جدا لدرجة تجعل من الصعب تداولها بين الناس ؛ لذلك استعملوا نقودا مساعدة من معادن أخرى ، كالنيكل والبرونز ، لتقوم بحاجة المبادلات الرخيصة .

وازدادت أهمية التجارة الدولية ، وهى تقوم على واردات وصادرات من وإلى الخارج ، ولا تقبل الدول فى الدفع ثمنها لبضائعها غير الذهب أو الفضة ، لذلك احتفظت الحكومات والبيوت المالية بكميات كبيرة من المعدنين لاستخدامها فى سداد ديونها الناشئة عن التجارة والصناعة . ولما كانت النقود المساعدة من النيكل والبرونز لا تكفى كل حاجات المبادلة الداخلية ، ولا يرغب الناس فى حمل كمية كبيرة منها لنقلها ، استعملت الحكومات فى التعامل الاقليمى نقودا ورقية منحتها صفتها النقدية بقوة القانون والاتفاق العام .

والنقود الورقية ليست جديدة فى التداول ، فان ماركوبولو الرحالة الاوروبى الذى اشتهر

في القرن الرابع عشر، جاء بكية منها من الصين، ولكن لا يعرف بالتدقيق من الذي اخترعها . والنقود الورقية لا تستعمل إلا في البلد الذي يخضع للقانون الذي أوجدها وحدد قيمتها، على عكس النقود المعدنية فإن قيمتها واحدة في كل مكان، وبذلك يقبل تداولها في كل البلاد المتمدنة . هذا، ومن جهة أخرى فإن النقود الورقية ليست لها قيمة تجارية في ذاتها، لأنها تقوم على إدارة المشرع، ولذلك فإن القانون الذي خلقها يمكنه أن يبطلها، وإذا أبطلت فلا يبقى في يد صاحبها إلا قطعة ورق لا قيمة لها، على عكس النقود المعدنية، فإن لها قيمة ذاتية تجارية، فإذا أبطل القانون اعتبار المعدن كنقد، فإن مالك العملة لا يفقد كل شيء، بل تبقى في يده قيمة النقد المعدنية .

ولما كان الغرض من النقود هو تبسيط مسائل المبادلة، فإن الناس دائماً يفضلون أسهل وسيلة لإدراك هذه الغاية، لذلك أقبلوا على النقود الورقية لأنها أخف وأيسر في الحمل من النقود المعدنية . ثم تطور نظام التعامل بالورق النقدي واخترت الشيكات، وهي عبارة عن أوامر بالدفع يأمر بها صاحب الشيك البنك، ويسمى المسحوب عليه، بأن يدفع الى وتحت إذن أى شخص، وهو المسحوب له، مبلغاً من المال هو قيمة الشيك . وكان ذلك نتيجة لانتشار نظام البنوك واحتفاظ رجال الأعمال والمنتجين وكبار التجار والملاك برصد كبيرة من أموالهم في البنوك . فإذا اشترى أحدهم من الآخر بضاعة فبدل أن ينقده ممناً لها، وهذا يقتضى ضياع وقت ومصاريف في عد النقود وفرزها ونقلها وتسليمها، فإن المدين (المشتري) يعطى الدائن (البائع) شيكاً على البنك تحت إذنه، أى يترك له حرية تحويل الشيك لمن يريد، فانه بذلك يستطيع تسديد دين عليه لآخر، وهذا يمكنه تحويله لدائن له، وهكذا ينتقل الشيك من يد إلى أخرى، وهو يمثل مبلغاً من المال مرقوماً على وجهه ومحفوظاً في البنك، فإذا انتهى الأمر الى دائن أو بائع وأراد سحب قيمته، فانه يرسله الى البنك الذي يقوم فوراً بالسداد . وانتشرت طريقة التعامل بالشيكات في البلاد التجارية، وخصوصاً إنجلترا، على عكس ما يمتنى الفرد ويسعى اليه من الإكثار من حيازة النقود لتتسع ثروته، فإن الأمة في مجموعها لا ينبغي لها أن تزيد كمية النقود عن القدر اللازم لحاجة التبادل التجارى الذي يتوقف لديها على مقدرتها الإنتاجية وثروتها الزراعية والمعدنية، لأنها لو زادت عن هذا القدر فإن قيمتها تنخفض، وترتفع في مقابل ذلك قيم السلع المعروضة للبيع بالنسبة لها، وبذلك ترتفع أسعارها . ويغلب حدوث هذه الظاهرة في زمن الحرب حيث تكون الحكومات في حاجة الى النقود لتدفع بها أثمان الأدوات والمهام الحربية، فتحتفظ بما لديها من المعادن النفيسة لشراء الذخائر والأسلحة من الدول الأجنبية التي لا تقبل ممناً لهذه الأشياء غير الذهب أو الفضة، فتلجأ الى وسيلة إصدار الأوراق المالية دون أن يقابلها رصيد من الذهب، وإنما

تكتسب صفة النقد بقوة القانون ، وتستعملها الحكومة في دفع المهايا والمربيات وسداد ديونها الداخلية ، وتفرض التعامل بها في المبادلات المحمية . وكلما استنفدت الحكومة جزءاً من المعادن النفيسة في تجارتها وديونها الخارجية وأرادت سحب ما يوجد في السوق الداخلية من نقود معدنية ، فإنها تزيد كمية هذه الأوراق النقدية ؛ وبذلك ترتفع الأسعار ، ويقال عندئذ إن النقود في حالة تضخم ؛ وهذا إذا استمر فانه يؤثر في حالة البلد الاقتصادية ، ويوصم سمعتها المالية بالاختلال ، فتسعى رؤوس الأموال الأجنبية التي تستثمر فيه إلى الفرار ، ورؤوس الأموال الوطنية إلى الانكماش ، وبذلك تضعف قدرته الإنتاجية ، ويكون مهددا بالفقر والاضمحلال ، كما كانت حالة ألمانيا بعد الحرب العظمى .

ولقد حاولت روسيا الباشفية في ذلك الوقت أن تقضى على النقد ، وذلك بالمبالغة في إصدار النقود الورقية حتى تفقد النقود المعدنية قيمتها ، وتضيع ثقة الناس بها ، ويعنادوا التعامل بالورق ، فإذا تم لهم ذلك يستبدلون التذاكر النسبية ذات الكوبونات بالنقود الورقية ، وكل فرد يأخذ تذكرة دورية بها كوبونات بمقدار ما تحدده له الدولة من اللبن واللحم والخبز والسكر والوقود والملابس والأساس والكتب والخمور والملاهي وغيرها من الحاجات اليومية ، ويمكنه استبدال هذه الكوبونات بما تساويه في المخازن العمومية ؛ وحددت الكمية من كل صنف من هذه الأشياء تبعاً لقوة الفرد العملية ومقدرته الإنتاجية وحاجته المعيشية . ولكن المخازن العمومية لم يكن بها من البضائع ما يكفي هذه الطلبات ، ولذلك كان الناس يفتكون من نص القانون ويتعاملون سرا بنظام البيع والشراء القديم ؛ فكانوا يفضلون أن يبيعوا أو يشتروا سلهم بالنقد ، ولذلك استمرت للنقود في تلك البيئة قيمة تبادلية ؛ فلما أعلنت الحرب الحالية بدءوا يستعملون تلك التذاكر على نطاق أوسع في ألمانيا وروسيا .

وكانت قد جرت الحكومات على سنة تقضى بالاحتفاظ برصيد كبير من الذهب تجعله الدعامة التي يرتكز عليها نقدها ، وكان أكثر ما تجمع من هذا الذهب لدى الدول الرأسمالية ، لذلك قامت الدول حديثة العهد بالصناعة تحرم تصدير النقود ، وتسعى من جهة أخرى لتشجيع صادراتها ، وتخفيض وارداتها ، لتجذب إليها مقدارا من هذا الذهب ، وأصبحت كل دولة وهي ترضن بذهبها ونقودها تتبادل حاصلات ومنتجات في مقابل حاصلات ومنتجات أخرى ، وبذلك عادوا إلى طريقة المقايضة ، ولكن على أساس التقدير النقدي ؛ وحدد ذلك كمية التجارة الدولية ، واجتهدت كل دولة أن تكفي نفسها بوسائلها الخاصة ، وفرضت القيود الجمركية الشديدة ، وغلبت على المبادلات التجارية الروح الحربية ، وكانت النتيجة تخرج العلاقات التجارية بين الدول ، كما نرى ذلك في السنين الأخيرة ؟

## أساليب التربية والمنطق

في دعوة ابراهيم عليه السلام

كان ابراهيم عليه السلام ، أوفر الأنبياء حظاً من عناية القرآن الكريم ، والتحدث عنه ، في غير ما موضع ؛ وقد يرجع ذلك الى أنه أبو الأنبياء ، وأنه صادفه من المحن والشدائد ، ما كان غريباً في التاريخ ، وعجبا في الحوادث ، وأن حياته كانت مزيجاً من حل وترحال ، واضطراب نفسى ، وقلق وجدانى ؛ ولم يكن ذلك الاضطراب ، وهذا القلق ، فيما يختص بسير الدعوة فحسب ، ولكنه كان مزيجاً من أساليب الدعوة ، ومن هؤلاء الذين كان يوجه إليهم وحى الله ، وكلمة السماء ، ونداء الحق .

وفي الحديث عنه غداء خصب ، لمن يتطلب أنماطاً من أساليب التربية الحديثة ، وفنونا من جدل المنطق ، وعراك الفلسفة ؛ فإذا كان أسانذة التربية اليوم يدعون أنهم يدرسون شيئاً جديداً ، أو يتقدمون الى الناس بطرق لا عهد لهم بها من قبل ، فإن القرآن الكريم يتحدثنا أن ذلك لم يكن جديداً على الإنسانية ، ولا حدثاً من أحداث القرن العشرين !

ظهر ابراهيم عليه السلام في « بابل » ، حيث الوثنية ضاربة أطنابها ، والجهل مخيم على العقول ، فلا يعرفون عن الإله إلا أنه هذا الحجر الذى ينحتونه فيعبودونه ، ولا يعرفون من العبادة إلا أنها تلك الطرق والرسوم التى يقومون بها بين يدي هذه الأصنام ، كل ذلك وإبراهيم يفكر فى نفسه ، أن ذلك ضلال قديم ، وعبت بعقول البشرية ، وأنه لابد من الثورة عليه والعمل على هدمه ، الى تدبير خطة حكيمة ، ورسم طريقة مثلى !

بدأ بأبيه ، ولكن أى سبيل يسلك الى إقناعه ، وأى وسيلة يتخذها الى هدايته ؟ لجأ الى الموعدة الحسنة التى لا تنجاف أدب النبوة :

« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . فوقع قوله أسوأ موقع من قلب أبيه ، ورد عليه ردا تتمثل فيه عزة الأبوة ، وسلطان العقيدة :

« أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجنك وأهجرنى ملياً . فلم يسع ابراهيم إزاء هذا الرفض المؤيس إلا أن يستثير كل ما لديه من عطف الابن البار ، على أبيه المتماذى فى الضلال ، فلم يزد على أن قال له : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيظاً » .



هى فى الواقع دعوة جريئة من ابراهيم عليه السلام . يحارب أباه فى رزقه ، وقد كان ينحت الأصنام ليبيعهما ، ثم هو مع ذلك يحاربه فى عقيدته ، وهل يكفيه أن دعا بهذه الدعوة فى عمر بينه ، وهو مكلف بأن يدعو إليها جميع قومه ؟ فإذا فعل ؟ خرج الى قومه ، وصادف أن كان ذلك اليوم عيداً لهم ، يتغفلون فى باطن الصحراء ، ويغيبون عن صخب المدينة وضواها ، قالوا له : تخرج معنا الى المعينديا ابراهيم ؟ « فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين » . ولم يكن به سقم ، ولكنها وسيلة لعمل خطير انتوى أن يقوم به ليدل على فساد الوثنية بدليل محسوس . فقال فى نفسه : أحطم هذه الأصنام ، فإذا ما رجعوا إليها وجدوها جذاذاً إلا كبيراً لهم ، لعلهم بذلك يسألون أنفسهم : كيف ساغ لهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يرد عن نفسه كيذا !! فلما رجعوا ووجدوا ما وجدوا ، اشتدت حيرتهم ، واستولى عليهم الغضب ، وأخذوا يتساءلون : من ترى هذا الذى يجرؤ على أن ينالنا فى عقيدتنا ، ويهجم على آلهتنا ، ويعتدى على معبوداتنا ؟ « قالوا من فعل هذا بألهتنا إنه لمن الظالمين ! قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بألهتنا يا ابراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

ما أحسن الحجة تفرع الجود ، والبرهان يصدم الضلالة ، والمنطق يتهاوت أمامه الخطل !! ذلك هو الغلب من غير جيش جرار ، أو سيف بشار : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدْمَغُه فإذا هو ذاهق ولكم الويل مما تصفون » . شعروا بالهزيمة ، وأحسوا الضعف « فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم » ، ولكنهم لا بد أن يتلذكوا فى المنطق ، ويرتبكوا فى الجدل ، فقالوا لـ ابراهيم : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ، وما دروا أنهم بذلك يناقضون أنفسهم ، ويقيمون الدليل على ضعف حجبتهم ، وخرج موقفهم ! « قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » .

هنا موقفان عجيبان : فابراهيم يتسلح بالمنطق والبرهان ، وهم يتسلحون بالتقليد الأعمى ، يسكاد كل منهم يذعن ، وقد وضح الصبح لذى عينين ، إلا أن هنالك شيئاً آخر ، هو التقليد الموروث ، وهو لا يخضع لمنطق ، ولا ينزل على حكم برهان ...

أخذوا يتهايمسون : هل هنالك من مخلص ؟ فلم يجدوا إلا أن قالوا « وجدنا آباءنا لها عابدين » . وكأن الوراثة دين آخر . ثم أدركهم ما يدرك المبطل المغرور : « قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » . جتمعوا الحطب الجزل ، وأججوه حتى صار كالجسيم ، وألقوا بابراهيم بين أحضان تلك النار ، فلما خبا أوارها ، وسكن شرارها ، وجدوه حياً ، لم ينله أذى ، وهى



آية تكفى أن تجعل أعناقهم لها خاضعين ، ولكن أدرك كبيرهم النمرود ، داء الجبابة الأولين ، فأمر بالقبض على إبراهيم ، وأخذ يحاجه في ربه أن آتاه الله الملك « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت » فأجابه النمرود : « أنا أحى وأميت » قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر .

حجة بالغة ، ولكن أين القلب الذى يستضىء بها ، ويرجع عن غيه بتأثيرها ؟ وحينئذ رأى من حصافة العقل ، ورجاحة التفكير ، أن ينزل الى مستواهم ، ويسير معهم ، على الطريقة التى ينسبونها « لسقراط » طريقة خلو الذهن ، وتجاهل العارف :

« فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هددان ، ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شئ علماء أफلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالآمن إن كنتم تعلمون . »

هذا هو إبراهيم شيخ الأنبياء ، وهذا هو الرجل الذى اعتمد على المنطق والفطرة السليمة ، والذى استعمل فى دعوته أساليب التربية الحديثة ، من الاستقراء ، والاستنباط ، والتمثيل بالبدهى المحسوس ، لتثبت دعواه ، من طريق العلم والعمل ، فيطامش قلب من يدعوه ، إن كان الله يريد أن يهديه للإيمان . وهذا هو إبراهيم الذى بلغ من عظمته أن تنازعته الأمم قديما وحديثا ، فرد الله عليهم ذلك كله : « ما كان إبراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » ؟

إبراهيم على أبو الحسب  
المدرس ، بمعهد القاهرة



من المفلس ؟ قالوا : يا رسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فُتيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الحقوق أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في نار جهنم »  
وبينما توصي الناس برعاية أحكام المجتمع ، فتشرع لهم شرعة يتوارثونها خلفا عن سلف في أحكام دنياهم ، إذا بها تدعوهم الى مراقبه الله ورعايته ، فإنهم قادمون على يوم لا ينفع فيه نسب ولا نسب ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

أوصت الشريعة الاسلامية في دار الابتلاء برعاية حدود المعاملات ، تلك الحدود التي أقامها الشارع بين الناس اتقاء الطغيان والجور ، والطمع وسوء الخلق ، واعتداء الأقوياء على الضعفاء ، فشرع فيما شرع من المعاملات : باب البيع والسلم والاجارة والقراض والوقف والهبة والوصية والعارية .

ثم أبان أن للانسان شهوات جاححة ونزعات طامحة ، خذره من التردى في خفاير الرذيلة والسقوط في مهوى العار والخزى ، فشرع اجتناب الميسر والربا والزنا والسرقة وقطع الطريق على الآمنين والخرم معاقرتها والقذف في أعراض الناس والجناية على النفس وعلى ما دون النفس .  
ثم ركز الاخلاق على أسس من الخير متينة ، وأصول من السعادة الأبدية حصينة ، فأفاض في الغاية من الدعوة الاسلامية ، وبلغ الناس على السنة الرسل والأنبياء ما أسجد العقول السليمة ، وأوزع النفوس الكريمة بما يعمر هذا المجتمع ويشع فيه من رحمة وطمأنينة وعدالة شاملة .

لقد جمعت تلك الشريعة السمحة بين أحكام المعاش والمعاد ، فخرزت الناس الى طلب المعاش برفق وهوادة ، وبصرتهم بعاقبة ما يجني الحريص من حرصه ، والطماع من طمعه ، والشحيح من شحه ، والباغى من بغيه ، ثم نصبت لهم الحدود والمعامل ، وقالت : « من يعمل سوءا يجز به » « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » ، ثم نوهت بجزاء المحسنين في دار الجزاء والمثوبة ، فقال جل ثناؤه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

فهل رأيت أبلغ قصدا ، ولا أقوم حجة ، ولا أهدي سبيلا ، من تلك النظريات العامة الخالدة التي بعثها الله على السنة رسله وأنبيائه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ؟

عباس طه

# معركة الأراء المعينة

## في الإسلام والمسلمين

تشهد جريدة المونيتور بأن الأصول الاسلامية تعتبر غاية في السمو ،  
وأن الاسلام وهب المرأة حقوقا لا تتمتع بمثلها المرأة الفرنسية

بعد أن زال التعصب الأعمى الذى كان يحمل أهل الملل على بهت بعضهم أديان بعض (١) ، واستقام العقل على سميت النقد الحر التنزيه ، عند النخبة المتعلمة من الأمم ، بدأ مفكرو الغرب يغيرون آراءهم القديمة في الاسلام ورسوله وكتابه ، واعترفوا بأنهم ضلوا في الحكم عليه تضليلا معيبا ، حتى أن أحد هؤلاء النخبة وهو الكونت هنرى دو كاسترى مؤلف كتاب (دراسات في الاسلام وتأثرات) أتى على عشرات من أقوال المؤرخين السابقين في الاسلام ورسوله وكتابه ، تدل على مبلغ ما كان يستولى على أولئك المؤلفين من روح التعصب الدميم ، والحق المتأجج في الصدور .

كان غير المسلمين كافة يعتقدون اعتقادا راسخا أن الاسلام دين بشرى صرف متزل عن العقلية العربية ، وأنه قائم على المبادئ الجاهلية ، غرضه الأول الغزو وتدويج البلاد (٢) للحصول على المغامم سداً لنهمة القاطنين به ، وأنه لم يفد الإنسانية بشئ غير نشر الذعر في بقاع عظيمة من الأرض ، حطم عمراتها ، وأباد خضراءها ، وكان شرا عليها من كل شر أصابها ، وأن واجب الأمم التي لم تبلى به أن تتألب على تخلص البشرية من ويلاته .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يكون الذين قالوا هذا القول هم الذين يبرئون الاسلام من جميع هذه التهم ، ويقررون علميا أنه أسمى مظهر للعاطفة الدينية ، وأن أصوله ومبادئه تعتبر مثلاً علياً للإنسانية في تمشيها نحو كمالها المنشود ، وأنه آخى بين العقل والدين ، ووفق بين العلم والإيمان ، مما نقلنا كثيراً منه نقلاً عن الأستاذ الكبير الكسندر دربير المدرس بجامعة نيويورك في كتابه ( المنازعة بين العلم والدين ) ، كما نقلنا مثل ذلك عن كبار الفلاسفة والمؤرخين : جيبون وكارلايل الانجليزيين ، وسديو ولامرتين وجوستاف لوبون ودروى

(١) يقال بهته بهته بهتنا بهتنا : أى قذفه بالباطل واقتدى عليه الكذب . وهو من باب قطع .

(٢) يقال دوح البلاد ودبحها : قهرها واستولى على أهلها .

الفرنسيين وغيرهم من أجناس أخرى، في تعداد أسمائهم تطويل لا موجب له . وقد شاع فضل الاسلام على الأمم التي أخذت به ، وعلى الانسانية بأسرها ، بما أحدثه من انقلابات خطيرة في الاجتماع والعلم والسياسة والديانة ، حتى صارت الجرائد والمجلات على اختلاف لغاتها تردده ، وبعضها يكتب فيه البحوث الطوال حتى ما لا يصل الى المسلمين منها ، خدمة للعلم ، وتقويما للآراء في أمر جلل كهذا ، اعتبر قرونا كثيرة على خلاف ما هو عليه في الواقع .

من هذه البحوث التي تكتب في أوروبا لأهلها لا لغرض آخر ، ما نشرته جريدة ( المونيتور ) الفرنسية . فذكرت القرآن وقالت عنه : إنه كتاب ديني على شاكله التوراة ، واعترفت بأنه كتاب لدين من أكبر الأديان البشرية ، وقررت أن صدوره من بلاد العرب التي لا يعرف أهلها غير قيادة الإبل يعتبر آية عظيمة .

ثم أخذت تعرف الأصول والمبادئ التي نشرها القرآن ؛ وكان مما قالته :

« القضاء والقدر على ما هو مقرر عنهما في القرآن ، يقصد منهما وجوب الخضوع للمقررات الخالدة للعناية الإلهية . ولكننا إن تتبعنا الأصول الاسلامية على الأسلوب الحرفي يتبين لنا أنهما لا يعنيان مذهب الجبر في هذا الدين . فالقول بتدخل الإرادة الإلهية في جميع أعمال الانسان ليس إلا وهماً أريد به تشويه وجه هذه العقيدة الاولى ( كذا ) .

« أما الأصول الأدبية الواردة في القرآن فكثيرة ، وتكشف عن سمو عقل عظيم ، ولسنا نذكر إلا قليلا منها على سبيل المثال : كحُب الغير ، وعمل البر ، واحترام الذات ، والوفاء بالوعد ، والتسامح حيال أهل الكتاب أى اليهود والنصارى .

« وقد أوجد الاسلام إصلاحا عظيما في حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية . وبما يجب التنويه به والإشادة بذكره ، أن الحقوق الشرعية التي منحها الاسلام للمرأة تفوق كثيرا الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية .

« أما تعدد الزوجات الذي أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه ، ولا يزال يأخذ في النقص لدى المسلمين ، فيجب علينا أن نلفت الأنظار الى شرط قرآني خاص بالزواج يجبه الناس على وجه عام ، وهو يسمح لمثل المرأة أن يشترط على الزوج عدم الزواج بأخرى ، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته في حل من أمرها »

( مجلة الأزهر ) الفرق بين لهجة المؤلفين والكتاب السابقين ، وبين لهجة المؤلفين والكتاب المعاصرين في الاسلام ، عظيم كما يراه القارئون . والفضل في ذلك لسقوط دولة الأضاليل التي كان يروجها متحمسة الدينين في القرون الغابرة ؛ حتى إن من هذه الكتابات الدفاعية عن الاسلام ما لا يستطيع أن يزيد عليه المسلمون أنفسهم شيئا . وكثير مما نستشهد به الآن من سمو الأصول الاسلامية وآثارها العلمية والعمرانية في العالم ، قد استفدناه من

بحوث كبار مؤرخيهم وفلاسفتهم . فقد درسوا تاريخ العلوم والصنائع والفنون ، ووقفوا على أدوار نشوئها وتطوراتها ، ووجدوا أن كثيرا منها قد اكتشفه المسلمون أو هذبوه وجعلوه صالحا لأن يستفاد منه في تحسين وسائل الحياة ، فنبهوا الى أن مصدر ذلك المسلمون إبان نهضتهم الأولى ، فتألف من ذلك مذكور من المجد ليس لامة مثله في نظر المنصفين ، بل قالوا لولا أن المسلمين تولوا حفظ علوم الأولين بعد أن ترجوها الى لغتهم ، وتولوها بالترقية والتهذيب ، وسندوها بعلوم جديدة من مكتشفاتهم ، لبادت تلك المعارف القيمة ، ووقع العالم في ظلام بهيم ، لأن مصادر تلك المعارف كانت مختزنة في دور كتب عتيقة ، وفي حالة إهمال مطلق ، ترع فيها الحشرات والهوام ، وتعبث بها الأيدي بأخذ صحفها للاستعمالات المنزلية ، كأنها أوراق مهمل لا تصلح إلا للحريق .

فجد المسلمين من هذه الناحية لا يحاكيه مجد لامة من أمم الأرض ، وقد اعترف بذلك مؤرخو الأمم غير الاسلامية كما قدمنا . وها نحن من هذه المقالة في جريدة يومية إزاء تبرئة الاسلام من تهمة كانت ملصقة بالاسلام ، ومعتبرة عنصرا من عناصر كيانه الأدبي ، كمسألتي القضاء والقدر ، والمرأة والأصول القرآنية . فقد كان الكتاب السابق يقولون إن الأصول القرآنية ساذجة لا تصلح إلا للشعوب المنحطة ، وإنها تدعو الى التعصب الدميم وسفك الدماء البريئة ، وتحرض على النهب والسلب . وكتاب اليوم يقولون كما تقول جريدة المونيتور إنها أصول غاية في السمو ؛ والفرق لا يقدر بين غاية السمو وبين السذاجة والدعوة الى الجرائم .

وكانوا يقررون أن الاسلام يقول بانحطاط المرأة ، وبأنها أسيرة في يد الرجل لتجردها عن الحقوق ، حتى بالغ بعضهم فقالوا إن الاسلام يعلم ذويه بأن المرأة لا روح لها ، وأنها لا تراث الحياة الآخرة . وقد أثبت العلم أنهم هم الذين كانوا يعاملون النساء هذه المعاملة ، فكانوا يحرمون عليهن الضحك والكلام ، ويضعون على أفواههن الأقفال . واليوم يقول كتابهم إن الحقوق المدنية التي منحها الاسلام للمرأة تفوق ما تتمتع به المرأة الفرنسية . ولا يخفئك أن المرأة الفرنسية في مقدمة نساء الأرض حرية وثقافة . وخشية أن يتوهم قارئ أننا نبالغ في القول ، ننقل له النص الفرنسي لهذه العبارة ، وهي :

Il est à remarquer que la femme musulmane a, de nos jours, une capacité juridique beaucoup plus développée que celle attribuée à la femme française .

ليست هذه مبالغة من الكاتب النبيل ولكنها الحق الصراح ، وصدوره من رجال الصحف الكبرى في أرقى الأمم مدنية ، أمر جليل يوجب التأمل والتفكير .

ننظر الى مسألة القضاء والقدر في الاسلام ، والى تبرئة محرر جريدة المونيتور له من تهمة القول بالجبر ، فقد اعتمد في دفاعه على أن القول بتدخل العناية الإلهية في كل صغيرة من

صغريات الأعمال الانسانية من الاوهام التي قصد بها تشويه حقيقة هذه العقيدة الاولى ، وكان أولى به أنه يقول : إنه مع اعتقاد المسلمين أنه لا يقع شيء في السموات والأرض إلا بإرادة الله وتقديره ، فانهم لم يقولوا بمذهب الجبر ، إلا طائفة صغيرة منهم ، وذلك لأنه مع هذه العقيدة أمرهم دينهم بالعمل وترك الاحتجاج بالقضاء والقدر . وقد عاب القرآن على المشركين الذين قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وعد ذلك جهلا منهم .

فليس بين قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وبين قوله : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، تناقض قط . فإذا لاح لك أن تعمل عملا فإلى الذي يعرفك بأن الله يشاء أو لم يشأ أن عمله ؟ إنك في حالة الهم بعمل شيء تتيقظ فيك بواعث من ضروب شتى تحرضك على أدائه ، ولا تجد في نفسك ميلا الى البحث : هل يشاء الله أن تفعله أم لم يشأ أن تفعله . وإذا رأيت أنك غير مرید لعمله ، لبثت حيث أنت ولم تحرك في سبيل محاولته ساكنا . على هذه الحال جرى الناس في حياتهم الشخصية والاجتماعية ويجبرون ، لا فرق بين الذين يقولون منهم بالجبر ومن لا يقولون به ، ولم نر إنسانا أوى الى كسر داره ، وترك كل عمل اعتمادا على أنه مجبر على ما يفعل ، وكان أثر ذلك عليه أن قصر عن مساواة غيره باسم الدين ، وإن وقع مثل هذا الأمر لأحد وسئل أى آية من الكتاب تأمرك أن تفعل بنفسك هذا الذي تفعله ؟ لم يجر جوابا . فالقرآن الكريم كله حض على العمل وطلب الرزق ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وليس فيه آية واحدة تحض على الجود والتراخي .

وإنما كان يصح أن يكون هنالك تناقض إن كان أمر الكتاب شخصا بعينه أن يعمل عملا على حين أن الله قد قضى عليه بأن لا يعمل ، ولكن الكتاب يخاطب العالم كله جملة ، وفيهم من وفقه للعمل ومن قضى عليه بالنكول عنه . فإن كان الكتاب ينص على أن لا إرادة مع إرادة الخالق ، فإنما هو يقرر حقيقة أولية ، وهى أنه لا يقع في ملكه إلا ما قدره وقضاه ، حتى سقوط ورقة جافة على الغبراء ، أو تحرك ذرة من ذرات الهباء .

ومن عجب أن كثيرا ممن كتبوا من الأوروبيين عن المسلمين في العهد الأخير ، عزوا تقصير أكثر الشعوب الاسلامية عن اللحاق بالأمم الراقية الى عقيدتهم في القضاء والقدر . فإن صح ما قالوه فبم يعملون سرعة نهوض المسلمين في صدر الاسلام ، وما بذلوه من الجهود الجبارة في إقامة دولتهم ، ومكافحة أعدائهم ، وتعمير بلادهم ، ورفع منار العلم ، ونشر مدنية فاضلة يتحدث عنها المؤرخون ، ويحمدون فيها كل يوم جديدا يعجبون به ويستنزلون عجب الناس منه ؟ بم يعملون هذه الحركات السريعة ، والأعمال المتواصلة ، والمجازفات التي تسكاد لا تعقل ، حتى قيل إن كريستوف كولومب مكتشف أمريكا وجد للمسلمين آثارا في الدنيا الجديدة ؟

## جمعية منع المسكرات

تحت رعاية حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

تقرير من المؤتمر الدولي الثاني والعشرين المنعقد في فنلندا سنة ١٩٣٩

عقد مؤتمر دولي في عاصمة هولاندة لمنع المسكرات شهده ٦٨٩ عضوا يمثلون ثلاثا وعشرين دولة ، وكان مندوب مصر في هذا المؤتمر الأستاذ الجليل أحمد غلوش الذي قام بمهمته خير قيام استوجب إعجاب المؤتمرين وتقديرهم .

في اليوم الثالث للمؤتمر دعى مندوب مصر ليتكلم في مساهمة الدولة المصرية رسميا في مكافحات المسكرات ، فنهض الأستاذ غلوش ، وأبان عن اهتمام الحكومة المصرية بهذا الامر وإزماعها وضع تشريع يضع حدا لاضرارها ، وكان من ذلك حصر سلطة الترخيص بفتح حانات في الأحياء الوطنية في يد وزارة الداخلية ، فترتب على ذلك أن نقص عدد المحال التي تبيع الخمر من ٧٣٦ سنة ١٩٠٤ الى ٤٨٩ سنة ١٩١٧ ، وذلك رغما عن زيادة عدد السكان .

وشفع هذا بذكر اهتمام وزارة الصحة بهذا الامر أيضا صيانة للصحة العمومية . وهي على وشك استصدار قانون بمنع بيعها بعد الساعة العاشرة ، وتحريم تقديمها لمن تقل أسنانهم عن التاسعة عشرة ، وهي تقوم بمنع بيع الخمر المغشوشة ، وبمحاكمة بائعها ، وبعدم النشر عنها في الصحف وعلى جدران الدور . ثم ذكر أن وزارة الدفاع ووزارة المالية ورجال الدين والجامع الأزهر تحت زعامة الأستاذ الامام يعاونون من جانبهم على محق هذه الآفة . وختم خطبته بذكر المثل الأعلى الذي يضربه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، بمنع القصر الملكي من تقديم الخمر في الحفلات .

ثم دعت لجنة نشر الدعوة الدينية في العالم حضرة الأستاذ غلوش ليلقي كلمة في الخمر من الوجهة الاسلامية ، فلبى الدعوة ، وأفاض في ذلك بما كشف من حكمة الاسلام ، وجلى عن قوة أصوله وسلامة مبادئه .

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر ، تكلم مندوب مصر الأستاذ غلوش ، فشكر الشعب الفنلندي والحكومة الفنلندية باسم الشعب المصري والحكومة المصرية ، على ما لقيه من حسن الضيافة والترحيب .



ومما حصل عليه الأستاذ غلوش مما يوجب الفخر لمصر أنه كان واحدا من خمسة رجال رشحوا لينوبوا عن رئيس المؤتمر في جلساته المتوالية .

ثم ختم المؤتمر أعماله بإصدار قرار بأن يكون مكان انعقاد المؤتمر التالى سنة ١٩٤١ فى فرنسا .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا أيضا بالمذكرة التى قدمها حضرة الأستاذ أحمد غلوش الى حضرات شيوخ الامة ونوابها فى شأن المشروع المقدم من الحكومة بتعديل لائحة المحال العمومية ومكافحة الخمر ، فقد ألقى بها نورا على كثير من مواطن البحث تخدم هذا الموضوع خدمة جليلة . فنشكر لحضرة الأستاذ أحمد غلوش ، كل الله جهوده بالنجاح ، وأثابه على هذه الخدمة بما يثيب عباده المجاهدين .

### أوائل الشهور العربية :

هل يجوز شرعا إثباتها بالحساب الفلكى ؟ .

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد محمد شاكر رسالة بهذا الاسم طالج فيها مسألتين : هل يجوز الأخذ بأقوال الفلكيين فى إثبات أوائل الشهور العربية ؟ وهل يجوز توحيد أوائل هذه الشهور لجميع بلاد المسلمين . فسلك فى الاجابة على هذين السؤالين مسلك الباحث الضليع فى الحديث والفقه ، وكان من جوابه على المسألة الاولى : يجب الأخذ بأقوال الفلكيين وعدم الاعتماد بشهادة الرؤية ، لما فى الاولى من القطع ، ولما يتطرق على الثانية من الخطأ والكذب .

وأجاب عن الثانية : بأن يجوز توحيد أوائل الشهور العربية لجميع الامم الاسلامية ، واتخاذ مواقيت مكة مواقيت لبلاد المسلمين كافة بصرف النظر عن اختلاف المطالع .

وإننا نوافق على رأى الأستاذ فى وجوب الاعتماد بالتقارير الفلكية ، لا سيما وقد ذهب اليه أئمة من المتقدمين . وأما رأيه الثانى فنكتفى بعرضه على حضرات رجال الدين راجين أن يوافونا برأيهم فيه . ومن واجبنا فى هذا المقام أن نشيد بالمعية الأستاذ أحمد شاكر ، وأن ننوه بنزعه التجديدية ، أكثر الله من أمثاله الغيورين على الدين .

### أقدم جامعة إسلامية فى العالم :

وضع سعادة محمد خالد حسنين بك رئيس مفتشى العلوم والآداب بالجامعة الازهرية رسالة بهذا العنوان ، صغيرة الحجم ولكنها كبيرة الفائدة ، جمعت فى صفحاتها الاثنتى والثلاثين كل

ما يجب أن يعرف عن تاريخ الأزهر ، ونظام التدريس فيه قديما وحديثا ، والقوانين التي صدرت لتنظيمه ، ومراحل التعليم فيه ، والعلوم التي تدرس به ، والشهادات التي يمنحها المتخرجون فيه ، وإدارته ومجلسه الأعلى ، والمعاهد التابعة له ، وعدد طلبته المصريين والأجانب ، والممالك التي ينتسبون إليها ، وسكنائهم ، وموارد الأزهر المالية ، ودور كتبه ، ومدينة الأزهر الحديثة ، وما يدرس فيه من علوم كونية ، ولغات أجنبية ، ومذهبه في المحافظة على الدين ، ورسائله في العالم ، وما أغدق عليه المغفور له الملك فؤاد وصاحب الجلالة الملك فاروق - أعز الله ملكه ، وأيد عرشه - من ضروب الرعايات . فجاءت رسالته تغني عن مؤلف ضخم . وإنها لمقدرة في التأليف تسجل لسعادة خالد بك حسنين ، ويغبط عليها . وفقه الله لجلائل الأعمال وأمدده بروح منه .

### المنظومة الشكرية :

لسعادة السيد شكري باشا قصيدة مطولة أودعها كل ما عن له أن يتصدى للكلام فيه من دين وتاريخ وأدب وحوادث ، على نظام لم يسبق إليه ، وعلق عليها بما يشرح مجملاتها ، فالمطالع عليها يشرف على ما وقع بمصر من الحوادث من عهد محمد علي وإلى مصر إلى اليوم ، سواء كانت سياسية أم علمية وأدبية ، مما يصعب أن يجده القارئ في مؤلف واحد . وقد أتخفنا بالجلد الرابع منها وهو يقع في ٧٨٠ صفحة ضمنها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وشرح ما أجمله في أبياته شعراً ، فجاءت سيرة حافلة بالتواريخ ، وبحياة من ورد بها من الصحابة . فنشكر لسعادة الباشا عنايته العظيمة بالأدب والتاريخ ، ونرجو أن يطيل في أيامه ، وأن يوفق لما يرجوه من الصالحات .

### اللمعة البهية في الأدلة الاجمالية :

لحضره صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ ابراهيم الراوى الرفاعي ، قدم صدق في العلوم الدينية ، وتاريخ الفرق ، والمسائل الخلافية ، وهو اليوم من أقطاب العلم في بغداد يرجع إليه شيوخها فيما يشكل عليهم من مسائله ، ويعمض من دقائقه . وقد وضع في العهد الأخير رسالة دعاها ( اللمعة البهية ) ضمنها الكلام على مذهب الشيعة والوهابية ومصنفاتهم وأدلتهم . وضعها لنشر معلومات أولية عن هذين المذهبين تصلح للتفاهم بينهما . وقد سلك في إيراد ما أراده طريقة تقرير الحقائق ، بعيدا عن التعصب المذموم ، وتحري أن يتلاقى هذان المذهبان في غايتيهما التي ينشدانها من طريقتين مختلفتين ، وهي القيام على السنة الصحيحة ، والطريقة القويمة . وقد أبدع الأستاذ في بيان المذهبين إبداعا دل على سعة اطلاعه ، ووقوفه على كل ما كتب عنهما في أدوار تاريخيهما ، وتجلي مراده في التوفيق بينهما تجلياً يستحق عليه كل ثناء ، فنرجو أن يكمل الحق مسعاه بالنجاح ، وأن يثيبه على عمله ثواب العاملين .



# BOOK I

## HISTORY OF THE ARABS

### (I)

### A SUMMARY

---

Arabia is the great western peninsula of Asia. Its area is about 1,230,000 square miles, i.e. about one third of Europe. The name is said to be derived from "Araba", a small district in the south east of the province of Tehama, to which Yarab, the son of Kahtan (The Biblical 'Joktan'), the father of the Arabs ancient gave his name, and where some ages after dwelt Ishmail, the son of Abraham and Hagar.

The chief province in connection with the history of Islam is known as the Hidjaz, which occupies the western strip of Arabia to the east of the Red Sea and contains the famous cities of Mecca and Medina. The former of these claims the distinction of being the birth place of the Prophet and possesses the celebrated sanctuary of the Kaaba, and the second was the home of the Prophet for the last ten years of his life, and in it he was laid to rest.

The shrine of Kaaba is stated to have been originally built by Abraham and Ishmail for the worship of the true God, but in after times it became the common pantheon of pagan Arabia. The peninsula of Arabia has always been inhabited by two classes — town dwellers and those who live in tents. The former live by tillage, the cultivation of palm-trees, cattle breeding, and the exercise of trades, and even in the time of Jacob, were famous as merchants. The members of the tribe of Koreish, the wealthiest and most distinguished of the Arabian tribes, were especially engaged in commerce, and Mohammed in his youth was brought up as a trader, as it was the Arabian custom for sons to carry on the business of their fathers. The Arabs who dwelt in tents were occupied with the pasturing of their flocks, varied by the raiding of caravans and pillaging of travellers. They lived chiefly on milk, dates and camel flesh; they changed their habitation as the convenience of water and of pasture required, staying no longer in one place when these failed.

spite of occasional uncalled-for sarcasms and characteristic innuendoes" (1) It seems that Gibbon's so called unfair treatment of Christianity prevented the Christian world from doing justice to his generally fair treatment of Islam; and consequently most Englishmen" who do not condemn the Arabian Prophet unheard, derive what favourable notions of him they have, not from Gibbon, but from Carlyle" (2).

It was really a great surprise and an epoch in English intellectual and religious life, as Bosworth Smith has rightly observed, when it was found that Carlyle chose for his "Hero as Prophet" "not Moses or Elijah or Isaiah, but the so called impostor Mohammed" (3).

Now it is time to conclude this my introduction. The reader will see and judge for himself the extent to which European writers of various reputations and in various ages have, in their different treatments of the Prophet Mohammad and of Islam, been either misleading or themselves misled.

In conclusion I wish to express my heart-felt-obligation to my numerous friends both in Egypt and abroad for their kind assistance and encouragement which enabled me to bring this work to completion. I wish it were possible for me to name them all, but certain considerations prevent my doing so.

My gratitude is due to His Eminence Shiekh Mohamed Mustapha El Maraghi Grand Rector of Alazhar University through whose personal suggestion the book has been accredited by that great Muslim Institution for publication as a supplement to Al Azhar Official Monthly Review.

Special mention must, however, be made of H. E. Mohamed Khaled Hassanein Bey of Al Azhar University who was so kind to revise the manuscript and check the proofs.

In my human endeavours I humbly implore the Almighty God, the God of all mankind, to grant that my labour may serve as a basis, if not for an ultimate agreement between Christendom and Islam, at all events for mutual understanding and forbearance, for sympathy and respect.

**Ahmad Galwash.**

---

(1). Bosworth Smith.

(2). Bosworth Smith.

(3). Ibid.

discord; his companions being Fra Dolimo, a communist of the fourteenth century, and Bertrand de Born, a fighting Troubadour.

The Romances of Baphomet, so common in the fourteenth and fifteenth centuries, attribute any and every crime to him, just as the Athanasians did to Arius. He is a debauchee, a camel stealer, a cardinal, who having failed to obtain the object of every cardinal's ambition, invents a new religion to revenge himself on his brethren (1).

With the leaders of the Reformation, Mohammed "the greatest of all Reformers (2)" meets with little sympathy, and their hatred of him, as perhaps was natural, seems to be proportionate with their knowledge. Luther doubts whether he is not worse than Leo; Melancthon believes him to be either Gog or Maggog, and probably both (3).

In the imagination of the Biblical commentators the Arabian Prophet divides with the Pope the credit, or discredit, of being the subject of special prophecy in the books of Daniel and the Revelation. "He is Antichrist, the Man of Sin, the Little Horn" and I know not what besides; nor do I think that a single writer, till towards the middle of the eighteenth century, treats of him as otherwise than a rank impostor and false prophet (4).

England and France were the first to take a different view and to have begun that critical study of Arabian history or literature which in the hands of Gibbon and of Muir, of Caussin de Perceval and of St. Hilaire, of Weil and of Springer has provided some material for a comparatively fair and unbiassed judgment within the reach of everyone. But most other writers of the 18th century such as Dean Prideaux and the Abbé Maracci, Boulainvilliers and Voltaire have approached the subject only to prove a thesis. With them the Prophet was to be either a hero or an impostor. "From them is learnt much that has been said about Mohammed, but comparatively little of Mohammed himself (5)".

Gagnier has then proceeded to write a history of the Prophet claimed to have been based on the work of Abul Feda. Gagnier's history was still not free from wrong inferences and erroneous allusions (6).

Then followed the translations of the "Koran" by Sale and Savary into English and French respectively. Gibbon has then written his "three masterpieces of biography": Athanasius, Julian, and Mohammed. Gibbon's treatment of Islam is considered to be generally fair and philosophic, "in

---

(1). Renan "Etudes d'Histoire Religieuse" p. 223, note.

(2). Bosworth Smith.

(3). See "Quarterly Review" Art. Islam, by Detsch, No. 254, p. 296.

(4). Bosworth Smith.

(5). Bosworth Smith.

(6). Ibid.

portant educator on all systems of purely human origin, and its creed adores, worships and acknowledges the Creator of the Universe, in the most sublime, lofliest and divine expression, never to be found in the liturgy of other religions. The Islamic conception of God is that He is 'Allah' and there is no deity beside Him; He alone is to be worshipped. He begets not and He is not begotten. He was before time began its race. He is 'Allah' Who hath raised different prophets of men throughout the ages. His greatness is immeasurable. Allah is He That abideth from eternity to eternity. This is but a fractional part of the Muslim Creed — a creed which strictly, forbids the worship of images and the artistic representation of anything that resembles the human form. Yet in Christian literature, periodicals and other publications Muslims have been alluded to, and spoken of, as pagans, idolaters, polygamists, sun-worshippers and what not. Our sacred edifice has been characterised as the Mosque of swords, our heaven as a heaven of sensual bliss, and that after death we sink into space, soul-less, and have no account to give. In the romance of "Turpin" quoted by Renan, Mohammed, the fanatical destroyer of all idolatry, is turned himself into an idol of gold, and under the name of Mawmet, is reported to be the object of worship at Cadiz. In the song of Roland, the National Epic of France, Mohammed appears with the chief of the Pagan Gods on the one side of him and the chief of the Devils on the other. Human sacrifices are supposed to have been offered to him, in the imagination and assertions of Christian writers of the tenth and eleventh centuries, under the various names of Bafum, or Maphomet, or Mawmet. Malaterra, in his history of Sicily describes that island as being, when under Saracenic rule, a land wholly given up to idolatry (1). It is not a little curious that both the English and French languages still bear witness to the popular misapprehension; the French by the word "Mahomerie", the English by the word "Mummery", still used for absurd or superstitious rites (2). "Mammetry", a contraction of Mahometry was used in early English for any false religion, especially for worship of idols, insomuch that "Mammet" or "Mawmet" came to mean an idol. In Shakespeare the name is extended to mean a doll: Juliet, for instance, is called by her father "A whinning mammet" (3). In the twelfth century "the god Mawmet" passes into the heresiarch Mahomet, and as such, of course he occupies a conspicuous place in the 'Inferno'.

Dante places him in his ninth circle among the sowers of religious

---

(1). "Which people were the greater idolaters, any candid reader of the Italian annalists of this time, collected by Muratori, can say" Bosworth Smith — "Mohammed and Mohammedanism".

(2). See Trench on "Words" p. 112.

(3). "Mawmet (contr. fr. Mahomet) a puppet; a doll; originally an idol, because in the Middle Ages it was generally believed that the Mohammedans worshipped images representing Mohammed". Webster's Dictionary.

importance in the progress of a tribe. The Mosque gives an idea at all events higher than any the negro has yet had. A thirst for literature is created, and that for works of science and philosophy, as well as for commentaries on the Koran. There are whole tribes, as the Jalofs on the river Gambia and the Haussas, whose manly qualities we have had occasions to test in Ashantee, which have become to a man Muslims, and have raised themselves infinitely in the process; and the very name salt-water-Muslims given to those tribes along the coast, who, from admixture with European settlers, have relaxed the severity of the Prophet's laws, is a striking proof of the extent, to which the stricter form of the faith prevails in the far interior.

"It is melancholy to contrast with these wide spread beneficial influences of Islam, the little that has been done for Africa till very lately by the Christian nations that have settled in it, and the still narrower limits, within which it has been confined. Till a few years ago the good effects produced beyond the immediate territories occupied by them were absolutely nothing....

"The message that European traders have carried for centuries to Africa has been one of rapacity, of cruelty and of bad faith. It is a remark of Dr. Livingstone's<sup>(1)</sup> that the only art that the nations of Africa have acquired from their 500 years' acquaintance with the Portuguese, has been the art of distilling spirits from a gun-barrel; and that the only permanent belief they owe to them, is the belief that man may sell his brother man; for this, he says emphatically, is not a native benefit to Africa; but if we except the small number of converts made within the limits of their settlements, it has been the only benefit conferred by Europeans.

"Truly if the question must be put, whether it is Muslim or Christian nations that have as yet done most for Africa, the answer must be that it is not the Christian....."<sup>(2)</sup>

I think I can occupy no more space in this introduction by making further quotations to discuss the relation of Islam to modern civilisation and the position which it holds among the recognised religions of the world. It is a matter of pure history that Islam has been beneficial to humanity in general and that it had, and still has, an everlasting influence on the development of human character.

The Muslim School embraces all branches of human knowledge and research: — theology, medicine, history, astronomy, grammar, economics, physics, racial philosophy and racial psychology and ethics. It is an im-

---

(1). Livingstone's "Expedition to the Zambesi" page 240.

(2). R. Bosworth Smith "Mohamed and Mohamedanism".



and intelligence, as well as of very Catholic spirit, deplores the fact that of the total number of Muslims to be found in Sierra Leone and its neighbourhood three fourths were not born Muslims, but have become so by conversion, whether from a nominal Christianity or from Paganism (1).

"We are assured on all hands that the Muslim population has an almost passionate desire for education, and those in the neighbourhood of our colonies would throng our schools, first if the practical education given was worth having, and secondly, if the teachers would refrain from needlessly attacking their cherished and often harmless customs. Wherever Muslims are numerous, they establish schools themselves, and there are not a few who travel extraordinary distances to secure the best possible education. Mr. Pope Hennessy mentions the case of one young Muslim Negro who is in the habit of purchasing costly books from Trubner in London and who went to Foulah, two hundred and fifty miles away, to obtain an education better than he could find in Sierra Leone itself. Nor is it an uncommon thing for newly converted Muslims to make their way right across the desert from Bornu or from Lake Chad, or down the Nile from Darfour or Wadi, a journey of over one thousand miles that they may carry on their studies in El-Azhar, the great collegiate Mosque at Cairo, and they may thence bring back the results of their training to their native country, and form so many centres of Muslim teaching and example.

"Nor as to the effects of Islam when first embraced by a negro tribe can there be any reasonable doubt. Polytheism disappears almost instantaneously, sorcery with its attendant evils, gradually dies away; human sacrifice becomes a thing of the past. The general moral elevation is most marked; the natives begin for the first time in their history to dress and that neatly. Squalid filth is replaced by a scrupulous cleanliness; inhospitality becomes a comparatively rare exception. Though polygamy is allowed by the Koran, it is not common in practice; and, beyond the limits laid down by the Prophet, incontinence is rare; chastity is looked upon as one of the highest and becomes in fact one of the commoner virtues. It is idleness henceforward that degrades, instead of the reverse. Offences are henceforward measured by a written code instead of the arbitrary caprice of a chieftain — a step as everyone will admit, of vast

---

(1). Papers relating to Her Majesty's Colonial Possessions. Part II. 1873, 2nd Division, p. 15. As Mr. Pope Hennessy's Report has been much criticised, chiefly on the ground that he is a Roman Catholic, and as I have based some statements upon it, it may be worth mentioning that I have had a conversation with Mr. Johnson, who is a strong protestant himself, and that he bore testimony to the bonafides of the Report, and to its accuracy even on some points which have been most questioned. He told me that Islam was introduced into Sierra Leone not many years ago, by three zealous missionaries who came from a great distance. It seems now to be rapidly gaining the ascendancy, in spite of all the European influence at work.

(Footnote to Bosworth Smith's Lectures pp. 33-34).



" In Africa again Islam is spreading itself by giant strides almost year by year. Everyone knows that within half a century of the Prophet's death, the richest states of Africa, and those most accessible to Christianity and to European Civilisation, were torn away from both, by the armies of the faithful, with hardly a struggle or a regret; but few, except those who have studied the subject, are aware that even since then Islam has been gradually spreading over the northern half of the continent.

" Starting from the north west corner, it first marched southwards from Morocco, and by the time of the Norman Conquest had reached the neighbourhood of Timbuctoo, and had got firm hold of the Mandingoes, thence it spread southwards again to the Foulahs, and then eastward by the thirteenth century to Lake Chad, where finally the Arab missionaries from the West joined hands with those from the East in the very heart of Africa....

" We hear of whole tribes laying aside their devil-worship or immemorial Fetish and springing at a bound, as it were, from the very lowest to one of the highest forms of religious belief. Christian travellers with every wish to think otherwise, have remarked that the negro who accepts Islam, acquires at once a sense of the dignity of human nature not commonly found even among those who have been brought to accept Christianity.

" It is also pertinent to observe here, that such progress as any large part of the negro race has hitherto made, is in exact proportion to the time that has elapsed, or the degree of fervour, with which they originally embraced, or have since clung to Islam. The Mandingoes and the Foulahs are salient instances of this; their unquestionable superiority to other negro tribes is as unquestionably owing to the early hold that Islam got upon them, and to the civilisation and culture that it has always encouraged. The Government Blue Books on our West African settlements, and the reports of missionary societies themselves, are quite at one on this head. The Governor of our West African Colonies, Mr. Pope Hennesay, remarks that the liberated Africans are always handed over to Christian missionaries for instruction, and that their children are baptised and brought up at the public expense in Christian schools, and are, therefore, in a sense, ready made converts, yet the total number of professing Christians, 35,000 out of a population of 513,000, very few even of these, as the Governor says, and as we can unfortunately well believe from our experience in countries that are not African, being practical Christians — falls far short of the original number of liberated Africans and their descendents <sup>(1)</sup>. On the other hand the Rev. James Johnson, a native clergyman, and a man of remarkable energy

---

<sup>(1)</sup>. Papers relating to Her Majesty's Colonial Possessions. Part II. 1873 2nd Division, p. 14.

"... Africa, which had yielded so early to Christianity, nay, which had given birth to Latin Christianity itself, the Africa of Cyprian and Tertullian, of Antony & Augustine, yielded still more readily to Mohammed; and from the Straits of Gibraltar to the Isthmus of Suez may still be heard the Cry which with them is no vain repetition of "Allah Akbar", God is Great, there is no God but God and Mohammed is His Prophet.

"And if it be said, as it often is, that Islam has gained nothing since the first flame of religious enthusiasm fanned, as it then often was, by the lust of conquest, has died out, I answer that this is far from the truth.

"In the extreme East, Islam has since then won and maintained for centuries a moral supremacy in the important Chinese province of Yun-Nan, and has thus actually succeeded in thrusting a wedge between the two great Buddhist empires of Burmah and of China....

"Throughout the Chinese Empire there are scattered Mussulman communities who have higher hopes than Buddhism or Confucianism, and a purer morality than Taoism can supply. The Panthays themselves, it is believed, still number a million and a half, and the unity of God and the mission of God's Prophet are attested day by day by a continuous line of worshippers from the Atlantic to the Pacific Ocean.

"Nay, even beyond, in the East Indian Archipelago, beyond the straits of Malacca if I may venture just now so to call them, in Java and Sumatra, in Borneo and Celebes, ISLAM has raised many of the natives above their former selves and has long been the dominant faith....

"It cannot of course, be supposed that among races so low in the scale of humanity as are most of the Indian islanders, Islam would be able to do what it did originally for the Arabs or for the Turkish hordes; but it has done something even for them. It was propagated by missionaries who *cared very much for the souls they could win, and nothing for the plunder they could carry off*. They conciliated the natives, learned their language, intermarried with them and in larger islands their success was rapid, and, so far as nature would allow, complete (1).

"The Philippines and the Molaccas, which were conquered by Spain and Portugal respectively, did not become Muslim, for they had to surrender at once their liberty and their religion. It is no wonder that the religion, known to the natives chiefly through the unblushing rapacity of the Dutch, has not extended itself beyond the reach of their swords. Here, as elsewhere in the East, the most fatal hindrance to the spread of Christianity has been the lives of Christians (2)....

---

(1). Crawford's "Indian Archipelago" II, 275 and 315.

(2). For the cruelties of the Portuguese, see Crawford, II, 403 and for the Dutch see especially II, 425 and 441. For some startling facts as to the comparative morality of some native and Christian communities in India, see a paper by Rev. J. N. Thoburn in the Report for the Allahabad Missionary Conference, held in 1872-73 p. 467-470.

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية  
تصدرها مشيخة الأزهر

بإشراف شيخ الأزهر  
أحمد محمد عيسى

في كل شهر عربي

الجزء السادس	جمادى الثانية سنة ١٣٥٩	المجلد الحادى عشر
--------------	------------------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفيع الدين

الاشتراكات عمدة	الإدارة
داخل القطر ... ٢٠٠ مليم	ميدان الأزهر
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠	تليفون : ٨٤٣٣٢
خارج القطر ... ٣٠٠	الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ مليا داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر - ١٩٤٠ )

# فهرس

## الجزء السادس — المجلد الحادى عشر

صفحة

٣٢١	...	...	...	خطبة فضيلة الأستاذ الامام...
٣٢١	...	...	...	السيرة المحمدية — وقعة بدر ... بقلم حضرة الأستاذ مدير المجلة
٣٢٧	...	...	...	تفسير سورة والشمس وضحاها » فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى
٣٣١	...	...	...	التحذير من الفتن ... » عبد الرحمن الجزيرى
٣٣٥	...	...	...	شبه قد ترد على القارئ » » » حامد محسن
٣٣٨	...	...	...	تاريخ الفقه الإسلامى فى مصر » » » محمد محمد المدنى
٣٤٢	...	...	...	فائدة الأربعاء ... » لجنة الفتوى
٣٤٣	...	...	...	خدمة المسلم غير المسلم » » »
٣٤٣	...	...	...	طعام أهل الكتاب » » »
٣٤٤	...	...	...	الحيل لا يقرها الشرع » » »
٣٤٦	...	...	...	الكلام والمتكلمون — المعتزلة » حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
٣٥١	...	...	...	الشعبوية وأثرها فى الأدب العربى » » » احمد ابراهيم
٣٦٠	...	...	...	نظرات فى الأدب العربى » فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
٣٦٤	...	...	...	عبد الله بن الزبير ... » » » صادق عرجون
٣٦٨	...	...	...	التجديد والمجددون فى الاسلام » » » السيد عفيفى
٣٧٢	...	...	...	أبو نصر الفارابى » حضرة الأستاذ عبد الحميد سامى بيومى
٣٧٦	...	...	...	الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للانسان » حضرة الأستاذ مدير المجلة
٣٨٠	...	...	...	الاسلام والمرأة » » » السيد متولى
٣٨٣	...	...	...	الحاماة قديما وحديثا » فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه

# حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يخطب عقب صلاة الجمعة في حضرة صاحب الجلالة الملك

مقترحا أن تعتبر القاهرة مدينة مقدسة

أدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم صلاة الجمعة الأخيرة من جمادى الأولى بمسجد الرفاعي ، وكان المسجد مكتظا برجال الدولة من العلماء والوزراء والكبراء . فلما تمت الصلاة نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر وألقى خطابة جليلة الشأن كان لها أعمق تأثير في نفوس السامعين ، وسيرن صداها في المعمور فيعجب بها جميع المسلمين ، بين فيها مكان القاهرة من قلوب الشعوب الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، باعتبار أنها عاصمة الاسلام وفيها ودائمه الأثرية ، ومعاهده الثقافية ، وأحداث آل رسوله ، وأشهر مساجده ، وأقدم جامعاته ، فهي بهذه الخصائص كلها جديرة بأن تعتبر مدينة مقدسة يجب أن يضمن بها على قنابل الطائرات ، وهي لا تكون بمنجاة منها إلا إذا جردت من الأهداف الحربية ، وليس هذا بعزيز على حكومة جلالة الملك إن سمعت لذلك سعيه ، فإذا تم قابله المسلمون كافة بالاجلال والاكبار ، ولا يخفى أثر ذلك في جمع كلمتهم ، وتوحيد وجهتهم قال فضيلته حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم : أيها المؤمنون لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وقد وعد بالرحمة عباده المتقين ؛ وهذا يوم مبارك يرجى فيه قبول الدعاء ، ونحن في بيت الله ، فتوجهوا اليه سبحانه منيبين مخلصين ، طالبين اليه العون والراية ، وأن يقي بلادنا وبلاد المسلمين شرور الحرب ومصائبها ، ويرفع عن العالم جميعه مقتنه وغضبه ، ويتجلى عليه بطقه ، وينزل عليه رحمته ليسود السلام ، وتحقق الدماء ، ويأمن الاطفال والوالدات .

ولو كنت أظن أن صوت مسلم شرق يسمع في العالم الغربى المسيحى من بين قصف المدافع ، وأزيز الطائرات ، وهدير المتفجرات ، لناديت بالسلم ، ودعوت الأمم الى حكم العقل ، وحركت فيهم عاطفة الانسانية .

لكننى أشعر بأنه أمل ضائع ، فليس أمامى سوى التوجه الى الله جل شأنه ، وهو الواحد القهار اللطيف الخبير ، أن يكشف البلاء ، ويرفع الكرب إنه سميع الدعاء .

ليس أرجى لقبول الدعاء من توبة نصوح ، وعمل صالح ، وبر يسدى الى المحتاج ، وليس أرجى للنجاة من وحدة الأمة وتضافرها وإخلاصها ، ومن أن يكون لها في وقت الشدائد غرض

واحد ووجهة واحدة هي الوطن وسلامته ومجده ، والعرش وجلاله وعزه ، فعلينا أن نحرص على هذا جد الحرص ، وأن ندع الضغائن والأحقاد لا نبغثها من رسمها . وإذا أراد الناس فيما بعد أن يبعثوها ذميمة ، فلذلك يوم آخر يليق به ، جدير أن يصفى فيه الحساب ويوجه اللوم والعتاب .

لا أدري ماذا يحبته القدر ، ولا أريد أن أتحدث في السياسة ، لكنني وأنا مصري مسلم من حق أن أعبر عن شعور المسلمين ، أشعر بحرارة بالغة ، وألم ممض ، كلما خطر ببالي أن مدينة القاهرة قد تكون مسرحا للطائرات ، وهدفا لقنابل الغارات . يعز عليّ هذا كما يعز على الأمم الإسلامية جميعها ، شرقية وغربية ، عربية وأعجمية . فمدينة القاهرة كعبة العلوم الدينية ، والثقافة الإسلامية ، يحج إليها طلابها من جميع بقاع الأرض ، وفيها الأزهر الشريف ، أكبر جامعة إسلامية وأقدم معهد مقدس ، وفيها آثار رائعة من آثار الفن الإسلامي في العمارة من جميع عصور التاريخ الإسلامي ، وفيها مشاهد تضم أجساد آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأحداث أئمة المسلمين وعلمائهم وصالحهم .

وفيها دور المكتب الإسلامية التي تحوى أنفس الذخائر ، وأعز التراث ، وأحسن ما أثمرته عقول علماء المسلمين فيها . هذا كله منبث في نواح متعددة ، وأما كن متباعدة غير متلاصقة ، وهذا كله له جلاله وقديسيته ، ومن الحق أن يحترم ، وأن يحترم شعور المسلمين من أجله ، فما من أحد منهم ألا يؤذى شعوره ، ويشلم كرامته الاعتداء على تلك الآثار ، لذلك أوجه ندائى الى العالم جميعه باسم علماء الاسلام ، وباسم المسلمين ، مطالباً بالمحافظة على مدينة القاهرة ، واعتبارها مقدسة لا يغير عليها أحد ، ولا يكون أحد سبباً في الإغارة عليها . وألتمس من مولاي حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم ، وجلالته معقد الرجاء ، وموضع الأمل من جميع المصريين ، وجميع المسلمين ، أن يتفضل فيصدر أمره الى حكومة جلالته بالسعى لتحقيق هذا المطلب بالوسائل المشروعة ، والله لا رب سواه المستعان وحده ، وهو حسبنا ونعم الوكيل — وأنتهز هذه الفرصة وأطلب منكم الترحم على الملك العظيم المرحوم فؤاد الأول وقراءة الفاتحة .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## السيرة المحمدية

### تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة بدر — النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحي

ظل النبي صلى الله عليه وسلم مرتقبا عود تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها ، فندب صحابته للخروج معه اليها ، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وهو عدد يكفي لما هو بسبيله ، فاكثفى بهم ، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يعتقبونها ، منها فرسان وسبعون بعيرا . فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على أموالهم ، وكان قائدا لحامية القافلة ، أرسل الى قريش رسولا يعلمهم بالخطر ، واتبع هو طريقا غير طريق القوافل ، رجا أن يفلت ممن يترصدونه . وتسارعت رجالات قريش الى نجدته فخرجوا تحت قيادة كبرائهم فى تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير . ولم يعلم رسول الله بكل هذا ، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعرفان له الاخبار ، ثم سار حتى بلغ الروحاء ، وهى على بعد نحو أربعين ميلا من الجنوب الغربى للمدينة ، وهناك جاءه الخبر بأن قريشا قد هبت تدافع عن أموالها ، وأن تجارة قريش تمر من بدر غدا أو بعد غد . فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم كبراء جنوده وأخبرهم بأن الله أوحى إليه ووعدته إحدى الطائفتين : قافلة التجارة ، أو جيش قريش ، فتبين أن رأى الغالب يميل الى الاستيلاء على القافلة ، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال ، لياخذوا له عدته ، فأنزل الله فى ذلك قرآنا يعانهم وهو قوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ، أى أنكم طلبتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم . عند ذاك قام المقداد بن الأسود وتكلم ، وكان مما قاله : « يا رسول الله امض لما أمرك الله ، والله لو سرت بنا الى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبُلغه » . فعدا له بخير . ثم التفت الى رجاله وقال : أشيروا على أيها الناس ، وهو يريد أهل المدينة ، لأن البيعة التى أخذها عليهم قد يفهم منها أنه لا يجب عليهم نصرته إلا مادام مدافعا وهو بين أظهرهم .

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب . ويطلق ويراد به أنهى المعورة .

فقال له سعد بن معاذ سيد بنى الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل .

فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهدنا ، فامض لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر نخضته لنخوضه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا ، إنا لنصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » .

فاشرق وجه النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الكلام وسر به . وعند ذاك التفت الى أصحابه وقال : « أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أبا سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ، وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذى سار لخلاصها أنه لا حاجة الى الحرب فقد أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرجع حتى نصل الى بدر ونقيم بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيها بوننا أبد الدهر .

فلم يرق هذا رأى الأخنس بن شريق الثقفى فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا . وسار جيش قريش حتى وصلوا الى وادى بدر فزلوا شاطئه الأقصى فى أرض سهلة .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، سار حتى نزل من وادى بدر عند شاطئه الأدنى بعيدا عن الماء فى أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تثبط عزائمهم وهم قريبو عهد بالاسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر مدرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشربوا واتخذوا الحياض ، وملأوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التى تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث وببلا على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال . وقد أشار الله الى هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : « إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ، وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيَثْبِتَ بِهِ الْاَقْدَامَ » .

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له الحباب بن المنذر الانصارى وكان مشهورا باصالة الرأى : يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله : بل هذا هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانقض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته ، فتنزله ونغور ما عداه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون .



فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التي خلفهم فعمُورَتْ ، وبني حوضاً على البئر التي نزلوا إليها .

وبعد ذلك بُنى له عريش (١) فوق تل ليشرّف منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوّم صفوفهم ، وجعل مناكبهم متلاصقة كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر الى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني به » . ثم نظر الى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات في مجادلة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجي به من الغم » .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى أمركم ، وإن اكتنفتكم القوم فانضحوا بالنبل ، ولا تسالوا السيوف حتى يغشوكم » .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلاً فله سلكه » .

وأمر النبي بالحملة على المشركين ، فاهى إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وخارت قواهم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أفضى بهم التراجع الى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى ووجدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البختري بن هشام ، والجراح والد أبي عبيدة ، وأمّية بن خلف وابنه علي ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وأبو جهل بن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصي ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعُدّ الأسرى فكانوا سبعين رجلاً أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل منهم عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشد خصوم المسلمين ، والمؤلبين عليهم ، والمستهزئين بهم .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يدفن قتلى المشركين في قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب الى شفة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنكم كنتم أطعمتم الله ورسوله ، فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

(١) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش للسكرم . وشبه الخيمة من خشب ونعام جمعه عرش بضمتين .

فقال له رسول الله : والذي نفس محمد بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم .  
وكان عدد من قتل من المسلمين في وقعة بدر أربعة عشر رجلا .  
الخلاف على مصير أسرى بدر .

استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، محتجا بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم الى الضلالة ؛ ووافقهم سعد بن معاذ وعبد الله ابن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا له عضدا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم الى رأى أبي بكر ، فكان منهم من يفتدى نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك الى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة جعل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طال ما آذى المسلمين بلسانه ، فخطب عمر في شأنه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا : دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقامنا لانذمه . وقد حقق الله ما أنبا به النبي ، وذلك أنه لما توفي صلى الله عليه وسلم وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا ونصحهم بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .  
عتاب الله للمسلمين في أمر الفداء :

قرر النبي صلى الله عليه وسلم بعد أخذ رأى أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يعاتب المسلمين على ما فعلوا ، ويشير الى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا في الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا في إيذاء المؤمنين واضطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يصرون على معاكسته ومكافحته ، رجاء أن يتمكنوا من حل جماعته ، والتعفية على أثره ، فقال تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .  
معنى هذا أنه ليس لنبي أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكسر من قتل أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يمكنه الله منهم ، ليعودوا الى شر مما كانوا عليه ، فيبذلوا جهدهم للشار من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذي عُرف عن الاسلام أنه دين رحمة وسماحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق في تسامحه وسعة صدره كل ما عُرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله في هذا المواطن يعتب على المسلمين أخذهم بمبدأ الرحمة في معاملة رجال قريش الذين أُسروا في معركة بدر ؟

نقول : إننا نخالف المعترض ونرى في هذا التشديد أروع مظهر لإلهية هذا الدين . وسنجلي هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الاسلامية التي يذكرها المعترض لم تكن قد نزلت بعد ، وما نزل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الاسلام ، وتوالت المعارك بينه وبين خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتل الأسرى قبل الإيخان في الأرض ، وبين الأصول التي يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل ينافي الرحمة التي يجب أن يتصف بها شرع إلهي . وعلينا أن ندعوه ليتأمل معنا في أن قتال المسلمين لمشركي العرب كان الداعي إليه كسر شرهم في معاكسة الإصلاح العالمي الذي هبوا لنصرته ، وقد ارتكبوا ضده من ضروب الاضطهاد ما ينافي كل رحمة ، ويسجل عليهم كل وحشية ، فلا يكون موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركوهم في مقابل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا الى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود الى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة في تدويحهم .

فاللوم جاء مترتبا على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوث أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لايجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يذيقوهم وبال وحشيتهم . وأما من ناحية أن في العتاب القرآني أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة الى ضروب من التسامح يكسر بها حدة خصومه ، ويفل ما استطاع من غرهم . فإذا ظفر ببعضهم في إبان ضعفه ، فلا يبالغ في النكاية بهم تفاديا من أن يظهر بمظهر المتجبر ، فيضغن عليه نفوسا كثيرة ، ويحملها على الاستماتة في قعه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيرا من رجالات أشهر قبيلة في البلاد العربية كان يقع من باقي أفرادها موقعا مؤلما للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلصص الانصار والأحلاف للأخذ بالتأر من قتلهم .

ف نجد مدعى النبوة يفكر في هذا الأمر جيدا ، ويتقن حصوله جهده ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلبا فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والغلبة .

ولكن مجيء هذا العتاب يقلب هذه المداراة رأساً على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهد استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شيء من التسامح قبل أن ينخسوا في أعدائهم . وهذه صراحة تحجاف ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشئ حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة واثقة من مصيرها ، متحقة من مآلها ، لا يقفها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفي كل هذا دليل ضمني على أن الاجتماع الاسلامي كان يتولاه ويربه الوحي الإلهي فوق العقل البشري ، لأن العقل في مثل هذه الحالة يأبى أن يقف مثل هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصم نفسه على رؤوس الأشهاد بأنه فيما تسامح به قد أثر عرض الحياة الدنيا على ما وعد به من ثواب الآخرة .

فان قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحي الإلهي المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذي اتخذ في شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحي لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الانكسالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الاسلامي قادراً على القيام بنفسه ، ومتمرساً على مكلفه الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحي لم يضطرب في سيره ، ولم يحترق في تصريف أمره .

وقد عرف أخيراً أن خير التربية هي أن لا تبالغ في حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تخرج اليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصرف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ في تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيد في إكسابه الحزم والتثبت ما لا يفيد ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعة الاسلامية قد تولاه الوحي على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدّها بكل ما يسمع به للبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاق وبال أمرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحي في ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحاً لا يعرف في تاريخ البشرية له مثبته ، ألم تتأد الأمة الاسلامية في سنين معدودة الى ما لم تبلغه الأمم التي سبقتها في قرون كثيرة ؟

محمد فريد وجدي

# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا لك في مقالنا السابق أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الأنفس والآفاق علوية وسفلية ، وأنه يتفنن في ذلك تفننا عجيبا ، فتارة يقول : « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » ، وتارة يقول : « وأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وتارة يقول : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، وتارة يقسم بتلك العجائب التي غفل الناس عن النظر فيها والتأمل في خوافيها ، فهم يمرّون عليها وهم معرضون كما في الآية الكريمة . ولو تأمل الإنسان في ذلك قليلا لامتلأ قلبه إيمانا ونفسه إيقانا ، ولوجد من ذلك لذة صافية لا تشبهها لذة ، ونعما روحانيا لا يقاربه نعيم ، ولكن الناس محبوسون في سجن الماديات ، هائمون في أودية الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون « وإن قطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . وقد رأيت كلاما ممتعا في هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين نظروا وفكروا ، نسوقه إليك لتعرف الفرق بينهم وبيننا معشر المسلمين الذين ينادى كتابنا بأن في الأرض آيات للموقنين ، ويصل من تعظيمها ولفت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك أرباب النفوس الجامحة ، والعقول النائمة ، والقلوب القاسية التي هي كالْحجارة أو أشد قسوة ، فنقول :

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطبا لذلك الإنسان الغافل عن عجائب الكون : « إنك أيها الإنسان لذهل عن جمال القبة الزرقاء ، فلم تراقب شفقها ، ولا ساهرت بدرا ، ولا ساررت نجومها . هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحيا ؟ وهل اتفق لك أن جعت فاشتبهت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله وآلائه بما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلاً ومرعى ؟ ألا فاحمد ربك الذي برأك من لا شيء ، وأتى بك من العدم ، وأخرجك من الظلمة إلى النور » .

ويقول غيره : « ما الأرض إلاجنة أنزلت فيها آيات الجمال ، ومجرد وجودنا عليها بينة البينات . ألا يذكر ك ذلك قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ، وقوله : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسِيمون . يُنبِت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . فأين ذلك الانسان الرقيق الوجدان الذي يهيج حبه لله ، النظر في آيات الله ، وما يقع عليه بصره من مخلوقات الله مما يثير عواطفه ويهيج لواعجه . والنظر في آيات الله يوصل الى معرفة عظمة الله ، ويبعث على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحبور . وإن ذلك ليسبغ علينا من آلاء الافكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلي ، ما يفوق كل ما تصبو إليه النفس من بهجة الدنيا وزخرفها . وشتان ما بين لذة جسمية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتجيبه ، والبدر يطلع ليناجيه ، والعصافير تغرد لتشجيه ، يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم له ثغورها ، وتحديث تنويرها وتفتيحها ، وبالأشجار فتضحك له أغصانها ، وترقص له أفنانها ، وتسرد على سمعه أنسابها وفصائلها وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلانا عرف أطوارهم وأخلاقهم ، فهي تمضي وتحفظ لها في نفسه تذكارات جميلة حتى تعود إليه في أدوارها وأوانها العام التالي » الى أن يقول :

« ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما ، حوادث نادرة الطرء ، لأصبحنا مسحورين بجمال الفجر إذ تظفر الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأمسينا مأخوذِينَ بسناء الشفق إذ تتوارى خلف البحار . وحقا إن تلك الأشعة الذهبية التي تنبثق من جبين الأفق صباها ومساء ، كنز ثمين يفوق كنوز النضار ، وثروة طائلة تسمو على ثروة الذهب الأيريز . هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويعيشوا في أحشاء الأرض على أوفر ما يكون من السعة والبجوحة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون أرضا مترامية الأطراف ، وخضا متسع النطاق ، وفضاء لا نهاية له ، وغيوما متلبدة ، وسحابا ممطرا ، ورياحا عاصفة ، وبروقا وامضة ، ورعودا قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة الى مليكة النهار فيأخذهم سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم عظمتها طالعة من أفق الشروق ، فصاعدة في قبة الفضاء ، فائلة الى أفق الغروب ، إذ يعجبون لها مصباحا واحدا ينير الفضاء على اتساعه ، ثم تنسدل سجوف الظلام وتتراخي عليهم ستائرهِ وحجبه فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الجاهل ماسيكون ، وإذا بنجوم وأقمار ظاهرة بعد الخفاء ، بادية بعد الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متنتقلة في أبراجها ، جادة في سيرها حسبما تشاء نظاماتها ونواميسها التي رتبها حكمة الحكيم العليم . لامراء أنهم يوقنون لساعتهم بوجود إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون وطيدا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدي ذلك الإله الخفي الأسرار ، العظيم الاقتدار ، الذي كان قد أنام نبؤه من قبل . وإذا أطلنا هذه النظرة

الى الانسان والطبيعة وما يكون فيهما من العجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول النباتات والاوراق والازهار والاشجار والبزور خبزاً ولبناً وعسلاً . . . » الى آخر ما قال أولئك الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا يتيسر استقصاؤه .

ولم لك عرفت بذلك كله سر الأقسام بالشمس والقمر ، وفهمت عظمة ذلك القسم على ما يشير اليه قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .  
ويحسن بعد هذه المقدمة التي هي لب المقصود ، أن نشرع في التفسير ، فنقول :

الواو في قوله : « والشمس » واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله : « قد أفلح من زكاه » ، على ما ستسمع . والمراد بضحاها ضوؤها مطلقاً ، أو وقت الضحى الذي يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لمعانها . وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي الى تأمله أقوى .

هذا وقد قال بعض المفسرين : إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضحاها . وقد علمت أنه لا داعي لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بأرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسرارها ، ولأحلك قليل من أنوارها ، على أنه سيقسم به تعالى في قوله : « وما بناها » الخ ، وهو لا يلتزم مع هذا التقدير كما هو ظاهر .

ولا تزال نقول : إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التي لا نطبق لها شكراً ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فإن الناس يدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فإن كل شيء في هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لا بد له من الشمس . وإن شئت فانظر الى الناس في الليل نائمين وكأنهم أموات ، فإذا ظهر أثر الصبح من المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة في الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل حتى تصل الى كمالها وقت الضحوة .

وقد رأينا أن ننقل لك ما قاله اللورد « إفبرى » في هذا الموضوع ، فنقول :

« الشمس هي كرة متأججة بنار أشد وطيساً من كل نار على الأرض ، وهي أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا فنحو ٥٠٠ و ٩٣ ميل ، هذا وإن هي إلا نجمة وليست هي في عداد النجوم الكبرى ، وهناك مشكلة أخرى أعيا حلها النهائي عقول العلماء والفلكيين ، هي أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار أو نحوها من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تقن مادتها مع توالي العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لكفأها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفد حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا ونارنا فقط ، بل هي محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهي التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوما فى الجو ، وتزلقها أمطارا على الأرض ، حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا ، وتنمى أغراسنا ، وتثير الرياح ، وتهيج الانواء ، فتظهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط ، وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجري إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تفتعش بحرارته ، والأطيار تغرد بأوارها وتسبح تسبيحا ، وبحرارته وأوارها تبرزغ النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار وتنضج الأثمار ، فنحن مدينون للشمس بما أكلنا ومشربنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض . »

ولنقف هنا اليوم تالين قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه فقنا عذاب النار » . وقوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض آيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » . « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »

يوسف الدموي

عضو جماعة كبار العلماء

## حول الجهاد

لما أرسل أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد ليقاتل بعض المرتدين من العرب ، كتب له : اعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك وتراك ، فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغفل الشهداء من دماهم ، فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

وحض منصور بن عمار على القتال وكان بين السامعين امرأة فطرحت رقعة كتب فيها : رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد ، وقد ألقيت ذؤابتى فلست أملك والله غيرها ؛ فبالله اجعلها قيد فرس غاز فى سبيل الله ، فعسى الله أن يرحمنى . فارتج المجلس بعد قراءة هذه الرقعة بالبكاء تأثرا مما فعلت .

نقول : يمثل هذه النفوس تحيا الأمم ، ويمثل هذه الهمم تدين لها الأمصار ، وتخضع لها الأقطار ، فان جمعت الى هذا الشعور حب العدل والانصاف والمساواة كما كان عليه المسلمون ، أصبحوا سادة الأرض ، وخلفاء الله فيها .



# السنة

## التحذير من الفتن

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ» . رواه البخاري ومالك وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) بيان معناه والغرض منه . ( ٢ ) بيان معنى الفتن التي نهى عنها الدين وأمر بالفرار منها . ( ٣ ) بيان ما يترتب على العزلة والاختلاط من منافع ومضار .

( ١ ) إن هذا الحديث وإن كانت عبارته ظاهرة ليس فيها شيء من الإيهام ، إلا في كلمة « شعف الجبال » بالشين المعجمة والعين المهملة مفتوحتين ، وهو أعلى الجبال ورءوسها ؛ ولكنه يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاتصال بالوحي الإلهي ، والعلم بما سيكون عليه العالم في آخر الزمان من الهرج والمرج ، والاضطراب الذي يذهب بالمعنويات لتحل محلها الماديات ، بحيث لا يكون للناس هم إلا في قضاء شهواتهم ، والحصول على لذاتهم ، بكل ما أوتوا من حول وقوة ؛ وتلك حالة تستلزم لا محالة أن تكثر الفتن والاضطرابات ، وتغلب على الأنفس طباع الحيوانات المفترسة التي لا هم لها إلا الحصول على فريستها وقضاء لذتها بكل الوسائل .

وقد وردت في هذا المعنى أحاديث كثيرة ذكرها البخاري وغيره في كتاب الفتن ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويُلتقى الشج ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج » . ومعنى يتقارب الزمان : تذهب بركته فينقضي سراجا فلا يتمكن العاملون من أداء أعمالهم على الوجه المطلوب ، لما يعترضهم من مشاغل الشهوات التي يلهون بها عن أداء ما عليهم من واجبات ، فيضيع عليهم زمنهم وهم لا همون غافلون . ولا مراء في أن ذلك مدعاة للغفلة عن الفضائل الخلقية ، والانصراف عن تحصيل العلوم التي تهذب المجتمع الانساني ، وتؤلف بين الأرواح والقلوب . ولهذا قد ورد في بعض الروايات تصريح بأن العلم ينقص كما ينقص العمل ، ولا خفاء في أن نقص العمل يستلزم نقص العلم ، لأن العلم يتطلب عملا جديا ومجهودا

كبيراً ، فتي استولت الغفلة على النفوس ، واستحككت فيها الشهوات ، انصرفت عن الفضائل الخلقية ، وانغمست في اللذات ، فانقضى الزمان سراعاً كأنه لم يكن ، وضاع لذلك العلم والعمل معا . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الهرج ما هو ، فقال : القتل ، القتل . فعنى قوله : « يكثر الهرج » : يكثر القتل . وذلك لأن بواغ الشهوات تدفع الناس الى التزاحم عليها ، فيفنى بهم ذلك الى قتل بعضهم بعضاً .

وهذا الإخبار الذى أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيه ، فإن التزاحم على الماديات وصل بالناس الى حد لا يمكن وصفه . فالحديث الذى معنا يأمرنا أن نتقى الفتن بكل ما نستطيع من قوة ، فإذا لم نستطع فررنا منها وابتعدنا عنها ، ولو أدى بنا ذلك الى شظف العيش والسكنى فى رءوس الجبال .

(٢) أما معنى الفتنة فى أصل اللغة ، فهو : الاختبار والامتحان . تقول : فتن الصائغ الذهب يفتنه فتنة ، إذا أدخله النار ليعرف جودته من رداءته . وفعل الفتنة فتن يفتن فتناً ، كضرب يضرب ضرباً . ثم استعملت الفتنة فيما يجز إليه الاختبار من مكروه . ثم أطلقت بعد ذلك على كل مكروه كالسكر ، والإثم ، والتحريق ، والفضيحة ، والفجور ، وغير ذلك . فكل هذا يسمى فتنة . وقد وردت الفتنة فى القرآن الكريم بهذه المعانى ، قال تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » . فالمراد بفتنوا هنا : حرقوا المؤمنين ، والمحرقون هم أصحاب الأخدود الذين قص الله علينا خبرهم فى سورة البروج ، وذلك أن بعضهم قد آمن بالله وترك عبادة الأوثان ، فلم يرض ذلك ملك زمانهم ، خفر لهم فى الأرض حفراً وأوقد فيها النار وألقاهم فيها أحياء . وقال تعالى : « وفتناك فتونا » أى اختبرناك اختباراً . وقال تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك » أى يوقعونك فى بلية وشدة فى صرفك عن العمل بما أوحى إليك . وقال تعالى : « ما أتم عليه بقاتين » أى بمضلين عن الحق ، الى غير ذلك .

فإذا فشت المنكرات فى أمة من الأمم ، وكثر فيها الفجور ، وهتكت المحرمات ، كان من واجبات الصالحين فيهم أن يقاوموا هذه الشرور بكل ما استطاعوا من بأس وقوة ، فإذا عجزوا عن تقويم المعوج كان حقاً عليهم أن يرتحلوا بعيداً عن هذه الشرور والمفاسد كي لا يصيبهم شرها ، أو يمسهم الله بعذاب فيهلكوا مع المفسدين .

وقد يقال : إن هذا يناقض ظاهر القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى قدر رفع العذاب الدينى عن العالم إكراماً لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فانه تعالى قال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وقال تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لسكان لزما وأجل مسمى » . ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : لولا أن سبقت كلمتى برفع العذاب عن الناس

بعد رسالتك وتأجيله الى أجل مسمى لكان العذاب الذى حاق بالأمم الماضية من الخسف والمسخ والإغراق لازما لا يرفعه عن هؤلاء المجرمين قوة ولا بطش .

والجواب : أن المراد برفع العذاب عن الناس : رفع عذاب الاستئصال والإبادة . أما تعذيبهم بنقص الاموال والأنفس والثرات ، وإذاقة بعضهم بأس بعض ، فذلك غير مرفوع عن الناس الذين طغت عليهم شهواتهم ففسدت أخلاقهم . على أن الله تعالى لم يبين لنا الأجل المسمى ؛ وما يدرينا أنه قد انتهى ذلك الأجل ، وأن الناس إذا لم ينتهوا عن الفواحش ويكفوا عن الموبقات والفضائح ، ويجعلوا رائداهم فى أعمالهم الصدق والعدل ، فإنهم بذلك يعرضون أنفسهم لسخط الله وعقابه الذى كان يعاقب به الأمم الماضية ؟ إن ذلك ممكن لا شك فيه . فعلى الناس أن يتدبروا فى ذلك ، ويتعاونوا على إزالة الموبقات والمناسد من بينهم ، وأن يعفوا عن المظالم التى تذهب بالضعاف ، وأن يتذكروا دائما أنهم مهددون بغضب إله منتقم عادل لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . فإذا لم ينتهوا فإن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

( ٣ ) مما لا شك فيه أن الحديث الذى معنا والاحاديث التى وردت بمعناه ، تدل على أن العزلة إنما تكون فى حالة القوضى وانتهاك حرمت الدين ، وطغيان سيل الشهوات على الناس بحيث لا يستطيع دفع شئ منها . أما إذا قدر المرء على إزالة المنكر ، وقدر على هداية الناس بقلمه أو لسانه أو جأه ، فإن الاختلاط أفضل ، بل يكون الاختلاط فى هذه الحالة لازما فى نظر الدين ؛ لأنه يكون من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أمر الله المسلمين به فى كتابه الكريم ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . فالتقادرون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يجب عليهم أن يخاطبوا الناس ، ويبدلوا قصارى جهدهم فى أمرهم بالمعروف ونههم عن المنكر . فإذا لم يفعلوا حق عليهم غضب الله وسخطه . قال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ولقد وعد الله سبحانه الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وعدا كريما ، وأعد لهم جزاء حسنا ، بل قد أخبر سبحانه فى كتابه العزيز بأنه قد أنجى الآمرين بالمعروف من العذاب الذى حاق بأمتهم ، قال تعالى : « فأنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

فانظر كيف أخبر الله تعالى أن هؤلاء الذين أهملوا ذلك الواجب المقدس ، وتركوا أشرارهم يأتون المنكر بدون أن يقاوموه ، قد استحقوا لعنته وطردهم من رحمته كما يستحقها الكافرون ،

وذلك منتهى ما اتصل إليه عقوبة العاصين ؛ وفيه عظة بالغة وزجر شديد للقاعدين من المسلمين عن أداء ذلك الواجب المقدس الذى جعلهم الله بالقيام به خير أمة أخرجت للناس ، فكيف يرضون أن يكونوا ملعونين بتركه ؟ وكيف تطمئن أنفسهم الى شيوع الفاحشة بينهم وهم راضون ؟ ألا يخافون أن يحقق بهم ما حاق بالأمم السابقة ؟ لا ريب فى أن الأمر خطير ، وأن الناس عن دينهم غافلون . ولا يقف النهى عن المنكر عند حد من الحدود ، فكل أوامر الدين ونواهيه إذا انتهكت حرمتها فإنه يجب على القادرين على الأمر بالمعروف أن يعالجوا إزالتها بكل ما يستطيعون .

أما ما ذكره صاحب إحياء العلوم من أن بعض السلف الصالح كان يرى العزلة أفضل من الاختلاط ، فذلك إنما يناسب حال زمانه ، حيث كان الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر كثيرين . فإذا اعتزل أحد الناس قام غيره بذلك الواجب المقدس .

ولقد أمر الدين الاسلامى المسلمين بالاتحاد وعدم الفرقة ، قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » . فيجب عليهم جميعا أن يتحدوا ، ويتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ، ويقوموا بوجباتهم الدينية والخلقية . ومن أول واجباتهم التضامن والاتحاد ، والجهاد فى سبيل الله ، والدود عن الكرامة والشرف ، ونبد الشهوات الفاسدة ، وترك التبذير والإسراف ، والحرص على كل ما يصون أوطانهم . أما الحديث الذى معنا فهو يأمر بالعزلة عند فساد الزمان فسادا مطلقا ، بحيث تصبح قواعد الدين مهجورة عند جميع الناس وليس فيهم من يغار على عرضه ودينه ووطنه ، ولعل ذلك الزمن لم يأت بعد .

عبد الرحمن الجزيرى

## مكان المال من المجتمع

قال الله تعالى : « إن ترك خيرا الوصية » : عبر عن المال بالخير ، وهو كذلك متى اكتسب من الوجوه المشروعة ، وبذل فى الأغراض الشريفة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحما ، ويؤدى به أمانة ، ويستغنى به عن خلق ربه » .

وقال الشافعى رحمه الله :

لقد طفت فى شرق البلاد وغربها      وجربت هذا الدهر باليسر والعسر  
فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى      ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

# دراسات في القرآن الكريم

— ٣ —

## شبه قد ترد على القارىء

نعم قد يكون مما لا بد منه أن تتوافد الى نفس الناظر فيما أسلفنا من بحث في الآية الكريمة تلك الشبه التي سنوردها :

فلقائل أن يقول : إنه قد انقمهم مما تقدم أن الداعى للتذكير بالعهد المشار إليه في الآية السابقة على التي نحن بصدد شرحها ، هو أن الوفاء به والعمل بمقتضاه يؤدي الى الإذعان برسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ما هو الداعى للتذكير بعهد إن وقوا به فأنما يقتضى الاعتراف بربوبية الله وانفراده تعالى بها دون أن يكون له في ذلك شريك ؛ ولا صلة له بأذهانهم برسالة سيدنا محمد خاتم النبيين ؛ وبنو إسرائيل معترفون بربوبية الله الخالق العظيم ؟

وإنما لدفع هذه الشبهة نقول : أولا : أن التذكير بهذا العهد ليس خاصا ببنى إسرائيل ، بل هو تذكير للناس كافة على اختلاف نحلهم وأجناسهم ؛ وظاهر أن في الناس المؤمن به والكافر ؛ وعلى ذلك يكون التذكير بهذا تذكيرا بالعام بعد التذكير بالخاص ، كالإمام لبنى إسرائيل ، لما أن ما هم عليه من جحد لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإعراض عنها ، ماس لهذا العهد وموهنه .

وثانيا : فإن بنى إسرائيل قد كانوا على عقائد وأحوال تتنافى مع الاعتراف بالربوبية ، ومع قدرهم لله حق قدره فإنهم لو أذعنوا بالربوبية صحيح الإذعان ، وقَدَرُوا الله حق القدر لما قالوا عزيرا بن الله ، وفي ذلك جهل بالله أى جهل ، ومساس بقدره أى مساس ؛ ولو قدروا الله حق قدره لذكروا سوابق نعمه عليهم وعلى الناس أجمعين ؛ تلك النعم التي من أجلها تقفيتها الرسل بعضهم ببعض لتجديد هداية البشر وإصلاح ما قد يعتري أصول الدين من إفساد أو توهين ، وما قد يطرأ على مبادئه من تحريف أو تشويه ، فما كانوا يمانعون في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل بعد ما أمسى العالم متخبطا في ظلام من الفوضى حالك ، وغدا البشر في ثنايا موجات من الشر متلاطمة . نعم لو قدروا الله حق قدره ما جرءوا على تكذيب الرسول محمد وهم يعلمون صدق رسالته ، وكانوا يتوقعونها من حين لآخر ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، لما في ذلك من الجرأة على الله ، والاستهانة بوعيده ، الى غير ذلك مما يتنافى مع الوفاء بذلك العهد ،

ومما لو تخلوا عنه لادى بهم الى الايمان بمحمد والايداع برسالته . وبهذا تدرك في وضوح ما للتذكير بهذا العهد من صلة بالغرض الذى يتصل به العهد الاول ، كما تدرك ما للتذكير به من إفحام لهم وإلزام .

هذا ، ولقائل أيضا أن يقول : إذا كان الله قد بين في كتابه المجيد أنه لا تنقطع حجة الناس عليه تعالى إلا أن يرسل اليهم رسلا يبشرون وينذرون ، ويذكرون ويرشدون ، فكيف يعتبر ما أودعه فيهم من عقول تفهم ، وما أودعه في السكائنات من دلائل وآيات تفهم ، عهداً عليهم وحجة تلزمهم ، يثابون إن هم بها وفوا ، ويعاقبون إن هم بها أخاؤا ؟

وإنا دفعا لذلك نقول : إنه قد كان يصح أن يتجه هذا السؤال لو أن الله لم يكن قد أرسل الى عباده رسلا ؛ أما وقد أرسل اليهم رسلا يذكرونها بآيات الله ، ويدعونهم الى النظر في السماء والأرض وما بينهما ، ليدركوا ما فى ذلك من دلائل ربوبيته ، وشواهد وحدانيته ، وآثار قدرته وحكمته ؛ أما وقد فعل ذلك ، فلم يبق محل لتلك الشبهة .

بقى أنه قد يستدعى ذلك سؤالا آخر ، فلقائل أن يقول : هل يكفى في قطع الحجة على الله وحساب الناس بمقتضى هذا العهد ، أن يرسل اليهم رسولا واحدا ، أو أن الحجة لا تنقطع والعهد لا حساب عليه حتى يتتابع إرسال الرسل ، فيكون في كل فترة من الزمن رسول يحدد للناس أمر دينهم ، وبوقظهم من سبات قد يكون غشيم ؟

وإنا لدفع هذه الشبهة نقول : إن الذى يتضح من مجموع ما فى ذلك من بحوث وأفكار ، هو أن المدار في وجوب الاعتراف بالربوبية ومعرفة الله تعالى والمؤاخذه على اتخاذ رب سواه ، هو أن يتوفر لدى الشخص أحد أمرين :

( الاول ) أن تبلغه دعوة رسول الى توحيد الله وإفراده بالعبادة والإجلال ، بغض النظر بعد ذلك عن أن يكون الله تعالى قد أرسل رسلا كثيرين ، أو أرسل رسولا واحدا ، ما دامت دعوته قد وصلت على أى وجه من وجوه بلوغها إياه .

( الثانى ) أن يهيب بعقل المرء داع من نفسه الى النظر والتفكير فى شأن الصانع ، ثم يدفعه ذلك الى النظر بالفعل . ومتى توفر للانسان أحد هذين الأمرين ثم هو بعد ذلك يكون قد أهمل النظر ولم يصل الى حد التعرف بالله والاعتراف بربوبيته ، ونظر ثم تأدى بالنظر الى اتخاذ غير الله ربا من كوكب أو شيء آخر ، فإنه يكون بذلك مؤاخذا بمقتضى هذا العهد إن هو لم يأخذ به ، ومثابا إن هو وفى بمقتضاه .

وعلى هذا فقول بعض العلماء : إن أهل الفترة ناجون ، لا بد أن نسألهم فيه ، فإن هم أرادوا بأهل الفترة من لم تبلغهم دعوة رسول من الرسل ، ولم يصادفهم من الشئون والحوادث ما أثار عقولهم نحو النظر وبعثها الى التفكير ، كانت نجاتهم عامة بالقياس الى جميع التكاليف ،

سواء منها الاصول الاعتقادية مما يتعلق بما يجب للصانع الحكيم ، وما يتعلق بالفروع العملية من واجب ومحذور .

وإن هم أرادوا بهم من بلغتهم دعوة رسول دون أن يواجههم بتفاصيل شريعته ، أو تحركت في نفوسهم دواعي النظر ودفعتهم الى الاعتراف بالصانع الحكيم ، والخالق القدير ، والرب المنعم ، كانت نجاتهم بالنسبة الى الفروع العمالية خاصة ، على معنى أنهم لا يؤخذون بشرهم الخمر ، أو تركهم الصدقة ، مثلا .

ويرى الإمام الأعظم أبو حنيفة أن النظر واجب على كل إنسان وإن لم تبلغه دعوة رسول من الرسل ، ولا يشترط ما اشترطناه من أن يصادف الإنسان حادث من الحوادث التي تحرك فيه الداعي الى النظر والتفكير ، بل يرى أن مجرد وجود الانسان وأمام عينيه السموات والأرض ، وأمامه نفسه ، وما في ذلك من آيات وشواهد على وجود الصانع الحكيم ، كافٍ في وجوب النظر .

غير أن الإمام يرى ، مع إيجابه النظر على كل إنسان وإن لم يتوفر لديه أحد الأمرين المتقدمين أنه إذا أفضى بالنظر نظره الى عدم الاعتراف بالصانع ، يكون غير مؤاخذ مادام قد فعل ما وجب عليه ، واجتهاده هو الذي أدى به الى اعتقاد غير صحيح .

إلا أن ما نعرفه لذلك الإمام العظيم من بُعد نظر ، ورسوخ في علم ، يحتم علينا أن نحمل هذا على غير الظاهر منه ؛ فلعل مراده من قوله « إنه غير مؤاخذ إن أدى بالمرء اجتهاده الى عدم الاعتقاد بالربوبية » إنما هو الفرض والتقدير ، إذ مثل الإمام أول من يعلم أن آيات الله في أكوانه واضحة جلية لا يمكن أن يؤدي النظر فيها إلا إلى معرفة الله والاعتراف بربوبيته ؟

مامر محيسن

## الكرم والتبذير

قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »  
وقال على رضي الله عنه : كن ممحاً ولا تكن مبذراً ، وكن مقدراً ولا تكن مقتراً .  
وقال سقراط : أفضل السيرة طيب الكسب وتقدير الانفاق .  
وقال علي : لا تستحي من العطاء القليل فإن الحرمان أقل منه .

# نحوية في المسائل الفقهية

## تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٤ —

وصفنا فى مقالنا السابق حال الرواية والفنیا فى مصر لعهد الصحابة ، وقد كان الى جانب ذلك حركة أخرى تتصل بالفقه اتصالا شديدا ، وربما كانت صورة الفقه فيها أوضح من صورته فى غيرها : تلك هى حركة القضاء .

كان أمر القضاء عند المصريين ، قبل الفتح الإسلامى ، منوطا بنواب مالين أو عسكريين ترسلهم حكومة الروم ، ولم يكن لهم قانون منظم معترف به ، يمكن التحاكم إليه ، والرجوع الى نصوصه ، وإنما كان قانونهم ما يراه القاضى ، الذى لم تكن صلته بالبلاد ومعرفته لأحوال أهلها ، بالقدر الذى ينبغى أن يكون فيمن يتولى مثل هذا الشأن .

فلما فتح المسلمون مصر أنشأ لهم عمرو المحاكم النظامية ، وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية ، مؤلفة من أعضاء من الأهاليين ذوى نزاهة واستقامة ، وبصر بأحوال البلاد ، وجعل للمعتاضين حق استئناف الأحكام لتنقض أو تبرم (١) .

أما المسلمون فكان لهم قضاء خاص لا تجرى أحكامه إلا عليهم ، فكان لأهل البلاد قضاؤهم الخاص ، وللمسلمين قضاؤهم الخاص ، وكان الخصوم من القبط يلجئون أحيانا الى قضاة المسلمين مرتضين أحكامهم ، فيحكم القاضى المسلم بينهم ، ويحكم عرفهم وأحوالهم ، ويقبل شهادتهم . وأول قاض إسلامى فى مصر ، هو كعب بن ضنّة ، وهو ممن شهد فتح مصر ، وكان حاكما فى الجاهلية (٢) :

كتب أمير المؤمنين عمرو الى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنّة على القضاء ، فامتنع كعب من ذلك ، وقال : والله لا ينجيّه الله من أمر الجاهلية ، وما كان فيها من الهلاك ، ثم يعود أبدا ( يقصد أنه تولى هذا الأمر فى الجاهلية ، فلا يجب أن يتولاه فى الاسلام تورطا ) . فقال له عمرو : لا بد من السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فاقض بين الناس حتى أكتب اليه . ففضى كعب حتى شاور فيه عمرو أمير المؤمنين ، فأعفاه بعد شهرين .

(١) تاريخ مصر لجورجى زيدان ص ٩٢

(٢) تاريخ الولاية والقضاة للكسندى ص ٣٠١ وما بعدها .



ثم تولى القضاء بعده قيس بن أبي العاص من قبل أمير المؤمنين عمر ، ثم ابنه عثمان بن قيس الذي استمر قاضيا حتى مات بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يبق بمصر بعد ذلك قاض حتى قام معاوية ، فولى سليم بن عتر ، وأمره بالنظر في الجراح ، وأن يرفع ذلك الى صاحب الديوان ، فكان الرجل إذا أصيب بجرح أتى الى القاضي ، وأحضر بينته على الذي جرحه ، فيكتب القاضي بذلك الجرح ديته على عاقلة الجراح ، ويرفعها الى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتُص من أعطيات عشيرة الجراح ما وجب للعجروح ، وينجم ذلك في ثلاث سنين .

ويظهر أن اختصاص القاضي قبل ذلك لم يكن يشمل هذا النوع من الأقضية ، فقد رووا أن سليم بن عتر هذا هو أول قاض نظر في الجراح ، وحكم فيها . ولعل ذلك كان الى الولاية والحكام الإداريين إلحاقا بسلطة التنفيذ (١) .

ويظهر أنه كان بجانب القاضي من يبتين وصف الجناية ، ويحدها ؛ وذلك أشبه بما نعرفه الآن من نظام الطب الشرعي الذي يدخل في اختصاصه تكييف الإصابات وتحديد الجراح ، فكان القاضي يعتمد على هذا التحديد ، ويقدر ذية الجراح على أساسه . قال زيد بن بشر : أدركت رجلا في بيت المال إذا شُجَّ الرجل أو جرح ، بعث به القاضي الى ذلك الرجل ، فيقول : هذه موضحة (٢) وهذه منقولة (٣) ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، فيكتب القاضي بدية ذلك الجرح ... قال زيد : وكان على ذلك الرجل أرزاق جارية .

ومما حفظ عن سليم بن عتر أيضا أنه كان أول من سجل قضاءه بالكتابة ، قال ابن حجر : اختصم الى سليم بن عتر في ميراث ، فقضى بين الورثة ، ثم تناكروا ، فعادوا اليه ، فقضى بينهم ، وكتب كتابا بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاة بمصر سجلا بقضائه .

ومن قضاة مصر الذين اشتهروا برأى خاص في العهد الأول ، بشير بن النضر المزني ؛ كان

(١) يقول محمد بك الخضرى فيما كتبه عن القضاء في الدولة الأموية : « ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية ، أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاية الأمصار » . ويقول ابن خلدون : « إنما كان للقاضي في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ، نعم قد يفوض له الخليفة نظر بعض الأمور العامة ، لا باعتبار أنها داخلية في ولاية القضاء ، ولكن لما يراه في القاضي من الكفاية للقيام بها » .

من كتاب تاريخ القضاء في الاسلام للاستاذ الشيخ عرنوس ص ٢٥

(٢) الموضحة : ما أوضحت عظم الرأس ، أى أظهرته .

(٣) المنقولة : ما ينقل فيها فراش العظم الرقيق ، فوق العظم المعتاد ، لينتئم الجرح .

يقول في قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : الوارث هو الصبي (١) ، أى عليه في ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه .

ومنهم عبد الرحمن بن حجية ؛ كان يقضى في الشهود إذا تكافؤوا أن يسمهم بينهم ؛ فإن كان أحد المدعين أكثر شهودا برجلين أو أكثر كان الحق له ، وإذا كانت السلعة بيد أحدهما ، فجاء بشاهد عدل ، كانت له وإن جاء الآخر بأكثر (٢) .

هذه صورة الفقه في القضاء ؛ وقد قدمنا قبل ذلك صورة الفقه على يد الرواة والمفتين .

وينبغي أن يعلم هنا أمران :

أولهما : أن هذه النواحي من النشاط الفقهي كان لها في البلاد المصرية مركزان : الفسطاط ، والاسكندرية ، لأن المسلمين لهذا العهد ، لم يكونوا قد اختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد ، ولا توزعوا في القرى والأقاليم . وفي ذلك يقول المقرئ : « إن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون ، كانت خاصة بالقبط والروم ، مشحونة بهم ، ونزل الصحابة رضى الله عنهم من أرض مصر في موضع الفسطاط ، وبالاسكندرية ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدي القبط ، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى . . . ولم ينتشر المسلمون بالنواحي إلا بعد عصر الصحابة والتابعين . . . الخ » .

وما ذكره المقرئ هو الغالب الكثير .

الثاني : أن صلة الفقه في جميع الأمصار بالفقه في مركز الخلافة كانت وثيقة ، فإن الأمراء والحكام ، والقضاة ، كانوا غالبا يعينون من قبل الخليفة ، وكانت عقليتهم الفقهية متشابهة أو متقاربة الى حد بعيد ، وكثيرا ما كانوا يتصلون بالخليفة طالبين رأيه في قضية من القضايا العامة أو الخاصة ، فتارة يأتيهم الرأي ، وتارة يفوضهم الخليفة في العمل بما يرون .

(١) اختلف العلماء في المراد بالوارث في قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : فقال قتادة والسدي وعمر بن الخطاب : هو وارث الصبي أن لو مات . وقال غيرهم : الوارث هو الصبي نفسه ، وتأولوا قوله « وعلى الوارث » المولود ، مثل ما على المولود له . وكان محمد ابن جرير يختار هذا القول . وحكى القرطبي في تفسيره أن ممن قال هذا القول « بشر بن نصر » . ولا يبعد أن يكون محرفا عن « بشير بن النصر » الذي هنا .

(٢) هذا كله اجتهاد من القاضى ، مرجعه الأخذ بالقرائن ، وشواهد الأحوال ، وترجيح ما يغلب به الظن . قال ابن القيم في كتابه « الطرق الحكيمة ، في السياسة الشرعية » : للحاكم أن يحكم بالقرعة ، ويحكم بشاهد الحال ، وبشهادة الواحد إذا علم صدقه من غير يمين . « راجع ص ٧١ ، ٧٥ من الكتاب » .

## الخلاصة :

بعد هذا يمكننا أن نلخص ما تقدم عن الفقه المصرى ، لعهد الصحابة رضى الله عنهم ، فيما يلى :

- (١) كان الفقه يستمد أحكامه من الرواية ، والفتيا ، والقضاء .
  - (٢) لم يكن للرواية أثر بعيد فى الفقه ، وإنما كان الأثر البعيد للقضاء ، ثم للفتيا .
  - (٣) لم يأخذ الفقه فى هذا العهد طابعا مصريا خاصا ، وإنما كان تابعا فى رجاله ، وأحكامه ، غالبا ، للفقه فى مركز الخلافة .
  - (٤) لم ينتشر الفقه الاسلامى فى جميع أنحاء البلاد ، وإنما اقتصر غالبا على المرا كز التى كان بها المسلمون ، فلم يخرج عن كونه فقهيا خاصا « بالجالية الاسلامية » إلا قليلا .
  - (٥) يمكن أن تعد هذه الحلقة فى سلسلة تاريخ الفقه المصرى ، حلقة التمهيد ، والإعداد ، لما جاء بعد ذلك من العهود .
- « يتبع » محمد محمد المرنى  
المدرس بكلية الشريعة

## حكمة الشورى

- قال الله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .
- وقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .
- وقال صلى الله عليه وسلم : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » .
- وقال فيلسوف : لا رأى لمن تفرد برأيه .
- وقال المأمون : إذا أفكرت من عقلك شيئا فاقدحه بعقل .
- وقيل : الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره .
- وقال حكيم : اجعل شرك الى واحد ، ومشورتك الى ألف .
- وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطئ وقد استشرت ، أحب الى من أن أصيب وقد استبددت .

قال الحسن البصرى : الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل ؛ فأما الرجل فذو الرأى والمشورة ؛ وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور ؛ وأما الذى ليس برجل لا رأى له ولا يشاور .

# بَابُ السُّئَالِ وَالْفَتْوَى

## فائدة الاربعاء

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

اعتاد كثير من الناس أن يقوموا بعمل فائدة تسمى ( فائدة الأربعاء ) ، فيتوجه من يريد قضاء حاجة من حاجاته أو تقرييح كربة ، في يوم الأربعاء قبل الظهر بساعة تقريبا ، الى ضريح سيدى عبد الله القرشى بقنا ويقرأ سورة « يس » مرة أو ثلاث مرات بنية قضاء الحاجة ، ثم يخرج متجها الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى ، ويصلى بين الضريحين ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بيده وحذاءه تحت إبطه ويتوجه الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى على هذه الحالة ، ويدعو بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء جميعا وبسيدنا آدم وحواء وبالسيد عبد الرحيم القنوى أن تقضى حاجته ؛ ويعتقدون أن هذه الفائدة على هذا الوجه مرجوة القبول ، ومروية عن السيد عبد الرحيم القنوى . فما حكم الشرع فى ذلك ؟

### الجواب :

هذه الفائدة — وإن احتوت على صلاة وقراءة قرآن ودعاء — قد حُدد لها ولاجزائها التى تركبت منها زمان ومكان ، والترمت فيها كيفية معينة : يتجه صاحب الحاجة الى ضريح معين ويقرأ فيه سورة « يس » بالنية التى يريد بها ، ثم يمشى فى طريق ضريح آخر حتى يصل الى مكان مخصوص بين الضريحين فيصلى فيه ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بإحدى يديه وحذاءه تحت إبطه ويتم شوطه الى الضريح المقصود وهو على هذه الحالة ، ثم يدعو هناك بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء وبسيدنا آدم وحواء وصاحب الضريح الثانى ؛ وقد اقترنت هذه العملية فى نفوس الناس باعتقاد أنها إذا أدت على هذا الوجه كانت مرجوة النفع ، وإذا لم تؤد على هذا الوجه لم يكن لها الأثر المطلوب .

وهذه العملية ، بما قارنها من هذه العقيدة ، وبما فيها من الترتيب والالتزامات المذكورة ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ولا يشهد بها أصل صحيح ، وذلك فضلا عما يصحبها من مظهر لا يتفق وجلال الدين وروعة العبادة ؛ فهي بدعة منكرة .

وإن الابتداع فى الدين كما يكون بإحداث عبادة لا أصل لها ، يكون بتحديد زمان أو مكان ، أو كيفية للعبادة التى شرع أصلها ، فما جعل الشارع له كيفية خاصة أو حدد له زمانا

أو مكانا كصلاة الجمعة والاستسقاء والحج ، وجب اتباعه فيما حدده ؛ وما لم يحدد له شيئا من ذلك كالنوافل المطلقة كان التحديد فيه ابتداء وإحداثا في الدين لا يصح عمله ، ولا ينبغي اعتقاده .

أما قراءة القرآن وصلاة النافلة والتضرع الى الله في المهمات والكرب ، من غير التزام شيء مما ذكر ، ومع مراعاة الآداب الشرعية ، فهي أمور ندب اليها الشرع الشريف ، وصحت فيها الأحاديث .

واللجنة تنصح للمسلمين أن يلتزموا في عقائدهم وعباداتهم وتضرعاتهم الى الله حدود ما شرع الله ، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئا من كيفية أو التزام زمان أو مكان ، فإن ذلك أسلم لدينهم ، وأبعد عن مقت الله وغضبه .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » . والله أعلم .

\*\*\*

## خدمة المسلم غير المسلم

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

هل هناك أي كراهية في أن يستخدم المسلم للنصارى ؟

الجواب :

يرى أبو حنيفة رحمه الله أنه يجوز للمسلم أن يكون أجيرا لغير المسلم ، وأن يعمل له بنفسه أو بدابته ، بأجر معين ، إلا إذا كان ذات العمل مما يحرمه الدين الاسلامي فإنه يكون حينئذ حراما .

واللجنة تميل الى هذا الرأي توسعة على الناس ورفقا بهم ، وترى مع هذا أن الاولى بالمسلم والأفضل له أن يسلك طريقا يتكسب منه سوى خدمة غير المسلمين إذا تيسر له ذلك . والله أعلم .

\*\*\*

## طعام أهل الكتاب

الجبنة الرومي . السمك المملح . اللحمة المحفوظة .

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

الرجاء الاجابة عن أكل وبيع الاصناف المبينة أدناه حلال أم حرام على مذهب الامام الشافعي :

١ — الجبنة الرومي .

٢ — السمك المملح (الفسيوخ)

٣ — اللحمة التي تستورد من الخارج داخل علب صفيح ، وتسمى باللغة الانجليزية كورنايف ، لأن بعض الناس يزعمون أنها تذبح على الطريقة الغير الشرعية ، والبعض الآخر يقول عكس ذلك .  
يوسف عفيفي

الجواب :

طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين لقوله تعالى : « أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » .

ولكن إذا تحققنا أن بعض الاطعمة عمل مما لا يحل لنا في شرعنا ، كما إذا عمل الطعام من ميتة أو من لحم خنزير ، فانه يكون حراما علينا ولو أكله أهل الكتاب .

أما السمك المملح فهو حلال من أى نوع كان : رنجة ، ملوحة ، فسيخ ، بكلاه ، نشوقة ، الى غير ذلك من الأصناف . والله أعلم .

\* \* \*

## الحيل لا يقرها الشرع

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

رجل طلق زوجته ثلاثا الواحدة بعد الأخرى ، ثم عقد عليها بعد ذلك على مذهب الشافعى طبقا لما أفتى به .

وبعد ذلك بمدة قال لها فى يوم من الأيام : اعلمى أنه إن وقع عليك منى يمين طلاق تكونى محرمة ، وإن رددتكم تكونى محرمة ، وإن رددتكم تكونى محرمة ، وكان يكررها هذا الكلام دائما فى أغلب الاحايين ، وهو يصمم ويحزم بالتنفيذ لو وقع اليمين .

وفى يوم من الأيام قال لها : أنت طالق ، فهل هذا اليمين يحرمها عليه بالنسبة لما سبق أن قاله ؟ وإذا كانت الاجابة بالسلب أى أنها لا تحرم (ولو أنه مصمم أن يفعل) فهل تحرم عليه لو ردها بالنسبة لما قاله (وكان مصمما أن يفعل) ؟ وهل لهارد ، أى لها طريقة شرعية لجوعها الى زوجها ؟ وما هو طريق ردها ؟  
أحمد السيد زيد

## الجواب :

يظهر أن هذا المستفتى أفتاه بعض الشافعية بفساد العقد الأول بناء على عدم استيفائه بعض الشروط التي يشترطها الشافعية كعدالة الشهود والولي، ورتب على ذلك أن الطلاق الثالث الذي أوقعه متفرقا لا يلزم لأنه أوقعه على غير الزوجة، وبذلك أباح له أن يعقد عليها من جديد . ولكن التصرف في المسألة على هذا الوجه باطل لا ينطبق على الشرع الشريف، لأن العقد الأول قد قلده فيه المتعاقدان مذهب الإمام أبي حنيفة كما هو الشأن في عقود الزواج في مصر، وهو صحيح على هذا المذهب؛ وإذن يكون صحيحا محترما في سائر المذاهب، وتترتب عليه جميع الآثار الشرعية، فيكون طلاقه لهذه الزوجة ثلاثا متفرقات واقعا عليها، قاطعا لمصمتها، وتكون محرمة عليه حتى تنكح زوجا غيره .

وبناء على ذلك تقرر اللجنة أن العقد الجديد لا يرى أحد من الأئمة صحته، الشافعية وغيرهم في ذلك سواء، وتنصح اللجنة جبهة المسلمين أن يتجنبوا في دينهم مثل هذه الحيل التي لا تنفق والشرع الشريف، والتي تجعل أحكام الدين العوبة في يد المحتالين . والله أعلم

محمد عبد اللطيف الفحام

## طرف من كلام العارفين

قال على رضى الله عنه : إن العقل لاقامة رسم العبودية ، لا لإدراك الربوبية .  
وقال : كل ما يتصور في الأوهام فالله بخلافه .

وقيل إن رجلا سأله قائلا : هل رأيت ربك ؟ فقال : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقال الرجل : كيف تراه ؟ فأجاب : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان .  
وسئل صوفي عن الدليل على الله تعالى ، فقال : أغنى الصباح عن المصباح .

وعن ابن مسعود وقد رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم : ليس الجماعة بكثرة الناس ، من كان معه الحق فهو الجماعة وإن كان وحده .

وقال سفيان الثوري : الجماعة العالم ولو على رأس جبل .

وقال أيضا : إذا رأيت رجلا يحب أن يؤم فأخبره .

## الكلام والمتكلمون

- ٦ -

### المعتزلة

#### تتمة الحديث عن آرائهم :

أسلفنا في الفصل السابق الأصول الخمسة التي اتفق عليها المعتزلة وما تفرع منها من مشاكل هامة ؛ أما بعد ذلك فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافات شتى ، بعضها له نصيب كبير أو صغير من القيمة العلمية ، والبعض الآخر قد بلغ من السخف حدا مضحكا .

فمن القسم الأول مثلا قول الفرقة الثمانية : « والعالم فعل الله بطبعه » ، أو قول الكعبية : « فِعْلُ الرب واقع بغير إرادته » ؛ إذ أن هذين الرأيين متأثران بالفكرة الفلسفية القائلة بِعِلْيَةِ الباري للعالم دون اختيار منه لوجوده أو لعدمه ، وأن الصدور عن المبدع الأول طبيعة فيه لا يملك هو نفسه تغييرها ولا تصييرها قاحلة ، ولا يستطيع أن يخضع الموجودات لإرادته ( تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ) ، لأنها معلولات وجدت علتها كاملة ، فاستحال تخلفها على أى حال .

ونحن لم نعد بعد في حاجة الى مناقشة هذا الرأى ، إذ أننا أسلفنا مناقشته بالبرهان في فصول نشرناها في هذه المجلة حين عرضنا لفلاسفة الاسلام ، فليرجع إليها من شاء .

وكذلك تأثر هذان الرأيان بالفكرة الإغريقية الأخرى القائلة بأن الفرد يُؤلَّد الفرد بطبع فيه لا يملك أحد تأخير . وقد قال بها أرسطو وألح عليها في أكثر من موضع من كتبه ، معلنا أن الكون والفساد متعاقبان على الموجودات تعاقبا آليا متى تحققت شروطه الطبيعية وقع لا محالة . وبهذا كان الوالد علة أساسية للولد . وقد نُقل هذا الرأى ضمن ما نقل من الآراء الفلسفية الى العربية ، فتأثر به المعتزلة وفلاسفة الاسلام . وقد ظهر بوضوح لا يعرف المواربة في فلسفة ابن رشد حيث جزم بأنه هو وحده الصحيح ، وقرر أن الجوهر السابق هو مانح الوجود للجوهر اللاحق دون احتياج الى واهب صور أجنبي ، أى أن كل كائن يولد شبيهه دون افتقار الى فاعل منفصل ، وذلك لأن الجسم المشتمل على صورة في موضوع ، يمكن بوساطة قواه الإيجابية أن يحول المادة الى الحالة التي يجب أن تكون عليها لكي تقبل الصورة الجديدة ، وأن يولد الصورة في هذه المادة المتحولة . وإذا ، فكون الموجودات ، هو متعاقب على فساد ما قبلها بطريقة ناموسية لا تتخلف ألبتة .



ومنها أيضا قول النظامية : « إن الله خلق العالم دفعة ، وإنما التقدم والتأخر في الظهور والكمون » . وهذا الرأي متأثر كذلك بالفكرة الإغريقية التي تقول : « إن جميع أشخاص العالم كامنة في هيولاه ، وإن ظهور هذه الأشخاص ليس إبداعا ، وإنما هو بروز بعد الكمون أو انتقال من القوة الى الفعل » ، لأن كل جزء من المادة مشتمل على جميع صور الأشخاص التي يتعاقب بعضها على بعض من هذا الجزء . ففي قطعة الشمع مثلا : صور المثلث والمربع والمستدير وكل ما يمكن أن يصنع منها كامنة فيها . وإذا ، فوجود المادة الأولى يعتبر وجودا للعالم كله دفعة واحدة مادامت صوره جميعها كامنة في هذه المادة .

أما الآراء السخيفة فنها غير ما أسلفناه في ترجمة زعماء المعتزلة قول الحديدية : « إن كل حيوان مكلف » ؛ أو قول الصالحية « بمجواز قيام العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر بالميت » . فهذه كلها آراء ليس لها أية قيمة في ميدان العلم الصحيح . وكما اختلفت فرق المعتزلة في النظريات العلمية ، اختلفت في الآراء السياسية ، ولكن هذا البحث لا يعنيننا الآن .

### الجبرية :

الجبر عند الجمهور : هو نفي الفعل عن الفرد ونسبته الى البارئ . وعند المعتزلة : هو عدم استقلال الفرد بالفعل . فعلى مقتضى التعريف الأول تكون الجبرية هي الفرق التي سلبت الأفعال عن بنى الانسان ونسبتها الى الله ، كالجهمية والنجارية والضرارية . وعلى مقتضى الثاني تكون جميع الفرق التي لم تقل بجزئية الفرد جبرية . ولهذا عد المعتزلة جميع الصفاتية جبرية . وأيا ما كان ، فانه بينما كان المعتزلة يعلنون أن الفرد يخلق جميع أفعاله الاختيارية ، كانت على الطرف المناقض لهم فرق أخرى تنفي عن الفرد كل اختيار وفعل ، وتصرح بأنه كالريشة المعلقة في الهواء تحركه الأقدار كيف شاءت ومتى أرادت دون اختيار منه ، ولا تسند اليه الأفعال إلا على سبيل التجوز ، فلا يقال : فعل فلان كذا إلا كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغييمت السماء وأمطرت ، وأنبتت الأرض وأزهرت . وقد استشهدوا على هذا الرأي بقول القرآن مثلا : « والله خلقكم وما تعملون » على أن تكون « ما » مصدرية ويكون التقدير : والله خلقكم وعملكم ؛ وهو جزم بالتفسير وبسلب الإرادة البشرية سلبا تاما ؛ وقوله : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ، « ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء » ، « قل كل من عند الله » ، « إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء » .

ولا ريب أن جميع هذه الآيات عندهم صريحة في أن الله هو فاعل كل شيء ، وأن الانسان

ليس إلا آلة مسلوقة الإرادة والفعل، يُجرى الإله بها ما يشاؤه من أفعال، كما يجري الإنسان القطع بالسكين والإحراق بالنار دون أن يكون لهاتين الآلتين أدنى تصرف .

ونحن لا ندرى كيف كان هؤلاء القوم يفكرون، وما معنى التكليف والمسئولية والجزاء عندهم، بل لماذا هم يحترمون العادل أو الشريف ويحتقرون الظالم أو الوضع، مع أنه — لو صح مذهبهم — لما كان للأول فضل في عدالته وشرفه، ولا على الثاني ذنب في ظلمه ووضاعته، ما دام كلاهما مقهورا على فعله وسلوكه خيرا كان أو شرا؟! ولكن السياسة، ولحاها الله، هي أساس الدعاية لهذا الرأي، لأنه لما قام دعاة العباسيين بشن الغارة على أسلاف الأمويين الذين ساءهموا في قتال أشقائهم من المسلمين إبان الفتنة، هرع الأمويون إلى الارتكان إلى القدر المبرم الذي شاء هذا القتال، وصرحوا بأنه لا بد لأولئك المتقاتلين فيما فعلوا، لأن الأقدار أكرهتهم عليه إكراها. وقد استغل القائلون بهذا الرأي مثيلات الآيات التي أسلفناها هنا. غير أن أنصار الدعاية العباسية قد وقفوا على الطرف المناقض من هذا الرأي، فزعموا أن الفرد مستقل بفعله كل الاستقلال، مسئول عنه أدق المسؤولية، كما أننا ذلك في مواضعه من الفصول السابقة .

أما فيما عدا هذا الرأي فالجبرية متفقة مع المعتزلة بوجه عام في أهم ما بقي من الآراء، مثل نفى الصفات، وإمكان المعرفة بالعقل وحده، وعدم إمكان رؤية الله في الحياة الآخرة، وما شاكل ذلك مما أسلفنا آراء المعتزلة فيه . وأولى فرقهم : الجهمية، وهم أتباع جهم بن صفوان . وثانيتها النجارية، وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار . وثالثتها الضرارية، وهم أنصار ضرار بن عمر . وهم كالمعتزلة من حيث إن كل فرقة زادت على سالفها بدعا خاصة بها . وهاك نبذة وجيزة عن كل فرقة منها :

#### جهم بن صفوان :

هو أبو محمد جهم بن صفوان الترمذى أو السمرقندى، وهو من موالى بنى راسب، وقد كان صنيعا بنى أمية يدعو إلى جبريتهم المغالية، ويناضل دعاة خصومهم الذين كانوا ينفشرون مبدأ حرية الفرد، كما أشرنا إلى ذلك آنفا .

ولما أذن نجم الأمويين بالأفول، وكان جهم قد انضم إلى حارث بن سريج ذى الراية السوداء، قتله سالم بن أحوز في سنة ١٢٨ هـ - ٧٤٥ م .

ومن أبرز آرائه بعد المذهب العام، جحدوده أبدية الجنة والنار، وتصريحه بأنه لا يصح وصف الله بصفة وصفت بها المخلوقات كسميع وبصير ومتكلم، لأن في ذلك مشابهة للحوادث، وإنما يصح أن يوصف فقط بأنه قادر، فاعل، خالق، لأن هذه الأوصاف لا تطلق على أى

موجود آخر غيره . ومن هذه الآراء أيضا إثباته علوما حادثة للبارى يوجد كل منها عند وجود المعلوم . وعلل لذلك رأى بقوله : لأنه لو علم ثم خلق ، أفيبقى علمه على ما كان أو لا يبقى ؟ فإن بقي فهو جهل ، فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد . وإن لم يبق فقد تغير والتغير مخلوق وليس بقديم . وإذا ثبت حدوث العلم ، فلا يخلو إما أن يحدث في ذاته تعالى ، وذلك يؤدى الى التغير في ذاته ، وأن يكون محلا للحوادث ، وإما أن يحدث في محل فيكون المحل موصوفا به ، لا البارى تعالى ، فتعين أنه لا محل له ، فأثبت علوما حادثة بعدد المعلومات الموجودة (١) .

الحسين بن محمد النجار - وقد انقسمت فرقته الى عدة فروع ، منها : البرعوسية ، والزعفرانية ، والمستدركة . ومن أشهر آرائه الخاصة قوله : إن معنى كون الله مريدا أنه غير مكروه ولا مغلوب . وتجوزة - بعد نفيه الرؤية - أن يحول الله القوة التى فى القلب الى العين فتدركه بها .

ضرار بن عمر ، وحفص الفرد - هما منشئا فرقة الضرارية ، قد اتفقا على معنى كون الله عالما وقادرا هو أنه ليس جاهلا ولا عاجزا . ولا ريب أن هذه هى سلوب الفلاسفة التى وصفوا بها البارى تخرجاً من التألف الذى يلزم الصفات الإيجابية .

### الصفاتية :

لما كان القرآن والحديث قد وصفا البارى بصفات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والعظمة والجود ، وعزوا إليه ألفاظا هـى فى اللغة موضوعة للجوارح الانسانية كالوجه والعين واليد والأنامل والقدم وماشا كل ذلك ، فقد اعتقد السلف من المسلمين بالنوع الأول من الصفات ، فقالوا : إنه عالم بصفة العلم ، مرید بصفة الإرادة ، قادر بصفة القدرة . أما النوع الثانى وهـو الصفات الخبرية ، فقد انقسموا فيها الى ثلاث فرق ، ذهبت الفرقة الأولى الى وجوب الايمان بها دون البحث فيها ، وقالوا : « إن التنزيل نبأنا بأنه ليس كمثل شىء ، فوثقنا بأنه لايشبهه شىء من الحوادث ولا يشبه شيئا منها ، إلا أننا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ومثل قوله : « خلقت بيدي » ، ومثل قوله : « وجاء ربك » الى غير ذلك . ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثل شىء ، وذلك قد أثبتناه يقينا (٢) » .

وأبرز من عبر عن رأيهم تعبيرا واضحا هو الامام مالك بن أنس ، حيث سئل فى معنى قول

(١) انظر صفحة ٩١ من الجزء الأول من « الملل والنحل » للشهرستانى .

(٢) انظر صفحة ٩٦ من الجزء الأول من كتاب الشهرستانى .

القرآن: «الرحمن على العرش استوى» فقال: «الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والايمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

أما الفرقة الثانية فقد رأت تأويل جميع الآيات التي وردت في الصفات الخبرية. وأما الفرقة الثالثة فقد جزمت بأخذ جميع الآيات الواردة في الصفات الخبرية على ظاهرها، فوقعوا في التشبيه والتجسيم، وساروا فيه الى أقصى حدوده، فزعم بعضهم أن الله جميع الجوارح ماعدا الفرج واللحية. وزعم البعض الآخر أن له شعرا ولحما ودما، وأن جسمه يزيد عن سطح العرش بمقدار أربعة أصابع من كل جهة، الى آخر هذا السخف الذي تأباه العقول المنزنة، بل الفطر السليمة.

وهذه الفرق كلها تسمى بالصفائية لقولها بوجود الصفات. وقد أطلقت على المعتزلة اسم المعطلة لقولها بنفيها. وقد اعتقدت بالكسب المحدود للفرد فتوسطت بين الطرفين المتعارضين: القائل بالحرية المطلقة، والقائل بالجبر المطلق، وأطلقت على نفسها اسم أهل السنة، ولكن خصومها لم يقروها على احتكارها هذا الاسم دونهم؟  
الدكتور محمد غمرب  
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## العلم والعمل

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال، فقال: العلم بالله، والفقهاء في دينه، وكررها عليه. فقال الرجل: يا رسول الله أسألك عن العمل فنخبرني عن العلم. فقال له: إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل.

وقال وهب: ابذل علمك لمن يطلبه، وادع إليه من لا يطلبه، وإلا فثلك مثل من أهدي إليه فأكهة فلم يطعمها ولم يطعمها حتى فسدت.

وقال حكيم: قوت الأجسام المطاعم والمشارب، وقوت العقل الحكمة والعلم.

وقال الزهري: تعلم سنة خير من عبادة سنتين، وثمره الأدب العقل الراجح، وثمره العلم العمل الصالح، وأفضل ما أعطى العبد في الدنيا الحكمة، وفي الآخرة الرحمة.

وقال أبو يوسف: مات لي ابن فأمرت رجلا أن يتولى أمر دفنه، ولم أدع مجلس أبي حنيفة، خفت أن يفوتني منه يوم.

نقول: إن هذا هو أعجب مثال للحرص على العلم، ولكنه ليس بحسن.

# فِي عَالَمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

— ٧ —

طويت إسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالبخوة العربية ، وانتقضت عصور كان يشعر فيها العربي بالسيادة المطلقة ، والأنفة التي لا تحد ، وغدت تلك المظاهر التي لمخناها في العصر الأموي أحلاماً لذيدة ممتعة إذا استعرضها العربي على مخيلته هلل وكبر ، وما إن يفتح ذراعيه لمعانقة ذلك الأمل ، إذا به قد زوى وذبل ، لما يرى من حقائق واقعة ، وشواهد ملموسة .

فلقد جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فكان طبعياً أن تلهج السنة العباسيين جبهة بالمدح والثناء ، وتؤمن قلوبهم من الأعماق بأنهم حسنة من حسنات الفرس ، وثمرة من ثمار جهادهم ؛ بذلك يجاهر داود بن علي عم المنصور فيقول : « يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعةنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجبتنا ، وأظهر بهم دولتنا » .

ويقول أبو جعفر المنصور : « يا أهل خراسان : أنتم شيعةنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » . وحينما حضرته الوفاة أوصى ابنه قائلاً : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم أنصارك وشيعةك الذين بذلوا أموالهم في دولك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتحلف من مات منهم في أهله وولده » .

وكان يقابل ذلك الشعور من جانب العباسيين شعور آخر من جانب الفرس ، ولكنه شعور لا كالشعور السابق ، فلقد تملكهم الزهو ، وسيطر عليهم فرح الانتصار ، وأحسوا بأنهم بناء ذلك المجد ، ومشيدو أركانه ، وبذلك يعلن أبو مسلم الخراساني في إحدى خطبه فيقول : « والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم تخشرون تيمناً مرة ، وعدوا مرة ، وأموا مرة ، وأسديا مرة ، وسفيا مرة ، ومروانيا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون . . . »

ولم يقف شعور الفرس عند هذا الحد، بل طمع أبو مسلم في الخلافة مما أحقد عليه نفس المنصور فقتله ليسلم من شره، وعند ذلك يقول: « وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فخسكنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » .

وكل أولئك لم يززع مكانة الفرس من نفوس العباسيين، بل ما زال شأنهم يعلو صعودا حتى كان لهم ما فاضت به كتب التاريخ مما لا تقصده في بحثنا . والذي يعيننا هنا أن نقرر في غير موارد ولا التواء، أن المتعصبين على العرب وجدوا تربة خصبة مُمسرة الجنب، فراحوا مسرفين في الدم والقدح، دون أن يصادفوا عتابا يقف من غلوهم، أو يلقوا عقابا يحد من طغيانهم؛ فزرى بشار بن برد حامل هذا اللواء، يطلق لنفسه العنان ما شاء أن يطلق، ويرفع عقيرته مفاخرا بخراسان طورا، فيقول:

وهجاني معشر كلهمو      حق، دام لهم ذلك الحق  
ليس من جرم ولكن غاظهم      شرفي العارض قد سد الأفق  
من خراسان وبيتي في الذرا      ولدى المسعاة فرعى قد سمق  
وطورا آخر يفخر بالعجم فيقول:

ونبت قوما بهم رجنة<sup>١</sup>      يقولون من ذا؟ وكنت العلم  
ألا أيها السائل جاهدا      ليعرفني، أنا أنف الكرم  
نمت في الكرام بنى عامر      فروعى وأصلى قريش العجم

ومن عجب أن يقول هذا أمام المهدي وعلى مسمع منه، فلا يعاقبه كما فعل هشام ابن يسار! بل يسأله: « من أي العجم أنت؟ فيقول: من أكثرها في الفرسان وأشدّها على الأقران، أهل طخارستان ». وكثيرا ما تبرأ من الولاء العربي ودعا الموالي إلى نبذ ولائهم للعرب. فهذا هو صاحب الأغاني يحدث: « أن رجلا من بني زيد شريف قال لبشار: يا بشار: قد أفسدت علينا موالينا، تدعوم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء، وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل! فقال بشار: والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعى أذكى من عمل الأبرار، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه! » .

فتلك الجراءة الجريئة التي تشاهدها في كلام بشار حين يتناول العرب مجرحا ومنقصا، ويكيل لهم بأوفى مكاييل الدم طاعنا وقادحا، على مرأى من خلفاء العباسيين وأمرائهم، دون أن يحرك أحد ساكنا فيضرب على يد الباغى ويأخذ بيد المهضوم كما كان ذلك إبان الحكم الأموي، كل هذا يأخذ بيد الناظر السطحي حتى يقف على موطن الداء، ويلبس تهاون العباسيين الذي لم يقف عند هذه التخوم القريبة، بل تجاوزها في لجاج إلى أعماق وأبعد! وكأني بالفلك وقد استدار

دورته ، وراجع صفحة من تاريخه القديم ، تاريخ الجاهلية الأولى في تلك الفترة التي كانوا يتغنون فيها بمفاخر الأنساب ونقاء الأحساب .

وإن الشواهد على ذلك لا أكثر من أن تحصى ؛ فذلك هو عبد الله بن طاهر - وهو فارسي - يفتخر بنسبه في الفرس ، وبأنهم قتلوا الأمين ، فيقول :

أنا من قد تعرفى نسي سلفى الغر البهـ الـليل  
ويقول : انظر المخلوع كلـكـله وحواليه المقـاويل  
فثوى والترب مضجعه غـالَ عنه ملكه غول  
قـاد جيشا نحو نائلة ضاق عنه العـرض والطول  
من خراسان مـصـمصهم كليـوث ضمها غـيل

فانظر كيف يتغنى ابن طاهر بمجده الموروث عن آبائه من الفرس ، والخليفة عربي من بني هاشم !

ولئن كان من السائع أن يفتخر إنسان بنفسه وبمجنسه حتى يبلغ السماء مجدا وشرفا ، ويطاول الجوزاء أنفة وعزا ، فلا يسوغ له أن يفخر بملاء شذقيه بأن قومه قتلوا الأمين وطوّحوا به عن عرش الخلافة ، والمأمون بين الطرب والإعجاب راض عن كل هذا دون أن تأخذه الغيرة لأخيه !! وليس هناك من باعث على كل هذا سوى الحرية المطلقة من كل قيد ، وذلك ما أدى بالعباسيين الى تفلت الأمر من يدهم ، وما غبنهم الفارسيون ولكن كانوا أنفسهم يغبنون . ولا عجب فقد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجيين الى حد أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح !!

فمن ذلك ما يروى أن دعبلًا حين هجاه بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجـز أو ما رأى بالامس رأس مجد

الى أن يقول :

إني من القوم الذين سيوفهم قتلـتْ أخاك وشرفـتك بمقـعد  
شادوا بذرك بعد طول خمـوله واستنقذوك من الحضيض الأوهـد

لم يزد على أن قال : « قاتل الله دعبلًا ، متى كنت حاملا ، وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفي مهدها ربيت » !!

بذلك وأمثاله أخذ الفرس ، طليقين من كل عقـال ، يعنون في تنقيص العرب والخط من شأنهم ، فيرد العرب قولهم بمثله ، وربما كان أفضـع وأفـذع .

من ذلك قول فارسي :

بهاليل غرّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا ، لا من عُرينة أو عُكل  
هو راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا ، لا راضة الشاء والإبل  
وهكذا نجد ذلك العصر الذي نتحدث عنه مصدر يمن ومنبع خير للأدب العربي ، وإن  
كان معول هدم للعرب أنفسهم ؛ وذلك ما استراه فيما بعد ؟  
أحمد إبراهيم موسى  
تخصص البلاغة والأدب

### ملاحظاتنا على هذه المقالة

إننا ننشر هذه المقالة لا لأننا نعتد بما جاء فيها ، ولكن لنعقب عليها بما لا بد منه ، فإن  
التشكيك في إخلاص بعض العناصر المكونة للأمة الإسلامية ، يسجل على الاسلام الفشل  
في تكوينه أمة ائتلافية عالمية ، ويشكك الناس في كل مايجيء عن تلك العناصر المتهمة من دين  
وفهم ونظر . وماذا أنت قائل إذا علمت أنهم هم الذين تولوا في فجر وجود الاسلام مهمة تأصيل  
أصوله ، ووضع علومه ، وتفسير كتابه وجمع سنته وتدوين تاريخه ؟

ألا إن الماضي في هذه الفتنة الى حدودها المنطقية ، يشن على الاسلام شبهة عجيز عن شنها عليه  
خصوصه في مدى تاريخه كله ، ويعيد لهذه الأمة التزعة القومية ، وهي ما جاء الاسلام لإزالته ،  
وبناء رأى جديد في وحدة البشرية على أنقاضه . فهذا الرأى التجديدي العالى الشأن الذى  
انفرد الاسلام بالدعوة إليه ، وهو في الوقت نفسه من أدل الأدلة على إلهيته ، يحاول المتأدبون  
اليوم انقيادا لشهوة خيالية أن يحطموه ، وهم لا يعلمون أنهم يحطمون معه أقوى دعامة  
للالسلام ، يقوم عليها وجوده ، وتبنتى عليها صحته ، وتشاد عليها الدعوة إليه في هذا العصر .

لذلك رأينا أن ننشر هذه المقالة ونتبعها بما نراه مزيلا للبس في هذه الناحية ، راجين  
من وراء ذلك الدفاع عن الاسلام نفسه ، الذى وضع لتوحيد النوع البشرى أقوم الأصول  
الاجتماعية ، ونجح في ذلك الى حد أن اعتُبر ذلك منه آية خالدة . فنقول :

تمهيد :

أرسل الله خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، كما قال : « وما ارسلناك إلا كافة  
للناس بشيرا ونذيرا » ، فأمن به عرب وفرس وترك وديلم وسودان وحبشان وروم الخ الخ ؛  
وكان هذا الامر انقلابا عالميا ضخما ، لم تكن تحلم به الشعوب ، ظهرت آثاره في الأمم ،  
فأحدثت فيها انتقالات أدبية واجتماعية غيرت وجه الأرض من حال الى حال آخر .

وكان من الشعوب التى شاع الاسلام فيها ، الفرس ، وهم قوم كانت لهم قُدْمة في العلوم



والآداب والسياسة ، فسبقوا غيرهم من الشعوب الاسلامية في النظر والتفكير ، والبحث والتمحيص ، ونبغ منهم أئمة فسروا الكتاب ، وأقطابٌ حفظوا سنة الرسول ، وأعلامٌ جمعوا لغة العرب ووضعوا علومها وآدابها ، وبرّز رجال آخرون منهم في كل مجال من مجالات النشاط العقلي في كل ما يتصل بالدين والدنيا معا . فلم يشعر سائر المسلمين ومنهم العرب ، وكانوا أشد الناس تمسكا بالنعرة القومية في جاهليتهم ، بمحض من ذلك ، لأنهم لو كانوا شعروا بذلك لاسقطوا إمامتهم ، وحقروا زعامتهم . ولكن كيف كانوا يسقطون الى هذا الخضيض وقد محا الاسلام من نفوسهم التعويل في مجتمعاتهم النموذجي العالمي على الاختلافات الجنسية واللغوية واللونية ؟

ذكر السخاوي في شرح ألفية الحديث للعراق أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي قال للزهرى : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال بما سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حققت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن . فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سُمي له رجلا كان هشام يسأله : هل هو عربي أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، الى أن أتى على ذكر النخعي ، فقال إنه عربي . فقال هشام : الآن فرجت عني ، والله ليسودن الموالي العرب ويحطب لهم على المنابر . »

ولما حضرت عمر الفاروق الوفاة ، أوصى أن يصلى بالناس صهيب وهو الذى صلى عليه بعد وفاته ، وكان يريد أن يصلى عليه على عثمان فمنعهما ابن عمر احتراماً لوصاة أبيه ؛ وصهيب هذا أصله رقيق رومى .

كان كل هذا جرياً على المبدأ الاسلامي في عدم جواز التفرقة بين الأجناس .

مضى الصدر الأول على هذا ، والصدر الأول هو الحال النموذجية التي يجب أن يكون عليها المسلمون في جميع أدوارهم ، باعتبار أن دينهم عام لجميع الأمم ، وأنهم يؤلفون نواة الأمة العالمية التي يجب أن يكون عليها البشر .

ولكن لما انقضى عهد بنى أمية ، وتوطدت أركان الدولة الاسلامية ، وشرع الناس في اقتباس ما يحفظ الاجتماع من العلوم والفنون والصناعات الضرورية للعمران ، جاء دور الأدب ، والعربية مجال فسيح له ، فكثرت عدد الكتاب والشعراء كثرة لم يوجد مثلها لاية أمة . وهؤلاء كما لا يخفى يجرون وراء كل جديد من المعنى يبتكرونه ، وكل طريف من الموضوعات يخلقونه ، فلم يتركوا مجالاً يمكن أن يكون موضوعاً لشعرهم ونثرهم إلا جالوا فيه . وكان منها موضوع الشعبوية الذي نحن بصددده . وكيف يعقل أن يفلت منهم هذا الموضوع ، وجرتومته كانت لا تزال حية في النفوس ، لا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بل بين بعض

العرب وبعضهم الآخر ؟ فقد كانوا يتفاضلون بقبائلهم ، وأشعارهم خاصة بما نقول . فأى مطلع على نتائج الأدب لا يعرف أن العرب كانوا يضعون من باهلة وسلول وغيرها ؟ ألم يقل السموأل :  
وإنا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول  
أو لم يقل جرير :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولم يكن العرب وحدهم على هذا ، ولكن كانت عليه جميع الشعوب أيضا . فهل يعقل وقد جاء عهد الأدب في الاسلام أن لا تثار هذه المسألة بين المتأدبين ، وأن لا يتخذها بعضهم مادة لأشعارهم ، وكثير من المواضيع موضوعا لمفترياتهم ؟ وهل كنت تحب أن تخلو من هذه الأقايص كتب المحاضرات ، وهى تقمش كل ما تجده بدون نقد ولا تمحيص ، وتملأ منه صحفا لتذيعها طرقا للقارئ ؟

ولما نشأت في مصر للأدب دولة في العهد الأخير ، وجدت من كتب المحاضرات موردا عدا في هذا الموضوع ، فأخذته بحذافيره ولم تسر عليه الأسلوب النقدي التمحيصى ، ف وقعت في حياثل تلك الكتب ، وزادت ما فيها صقلا بما اكتسبته من ألمعية الأدب الحديث ، فلم لا يكون موضوع الشعوبية بابا من أبواب الأدب لدى النابتة التى تستمد من حياض أدبائنا البارزين ؟ المقال الذى نعقب عليه هنا مثال حى لما نقول .

### مناقشة المقالة التى نحن بسبيلها :

يقول الأستاذ الكاتب : « لقد طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة !!! الخ الخ » .

يقول هذا ولا ندري كيف لم ير أن الدولة الأموية نفسها التى يشيد بذكرها ، لم تكن متأثرة بهذه النعرة القومية ، فلم يفرق الناس على عهدها بين العربى والاعجمى ، حتى إنهم لم يمنعوا الاعاجم من السيادة الدينية ، وقد بلغت أوجها على عهدها ، كما يتبين لك ذلك مما قدمناه هنا . فهل نحن أكثر منهم فهما لمعنى النخوة العربية ؟

ولست أدري كيف يسوغ لمسلم أن يلفظ بكلمة ( نخوة عربية أو سيادة عربية ) ؟ فهل هى شئ غير نعرة القومية الجاهلية التى نهى الاسلام عن ذكرها ؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « قد أذهب الله عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟

وقال الأستاذ الكاتب : « جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فكان طبيعا أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بمدحهم والثناء عليهم الخ الخ » ثم استدلل على قوله بما فعله

عم المنصور والمنصور نفسه من الإشادة بذكر أهل (خراسان) . فهل غاب عنه أن خراسان ليست إلا إقليمًا واحدًا من أقاليم المملكة الفارسية المترامية الأطراف ، وأن أهلها لا يبلغون عشر الأمة الفارسية ، فكيف ساغ له أن يفهم من ثناء العباسيين على أهل خراسان ، ثناءهم على الفرس قاطبة ؟ وهل كانت خراسان في نظر أي مسلم من أهل العصر الأول إلا ولاية إسلامية كنجد واليمامة وتهامة الخ ، وإن كان أهلها فارسيين ؟

ومما يدل على أن شيئًا مما تخيله من طغيان النزعة القومية للفرس لم يحصل ، أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، وهو أرفع رأس كان في خراسان ، فلم ينتطح فيها من أجله عتزان ؛ ليس ذلك لأن المسألة لم تكن نزعة عضوية يتبارى فيها العرب والفرس ، ولكنها كانت جامعة إسلامية لا ترى للجنسيات فيها موضعًا ، وهي المعجزة الخالدة للإسلام الذي يحاول أن يهدمه بعض أهله اليوم (على غير علم منهم) ولا يستطيعون ؟

ومن عجب أن الأستاذ يستدل بشعر بشار على أنه كان يتقصص العرب في الحين الذي يستشهد بقوله :

نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

فهو كما ترى يفتخر بولائه لبنى عامر ، ويصفهم بالكرم ؛ وفي الوقت نفسه ينقل عن الأغانى (ومؤلفها فارسي) أن رجلاً قال لبشار : « أفسدت علينا موالينا تدعوم إلى الانتفاء منا الخ وأنت غير زاكي الفرع ، ولا معروف الأصل » ، فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أذكى من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه »

كأن الأستاذ كان يود أن يسب العربي بشاراً بقوله : إنه غير زاكي الفرع ، ولا معروف الأصل ، فيقابل به بشار بالثناء والشكر ، ليدل بذلك على أنه غير متعصب لجنسه !

على أن بشاراً هذا أمر الخليفة المهدي بقتله حين بلغه أنه يميل للزندقة ، فلقى حتفه ، وهو أول من نقل الشعر العربي من سذاجة البداءة ، وأفاض عليه رواء الحضارة .

واستشهد الأستاذ على ما ذهب إليه من طغيان النعرة الفارسية بما قاله عبد الله بن طاهر مباهاياً بقومه ، ومتممداً بأنهم قتلوا الأمين بن الرشيد :

أنا من قد تعرفى نسبي سلفى الغر البهاليل

وقال مفتخراً بقتل الأمين :

فشوى والترب مضجعه فال عنه ملكه غول

فإذا افترضنا أن نسبة هذا الشعر لعبد الله بن طاهر غير مشكوك فيها ، وأن المأمون

علم بذلك ولم يحرك ساكنا ، وأن دعبلا الشاعر هجاه وافتنخر بقومه فلم يكثر له ، وأن فارسيا افتخر بقومه وتنقص العرب بقوله :

هم راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا لاراضة الشاء والابل

إذا افترضنا أن هذا كله صحيح وليس من وضع الوضاعين ، ( وقد وضعوا آلاف الأحاديث النبوية ، والحكايات الخرافية ، ووضعوا المعلقات ، وزادوا في اللغة ما ليس فيها ) ، أفلا يتجه اللوم فيه الى أمراء المؤمنين أنفسهم ، بل الى الأمة العربية بأسرها ، وقد غضت طرفها عنه ، وتركته يتغلغل في كيانه حتى هدم العرب وأسقطهم ، وأدال للفرس منهم ؟ وهل هو بهذا يريد أن يذم العرب أم يمدحهم ؟

اللهم إن صح هذا فيكون أول ظاهرة اجتماعية من نوعها في تاريخ البشر . ذلك أن تطفئ النزعة القومية في شعب من شعوب أمة ائتلافية كالأمة الاسلامية ، فتتفوق على جميع تلك الشعوب من طريق الخداع وإضمار سوء النية ، لا من طريق فضائلها الذاتية ومميزاتها الشخصية ، ثم يبقى هذا التفوق معترفا به ، ومرضيا عنه ، في أدوار تاريخها كله الى عهدنا هذا ، حتى يقوم بعض المشتغلين بالأدب منا فينبه اليه ، فلا يأبه بهم أحد ! نعم ، لأنك لو سألت أية جماعة إسلامية في أية بقعة من الأرض ومن بينهم العرب ، فقلت لهم : من هم سلفكم الصالح الذين حفظوا القرآن والسنة وآراء الصحابة ودونوها وبوبوها وشرحوها ولقنوها للشيوخ والأئمة ؟ لعدوا لك عشرات من الأسماء في مقدمتهم : الحسن البصري وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وسليمان الأعمش وعبد بن سيرين ومجاهد وسليمان بن يسار وعطاء وطاوس ويحيى ابن أبي كثير ومكحول وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن سالم ومحمد بن المنكدر ونافع وربيعه الرأي وابن أبي الزناد ووكيع وابن أبي ليلى وسفيان بن عيينة ، الخ الخ ، وكلهم من الفرس أو من شعوب شتى .

هذا الانحراف الخطير لدى النابذة الأدبية لدينا ، نشأ من خطأ جلل وقع فيه الأديب الكبير الدكتور طه حسين ، ونشره في كتابه ( الشعر الجاهلي ) ، فتلحقه طلاب الأدب في البلاد الشرقية ومضوا فيه قدما لا يلوون على شيء . فقد قال الدكتور المذكور في كتابه ذلك ما موجزه بالفاظه :

« لم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبي الفرس قد استعرب وأتقن اللغة ، واستوطن الأقطار العربية ، فأخذ هذا الشباب الفارسي الناشئ يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر ، وتجاوز هذا الى مشاركة العرب في أغراضهم الأدبية والسياسية ، ولم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقا ، وإنما كانوا يستغلون هذه الخصومات السياسية ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ، ثم ليشفوا ما في صدورهم من غل ضد العرب .

ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالى ، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس أيضا ، وكانت غايتهم قد استحات من إثبات سابقة الفرس في الملك الى ترويح هذا السلطان الذى اكتسبوه أيام بنى العباس ، وإقامة الأدلة على أن الأمر قد رد الى أهله ، وأن العرب الذين حيل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلا لتلك السيادة . الخ .  
نقول :

الذى يستخلص من هذا الكلام أن هؤلاء الموالى قد عمتهم روح الشر ، فلم يكونوا مخلصين في عملهم ، فهبوا ينظمون الشعر ويتدخلون في السياسة ، ويطلبون العلم ليستعيدوا ما كان لقومهم من سيادة على العرب ، وليشفوا ما في صدورهم من غل عليهم ، وقد نجحوا في ذلك بملاة الوزراء لهم ، وكان جلهم من بنى جلدتهم .

هذا كلام في نظرنا بعيد عن التحقيق ؛ فانك رأيت أن هؤلاء الموالى نالوا السيادة العلمية على عهد بنى أمية ، ولم يكن إذ ذاك وزراء من الفرس يؤيدونهم ، بل كان الأمر كله بيد العرب ، ولم يشعر العرب أنفسهم ، وهم أهل ذكاء وفطنة ، أن هؤلاء الأئمة الاعلام من الفرس الذين توزعوا سيادة الأقطار في العلم كانوا يضرون السوء لهم . ويبعد عن العقل أن أمة برمتها في يدها الحكم تغبى عن نية شر تضمرها لهم فئة فتخوهم قيادتها العلمية ، وسيادتها الدينية ؛ كما يبعد عن العقل أن تجمع هذه الفئة على هذه النية الفاجرة ولا يفتضح أمرها لهذه الأمة في الاجيال المتعاقبة ، فتبقى على احترامها لهم ، وتبقى على اعتبار أفرادها أئمة لها في الدين الى هذا العهد ، حتى يقوم منا أديب بعد مضي ثلاثة عشر قرنا فيكشف عن دخيلة أمرهم ، فلم يكثر بما كشفه أحد ، ويمضى الناس في احترامهم الى أبعد حد !

إذا فاز أدباؤنا المعاصرون بترسيخ هذا الخيال في العقول ، فبأى عين ينظر الناس الى علومنا الدينية وجل وُضْعَتها ومؤلفيها من الأعاجم ؟ فهم الكثرة الساحقة للفقهاء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والمتكلمين ، وكتبهم عليها التعويل في جميع معاهد العلوم الدينية في العالم كله ، في التدريس والتحقيق والفنوى الى يومنا هذا ؟

وإذا عرفت أن العالم كله في العصر الراهن اعترف بعظم شأن النهضة الدينية والعلمية والأدبية للمسلمين الأولين ، واعتبروها من الانتقالات الجديرة بالاجلال والاكبار ، فهل كانت هذه النهضة في جلالها وعظمتها قائمة على هذا الأساس المتداعى من الضمائر التى دنستها السخائم ، والقلوب التى أفسدها الأحقاد ؟ !

اللهم إن هذا لا يستقيم لعاقل ، ولا يمكن أن يعتبر رأيا جديرا بالاحترام . فلنقلع عن هذه الخيالات إن كان بنا الى سمعنا العلمية والعقلية حاجة !  
محمد فريز ومجدي

# نظرات في الادب العربي

جاهليته وإسلاميه

— ٥ —

الادب العصري

لسنا هنا بصدد تفصيل القول ، واستقراء مناحيه ، في أنواع الأدب ، وحظ كل نوع منه من النهوض ، وقسطه من الضعف ، فوضع ذلك معاهد التعليم ، وحجرات الدرس ؛ إنما هي نظرات يسودها الإجمال ، وتغلب فيها الأحكام العامة ، ليخف تتبعها ، ويسهل تناولها على قراء المجالات ، وسوادهم الأغلب ليس من همه فلسفة التعليل ، والتعمق في استقراء الأسباب ، والتدقيق في إفضاءها الى المسببات ، إلا على حال تغنى فيها غلبة الظن ، عن نشدان اليقين ؛ إن صح أن في القضايا الأدبية يقينيات ينقطع عندها حبل الشك ، ويتم بإيرادها إيمان الباحثين . على أننا على استعداد لأن نجادب من ينازعنا الحديث أطراف البحث فيه ، حتى ننتهي الى حد يحسن السكوت عليه ؛ فالظماؤينة العالمية ، والرجوع الى الحق ، وتحكيم الحجة ، دستور غير مكتوب ، ليس لمن خرج عليه رأى محترم ، ولا مذهب منتهج ، في شريعة العلماء ، وأصحاب الفنون .

في غضون ما أسلفنا من فصول هذه النظرات ، أن التزام عمود الشعر العربي الجاهلي والاسلامي ، شرط أساسى في تقويم الشعر ، واعتباره في نظر الناقدين ؛ وأن الشعر مع ذلك خاضع لنا موس التجديد ، يهود ويسمو كلما استطاع الموازنة ، بين الصور القديمة ، والصور الحديثة ، وإلباس المعانى المتجددة ، مطارف الأساليب العربية القشبة ، التى لا تخلق على تطاول الأيام ، ولا تبلى على قدم الدهر ؛ بل :

يزيدها قدم الليالى جدة وتطاول الأيام حسن شباب

ويسقط ويسف ، كلما جمد على القديم ، وبدا في ثياب من أكفان الموتى ، وكلما تمرى من ثيابه التقليدية جملة ، وخطر فى زى « كرنفالى » غريب عما ألف ، بعيد عما عرف .

ولا شك أن المرحوم محمود سامى البارودى باشا ، يعتبر بحق مؤسس دولة الشعر فى العصر الحاضر ، الىه انتهى العهد التقليدى البحت ، وبه ابتداء العهد الذهبى للشعر العصري ، فلا عجب إذا غلبت على شعره النزعة التقليدية ، وكادت تستبد به مجازاة السلف الكريم من الشعراء ، فانه من عشائهم درج ، وفى مدارسهم تخرج ، وما الحب إلا للحبيب الاول . بيد أنه قد

انتقل بالشعر من المجال الضيق المحدود في الأساليب والمعاني والأغراض ، الى أفق أرحب ، وجو أفسح ، وفيض غير محدود من جزالة الألفاظ ، ونخامة المعاني ، واتساع الأغراض ، وطول النفس ، مما كاد به يبذ خول السابقين ، ويحمل خول اللاحقين ؛ وما قرأت مطلع قصيدته في رثاء أبيه :

لا فارس اليوم يحمى سرحة الوادى طاح الردى بشهاب الحرب والنادى  
إلا ذكرت به مطلع قصيدة الشريف الرضى في رثاء أبيه :

منابت العشب ، لاحام ، ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع  
ولا قرأت حماسه ، وذكر مواقفه الحربية ، إلا تخيلت أبا فراس الحمداني يتكلم .

ولو نزع غلاف ديوانه ، وغناوين قصائده ، لردّه قارئه الى العصور الذهبية للشعر العربي . وعلى الجملة لقد كان البارودى رحمة الله عليه ، عباسيا بشعره ، عصريا بزمّنه .

\* \* \*

عاصر البارودى شعراء أعلام ، رفعوا لواء الشعر خفقا ، وتبوءوا من منازل عروشا مُشْرِفة منيفة ، بوأتمهم إياها ثقافتهم التي جمعت بين القديم والجديد ، فأتوا بالمطرب المرقص من أفانين البيان ؛ وكان أبرز هؤلاء ، المرحوم اسماعيل صبرى باشا ، فقد تلقى علومه في قرنسة ، وكان لذلك الأثر البارز في شعره : معانيه وأساليبه وأخيلته ؛ ثم في توجيهه ، إذ جعله جميعا من النوع الرقيق المشاكل لتلك العاطفة الناعمة ، والحاشية اللينة ؛ والذي لا يصلح أحيانا لأنواع من الشعر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان السبب الأول في عدّه من الشعراء المقلّين ؛ وإن كان على إقلاله من المبدعين ، وفي الصدر من المجددين .

ثم جاء شوقي فلأ الدنيا ، وشغل الناس ، كما ذهب القول في المتنبي ؛ وكان — بحق — أمير الشعراء ، إذ ضرب بالسهم الأوفر في كل فن من فنون الشعر ، وقطع ، وقصد ، ورّجز ؛ فهو الشاعر الكامل في نظر النقاد ؛ وهو في كل أولئك ، يبلغ من الإجادة فوق الإرادة . وأقسم ما قرأت من قصيدته النبوية ، التي مطلعها :

به سحرٌ يُتَيَّمُهُ      كلا جفنيك يعلمُهُ  
هما كادا لمهجته      ومنك الكيد مُعْظَمُهُ

قوله :

بروحى البان يوم رنا      عن المقدور أعصمُهُ  
ويوم طعننت من عُصن      مُعَلَّمُهُ مُنْعَمُهُ

قَضَاءُ اللَّهِ نظرته ولطفُ الله مَبْسَمُهُ  
رمى ، فاستهدفت كبدي بنى الراى ، وأَسْهَمُهُ !  
له من أضلنى قاعٌ ومن عجب يسلمه  
ومن قلبى وَحْبَتِيهِ كِنَاسٌ بات يهدمه  
غزال فى يديه التَّيْسُهُ ، بين الناس يقسمه  
كَأَنَّ أباهَ مَرَّةً بأحمد الهادى يكلمه

إلا قلت : هذا ما أرادت الشعراء أن تقولوه فأخطأته ، وبكت الديار ، ووقفت على الأطلال ، وهو الفُسْتُقُ المَقْشَرُ الذى لا يشبع منه ؛ لا شعر عمر بن أبى ربيعة ، كما قال الأولان .

هذا مثل من رقيق شعره ؛ فأقرأ بعد ذلك من قصيدته : « الحرية الحمراء » ، لترى مثلاً من الجزالة والفخامة ، يملؤك روعة ، ويهرك جلالاً ؛ وتعرف من هذا وذاك ، ومن غير هذا وذاك ، أنك أمام شاعر ، يستطيع إذا شاء أن يسمعك غرد البلابل ، وقصف الرعود ، ويريك نسج الربيع فى مطارف الروض النضير ، ومواقع القنا والسيوف فى الأعناق والنحور .

وجرى فى حلبة هؤلاء الفرسان الثلاثة ، مصّون كانوا يجاذبونهم هُذب الإِجادة ، وبجارونهم فى ميادين الإبداع والإحسان ؛ أدركناهم ، وقد ملئوا الوادى السعيد غرداً وسجراً ، يسمى شعراً ؛ وكان لهم فى مطلع كل موسم جولة ، وفى كل حادث صولة ؛ وكانت دولة الشعر بهم قائمة السوق ، وسوقه بهم دائمة النفوق .

لما تصاعدت دراكا هذه البدور اللوامع الى سماء الآخرة ؛ استيقظ فى نفوسنا الأمل فى أن البقية الباقية من الشعراء الأحياء فى مصر ، وهم بحمد الله كثيرون ، سيمثلون الثغور التى خلت فى دولة الشعر ، وأن هذه الكواكب المتلألئة ستبدر فى آفاقه ، التى خلاها بدورها ، وأن أولياء الشعر سينشدون فآخريين :

بدور سماء ، كلما انقضَّ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه

ولكننى أخشى أن أقرر أن شواهد الحال الى اليوم ، لا تعين على تحقيق هذا الأمل ، إلا فى شكل مصغر ؛ فلقد فتر الشعر فتوراً يشبه الجود ، ولم ينشط منه إلا النوع الغنائى ، الذى هو من قبيل الموشحات والأزجال فى أغلب الأحوال ، والذى لا يعد من الشعر إلا على ضرب من التساهل ؛ بل لقد نُظمت أخيراً مسابقة ، فاز فيها وشّاح واحد ، بجانب ثلاثة من الرجالين . ولقد زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ؟ بهذه الحرب الضروس ، فلم نقرأ فيها من الشعر ، إلا هذه المنظومات المهلهلة التى تطلع بها علينا الصفحات الأدبية من الصحف اليومية ، وغنائتها وضعفها مما يسىء الى الشعر ، أكثر مما يحسن



إليه . وليس معنى هذا أنه ليس في مصر شعراء ، كلا ، فالشعراء المجتودون في مصر كثيرون ، سأعرض لبعضهم فيما يلي إن شاء الله ؛ غير أن الظاهرة العجيبة ، أن هؤلاء الشعراء قد أحبلوا ؛ واكتفى أكثرهم من الاتصال بالشعر ، بأن يعيد نشر ما سبق إنشاؤه ونشره في المدة التي كانت مزدهرة بالشعراء الراحلين ؛ ولولا ما لهم من المسكنة السامية في نفسى لذكرت أسماءهم ، وعناوين قصائدهم ؛ ولكننى أدع ذلك لوجه الأدب ، وأستخدمه سلاحا في مضايقتهم عند اللزوم .

أما تعليل هذا القصور ، وبسط ما يترجح عندى من أسبابه ، فوعده الحديث الآتى ، فلقد طال بنا هذا الحديث ؟

كلية اللغة العربية    عبد الجواد رمضان

## كلمات حول الجود

قال على كرم الله وجهه : السخاء ما كان ابتداء ، فأما ما كان عن مسألة خفاء .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما لابن أخيه : أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة ، فإذا سألك فأنمأ تعطيه ثمن وجهه حين بذله لك .

قال شاعر في هذا المعنى :

ما اعتاض بأذل وجهه بسؤاله      عوضا وإن نال الغنى بسؤال  
فإذا السؤل مع النوال وزنته      رجح السؤل وخف كل نوال

وقال غيره :

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت      من ماء وجهى إذا أفنيت عوصا  
وقيل موجزا : أجل النوال ، ما وصل قبل السؤل .

وقيل : أولى الناس بالنوال ، أزهدهم في السؤل .

ومما نسب الى على كرم الله وجهه من الشعر ولا نظن أنه له :

سامنح مالى كل من جاء طالبا      وأجعله وقفا على القرض والقرض  
فأما كريم صنت بالمال عرضه      وإما لثيم صنت عن لومه عرضى

في عجز البيت الأخير نظر ، فإن الرضوخ للؤماء قد أوجد في الشرق طائفة تتجر بالهجاء ، وقد استهتروا فيما هم فيه حتى فرضوا على الناس الاتاوات ، فهؤلاء يجرم إعطاؤهم ليقبلوا عما هم فيه ، وإلا اعتبر معطوهم شركاء لهم في إفساد المجتمع .

# حياة حلالته السيدة الزهراء

عبد الله بن الزبير

أمة من البطولة في إهاب رجل ، وعبقريّة موروثه ، ونفس طموح ، وروح وثاب ، وهمّة دون غايتها مناط الجوزاء ، أحوج ما يكون شباب الاسلام في عصرنا الحاضر الى التأسى به في عصاميته التي جعلت منه شخصية نافست دولة استقام لها الملك على أطراف الاسنة وشبا الصوارم ، ولكنها عوامل التربية الاسلامية ، لا يستعصى عليها إعداد الإبطال وقادة الأمم إذا أخذت بزمامها يد صالحة ، واستقيت من منابعها الفياضة بالحياة الزاخرة بمخايف النفوس ودفعها الى الحرص على الموت لتوهب لها الحياة ، بل هي مدرسة المرأة المسلمة في بيتها إذا أخذت بقيادها امرأة كأسماء بنت أبي بكر الصديق والدة عبد الله بن الزبير ، فإذا هي مصنع الرجولة في أكل معانيها وأسمى مبادئها .

في صحيح البخاري أن ابن عباس وصف عبد الله بن الزبير فقال : « عفيف الاسلام ، قارئ القرآن ، أبوه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت الصديق ، وجدته صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمّة أبيه خديجة بنت خويلد » . فهو قد أخذ بأطراف المجد والسيادة في حسبه ، وشرف بأعظم الفضائل في نسبه ، وزكت نفسه فاستشرف الى أريكة الإمامة العظمى حتى إذا كان منها إجماعية قاب قوسين أو أدنى ، غلب القضاء ، وبلغ الكتاب أجله ، ولقي أبوخبيب ربه شهيدا مجاهدا في سبيل الحق والعدل ، فكان مثلا مضروبا للعزة الاسلامية ، والبطولة العربية .

ولد عبد الله بن الزبير حين شب الاسلام واستقامت قناته ، وقويت شوكته ، وأخذ يناضل الوثنية بالسيف ، ويخوض في سبيل الحق غمرات الموت مجنده الغر البهايل ، فكان أول ما تفتحت حواس عبد الله أن شهدت مواقع العزة والنضال ، وسمع أول ما سمع أنباء غزوات الاسلام واستبسال أبطال الاسلام ، وفي طليعتهم أبوه الزبير بن العوام . روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : « كنت يوم الأحزاب جُعِلت أنا وعمر ابن أبي سلمة في النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف الى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت : يا أبت رأيتك تختلف ، قال : أو هل رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأت بنى قريظة فيأتيني بخبرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، فقال : فذاك أبى وأمى » .

رأى ذلك عبد الله ورأى غيره ، وسنه لم تعد الخامسة ، فكان كل أوائلك مخضاً لحياته منذ تنفس في المهد . يحدثنا الثقات من كتاب السيرة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما حملت بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالت : فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة ونزلت بقباء ، فولدته بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره ، ثم دعا بتمره فمضغها ، ثم تقل في فيه ، فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بالتمر ودعا له وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد في الاسلام للمهاجرين بالمدينة . قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب : « وقد فرح المسلمون بمولده فرحاً شديداً ، وكبروا حينما بشروا به ، لأن اليهود قالت : قد أخذناهم ( سحرناهم ) فلا يولد لهم بالمدينة ولد » .

ولم يكد عبد الله يبلغ سن الترغيب في تعود العبادة والخير طفلاً يلعب مع لداته ، حتى أمره أبوه الزبير أن يذهب ليبيع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء بركته له ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم تبسم له وبايعه وهو ابن سبع سنين . وكان عبد الله منذ نشأته جريئاً شجاعاً مقداماً ، لا يهاب ولا يفزع . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم في غلظة من قریش ترعرعوا : عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن أبي سلمة ، ف قيل : لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر ! فأتى بهم اليه ، وكانهم تكلمهم ، فاقترح عبد الله ابن الزبير أولهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنه ابن أبيه » ! وكان أبوه كما أسلفنا من أشجع وأجراً أبطال الاسلام ، وهذا سر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه ابن أبيه »

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يمر في إحدى سكك المدينة ، وأطفال فيهم عبد الله بن الزبير يلعبون ، فلما رأوا عمر تفرقوا سوى ابن الزبير فإنه بقي في مكانه لا يريم ، فقال له عمر : لم تذهب كما ذهب أترابك ؟ فقال عبد الله : لم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك يا أمير المؤمنين ، ولم أكن مذنباً فأخافك ! ! وهكذا نرى شخصية عبد الله وهو في غرار الصبا وكن الطفولة قوية متينة ، زاه شديد المراس ، قوى الشكيمة ، لا يستخذي ولا يلين ، ولا يسمع لغير صوت ضميره ، ولا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، يبعث أشد البغض حياة الجود والاستسلام ؛ وقد نبأه النبي صلى الله عليه وسلم بشأنه في كلمة جامعة : روى أبو يعلى والبيهقي « أن عبد الله بن الزبير حدث ابنه عامراً ، أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتجم ، فلما فرغ قال : يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد ؛ فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد الى الدم فشربه ، فلما رجع قال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ما صنعت بالدم ؟ قال : جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ؛

قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ، قال : ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك ، وويل لك من الناس ! لا تمسك النار إلا تحلة القسم . قال بعض التابعين : فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تجاوز سن عبد الله بن الزبير التاسعة ، كما صرح به الإمام الشافعي في الرسالة ؛ وتولى جده لأمه أبو بكر الصديق الخلافة ، وتوقف بنو هاشم أول الأمر عن بيعته لما كانوا يرون من حقهم فيها ، وانحاز إليهم في ذلك أبو عبد الله الزبير ابن العوام لمكان أمه صفية بنت عبد المطلب من الدوحة الهاشمية . وذكر الرواة أن عمر بن الخطاب ذهب إليهم في عصابة من الأنصار فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أشيم ، فقالوا لهم : انطلقوا فبايعوا أبا بكر ، فأبوا ، فخرج الزبير بالسيف ، فقال عمر : عليكم بالرجل نخذه ، فوثب إليه سلمة بن أشيم فأخذ السيف من يده وانطلقوا به ، فبايع ، ثم بايع بنو هاشم .

لم تسمح سن عبد الله في هذا الوقت بتكليف موقفه من خلافة جده الصديق وموقف أبيه منها ، ولم يكن الزبير ليحطب في جبل الهاشميين بانحيازهم إليه ، ولكنه كان يطلب المجد لنفسه متربصا به سوانح الشهز حتى أتيت له في رهط الشورى أولاً ، وفي خلافة عثمان ثانياً ، وفي هذه المرة تجلت نفسه واضحة ؛ فقد روى البخاري في صحيحه « أن عثمان بن عفان أصابه رعاف شديد سنة الرعاف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش ، قال : استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال : نعم ، قال : ومن ؟ فسكت ، فدخل عليه رجل آخر فقال : استخلف ، فقال عثمان : وقالوا ؟ فقال : نعم ، قال : ومن هو ؟ فسكت ، فقال : فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال : نعم ، قال : أما والذي نفسي بيده إنه خيرهم ما علمت ، وإن كان لأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . ويظهر أن غلبة الهاشميين على الزبير في المرة الأولى وقلة أنصاره ، وقرب العهد ، جعلته يكل أمره إلى علي بن أبي طالب ولم يطلب لنفسه شيئاً ، فلما بلغ عبد الله أشده واستوت رجولته ، وتكيفت مطامحه ، لم يزل بأبيه حتى جعله يبين عن ذات نفسه ، ويقف موقفاً صريحاً يباعد بينه وبين أخواله من الهاشميين ؛ وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب : مازال الزبير يُعَدُّ منا أهل البيت حتى نشأ عبد الله .

ظلت مخايل النبيل والشجاعة في عبد الله بن الزبير تبدو قوية قاهرة ، في بطولته ، وإقدامه وفصاحته ؛ يشهد بها مواقع النصر للإسلام جندياً صادق اللقاء ، عظيم الإيمان ، ثابت الجنان ؛ اجتمع مع أبيه في وقعة اليرموك ، وشهد فتوح إفريقية ، وكان البشير بالفتح إلى عثمان رضي الله عنه ، وكانت هذه البشارة فتحة جديداً في حياة عبد الله ، كشفت بها العناية الإلهية عن فضائل اشتملت عليها نفس عبد الله ، هي عدة الإبطال في غمرات الحياة . روى ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد قال : قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقص عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع ، فقال له : يا بني أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني أهيب لك مني ! فقام عثمان في الناس خطيباً فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله . وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيبا ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فقال : « الحمد لله الذي أَلَّفَ بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذي لا تجحد نعمائِهِ ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله ، انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم فاختره بعلمه ، واثمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته ، فأمنوا به ، وعزروه ، ووقروه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابع ، وبقي منهم من بقي لا تأخذهم في الله لومة لائم . أيها الناس : رحمكم الله ، إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، وكان يسير بنا الأبردين ، ويخفص بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جلا ، يجعل الرحلة من المنزل الجذب ، ويطيل اللبث في المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى اتهينا إلى إفريقية ، فزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورفاء الابل وقعقة السلاح ، فأقننا أياما نجم كراعنا ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، وسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقننا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأتاهم وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيبنا حمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجلا من المسلمين ، فبتنا وبافوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون في خورم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحنها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيها واسعا ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف ، فصفق عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد قرت أعينهم ، وأغناهم النفل ، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين ، أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين »

ثم سكت ، فنهض أبوه الزبير فقبله بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ، يا بني ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت ! ما

صاوي ابراهيم عمره

# التجديد والمجددون في الاسلام

من القرن الاول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الأعظم أبو حنيفة

دراسات في حياته الاولى والعلمية

## ١ — لماذا اشتغل في أول أمره ؟

اشتغل الامام أبو حنيفة في أول أمره تاجرا ، فكان خزايا يشتري ثياب الخز وبييعها ، وكان له وكلاء يرسلهم الى الجهات لشراء ثياب الخز وبييعها ، وكان ماهرا في التجارة مسعودا فيها ، وعنده رأس مال كبير . أما سيرته في التجارة فكانت قائمة على الأمانة والصدق وحسن المعاملة . وما زال أبو حنيفة يختلف الى السوق للبيع والشراء ، حتى قبض الله تعالى له الامام الشعبي فأرشده الى طلب العلم ، ومجالسة العلماء ، لما رآه من كامل استعداد ووفور عقله ، وفرط ذكائه ونجايته ، وشدة يقظته ، وحسن أخلاقه . ولقد أشار الامام أبو حنيفة نفسه الى شيء من هذا فقال : مررت يوما على الشعبي وهو جالس ، فدعاني وقال لي : الى من تختلف ؟ فقلت : الى السوق . فقال : لم أعن الاختلاف الى السوق ، عنيت الاختلاف الى العلماء . فقلت : أنا قليل الاختلاف اليهم . فقال لي : لا تفعل ، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء ، فإنني أرى فيك فطنة وحركة ويقظة . فوقع في قلبي كلامه ، وهزني الى طلب العلم ، فتركت الاختلاف الى السوق واشتغلت بالعلم ، فنفعني الله تعالى بقوله .

## ٢ — كيف تعلم أبو حنيفة ؟

ولقد كان من ثمرات إرشاد الشعبي أبا حنيفة ، أن شرع في طلب العلم ، فأخذ ينظر في علم الكلام ، لأنه كان يعدده من أفضل العلوم لسكونه في أصل الدين ، حتى بلغ فيه الغاية ، وصار فيه وفي طرائق الجدل رأسا يشار اليه فيهما بالبنان ، ولهذا دخل البصرة نيقا وعشرين مرة لمجادلة طبقات الخوارج والحشوية وأهل الأهواء وأرباب الخصومات والجدل ، وكان أكثر فرقههم بها ، وكان يكثر في كل مرة من هذه المرات سنة أو أكثر أو أقل لمنازعة هؤلاء . ثم ألهم أن الصحابة ومن اليهم مع أنهم كانوا على ذلك أقدر وأعلم بحقائق الأمور ، لم ينتصبوا مجادلين ولا منازعين ، بل أمسكوا عن ذلك ، وخاضوا في الشريعة وفي تعليم الناس ، لهذا ترك طرائق الجدل واشتغل بما كان يشتغل به سلف الأمة الصالح .

## ٣ — لماذا اشتغل بالفقه ؟

كان لأبي حنيفة بالمسجد حلقة يدرس فيها علم الكلام ، فجاءته امرأة ذات يوم وسألته هذا السؤال : رجل له امرأة أمة يريد أن يطلقها للسنة ، فكيف يطلقها ؟ فلم يهتد للجواب ، وأمرها أن تسأل « حماد بن أبي سليمان » وكانت حلقة درسه بجوار حلقة درس أبي حنيفة ، ثم تعلمه بالجواب ، فسألت حمادا فأجابها بقوله : يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج . فرجعت المرأة الى أبي حنيفة وأخبرته بفتوى حماد ، فقال أبو حنيفة : لا حاجة لي بالكلام ويكنى ما عرفته منه ، ثم فكر في الفقه ، فكلما قلبه وأداره لم يزد عندة إلا جلاله وحلاوة ، ولم يجد فيه عيبا ، بل إن أمر الدين والدنيا لا يستقيم إلا بمعرفته ، لذلك عزم على الاشتغال به ، وتحول إلى حلقة « حماد » فوجد عنده كل ما كان يحتاج اليه ، وكان يسمع منه المسائل فيحفظها ويخطي أصحابه ، فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بجوارى غير أبي حنيفة ، فصحبه عشر سنوات ، وقيل ثمان عشرة سنة ، ثم أحب أن يعتزله ويستقل بحلقة لنفسه ، وعزم على تنفيذ ذلك . وهنا يحدثنا أبو حنيفة عما حدث بعد هذا قال : فلما دخلت المسجد ورأيت حمادا لم تطب نفسي أن أعترله ، فجلست معه . ثم جاءه نعي قريب له مات بالبصرة ، وترك مالا ولا وارث له غيره ، فأمرني أن أجلس مكانه ، فلما خرج وردت عليّ مسائل لم أسمعها منه ، فكنت أجيب عنها ، وأكتب جوابي ، فغاب شهرين ثم قدم ، فعرضت عليه المسائل وأجوبتها ، وكانت ستين مسألة ، فوافقتني في أربعين ، وخالفني في عشرين ، فأكيت على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت ، فلم أفارقه حتى مات ، رحمة الله تعالى عليه .

## ٤ — ما هي العلوم التي تعلمها ؟

وعلى الجملة فقد أخذ الإمام أبو حنيفة من العلوم بأوفر نصيب ، وبلغ فيها مبلغا يشار اليه بالأصابع ، وناهيك به أنه سلم إليه علم النظر والقياس وإصابة الرأي حتى قالوا : « أبو حنيفة إمام أهل الرأي » . فأما العلوم الشرعية والعربية والآدبية والحكمية ، فكان في كل هذا بحرا لا يجارى ، وإماما لا يمارى . وله مسائل فقهية بنى فيها أقواله على علم العربية ، ومن تأملها يقضى بتمكنه من هذا العلم بما يبهز العقل . وأما القراءات فقد أفردوا بالتأليف قراءات انفرادها ورووها عنه بالآسانيد ؛ وكان يحفظ القرآن كله ، وصح عنه أنه كان يقرأ القرآن الكريم كله في رمضان مرات كثيرات ، ويدبم قراءته ليلا ونهارا . وأما الفقه فإذ يقول فيه بعد أن قال الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه : الناس عيال أبي حنيفة في الفقه ؟ وقال أيضا : من أراد أن يعرف الفقه فليزلم أبا حنيفة وأصحابه . وقال أيضا : قلت لمالك : كيف رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : رأيت رجلا لو كلمك في السارية أن يجعلها ذهابا لقام بحجته . وأما السنة : فقد كان فيها

بحرا زاخرا لا ساحل له ؛ وكان في تفسير الحديث آية ، قال الامام أبو يوسف : ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ، بصيرا بعلمه ، وبالتعديل والتجريح من أبي حنيفة . ومما يدل على قول أبي يوسف هذا ، وعلى إحاطة أبي حنيفة بالسنة وتمكنه من رواياتها ، ومعرفة رجالها ، ووقوفه عند حدها لا يتجاوزها قيد شعرة ، المحاورة التي وقعت بين الامام الأوزاعي وأبي حنيفة ؛ فقد قال الامام سفيان بن عيينة : اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي في دار الحنطين بمكة ، فقال الأوزاعي لأبي حنيفة : ما لكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء . قال : كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع ، وعند الرفع . فقال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن ابراهيم ، عن علقمة والأسود ، عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولا يعود إلى شيء من ذلك . فقال الأوزاعي : أحدثك عن الزهري ، عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثني حماد عن ابراهيم ! فقال له أبو حنيفة : كان حماد أفتقه من الزهري ، وكان ابراهيم أفتقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون ابن عمر ؛ وإن كان لابن عمر صحبة ، أو له فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله . فسكت الأوزاعي .

#### ٥ — لماذا اشتغل أبو حنيفة بالتدريس والافتاء ؟

لما توفي حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة ، وكان الناس به أغنياء ، احتاج الكوفيون لمن يسد مسده ، ويتولى التدريس مكانه ، فخبروا كثيرين فلم يجدوا عندهم من العلم ما يغنيهم ، فأجمع رأيهم على أبي حنيفة ، فأجاب داعيهم وقال : ما أحب أن يموت العلم . فاختلفوا إليه ، فوجدوا عنده من العلم الغزير ، والفضل الكثير ما لم يجدوه عند غيره ، فلزموه وتركوا سواه ، ولم يزل ذكره في ارتفاع ، وتكثر أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، حتى صارت حلقة أعظم حلقة في المسجد ، وأقبل عليه وجوه الناس وكبرائهم ! وأكرمهم الأمراء والحكام ، وأثنى عليه الأفاضل .

#### ٦ — عمن أخذ العلم ؟

تلقى أبو حنيفة العلم عن كبار أئمة عصره . منهم : عطاء بن أبي رباح ، المتوفى سنة ١١٤ هـ الذي سمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس وغيرهم ، والذي يقول فيه ابن عباس : يأهل مكة : تجتمعون على وعندكم عطاء ؟ ومنهم نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧ هـ الذي روى عن مولاه وعن عائشة وأبي هريرة وغيرهم . ومنهم الامام الفقيه الحافظ عامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ . وأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان كما تقدم ، وحماد أخذه عن ابراهيم بن يزيد النخعي المتوفى سنة ٩٥ ، وأخذه ابراهيم عن خاله علقمة بن قيس النخعي الكوفي المتوفى



سنة ٦٢ ، والذي ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من عمر وعثمان وعلي ، وتفقه بابن مسعود ، وكان أنبل أصحابه ، وأخذ ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وصار الفقه من الله تعالى الى نبيه عليه الصلاة والسلام . وقال خلف بن أيوب : صار العلم من الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار الى الصحابة ، ثم صار الى التابعين ومنهم أبو حنيفة ، فمن شاء فليرض ، ومن شاء فليسخط .

٧ — تلاميذ أبي حنيفة .

قال بعض الأئمة : لم يظهر لاحد من أئمة الاسلام المشهورين مثل ما ظهر لأبي حنيفة من الأصحاب والتلاميذ ، ولم ينتفع العلماء والناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه في العلوم المختلفة : من تفسير الأحاديث المشتبهة ، والمسائل المستنبطة ، والنوازل ، والقضاء والاحكام ، فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين والعلم خير الجزاء .

٨ — من هم الصحابة الذين عاصرهم أبو حنيفة ؟

اتفق المحدثون على أن أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في عهد أبي حنيفة في الأحياء وإن تنازعوا في روايته عنهم ؛ الصحابي الأول : أنس بن مالك المتوفى سنة ٩١ أو بعدها ؛ الصحابي الثاني : عبد الله بن أبي أوفى المتوفى سنة ٨٦ أو بعدها ؛ الصحابي الثالث : سهل بن سعد الساعدي ، المتوفى سنة ٨٨ أو بعدها ، الصحابي الرابع : أبو الطفيل عامر آخر الصحابة وفاة .

٩ — هل أبو حنيفة من التابعين ؟

سئل الحافظ العراقي : هل أبو حنيفة من التابعين ؟ فقال : من يكتفي في التابعي بأنه هو الذي رأى الصحابي مجرد رؤية أبا حنيفة من التابعين ، ومن الثابت أنه رأى أنس ابن مالك . وسئل الحافظ ابن حجر هذا السؤال فقال : أدرك أبو حنيفة جماعة من الصحابة ، ورأى بعضهم ، فهو بهذا الاعتبار من التابعين ؛ وقد روى بعض الأحاديث عن الصحابة ، والى هذا أشار بقوله : ما جاءنا عن الله ورسوله والصحابة فعلى الرأس والعين ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال ، لأنه ممن زاحم التابعين في الفتوى ؟ السبر عفيفي

## الفيلسوف أبو نصر الفارابي

قال ابن أبي أصيبعة (في عيون الأنباء) : إنه هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلخ بن طرخان . وقال ابن خلكان : هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلخ . وقال ابن النديم : هو أبو نصر محمد بن محمد بن محمد بن طرخان . وقال صاعد في الطبقات : هو أبو نصر محمد بن نصر . ولكن ما لا خلاف فيه أن اسم الفارابي : محمد ، وكنيته أبو نصر .

وذكر ابن حوقل أنه ولد بمدينة ( وسيج ) ، وهي على الشاطئ الغربي من نهر سرداريا . والمستشرقون يعتمدون هذا القول . لكن كثيرين من مؤلفي العربية كالقفطي وابن أبي أصيبعة وابن خلكان صرحوا بأن الفارابي من مدينة ( فاراب ) . وقال ابن خلكان : إن هذه المدينة تسمى لعهد ( أطرار ) . وقال الأستاذ ( بارتولد ) في الفصل الذي كتبه في دائرة المعارف الإسلامية : « إن الأصطخري الذي وجد في أوائل القرن العاشر يذكر أن قصبة ولاية فاراب كانت تسمى ( قندر ) في شرق نهر سرداريا على نصف فرسخ من مجراه ، وعلى الشاطئ الغربي من هذا النهر على فرسخين دون ( قدر ) توجد ( وسيج ) التي هي حصن صغير .

ولسنا نعرف مولد الفارابي إلا بالتقريب استنتاجاً مما ذكره المؤرخون في وفاته . فقد ذكر ابن خلكان أنه توفي سنة ٣٣٩ هـ ( ٩٥٠ - ٩٥١ م ) وقد ناهز ثمانين سنة ، ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ هـ ( ٨٧٢ - ٨٧٣ ) .

ولا يعرف شيء عن طفولته وشبابه ، إنما يقول المؤرخون : إنه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار إلى أن وصل بغداد . وهو يعرف اللسان التركي ، وعدة لغات أخرى .

والظاهر أن الفارابي حين وصل إلى بغداد حوالي سنة ٣١٠ هـ وهو يومئذ يناهز الخمسين ، حضر دروس أبي بشر متى في المنطق ، واتصل بأئمة الحكمة والعلم تكميلاً لما عنده من العلم ، وتحول إلى حران فأخذ عن يوحنا بن حيلان المنطق ، ثم عاد إلى بغداد وقرأ بها الفلسفة وتناول جميع كتب أرسططاليس . ويقال إنه وجد كتاب النفس لأرسططاليس وعليه بخط أبي نصر الفارابي : إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة .

ثم انتقل الفارابي إلى الشام ، ثم توجه إلى مصر ، وعاد إلى الشام واتصل هناك بسيف الدولة ابن حمدان الذي عرف له فضله وأكرمه وفادته ، فعاش في كنفه حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه أو خمسة عشر . ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير

### حياة الفارابي الفلسفية :

لسنا نعرف على وجه يقيني كثيرا عن حياة الفارابي العلمية . فإنه كان رجلا ممن يخلدون الى السكينة والهدوء ، وقد وقف جهاده العلمى على التأمل .

ففى مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده : كان الفارابي كثيرا ما ينفرد بنفسه ، ولا يكون إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، ويؤلف كتيبه هناك . وكان أكثر كتيبه فى الرقاع ، ولم يصنف فى السكراريس إلا قليلا ، ولذلك كانت أكثر تصانيفه فصولا وتعليقات ، وبعضها مبتورا ناقصا ( ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٠ ) . والفارابي إنما كان يعتزل الناس ويؤثر الوحدة ، لما رأى أن أمر النفس وتقويمها أول ما يجب أن يبتدىء به الانسان ، حتى إذا أحكم تعديلها وتقويمها ، ارتقى منها الى تقويم غيرها ، كما ذكر ذلك فى كتاب ( الجمع بين رأيي الحكيمين ) .

قال بعضهم : الحكماء أربعة : اثنان قبل الاسلام ، وهما أفلاطون وأرسطو ، واثنان فى الاسلام وهما أبو نصر الفارابي وأبو على بن سينا . وكان بين وفاة أبي نصر وولادة أبي على حوالى ثلاثين سنة ، وكان أبو على تلميذا لتصانيف الفارابي يعترف أنه لولاها لما اهتدى الى فهم ما بعد الطبيعة . وكما لقب أفلاطون بالحكيم الإلهي ، وأرسططاليس بالمعلم الأول ، لقب الفارابي بالمعلم الثانى ، وابن سينا بالشيخ الرئيس .

وأراء العلماء مختلفة فى التقدير العلمى للفارابي . فالقفاطى يقول : « هو فيلسوف المسلمين غير مدافع » . ويقول ابن خلكان : « هو أكبر فلاسفة المسلمين . ولم يكن منهم من بلغ رتبته فى فنونه . والرئيس أبو على بن سينا بكتبه انتفع ، وبكلامه استطاع وضع تصانيفه » .

ويقول ابن سبعين الفيلسوف الصوفى الأندلسى الذى يقال إنه انتحر بمكة شوقا الى الاتصال بالله سنة ٦٦٩ هـ فى كتاب له مخطوط ، ما نصه نقلا عن المجموعة التى نشرها الأستاذ ماسينيون :

« وأما الفارابي فقد اضطرب وخلط وتناقض وتشكك فى العقل الهولانى ، وزعم أن ذلك تمويه وخرافة ، ثم شك فى النفس الناطقة هل غمرتها الرطوبة أو حدثت بعد . وتنوع اعتقاده فى بقاء النفوس بحسب ما ذكر فى كتاب الأخلاق وكتاب الملة الفاضلة والسياسة المدنية » .

وقال الأستاذ « كارادى فو » فى ترجمته للفارابي بدائرة المعارف الاسلامية :

« مذهب الفارابي هو مذهب الأفلاطونية الجديدة الاسلامية الذى بدأه من قبله الكندى . ووجد فى كتب ابن سينا من بعده أكل عبارة عنه . وقد يكون من الراجح أن الفارابي يخالف الكندى وابن سينا فى بعض المواضع ، ولكن من العسير تعيين هذه المواضع . ومن المناسب التحفظ بل الشك فى تفسير ما يتعلق بتفصيل مذهبه . والواقع أنا لا نعرف من آثاره إلا قليلا . ثم إن أسلوبه لا يخلو من غموض » .

### نظرة إجمالية في فلسفة الفارابي :

إذا نظرنا الى فلسفة الفارابي في جللتها، وجدناها مذهبا روحانيا متسقا تمام الاتساق ، وبعبارة أدق : مذهبا عقليا . فالوجود الحقيقي عنده إنما هو العقل وإن كان ذا مراتب متفاوتة ، والله وحده هو العقل المحض الذي لا تخالطه كثرة .

والموجودات في نظره عبارة عن سلسلة متصلة متدرجة ، والعالم كل منظم ، وأجزاؤه مرتبة ترتيبا بديما ، وعناية الله من وراء ذلك محيطية بالأشياء جميعها ( عيون المسائل ص ١٨ ) . والمدينة الفاضلة أمتع ما كتب كاتب أو فيلسوف ، يتجلى فيها صدق الرجل ، وصبره وطول أناته ، وحسن تخريجه وتعليله .

يلبس الفارابي في المدينة الفاضلة للفارابي جلال الحياة الدنيا وجلال الفناء . فهو يجمع بين العبرة والتاريخ . نراه يجد في استنباط الأحكام بحيث لا تتناقض فيها الآراء ولا تصطدم الظنون ، ولا تغيب الحقيقة وراء الأغراض والشهوات والأوهام .

كان الفارابي يصنف كتبه في أيقظ أوقاته ، وفي أتم صورة وأجمل أسلوب . ويتجلى من هذه الكتب أنه كان عالما بالادب والرياضيات والنحو والبلاغة والمنطق والموسيقى والهندسة والفلك . وكان يعرف التركية والفارسية .

والفارابي لا يني يدبر الفكرة في رأسه ونفقه ، ثم هو لا يستريح حتى يسمعها صوتا ، لأن ذلك أوكد للحقائق وأدعى الى التأمل في معانيها والترسيم للملابساتها . له قدرة على نقل المعاني من فضاء التجريد الى حظيرة الموسيقى . وكان هذا في نظره أدعى الى تثبيت المعنى وتوكيده والاستقرار في النفس ، حيث إن هذا أكل وضوحا وأدوم في الذاكرة والشعور ، ولهذا كان الفارابي موسيقيا بارعا ، وصاحب مصنفات موسيقية لازالت مرجعا للوضع والتطبيق .

### تأثير فلسفة الفارابي :

لم يكن للفارابي كثير من التلاميذ ، إلا أنه اشتهر من بين تلاميذه أبو زكريا يحيى بن عدى (وله مخطوط ينسب له يسمى تهذيب الأخلاق ) ، وهو نصراني يعقوبي ، وقد اشتهر أبو زكريا بترجمة كتب أرسطو .

ولزكريا تلميذ أشهر منه ذكرأ هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني الذي التف حوله علماء عصره في بغداد في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ( الرابع من الهجرة ) . وقد انتهى إلينا بعض ما كان يدور في مجلسه من مباحثات ، وبعض التعاليم الفلسفية التي كان يلقيها لمستمعيه . وهنا رأينا مدرسة الفارابي تستحيل الى فلسفة لفظية ، ونرى الجدل يدور حول تحديد المعاني والتدقيق في التمييز بينها . وكانت تبحث الى جانب هذا مسائل

متفرقة من كلام الفلاسفة المتقدمين ، ومن فروع العلوم ، من غير نظام يؤلف بينها . ورأينا مسألة النفس تستأثر بالمكان الاول كما كان الحال عند إخوان الصفا . وكانت هذه الفلسفة الفارابية تعالج عجائب أفعال النفس ، وتنظر في جوهرها العقلى ، وفي العروج بها الى العالم العقلى الاسمى .

### شخصية الفارابى :

الفارابى من الفلاسفة القلائل الذين أدركوا القيمة الحقيقية لهذا العالم وحقارة أطعاه المادية ، فى الوقت الذى أله فيه غيره من علماء عصره العالم ، وأله الانسان وأطعاه . وكانت نعمته لحنا لقلبه الزاهد حتى ارتقت نفسه الى درجات الزهد ، وخلع عن قلبه غرائز الآثرة ، ثم أخذ يلتفت الى ما وراءه لعله يرى بصيصا من وراء فلسفته الى ذلك النور الإلهى الذى حمل مشكاته الأنبياء فى كل العصور المتقدمة ؛ حتى أصبحت تعاليمه التى خلفها لناهى التذكير برسالة الانسانية الكبرى التى حملها الأنبياء جميعا .

والفارابى نسيج وحده فى تعدد مناحى الفكر وتنوع المواهب . فهو فيلسوف يعالج الموضوعات الفلسفية العميقة . قد جمع بين عمق الفكر واستفاضة المعرفة ، وبين سعة العقل وسراوة الأخلاق والقداسة . وكان لكل فكرة فى عقله مدار ، ولكل ناحية من نواحي العلم فى نفسه مستقر . والفارابى فى كتابه المدينة الفاضلة يسكاد يكون عالماً من علماء النفس ، يتصل بأجزائها فيقارنها ويخالطها ، ويعرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هذه الناحية أدق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى إذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة . فهو فيلسوف حكيم يبنى علمه على تجربته ، ثم يصف ما توحى اليه هذه التجربة .

لا نعرف فيما قرأنا حياة أوسع آفاقا من حياته العقلية ، وذهدنا أخصب تربة من ذهنه ، وفكرا أشد انطلاقا من القيود من فكره ، لقد ذاق لذة الحياة العقلية ، وتقلب فى أعطافها ، نخالط عالم الأفكار فلم يستوحش ناحية من نواحيه ، وما كان عقل الفارابى يأنس إلا بضياء الاشياء ، وما كان هذا العقل ينقبض إلا عن ظلامها ، فما كان غذاؤه إلا الأفكار والمعانى .

والخلاصة فى شخصية هذا الفيلسوف : أن الحكمة تلقته من كل جهة بفضلها ، وتأملت فيه أكرم نبعاتها ، حتى استخلص منها أعتق جواهرها ، ثم سما الى رحيق مصاصها ، وأحرز منفس ذخائرها . كل ذلك فى كتابه المدينة الفاضلة .

تعهد نفسه بمجاهدة هواه ، لأن الهوى خصم العقل ؛ وانصرف الى أعمال الحكمة ، فطوى الحياة عاكفا زاهدا فقيرا ، قانتا لله وللعلم ، حتى كتب اسمه فى ديوان الخالدين ؟

عبد الحميد سامى بيومى

## صِفَتِ الْفَحْشَى الْأَفْطَالِ الْفَلَسَفَةِ الْغَضَبِيَّةِ

الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان

هذا ما صرح به الفيلسوف الكبير اجوست سباتييه المدرس بجامعة باريس  
في كتابه ( فلسفة الدين ) — تحليل بسيكولوجى دقيق

« ما هو الانسان ؟ إنه من الناحية الظاهرية لايفترق كثيرا عن الحيوانات العليا ، ولكنه بحياته العقلية يتميز عن الحيوانية ويتخلص منها يسيرا يسيرا . وهنا تظهر فيه ظواهر ونواميس من نوع جديد . فان الحياة الغامضة للعقل تنفتح رويدا رويدا كأنها زهرة إلهية فتطلعنا من الوجود على معناه وجماله ، وفي الوقت نفسه تنضج لضميرنا منطقة الحق والجمال والخير ، ويتجلى له العالم الأدبى كوجود عال هو عالمه الذى ينتسب اليه . فهذه النواميس هى التى تصلح أن تسطو على النواميس الطبيعية ، وأن تقهرها لتوصلنا الى غايات سامية ، هى التى تحقق وتؤلف للحيوان الانسانى معنى الانسانية . فالانسان لا يستحق وصف الانسانية إلا بقدر ما يطيع هذه النواميس العليا ، وهذه هى نقطة الاتصال التى يشغلها بين هذين العالمين ، وهذا وجه ضرورة الآلام التى بواسطتها يجب أن يتخلص من الحيوانية الأصلية . فانه إذا لم ينجح فى أن يعلو عن مستوى الحيوانية ، وقع بفساد حياته الى حضيض أدنى منها .

« الحياة النفسية تقتضى بأصل تكوينها حركتين ، أولاها تحدث من الظاهر الى الباطن حتى تصل الى مركز الذات الانسانية ، وثانيتها من الباطن الى الظاهر ، أى من مركز الذات الى الخارج .

« الحركة الاولى هى تأثير الأشياء الخارجية على الذات الانسانية بواسطة الاحساس ، والثانية هى رد فعل للذات على تلك الأشياء بواسطة الارادة . فهذان التياران الباطنيان يؤلفان الحياة العقلية فى جملتها . من هنا يتبين الانسان التصادم الأساسى الذى تتكون منه الحياة ، والذى يقوى ويشدد بدون انقطاع . وفوق هذا فإن الجانب السلبى والجانب الإيجابى للحياة العقلية ليسا متلائمين ، فإن الإحساس يسحق الارادة ؛ ونشاط الشخصية وتفتحها وميلها للامتداد والنمو تزرع تحت أعباء الوجود التى تقع عليها من كل جانب . حتى إذا اندفعت موجة الحياة من مركز الذات ، تكسرت على صخور الأشياء الخارجية . فهذا التصادم المستمر ، وهذا الكفاح بين الذات الانسانية والعالم الخارجى ، هو السبب الأول الأسمى لجميع الآلام البشرية ، وبهذا

تجد نشاط تلك الذات بارتداده على نفسه تشتد حرارته كما تشتد حرارة محور العجلة من شدة الحركة . إذا حدث هذا لمعت شرارة الحياة الباطنية وأضاءت . وهذا هو الضمير ، وبتكرّر هذا الاحساس المؤلم للخيبة المتوالية تلجأ الذات للفكر والتأمل وتدرك ماهيتها ، وتقدر نفسها ، وتنفصل عن الجسد الذى كانت لا تتميز عنه ، وتبدأ فى معارضة نفسها بنفسها كأنها مؤلفة من شخصيتين ، شخصية مثالية ، وشخصية عادية . ومن هنا ينشأ عذابها وكفاحها وندمها ، ولكن ينشأ فيها الى جانب ذلك اندفاعها المتجدد ، وترقيها غير المحدود فى الحياة العقلية ، بحيث تكون فى كل برهة لها درجة تؤديها الى درجة أرقى منها . ألسنا نلمح هنا النفحة الإلهية التى يستوجبها لنا هذا الألم ؟ إنه بدون هذا الألم كان لا يمكن أن تتميز الحياة العقلية عن الحياة المادية . ولا غرو فكل ميلاد لا يكون إلا بألم . والضمير كالطفل لا يولد إلا غارقا فى الدموع . ولما كان الضمير ابن الألم فقد قضى عليه أن لا ينمو إلا به . فهل نصادف أعظم العقول تلطفاً ، وأكثر الضماير حسدة ، وأشد ضروب الحياة تركزا ، إلا لدى آحاد شمل نشاطهم الخارجى بسبب مرض ، أو حرج فى حالتهم الاجتماعية ؟ فكيف تستطيع أن تعلل وجود ( أفكار باسكال ) و ( مين دوبران ) و ( يوميات أمييل ) بغير هذه العلة ؟ من أين جاء لهؤلاء الرجال سمو ضمائرهم الخارق للعادة إن لم يكن من هذه الناحية ، وهى أنهم شعروا شعورا عميقا بالتضاد الذى يبناه هنا بين العوامل المنصبة على الانسان ، ورأوا أنها كما توجب عليه الشقاء والبلاء ، تدفعه الى العظمة والسمو .

« استمرّ فى هذا النظر ، وتتمعّن كل واحدة من خصائصنا وهى تتفتح وتنمو ، تجدها قد نشأت من هذا التضاد الذى رأيته ، فإذا لم يكن هو لم توجد هى . على أنه يسطو عليها حتى يكاد يقتلها بعد ظهورها ، ولا تجد أينما وجهت طرفك إلا هذا التضاد المؤيس .

« والإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا إذا أدرك أنه محدود ، ولكنه لا يشعر بهذه الحدود إلا بعد أن يجتازها بفكره وإرادته ، بحيث أنه أصبح لا يقنع بما يملكه ، ولا يسعد إلا بما لا يستطيع أن يناله . فأراني أريد أن أعرف ، وعقلي متعطش لأن يفهم ويعلم ، فإذا وصلت الى مكتشفات أولية أسرّتى ، ولكن وأسفلا ألبث حتى يصطدم فكري بغامض فيما حصلت . فالأمر لا ينحصر فى أنه توجد أشياء لا يعرفها عقلى ، ولكنى متحقق أن هنالك أشياء لا يستطيع أن يعرفها عقلى قط . فأنتى للانسان أن يقفز الى ما بعد ظله ، أو أن يصعد على كنفى نفسه ليرى ما وراء السور الذى لا يستطيع أن يقنعه ! وأنا أريد أن كل ما يمكن إدراكه يكون حقيقيا ، ولكن هل كل ما هو حقيقى يمكننى أن أدركه ؟ إذن على أية حال يؤول علمى إن لم يكن الى شعور ما ليخولى لجهالة تدرك نفسها على هذا الوصف ؟

كذلك أجد تناقضا فى خاصة تتمعى . فكما أفضى الساعة علمى الظاهر الى عكسه ، كذلك أرى كل ما أسميه متعة وسعادة يتحول الى شقاء وتألم . فليتهم السطحيون والعامّة الحظ

والخوداع والتقصير في عدم وصولهم الى السعادة ، ولكنى أنا لا أتهم إلا التركيب الصميم لكيانى ، فانه بسبب هذا التركيب نفسه تحمل المتعة في ثناياها سبب زوالها ، ويستحيل الصفو فيه الى كدر ، وتخرج نوحمة الألم من وسط اللذة . ( الحمة إبرة العقب ونحوها )

« لقد أصاب مذهب التشاؤم في هذا الموطن ؛ فقد ثبت بما لا يُدحض من التجارب بان التفانى في البحث عن السعادة لا نتيجة له إلا زيادة قابليتنا للتألم . وهل أُلِمَ بذكر النشاط الأدبي ؟ إنى أريد أن لا أفعل غير الخير ، ولكنى أجد الشر لى ملازما ، فلا آتى كل ما أرتضيه ، ولا أرتضى كل ما أفعله . إنى أشعر بالحرية في إرادتى ، ولكنى أحس بذل الأسر في عملى . وكلما جهدت أن أصل الى المثل الأعلى في العدالة ، سَجَل علىَّ هذا المثل الأعلى الذى لا أصل إليه أبداً أنى آثم ، وقَوَّى في نفسى الشعور بالآثم ، بحيث تصبح هنا ، وهنا على الخصوص ، الثمرة النهائية لمحاولاتى عكس ما كنت أتمناه من قبل .

« فن أية ناحية يأتينى الخلاص ؟ كيف السبيل الى حل هذا التضاد فى ذاتى ، وهو التضاد الذى يحينى ويميتنى فى آن واحد ؟ من الناس من يعتمدون فى سبيل تخلص الانسان من فاقاته وعقباته ، على تقدم العلم وصلاح أحوال الحياة . ولكن كيف لا يرى هؤلاء هنا ، نشوء ينبوع جديد من ينابيع القنوط ؟ كيف ينسون أن العلم بتقدمه يزيد فى التناقض الأساسى للحياة ويجعله أقتل مما هو عليه ، بدل أن يخفف من وطأته ؟ فهل حدوث اكتشاف جديد ، أو لتعليل ظاهرة جديدة ، يعنى شيئا غير إضافة ذلك الى سلسلة العلل الضرورية التى ينسجها العلم ويمدها على أشياء الكون ؟ هل يعنى ترتيب العلم للكائنات وتقرير نظامها وثنائها ، شيئا غير إثبات سيادة القهر عليها سيادة مطلقة . فالعلم جبرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فزودَ ما شئت من هذا الترقى العلمى ، وأبلغه الى عشرة أو مائة أو الى ألف ضعف ، فهل أنت بذلك صانع شيئا غير مضاعفة سلطان الجبرية العامة التى تخضع لها أرواحنا وينحل دونها نشاطنا الباطنى ؟ وإذ ذاك تنتهى الى زيادة إدراك التضاد المؤلم بين العلم والضمير ، وبين النواميس المادية والناواميس الأدبية ، وبين الفكر والعمل ! وبقدر ما ينمو أولهما ويتغلب ، يظهر لنا ثانيهما باطلا لا حقيقة له . من هنا نشأت هذه الثنوية الفلسفية التى انتهت اليها الفكر العصرى ، من قيام علم يعجز عن توليد أخلاق يمكن أن يعترف بها الناس ، وقيام أخلاق يمكن أن يعترف بها العلم . إننا بهذا التحليل قد وصلنا الى علة هذا المرض العجيب الذى يمكن تسميته « بمرض القرن الراهن » ، وهو ضرب من الانحلال الباطنى الذى أصاب العقول المستنيرة على درجات شتى . فهو حرب باطنية تسلح الذات الانسانية ضد نفسها ، وتُنضب ينابيع الحياة فيها . فبقدر ما يفكر الانسان فى إيجاد البواعث للحياة والعمل ، يقل نشاطه للجهد والعمل . فاستضاء الفكر هى على نسبة عكسية مع قوة الارادة ، حتى ليقول أنصار التشاؤم بأن وصول الضمير الى قوته



وكماله يبطل فينا حب البقاء والرغبة في العمل . ومن الذي يتجرد اليوم من التشاؤم على قدر من الأقدار ؟ ومن الذي لا يشكو اليوم من ثقل وطأة الفكر عليه ، ومن ضعف تأثير الطبيعة فيه ؟ ومن الذي لم يشاهد هذا الازدواج الغريب الذي كاد يكون عاديا ، بين خفة الأخلاق والذكاء الممتاز ؟ ما هي هذه الشكوى المملة التي تتصاعد من كل ناحية ممثلة في أحدث كتاب في الفلسفة ، أو أعلق رواية بالقلوب ، أو أحسن قطعة تمثيلية ، إن لم تكن هي الآنين المالم يخولى المنبعث من حياة يظهر أنها قريبة من الانطفاء ، ومن عالم عتيق آيل الى الفناء ؟ فهل يحسن بنا أن نقلع عن التفكير لنحتفظ بالقوة على البقاء ، أو أن نصبر للموت لنستبقى الحق في التفكير ؟

» من هذا الشعور بالخرج الشديد ، وبالتضاد في الحياة الباطنية للنفس يتولد الدين ، فهو الكوّة (١) التي ينبع منها النور المحي للإنسان من خلال الصخور المطبقة عليه . (٢)

محمد فريبر ومبرى

(١) السكوة بفتح الكاف وضمها الحرق في الحائط . (٢) ننشر بقية هذا البحث الجليل في العدد المقبل .

## البراعة من الاحمدية الهندية

الموقعان على هذا ، أيوب فضلى قرانيا و خليل يونس ريشطى من أهل ألبانيا : يقرران ويعلمان براءتهما من فرقة الاحمدية اللاهورية والقاديانية ، فقد ظهر لهما بطلان مذهب الاحمدية ، وبطلان ادعاء زعيمها ميرزا غلام أحمد القاديانى الهندى ، النبوة ، أو أنه المهدي المنتظر ، أو المجدد ، أو المسيح الموعود ، وتأويلاته لآى القرآن الكريم بغير علم ، إشباعا لرغباته ، ودعاية لذاته . وقد لمسنا أضرار هذه الفرقة بجماعة المسلمين وتمزيقها لوحدهم وهذا هو الخسران المبين . فالموقعان يستغفران الله تعالى عما فرط منهما بغير علم ، ويعلمان أنهما قد قطعنا كل علاقة وصلة من أى نوع كان بهذه الفرقة وغيرها من الفرق ، طائعتين مختارين ، ابتغاء وجه الله ، عن عقيدة وإيمان من قلب خالص ملى بالتقوى وطاعة الله لا يشوبه نفاق ولا رياء . ويسألان الله تعالى أن يوفقهما لما فيه الخير والعمل بكتاب الله وسنة رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين من لا نبى بعده صلى الله عليه وسلم والله على ذلك شهيد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(أيوب فضلى قرانيا) ، ( خليل يونس ريشطى )

## الاسلام والمرأة

لقد أنصف الاسلام المرأة ، ورفع من شأنها ، ووضعها في مكاتها اللائقة بها ، بعد أن كانت مهيمضة الجناح ، مهضومة الحقوق ، يسيطر الرجل عليها ويعاملها معاملة الأنعام .

فلا تجد نظاما اجتماعيا سابقا على الاسلام أخذ بيد المرأة وفرض لها من الحقوق والواجبات ، مثل ما فرض لها الدين الحنيفي ، دين الاسلام ، الذي اختاره الله لخير أمة وخير نبي ، وجعله صالحاً لكل زمان ومكان ، تسير الحوادث بجانبه ، وتمشى المصالح إثر أصوله وفروعه ، وترقى الأمم بالأخذ بتعاليمه .

كنت تشرق أو تغرب فلا ترى المرأة إلا سلعة ينتفع بها ، أو متاعا يستمتع به ، ولا حول لها ولا طول ، ولا كلمة تسمع ، ولا رأيا يعتد به ، حقيرة ذليلة ، ميّسة وهي في عداد الأحياء ، مسلوقة الإرادة ، مهذرة الكرامة ، قعيدة البيت لا ترى شمساً ولا قراً ، ولا تشم نسجاً .

جاءها الاسلام فأخرجها من الظلمات الى النور ، وانتشلها من وهنتها وأعطاه حريتها ، بعد رق واستعباد في البلاد التي تدعى الآن أنها مصدر المدنية ومبعث الرقي ، فأمن جهلت قدرها ، وأمن سجنتها ، وأمن احتقرتها ، والكل اشتط في ظلمها ، وجار في حكمه عليها ، وظلت المرأة هنا وهناك تضج بالشكوى الى الله ، وتنزع اليه في أن ينقذها ويخلصها ، وقد وأدوها طفلة ، وعضلوا شاباً ، وأساءوا عشرتها زوجة ، ومنعوا إرثها ، وحرموها عليها النكاح أئماً .

وبينما الناس كلهم مطبقون على هذه الحال ، إذا برسول يبعث الى الناس كافة ، على فترة من الرسل ، يهيب بالناس الى إقامة دولة العدل ، وإلغاء نير الظلم ، وإزالة كسف الجاهلية ، وتقدير حقوق الضعفاء على الأقوياء حتى يكون الناس سواسية كأسنان المشط : « يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم » .

فنال المرأة من هذا الإصلاح العام قسط موفور ، فرفع عنها كل ما ألقاه عليها الظلم والجهل مما ناءت بحمله قروناً طويلة في عهود مختلفة ، وأمم متباينة ، وثنية كانت أو كنيانية أو جاهلية . ففي الأخيرة مثلاً : ورثوا النساء كرها : يحجى الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه إن لم يكن منها ويقول : ورثتها كما ورثت ماله . وبذلك يكون أحق بها من نفسها ، إن شاء تزوجها بلا مهر أو تزوجها غيره واستوفى مهرها ، أو منعها حقها في النكاح ليرثها . اجتث الاسلام هذا الإرث الجائر من أصله : « يأياها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » .

ثم شرع لها ما حمأها من غائلة المتحكيين فيها ، فحرم على الرجال أن يعضلوها لتتنازل لهم عن ميراثها ، وعن حجب الرجل فتاته الى أن تتخلى له عن ملكها ، وكذا المطلق مطلقته ليأخذ منها ما يريد ويشتهي ، وعن امتناع الزوج المبعوض زوجته المحب فراقها عن تسريحها بالإحسان ، وعن إساءة عشرتها حتى تبلغ روحها الحلقوم ، فتفتدى بمهرها : « ولا تعضلوهن لتذهبن ما آتيتموهن »

وحرم على من له أكثر من واحدة أن يرفع بعضهن على بعض ، وأن لا يعدل بينهما ، فقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تسكرهن شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » :

ونهى أن يرمى الرجل امرأته بكل نقيصة توسلا بذلك الى التخلص منها والتزوج بغيرها ، متهمها إياها بالفاحشة لتفتدى بما دفع لها محاماة عن عرضها وذوداً عن كرامتها ، فنبههم الله جل شأنه الى أن هذا العمل ظلم وبغى تأباه النفوس الكريمة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا ، تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .

وقد اهتمت الشريعة الاسلامية بالمرأة اهتماما كبيرا ، جعلها سيدة مكرمة محترمة ، راعية مسيطرة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . وفي وضعها بين الامام والرجل لا بين الرجل والخادم تنويه بشرفها وتحقيق لمساكنتها وقدرها . عطف الشريعة عليها ، وراعت جانبها ، وقررت كل ما يريحها ويسعدها نظرت بعين ملوؤها الرحمة والنصفة الى المرأة ، وراعت ما تقوم به من تكثير النوع وتربيته ، فألزمت الرجل بنفقة والقيام بجميع ما تحتاجه من لوازم الحياة : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض : أى فى القوة والقدرة على العمل والكسب » : وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

طلبت الشريعة الرجل بالمحافظة على زوجته من مواطن الخافة وأمكنة الهلكة ، وأمرته بتعليمها ما يجب عليها وقاية له ولها من النار : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » « يا أيها الذين آمنوا أنفسكم وأهلكم نارا وقودها الناس والحجارة » الآية .

قضت عليه الشريعة الاسلامية السمحة بأن يوفىها صداقها ، وتوعدت من لم يكن عازما على أدائه اليها : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو أكثر ليس فى نفسه أن يؤدي اليها حقها خدعها فأت ولم يؤد اليها حقها ، لقي الله يوم القيامة وهو زانى »

وطلبت الشريعة من المرأة في نظير ذلك أن تتوق حجر فراش زوجها ، وألا تاذن في بيته لمن لم يرغبه ، وألا تخرج من بيته بغير إذنه ، إلا إذا دعت ضرورة شرعية كخشية انهدام البيت ، أو خوف فجرة ، أو استفتاء لم يوفره لها .

هذا قل من كثر مما أوجبه الشريعة الإسلامية الغراء للمرأة . فهل آن لأعداء الاسلام أن يتلقوا عنه دروساً حية في الإنصاف والعدالة ، ويتركوا ما رموه أو يرمونه به من المثالب ، باتهامه أنه هضم حقوق المرأة وجعلها في منزلة أدنى من درجتها التي تجدر بها ؟ كما أنهم عدّوا أمر حجبها عن أعين الأشرار ، وعدم مخالطتها للفسقة الفجار ، أمراً نكراً ، وخطباً فادحاً ، ومعولاً يهدم بناء المجتمع البشري ويقوّض دعائم المدنية ! ولو تدبروا قليلاً ونظروا بعين البصيرة ، وفكروا واعتبروا ، لتكشفت لهم الحقيقة ، ولظهر لهم البرهان تلو البرهان أنهم عن الحق عمون ، وفي الضلال يهيمون .

أوجب الاسلام على الرجل زوجته حقوقاً لخصّتها إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله معاوية بن حيدة رضي الله عنه : ما حقّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن قطعها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبّح ، ولا تهجر إلا في البيت » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » .

انظر معي يارعاك الله في التوارث الذي مُنحته المرأة في الاسلام وكانت محرومة منه قبل : فالوارثون إن كانوا ذكورا أو إناثا في درجة واحدة وزع المال بينهم بالتساوي لعدم وجود ما يدعو لتقديم واحد منهم على آخر ؛ وإن كانوا ذكورا وإناثا في درجة واحدة فضل الذكر على الأنثى بجعل حظه مثل حظ الأنثيين ، لأمرين : أحدهما أن الذكر مختص بالدفاع والحماية عن البيضة ، والذب والمنع عن الدمار ؛ وثانيهما أنه ملازم بالإتفاق فوق ما يلزم الأنثى التي هي ككل على الزوج أو غيره . والاب لا يفضل على الأم بالتضعيف لأنه فضل عليها بالجمع بين الفرض والتعصيب ، فلو فضل عليها بالتضعيف أيضا لكان في ذلك إجحاف بها وبغنى عليها . وفي مسائل أخرى تأخذ الأنثى مثل الذكر . وقد يكون نصيبها أكبر منه في بعض المواضع . وهكذا تقرأ باب الفرائض والمواريث ، فيأخذك العجب ، وتتولاك الدهشة أمام إنصاف الاسلام للمرأة ، هذا الانصاف العظيم الشأن الذي لم يأت به نظام اجتماعي قبله ، ولم تعرفه أمة من الأمم الغابرة التي كانت تستعبد المرأة وتصادر حريتها ، وتعدّها من سقط المتاع . وحين انبثق نور الاسلام ، وطلع فجره من الشرق يمزق ستر الكفر ، ويشقق غياهب الباطل ، انتشر نور الحق في أنحاء المعمورة ، وأخذ كل شيء في الوجود حقه ، ونودي في الكل : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

السيد منطوي الشهاوي

بتخصص القضاء الشرعي

## المحاماة قديما وحديثا

مقارنة بين عهدين

في بعض أعداد سابقة من هذه المجلة أبنا لقراءها ما كان عليه المحامون في عهد الإمبراطورية الرومانية ثم في عهد اليونان ، وكيف أن تلك المهنة تطورت حتى بلغت أوج مجدها وسؤددها ، فأنبئت خطباء ملكوا على البلاغة أعنتها ، واقتعدوا منها غوارب المجد حتى بلغوا القمة . ولقد بلغ من سمو تلك الصناعة في عهد الرومان أن كان لا ينتخب لشغل منصب الولايات في الإمبراطورية إلا من المحامين ، ومن ذلك الحين صدر أمر بتحديد عدد المحامين في كل مقاطعة من أطراف الإمبراطورية ، فلا ينتخب لولاية الخزينة العامة إلا منهم ، فإذا قضى الواحد منهم مرة انتخابه عين في وظيفة سامية ، وأصبح معدودا في مصاف أعضاء شورى الدولة .

ومن أشهر القوانين التي وضعت لرفع مستوى المحاماة ، وحياتها بسياج الإجلال والاكبار ، ذلك القانون الذي سوسى بين رجال المحاماة ورجال الجيش ، ومعلوم أن رجال الجيش في ذلك العهد الروماني كانوا أكبر القوم وأعزهم جاها وأرفعهم شأنًا . ولعل الباعث على هذه التسوية بين رجل المحاماة ورجال الجيش ، وهم من مكانة الأمة في الذروة ، أن الملك أدرك أنه لا فرق بين من يحمي الزمار ويصد عن البلاد غوائل العدو ، وبين المحامين الذين يدافعون عن المظلومين ويستردون اليهم حقوقهم من أيدي الغاصبين بألسنتهم وأقلامهم وبالغ حججهم ، فكانوا خلقاء أن يسووا برجال الجيش الذين يعتبرون أعلى مثل في الإمبراطورية الرومانية للتضحية والبلاء والجهد والدفاع عن حوزة الوطن .

ولذلك أمر أحد ملوك الرومان أن ينعم على كل محام يعتزل تلك الصناعة ، بعد أن أدى الى الأمة خدمات جلى وأسدى الى بلاده سعيًا يذكر ، بلقب من ألقاب الأشراف في الدولة . وهو لقب ( كلايسيم ) ، ومعناه في اصطلاحهم يومئذ ( النبل والشرف ) .

أما ما يتعلق بأهلية الشخص لمزاولة تلك الصناعة فقد اشترط قانون البلاد لتحقيق تلك الصفة في المحامي ، أن يكون المحامي سنه على الأقل سبعة عشر عاما ، وأن يكون قد درس علم الحقوق خمس سنوات ، وأن يؤدي الامتحان في علم الحقوق أمام محاكم الجهة التي يريد الإقامة بها ، أو أمام محامى المدينة ، ولا بد أن يكون حسن السلوك طيب السمعة ، حتى إنهم كانوا يسألون عن سيرته وسلوكه بطريقة علنية في حضرة جمع من الأهليين من سائر الطبقات ، ويجب أن يسبق ذلك الاجراء الأخير بأن يكون المتخصصون في علم الحقوق من الاساتذة والمشتريين قد شهدوا له بالكفاية وسلاسة الادراك ، وبداهة الحجة ونصوع الحججة .

والمبالغة في قصر صناعة الحمامة على الطبقات الممتازة في كفايتها ، منع كثير من أوشاب الناس ودهائمهم من الاشتغال بها .

كذلك قد أبيح للنساء أن يدافعن عن غيرهن بادیء ذی بدء ، وبقيت هذه الاباحة قائمة في الدولة زمنا غير يسير ، لكن حدث أن بعض أولئك النساء دخل قاعة الجلسة على صورة تدعو إلى الاستهتار بما يجب أن يكون للقضاء من حرمة ووقار ، فصدر قانون يحظر على المرأة أن ترافع حتى عن نفسها ، غير أن ما بدا يومئذ من اشتزاز بعض الطبقات من هذا الاجراء العتيق جعل هذا الحظر مخففا ، فأبيح للمرأة أن تترافع عن نفسها دون غيرها .

وهذا دليل آخر على أن أباطرة الرومان وملوكهم ، أحاطوا صناعة الحمامة بحياطة التكريم والتعجيد ، ولذلك كان آباء الشبان الذين يريدون الاحتراف بالحمامة يرافقونهم أول مرة الى مكان الاجتماع في موكب حافل ، ويقدمونهم الى مجلس الأعيان ليقرر بدوره أولئك الشبان في سلك رجال الحمامة ، وقد بلغ من احتفاظ الرومان بقدسية هذه المهنة واعتبارها مع وظيفة القضاء في كفتي ميزان ، أن يحلف كل محام وكل قاض عند نظر كل قضية على حدتها من القضايا المعروضة ، على ألا يقول المحامي إلا الحق ، وعلى ألا يقضى القاضي إلا بالحق ، وكل منهما يقوم بدوره في جلسة القضاء عند نظر كل قضية .

ولقد كانت تقاليد الرومان في بعض جزئياتها يومئذ غريبة ، وإن كانت في هذا العصر قد بدت رغبة يسعى إليها ويعمل على تحقيقها ، فقد كان عدد المحامين يومئذ محدودا ، وقد رأى المهيمنون على مرافق الدولة تلقاء هذا التحديد ألا يقبل محام في سلك المحامين إلا إذا خلا مكان بموت أو نحوه ، وكان يؤثر بالتقديم أبناء المحامين مكافأة لأبائهم واعترافا لهم بما قدموا الى العدالة من أثر مشكور . لكن هذا الاجراء كان مسبوقا بظاهرة وإن بدت غريبة إلا أنها طريفة ، فقد أباحوا أولا للخصوم وأرباب الدعاوى أن يخناروا المحامين عنهم تحريا لأفضل وجوه الطمأنينة التي يجب أن تتوافر بواعثها في قلوب المتقاضين ، لكن بدا بالتجارب الطويلة أن ذلك الاجراء لم يؤد ثمرته المرجوة له ، بل بالعكس أفضى الى تشعب في الآراء والتواء في الميول ، فعمل على محو تلك الظاهرة وأقر مبدأ تحديد عدد المشتغلين بالحمامة على ما أسلفنا بيانه .

وسوف نحاول في أعداد تالية أن نضع أمام حضرات القراء مثلا عليا في قديم الزمان وحاضره لأفضل تراث خلفه أسلافنا ، لنهيج عليه من بعدهم ، ولنكون قدوة صالحة لخلفونا من بعدنا ، فإلى الغد القريب ؟

and the progress of their language, for which reason an excellent poet reflected so great an honour on his tribe that, as soon as anyone began to be admired for his performances of this kind in a tribe, the other tribes sent publicly to congratulate it on the occasion, and his own tribe made entertainments at which the women assisted, dressed in their nuptial ornaments, singing to the sound of tambourines the happiness of their tribe who had now one to protect their honour, to preserve their genealogies and the purity of their language, and to transmit their actions to posterity; for this was all performed by their poems. Thus they were solely indebted to their poems for knowledge and instructions, moral and economical, and to them they had recourse, as to an oracle, in all doubts and differences. No wonder, then, that a public congratulation was made on this account, which honour they yet were so far from making cheap, that they never did it, except on one of these three occasions which were reckoned great points of felicity, to wit on the birth of a boy, the rise of a poet and the foal of a she-camel of a generous breed.

To keep up emulation among their poets, the tribes had once a year a general assembly at Okaaz, a place famous on that account and where they held a weekly fair. This annual meeting lasted a whole month, during which time they employed themselves not only in trading, but in repeating their poetical compositions, contending and vying with each other for the prize. The poems that were judged to excel, were kept in their king's treasuries and hung on the Kaaba, as were the seven celebrated poems called "Al-Mo'allacat"<sup>(1)</sup>.

As to the exercise of arms and horsemanship the Arabs were in a manner obliged to practice and encourage this by reason of the independence of their tribes, whose frequent quarrels made wars almost continual; and they usually ended their disputes in pitched battle. <sup>(2)</sup>

Hospitality was so habitual to the Arabs, and so much esteemed, that the examples of this virtue among them exceed whatever can be cited among other nations. Nor were the Arabs less addicted to liberality after the coming of their Prophet than their ancestors had been <sup>(3)</sup>. Many remarkable instances of this commendable quality among them can be quoted. Sale in his perliminary discourse, affixed to his Translation of the Koran, has contented himself with reproducing the following occurrence: Three men were disputing in the Court of the Kaaba, as to which was the most liberal person among the Arabs. One gave the preference to Abdallah, the son of Jaafar, the uncle of the Prophet Mohammad; another to Kais Ebn Obadah, and the third gave it to Arabah, of the tribe of Aws. After much debate, one that was present, to end the dispute, proposed that each of them should go to his friend and ask him for

(1) Pocock.

(2) Idem.

(3) Sale. Prelim. Disc.



### (III)

#### THEIR CHARACTER AND MANNERS

Arabia during the pre-Islamic days was in a very low state of civilisation. Awful superstition and idolatry prevailed everywhere. Gross licentiousness was indulged in. Crimes of infanticide and human sacrifices were common. The various tribes were in constant and perpetual warfare with each other (1). The absence of any stable government had led to the prevalence of anarchism and criminal excesses. The whole peninsula was in a pitiful state of chaos, sin, impurity and wickedness (2). The sacred chapel of antiquity erected by their ancestor Abraham and Ishmael for the worship of the One God, the Almighty, was converted into a temple containing over three hundred idols representing superstitious gods and goddesses. The great and divine religions which the Prophets of yore had brought down from Heaven, had lost their originality, fidelity and purity.

Opposition, persecution and even brutal force were every day's occurrences. It seems that the religion of Islam along with its teachings and morals was revealed at a time, when need for guidance was most felt, as will be dealt with later in this book.

---

### (IV)

#### THEIR ACCOMPLISHMENTS

The accomplishments the Arabs prided themselves on, were: (1) Eloquence and a perfect skill in their own tongue, (2) Expertness in the use of arms and horsemanship, and (3) Hospitality. The first they exercised themselves in by composing orations and poems. Their orations were of two sorts, metrical and prosaic, the one being compared to pearls strung, and the other to loose ones. They endeavoured to excel in both and whoever was able, in an assembly, to persuade the people to a great enterprise, or dissuade them from a dangerous one or gave them other wholesome advice, was honoured with the title of "Khateeb" or orator. Poetry was held in such great esteem among them that it was a great accomplishment and a proof of ingenious extraction, to be able to express oneself in verse with ease and elegance, on any extraordinary occurrence and, even in their common discourse, they made frequent applications to celebrated passages of their famous poets. In their poems were preserved the historical events, the rights of tribes, the memory of great actions

---

(1) G. Sale

(2) Abul Feda. Ibn Athir. Sale, Muir & c.



Some believed that when the soul separated itself from the body, it took the shape of a bird, called "Hama" or "Sada". If the deceased person was the victim of violent death, the bird remained hovering over the grave crying "Iskouni" i. e. "Give me drink", till his death was avenged, and then it flew away. This belief was forbidden by the Koran. Belief in Spirits and Fairies and Oracles rendered by their idols whom they consulted by means of headless arrows which they called "Azlam", was universal. Each tribe had its particular idols and particular temples. The hierophants attending these temples received rich offerings from the devotees and often there arose sanguinary conflicts among the worshippers of different temples. But the celebrated temple of the Kaaba at Mecca, the Chapel of Abraham and Ishmael, was considered sacred by all. The Jews and Sabians sent offerings there. The custody of the Kaaba was the object of great jealousy among the tribes, as it conferred on the custodians the most honourable functions and privileges. At the time of the birth of Mohammad the custody of the Kaaba was in the hands of his family, the Hashimites.

As for the Christian religion at the advent of Mohammad, though it flourished and had a large number of followers among the Arabs, yet its true and pure doctrines were exceedingly and abominably corrupted. (1) Some of the Christians believed the soul died with the body, and was to be raised again with it on the last day. (2) Others substituted the Virgin Mary for God or worshipped her as such. These who believed in the divinity of the Virgin Mary were named the Mariamites (3). This conception is condemned in the Koran.

Reviewing the religious aspect of the Arabs before Islam, Sir William Muir says: "After five centuries of Christian Evangelization, we can point to but a sprinkling here and there of Christians; the Banu Harith of Najran, the Banu Hanifa of Tamama, some of Banu Tay of Tayma and hardly any more. Judaism, vastly more powerful had exhibited a spasmodic effort of proselytism under Zul Nowas, but as an active and converting agent, the Jewish faith was no longer operative. In fine, viewed thus in a religious aspect, the surface of Arabia had been now and then gently rippled by the feeble efforts of Christianity, the sterner influences of Judaism had been occasionally visible in a deeper and more troubled current; but the tide of indigenous idolatry and of Ishmaelitic superstition, setting from every quarter with an unbroken and unebbing surge towards the Kaaba, gave ample evidence that the faith and worship of Mecca held the Arab mind in a thralldom, vigorous and undisputed." (4)

(1) Sale, Prelim. Disc.

(2) Eusebius Hist.

(3) Epiphon

(4) Sir William Muir: The Life of Mohammad, Vol. I, Int.

them, large numbers of them emigrated to other localities. It was usual for them on such emigrations to take with them some of the stones of the revered holy land of Mecca, and to set them up in their new abodes and to pay them devotion. But this devotion ended at last in rank idolatry; the Ishmaelites forgetting the religion of their fathers so far as to pay divine worship to rude pieces of stone. As to the worship of the stars, the Arabs might be easily led into it from their observing the changes of weather happening at the rising and setting of certain of them which after a long course of experience induced them to ascribe a divine power to those stars. and to think themselves indebted to them for their rain; they used to say that their rain came from such or such a star. The Koran particularly takes notice of this superstition.

Magian religion or fire-worship, was introduced by the Persian Zoroastrians through their frequent intercourse with the Arabs.

Judaism was introduced among the idolatrous Arabs by the jews who fled in great numbers into Arabia from the fearful destruction of their country by the Romans. They made proselytes among several tribes and in time became very powerful, and possessed of several towns and fortresses in the Arabian Peninsula. But over a century at least before, the Jewish religion was not unknown to the Arabs. Abu Carb Assad who was king of Yemen about 700 years before Islam, is said to have introduced Judaism among the idolatrous Himyarites. Some of his successors also embraced the same religion, one of whom, Youssef, surnamed Zul Nowas, was remarkable for his zeal and terrible persecution of all who would not turn Jew, putting them to death by various tortures, the most common of which was throwing them into a glowing pit of fire, whence he acquired the sinister title of "Lord of the Pit". This persecution is also referred to in the Koran (1).

Christianity had likewise made good progress among the Arabs before Islam. The persecutions and disorders which darkened the eastern church soon after the beginning of the third century, obliged great numbers of Christians to seek shelter in Arabia, that country of liberty. These were for the most part of the Jacobite Community, a sect that was widely distributed throughout Egypt, Arabia and Mesopotamia.

The above mentioned were the principal religions that prevailed among the Arabs, though the chief religion was gross idolatry. Some of the pagan Arabs believed neither in a creation of Divine origin nor in a resurrection, attributing the existence of things and their dissolution to nature.

---

(1) Koran chap. 85

intercession with God. They did not consider the idols to be direct agents, though they offered sacrifices and offerings to them, as well as to God, who was often put off with the lesser portion. Thus when they planted fruit trees, or sowed a field, they divided their cultivation by a line into two parts, setting aside one part for their idols and the other for God; if any of the fruits happened to fall from the idols' parts, into God's they made restitution, but if from God's part into the idols' they made no restitution. Also when they watered the idols' land, if the water broke over the channels made for that purpose, and ran on God's part, they dammed it up again, but if the water ran into the idols' part, they let it run on, saying they (the idols) wanted what was God's but he wanted nothing. In the same manner, if the offering designed for God happened to be better than that designed for the idols, they made an exchange, but not otherwise. It was from this gross idolatry or worship of inferior deities, or "the companions of God" as the Arabs used to call them, that the Prophet Mohammad reclaimed his nation by establishing among them the undivided worship of the true God. (2)

There were seven celebrated temples, dedicated to the seven planets, adored by the whole nation, though each tribe had chosen one planet as the peculiar object of its worship. The tribe of Himyar worshipped in general the sun, the tribe of Misam the Bull's eye, the tribes of Lakhm and Jodaam, Jupiter, the tribe of Keis, Sirius or the Dog star, that of Assad, Mercury, the tribe of Tay worshipped Canopus, while the temple of Mecca was dedicated to Saturn. For the worship of angels and intelligences there were other celebrated, peculiar idols, ten of which are mentioned in the Koran; they are: Al-Lat, Al-Uzza and Manata which were called "Godesses" and "Daughters of God". Al-Lat was the idol of the tribe of Thakif, Al-Uzza was the deity of Ghatfan; Manata was the favourite idol of Kuzaah and Huzail. There were two other celebrated idols, namely Al Jibt and Taghout which are also referred to in the Koran. They were of the chief idols of the tribe of Koreish. Special mention is also made in the Koran of five idols, namely Wadd, Suwaa, Yagoutha, Yaouka and Nassra. These were common idols among the pagan Arabians. Besides the idols referred to above the Arabs worshipped a great number of others. Almost every housekeeper had his household god. There was a famous idol called Hobbal which was supposed by the Arabs to supply them with rain, a very important consideration in their dry land. Therefore it was an object of common worship among them. It had by accident lost a hand which the Koreish repaired with one of gold. A great number of idols were no more than large rude stones, the worship of which was first introduced by the prosperity of Ishmael; for when they increased in number and the territory of Mecca grew too narrow for

---

(1) G. Sale.

(2) G. Sale.

a short period during which the Persians held the reins of government) till the time of the Khalifa Abu Bakr, when Al Mondhir el Maghrour, the last of them, lost his throne and life in battle with Khalid Ibn el Walid the Muslim conqueror of Syria. This kingdom lasted 620 years.

The kingdom of Hidjaz, as already observed, was founded by Jorham, the son of Kahtan, and remained in the hands of this family until the time of Ishmael. The latter married the daughter of Modar, one of the Jorhamite kings, and she bore him twelve sons, one of whom, Kidar by name, inherited the crown from his uncle. The descendants of Kidar expelled the Jorhamite tribe who, retiring to Johainah, was after various fortunes at last destroyed by an inundation (1). Finally the government of Hidjaz was shared by the heads of tribes almost in the same way as the Arabs of the desert are governed at present.

Mecca was in the hands of an aristocracy that controlled affairs of state until the time of the Prophet Mohammad, to whose tribe the custody of the famous pantheon of Kaaba was transferred.

Thus have the Arabs preserved their liberty and independence, of which few nations can show so glorious and unbroken a record, even from the very Deluge; for though great armies have been sent against them, all attempts to subdue them have failed (2).

Neither the Assyrian nor the Median Empires ever found a footing in Arabia, and the Persian rulers never succeeded in making her tributary and were so far from being her masters, that Combyses, on his expedition against Egypt, was obliged to ask permission to pass through her territories.

When Alexander the Great conquered Egypt, the Arabians held him in so little awe that they alone of all the neighbouring nations, sent no ambassadors to him at any time. This want of respect and the desire of possessing so rich a country, made him form a design against it, and had he not died before he could put it into execution, this people might possibly have convinced him that he was not invincible.(3)

## ( II )

### THEIR RELIGION

The religion of the Arabs before Islam was in the main gross idolatry, the Sabian religion or idolatry being the most widely extended among the whole nation, though there were also considerable numbers of christians, Jews and Magians among them. The Sabians believed in God. However, they worshipped also stars and planets and angels as well as images; they honoured them as deities and they begged for their

---

(1) Pocock, p. 74

(2) and (3) G. Sale,

Many tribes had to abandon their dwellings on this occasion, and from the scattered tribes rose two other kingdoms, known as Ghassan and Hira. According to the story of the inundation referred to above, Abd, Shams, surnamed Saba, one of the famous Kings of the tribe of Himyar having built the city of Saba, (first named after him and afterwards called Marat), constructed a vast reservoir to store up the water of the mountain torrents for the use of the inhabitants in the years of drought. The dam was so firmly built that there seemed no probability of its bursting. The water rose to the height of twenty fathoms and was kept in on every side by masonry so solid that many of the inhabitants of the province had their houses built on its walls. Each family had a certain portion of this water distributed by aqueducts. But at last (according to tradition), God being highly displeased at their great pride and insolence, and resolving to humble and disperse them, caused a mighty flood to break down by night and carry away the whole city, with the neighbouring towns and people (1).

The tribes which remained in Yemen after this terrible occurrence still continued under the rule of the original princes till about 70 years before the birth of Mohammad, when the King of Ethiopia sent over forces to assist the Christians of Yemen against the cruel persecution of their King Zul Nowas, a bigoted jew. They attacked him so closely that he forced his horse into the sea, and so lost his life, and the country was then governed by four Ethiopian Princes in turn till Seif Ibn Zi Yazan, of the tribe of Himyar, having obtained assistance from Khosrou Anushirwan, King of Persia, assistance which had been denied him by the Emperor Heraclius, recovered the throne and drove out the Ethiopians, but was himself slain by some of the enemy who had been left behind.

The Persians appointed the succeeding princes till Yemen fell into the hands of the Prophet Mohammad, to whom Bazan, the last of them, submitted embracing Islam at the same time (2). The kingdom of the Himyarites is said to have lasted 2000 years.

It has already been observed that two kingdoms were founded by those who left their country on account of the inundation of Arem. They were neither from Arabia properly so called. One was the kingdom of Ghassan. The founders of this kingdom were of the tribe of Azd, settled in Syria Damascena, near a spring called Ghassan, whence they took their name. This kingdom, according to Abulfeda, lasted 600 years, until the Khalifa Omar subjected the whole of Syria to the rule of Islam.

The other kingdom was that of Hira which was founded in Chaldea of Irak. This kingdom was better known as the kingdom of Mondhirs of the tribe of Lakhm. These princes retained their throne (except for

---

(1) Abulfeda

(2) Ed. Pocock.

Whether townsmen or tent-dwellers, the Arabs have always been divided into tribes and clans, each having its own habits, customs, mental outlook and peculiarities and being more or less distinct from the other in mode of worship, in culture and development. This diversity of culture was mainly due to diversity of origin. Various races had inhabited the peninsula in various ages. Many of these had passed away, but their failure or success to add lustre to the Arab race, was ever fresh in the memory of successive generations, and on this tradition the early history of the nation was based.

The most famous tribes of the ancient Arabs were those of Aad, Thamoud and Amalik. The destruction of the first two tribes by God for refusing to acknowledge the missions of his prophets to them or to obey them, is frequently referred to in the Koran as instances of God's Judgment on obstinate unbelievers and a warning to the Quraishites, the tribe of Muhammad, who were his most powerful and inveterate enemies.

According to tradition, the Adites appeared at one to have been a powerful and conquering people. They are said to have invaded Babylonia 2000 years B.C. (1). The Thamudites were people who lived in houses carved in the rock. The ruins of these habitations are described in Sir Henry Layard's "Early Travels". The tribe of Amalik rendered itself so powerful that before the time of the prophet Joseph it conquered the middle of Lower Egypt and furnished several of her Kings, known to history as the "Shepherd Kings" (2). After they had possessed the throne of Egypt for some generations, they were expelled by the inhabitants and finally were destroyed utterly by the Israelites (3).

The Arabs of to-day are descended from two stocks (1) Kahtan (Biblical Joktan), son of Eber and (2) Adnan, descended in a direct line from Ishmael, the son of Abraham and Hagar. The former are considered as pure Arabs, the latter as naturalized Arabs. The posterity of Ishmael had intermarried and settled among the Kahtanic Arabs and had become amalgamated with them into one nation.

The Arabians were for some centuries governed by descendants of Kahtan, Yarab one of his sons, founding the kingdoms of Yemen in the south and Jorham, another, that of Hidjaz in the north.

The descendants of Yarab, known as the kings of Himyar, continued to reign undisturbed over Yemen until the time of Alexander the Great. The first great calamity that befell the tribes who settled there, was the inundation of Arem which happened about 340 B.C., one of the leading events in the history of Arabia.

---

(1) George Sale's translation of the Koran, Preliminary Discourse.

(2) Sit Henry Layard's "Early Travels".

(3) G. Sale.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة في الحركات  
تحت ضوء العلم والفلسفة

الأمور الخارقة للنواميس الطبيعية في وقعة بدر

تمتاز العصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي ، صاحبت الدعوى في جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنًا وأجل أثرًا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانشقاق القمر ، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأتى توجيها إلى غير ما فهم منه ؛ ولكنني أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم في أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها في الأمم القرون العديدة ، والآماد الطويلة .

وقد لاحظ قراءونا أننا نحصر فيما نكتبه في هذه السيرة ، على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ، مادام يمكن تحليلها بالأسباب العادية ، حتى ولو بشيء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين في الثبوت ، والمحافظين على إقامة الدستور العلمي ، ثقة منا بأن بحثنا لا تحتزمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة .

وقد أثبت بتاريخ وقعة بدر التي كان لها شأن عظيم في كسر شرية أنصار الجاهلية ، والطامنة من خيلائهم وكبريائهم ، ولم أُلْم بما صحب هذه المعركة من الأمور الخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتني التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المحسوسة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الكامل لتبين وجه إعجازها ، نأتى على الآيات التي وردت في شأنها من الكتاب الكريم ، قال الله تعالى في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله

لعلكم تشكرون» الى قوله تعالى: «ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكذبهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » . يذكر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم في موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبید طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فينقلبوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القول الى رسوله فقال : ليس لك من أمر تدبير العباد شيء ، فامض لما يوجهك الله اليه ، فانه هو الذي يدبر أمر خلقه ، فإما أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فانهم ظالمون .

وقال تعالى في سورة الأنفال مشيرا الى وقعة بدر : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ( قافلة التجارة أو جيش المشركين ) ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يُعْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فتبتوا الذين آمنوا ، سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الى قوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم . ذلكم ، وأن الله موهن كيد الكافرين . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فتسكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أى بكتابته ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويزيل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بأن يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما جعل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله النعاس يغشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليديقكم نعمة الأمن ، وأزل لكم من السماء ماء ليروى ظمأكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويحليكم برباطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم الى الملائكة أنى معكم فتبتوا المؤمنين في الحرب ، سألنى في قلوب الكافرين الرعب ، الخ . وقد عدتم من وقعة بدر تفتخرون بعدد من قتلتموه ،



والحقيقة أنكم لم تقتلوه ، ولكن الله هو الذى قتلهم ، وما رميت يا محمد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قائلا شأته الوجوه ، ولكن الله هو الذى رمى ، وقد امتحن الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أى إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر ( الكلام مسوق على سبيل التهكم ) ، وإن تقلعوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمحاربة المؤمنين نعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغنى عنكم ففتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذى يتأمل فى هذه الآيات يدرك منها أموراً لا يمكن التردد فيها :

( أولها ) أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عدده واكتمال عدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا ( أذلة ) ، والانسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحي ودخلهم الشك فى مصدره .

( ثانياً ) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الاعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إلى مدمكم بألف من الملائكة مردفين » . ولو كان الأمر ذلك اليوم عادياً لالتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملقى هنا ، توهين للدعوة الإسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

( ثالثاً ) أنهم انتصروا على أعدائهم نصراً مؤزراً ، وهم يعتقدون أنهم مُنحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقاً ، بدليل قوله تعالى : « فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ذلك أن رجالاً منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : ( شأته الوجوه ) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تركوا وشأنهم بدون تأييد ساوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحاً فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بعرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسياً ، أى أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الاسلام ، ويوقر فى صدور الناس أنه يعتمد على الإيهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والانصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فإن هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالاسلام ، ما نغزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدا من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم . قال أبو تمام الطائي فى بآئيته المشهورة

التي مدح بها المعتمد ابن الرشيد عقب انتصاره العظيم على أمبراطور الرومان تيوفيل سنة (٢٢٣) للهجرة :

ما بين أيامك اللائي نُصرت بها وبين أيام بدر أقربُ النسب



وإذا قلبنا هذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الإعجاز في هذه الموقعة يتجلى بمرجحات من نوع آخر . ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التي لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضي أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع في اليد منها ، فإن مكافئة جيش يستدعي التذرع له بجميع ما للحروب من أهـب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأهـب للتنمين والزحف والحصار والمواصلات .

وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله في التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبي حين نذهبهم أنهم قد يُدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك الى موقف من التردد أدركه النبي صلى الله عليه وسلم وعمل على ملاقاته ، وهذا الاقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد في جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحي ، لما أقدم على الرج بمن تحم امرته في الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتأهب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجبهة :

(أولها) تفوق العدو في العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر في عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل في الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لخصيمتها .

(ثانيا) تفوق العدو في الأسلحة ، وهي العوامل الفاصلة في الحروب كما لا يخفى .

(ثالثها) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه في عوامل الغلب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحقيقه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ونفرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني به » ، قلنا إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع مجدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غرت بنا وادعيت أنك فائز ولم تقز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولا هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلقُ فُلجاً ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه الى منازلتها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : « فلا تخسبن الله يخلف وعده رساله » . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فائحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث العالمية الخطيرة .

#### رد شبهة فى هذا الموطن .

قد يقول معترض : ليس فى انتصار مجد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . فإذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، فهناك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فإذا اتفق لقائد أن يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب مجد مجدا ، لاقى بهم الأحوال ولم يُبَلِّ ، لأن عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكربة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا الى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة أزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العُتْد العادية .

نقول : إن هذه الشبهة في ظاهرها قوية ، لاستنادها الى أصول بسيكولوجية ، ولكنها في الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكيمية ، فإن الأصول النفسانية التي تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبا عهد بالاسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله رسوله في المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الابطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فمناصر الاستماتة في القتال التي يفترض المشتبه وجودها في جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذي يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شيء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آباؤهم .

ولو أضفت الى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيه بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما الى زيادة عدد حامياتها ، وإما الى الافلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلا في إبادة هذه الطائفة التي قامت عقبة في سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، في مدينة مبنية ، ليوتوا في حجرات دورها جياعا عارين ، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا بتأمين الطرق ومسألة الجماعات التي تقوم على جانبها ، أو إخضاعها لسلطانهم .

إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة في القتال ، وإذا أضفت الى ذلك تفوقه في العدد والعدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات في تلك البيئة التي كان أهم ما يحرك الهمة فيها الى حدود التضحية ، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدافع عن العقائد ، والذيد عن المبادئ . ناهيك أن تلك البيئة التي كانت لا تنقطع سائلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة في مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها في هذا الركن المنعزل من الأرض .

فإن أصر المعترض على شبهته ، قلنا له : إن لضج العاطفة الدينية طفرة الى حد تضحية النفس في سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التي نحن بصدها ، وأدل على المدد الإلهي منها . فعلى أي أساس صحيح يستطيع البسيكولوجي أن يعلل انتصار المسلمين على عدوهم في بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر

محمد فريد وجرى

للاعجاز فيها

# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبق الكلام على قوله تعالى « والشمس وضحاها » . أما قوله « والقمر إذا تلاها » فنقول فيه : اختلف المفسرون في تلو القمر للشمس على أقوال ، وأظهرها ما قيل من أن المراد ظهوره عقيب غروبها ، وذلك عندما يكون بدرا ليلة أربعة عشر . وأقسم به في هذا الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائع ، وحسنه البارع . ولك أن تقول : إنه تلاها في الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك ، فكأنه شمس ليلية تجلت بعد غروب الشمس النهارية . ويقول قائلون : إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بعد الشمس من الكواكب ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس في عام كامل ، فكذلك القمر يدور حول الأرض في كل شهر مرة . أما ظهوره هلالا ناقصا فبدرا كاملا ، فليكون نوره مستفادا من نور الشمس وليس ذاتيا له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبته إليها قربا وبعدا ولذلك ينكسف بالكلية عند ما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف . والقمر من أكبر النعم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التي تورث البهجة والسرور .

ثم قال تعالى : « والنهار إذا جلاها » :

يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نورها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس في النهار ، فلا إسناد مجازي كصام نهاره . وقيل إن الضمير يعود على الأرض ، أى جلى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بظلمة الليل ، فالضمير عائد على معلوم غير مجهول . ومثل ذلك قول من قال إن الضمير يعود على الدنيا . وقيل إن الضمير يعود على الظلمة المعلومه من المقام . والمراد بتجليتها على هذا القول إزالتها . والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر . وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر في جلاها عائدا عليه تعالى ، كأنه

قيل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس فيه . فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار في أكل حالاته . ولكنه بعيد غير متبادر .

ثم قال تعالى : « والليل إذا يغشاها » :

أى الشمس ، أى يغطى ضوءها . والكلام فى الضمير المنسوب على نحو ما سمعت فى سابقه ؛ والأولى عوده الى الشمس لا للأرض ولا للدنيا على ما علمت . وجىء بصيغة المضارع فى « يغشاها » إحضارا للصورة العجيبة التى تأخذ بجماع القلوب ، وتطير بالنفوس الى علام الغيوب . وحقا إن غشيان الليل للنهار لمن أبهر الآيات ، وأعظم النعم المتواترات ؛ وكذلك جىء النهار بعده . فسبحان الحكيم العليم « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من فى القبور ! وما أشبه حالهم عند الانتباه وقت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم ! « فهل من مدكر »

ولا بأس أن نقول لك : إن الأولى فى إذا أن تكون منصوبة على الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مضاف مقدر بعد واو القسم ، وكأنه قيل : أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن هذا الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلي برهانه .

ثم قال تعالى : « والسماء وما بناها » :

أى من بناها . وإيثار ما على من لإرادة وصف العظمة فى من بناها ، والجلال فى من سواها . وإذا أريد ذلك كان المقام لما ، لا لمن ، كما هو مقرر فى محله ، فكأنه قيل : والقادر العظيم الذى بناها . على أن ما قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيرا . والمراد ببنائها إيجادها .

هذا ثم نقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملا فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى إلا ويغض إجلالا وإعظاما . انقضت العصور وتولت الدهور والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتناولون الى إدراكها بالخيال ، ويستزلونها الى الأرض بالقرائح ، فلم يستطعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئا إلا مشوبا بالأوهام ، وشبهها بالأحلام . والفضل الأكبر فى تقديرها قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة فى شأنها ، إنما هو فضل علم الفلك الذى عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الألوف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة ، وأكثر من سرعة النور الذى يسير فى الدقيقة ٩٢ مليوناً من الأميال . فهو الذى عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التى نوه بشأنها عز وجل فى مواضع كثيرة من القرآن .

ولنتل هنا قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار » . « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون » ، « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم ينتقون » .

ولنقف هنا اليوم سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل :

يا خالق الخلق يا من لا شريك له طوبى لمن عاش بين الناس بهواك  
والله ما أنست روجي ولا فرحت في الدهر ما بقيت إلا بذكرك  
إني لأعجب ممن قد رأى طرفا من فرط لطفك ربى كيف ينساك

يوسف المجهوى

عضو جماعة كبار العلماء

## فضيلة الجود

قال حكيم : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك العباد .  
يروى أنه قيل للاسكندر : لم لا تكثر الأموال كما كانت تفعل الملوك ؟ فقال : كنوزى هم أصحابى أكنز الأموال فيهم لافى البيوت .  
نقول يطابق هذا القول ما ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : أحسن الكنوز محبة القلوب .

والى هذا يشير الشاعر بقوله :

وما مال من أعطى الكرام بنقص ولكنه عند الكرام ودائع  
وأحسن منه قول الامام الشافعى رضى الله عنه :  
وأحسن الى الأحرار تملك رقابهم وخير تجارات الكرام اكتسابها  
وقال البستى :

من جاد بالمال مال الناس قاطبة اليه والمال للانسان فتان  
من كان للخير مناعا فليس له على الحقيقة إخوان وخلاف

# الشيعة

## الظلم والشح

عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ؛ واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ! حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران ( ١ ) بيان معنى الظلم وآثاره الضارة في الشريعة الإسلامية ( ٢ ) بيان معنى الشح وآثاره الضارة بين الناس .

( ١ ) كل الناس يعرفون معنى الظلم ، ويدركون معنى العدوان على النفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة ، فإذا اعتدى أحد على غيره في نفسه أو ماله أو عرضه ، أو سلبه حقا من حقوقه فقد ظلمه ، ومن يفعل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، وكان عرضة للهلاك في الدنيا والآخرة .

لقد نهى الله عن الظلم في غير موضع من القرآن الكريم ، ولعن الظالمين وهددهم بأشد أنواع الجزاء ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ( ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم . وأفئدتهم هواء ) . فلينتظر الظالمون الذين يفعلون من الجزاء الديوى على ما كسبت أيديهم عقاب الله تعالى يوم القيامة ، وإن عقابه لشديد ، وإن أخذه لأليم . ومعنى تشخص فيه الأبصار لا تقر فيه أبصارهم من شدة الهول والفرع . ومعنى مهطعين ، مسرعين الى من يدعوهم . كما هو شأن الأسير الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . ومعنى مقنعى رءوسهم . رافعى رءوسهم من شدة الهول . ومعنى لا يرتد إليهم طرفهم ، لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا الى أنفسهم . ومعنى وأفئدتهم هواء ، قلوبهم لا تعي شيئا من شدة الفرع والهول .

والغرض من هذه الآية الكريمة تمثيل الحالة التى يكون عليها الظالمون يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ؛ فبين الله سبحانه أن جريمة الظلم يترتب عليها يوم القيامة من العذاب والفرع ما سيصعق له الظالمون الذين ينتهكون حرمة الضعاف بقوتهم ، ويستعدون بالتنكيل بعباد الله بدون أن يحسبوا الخالقهم حسابا ؛ فبين سبحانه أن هؤلاء الظالمين سيستولى عليهم فرع العذاب وهول الموقف ، فيذهب بعقولهم ، ويتملك مظهر ذلك الفرع حواسهم ، تشخص أبصارهم



بحيث لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم كما يشاءون ، كما هو شأن الهولان الفزع الذى تفاجئته الكوارث ، وتزعجه النائبات .

ومما لا ريب فيه أن هذه الآية الكريمة قد بينت ما سيلقيه الظالمون من هول وفزع أحسن بيان . وإن فيها لعظة وعبرة للطاغين الذين تغرهم شهوة الجاه والسلطان فيسلبون الناس حقوقهم ويؤذونهم فى أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وحقوقهم ، وهم ناعمون متلذذون بسلطانهم الزائل . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

أما الأحاديث الواردة فى التحذير عن الظلم ، وتخويف الظالمين ، فهى كثيرة لا تقف عند حد . ومنها هذا الحديث الذى نشرحه . فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتقى شر الظلم ، وتتحاشاه ، لأن شره مستطير ، ولا بد أن ينتقم الله من الظالمين فى الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا من ظلمهم ، ويرجعوا عن غيهم ، ويردوا الحقوق لأربابها .

ومن ذلك ما رواه مسلم وغيره من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ؛ فان فئيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ؛ ثم طرح فى النار . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعلى للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد جاء فى آخر هذا الحديث ذكر قوله تعالى : ( وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظالم غشوم ، وكل غال مارق » رواه الطبرانى . وقوله صلى الله عليه وسلم : « دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه » : رواه أحمد بإسناد حسن . وجاء فى بعض روايات الصحيح : « اتقوا دعوة المظلوم ولو كافرا » الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الصحيحة الدالة على أن الدين الاسلامى قد حث الناس على ترك الظلم ، ونهاهم نهيا شديدا عن إيذاء بعضهم بعضا فى أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وأمرهم بإقامة العدل والاحسان فيما بينهم ، فلا يعتدى قوى على ضعيف ، ولا يجور ذو سلطان على الناس بما أتاه الله من جاه ومنصب ، ومن لم يتبع أمر الله تعالى فانه لابد أن يكون نصيبه الهلاك فى الدنيا ؛ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

إن هذا القدر الذى ذكرناه من شناعة الظلم فى نظر الشريعة الاسلامية ظاهر قد لا يخفى على أحد من الناس ، ولكن الذى يجب على المسلمين أن يتنبهوا له ، ويحاربوه بكل ما لديهم من قوة ، هو ما يبعثهم الى الوقوع فى مثل هذه المحظورات الموبقة التى قضت على كثير من من قوتهم المادية ، والأدبية ، وأورثتهم ذلا بعد عز ، ومهانة بعد شرف وكرامة . فمن أهم

الوسائل الباعثة على ارتكاب جريمة الظلم تحكم سلطان الشهوات على الأنفس ، والرغبة في الحصول على أكبر قسط ممكن من تلك الشهوات الفاسدة التي تنقضى سراجا ، ثم تترك وراءها حشرات لا تنقضى ولا تنفئ ، وشقاء لا ينقطع ، وعذابا ألما . فترى ذوى الجاه والسلطان تزين لهم بطانة السوء حب سماع النائم والشايات ، فيبطشون بالمؤمنين العسافلين الأبرياء طاهري القلوب سليبي الصدور ، ويذيقونهم من أنواع الظلم والحيف ما قد يقضى على أرواحهم وأموالهم وكرامتهم ، ويسلبهم حقوقهم الطبيعية وهم غافلون .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى في باب الاموال ، فكل من أتيج له أن يستولى على مال الغير بأية وسيلة من الوسائل لا يتأخر عن ذلك بدون مبالاة بأوامر ربه ونواهي . ألم ينه الله تعالى نهيا شديدا عن الغش والخيانة وتطفيف السكيل والميزان ؟ ألم يقل سبحانه : ( ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون ) ؟ ألم يقل سبحانه : ( ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ) ؟ ألم يقل : ( الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ) ؟ ألم يقل صلى الله عليه وسلم : ( كل لحم نبت من حرام ، فالنار أولى به ) ؟ ألم يقل : ( من غشنا فليس منا ) ؟ الى غير ذلك من النهي الشديد الجازم عن الظلم في باب الاموال . فما بال المسلمين يظلم بعضهم بعضا ، ويعش بعضهم بعضا . ألا إن ذلك هو الخسران المبين .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى في شهوة الفرج ، فلا يبالون بانتهاك الحرمات ولا يحسبون للتعدى على الاعراض حسابا ، فلا زاجر يزجرهم ، ولا دين يحول بينهم وبين ارتكاب جريمة الزنا ، وما في معناه من الرذائل الخلقية التي تمحو الفضائل كأنهم هم لا يعرفون للانسانية معنى . وأشنع من هذا وذاك ما يرتكبه بعض قساة القلوب من قتل الأنفس البريئة التي حرم الله قتلها وأعد للقاتل عذابا ألما . قال تعالى : ( ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ) .

يفعل المسلمون ذلك ، ويتركون دينهم وراءهم ظهريا ، كأنهم لم يسمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم : ( كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله ) . ألا فليعلم المسلمون أن ارتكاب هذه الجرائم ، واقتراف هذه المظالم هي السبب في انحطاطهم وتأخرهم ، ولا ينفعهم إلا أن يرجعوا الى الله ربهم ، ويعملوا صالحا ، لعلهم يفلحون .

٢ — أما معنى الشح ، فهو الإمساك عن الإنفاق حيث يجب البذل ، سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال ، والنفقة على الزوج والأولاد ونحوهم ممن تجب على المكلف نفقتهم ، ومثل ذلك الإنفاق على إحياء نفس يتوقف على ذلك الإنفاق إحياءها ، أو كان واجبا تقتضيه المروءة بأن ينفق ما يناسب حاله ، فلا يليق أن يكون ذا مال كثير ويعيش عيشة البؤساء ،

أو يضيق على أولاده وأهله ، فيحرمهم من أنعم الله تعالى ، أو يسقط كرامته في البيئة التي يعيش فيها ، فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس إياه ، وغير ذلك من الأمور التي تخل بالمرءة . فإذا حفظ الانسان نفسه من هذا لا يكون بخيلا في نظر الدين . أما كونه كريما فذلك تابع لحالته المالية ، وتفاوت أنظار الناس في تقدير الكرم ، والذي يحفظ الانسان من شر الفصح هو العمل بقوله تعالى : ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) .

أما شر مضار الشح وأكبر آفاته ، فهو فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتواد بينهم ، وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك ، لأن الشحيح يبغض التعاون بطبيعته ، ولا تسمح نفسه ببذل شيء من ماله ولو يسيرا لمساعدة الضعفاء ، فتمتلى قلوبهم ضغنا عليه ، وتثور أنفسهم حسدا عليه ، فإذا فشا الشح في أمة كانت نتيجته فوضى الاشتراكية التي يترتب عليها سفك الدماء ، واستحلال المحارم . لذلك يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم ( وإياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ) من حديث رواه أبو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد ، فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا . أمرهم عن الكف عن معونة الناس . وقيل الشح الحرص على ما عنده غيره . والبخل الحرص على ما عنده . فذلك صريح في أن الشح خطر اجتماعي كبير ، يترتب عليه هلاك الأمم وفناؤها ، لأن الانسان بحسب تكوينه الطبيعي ، وفطرته التي فطره الله عليها محتاج الى التعاون مع غيره في هذه الحياة فلا يمكنه أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفردا . بل لا بد له من ذلك في الاستناد الى غيره والتعاون معه في كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى في التراب . وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره ، فتراه في حال طفولته محتاجا الى غيره في كل شيء . فإذا ما نشأ وترعرع استقل في بعض أموره ، ولكنه لم تنقطع حاجته في البعض الآخر .

ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الإنساني ، وبقاء العمران ، والشح ينافي التعاون والتراحم بين الناس . وهيات أن تجد الرحمة الى نفس الشحيح سبيلا ، لأن الشح يدعو الى أن يقطع أرحامه وأقرب الناس إليه ، فضلا عن البعيدين عنه ، ويدعوه الى القسوة والغلظة ، فلا يغيث مكروبا ، ولا يعين ضعيفا ، ولو توقفت حياته على معونته . يدعو الى أن يكسب المال من أي طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام ، يدعو الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شيء من ماله ولو كان من أبنائه وأهله ، وقد يفرض به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء . فلا ريب في أن الشح من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الإنساني . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إنا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر . وقتنة الحيا والمات . رواه مسلم

## الكلام والمتكلمون

— ٧ —

الإمام الغزالي

أسلوبه :

يلاحظ الذين يدرسون الغزالي أن أسلوبه يختلف كل الاختلاف مع الفلاسفة الآخرين أمثال ابن سينا ومن هم على شاكلته . فبينما يرى القارئ أن أسلوب ابن سينا مثلاً موجز محدود ، يلاحظ على العكس أن أسلوب أبي حامد خصب مسهب تنساب فيه العبارات والمترادفات انسياب الماء في الغدران ، وتتتابع جملة في شيء عظيم من الرشاقة . ويرى الأستاذ كارادى فو أن الغزالي اجتمعت لديه صفات الخطيب والعالم النفساني والواعظ الديني ، فهو يفيض بالأولى ، ويحلل بالثانية ، ويأسر النفوس بالثالثة ، إذ هو يفتش عن أحب الجمل إلى القلوب ، ويجمع أشد النصوص تأثيراً في العقول ، ويستخدم المجازات والسكنايات حتى لا تشتغل الأرواح والعقول بغير ما يقول . وفوق ذلك فهو يعبر عن المعنى الواحد بتعبيرات مختلفة ، ويصور الموقف الواحد بصور متباينة . وقد جزم هذا العالم المستشرق في كتابه « الغزالي » بأنه لم يعرف فيمن قرأ من العلماء أسلوباً أرق وأخصب من أسلوب الغزالي ، وهو يأسف أشد الأسف ، لأن لغته الفرنسية لا تتسع لهذا الأسلوب ، ويعتذر إذا لم يوفق إلى الإجابة والافتقار في نقل ما نقله عن هذا العالم القدير . وقد أننى الأستاذ كارادى فو على هذا الأسلوب في كتابه الآخر « مفكرو الاسلام » ثناء طائراً تقتطف منه ما يلي :

« إن أسلوب الغزالي مخصب سهل لدين واضح ، وأنه إذ يستعين بالصور الخيالية ولا يغض الطرف عن الجانب العملي يستهوى القارئ ولا يتعبه . إن عقله متزن ، فهو إذا اقتبس من السنة ، فعل ذلك بدون إثقال أو إفراط . إنه يقسم ويفرع بعناية ووضوح ، وبدون تصنع أو مبالاة . ولما كان نفسانياً ، فلم يهـو في الدقة المغالية . وبهذا يمكن تشبيهه ببعض آباء الكنيسة الإغريقية ولا سيما القديس « جان كريزوستوم » أى ( ذو الفم الذهبي ) وهو صاحب الأسلوب الجذاب السهل الساطع ، ولكن ينبغي القول بأن الغزالي أدخل منه في باب النظر » (١)

(١) انظر صفحة ١٦٠ من الجزء الرابع من كتاب « مفكرو الاسلام » .

## رأيه في العلوم :

بقيت نقطة واحدة ينبغي أن نعلن رأى الغزالي فيها قبل مغادرة هذا المقام ، وهي رأيه في العلوم المختلفة التي كانت ذائعة في عصره . ويتلخص هذا الرأى فيما يلي :

تنقسم العلوم عنده الى قسمين : شرعية وغير شرعية . فأما الشرعية فكلها خير ، وكذلك أدواتها الضرورية لها كالنحو والبلاغة والتاريخ وكل ما يحتاج إليه في شرح الكتاب الكريم أو السنة الفراء . وأما العلوم الغير الشرعية ، فبعضها خير مباح ، بل مفروض أحيانا وذلك كالطب والحساب مثلا . والبعض الآخر شر محظور كالسحر والكهانة ، أما الشعر فغيره مباح ، وشره محظور .

## مزلته بين المتكلمين ورأيه في علم الكلام :

نشأ أبو حامد في أشد العصور الاسلامية نضالا بين الفرق ، ونزاعا بين النحل كما أشرنا الى ذلك آنفا ، فلما شب وجد العقول مضطربة والالباب حائرة ، وسمع حوله آراء متضاربة في علم الكلام . فالبعض يجرمه وينزله من دركات الآثام الى الدركة التي تلى الشرك بالله . وقد عُزِيَ هذا الرأى من السابقين على الغزالي الى الأئمة : مالك والشافعي واحمد بن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم من أئمة السلف . فروى عن الإمام الشافعي أنه قال : « إن أكبر الكبائر الشرك بالله ثم علم الكلام . ولو علم الناس مافى هذا العلم من هوى ضار ، لفروا منه فرارهم من الأسد » . وأثر عن الإمام أحمد أنه اعتبر جميع المتكلمين زنادقة . أما مالك فقد روى عنه أنه قال : « ألا ترون أن المتكلم كلما لاقى من هو أفصح منه وأقدر على التدليل اعتنق رأيه . وبهذا يكون قادرا على تبديل دينه في كل يوم »

أما البعض الآخر من المسلمين ، فكان لا يبيح علم الكلام فحسب ، بل كان يجعله واجبا لضرورة الاحتياج الشديد إليه في الدين . وقد أخذ هذا الفريق يدفع عن علم الكلام مستدلا بالآيات القرآنية كقول القرآن مثلا : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وقوله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » وغير ذلك من الآيات الحاتة على استعمال الحجة والبرهان .

وقد استدلوا كذلك على صحة ما ذهبوا إليه بمجادلة وقعت بين الإمام على وجمع غفير من الخوارج ، وانهت باهتداء ألقين من بينهم الى تعاليم السنة السمحة .

نشأ أبو حامد في وسط هذه المارك الطاحنة ، وبين هذه الآراء المتضاربة فلم يكن نصيرا لأحدها على الآخر دون تأمل ولا تفكير ، بل عكف على دراسة هذه المشكلة ، وأنعم فيها النظر

طويلا، فخرج منها بأن بعض المحرمات محظور لذاته كالخمر والخنزير، والبعض الآخر الأصل فيه الإباحة ولكنه ينتقل إلى الحظر عند ما يظهر شره وضرره. وعلم الكلام من هذا النوع الأخير مباح، بل ضرورى وواجب فى بعض الظروف. فإذا ركب الإنسان فيه هواه، وغلبه العناد انتقل إلى الحظر وأصبح الاستمرار فيه إثما، بل كبيرة من الكبائر. وتعرف هذه الحالة بالإحساس بتزعزع الإيمان واضطراب أسسه. فإذا وصل المتكلم إلى هذه الحالة وجب عليه الإفلاع عن علم الكلام، لأنه لا يضمن - إذا استمر - أن يعود إليه إيمانه الأول أو يفوز بإيمان آخر متين مؤسس على الحجة والبرهان. وإذا نظرنا إلى الواقع المشاهد، رأينا أن إثم الكلام أكبر من نفعه، إذ أنه أضل أكثر من هدى، لأنه فى الحالة الأولى هادم، وفى الحالة الثانية ليس إلا مساعدا على بناء كان يمكن أن يستغنى عنه فيه. وإذا، فهو ليس أساسا من أسس الإيمان، وإنما هو يضىء بعض نواحيه لمن احتاج إلى الإضاءة فحسب.

وبناء على كل ذلك، فالخاصة يجب أن يتعاملوا الكلام ليدفعوا به مهاجمات الملاحدة والزنادقة. أما العامة، فإذا كانوا فى بلد ساد فيه الإيمان، فينبغى ألا يعلموا عن الكلام أكثر من أنه خطر على الدين؛ وأما إذا كانوا فى بلد انتشرت فيه الشبه إلى حد يخشى منه على الأطفال، فيجب أن يدرس فيه الكلام حتى للجهاير ليحصنوا به أطفالهم ضد تلك الشبه، ولكنهم لا ينبغى لهم أن يتعدوا النوع الذى ذكرناه من علم الكلام فى كتابنا «الرسالة القدسية». أما الخاصة فلا بأس بأن يدرسوا منه ما فى كتابنا: «الاقتصاد فى الاعتقاد». فمن لم يكفه ما فى هذا الكتاب، فلينظر حتى يلهمه الله الحقيقة أو فيسكون مصيره أن يهوى فى الشك أو فى الجحود.

#### مذهبه فى المسائل الإسلامية العامة:

يرى أبو حامد أنه يجب على كل مسلم أن يعرف أن من الواجب فى حق الله القدم والبقاء ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، والوحدانية. وتسمى بالصفات السلبية، لأنها تسلب عن الله ما لا يليق به كالحادث والفناء وبقيّة أضدادها. وكذلك يجب فى حقه كونه حيا، عالما، مريدا، قادرا، سميعا، بصيرا، متكلما.

وعند كلامه على هذه الصفات اجتهد فى أن يتجنب كل المناقشات الضارة التى حدثت بين الصفاتية والمعتزلة حول صفات المعانى، ولعله اكتفى فى هذا الموضوع بما أورده فيه ردا على الفلاسفة فى كتاب «التهافت» لأنه يعتمد غالبا فى كتب التوحيد إلى البراهين العقلية أو العقلية البسيطة الخالية من التعمق، وهو يسلك عين هذه الطريقة حين يعرض لرؤية الله فى الآخرة ولمسألة كسب العبد المراد لله والمقدور له بدرجة تجعل كل حركانه وسكنانه مشعولة بهذه

القدرة وتلك الارادة الإلهيتين شمولاً تاماً . وبيان هذا عنده أن الله خلق التصميم والشيء المصمم عليه وأوجد الأول في الإنسان وجعله مقدوراً له ومكتسباً . فالمنسوب الى الله الاختراع والى العبد الاكتساب . وكذلك أوجد الاختيار والشيء المختار ، والمتحرك والشيء المتحرك اليه . فالاختيار والتحرك ، والمختار والمتحرك اليه ، مخلوقة لله على سبيل الاختراع ، ومقدورة للعبد على سبيل الاكتساب .

أما جميع السمعيات من : صراط وميزان وجنة وطعام وشراب ومتعة ، فهي عنده حقيقة ، ولكنه يضيف إليها بعض التأويلات كأن يقول مثلاً : إن الصراط حقيقي ، ولكن وصفه بأنه أرق من الشعرة مجاز ، لأنه يشبه الخط الهندسائي المستقيم الممتد بين النور والظلمة ، أو أن يقول : إن نعم الجنة ليس مقصوراً على المتع المادية ، بل إن فيها متعة روحية عظيمة تفوق المتع المادية كثيراً ، الى آخر ما جاء في تعليقاته على السمعيات التي يخيل الى المطلع عليها للوهلة الأولى أن الاسلام دين مادي لا ينشغل إلا بالذات الجسمية كما فهم بعض الأوربيين في هذا العصر ، وكما فهم — على ما يظهر — بعض معاصري الغزالي أو السابقين عليه من الفلاسفة والتأويليين (١) .

### نضاله مع الفلاسفة :

ليس الغزالي أول المتكلمين المسلمين الذين ناضلوا الفلاسفة ، إذ يرجع هذا النضال الى مبدأ ظهور الفكر الإغريقية في البيئات الاسلامية . وقد أشرنا الى ذلك النضال في العام الماضي في عرض حديثنا عن المدرسة الأشعرية ، فليرجع إليه من شاء . وقد كان هذا النضال يتمثل حيناً في محاورات عامة في الميادين والأسواق ، وحيناً في مناظرات أمام الخلفاء والأمراء وطوراً في رسائل يبعث بها بعضهم الى بعض ، أو كتب ينسخونها ويعرضونها في المكتبات العامة . وفي الحق أن هذا النضال كان له ما يبرره من الناحيتين ، لأن الفلاسفة كانوا يرون أن المتكلمين الشديدي المحافظة يضعون بحمودهم حاجزاً حصيناً بين العقل والدين من جهة وبين العقل والرقى الطبيعي من جهة أخرى ، ولأن المتكلمين كانوا يعتقدون أن في هذه الحرية الواسعة التي يستديحها الفلاسفة لأنفسهم في النظر وفي تلك الثقة القوية التي يمنحون عقولهم إياها خطراً داهياً على الدين ، لأن العقل في رأيهم قاصر عن إدراك كل أسرار الدين . وفوق ذلك فهو قد يضل وينخدع كما هو ديدنه ، فتسكون هنا الطامة الكبرى على الدين ومعتنقيه . ويرى « البارون كارادى فو » أن الذى روع المتكلمين هو أنهم رأوا الفلاسفة يحطون من شأن الوحي ويسوون به الفلسفة الإغريقية بل يقدمونها عليه .

(١) التأويليون هم من قالوا بأن كل ما ورد في القرآن والحديث من متع مادية لا يخرج عن كونه تمثيلاً لافهام العامة لأنه لو كان حقاً ، لحط من شأن الاسلام لغلبة الشهوات فيه .



ولما كان صوت الفلسفة في العهد الذي شب فيه الغزالي قد خفت بموت ابن سينا ولم يبق لها من أنصار إلا بضعة أفراد خاملين من تلاميذ هذا الحكيم كان من الطبيعي أن يتجه أكثر نضال أبي حامد وألدعه الى ذلك الفيلسوف العظيم ، لأن روح الفلسفة الحققة الجديرة بالدراسة والنقد كانت حالة في كتب ابن سينا . فمن أراد أن ينال من هذه الروح فلا سبيل له إلا هذه المؤلفات . وهكذا فعل الغزالي ، فكان لنقده في كتاب « التهافت » تلك القيمة التي هزت ابن رشد فيما بعد وحملته على الدفاع عن الفلاسفة بذلك الأسلوب العنيف الحاد في كتاب « تهافت التهافت » ؟

البركتور محمد غمروب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## رديلة الجهل

روى عن سهل بن عبد الله التستري الصوفي أنه قال : ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل.

ف قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل ؟

فقال : نعم ، الجهل بالجهل ، مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل ، وقيل : من الجهل صحبة الجاهل ، ومن المحال محاولة ذوى المحال . خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل . الجاهل يطلب المال ، والعاقل يطلب الكمال . الجهل بالفضائل من أقبح الرذائل .

وكان سفيان الثوري يقول : تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً ، فلائن يذم الزمان لكم ، أحسن من أن يذم بكم ، أى لأن يذم الزمان لإضاعة أهله لكم ، وعدم تقديرهم قدركم ، خير من أن يذم بكم . فيقال هذا زمان فسد أهله ، وضلوا عن سواء السبيل ، ويضربون الأمثال بأعمالكم .



## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

### في الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

تزوجت من ابنة عمتي وبعد دخولي بها ومعاشرتها وصل الى علمي أنني رضعت من جدتي لأبي ( أم عمتي ) بعد أن توفيت والدتي وكان الرضاع بعد الفطام والاستغناء عن اللبن بالطعام مع ملاحظة الشك في الرضاع هل هو في مدة حولين أم لا ؟

والذي أخبرني بكل هذا هو جدتي المرضعة لي الآن . فهل الرضاع هذا بعد الاستغناء بالطعام والفطام يحرم ولو كان في الحولين ؟ وهل يثبت التحريم بشهادة امرأة واحدة أو لا بد من شهادة عدلين ؟

محمد الشيخ

### الجواب :

إن هذا الرضاع فيه ثلاث اعتبارات تجعله لا يحرم إجماعاً .

فأولاً — أنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة ، وهذا يجعله غير محرم عند الحنفية والمالكية والشافعية .

وثانياً — أنه قد شك في حصوله في الزمن الشرعي المقدر للرضاع ، وهذا يجعله غير محرم عند الحنفية والحنابلة والشافعية .

وثالثاً — أنه قد حصل بعد الاستغناء بالطعام ، وهذا يجعله غير محرم عند المالكية ووافقهم على ذلك الحنفية في أحد قولين قويين .

وعليه ، ترى اللجنة أن هذا الرضاع لا قيمة له ، ولا بأس على الزوج أن يستمر على زوجته بهذه الزوجة عند المذاهب الأربعة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## صَفَحْتُ أَحْمَدَ الْأَفْطَاهُ بِالْفَلَسِيفَةِ الْعَجَبَةِ

لم كان الدين هو السكوة التي ينبع منها النور للانسان ؟

بيان ذلك للفيلسوف أجوست سباتيه نفسه

اتبهينا من ترجمة البحث الفلسفي الجليل لموضوع الدين من كتاب ( فلسفة الدين ) للعلامة أجوست سباتيه ، مدرس الفلسفة بجامعة باريس ، الى قوله : « الدين هو السكوة التي ينبع منها النور للانسان من خلال الصخور المطبقة عليه » ، ونعمد اليوم الى ترجمة ما ساقه من الأدلة الفلسفية على ذلك ، قال :

« لم يكن الدين هو السكوة التي ينبع منها النور للانسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالحرج وبالتضاد في حياته الباطنة ، لأنه يحمل إليه حلا نظريا لتلك المسألة . لا ، ولكن المخرج الذي يؤتينا به الدين من تلك الحيرة ، ويقترحه علينا ، هو من القبول العملي ، لا من طريق معلومات جديدة . أي باعادتنا الى الأصل نفسه الذي تتصل به ذاتنا ، وذلك بواسطة عمل أدبي من إحياء الثقة في نفوسنا بذلك الأصل الذي نشأت منه الحياة ، وبالعناية التي تنتهي إليها . ومع ذلك فإن هذا العمل المنجى لا يفرضه الدين علينا من طريق الالتزام ، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة . فإن التمسك بالحياة ليس بشيء غير غريزة حفظ الذات في العالم الطبيعي ، وهو يؤثر في العالم العقلي على الأسلوب نفسه . فهو صورة سامية لتلك الغريزة . ذلك أنها عمياء وجبرية في الكائنات الحية ، ولكنها تصطبج بالوعي والارادة في الحياة الأدبية . وهي باستحالتها هذه تظهر على صورة الدين في النوع البشري .

« هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث في الفراغ ، ولا هو مجرد من غاية . لأنه يستند على إحساس ملازم للوعي الشخصي ، وهو الشعور بتبعية الانسان للكائن العام . فن الذي في وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة ؟ ليس ما قدّر علينا قد بث فينا خارجا عنا وفي غيبتنا خصب ، بواسطة النواميس العامة لحركة التطور الوجودية ، فظهرنا في ناحية من الأرض في زمان ما موقرين بموروثات وقوى لم تُستشر فيها ولم نخترها ؛ ليس هذا خصب ، ولكننا لعدم وجداننا علة وجودنا في أنفسنا ، وفي أي مجموعة من الكائنات الأرضية ، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا ، وعن الغاية الصميمة لذاتنا ولحياتنا ، خارج أنفسنا في الكائن الأول نفسه . فلاجل أن يكون الانسان متدينا يجب عليه قبل كل شيء أن يعترف

وأن يرضى ، في ثقة وبساطة وخضوع ، بتبعية وجودنا الشخصى للأصل الأبدى الذى نشأ منه وبارتباطه به ؛ وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكافلا معه . فهذا الشعور بتبعيةتنا يهبنا القاعدة العملية التى لا تقبل التلاشى للعقيدة بوجود الخالق . وهذه العقيدة يمكن أن تبقى فى عقولنا غير محدودة ، وقد تلبث غير بالغة حدّها الأقصى من الكمال ، ولكن موضوعها لا يزال ضميرنا قط . وقد ألقيت هذه العقيدة فى روعنا ، بل فُرضت علينا فرضاً قبل إجابة أى فكر أو نظر فى أى تحديد معقول . وعلى هذا فيمكن وضع هذه المعادلة الفلسفية بدون تهيب وهى : إن الشعور بتبعيةتنا هو الشعور بوجود الله فينا . هذا هو ينبوع العميق الذى تفجرت منه عقيدة وجود الله عندنا بقوة لا يمكن دفعها ، ولكنها نبعت منها هى والدين فى آن واحد ، وبتأثير الدين نفسه .

« ومع هذا يجب أن نقدّر بأى ثمن قيل فكر الانسان هذه التبعية حيال الأصل العام للحياة . فقد رأينا أن هذا الفكر قد ثار على الأشياء الخارجية ونازعها ، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته ، ولأن الصفة الخاصة للفكر هى أن يفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء لا أن يخضع لها . فمن الذى لا يذكر فى هذه المناسبة عبارة بأسكال : « ليس الانسان إلا قسبة واهية ، فهو أضعف شئ فى الوجود ، ولكنه قسبة مفكرة . فإذا كان الوجود يستطع تحطيمها ، فإنها مع ذلك أسمى منه ، لأنها تعرف أنها تتحطم ، وتعلم أن الوجود أقوى منها ، والوجود فى غفلة عن هذا كله » ؟ فمن أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الانسان . إن العظمة السامية للعقل حيال مجموع الأشياء لا يمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة ، إلا بعامل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوجود . فإن ضميرى لا يستطيع أن يحكم بتبعية أنا والوجود فى حالة وفاق ، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الكائن العام أصلاً مشتركاً وغاية واحدة . وديكارت لم ينخدع فيما قرره ، فإن محاولة الفكر الانسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته (١) . ودائرة حياتى العقلية التى

(١) ينوه هنا بالأصل الذى ارتآه ديكارت الفيلسوف الفرنسى أساساً لفلسفته وهو إثبات الناظر وجوده أولاً بدليل لا يقبل النقض ، ثم التدرج الى إثبات ما عداها بعد الشك فيها وتقليبها على كل وجه .

ودليله على إثبات وجوده هو : أنه يفكر ، إذن هو موجود ، لأن ما ليس بموجود لا يفكر . فإذا تم له ذلك ، نظر فيما حوله شاكاً فيه حتى يثبت به بدليل محسوس . قال : « لأجل إن يصل الانسان الى الحقيقة يجب عليه أن يخرج مرة واحدة فى حياته من جميع الآراء التى أخذها عن غيره ، وبناء معلومات لنفسه من جديد مبتدئاً من الأسس التى تقوم عليها . »

انفصمت من المنازعة بين شعورى الذاتى والحوادث العالمية ، عادت فالتأمت بواسطة حد ثالث اندرج فيه الاثنان الآخران ، وهذا الحد الثالث هو احساسى بتبعيتها جميعا لله .

\*\*\*

« أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين فى روع الانسان ، بعيد المدى فى الفلسفة والتجريد ، بحيث لا يمكن أن يصح على الناس عامة ؟ فإذا أمكن به تفسير وجود الشعور الدينى فى عهود الثقافة العلمية العالية ، فهل يُستطاع أن يُفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الانسانية ؟ »

« إن الدين يُدّلون بهذا الاعتراض يُثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيدا استمرار التضاد بين عقل الانسان وحوادث الوجود فى أول عهد الانسان بالظهور كما هو فى آخره ، وهو التضاد الذى جعل حياته غير مستقرة وفى غاية الشقاء . وغاب عنهم أن هذا التضاد ليس بثمرة من ثمرات المنطق ، حتى إن الانسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفا . ولكنه يتجلى فى الأهوال التى تساور المتوحش ، وفى الانقلابات الطبيعية التى تحدث بين يديه ، وفى أخطار الغابات وبوائقها ، كما تنجلي لنا نحن فى ارتباطات أفكارنا أمام مساتير الوجود وغوامض الموت . نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس ، ولكن الهزة الدينية التى ترج الانسان وتزلزله ، هى فى حقيقتها واحدة لا تختلف . وبأسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالخرج أقل من شعور إنسان العصور الأولى به . ألم يقل : « إن الصمت الأبدى لهذا الفضاء الذى لا نهاية له يرعبنى » . وتلميذ ( كنت ) وهو محصور فى اليأس داخل الحدود التى لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية ، أو تلميذ شوبنهاور الذى تأدى الى إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والارادة ، ألم يكونا مُبهَظَين (١) تحت آصار الشعور بالعجز الأشد إيلاما للنفس ؟ وعند ما كانا يقلعان عن النظر لأجل أن يستطيعا العيش ، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبهما يطفح بالمرارة والألم ، تسكوّن تهيدة (٢) على شفاههما هى مقدمة للداء ؟ »

\*\*\*

« وعلى هذا فالدين غير قابل للزوال ، لأن ينبوعه الذى يتفجر هو منه فضلا عن أنه لا يستد (٣) ولا ينضب فى صميم الروح ، فإنه على تقيض ذلك يتسع ويعمق وتغرز مادته تحت التأثير المزدوج من النظر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة . والذين يتوقعون نضوبه يحسبون من الدين ما ليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة . والازمات الدورية التى تنتابه ويُخشى

(١) مبهَظين . من أبهظه الدين بمعنى ثقل عليه وفدحه . ومثله بهظه بفتحتين . (٢) تههد الرجل ، أخرج نفسه بعد مدة حزنا وألما . (٣) استند بمعنى انسد .

أن تأتى عليه بتغييرها لتقاليده وصوره ، لا تدل على ضعفه ، ولكنها تثبت خصوصيته وخاصة التجدد فيه . ولم يُشاهد في مدى التاريخ كله أن روح البشرية تجردت منه . فعلى هذه الدوحة الدينية التى تصعد عصارتها الالهية على الدوام ، إذا أدرك أوراقها الجفاف لطروء فصل جديد ، فلا تسقط إلا مدفوعة من أعقابها بأوراق غضبضة (١) . فالمعائد الدينية لا تموت ، ولكنها تتطور وتستحيل ، فليقلع أنصار الدين عن الهلع عليه ، وخصومه عن الفرح بوشك زواله . وما عليه الفريقان من الرجاء والخوف يدل على جهاهم بالأصل الذى يستمد منه الوجود ، وبالقاعدة التى يقوم عليها صرحه . فإذا بحثوا عنه فى سويداء قلوبهم لوجوده حيا فى وجودهم الباطن بقدر ما تظهر لهم صورته التقليدية فى الخارج مهددة بالزوال . فإن تنهّد النفس ، وتوثبها للنهوض ، أو ما ليخوليتها وهى فى أشد الضيق ، هى ظواهر أدخلت فى الحياة الدينية ، من تلك التقوى المغرضة أو الآلية . إن هنالك لساعات يكون فيها الخروج على الجماعة المصحوب بتألم وبحث ودعاء ، أقرب الى ينبوع الحياة من الجود العقلى على أرثوذكسية غير أهل لفهم العقائد فهى تحتفظ بها آثارا مصبرة . فعلى الذين يحتقرون الدين أن يحاولوا معرفة ماهيته أولا ، وأن يدركوا أنه هو الروح الباطن المبارك الذى بواسطته تتطور الحياة الانسانية وتفتح لها مخرجا الى الحياة المثالية ، وأن كل ريق إنسانى يصدر منه وينتهى إليه ، وأن الفن والأدب والعلم نفسه تنصوح زهراتها وتذبل إذا لم يتمدها هذا الروح العالى وينعشها ، وأن النفس المجردة من الدين تخنق لحرمانها من التنفس ، فالإنسان فى الواقع لا يوجد إلا إذا أوجد نفسه ، ولأجل هذا يجب عليه أن يخرج من ظلمات هذا العالم وعلائقه الى النور والى الحرية . فبدأت الانسانية فى الظهور فيه إلا بالدين ، وبه أيضا تثبت له وتبلغ الى كمالها المنشود »

محمد فريد ومبرى

(١) غضبضة أى غضة .

## الباقيات الصالحات

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها أن تقسم شاة . فقالت يا نبي الله ما بقى إلا عنقها . فقال عليه السلام : كلها بقى غير عنقها .

وهذا المعنى أخذه شاعر فقال :

يبكى على الذاهب من ماله وإنما يبقى الذى يذهب

إنما يبقى إذا ذهب فى سبيل الله ، وإعانة المحتاجين من عباده ، لا أن يكون قد ذهب

اسرافا وبدارا .

# مَجْمُوعَةُ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ

## تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٥ —

### المدرسة الثانية :

وصفنا فيما مضى حال الفقه الإسلامى فى مصر على عهد الصحابة ، و انتهينا الى أن هذا العهد كان بمثابة الإعداد والتهيئة لما بعده من العهود فى تاريخ الفقه ، فهم رضى الله عنهم ، قد غرسوا الأصول ، ووضعوا الأسس ، ثم تركوا لمن جاء بعدهم تنمية الغراس ، وتتميم البناء .  
وزيد بالمدرسة الثانية هؤلاء العلماء من الرواة والمفتين والقضاة والفقهاء ، الذين تعلموا للصحابة مباشرة ، أو بواسطة قريبة ، واشتغلوا بالفقه مادة ، وتخرجوا ، وتطبيقا ، وفتيا ، حتى أسلموه الى رجال المذاهب المعروفة فى منتصف القرن الثانى من الهجرة .

فمنهم : يزيد بن أبى حبيب ، وجعفر بن ربيعة ، ومرثد بن عبد الله ، وعمر بن الحارث ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وعبد الله بن لهيعة ، وبكير بن عبد الله الأشجع ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد وغيرهم .

وقد اشتهر من هؤلاء العلماء أربعة كان لهم ، أكثر من غيرهم ، أثر واضح فى الفقه والرواية والفتيا ، وهم : يزيد بن أبى حبيب ، وعبد الله بن لهيعة ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد .

### ١ — يزيد بن أبى حبيب :

فأما يزيد بن أبى حبيب ، فهو بربرى الأصل ، أبوه من أهل دنقلة ، ونشأ بمصر مولى للأزد ، وكان حليما عاقلا مهيبا كثير الفقه والحديث ، وهو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر ابن عبد العزيز الفتيا فى مصر : يزيد ، وعبد الله بن أبى جعفر ، وهما موليان ، وجعفر بن ربيعة وهو عربى ، ولذلك أنف العرب أن تكون الفتيا الى الموالى ، فأجابهم عمر بقوله « وما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صُعُدا وأتم لا تسمون ؟ » ١ .

وقد قدمنا أن يزيد أول من نشر الفقه بمصر ، وتكلم فى الحلال والحرام ، وكانوا قبل ذلك يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن ، وكان ليزيد مقام محفوظ ، ومنزلة

سامية بين المصريين والولاة ، وكانت البيعة إذا جاءت لخليفة ، فأول من يبايع من المصريين عبيد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال ابن لهيعة : مرض يزيد فعاده الحوثة بن سهل أمير مصر فقال : يا أبا رجاء ، ما تقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث ؟ فأعرض عنه يزيد ولم يكلمه ، فقام عنه ، فنظر إليه يزيد وقال : تقتل كل يوم خلقا وتسألنى عن دم البراغيث (١)

وقد لقي يزيد من الصحابة عبد الله بن الحارث بن جزء ، وروى عن سالم ، ونافع ، وعكرمة ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وقال الليث بن سعد : يزيد سيدنا وعلما (٢)

ولم تقف شهرة يزيد عند الفقه والحديث ، بل كان عالما بالفتن والحروب وما يتصل بالتاريخ والفتوح ، وقد اعتمد عليه عبد الرحمن بن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر » ، والسكندى فى كتابه « الولاة والقضاة » ، والطبرى فى تاريخه ، وغيرهم (٣) ، وكان من تلاميذه ابن لهيعة ، والليث بن سعد ، وتوفى سنة ١٢٨ هـ

## ٢ - ابن لهيعة :

وأما ابن لهيعة فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة (٤) الخضرى الغافقى ، كان أبوه من رجال الحديث بمصر ، فورث عنه عبد الله حبه للحديث ، وكان شغوفًا بتحصيله ، وروايته ، والرحلة فى طلبه .

روى عن عطاء ، وعمر بن دينار ، والأعرج ، وخلف ، وروى عنه الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

ورجال الحديث يختلفون فيه ، فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يضعفه ، فمن وثقه أحمد ابن حنبل ، وكثيرا ما يروى عنه فى مسنده ، ومن ضعفه البخارى والنسائى (٥)

ويقول ابن خلكان : إن ابن لهيعة كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، فقليل له فى ذلك ، فقال : ما ذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرءونه على ويقومون ، ولو سألونى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى (٦)

ولم تقف شهرته عند الحديث فقط ، فقد كان فقيها ، (٧) وتولى القضاء بمصر تسع سنين (٨) وأكثر ما ورد فى تاريخ مصر مروى عن طريقه .

ولد ابن لهيعة سنة ٩٦ هـ ، وتوفى سنة ١٦٤ هـ

(١) تاريخ التشرىم للخضرى بك ص ١٥٨ (٢) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ١ (٣) أنظر كتاب « فى الادب المصرى الإسلامى » ص ٤٢ (٤) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ١ : عبد الله بن عقبة بن لهيعة (٥) فجر الإسلام ٢٣٥ (٦) ابن خلكان ٢٤٩ ج ١ (٧) حسن المحاضرة ١٣٤ ج ١ (٨) فجر الإسلام ص ٢٣٦

## ٣ - ابن وهب :

أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ولاء ، ولد بعد انتضاء الربع الأول من القرن الثاني ، وكان المسلمون في ذلك العهد قد أخذوا يفكرون في التدوين ، فكتب مالك موطأه في المدينة ، وكتب الاوزاعي مذهبه في الشام ، وصنف ابن اسحاق في المغازي .

شهد ابن وهب هذه الحركة ، وكان كثير الرحلة والتغرب في طلب العلم والحديث ، فأتى مالكا بالمدينة ، وأخذ عنه ، وذهب الى العراق وأخذ عن علمائه . ثم ألّف كتابه « الجامع في الحديث » ، واختاره من مائة ألف حديث كان يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جُرِّحَ منها في حديث واحد (١) ، ورتب هذا الجامع على كتب : كتاب كذا . كتاب كذا الخ ، وكان هذا الكتاب الجامع مفقودا الى عهد قريب ، ثم عثر على معظمه في مدينة أذفو ، ويعمد من أقدم المخطوطات العربية في جميع المكتاب والمتاحف بالعالم إن لم يكن أقدمها جميعا ، وهو مكتوب على ورق البردي الذي عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها الى القرن الثالث الهجري (٢) .

ومن الغريب أنه كان يروى عن ابن لهيعة مع ما اشتهر عنه من الدقة والعناية في الرواية . فأنت ترى أنه من أوائل المشتغلين بجمع الحديث في الاسلام ، وكان الى جانب ذلك فقيها بارعا ، جيد الفقه ، قال ابن خلكان . إن مالكا كان يكتب الى ابن وهب « الى عبد الله بن وهب المفتي » ولم يكن يفعل هذا مع غيره ، وقال ابن يونس : جمع ابن وهب بين الفقه والرواية والعبادة .

ويعده المالكية من فقهاءهم ، وقد عدّه السيوطي بين المجتهدين المصريين ، وقال عنه إنه تفقه بمالك والليث بن سعد ، وإنما ذكرناه في رجال هذه المدرسة لأنه من أوائل المشتغلين بالحديث كما علمت .

## ٤ - الليث بن سعد :

هو أشهر رجال هذه المدرسة ، بل هو قرين مالك والشافعي وغيرها من أصحاب المذاهب ، بل قال عنه الشافعي إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، والشافعي تلميذ مالك ، فشهادته في هذا خطيرة !

ويروى أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث بن سعد فرت به مسألة ، فقال رجل من الغبراء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يحيب فيحيب هو ، فقال ابن وهب



للرجل : بل كان مالك يسمع الليث فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو . ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث ، وقال سعيد بن أيوب : لو أن مالكا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ، ولياع الليث مالكا فيمن يريد !

وقد نشأ هذا الإمام العظيم بمصر في أواخر القرن الأول للهجرة ، وثقف على علماءها الأعلام ، وطوف في الآفاق طالبا العلم والحديث ، ولقى كثيرا من التابعين وأخذ عنهم ، ومن تلاميذه عبد الله بن المبارك ، وهاشم بن القاسم ، ويونس بن محمد ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب وغيرهم .

وكان الليث الى جانب العلم والفقه كريما ثريا ، يتخذ لأصحابه الفالوج ويضع فيها الدنانير فن أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر .

وكان يأخذ بنصيبه من زينة الدنيا غير متزمت ، ولا رافض ما أحل الله له : كتب إليه مالك يقول « بلغني أنك تأكل الدقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشي في الأسواق » فأجابه الليث « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟

وقد رفعت منزله العلمية ، وثروته المالية ، ونفسه الكريمة الى مصاف العظماء في زمانه حتى قيل إن القاضي والوالي كانا من تحت أمره ومشورته لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى فيه رأيه ، وكان اذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل ، وقد أراد المنصور على أن يوليّه إمرة مصر فامتنع ، وتوفي الليث سنة ١٧٥ هـ .

وكان بينه وبين مالك بن أنس مراسلات ومساجلات فقهية تدل على براعته الفقهية ، وربما كشفت بعض النواحي من مذهبه الذي اندثر ، ولم يبق منه إلا أقوال مبعثرة في بطون الكتب .

وسنحاول الكشف عن ذلك إن شاء الله في حديث بعد هذا الحديث ؟

محمد محمد المني

المدرس بكلية الشريعة

## أغرس تستثمر

قال حكيم : من غرس العلم اجتني النباها ، ومن غرس الزهد اجتني العزة ، ومن غرس الاحسان اجتني المحبة ، ومن غرس الفكرة اجتني الحكمة ، ومن غرس الوفاق اجتني المهابة ، ومن غرس السكر اجتني المقت ، ومن غرس الحرص اجتني الدل ، ومن غرس الطمع اجتني الكمد .

والنباها في الفقرة الاولى معناها الثف والشهرة .

# حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن الزبير

موقفه من الخلافة الإسلامية

في سيرة عبد الله بن الزبير مواطن لاختبار معدن الرجولة جدير بشباب المسلمين ان يعنعوا النظر فيها حتى يتخذوا لهم منها أسوة وإماما ، وحتى يصنعوا على ضوئها مثلهم العليا في هذا العصر الذي لا يدين إلا للقوى الحازمة ، والعزائم الصادقة ؛ وسيرة عبد الله تحجب الى عقولنا أيام المحن ، وإن كرهتها غرائزنا وعواطفنا ، لأنها مصانع للبطولة التي تبنى تاريخ الأمم على قواعد المجد والعزة .

ولد عبد الله بن الزبير ، وشب ، واكتهل ، وعاش ما عاش في أيام نضال كان الموت فيها أهون ما يلقي الرجل ، ولم يكن عبد الله ليحجم عن خوض عيلم الاحداث ، وقد نهى بين آذنها ، وترعرع في لججها ، يشهد أهوالها ، ويقتحم عباها بما يحمل بين حنايا نفسه من مميزات البطولة التي تعدده لمستقبل حافل بعظائم لا يقوم لها إلا آحاد من الناس يأتون في أجيال متعاقبة ، تضربهم الحياة مثلاً لخصائص الرجولة في الانسانية الحية القوية .

ومن الطبيعي أن يكون عبد الله وفيما أشد الوفاء الى عهد عثمان رضى الله عنه ، لأن ذلك العهد هو المدرسة الاولى التي شهد فيها أبو خبيب نبوغ نفسه وعبقريتها ، وكانت منها أولى خطواته الى تحقيق ما يطمح اليه من عليا الامور وسامياتها ، فقد كانت سفارته ببشرى فتح أفريقية الى عثمان ، وخطبته التي قام بها يقص قصة الفتح ، ويصف جند المسلمين على جبهة من مشيخة المهاجرين والانصار ، فيهم أبوه ، مطلع شمس ما كانت تنطوى عليه نفسه من بطولة جيئاشة بالأمال .

لم تسكد بوادى الفتنة العثمانية تلوح في أفق المجتمع الاسلامى حتى كان عبد الله بن الزبير قائد أبطال الشباب في الدفاع عن الخليفة ، ولما اشتد الحصار اختطرت سيفه وأخذ يباب عثمان يقاتل عنه على رغم ما كان يرى من تباعد أبيه عن حزب الخلافة في ذلك الوقت ، وعلى رغم ما كان يسمع من خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من نقد سياسة عثمان وحاشيته ، ولكن ابن الزبير لم يكن بالشاب الذي ينقاد طيعا لغيره ، بل كان الرجل المعتد بنفسه ، المستقل بتفكيره ، يبنى على حاضره مستقبل حياته .

وكان له على أبيه سلطان قوى جعله ينأى بجانبه عن خولته الهاشمية ، وينحاز الى جانب الأمويين ، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « ما زال الزبير رجلا منا أهل البيت ، حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا » ، وقد أقر الزبير نفسه بهذا السلطان عليه ، فقد روى صاحب العقد : أن رجلا سأل الزبير بعد مقتل عثمان رضى الله عنه فقال له : ما بالك يا أبا عبد الله ؟ فقال الزبير : مطلوب مغلوب ، يغلبني ابني ، ويطلبني ذنبي . وبهذا السلطان غلب على خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأخرجها لحرب على وحزبه ، وقد كان بعض أكابر الصحابة يشعرون بهذا السلطان له عليها ، روى أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب : « أن عائشة رضى الله عنها قالت : إذا مر ابن عمر فأرونيهِ ، فلما مر ابن عمر قالوا : هذا ابن عمر ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيرى ؟ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، وظننت أنك لا تخلفيه — يعنى ابن الزبير — قالت عائشة : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت ، وبهذا السلطان قدمته على أبيه فى الصلاة فصلى أبوه خلفه ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : « أما صلاتى خاف ابني ، فأنما قدمته عائشة أم المؤمنين » وبهذا السلطان قاد الرجال فى وقعة الجمل ، ثم صارت اليه القيادة العامة بعد رجوع أبيه عن الحرب ، روى أن ابن الزبير دخل على عائشة رضى الله عنها فقال لها : « يا أماه ، ما شهدت موطناً فى الشرك ولا فى الاسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة غير هذا الموطن ، فانه لا رأى لى فيه ولا بصيرة » ثم قال لابنه عبد الله : « عليك بحربك ، أما أنا فراجع الى بيتى » فقال عبد الله : الآن حين التقت حلقتنا البطان ، واجتمعت الفئتان ؟ والله لا نغسل رءوسنا منها ! فقال الزبير لابنه : لا تعد هذا منى جينا ، فوالله ما فررت عن أحد فى جاهلية ولا إسلام ، قال : فما يدرك ؟ قال : يردنى ما إن علمته كسرك ، فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير ، وكان حرياً بهذا ، فهو من أشجع الناس وأصبرهم على لأواء الحرب ، وكان أحب الناس الى خالته عائشة ، روى ابن حجر فى الإصابة : أن عبد الله أخذ من وسط القتلى رمـ الجمل وفيه بضع وأربعون جراحة ، فأعطت عائشة البشير الذى بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف .

انتهت هذه الحروب ، واستقر الامر لمعاوية رحمه الله تعالى ، وقد أراد فى آخر حياته أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، ولم يكن يخشى أحداً أكثر ما كان يخشى عبادة الاسلام والحسن والحسين ، فأخذ يعد للأمر عدته ، ويستوحى دهاءه وسياسته ، ورأى أن يقدم المدينة ليروض هؤلاء النفر ، فأرسل الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، ثم تكلم معاوية فقال : « أما بعد : فإننى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بمدى يزيد ، وأنتم عبادة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأى فيهما وشديد

محبتي لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله » فتكلم القوم بكلام لم ينجح صدر معاوية ، وكان مما قال عبد الله بن الزبير : « أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بما أثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله ، وعلى خلف حسنا وحسنا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

أعرض معاوية عن البيعة ليزيد خشية أن تعاد عليه جذعة ، وارتحل عن المدينة متحينا الفرصة الموازية ، وليس له هم إلا هؤلاء النفر الذين ينافسون ابنه في مكانه من الخلافة ، ولم يزل يقتل في غارب الأحداث ، ويروض الناس ، ويشاور ، ويعطى الأقارب ، ويدانى الأباعد ، حتى استوثق من أكثر الناس ، وكان بهدائه يعلم أن عبد الله بن الزبير أصلب القوم عودا ، وأصعبهم مراسا ، وأبعدهم غاية ، وأوسعهم طموحا ، وأشدهم إنكارا لبيعة يزيد ، وقد وصف له سعيد بن العاص عامله على المدينة موقف ابن الزبير في كتاب بعث به إليه فقال : « أما الذي ظاهر بعدائه وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير » ولم يكن معاوية بالذي يستهين برجل في إهاب أبي خبيب ، فكتب إلى سعيد يقول له : « أما الذي يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحذره أشد الحذر » وقد تولى أمره بنفسه يروضه ويعجم عوده ، فقال له : ما ترى في بيعة يزيد ؟ قال عبد الله « يا أمير المؤمنين إني أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم والتفكير قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « أنت ثعلب رواع ، كلما خرجت من جحر انجحرت في آخر ، تعلمت الشجاعة عند الكبير ، في دون ما تشجعت به على ابن أخيك ما يكفيك » .

قدر العبادلة لابن الزبير صراحته الحازمة ، فأسندوا إليه أمرهم ، وفوضوا له التسليم بلسانهم عند ما رأوا تصميم معاوية على تنفيذ رأيه ، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه ، فقال : على ألا نخالفوني ، فقالوا : لا ذلك ! ثم أتوا معاوية فرحب بهم وقال لهم « قد علمتم نظري لكم وتعطى عليكم ، وصلى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، وتكلم ابن الزبير فقال : « نخيرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهي لك رغبة ، وفيها خيار ، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم : قبضه الله ولم يستخلف ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر : عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك ولده ومن رهطه الأدين من كان لها أهلا ، وإن شئت فاصنع عمر : صيرها إلى ستة نفر من

قريش ، يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفهم من لو وليها لكان لها أهلا ، فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير !

تمت البيعة ليزيد على كره جبهة من شباب قريش يقودهم عبد الله بن الزبير ، فتوجه الى مكة ، وتحصن بالبيت الحرام ، ووجه إليه يزيد الجيوش لمحاربتة ، ولكن القدر كان أسرع الى أجل يزيد ، فاضطرب أمر بني أمية ، واستشرى أمر عبد الله بن الزبير ، وبايعه الناس ، وكاد الأمر يتم له ، لولا أن عبد الله أرادها خلافة راشدة ، وأرادها منافسوه من آل مروان ملكا عضوضا ، وأرادها عبد الله ثمرية علوية ، وأرادها مزاحمة معاوية ثمرية ، روى المؤرخون أن حصين بن نمير الذي خلف مسلم بن عقبة في محاربة عبد الله بن الزبير لما بلغه موت يزيد قال لعبد الله : يا أبا بكر ، أنا سيد أهل الشام ، لا أدافع ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك ، فتعال بأبيك الساعة ، ويهدر كل شيء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معي الى الشام فأني لا أحب أن يكون الملك بالحجاز ، فقال عبد الله : والله لا أفعل ، ولا آمن من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتكح حرمة ، قال حصين : بلى ، فافعل على ألا يختلف عليك اثنان ، فأبى عبد الله ، فقال حصين : فعل الله بك وبمن يزعم أنك سيد ، والله لا تغلح أبدا .

ويحدثنا التاريخ أن أخاه مصعب بن الزبير لما فرغ من فتنة المختار بن عبيد الثقفي قدم عليه ومعه وجوه أهل العراق الذين أيدوه وثبتوا رأيتهم بالعراق ، وكلمه في الإحسان إليهم ، فقال « يا أمير المؤمنين ، قد جئتكم بوجوه أهل العراق ، ولم أدع لهم نظيرا ، فاعطهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطينهم من مال الله ، وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم » فقال رجل من القوم : أتندري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

علقتها عرضا وعلقت رجلا      غيري وعلق أخرى ذلك الرجل

ثم انصرف القوم من عنده خائبين وقد فسدت قلوبهم ، وراسلوا عبد الملك بن مروان ، ففرج إليهم بعد أن ملأ أيديهم بالأموال وهزم جيوش عبد الله وقتل مصعبا ، وهل يبعد هذا الموقف عن موقف علي بن أبي طالب وقد سأله أخوه عقيل بن أبي طالب شيئا من مال فتنه وانحاز الى معاوية ، فأغدق عليه وعلى أهل بيته ، وقديما أخذ الباحثون على عبد الله بن الزبير هذه الخلال التي تند عن خلال الرجال الذين يريدون أن يشيدوا ملكا وقيموا دولة في غير أزمان النبوة ؟

صادق إبراهيم عربود

## عمر بن عبد العزيز

- ٦ -

عبادته :

لقد كان عمر تقياً متعبداً ، ورعاً زاهداً ، وكان مع ذلك إماماً عادلاً رشيداً ، محباً للرعية مشفقاً عليها ، لم تشغله عبادة ربه عن عباد ربه ، ولم تحل بينه وبين ما يصلحهم من جليل الأمور ودقيقها ، كما أنه لم تقعد به اعباء الخلافة وما تقتضيه سياسة الملك ، من كد ونصب ، عما عليه من تأله وطاعة ، فكان يصرف النهار وبعض الليل أحياناً فيما يعود على الأمة بالخير ، فإذا فرغ من ذلك قنت آناء من الليل ساجداً قائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ولم ينس عبادة التفكير لما فيها من قوة اليقين ، وكمال الايمان ، وصدق العزيمة ، والصلة بين العبد وربّه .

حرص طوال حياته على تأنيب نفسه قبل أن تؤنب ، وعلى حسابها قبل أن تحاسب ، وعلى تذكيرها قبل أن تذكر .

محاورته مع مسلمة بن عبد الملك .

حينما احتضر عمر بن عبد العزيز ، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد أفقرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم الىّ وإلى نظرائي من قومك لكفوك مؤوتهم ، وكان ذلك خيراً لهم وأحسن . فلما سمع مقالته هذه قال : اجلسوني : فأجلسوه ، فقال : قد سمعت مقالتك يا مسلمة ، أما قولك إني أفقرت أفواه ولدى من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم . وأما ما قلت في الوصية فإني وصي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وإنما وكّدُ عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادع لى بنى ، فأتوه ، فلما رآهم تفرقت عيناه بالدموع ، وقال : بنفسى فتية تركتهم حالة لا شيء لهم ، يا بنى ، إني قد تركت لكم خيراً كثيراً لا تمرّون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً فيه ، يا بنى ، إني قد مثلت بين الأمرين : أما أن تستغنوا فيدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا وأدخل الجنة خير لى من أن تستغنوا وأدخل النار ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله . فاستجاب الله دعاءه فى أولاده فما احتاج أحد منهم ولا افتقر .

## صفاته الأدبية العالية :

كان حليماً ذا أناة ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ، يعفو عن ظلمه ، ويحسن الى من أساء اليه ، ويقضى بالحق ولو على نفسه ، فكان له ابن من فاطمة بنت عبد الملك ، فخرج يوماً يلعب مع الصبية فشجه غلام ، فاحتمله الحاضرون ومن شجه ، وأدخلوها على فاطمة ، فسمع عمر الجلبة وهو في بيت آخر ، فخرج وجاءت امرأة وقالت هو ابني وهو يتيم ، فقال عمر أله عطاء ؟ قالت لا ، قال اكتبوه في الذرية ، قالت فاطمة فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى ، فقال لها عمر : إنكم أفزعتموه .

ودخل المسجد ذات ليلة في الظلمة ، فعثر برجل نائم ، فرفع ذلك الرجل رأسه وقال له أجبونون أنت ؟ قال : لا ، فهم حارسه بضربه ، فقال له عمر إنما سألتني أجبونون أنت فقلت لا .

## نبذة من أدعيته :

كان يتضرع الى الله في كل شيء بما يناسبه ، فدخل الكعبة يوماً وقال : اللهم إنك وعدت الأمان دخال بينك ، وأنت خير منزل به في بيته ، اللهم اجعل أمان ما تؤمنني به أن تكفيني مؤونة الدنيا ، وكل هول دون الجنة ، حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين .

ووقف على عرفات يوماً وقال : اللهم إنك دعوت الى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك ، وقد جئتكم اللهم ، فاجعل منفعة ما تنفعني به أن تؤيدني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وأن تقيني عذاب النار .

وإذا نزلت به نعمة قال : اللهم لا تعطيني في الدنيا عطاء يبعدني من رحمتك في الآخرة .

وكان يخشى الشيطان ويقول : يا رب خلقتني وأمرتني ونهيتني ورغبتني في ثواب ما أمرتني به ، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه ، وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى ومجرى دمي ، إن أم بفاحشة شجعني ، وإن أم بطاعة ثبطني ، لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ينصب لي في الشهوات ، ويتعرض لي في الشبهات ، وإلا تصرف عني كيده يستذلني ، اللهم فاقهر سلطانك على سلطانك عليه ، حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك يا أرحم الراحمين .

## نساؤه :

تزوج من النساء أربعاً : هن أم لميس بنت علي بن الحارث ، وقد ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار ، وأم عثمان بنت شعيب بن زيان ، ولم تلد له غير ابراهيم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وقد ولدت له إسحق ويعقوب وموسى ، وأما عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله فأماهم أم ولد .

## نشأة أولاده :

نشأتم تنشئة دينية ، ولم يتركهم وشأنهم ، بل عهد الى سهل مولاه بتأديبهم ، وكتب اليه : « أما بعد : فاني اخترتك على علم مني بك لتأديب أولادي ، فصرفتهم اليك عن غيرك من موالى وذوى الخاصة بي ، خدشهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة ، فان عاداتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك ، فان كثرت تيمت القلب . وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاحى التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فانه بلغنى عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف ، واستماع الأغاني ، واللهج بها ، ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب الماء ، ولعمري لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن أكبر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه ، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شئ مما ينتفع به ، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت فى قراءته ، فاذا فرغ تناول قوسه ونبله ، وخرج الى الغرض حافيا ، فاذا رمى سبعة أرشاق انصرف الى القائلة فان ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول يا بنى : قبلوا فان الشياطين لا تقيل »

كان من أولاده واحد يدعى عبد الملك : نهج منهج أبيه فى الصلاح والتقوى ، فكتب له أبوه من المدينة بعد توليه الخلافة يقول : « إنه ليس من أحد رشده وصلاحه أحب الى من رشذك وصلاحك ، إلا أن يكون والى عصابة من المسلمين ، أو من أهل العهد ، يكون لهم فى صلاحه ما لا يكون لهم فى غيره ، أو يكون عليهم من فساد ما لا يكون لهم من غيره فأعن أباك على ما قوى عليه ، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزا عن العمل فيما أنعم الله به عليه وعليك فى ذلك ، ولا تفتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيما ليس فيه إن أباك كان بين ظهري إخوته يفضل عليه الكبير ، ويدنى دونه الصغير ، وإن كان الله « وله الحمد » قد رزقنى من والدى حسبا جميلا كنت به راضيا ، أرى أفضل بیره ولده على حقا حتى ولدت وولدت طائفة من إخوانك ، ولا أخرج بكم من المنزل الذى أنا فيه ، فمن كان راغبا فى الجنة وهاربا من النار فالآن التوبة مقبولة ، والذنب مغفور ، قبل نفاذ الأجل وانقضاء العمل ، وفراغ من الله للمعتقلين ، ليدينهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية ، ولا تنفع فيه المعذرة ، تبرز فيه الخفيات ، وتبطل فيه الشفاعات ، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله وويل يومئذ لمن عصى الله ، فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصد فى غناك ، وأد فرائض الله فيها ، وإياك أن تفخر بقولك ، أو تعجب بنفسك ، أو يحيل اليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك ، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك ، فاذا أنت أخطأت باب الشكر ، وتركت منازل أهل الفقر ، وكنت ممن طغى للغنى وتعجل طيباته فى الحياة الدنيا ، فاني لأعظك بهذا وإنى لكثير الإصراف على نفسى ، غير محكم لكثير من أمرى ، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم أمر



نفسه ، ويعمل في الذي خلق له من عبادة زبه ، إذا لتواكل الناس الخير ، ورفع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض ، فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ولما قرأ عبد الملك كتاب أبيه سر منه ، وعمل بالذي فيه ، واتفق أن مات في حياة أبيه وبعد أن شيع عمر جثمانه الى مقره الأخير ، وفرغ من دفنه ، استوى قائماً فأحاط الناس به ، فقال : « والله يابني ، لقد كنت باراً بأبيك ، والله ما زلت مذ وهبك الله لي مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد سروراً ، ولا أرجى لحظي من الله فيك ، منذ وضعتك في المنزل الذي صيرك الله فيه ، فرحمك الله ، وغفر ذنبك ، وجزاك الله بأحسن عملك ، ورحم الله لكل شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين »

وحزن عمر على ابنه عبد الملك حزناً عميقاً ، وشاطره ذلك رعيته ، وبالغوا فيه ، حتى ناحوا عليه ، ففهام عمر عن ذلك بقوله : « إن الله تعالى أحب قبضه ، وأعوذ بالله أن أخالف محبته . إن الله عز وجل لم يجعل لمحسن ولا لمسيء في الدنيا خلافاً ، ولم يرض بما أعجب أهلها ثواباً لأهل طاعته ، ولا ببلائها عقوبة لأهل معصيته ، فكل ما فيها من محبوب متروك ، وكل ما فيها من مكروه مضمحل ، لذلك خلقت وكتب على أهلها الفناء ، فأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها ، فاتقوا الله واعملوا ليوم لا يحزى فيه والده عن ولده ، ولا مولود هو بكم عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور » ما

محمد مصطفى شادي

## جلال العلم

لما حج هرون الرشيد ، وشخص بعد الحج الى المدينة ، أراد أن يسمع الحديث عن مالك ابن أنس ، فاستقدمه اليه ، فاعتذر الامام محتجاً بأن العلم يؤتى اليه ، ولا يأتي هو الى طالبيه . فقبل أمير المؤمنين أن يذهب بنفسه اليه ، ولكنه طلب أن يخلى المجلس من الناس . فاعتذر مالك محتجاً بأن العلم إذا منع عنه العامة لم ينتفع به الخاصة . فقبل الرشيد عذره ، وأذن للناس فدخلوا .

نقول : لا نذكر أن عالماً في العالم كله بلغ هذا المبلغ في تعظيم العلم .

# التجديد والمجددون في الاسلام

من القرن الاول الهجرى الى عصرنا الحاضر

## الامام الاعظم أبو حنيفة

علام بنى مذهب أبى حنيفة؟ كيف دونت أصوله؟ نقد هذا المذهب والرد عليه.

### (١) ما هى الأصول التى بنى عليها أبو حنيفة مذهبه؟

١ — من آثار أبى حنيفة وتجديده ، أنه أول من دون الفقه ورتبه أبوابا ، ولم يسبقه أحد فى ذلك ، لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم ، فلما رأى أبو حنيفة الفقه منتثرا جعله أبوابا مبوبة ، وكتبها مرتبة على نحو ما نراه فى كتب الفقه الآن ، فكان فى هذا نسيج وحده ، ومجددا غير مدافع ، وكان مقامه فى الفقه لا يلحق كما شهد له بذلك أبناء جلدته خصوصا مالك والشافعى ، بل كان كما قال القائل :

إمام رست للفقه فى أرض صدره جبال جبال الأرض فى جنبها قف

٢ — ولقد اتفق الجمهور من العلماء على أن أصول الشريعة الاسلامية هى : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ؛ وإن خالف بعضهم فى الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ ؛ وألحق بعضهم بهذه الأصول الأربعة أدلة أخرى ، ولضعف مداركها وشذوذ القول فيها لا تتعرض لها هنا .

٣ — فما هى الأسس التى بنى عليها المذهب الحنفى ، أهى الأسس التى اتفق عليها الجمهور ، أو أسس المخالفين له ؟

لقد أجاب الامام أبو حنيفة نفسه عن هذا السؤال ، كما وصل إلينا من طرق كثيرة ، فقال رضى الله عنه :

« إني أخذ بكتاب الله تعالى ، فإن لم أجد فى كتاب الله تعالى ، فبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم أجد فى سنة رسوله ، أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، وأدع قول من شئت منهم ، وما أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ؛ فأما إذا انتهى الأمر وجاء الى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وعطاء وسعيد بن المسيب وابن جبير ، وعد رجالا . . . فقوم اجتهدوا ، فأجتهد كما اجتهدوا » .

وقال الامام الحسن بن زياد صاحب أبى حنيفة : قال الامام أبو حنيفة : « ليس لأحد أن

يقول برأيه مع كتاب الله تعالى ، ومع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومع ما أجمع عليه الصحابة ؛ وأما ما اختلفوا فيه فنتخير من أقاويلهم أقربه الى كتاب الله تعالى ، والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نجتهد ؛ وما جاوز ذلك فالاكتفاء بالرأى في وسع الفقهاء لمن عرف الاختلاف وقاس ، وعلى هذا كانوا . وقال زهير بن معاوية : كنت عند الامام أبي حنيفة والأبيض بن الأعز يقيسه في مسألة يدبرونها بينهم ، فصاح رجل من ناحية المسجد . ظنفته من أهل المدينة . ماهذه المقاييسات ، دعوها فأول من قاس إبليس ؛ فأقبل عليه أبو حنيفة وقال له : « يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، إبليس بقياسه رد على الله سبحانه وتعالى أمره ؛ قال الله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه : خلقتني من نار وخلقته من طين » (١) . فاستكبر وركد على الله تعالى بقياسه أمره ، وكل من رد على الله تعالى أمره فهو كافر ؛ وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى ، لانا نرده الى أمر الله تعالى في كتابه ، أو الى سنة سنها رسوله أو الى اتفاق الصحابة والتابعين ، فنجتهد في ذلك حتى نرده الى الكتاب أو السنة أو الاجماع ؛ فاتبعنا في ردنا الى الكتاب والسنة والاجماع أمر الله تعالى . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؛ فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول » . فنحن ندور حول الاتباع ، فنعمل بأمر الله تعالى ؛ وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردّه ، فكيف يستويان ؟ ! » فقال الرجل : غلطت يا أبا حنيفة وثبت ، فنور الله قلبك كما نور قلبي .

فمن هذه النصوص يتبين أن الامام أبا حنيفة بنى مذهبه على أصول الشرع الاربعة التي اتفق عليها جمهور العلماء ، ولم يشذ في شئ عن هذا الاتفاق كما شذ بعضهم ، وعلى ذلك فلا وجه للحملات التي حملها عليه خصومه بغير حق لينالوا منه ، لانه لم يخرج في مذهبه عما اتفق عليه جمهور علماء المسلمين وأئمتهم ؛ وإن ذكره بالمدح والثناء جديدة بأن يحتفل بها في كل عام ، إن لم تتكرر على الدوام .

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتنوع

(٢) ما هو المنهاج الذي أثبت عليه أبو حنيفة أصول مذهبه ؟

في مسند الخوارزمي وغيره أن الامام أبا حنيفة رضي الله عنه اجتمع معه ألف من أصحابه أخذوا عنه ، وعاونوه في وضع مسائل المذهب ، وفي إعداد الجواب عنها ؛ وأجل هؤلاء

الأصحاب وأفضلهم أربعون قد بلغوا حد الاجتهاد ، فقرهم وأذنانهم وقال لهم : إني ألتج هذا الفقه وأسرجته لكم ، فأعينوني ، فكان إذا وقعت واقعة شاورهم وناظرهم وحاورهم وسألهم ، فيسمع ما عندهم من الأخبار والآثار فيها ، ويقول ما عنده ، ويناظرهم شهرا أو أكثر حتى يستقر آخر الأقوال ، فيثبته صاحبه أبو يوسف ، حتى أثبت أصول المذهب على هذا المنهاج ، شورى بين أصحابه . وكان أكثرهم من صفوة العلماء المبرزين الذين بلغوا بعلمهم درجة الاجتهاد ، وما كانوا يعملون إلا الله تعالى ولخدمة الدين والعلم والمجتمع ، ولم يكن للعادة عليهم من سلطان .

### ( ٣ ) نقد مذهب أبي حنيفة :

وجه بعض العلماء الى مذهب أبي حنيفة انتقادات وملاحظات نلخصها في مسألتين :

المسألة الأولى : إن أدلة المذهب ضعيفة .

المسألة الثانية : إن أبا حنيفة يستعمل الرأي ويقدم القياس على النص .

فاما الزعم والادعاء بأن أدلة مذهب أبي حنيفة ضعيفة ، فغير صحيح بل هو تعصب على الامام وافتراء عليه ، فهذا كتاب تخريج أحاديث الهداية للحافظ الزيلعي ، وكتب المذهب بين أيدينا ، وكل ما فيها من أدلة يدور بين الصحيح ، والحسن ، والضعيف الذي كثرت طرقه حتى ألحق بالحسن . وقد قال جمهور المحدثين بالاحتجاج بالحديث الضعيف إذا كثرت طرقه ، وألحقوه بالصحيح تارة وبالحسن تارة أخرى ؛ وهذا النوع من الضعيف يوجد كثيرا في كتاب السنن الكبرى للبيهقي التي ألفها بقصد الاحتجاج لمذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ولأقوال أصحابه ، فإنه إذا لم يجد حديثا صحيحا أو حسنا لقول الامام الشافعي أو لقول أحد من أتباعه يروي الحديث الضعيف من طريق كذا وكذا ، ويكتفي بذلك ويقول : وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، فعلى فرض وجود ضعف في بعض أدلة أقوال الامام أبي حنيفة وأقوال أصحابه فإنه لا خصوصية له في ذلك ، فإن هذا أمر يشارك في الاستدلال به جميع الأئمة كما سيأتي ، والحق أحق أن يتبع .

وقال الإمام الشعرائي : لقد منّ الله تعالى على بمطالعة مسانيد الإمام أبي حنيفة من نسخة صحيحة عليها خط الحافظ الزيلعي والحافظ الدمياطي وغيرهما ، فوجدته رضي الله عنه لا يروى حديثا إلا عن خيار التابعين الثقات العدول الذين هم من خير القرون بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم كالأسد وعلقة وعطاء وعكرمة ومجاهد والحسن البصري وأضرابهم ، فكل الرواة الذين بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ثقات عدول ليس فيهم كذاب بل هم أعلام أخيار ، وناهيك بعدالة من أخذ عنه الإمام الأعظم وارتضاه لأحكام دينه مع شدة ورع الإمام وتحرّزه وشفقته على الأمة المحمدية ، على أنه ما من راو من رواة المحدثين والمجتهدين

إلا وهو يقبل الجرح لو أضيف اليه كما يقبل التعديل ، وذلك لعدم العصمة ، ولكن العلماء رضى الله تعالى عنهم أمناء الشريعة فقدموا التعديل غالبا على الجرح لثلاثيذهب غالب الشريعة ، وقالوا إحسان الظن بالرواة المستورين أولى ، مع أن جمهور المحدثين قالوا : إن مجرد الكلام في شخص لا يسقط مروءته ، وقد خرَّج الشيخان خلق كثير ممن تكلم الناس فيهم إشارا لإثبات أدلة الشريعة ليجوز الناس فضل العمل بها ، وليكون في ذلك فضل كثير للأمة ؛ كما أن في ضمن تضعيفهم للأحاديث أيضا رحمة للأمة بتخفيف الأمر بالعمل بها وإن لم يقصد الحفاظ ذلك ، فانهم لو لم يضعفوا شيئا من الأحاديث وصححوها لعجز غالب العامة عن العمل بها ، فليس لنا ترك حديث من تكلم الناس فيه بمجرد الكلام ؛ وإنما لنا ترك ما انقرده ، وكان مخالفا للثقات ، ولو أننا فتحنا باب الترك لكل راو تكلم فيه بعض الناس لذهب معظم أحاديث الشريعة . ختم جميع أدلة الأئمة المجتهدين لا تخرج عن الشريعة ، وإذا قال أحد الحفاظ بضعف شيء من أدلة مذهب أبي حنيفة فذلك محمول جزما على ضعف الرجال النازلين في السند بعد موت الامام الأعظم إذا رَوَوْا ذلك عن طريق غير طريق الامام ؛ أما كل حديث وجدناه في مسائل الامام فهو حديث صحيح ، لأنه لو لم يكن صحيحا لما استدل به ، وكفى صحة للحديث استدلال مجتهد به ، ويجب العمل به ولو لم يروه غيره ، ولا يقدر في صحته وجود كذاب أو متهم بكذب في سنده النازل عن الامام .

ويحتمل أن يكون مراد القائل بأن في أدلة مذهب أبي حنيفة ضعيفا إنما هو في أدلة مذاهب أصحابه التي ولدوها بعده ، وفهموها من كلامه لجهل هذا بحقيقة المذهب ؛ فإن مذهب الانسان هو ما قاله ولم يرجع عنه الى أن مات لا ما فهم من كلامه ؛ وهذا الجهل يقع فيه كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم ، فيقولون مذهب أصحاب الامام مذهب له ، مع أن الامام ليس له في تلك المسألة كلام ؛ وكل هذا من قلة الورع في الدين وسوء التصرف . فأدلة مذهب أبي حنيفة صحيحة لا ريب فيها ، وإن جميع ما استدل به لمذهبه أخذه عن خيار التابعين كجاهد وعكرمة والأسود وعلقمة وأضرابهم ، فلا يتصور في أدلته ضعف بوجه من الوجوه ؛ وإن قيل بضعف حديث مستدل به ، فذلك الضعف إنما هو من حيث الراوى النازل في السند بعد موت الامام ، فلا يقدر ذلك فيما أخذ به الامام لمن استصحب النظر في الرواة وهو صاعد الى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك أدلة أتباعه وأئمة مذهبه ، فلم يستدل أحدهم بحديث ضعيف وإنما يستدل بصحيح أو حسن أو ضعيف كثرت طرقه ، وذلك أمر يشارك في الاستدلال به جميع الأئمة ، ولا خصوصية لأصحاب أبي حنيفة في ذلك ، على أن الأدلة التي لم يأخذ بها كل إمام يسيرة جدا ، وباقي الأدلة اتفقوا كلهم على الأخذ بها .

فالذين يقولون بضعف في بعض أدلة مذهب أبي حنيفة لا يفهمون كلام الامام ، ولا يعرفون

مدارك مذهبه التي هي في غاية الدقة ، ولا أدل على هذا من قول الامام الشعرائي : دخل على شخص من طلبة العلم ، فأخرج لي بعض السكراريس وقال : انظر في هذه ، فوجدت فيها جملة من المسائل المنقولة عن الإمام أبي حنيفة ، ووجدته قد شرع في ردها . فقلت له : مثلك لا يفهم كلام هذا الإمام ؟ فقال : إنما أخذتها عن الفخر الرازي ، فقلت له : والفخر الرازي بالنسبة للإمام أبي حنيفة كآحاد الرعية مع السلطان الأعظم ، ولا ينبغي لأحد من الرعية الطعن على إمامه إلا بحق واضح . ثم قال : ولقد كان لي صاحب عزيز على ، فذكر الامام أبا حنيفة بسوء ، وقال لا أقدر أسمع له ولا ؛ فنهيت عن ذلك وأفهمته ما فيه من ضرر ، وقال الإمام الخواص : مذهب الامام الأعظم هو آخر المذاهب انقراضا كما كان أول المذاهب المدونة ؛ ولا عبرة بمن يعترض على بعض أقواله من الناس فانه جاهل بمداركه . فالدعوى بأن أدلة مذهب أبي حنيفة ضعيفة غير صحيحة ولا دليل عليها ولا يدعيها إلا من لم يفهم كلام أبي حنيفة ، ولا يعرف مدارك مذهبه الدقيقة ، أما أن أبا حنيفة يستعمل الرأي ويقدم القياس على النص فسنترككم عنه بعد إن شاء الله تعالى ؟

السيرة عفيفي

## العامل بغير علم

قال الحسن البصري : لقيت قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وروى عن أوائلنا قولهم : العامل بغير علم كالسائر على غير طريق .

نقول : إننا شديدو العجب من صدور هذه الحكم العالية من قوم كانوا في أمسهم لا يعرفون ما هو العلم ، ولا يشعرون أنهم في حاجة اليه . وأن مدح العلم إيدان من المادح بأنه يعرف قيمته ، ولكن أعظم من المدح ، وأبعد غورا في تقدير قدره ، أن يعرف القائل أن العامل بغير علم يهتدى به ، كان ما يسببه عمله من الفساد أكثر مما يوجد من الإصلاح . وهذا القول يحتم طلب العلم ما لا يحتمه أي ضرب من ضروب التحضيض عليه .

# دراسة في القرآن الكريم

## كيف نشأ تفسير القرآن الكريم

وتراجم مشاهير المفسرين

لا بد للباحث في هذا الموضوع من أن يتجه إليه من ناحية أصله وأساسه ، أى قبل أن يكون تفسير القرآن الكريم « علما مدونا » ، حتى يستطيع أن يصل الى : كيف نشأ ، وكيف دُوّن ، ومن هو أول من دونه . والعوامل التى ساعدت على ذلك ؟ إذ للموضوع ناحيتان رئيسيتان : إحداهما تفسير القرآن الكريم قبل أن يصير « علما مدونا » ، والثانية بعد أن صار كذلك . والناحية الأولى ترجع الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصل ذلك وأساسه ، إذ هو الذى أنزل عليه القرآن ، فهو أعلم الناس إطلاقا به . وهو فى الوقت نفسه مكلف ببيان ما يخفى على الناس من معانيه مصداقا لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، فالسنة تبين القرآن من ناحية عمومه وخصوصه ، ومطلقه ومقيده ، وناسخه ومنسوخه ، ومنطوقه ومفهومه ، وغير ذلك مما أفاض فيه علماء أصول الفقه . بل قد أثبتوا أن السنة لا تقتصر على بيان عمومه ومطلقه الخ ، وإنما هى تخصص عمومه ، وتقيد مطلقه ، وتبين جملة ، وتوضح مشكله . وأثبتوا أكثر من ذلك . قالوا إن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، وإن منعه بعضهم كالإمام الشافعى رضى الله عنه .

أما غريب القرآن الكريم . فغير محتاج بالنسبة لأكثرهم الى بيان ، لأن غريب القرآن هو غريب اللغة ، وهم أصحابها وفرسان ميدانها ، وأبناء مجدها . وإنما قلنا بالنسبة لأكثرهم . لأنه ثبت أن بعضهم توقف فى معنى غريب القرآن وسأل عنه . فن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سألتونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وقال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا ؟ وسأل رجل ابن عباس عن قول الله جل شأنه : « وثيابك فطهر » قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من سوء أتقنع

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرني عن قول الله جل وعز : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ما السِّنة . قال : النعاس . قال زهير بن أبي سلمى :

لا سنة في طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا في أمره فتد

وسئل عكرمة عن قوله تعالى : « ذواتا أفنان » ، قال : ذواتا ظل وأغصان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فتن العصون حماما

تدعو أبا فَرَخَيْنِ صادف طائرا ذا مخلبين من الصقور قطاما

وغير ذلك .

كما أن بعض الصحابة يفهم من اللفظ المعنى الموضوع له فيحمله عليه ، ولا يتجه الى المعاني الثانوية من المجاز وغيره ، مع أن المعنى الأصلي قد يكون غير مراد إطلاقا ، مثال ذلك ما وقع لعدى ابن حاتم رضى الله عنه حينما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » ، إذ عمد الى عقل أبيض وآخر أسود ، ووضعهما تحت الوسادة ، وأكل وشرب حتى ميز بينهما على ضوء النهار ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم . فبين له معنى الخيط الأبيض والأسود ، أغنى المعنى المراد من القرآن بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » .

أما الحديث الوارد عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهو : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه ياهن جبريل » ، فمحمول عند العلماء على تفسير مغيبات القرآن ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى ، ولا يحمل على إطلاقه الذى قد يستفاد منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحفظ في تفسير القرآن ، فلم يفسر إلا آيات معدودات جاءه جبريل ببيانها ، وإلا لزم تخصيص العموم في قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ولزم أيضا تخرج أصحابه رضوان الله عليهم من تفسيره والخوض في معانيه ، ولم يتخرجوا من ذلك .

وأما الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم ، فن كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار » ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوا مقعده من النار » ، فمحمول على تفسير القرآن بمعان يعلم المفسر أن الحق غيرها ، أو على معنى أن الرأى هو الهوى ، أى أنه يفسر القرآن تفسيرا يوافق هواه دون استناد الى أقوال أئمة السلف وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الطبقة العليا في الفضل ، والمستقون العلم والحكمة منه صلى الله عليه وسلم ، فهم أصحاب الشأن الأول في تفسير القرآن الكريم وغيره ، مما يتصل بالدين وأحكامه .



وقد كانوا رضوان الله عليهم متفاوتين في العلم بمعاني القرآن . شأن أفراد كل طبقة ، فقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه مكث سنتين يريد أن يسأل عمر بن الخطاب عن المراتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعه إلا مهابته ، ثم سأل فقال له : هما حفصة وعائشة ، ومعلوم أن القرآن قد نزل منجّماً على حسب الوقائع والحوادث ، فهو يقرر أحكامها ، فقد تحدث حادثة في بيت تنزل بسببها آية ، فصاحب الحادثة يكون أعلم بها من غيره ، ثم يعلم ذلك الغير بطريق النقل والسماع .

وقد تخرج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يفسر القرآن ، فمنهم أسبقهم في الاسلام إطلاقاً ، وأفضلهم وأجلهم ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فقد روى ابن أبي مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه في تفسير حرف ( أى كلمة ) من القرآن فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع ، إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن ، وهم أبقوا على المسلمين في ذلك رضى الله عنهم .

أما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويتلوه عبد الله ابن عباس ، وهو تجرد للأمر كله . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فمن على ابن أبى طالب ، وكان على رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان يقول : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، وكان ابن مسعود يقول نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، إلا أن الإجماع مع هذا يكاد يكون منعقداً على إمامة على في هذا الشأن . روى عامر بن وائلة قال : شهدت على بن أبى طالب رضى الله عنه يخاطب فسمعته يقول في خطبته : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم به سلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار ، أم في سهل نزلت أم في جبل . فقام اليه عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى الملقب بابن الكواء ، فقال يا أمير المؤمنين ( ما الذاريات ذروا ؟ ) ففسرها .

ولما قال عبد الله بن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه المطى لايتته ، قال له رجل أما لقيت على بن أبى طالب ؟ فقال بلى قد لقيته : وعن ابن مسعود أنه قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإن علياً رضى الله عنه عنده من الظاهر والباطن .

والسبب في شهرة عبد الله بن عباس في التفسير دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . وقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة ، لكن

أحسن الطرق عنه طريق على بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ١٤٣ هـ ، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه ، ويليه طريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة ١٢٠ هـ .

وبلى عليا وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما في التفسير ابن مسعود وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين — كل هؤلاء مفسرون قبل أن يصير التفسير علما مدونا كما أسلفنا في صدر هذا المقال وسنأتى على تراجمهم كمفسرين في مقالات تالية إن شاء الله تعالى والله الموفق ؟

محمد حسين

## فضيلة الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء » .  
وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .  
وقال أديب : لا يزال الوجه كريما ما بقي حياؤه ، كما لا يزال الغصن نضيرا ما بقي لحاؤه  
( اللحاء بكسر اللام قشر خشب الشجر ) .  
أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

يعيش المرء ما استحيا كريما      ويبقى العود ما بقي اللحاء  
وما في أن يعيش المرء خيرا      إذا ما المرء فارق الحياء

نقول : رحم الله هذا الأديب الذى كان يعيش في زمان تعرف فيه للحياء قيمة ! فإذا كان قائلًا لو عاش في هذا الزمان ، ورأى أن الذين يعيشون كراما معظمين بين الدهاء هم المجردون من الحياء ، الجريثون على الأعراض يثلمونها ، والأحساب يجحدونها . وليس الذنب في ذلك ذنبهم ، ولكنه ذنب ضعاف النفوس من أهل هذا الجيل الذين يريدون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، ويخافون أن يذموا بما فعلوا . فهؤلاء هم الذين يشجعون الوقحاء ، ويمدونهم بالمال والجاه . ولو كان لهم من الفعال ما يحفظه لهم المجتمع لما خشوا بأس هؤلاء المنتقلين ، وكان المجتمع هو الذى يرد عنهم بأسمهم ، وينسكل بهم أشد تنكيل .

فإذا ذكرت أهل الحياء في هذا الدور من الفتنة الخلقية ، فحدث عن المهملين المنسيين ولا حرج . ولكن لا يبقى إلّا ريثما ينتهى دوره ، ثم يعود الحق الى نصابه .



ومن البَيان الآتى يتضح أن شهر رمضان إذا اعتبرت أيامه بالرؤية ٢٩ يوما لا ٣٠ وتم  
بأيامه الماضى من السنة ٢٦٥ يوما فإن شهر ذى الحجة غير ممكن أن يكون بعد ذلك عدد  
أيامه ٢٩ يوما فقط لأن الأهلة الاثنى عشر يجب أن تكون مدتها ٧٧٠٨ ر ٣٥٤ يوما .  
وبذلك يقتضى أن شهر الحجة وهو شهر العيد الثانى يكون ٣٠ يوما لتم الدورة القانونية  
٧٧٠٨ ر ٣٥٤ يوما فلا ينقصان شهرا العيد .

يوم	كسر	يوم	كسر	يوم	كسر	يوم	كسر
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٣٦	٢٤٧٢	٢٣٦	٢٤٧٢	٢٣٦	٢٤٧٢	٢٣٦	٢٤٧٢
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٦٥	٧٧٨١	٢٦٦	٧٧٨١	٢٦٦	٧٧٨١	٢٦٦	٧٧٨١
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٩٥	٣٠٩٠	٢٩٥	٣٠٩٠	٢٩٥	٣٠٩٠	٢٩٥	٣٠٩٠
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٣٢٥	٢٣٩٩	٣٢٥	٢٣٩٩	٣٢٥	٢٣٩٩	٣٢٥	٢٣٩٩
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٣٥٤	٧٧٠٨	٣٥٤	٧٧٠٨	٣٥٤	٧٧٠٨	٣٥٤	٧٧٠٨

والذى يظهر بجلاء - والعلم عند الله - أن الاشارة فى الحديث الشريف تنص على تنبئه صلى الله  
عليه وسلم بما يقر عليه قرار الارصاد الفلكية لحساب النيرين كما قال تعالى : ( الشمس والقمر  
بحسبان ) وإذا كانت تسمية الشهرين هى من تفسير الراوى ( خالد ) وليست من متن الحديث كما  
خلت منه رواية إسحاق بن سويد . كما وإن شهر العيد هو شهر شوال لا رمضان والعلامة  
فى شوال واضحة ٢٩٥ يوما أما الاجتهاد فى تمام شهر رمضان إذ هو عند الميقاتيين يتم به  
الماضى من أيام السنة ٢٦٦ وبحساب الرصد ٢٦٥ يوما ونصف وربيع .

ولم نجد أثرا لإدخال الأجر والثواب فى هذين الحديثين ؟

محمد مفضل

## الحرب ضد بنت الحان

جاءنا من لوزان حيث المكتب الدولي لمكافحة المسكرات عن طريق جمعية منع المسكرات بمصر النشرة الآتية تبين ما حدث من إجراءات في بعض الممالك الأوروبية ضد انتشار الخمر :  
في النرويج : حرمت سلطات مدينة ( أوسلو ) بيع الخمر فيما عدا المطاعم ، ثم ألغت هذا التحريم الآن ، فالتفتت جمعيات منع المسكرات استمراره ، وقد جاء في أحد الملتزمات المرفوعة : إن الهدوء والأمن والنظام من دعائم الحياة الاجتماعية المثلى ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا غرسنا في نفوس الشعب مقت الشراب ، وقد طلب المستر « جاكسون » رئيس الاتحاد النرويجي لمنع المسكرات الى الجمعيات مواصلة كفاحها . كما أذاع الاتحاد المحلي لمدينة أوسلو نداء بهذا المعنى .

في الدانمارك : منع بيع الكحول ، ولكن مسموح بالبيرة التي لا تحوى أكثر من ٢ ٪ من الكحول ، وصرح أخيراً ببيع أنواع من البيرة القوية ، فكانت العاقبة وخيمة ، وتجيى للعيان نتائج السكر المميتة ، ومما يزيد الأمر شناعة وخطورة أن إطفاء الأنوار إجبارى ولا يخفى ما يتهدد الأمن العام من جراء معاقرة بنت الحان . وقد صرح المستر « لارسن ليدت » لجمعيات منع المسكرات بمواصلة عملها وعقد اجتماعاتها الخاصة بيد أنه حذر عليها الاجتماعات العامة ، ومما يجدر بالذكر أن أكثر الجمعيات نشطت نشاطها الطبيعى فى كثير من البقاع .

فى السويد : بالرغم من الصعوبات الراهنة تمكنت جمعيات منع المسكرات من إحياء يومها السنوى بتاريخ ١٩ مايو فكان يوماً مشهوداً بحق . إذ عقد فيه ٧٠٠ اجتماع وقد شهد الاجتماع الذى عقد فى الهواء الطلق بمدينة استوكهولم خمسة آلاف شخص ، ومما يجمل ذكره أن الخطباء فى كل مكان ردّدوا نعمة واحدة هى « أن الوقت الحالى يتطلب منا كل ما نملك من قوة جسمانية وخلقية » .

فى سويسرة : وجه الجنرال ( جوزان ) القائد العام للجيش السويسرى الى شباب سويسرة النداء الآتى : —

إن أرض الوطن وديعة فى يد شبابها ، ولن تسلم هذه الوديعة المقدسة من يد الغاصب المستبد إلا إذا سلم الشباب من غائلة الخمر .

فاتق الله أيها الشاب فى وطنك وفى نفسك ، واعلم يقيناً أيها السويسرى الشاب أن فى يدك

وحدك الخاتم الذى ستطبع به بلادك ، فلا تملطخ جبهة الوطن ، ولا تطبعه بطابع المذلة والعار ولن يكفل لك ذلك إلا مجانبة الحجر ، فاغنم هذا الشرف بقوة عزيمتك .  
القائد العام  
الجنرال جويزان

في استراليا : أخذ اتحاد منع المسكرات على طاقته إنشاء مشارب الابن وعصير الفواكه (بدلا من بارات الحجر) ، فرحبت السلطات العسكرية بهذا العرض الجميل ، ولكن مشروعا كهذا المشروع لا يبرز في حيز الوجود بأقل من عشرة آلاف جنيه ، ومع أن هذا المبلغ لا يستهان به فقد تغلبت روح العزم والتضحية على كل العقبات ، وأضحى المشروع قاب قوسين أو أدنى من الظهور .

في فنلنده : أوضح ذلك المستر (فاجر هولم) وزير الشؤون الاجتماعية في خطاب قال فيه : « اتخذت اجراءات شديدة لمنع المسكرات أثناء الحرب ، وضوعفت هذه الاجراءات بعد انتهائها فأغلقت جميع المحال التي تحتسك ببيع الخمر . ثم فتحت ثانية في الثامن من شهر ابريل . وعقب الوزير قائلا : انضح لنا الآن أن أعصابنا التي تمالككنها تما لك يدعو الى الاعجاب أثناء الحرب فقدت توازنها الآن من جراء استهلاك المشروبات الذي ارتفع ارتفاعا محسوسا وأعلن عن نفسه بكثير من حوادث السكر المزرية ، لهذا أرى من اللازم إغلاق جميع الحانات على ألا تعود قبل منتصف مايو .

وقد طلبت جمعيات منع المسكرات ايقاف بيع المشروبات الروحية لأجل غير مسمى ، فاعتذر الوزير قائلا : إن رأى العام قد لا يعضد مثل هذا الاجراء ، لأنه يجب أن يلاحظ أن لا احتكار ببيع الخمر شأنا كبيرا في ماليتنا ، ولكننا مع هذا النزمنا خطة أخرى تخفض مستوى الاستهلاك برفع أثمان الخمر ، فالمشروب الذى كان يساوى اللتر منه ٣٦ مارك (١٥ قرشا) من بضع سنين لا يقل ثمنه الآن عن ٨٠ مارك (٣٦ قرشا) .

وأوحى الوزير الى رجال الصحافة أن يشدوا من أزر جمعيات منع المسكرات ، ثم وجه النصيح الى الجمعيات نفسها أن تلم شملها لتسفيد من مجهودها المشتت بتعدددها ، وأشار الى أنه من الكثير جدا ومن المرهق للحكومة أن تمد ثمانية وعشرين هيئة باعانات مالية ، وأشار الى أن عشرة جرائد خاصة بمنع المسكرات تصدر في فنلنده وحدها ، وأظهر أسفه لأن واحدة من هذه الجرائد لا تحظى بقارئ من الشعب غير أعضاء الجمعيات .

واختم قائلا : بأنه يرجو أن تنسج دائرة هذا الجهاد المحدود في القريب العاجل ليسكون أشمل نفعا وأعم فائدة وأكثر جدوى .  
سكرتير الجمعية

محمد رضا

مكرمة من المكارم الملكية

إن هذه الأصول المقررة كُتبت كثيرا في الصحف الدورية والكتب، وخطب بها على المنابر في كل صقع من أصقاع الأرض، ولكن تأثير كل ذلك لم يبلغ ما بلغه تأثير رعاية الفاروق للدين، وتنويعه بكرامته، من طريق عملي لا كلامي، وهو في ميعاة العصا، وريق الشبيبة.

قام كثير من الملوك لهذا الدين بالخدم الجليلة ، وتباروا في ذلك ، وبذلوا في سبيله الأموال الطائلة ، ولكنهم لم يبلغوا من التأثير بأعمالهم ما بلغه جلالة الفاروق ، لأنهم قاموا بما قاموا به أيام كان العمل للدين من أعظم المفاخر ، والتقصير في حقه من أشد الكيماثر ، وأيام كان الناس لا يصدرون إلا عن الدين ولا يردون إلا موارد ، ولكن مليكنا المفدى جاء في عهد اعتُبر الابتعاد فيه عن الدين ألعية ، والتجاهل له مدنية ، فرفع عن العقول هذا الوهم القاتل ، وأزال من النفوس هذا الجهل الفاضح ، بما سلكه في تأييد حجة الدين من سيرة لم تتفق إلا للافذاذ من المملكين في خلال العصور ، وخلائق لم تؤثر إلا عن كبار القلوب من صاغة الأمم ، فكان بعمله هذا رافعا كابوسا كان رائنا على كثير من الصدور ، فاستطاعت أن تستنشق الهواء طلقا ، وأن تواجه الحقيقة سافرة . وما هي إلا أيام حتى اتضح للغاوين أنهم كانوا في خيلائهم مأفونين ، وفي علمهم السطحي واهمين ، وأن الدين ضرورى للاجتماع ضرورة أقوى روابطه ، بل هو روحه الذى يدره ، لأنه يتحكم في الأخلاق ، وهى كما تعلم مساك الاجتماع وقوامه ، إذا ضعفت انحلت عراه ، وزايله ترابطه ، وفنى في أمم أخرى .

هذه الحقيقة قالها الدين منذ وجد، وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثا، فعملُ جلالة الفاروق لإعادة سلطان الدين في العهد الأخير، يعوق كثيرا ما فعله سابقوه من السلاطين والملوك في هذه السبيل .

لقد جلس هرون الرشيد مرة الى الامام مالك ليسمع منه ، فاعتُبر ذلك من أجل ما أثرعنه من احترام الدين وأهله ، ووُضع في أرفع مكان من تاريخه ، ولا يزال يتناقله الكتاب

والمؤرخون ، أفلا يعتبر جلوس صاحب الجلالة الفاروق للاستماع الى الامام المراغى أربع مرات فى كل رمضان ، واتخاذ ذلك تقليداً ملكياً يحتفل به كل عام ، فى حشد يحضره أركان الدولة وأقطابها ، من الأعمال المجيدة التى يسجلها التاريخ فى أرفع مكان من صحائفه الخالدة ؟ وقد أحيى جلالته سنة بطل العمل بها منذ أكثر من ألف سنة ، وتعد من الأعمال الفذة التى لها من التأثير الأدبى أكثر مما لآى عمل غيره ، ألا وهى صلاته بالناس إماماً .

لا جرم إنه ليس فى وسع الفيلسوف الذى وقف قلمه على تسجيل تطورات النفوس ، أن يسجل لملك عصرى ما هو أبعد مدى فى تهذيب نفسية الشعوب من هذا العمل الخطير . وإن من يمن نقيبة جلالة الفاروق أن يكون شيخ الدين فى عهده المبارك حضرة صاحب الفضيلة الإمام المراغى ، ذلك الرجل الضليع الذى يستطيع أن يكون عند ظن جلالته فى توثيقه نحو الإصلاح الدينى علماً وعملاً واضطلاماً بكبريات الشئون ، فجاءت جميع هذه المساعى السكريمة فى إنهاض العاطفة الدينية متلائمة متوازنة يؤيد بعضها بعضاً .

وإن مجلة الأزهر ترجو أن تحلى صفحاتها اليوم بتمام رغبة شريفة لجلالة الملك المعظم ، وهى عمل طنافس قيمة يفرش بها أرض الجامع الأزهر محط رحال العلم والعلماء منذ ألف سنة . فقد أصدر حفظه الله ، وأطال أيامه ، أمره الى سعادة ناظر خاصته أن يستصنع طنافس من أنفاس ما تصنعه المصانع المصرية لفرش أرض الجامع الأزهر ، وكان ذلك فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، فحول هذا الأمر الى وزارة التجارة لتتولى الاشراف فنياً على تنفيذه . فتم هذا العمل العظيم وسلم للجامع الأزهر ليودعه بمخزنه ريثما يتم الترتيب اللازم لتسلمه نهائياً وفرشه بالمسجد . وقد أحصى مقدار ما صنع من هذه الطنافس بالأمتار المربعة فبلغت (٣٨٩٣٠٧) وهى مساحة واسعة لم يسمع بفرش مثلها فى تاريخ المساجد وأماكن العبادة . وقد بلغت نفقاتها ٦٠٣٤ جنيهها و ١٥٠ مليم .

إن هذا العمل الكريم الذى يدل على أشرف صفات النفس وهى السخاء ، يدل فى الوقت نفسه على تعظيم شعائر الله ، وإكبار شأن المصلين المحبتين . وقد مدح الله فى كتابه العاملين على ذلك فقال : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

فليهنئ جلالة الملك المعظم ما وفقه الله له من هذه الأعمال الجليلة ، فان بعضها يرفع القدر ويخلد الذكر ، فما ظنك بجملة ما ، والله لا يضيع أجر المحسنين ؟

محمد فريد وجري



## صفحة من الصوفية الشرقية

تعاليم بوذا

المثل العليا في سياسة النفس ومجاهدة الشهوات في نظره

بوذا : هو المصلح للدين البرهمي الهندي في القرن الخامس قبل المسيح ، ولمذهبه من الاتباع في الهند والصين واليابان ما يقرب من أربعائة مليون نسمة . والدعوة اليه لا تزال قوية في تلك الأصقاع ، وقد رأينا أن نلم بحقيقة مذهبه تدويرا لعقول الباحثين في الأديان الشرقية ، فنقول :

أصله ونشأته وتاريخ حياته :

بوذا : لقبه ، ومعناه العارف ، ويلقب أيضا بشكهاموني ، ومعناه رسول المعرفة . واسمه شيرهانبا أي المصلح ، وجوتاما اسم أسرته ، وأحيانا يطلق عليه اسم أسرته . ولد بوذا قبل المسيح بنحو ٩٦٠ سنة في أسرة ملكية بأماره نيبال ، وكان وليا للعهد ، فنشأ مترفا في النعيم ، راغدا في العيش ، متوسعا في الثراء ، بعيدا عن منغصات الحياة ، حتى إذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، تم زواجه في أعظم حفل عرف في التاريخ ، وطابت له حياته الزوجية ، وظل منعما في ظل هذه السعادة الوافرة ، يقطف من ثمارها الدانية ، ويرفل في هنائه العريض ، في قصر من أعظم وأجل قصور الهند التاريخية ، وحوله الأوفياء من رجال حاشيته . ولكنه لم يلبث على هذه الحال طويلا حتى تحول نعيمه الى التفكير والتأمل في النوع الانساني ، وما هو عرضة له من الآلام والمصائب والموت ، فأخذ يفكر في وسيلة تنقذه من ذلك ، أو تخفف عليه من وقعه .

فقيل : إنه كان في طريقه يوما إلى التزهة في موكبه الرسمي ، فإذا برجل قد أكلت الأمراض لحمه وشحمه ، وهو مشرف على الموت يستغيث ، فوقع بصره عليه ، فساءل من حوله عن هذا الحيوان الغريب الذي لم يتفق له رؤية مثله قط ، ولم يصدق أن إنسانا يكون بهذا الشكل ، فقيل له إنه مريض . هنالك ساءل نفسه : ما الذي دفع بهذا الإنسان إلى هذه الآلام ؟ وما حقيقة هذه الأجسام ؟ وما هي النفس ؟ وما السبيل لمعرفة النفس ؟ وما هي الغاية من الحياة ؟ فاستغرق في هذه الأفكار ؛ وما هي إلا فترة وجيزة من الزمن حتى ترك كل شيء ، وهجر زوجته وأسرته وولايته ، وخرج إلى حيث لا يسكن أحد ، ولا يشغله عن تفكيره شيء ؛ خرج إلى الغابات والأحراش هائما على وجهه ، طالبا للحقيقة ، راغبا عن الدنيا ، زاهدا في ملاذها ،

معنيا بالتأملات ، رأئضا نفسه على خشونة الحياة ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . أقام على هذا الاعتكاف ست سنين ، حتى أحس بأن نوعا من المعرفة أشرق فى نفسه ، وقذف بنور فى قلبه ، لاحظ أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها الأحزان ، وتجعل كل إنسان فى نقص دائم ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام ، التى طم سيلها فى هذه الحياة ، اللذات والأمانى التى تتبعها الرغبات . فاللذات فى أعقابها آلام وإن تطلعت النفس إليها ، وفى الحرمان منها آلام أيضا ، فلو لا اللذات ما كانت الآلام ، ولو لا استهواء الأمانى ، ما كانت آلام الحرمان ، فلا بد إذا لدرء هذه الآلام من القضاء على أصلها ، وذلك بالقضاء على اللذات وعلى تمنيتها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض المرء نفسه على هجرها جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة على نفسه ، فكان الركن الذى أقام عليه بوذا مذهبه الخلقى هو أن يجاهد الإنسان نفسه ، ويروض إرادته على ترك اللذات ، والصبر على الحرمان منها .

فنهض يدعو اليه ، غارسا محبته فى القلوب ، بقوله وعمله ، ومبشرا به بين العالمين ، غير مبال بالصعوبات والعقبات التى كان يلاقيها فى سبيل الدعوة ، فالتف حوله شيب وشباب ، وصار له أعضاء وأنصار ، يدعون الى مذهبه ، وأخذوا يجوبون الآفاق هداة مرشدين ، واستمر عددهم ينمو ، ودعوتهم تذيب ، ومذهبهم فى الحياة ينتشر ، وبوذا من ورثهم لا يكل ولا يمل ، حتى مات فى الثمانين من عمره .

#### أوصافه :

وصل بوذا الى تعاليم وحقائق عن طريق التجربة والموازنة الدقيقة بين الأمور والآراء المختلفة ، وكان على جانب عظيم من طيب النفس ، وحسن الخلق ، ولطف المعاشرة ، وكانت نفسه معتزكا حامى الوطيس ، بين نوازع الجسم ، وما أخذ به نفسه من الرياضة ، حتى انتهى أمره بالانتصار المؤزر عليها .

#### تعاليم بوذا لضبط النفس وتربيتها :

قال : إن الأمور التى تهدى الإنسان الى الصراط المستقيم ، ليفوز بحياة سعيدة خالية من شوائب الآلام ودواعيها ، هى رياضة النفس وتربيتها ، فاختار بوذا للوصول الى تلك الغاية السامية أمورا إذا التزمها الشخص ، لا يحيد عن الجادة المستقيمة ، فى كل شأن من شئون حياته ، وهى على الترتيب الآتى :

١ — أن يتجه الإنسان فى أى أمر يريد أنجاها صحيحا مستقيما خاليا من كل سلطان للشهوة واللذة عليه . وهذا ( الاتجاه ) يؤدى الى :

٢ — تفكير صحيح مستقيم ، لا تؤثر فيه نزعات الأهواء ، ولا جموح الشهوات ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام . وهذا التفكير يقضى الى :

٣ — نورانية تجمله يستطيع الوصول الى حقائق الأمور ، من غير أن يرمق بظرفه أى حجاب من حجب اللذات والآهواء .

٤ — ولا شك أن الأمور الثلاثة المذكورة يترتب عليها أمر رابع ، وهو : اطمئنان العقل والقلب الى فكرة خاصة ، من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم المعنوى .

٥ — والمتنم للأمر الأربعة السابقة : هو اللفظ المستقيم ، بأن يكون منطق المرء مطابقاً لاعتقاده ، وهو الإقرار باللسان ، عما فى الجنان .

٦ — والأمر السادس الذى لا بد منه لسلوك الطريق الوسط هو : مطابقة العمل للعلم ، فكل منهما مؤكد للآخر أو متمم له . وهذا يؤدى الى :

٧ — الجهد الصحيح لى تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم الحق ، ومنع كل ماله صلة بالذات .

٨ — يترتب على الأصول السالفة : الحياة الصحيحة المستقيمة وهى المطلوبة .  
وجامع القول أن لب الفضائل عند بوذا هو مجاهدة الذات ، ورياضة النفس على تركها جملة ، والفناء فى سبيل الغاية ، وهى : المعرفة .

ومنشأ الرذائل عنده الذات والانهماك فيها ، وذلك يرجع الى ثلاثة أمور مرتبة ، وهى :

١ — الاستسلام للملاذ . وهذا يؤدى الى :

٢ — سوء النية فى طلب الأشياء .

٣ — ويترتب عليه الغباوة وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح .

ولأجل التربية العملية الحقيقية للنفس والاستيلاء على الإرادة ، نهى بوذا أتباعه عن الأمور الآتية :

١ — لا تقض على حياة حى ، فالبوذيون لا يقتلون الحيوانات المؤذية وغير المؤذية مطلقاً ، ولا يذبجون القرابين ولا يأكلون اللحم ، فهم نباتيون تدينا .

٢ — لا تأت أمراً يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرماً .

٣ — لا تسرق ولا تغتصب ولا تطعم فى مال لا تستحقه .

٤ — لا تكذب ولا تقل قولاً غير صحيح فيذهب بك فى الدرك الأسفل من النار .

٥ — لا تتناول مسكراً ما .

٦ — لا تأكل طعاما نضج في غير أوانه .

٧ — لا تكلل رأسك بالزهور ولا تتخذ طيبا ما .

٨ — لا ترقص ولا تحضر حفلة غنائية .

٩ — لا تقطن فراشا وثيرا .

١٠ — لا تأخذ ذهباً ولا فضة .

هذه هي التعليمات البوذية، وهي سبيل السعادة في نظر أتباعه ومريديه، ولكن هل يمكن القيام عليها؟ إننا كلما درسنا الأديان المختلفة زدنا اعتقاداً بأن الدين عند الله الاسلام، فهو أعدل طريقاً، وأقوم مذهباً، وأجمع للفضائل من كل ما عدها، في يسر وهوادة لا تدع للمتنكب عنه عذراً

أبو الحسنات محمد محيي الدين الرندي  
« طاغور »

## ما قيل في المؤاخاة

قال لقمان : إذا أردت مؤاخاة رجل فانظر فإن كانت محاسنه أكثر فارتبطه .

نقول : هذا كلام حكيم ، فإن أى إنسان لا يخلو من النقص ، فمن كان يرجو أن يصادف إنساناً لا زلة له ، طال انتظاره ، وعز مطلبه ، وعاش عمره ولا صديق له .

وقال حكيم : ليكن اختيارك من الأشياء جديدها ، ومن الإخوان قديمهم .

وقيل : لا تستبدلن أخوا مستفاداً بأخ قديم ، فإنه قد لا يستقيم لك ، وتكون قد فقدت الأول . وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام بقوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى      ما القلب إلا للحبيب الأول  
كم منزل في الأرض يألفه الفتى      وحينئذ أبداً لأول منزل

وقال حكيم : الصديق الآلوف ، لا يباع بالآلوف .

وقال مسلم بن يسار : ما من عمل إلا وأخاف أن يكون دخله ما أفسده إلا الحب في الله .

مرضت مرضاً فلم أجد شيئاً أوثق في نفسي من قوم كنت أحبهم لا أحبهم إلا الله .

## التشريع الاسلامى وأثره

الحال في المجتمع

في عدد فارط من هذه المجلة عرضنا لجانب غير يسير من سماحة الشريعة الإسلامية ، وبلوغها أقصى درجات الكمال في المسيرة لمرافق الناس وحاجاتهم ، وبيننا كيف أنها أحكمت روابط هذا المجتمع بما آتته آحاده من الوصايا الحكيمة ، وما قررته له من الأحكام العادلة ، فما من حدث تتمخض عنه الأيام والليالي إلا وله في الشريعة المطهرة مرد وعليه منها شاهد ودليل .

فالتشريع الإسلامي الذي يحكم روابط المجتمع ويضع قواعد منيعة لحماية الأسر والجماعات والأمم من الانحلال ، ثم يضع أحكاما للفرد بين المجموع فيحكم صلته بالآخر ويحبب له مكارم الأخلاق ، لأن الأخلاق في واقع أمرها حياة كل اجتماع وزاده ، وقوته وعتاده ، هذا التشريع خليق بالبقاء وجدير بأن تدوم له أحكامه ما دامت السكائنات .

عنى التشريع الإسلامي باقامة الأخلاق على المبادئ النبيلة التي تتمثل فيها حياة الفرد وحياة الأمة كاملة . وقد بُعثَ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتدعيم الأخلاق بما يصلح لتدعيمها من العقائد الصحيحة ، فكان أثره فيها معجزا من كل وجه .

فالشريعة تحض على السخاء والكرم والشكر على المعروف ، وتبين كيف يحذر الإنسان ربه وتبين عاقبة حسن الظن بالله والناس ، وتحمل إلينا بإسان صاحبها صلى الله عليه وسلم إن كمال الدين في النصيحة وإن المستشار أمين . وإن الدال على الخير كفاعله ، وإن الدرجات العلا في قضاء حوائج الناس ، وإن العدل أساس الملك ، وإن من أحب الله أحب الله والعباد ، وما إلى تلك المبادئ السامية المنصلة بالنفوس الخيرة مما لا يدخل تحت عد ولا يحيط به حصر ، والنحدث عن تلك المبادئ وما إليها كثير الشعب ، متنوع المشارب ، لا تستنفده بحوث أو أسفار ، ولا يقوم بتحليلها جيل أو أجيال ، وإنما ينشده كل فرد في جيله في الأفق الذي يعيش فيه ، وإلا فأين تشريع وضعت أصوله على الأرض ، وأحكمت مراميه بين أهل عصره وجيله ، في مبادئه وأحكامه ، من تلك المبادئ السامية التي تخضع لها النفوس بما يلقى إليها من روح الإذعان والقبول . ويهديها إلى أسنى معارج الكمال حين يتحدث التشريع الإسلامي عن الحذر من الله والناس ، فيقول سبحانه وتعالى : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم » .

وتحدثنا السنة المطهرة فيما ورد على لسان صاحب الشريعة فيما أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( الناس كإبل مائة

لا يجد الرجل فيها راحة) والحديث يقصد الى أن مائة الإبل قد لا تجد فيها راحة، وهي القوية في سيرها السهلة في خطاها، فلا يجد راكبها في سيرها عناء ولا اضطراباً في أعصابه ولا خفقاناً في قلبه، فهي نادرة الوجود في مائة من الإبل، وكذلك الانسان الكامل بخلائقه وسمو نفسه في الناس يكون صادقا فيهم قاضيا لحاجتهم لا يحمل في صدره لأحد إحنة ولا موجدة، ولا تغيره سفساف الأمور ولا سخائم الصدور، ويحدثنا عمرو بن الغفواء الخزاعي رضى الله عنه فيما أخرجه الامام أبو داود في صحيحه فيقول: «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد أن يبعثني بمال الى أبي سفيان بقسمه في قريش بمكة بعد الفتح، فقال: التمس صاحباً لجاءني عمرو بن أمية الضمري فقال: بلغني أنك تريد الخروج وتلتمس صاحباً. قلت أجل. قال فأنا لك صاحب. قال فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت قد وجدت صاحباً فقال من؟ قلت عمرو بن أمية الضمري. قال إذا هبطت بلاد قومه فأحذره. فإنه قد قال القائل أخوك البكري، فلا تأمنه. فخرجنا حتى إذا كنت بالابواء قال إني أريد حاجة الى قومي بوءان، فتلبث لي. قلت ارشداً فلما ولي تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم، فشددت على بعيري أوضعه حتى خرجت، حتى إذا كنت بالأصافر إذا هو يعارضني في رهط، فأوضعت فسبقتة. فلما رأيته قد فته انصرفوا. وجاءني فقال قد كانت لي الى قومي حاجة. قلت أجل. ومضينا حتى قدمنا مكة. فدفعت المال الى أبي سفيان» اهـ.

فصرح الحديث يدل على أن الحذر من الأصدقاء والأقرباء وذوى المنازل المختلفة عند الرجل خليفة من خلائق الرجل المؤمن؟

عباس ط

## فضل الكتابة

قال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: إني لاسمع الحديث ولا أحفظه يا رسول الله. فقال له النبي: استعن بيمينك، أى اكتبه.

وقال عليه الصلاة والسلام: قيدوا العلم بالكتابة.

وقال الشعبي: إذا سمعت شيئاً فاكتبه ولو في الحائط.

نقول: انظر كيف قلب الاسلام أوضاع الجاهلية في عشية وضحاها، فبعد أن كان العرب مشهورين بالامية حتى أطلق عليهم القرآن كلمة الأميين، أصبحوا يتواصون بالكتابة حتى على الحائط لمن لم يجد ورقاً.

# مَعْرِضُ لَأَرْءِ الْعَمِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ

مات الشرق بموت ( دارا ) وعادت اليه الحياة بواسطة محمد

النهضة الأوروبية أوجدتها المدنية الاسلامية

( سيباستيان شارلتي )

أدهش المفكرين من أهل المدنية الحاضرة سرعة نمو المدنية الاسلامية وإشراقها وإشراقا أخذ بالأبصار والعقول ، حتى فرضت زعامتها على العالم كله ، مما لم يعهد له مثيل في تاريخ التطور البشرى ، وخاصة إذا كان حامل لواء هذه المدنية شعباً لم تعرف له أصالة فيها . فكان الكثيرون من كتاب الغرب ، لأجل أن يفروا من تبعة تعليل هذا الأمر الجلل ، يغفلون التنويه بعظمة المدنية الاسلامية . والى هؤلاء وجه الكلام المسيو سيباستيان شارلتي Sébastien Charlety في جريدة ( ديبش دو تولوز ) الفرنسية فقال :

« إننا كثيراً ما نظلم المدنية الاسلامية العظيمة ، ولا نذكر أنه لما قدم سفير هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمانى ساعة حائط ، كان إعجابه بها بالغاً ، ونحن لا نمثل لأنفسنا هذا الأمر بأنه يشبه فى أيامنا هذه أن يقدم أحد رواد المجاهيل الى ملك زنجى فونوغراف ، ويسمعه من أناشيده »

« لقد بالغ الناس فى تقدير الصفات العقلية العالية للعرب الفاتحين ، مما أصبح لا يمكن تصديقه اليوم . وقد حُلت هذه المسألة على الوجه الآتى : وهو أن عرب البلاد العربية والبدو من أهل القبائل لم تدم دولتهم إلا قرناً واحداً وهى دولة الامويين . فلما جاءت الدولة العباسية سنة ( ٧٥٠ ) انسحب هؤلاء البدويون بعد أن أتموا عملهم الحربى ، وعادوا سيرتهم الاولى من الحياة المتنقلة .

« ولقد اعتاد الناس كلما ذكروا تاريخ المسلمين أن يذكروا العرب ، والواقع أن الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم لم يكونوا عرباً ، ولكنهم كانوا أهل المدن المصرية والكلدانية والسورية ، أى المتمدنين القدماء من أهل الشرق الخالد الذين كانوا قد قبلوا الاسلام ديناً لهم ، وحذقوا اللغة العربية .

« في ذلك الزمان شرع هؤلاء المتمدنون العريقون في المدنية ، الذين مر عليهم عهد المدنية اليونانية ، في ترجمة كنوز المكتبات اليونانية الى اللغة العربية ، وبواسطتهم ولدت المدنية الاسلامية . فلم تكن هذه المدنية والحالة هذه من عمل العرب ، ولكنها كانت من عمل أولئك الذين كان يطلق عليهم في القرون الوسطى اسم سارازان ( Sarrasins ) (١) وهم الورثة المباثرون لمصر وكالدانيا ( بابل ) .

« إننا نرى بأعيننا بدائع ألف ليلة وليلة ، والفن الاسباني العربي في العمارة ، ولكن يجب أن يكون الانسان متضلعا في العلوم لكي يفهم أن هؤلاء الذين اكتشفوا علم المثلثات والجبر ، والذين رقوا علم الفلك ترقية عظيمة جدا في مرادهم المزودة بأدق الآلات ، ونهضوا بعلم الطب في مستشفياتهم نهضة قوية ، وألّفوا علم الكيمياء من معلومات كانت منشورة لا تجمعها جامعة ، فعلوا ذلك كله لأنهم اعتمدوا في معارفهم على الأسلوب التجريبي .

« أما في عالم تطبيق العلوم الطبيعية ، إذا أردنا أن لا نقول شيئا عن تبرزهم في الزراعة وصناعات التعدين والنسيج ، فإن العرب أورثونا البوصلة وبارود المدافع ، وهذا الاكتشاف الضخم وهو عمل الورق ، قد أدى الى الحصول على الكتب بشمن زهيد .

« وقد قيل لنا إن نهضتنا ، كما يدل اسمها عليها ، كانت وليدة الآداب اليونانية والرومانية . وهذا كذب تقى (٢) . والحقيقة أنه وليد المدنية العربية التي جلبتها الى بلادنا الحروب الصليبية . وقد علم من عرض تاريخ المدنيات الانسانية ، وهو تاريخ هذا العالم الأرضي ، أنه قد وجدت مدنيات قديمة ذات أصول شرقية ، تلتها المدنية اليونانية الرومانية ، ثم المدنية العربية طوال عهد القرون الوسطى ، ثم عقبتهما مدينتنا الراهنة . وقد ججدنا فضل المدنية العربية علينا كما ججد اليونانيون قبلنا فضل المدنية المصرية . ولكن أمر هذا الجحود لا يهم كثيرا لأننا لم نضع من حقيقة هذا التاريخ شيئا .

« الاسلام في القرن العشرين أصبح على وشك انقلاب عظيم ، وإن تحفزاته لنهز الكرة الأرضية ، ومعنى هذا أن الامبراطورية الاسلامية تحاول أن تبعث فجأة ، والعلاج الذي يراه الشرقيون لتحقيق ذلك هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بواسطة قرارات حكومية إجبارية ، فهم يريدون أن يكونوا مع بقائهم على ما هم عليه . ولذلك تراهم يتربصون بالمدنية الغربية الدوائر . وهم على حق في ذلك إطلافا . فان مدينتنا ستبديد كما بادت المدنية اليونانية الرومانية . ولكنهاهم يتخيلون موتها فجأة ، وهناك وهمهم وهمون . فان الشرق مات قبل الآن بموت ( دارا ) (٣)

(١) هذه الكلمة مشتقة من فعل شرق ( بتشديد الراء ) وكان يطلقه أهل أوروبا على المسلمين حين زحفوا لفتح بلادهم . (٢) يريد بهذا التعبير أن الحامل عليه كان التعصب للدين . (٣) دارا ملك الفرس الذي حارب الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد وقهره واستلحق مملكته الاسيوية سنة ( ٣٣٠ ق . م .



وعاد غي بظهور محمد ، ولكن بين موته وحياته مضت ألف سنة فيجب ، علينا أن نتذكر هذا الرقم لنطعمن به أنفسنا » ١

### شارل سيباستيان

( مجلة الأزهر ) : إن ما كتبه المسيو سيباستيان وقال إنه اقتبس من كتاب ( أخلاق وعادات إسلامية ) للاستاذ ا. ف . جوتييه ، إن كان قصد منه الغض من قيمة الإسلام في تطوير العقلية الإنسانية من طريق الطفرة ، فهو لم يؤد الى ما قصده منه ، لأن هذا الدين لم يقل : إنه جاء لترقية أمة معينة ، وبعثها لنأى بالعجب العجائب طفرة ، حتى يكون في تدليله بأن الذى قام بالمدينة الإسلامية هم رجال دخلوا فيه من أجناس شتى ، كانوا قبل أن يجيئ مستعدين للارتقاء بما صقلته المدينة اليونانية الرومانية من عقولهم ، وما لطفته من شعورهم ، نقض لهذا الوعد . ولكن الإسلام قال : إنه جاء للبشر كافة ليفك عن أعناقهم أغلال التقاليد الضارة ، ويجلو عن بصائرهم غشاوات العقائد الباطلة ، ليحيوا حياة صحيحة ، يحققون بها ما الفطرة الإنسانية أهل لتحقيقه من الوصول الى المثل العليا في العلم والعمل . وهو لم يسند قيادة العالم في هذا السمات لامة من الأمم ، ولكنه ترك المجال حرا للمتنافسين فيه من كل جنس وبيئة .

فاذا صح ما ذكره المسيو سيباستيان من أن الذين قاموا بالمدينة الإسلامية هم أقوام من أعرق الشرقيين في الممالك التي افتتحها المسلمون ، وليسوا هم العرب أنفسهم ، لم يحط ذلك من قيمة الاسلام ، ولم يناقض أصلا من الاصول التي قررها ، أما قال الله في آية محكمة من كتابه : « يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ؟ » أو لم يقل رسول الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟ .

ولكن المسيو سيباستيان غاب عنه أن العرب وإن كانوا لم يبرزوا في العلوم والفنون التي ابنت عليها المدنية ، وقامت على أركانها ، بسبب ما كانوا عليه من البعد عنها ، فانهم ساهموا في إيجاد هذه المدنية مساهمة لا تقل عن مساهمة الذين باسروها بأنفسهم ، ذلك أنهم مهدوا الطريق لوجودها ، وأمدوها بالأموال لتوسيع نطاقها ، واستبقاء حياتها ، والاستفادة من ثمراتها .

يقول المسيو سيباستيان : إن عمل العرب اقتصر على فتوح البلدان ، ثم انسحبوا من الميدان ، فتولاه الذين أسلموا من أبناء قدماء المصريين والبابليين . وهذا قول بعيد عن التحقيق ، ألم يكن من العرب أمراء المؤمنين ، وكثير من علماء الدين ، وحكام الاقاليم ، والقضاة والمفتين ؟ فهل كان نقلة العلوم الذين يذكروهم يستطيعون أن يقوموا بما قاموا به من نشر الكتب العلمية

وترجمتها ، لو كانت هذه الهيئة الحاكمة لا ترضى عنه ولا تساعد عليه ؟ أنسى ما استفاد في تاريخ المسلمين أن أسراء المؤمنين ووزراءهم كانوا هم الذين أوجدوا هذه الحركة العلمية ، وسخروا المترجمين لترجمة المؤلفات اليونانية والسكندانية وغيرها ، وبذلوا لهم من الأموال ما لا يكاد يصدق العقل ، وشجعوهم تشجيعاً لم يؤثر عن قادة الأمم قبلهم ؟ فهل كان يحيل له أن هذه النهضة تقوم لها قائمة لولا هذه الأموال الطائلة التي بذلت في سبيلها ؟

فإن كان قيامها من الممكنات فلم لم تقم بنفسها قبل مجيء الاسلام ؟

إن العرب والبدو الذين يذكر أنهم قد قصروا عملهم على الفتوحات والتبسط في الأرض ، كانوا يستطيعون أن يعملوا ما عمله الفاتحون قبلهم ، من هدم المعابد والهيكل ، وإحراق ما بها من ذخائر المؤلفات ؛ أفلا يكون تركهم لها قائمة وترك ما فيها لأهلها ، من المفخر التي لم يسجل مثلها لامة فاتحة ، وهم يعلمون أن في تلك الهيكل والكنائس من أعلام الذخائر الشيء الكثير ، ففعلوا عنه كله وتركوه لأهله ، وأمنوهم على إقامة شعائرهم . ومن أغرب ما يؤثر عنهم من روح التسامح الديني أنهم تركوا للشعوب التي فتحوا بلادها كل مقدساتها حتى التماثيل التي كانوا يقدسونها .

فهل هذه الروح العالية من التسامح التي كان لا يعرفها أهل ذلك العصر ، واحترام أهلها حتى الذين بقوا منهم على يهوديتهم ونصرانيتهم أو مجوسيتهم من المترجمين ، قليلة الأثر في بعث الهمم على نقل تلك العلوم وزيادة مادتها ؟

إذا كان المسيو سباستيان يبحث عن علة بيسيكولوجية ، لسرعة تطور العقلية الاسلامية وتبريزها في العلوم الطبيعية ، ويرضيه منها ما نقلناه عنه هنا ، أليس في تسامح العرب الى هذا الحد في معاملة الأجانب عن دينهم ، والابقاء على معابدهم وهيكلهم ، وما فيها من الاصنام والانصاب ، مجال فسيح للبحث عن علة هذا التسامح في نفسية شعب كان جاهلياً بالأمس لا يقيم للتسامح وزناً ؟

الاسلام لا يهيمه أن يقوم بما أهاب بالناس للقيام به من نشر العلم وبناء المدنية الفاضلة هذا الشعب أو ذلك ، لأنه دين الانسانية قاطبة ، ولديه أبناء آدم كلهم سواء ، ولا يهيم العالم أن يعرف أى عنصر من العناصر الاسلامية تولى بناء مدينته الباهرة ، ولكن يهيمه أن يتحقق أن الدين الاسلامي هو الذي دعا إليها ، وبعث الهمم لإيجادها ، ليدحض به ما أرجف به المرجفون من أنه دين بدوى محض ، لا ينتظر منه عمل في تشييد أية مدنية ، بل هو مسوق لأن يهدم أية حضارة يصادفها في طريقه . وقد قال بهذا الضلال البعيد كتاب كثيرون ، فالذي يهيم هؤلاء اليوم أن يدرك هؤلاء أنهم في تأكيدهم ما ادعوه مبطلون .

أما إذا كان مرمى المسيو سباستيان أن يؤم قراءه أن أمر المدنية الاسلامية التي أصبح تاريخها يهر العقول ، لم يقم به العرب الأقحاح ، ولكن أولئك الذين دخلوا في دينهم من آحاد

الأمم التي كانت متمدنة، فتابعوا طريقهم في استثمار عقولهم وفنونهم، فنُسب ما عملوه للإسلام وليس الإسلام منه في شيء، قلنا إذا كان المسيو سباستيان يرى إلى هذا فهو على خطأ عظيم، لأن ما قلناه في صدر هذا المقال يكفي في إبطاله، وزيد عليه هنا: أن هؤلاء الذين يصفهم المسيو سباستيان بأنهم صاغة المدنية الإسلامية، كانوا موجودين حيث كانوا قبل البعثة المحمدية وبعدها، فكانوا قابعين في أكسار بيوتهم لا يستطيعون أن يأتوا عملا، فلم لم يقوموا ببعض ما قاموا به والإسلام باسط رواقه عليهم؟ أليس لأنهم كانوا ممنوعين عن ذلك، وكانوا لا يجدون من المحيطين بهم مشجعا عليه؟ بل كان كثير منهم يرى رأى قادتهم في أن التبحر في البحوث مخالف للدين، وأنه يجر إلى النار؟

فلا يجوز للمسيو سباستيان وهو يعلم كل هذا بالضرورة أن يغفله في سبيل تعليل ظهور العقلية الإسلامية سامية كل السموة طفرة. وما أظنه قد بلغ مراده من هذا التعليل، فقد يعترض عليه معترض قائلا:

إذا كنت تعلل ما ظهر به المسلمون في القرن الثاني من التطور العقلي بأنهم كانوا أبناء وأحفاد أقوام عاشوا في المدنية آمادا طويلة، وتمرست عقولهم بالمعارف والنظريات أجيالا متعاقبة؛ فبم تعلل تطور عقلية أصحاب النبي وآداهم في جميع أحوالهم، وعدلهم في حربهم وسلمهم، ورحمتهم برعاياهم بصرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم؟ بم تعلل هذا الانقلاب الضخم في شعب كان جاهليا جافيا بالآمس، لا يعرف غير سلطان القوة، ولا عدلا إلا ما تمليه عاداته القومية، ولا رحمة إلا ما يتفق وأوامره التقليدية، فانقلب شعبا، مدنيا لطيفا، لا يعرف لغير الحق سلطانا، ولا سوى العدل المطلق ميزانا، رحميا بالضعفاء إلى حدود الانثار، عاطفا على المقهورين إلى مستوى المساواة. فهل كانوا تمرسوا في جاهليتهم بهذه الخلل التي يستحيل أن يتحلى بها شعب من طريق الطفرة، بل لا بد لأجل أن تصبح من طبيعة الجماعة أن تتمرس بها أجيالا طوالا.

فالإسلام الذي هو أصل هذا الخير كله هو الذي يجب أن يُنَوَّه به، وأن يُشاد بذكره، وأن يُستنزل عجب الناس من اشتغاله على جميع عناصر الترقى البشرية حتى لا يعقل أن يوجد في التعاليم البشرية أجمع منه وأشمل لهذه العناصر التي تتولى اليوم النوع البشرى في جميع مجالات النشاط العقلي والمادى.

#### نهضة الإسلام في القرن العشرين.

قال المسيو سباستيان في هذا الموطن: إن المسلمين يتحركون للنهوض، وإن رجاء حركاتهم تهز السكرة الأرضية، والعلاج الذي يأخذون به أنفسهم هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بأوامر حكومية. وهم يتربصون بالمدنية الأوروبية التلاشى والانحلال الخ.

نقول : أما أن المسلمين يتحركون للنهوض ، وأن رجاء حركاتهم تهز العالم الأرضي كله فصحيح ، فأنك لا تكاد تجد ركنا من أركان الأرض لا يشغل أهله من أمر النهوض شاغل مستوعب لأفكارهم ، ولكنهم لا يرجون ذلك من طريق هلاك المزاحم لهم ، أى ليخلوا لهم الجو دونه ، وهم مقيمون على ما هم عليه من الحالة النفسية والخلقية . فهم يعرفون أنهم ما تدهوروا الى الحد الذى وصلوا اليه إلا لتركهم تعاليم الاسلام الاصلاحية ، ويرون بأعينهم أن الغربيين لم يبلغوا الى ما بلغوا اليه إلا بالقيام على أصول وآداب قرآنية . وهذا هو السبب الذى يدفعهم لأن يأخذوا بإخذ الغربيين من طريق الاكراه الحكومى .

فاذا كانوا يرون بعد هذا أن المدنية الغربية محكوم عليها بالتلاشى ، فليس ذلك لما يتسرب اليها من العلل من ناحية هذه الأصول المرقية ، ولكن من ناحية ما التاثت به من العيوب الأدبية ، وما اندس الى صميم اجتماعها من العوامل المنفكة . وهم يعلمون أن تلاشيها لن يجيء فجأة ، وإنما فى تلاشيها ستترك صدوعا فى العالم البشرى يصعب رؤها على المدنية التى تخلفها إلا بعد بذل مجهودات عنيفة .

#### مات الشرق بموت ( دارا ) وحى بمجىء محمد .

هذه أحق وأجمل عبارة نؤثرها عن كاتب أوروبى ، وهى من قبيل الاعتراف بالحق لصاحبه . ولو نظرت نظرا علميا لوجدت الأمر كما قال : فإن الأمة الممثلة لعظمة الشرق كانت فى ذلك العهد الأمة الفارسية ، وقد أдал دولتها الاسكندر ، واحتل بلادها ، ولما مات أصابها ما أصاب سائر الممالك التى دوخها العاهل المقدونى ، والتاثت من عوامل التحلل والتدهور بما تلاثت به كل بلاد تصدعت أركانها ، وتأكلت وطائدها ، فعاشت كما شاءت الحوادث ، لا كما شاءت المبادئ . وكل ما قام فى الشرق من دولة بعدها لم تقم بقواها الذاتية ، وبروحها المدبر ، ولكن قامت على أنقاض دولة سبقتها فى الوجود ثم بادت .

فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بعثت دولة الشرق بمبعثه ، ظهرت وليدة ، ثم ترعرعت ونمت ، وشبت وازدهرت ، بروح خاصة حلت بها ، حاصلة على جميع مميزات الأرواح التى كتب لها البقاء ، تحوطها العوامل المدبرة ، وتحققها الأصول المقررة ، وتترأى لها المثل العليا . فأدت للعالم رسالة لم تؤد له مثلها دولة فى مدى تاريخ الانسانية كله .

فان كانت هذه الأمة تنحفز للنهوض اليوم ، فانها إنما تفعل محفوزة ببواعثها الذاتية ، وقواها المعنوية ، غير مبطنة شرا بأحد ، على السمى نفسه الذى اتبعته فى وجودها الاول .

محمد رفيع ومبرى

### الحلل السندسية فى الآخبار والآثار الأندلسية .

تم طبع المجلد الثالث من المعاملة الأندلسية التى وضعها الكاتب الكبير الأمير شبيب أرسلان ، وهى تاريخ مفصل للأندلس ضمنه زبدة تحقيقاته الشخصية ، ومشاهداته العيانية ، وأضاف إليها ما وقف عليه فى عشرات من الكتب التى وقعت له بين عربية وأفريقية . وقد تناول هذا المجلد الكلام على شرق الأندلس ومملكة بلنسية ومرسية وجغرافيتهما وأحوالهما وأهلها ، ووصف مدن الأندلس وحصونها وتراجم رجالها وملوكها ، ودول الأندلس وملوك الطوائف الخ وهو كتاب جدير بالقراءة والاقتناء ، ليس له نظير فى المطبوعات العربية . وثمنه عشرون قرشا غير أجره البريد .

### كيف تنجح فى الحياة .

ثمانائة حكمة لمشهورى الفلاسفة والعظماء .

جمع هذه الحكم ورتبها الأستاذ الفاضل أحمد افندى أبو الخضر منسى ، وهو كتاب طريف لا يسأم مطالعه ، يتنقل به من حكمة الى حكمة بدون تكلف ، وكل منها كما لا يخفى زبدة تجربة عملية ، أو إلهام قلب متعطش للحقيقة . فالكتاب يمثل خلاصة مستنقطة لا كبر العقول التى ظهرت بين ظهرانى الناس منذ زمان طويل الى اليوم .

من أطرف ما نثره عن هذا الكتاب ، أنه افتمتجه بقول للفيلسوف تولوستوى هودوا « لأكثر الناس فى هذا العصر لو اتبعوه ، وهو : « إننا نأكل ثلاثة أضعاف ما تتطلبه أجسامنا فنصاب بأمراض لا عدد لها تصرف حبل حياتنا قبل أوانها »

إننا نوصى باقتناء هذا الكتاب وإدمان النظر فيه ، وحمل الأبناء على مطالعته ، ووضعه على متناول الأيدى من السكافة ، فانه خير ما تنغذى به العقول والأرواح . ثمنه سبعة قروش .  
مناهل العرفان فى علوم القرآن .

هذا كتاب حافل بالعلم قصد به مؤلفه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المفضل الشيخ عبد العظيم الزرقانى أن يضع كتابا جامعاً لعلوم القرآن الكريم ، فجمع فيه كل ما يتعلق بهذا المطلب الخطير جمع عالم تحرير ، وألم بما اعترى كل بحث من شبهات المشتهين ، وأقاويل الملحدين ، فجاء عملاً جمع بين القديم والحديث جمعاً يعسر أن تصادفه فى كتاب واحد فى أهم موضوع من المواضيع الإسلامية .

وإننا لنكتفى اليوم بهذه الإشارة راجين أن تتاح لنا فرصة تحليله تحليلًا دقيقًا خدمة للعلم ، وليس هذا بكثير عليه .

### جاء العلم :

لحضره الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ احمد محمد شاكر اختيارات متمعة يتحف بها قراءه الكثيرين من حين لآخر . وقد اتحفنا هذه الدفعة بكتيب جم الفائدة ، غزير المادة ، وهو كما قال عنه : « درة كريمة من درر الشافعي ، وطرفة من أبدع طرفه . حكي فيه مناظرات بينه وبين بعض أهل العلم في عصره في أصول الاستدلال ، أو إن شئت : في بعض مسائل من أصول الفقه ، وأكثر ما يدور الجدال فيه في الاحتجاج بالأخبار ، وحجة الاجماع وحقيقته ، والأمر والنهي ، ونحو ذلك » .

وهذا أبلغ ما يقال في تقرير هذا الكتاب ، وفي التحضيض على مطالعته ، وهل ينتظر أحد أن يحدثه أعلم من الشافعي في هذه الموضوعات ؟  
التشريع الاسلامي : تاريخه وفلسفته .

هذا كتاب وضعه مؤلفه حضرة الأستاذ الجليل جلال الحنفي خطيب جامع عطاء وإمام جامع الأزبك ببغداد ، وهو كما يدل عليه اسمه يبحث في حكمة التشريع الإلهي . وهو موضوع تتطال إليه الأعناق ، والشريعة الاسلامية بحر طام بالأصول الشرعية التي تعتبر مثلاً علياً لكل شريعة عادلة . والأستاذ مؤلف هذا الكتاب ذو عقلية عصرية جمع بين التالذ والطريف من المعلومات . فترجو لكتابه الرواج الذي يستحقه . وقد طبع في مطبعة السعادة بجوار المحافظة .

### الأمراض الاجتماعية وعلاجها :

هذا مؤلف جديد لحضرة الأستاذ الجليل على فكرى الذى كان أميناً أول ورئيس المغيرين لدار الكتب المصرية ، وهو مشهور بمؤلفاته الكثيرة القيمة التى يغزو بها المطبوعات العربية بين آن وآخر خدمة للعقول والقلوب فى العصر الحاضر .

كتابه الذى نحن بصدد اليوم يحاول فيه محاربة أربعة أدواء قتالة انتشرت فى كل صقع وأصاب أهله بالويلات الجسم ، وهى الزنا والمقامرة وتعاطى الخمر والتعامل بالربا الفاحش . ولست فى حاجة لأن أقول إن الأستاذ على فكرى من الأفراد القلائل الذين منحوا حب الخير لذاته ، فهو إن كتب فلا يفعل إلا مسوقاً بعاطفة إنسانية شريفة ، فيجئ ما يكتبه نصيحاً مؤثراً يقع من القلوب موقع القبول ، وهو واسع المجال فى خاصة التبئين ، فلا يترك مما يتصل بما يعالجه من الموضوعات مناسبة حتى يلم بها ، فيجد القارئ نفسه بين دين وأدب وتاريخ وفكاهة فلا يسأم المطالعة ، ولا يرجئها . وهذه مزنة لا يحظى بها جميع المؤلفين وخاصة الذين يتصدون لمعالجة القلوب .

فنشكر حضرة الأستاذ الموقر صنيعة ، ونرجو له المزيد من التوفيق .

"Read, in the name of the Lord who created; created man of congealed blood. Read thou. For thy Lord is the most Beneficient, who hath taught the use of the pen, who taught man that which he knoweth not" (1). Then the Prophet repeated the words with a trembling heart. And he returned to Khadija (namely from Mount Hira) and said: "Wrap me up, wrap me up." And he was wrapped up in a garment until his fear was dispelled. And he told Khadija what had occurred, and that he was becoming either a soothsayer or one smitten with madness. She replied: "God forbid. He will surely not let such a thing happen. For you speak the truth, you are faithful in trust, you bear the afflictions of the people, you spend in good works what you gain in trade, you are hospitable and you assist your fellowmen. Have you seen aught terrible?" Mohammad replied: "Yes." And he told her what he had seen. Whereupon Khadija said: "Rejoice, O dear husband and be cheerful. He, in Whose hands stands Khadija's life, bears witness to the truth of this fact, that thou wilt be the prophet to this people; Then she arose and went to her cousin Waraqa, son of Noufal, who was old and blind and who knew the scriptures of the Jews and Christians, and is stated to have translated them into Arabic. When she told him of what she had heard, he cried out: "Holy! Holy! Verily, this is the Namus (the Holy Spirit) who came to Moses. He will be the prophet of his people. Tell him this and bid him be of brave heart." And when the two men met subsequently in the street, the blind old student of the Jewish and Christian Scriptures spoke of his faith and trust. "I swear by Him, in Whose hand Waraqa's life is," said the old man, "God has chosen thee to be the prophet of this people. They will call thee a liar, they will persecute thee, they will banish thee, they will fight against thee. Oh, that I could live to those days. I would fight for thee." And he kissed him on his forehead (2).

The first vision was followed by a considerable period, during which Mohammad suffered much mental depression. During this period, the commentators state, the Prophet was seized with so much melancholy that he wished to throw himself when the Angel of God recalled him to his duty to mankind. The Angel spoke to the grieved heart of hope and trust, of the bright future, when he should see the people of the earth crowding into the one true faith. His destiny was unfolded to him when, wrapt in profound meditation, melancholy and sad, he felt himself called by a voice from heaven to arise and preach. "O thou who art wrapped in thy mantle, rise and warn and glorify thy Lord." (3) And he arose and engaged himself in the work to which he was called. Khadija was the first to accept his mission. She was to believe in the revelation, to abandon the idolatry of her people and to join him in purity of heart in offering up prayers to the Almighty God.

---

(1) Koran: 96: 1-4

(2) Ibn Hisham, Ibn El Athir, Miskhat-ul-Massabeeh etc.

(3) Koran 74 : 1-3



and social desolation, rival creeds and sects tearing each other to pieces, wrangling over the body of the God they pretended to worship, carrying their hatred to the valleys and deserts of Hidjaz and rending the townships of Arabia with their quarrels and bitterness" (1).

---

## II

### THE BEGINNING OF MOHAMMADAN REVELATION

Sir. William Muir, in his "Life of Mahomet" remarks: "The idolatry and moral debasement of his people, pressed heavily upon him and the dim and imperfect shadows of Judaism and Christianity excited doubts without satisfying them; and his mind was perplexed with uncertainty as to what was the true religion."

Mohammad had been wont, for years after his marriage, to seclude himself in a cave in Mount Hira, a few miles from Mecca. To this cave he used to betake himself for prayer and meditation, sometimes alone and at others with his family. There he often spent whole nights in deep thought and profound communion with the unseen, yet all-pervading God of the Universe. It was during one of those retirements and in the still hours of the night, when no human sympathy was near, that Mohammad believed that an angel came to him, to tell him that he was the Apostle of God, sent to reclaim a fallen people to the knowledge and service of their God.

Renowned compilers of authentic traditions of Islam agree in the following account of the first revelations received by the Prophet.

It was in true dreams that Mohammad received the first revelations. "He never dreamt, but it came to pass as regularly as the dawn of the day" (2). After this, Mohammad continued to seclude himself in the cave of Mount Hira and to worship there day and night. He would, whenever he wished, return to his family at Mecca and then go back again, taking with him the necessities of life. Thus he continued to return to Khadija, from time to time, until one day the revelation came down to him and the angel appeared to him and said: "Read;" but as Mohammad was an illiterate man, having never received any instruction in reading or writing he said to the Angel: "I am not a reader". The Angel took hold of him and squeezed him as much as he could bear, and then said again: "Read;" and the Prophet said: "I am not a reader." Then the Angel again seized the Prophet and squeezed him for the third time and said:

---

(1) Sayed Ameer Ali.

(2) Mishkat - ul - Masabeeh.



stone was thus deposited in its place, and the rebuilding of the temple was completed without further interruption (1). It is related that, about this period, a certain Osman, son of Howairith, supported by Byzantine gold, made an attempt to convert the territory of Hidjaz into a Roman dependency, but the attempt failed, chiefly through the instrumentality of Mohammad (2).

These are nearly all the public acts related by historians, in which Mohammad had taken part within the 15 years after his marriage with Khadija. As for his private life he is described to have been ever helpful to the needy and the helpless. His uncle Abu Talib had fallen into distress through his endeavours to maintain the old position of his family, and Mohammad, being rather rich at this time by his alliance with Khadija, tried to discharge part of the debt of gratitude and obligation which he owed to his uncle, by undertaking the bringing up and education of his son Ali; and a year later he adopted Akil, another of his uncle's sons.

Khadija had born Mohammad three sons and four daughters, all of whom died in childhood, but in loving Ali he found much consolation.

About this time Mohammad set a good example of humanity which created a salutary effect upon his people. His wife Khadija, to gratify her husband, made him a present of a young slave, named "Zaid" son of Haritha, who had been brought as a capture to Mecca and sold to Khadija. When Haritha heard that Mohammad possessed Zaid, he came to Mecca and offered a large sum for his ransom. Whereupon Mohammad said; "Let Zaid come hither, and if he chooses to go with you". addressing the boy's father, "take him without ransom; but if it be his choice to stay with me, why should I not keep him?" And Zaid, being brought into Mohammad's presence, declared that he would stay with his master who treated him, as if he were his only son. Mohammad no sooner heard this, than he took Zaid by the hand and led him to the black stone of Kaaba where he publicly adopted him as his son and constituted him his heir, to which the father acquiesced who then returned home well satisfied. Henceforward Zaid was called the son of Mohammad (3).

Mohammad was now approaching his 40th year and his mind was ever engaged in profound contemplation and reflection. "Before him lay his country, bleeding and torn by fratricidal wars and intolerable dissensions; his people, sunk in barbarism, addicted to the observation of rites and superstitions, were, with all their desert virtues, lawless and cruel. His two visits to Syria had opened to him a scene of unutterable moral

---

(1) Sale.

(2) Ibid.

(3) Sale.

naturally caused feelings of pity and sorrow in the heart of the sensitive youth. Such were to him scenes of social misery and religious degradation, characteristic of a depraved age.

When Mohammad was 25 years old, he travelled once more to Syria as the factor of a noble and rich Koreishite widow named Khadija, and having proved himself faithful in the commercial interests of that lady, was soon rewarded with her hand in marriage. This marriage proved fortunate and singularly happy. Khadija was much the senior of her husband, but in spite of the disparity of age between them, the tenderest devotion on both sides existed. This marriage gave him the loving heart of a woman who was ever ready to console him in his despair and to keep alive within him the feeble, flickering flame of hope, when no man believed in him — not even himself — and the world appeared gloomy in his eyes. (1)

Till he reached the 30th year of his age, Mohammad was almost a stranger to the outside world. Since the death of his grandfather, authority in Mecca was divided among the ten senators who constituted the governing body of the Arabian Commonwealth. There was no such accord among them as to ensure the safety of individual rights and property. Though family relations afforded some degree of protection to citizens, yet strangers were frequently exposed to persecution and oppression. In many cases they were robbed, not only of their goods, but even of their wives and daughters. At the instigation of the faithful Mohammad, an old league, called the Federation of "Fûdûl", i.e. favours, was revived with the object of repressing lawlessness and defending every weak individual, whether Meccan or stranger, free or slave, against any wrong or oppression, to which he might be the victim, within the territories of Mecca.

When Mohammad reached the 35th year of his age, he settled by his judgment a grave dispute which almost threatened to plunge the whole of Arabia into a fresh series of her oft-recurring wars. In rebuilding the sacred temple of the Kaaba, in 605 A.D., the question arose as to who should have the honour of raising the black stone, the most holy relic of that temple, into its proper place. Each tribe claimed that honour. The senior citizen advised the disputants to accept for their umpire in this difficulty the man who would be the first to enter from a certain gate. The proposal was agreed upon, and the first man who entered the gate, was Mohammad, "The Ameen". Mohammed gave them an advice which served to satisfy all the contending parties. He ordered the stone to be placed on a piece of cloth, and each tribe to share the honour of lifting it up, by taking hold of a part of the cloth. The

---

(1) Hugh's Dictionary of Islam.

## BOOK II

# THE LIFE OF PROPHET MOHAMMAD

### I

### BIRTH AND EARLY YEARS

Mohammad, literally, the highly praised, is the chief name of the great Arabian Prophet and founder of the religion of Islam, wrongly called after him Mohammadanism. He was born at Mecca, the chief town of Arabia, in the year 570 A.D. He was the posthumous son of Abdullah who belonged to the family of Hashim, the noblest family of the Koreish section of the Arabian race. His grandfather Abdul Muttalib who was directly descended from Ishmael held the high office of custodian of the Kaaba, the common Pantheon of pagan Arabia, and was virtual head of the Meccan Commonwealth.

The birth of Mohammad is stated to have been attended by many remarkable portents. (1)

Before the child completed the 6th year of his age, his mother died and the doubly orphaned Mohammad was under the charge of his grandfather Abdul Muttalib who took the most tender care of him. But the old chief died two years afterwards. On his death-bed he confided to his son Abu Talib the charge of the little orphan. When Mohammad was twelve years old, he accompanied his uncle Abu Talib on a mercantile journey to Syria and they proceeded as far as Busra. The journey lasted for some months. It was at Busra that the Christian monk Bahira met Mohammad, and he is related to have said to Abu Talib "Return with this boy and guard him against the hatred of the Jews, for a great career awaits this your nephew". After this travel, the youth of Mohammad seems to have been passed uneventfully, but all authorities agree in ascribing to him such correctness of manners and purity of morals, as were rare among the people of Mecca. The fair character and the honourable bearing of the unobtrusive youth won the approbation of the citizens of Mecca, and by common consent he received the title of "Al Amin", the faithful. (2)

In his early years, Mohammad was not free from the cares of life. He had to watch the flocks of his uncle, who like the rest of the Hashimites, had lost the greater part of his riches.

From youth to manhood he led an almost solitary life. The lawlessness, rife among the Meccans, the sudden outbursts of causeless and sanguinary quarrels among the tribes frequenting the fair of Okaz (the Arabian Olympia), the immorality and scepticism of the Koreishites,

---

(1) Ibn Athir. Ibn Hisham etc.

(2) Hugh's Dictionary of Islam, pp. 368 - 369.

## VI

# THE CITY OF MECCA

---

Mecca is the chief city of Arabia. It derives its wealth from the prodigious concourse of people who assemble there yearly as pilgrims from all parts of the world where Islam flourishes. Advantage is taken of this to hold a great fair for all kinds of merchandise. The possession of the temple of Kaaba gave Mecca special sanctity and predominance over all the other cities of the peninsula. The soil about Mecca is so barren that it produces nothing but what grows in the desert. Having, therefore, no corn or grain of their own growing, the Meccans are obliged to bring it from other places, and Hashim, Mohammad's great grandfather, then prince of his tribe, in order to secure an adequate supply of provisions for his tribe, appointed two caravans to set out yearly for that purpose, the one in summer and the other in winter.

These caravans of purveyors are referred to in the Koran. Thus, Mecca from the earliest time was the centre, not only of the religious associations of pagan Arabia, but also of its commercial activity.

During the period prior to the birth of Mohammad, the government of Mecca was an Oligarchy composed of the leading members of the house of Kossay, the Prophet's ancestor. The governing body consisted of ten senators who were styled Sherifs. These decemvirs occupied the first place in the state, and their offices were hereditary in favour of the eldest member of each family. Their functions were: (1) The guardianship of the keys of the temple of the Kaaba, (2) the administration of the water supplied by the wells in Mecca and its neighbourhood, (3) the civil and criminal magistracy, (4) the control of foreign affairs, (5) the custody of the standard under which the nation marched against its enemies, (6) the administration of the poor-tax derived from the alms of the nation and employed in providing food for the poor pilgrims, (7) the presidency of the national assembly, (8) the guardianship of the council chamber, which office conferred upon its holders the right of convoking the assembly, (9) the administration of the public finances and (10) the guardianship of the divining arrows, by which the judgment of the gods and goddesses was obtained. At the same time, it was an established custom that the oldest member exercised the greatest influence, and bore the title of chief and lord par excellence. At the time of the Prophet, his uncle Abbas was the senior member of these Senators (1).

---

(1) Sayed Amir Aly "The Spirit of Islam."

V

## THE BRANCHES OF KNOWLEDGE CULTIVATED BY THE ARABS BEFORE ISLAM

The chief branches of knowledge the Arabs cultivated before the rise of Islam, were their history and the genealogical descent of families; such a knowledge of the stars as to be able to foretell the changes of weather; and the interpretation of dreams (1).

They used to pride themselves very much on the nobility of their families, and so many disputes arose in respect of this, that it is in no way surprising that they took great pains in recording the genealogies of their families.

Their knowledge of the stars was procured through long experience and not from regular study of astronomy (2). The stars or planets, by which they most usually forecast the weather, were called "Al-An'waa" or "the houses of the moon". They are 28 in number and divide the Zodiac into as many parts, through one of which the moon passes every night. As some of them set in the morning, others rise opposite to them, which happens every thirteenth night; and from their rising and setting, the Arabs by long experience observed, what changes happened in the air, and at length came to ascribe to them divine power, saying that their rain came from such or such a star. This expression the Prophet condemned, and he absolutely forbade them to use it in the old sense, unless they meant no more by it, than that God has so ordained that, when the moon was in such or such a "house" or at the setting or rising of such a star, it should rain or be windy, or be hot or cold.

The early Arabs, therefore, seem to have made no further progress in astronomy, although they afterwards cultivated this science so successfully that they were able to observe the influence of stars on the weather, and to give them names; and it was only natural that they should do this, when we consider their pastoral mode of life, spent for the greater part under the open sky (3). The names they ascribed to the stars, generally were connected with cattle or flocks and they were so nice in distinguishing them, that no language has so many names for stars and heavenly bodies as Arabic, for though they have since borrowed the names of several constellations from the Greeks, yet far greater numbers are of their own finding and much more ancient, particularly those of the more conspicuous stars and those of the lesser constellations which are contained within the greater, and were not observed or named by the Greeks (4).

---

(1) Al Shahrastani.

(2) Abul Farag.

(3) G. Sale, Prelim. Disc.

(4) Ibid.

assistance, that they might see what each one gave, and form a judgment accordingly. This was agreed to, and Abdallah's champion, going to him, found him with his foot in the stirrup, just mounting his camel for a journey, and thus accosted him: "Son of the uncle of the Apostle of God, I am travelling and in necessity". Upon which, Abdallah alighted and bade him take the camel, with all that was upon it, but desired him not to part with a sword which happened to be fixed to the saddle, because it had belonged to Ali, the son of Abu-Talib. So he took the camel and found on it some vests of silk and 4000 pieces of gold; but the thing of greatest value was the sword. The second went to Kais Ebn Saad, whose servant told him, that his master was asleep, and desired to know his business. The friend answered that he came to ask Kais's assistance, being in want on the road. Whereupon the servant said that he had rather supply his necessity than wake his master, and gave him a purse of 7000 pieces of gold, assuring him that it was all the money then in the house. He also directed him to go to those who had the charge of the camels with a certain token, and take a camel and a slave and return home with them. When Kais awoke and his servant informed him of what he had done, he gave him his freedom and asked him, why he did not call him, "For", said he, "I would have given him more". The third man went to Arabah and met him coming out of his house to go to prayers and leaning on two slaves, because his eyesight failed him. The friend no sooner made known his case than Arabah let go the slaves, and, clapping his hands together, loudly lamented his misfortune in having no money, but desired him to take the two slaves which the man refused to do, till Arabah protested, that if he did not accept them, he would give them their freedom and, leaving the slaves, groped his way along by the wall. On the return of the disputants, judgment was unanimously, and with great justice given by all who were present, that Arabah was the most generous of the three.

Nor were these the only good qualities of the Arabs. They are commended by ancient historians for being most exact to their word (1) and for being respectful to their seniors, and they have always been celebrated for their quickness of apprehension and the vivacity of their wit, especially those of the desert (2).

---

(1). Herodotus.

(2). D. Herbelot.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# السيرة المحمدية

«تحت ضوء العلم والفلسفة»

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قريش ببدر

قد تمر على المجتمعات في بدء حياتها حوادث تؤثر في وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدده النضج الاجتماعي الذي يتم بعد مكابذتها للأطوار التي يستند عليها الاجتماع في أدواره المقررة في قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجري مكة ، ومؤمني قبيلتي الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب في وثنيهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفعليها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهي لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس في اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا تسكن في تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة من قلب لا يتوقف على الاندماج في جماعة . وقد عاش المسيحيون بعد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جماعة ، متفرقين في بلاد متباعدة ، وبقي اليهود أكثر من ألفي سنة مشتتين في الأرض ليس لهم دولة . فكان لا بد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع في الطائفة التي اتخذته ديناً لها ، ومن خضوعها لأفعليها آماداً طويلة .

فاذا كان على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التي تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذي تتبعه الطبيعة في تأليف الجماعات ، فأني له أن يوجد لها الزمان الكافي لترسيخ نتائجها في نفسية الجماعة ، وهو شرط لا بد من توافره في حياة الجماعات ؟



اللهم إن هذا من المحالات العلمية ، وهو في البلاد العربية التي لا يوجد فيها من عوامل الاجتماع إلا ما يكفي لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبلية من يوم وُجدت الى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لا لنقص في قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تألفها . فانتداب محمد صلى الله عليه وسلم للإتيان بحال في تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفرادهم ، ولم يطف في رأس عبقرى من عباقرة من يوم وُجد العالم الى يومنا هذا . لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا الى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يثنينا عن النظر في الوسائل التي تدرع بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تحت إرشاد الوحي ، للوصول الى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وجه النبي همته اليه ، أن جعل للطائفة التي اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هي ، وتسكن في الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تغنى في جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التي عينها النبي للجماعة التي يرأسها أن تكون نواة الدين الذي شرع لاصلاح جميع الأديان ، وأن تُحمي الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفي في تكوين أمة ، ولا في إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروفا الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة في حاجة الى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول الى هذا كله إلا بإنشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجادها من غير طريق العوامل التي توجبه ؟ هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التي تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعى في توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد في البيئة التي ظهر فيها لما كان في عمله إعجاز ، ولما كان أمكن الخصم تحليل نجاحه بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدركم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة في شروط ملائمة ؟ ولكن النبي لم ينتقل الى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله الى يثرب حتى كانت للاسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والانسانية .



وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضي فكانتا كانتا فئتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النماء والتطور، نقلتا العالم كله من حال الى حال آخر، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدتهما ولم تتركا أثرا .

فإذا كان في تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز العلم الاجتماعي أمامه حائرا، فان في بقاءهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازا ثانيا ليس بأقل من الاول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البناء حيث أراد، لاحما بعضها ببعض بالملأط، فيشيد منها قصرا على النظام الذي وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالاحجار، والمساك الذي يجمع بينها مؤلف من رُبط معنوية تشترك في تكوينها ضرورات طبيعية، ومقتضيات بيئية، وحاجات عقلية وروحية، فإذا لم تنتظم جميع هذه العوامل مئات الآلاف من الآحاد في وحدة لا انفصام لها، اعترى هذه الفئام التفكك، فلم يتم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا في آن واحد، كما يتحرك الجسم فتتفعل جميع أعضائه في اتجاه واحد، وعلى غرار واحد، لا يسأل عضو عضوا لم تحرك .

فتخيل كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين الى هذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها في أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم؟ فإذا رأيت أمما قائمة ولم يصادف قادتها أثرا من الحوائل، فما ذلك إلا لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعي يجري على أدوار متعاقبة، في آماد طويلة، تنفقه الطبيعة في التوفيق بين هذه المتناقضات، لا بصبرها في قالب واحد، فهذا محال، ولكن بإخضاعها لنظام تعاوني يحول تصادمها الضار الى تكافل مفيد للجماعة كما هو مشاهد في كل جماعة مائمة .

فهذا العمل الطبيعي البطيء لا يمكن محاكاته بالصناعة، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر الى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد من غير الطريق التدريجي التي تسلكها الطبيعة في إيجادها بالعوامل الخاصة بها، وهي لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الامر من الوضوح بحيث أن الله نبه العقول الى إعجازه، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه، فقال تعالى : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم » .

تأمل في قوله تعالى : « لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم »، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم اليوم على النحو الذي ذكرناه هنا . فان الذي يؤلف القلوب، ويوحد

بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هي العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التي تزول آثارها بزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز في عمل النبي صلى الله عليه وسلم واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتألف الى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها للنفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لنتهى النفس لقبول آثارها ، والقيام على أساسها (١) . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشيعها غشمة المنقلب ، وسيطرة المتحكم ، ومحب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا ألانت النبوة الحديد ، وخجرت الماء من الصياخيد (٢) ، وأحييت الموتى بعد أن اخترتهم المنون ، فإن إلانة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، مثولها فى تاريخ الأجيال السابقة ، تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه . ذلك العامل الخفى الذى أحفينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفعه محمد صلى الله عليه وسلم فى رُوع جماعته (٣) ، فجعلهم يتلقفون ما يلقي إليهم بلهف عظيم ، فمتكيفون به نفسياتهم ، ويصبح حالها كأنها ولدت مقطوعة عليه .

هذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت الى الايمان ، فقد أمكن تعليلها بعلّة طبيعية ، لأن الايمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثة المتأصلة ، فيسوقها الى الأغراض التى تُوجّه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها الى أى الوجهات أراد .

(١) أساس جمع أسس ( بفتحين ) وهى بمعنى الاس ( مثلثة ) والاساس . وجع الاس أساس ( بكسر الاول ) . وجع الاساس أسس ( بضمين ) . (٢) الصخرة الصيخود هى التى لا تعمل فيها المعاول . (٣) الروع ( بضم الزاء ) : القلب والذهن والعقل . والروع ( بفتحها ) : الفرع .

نقول : مهلا مهلا ، فإن في طي هذه المسألة أمرا يعتبر في أرفع درجات الإعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا ( الإيمان ) ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضي قُدُما في التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبي أن يبثه في قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جردوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا في سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايح ما كانوا عليه من ناحية من النواحي ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولأمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

- كانوا معددين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد .
- كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .
- كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم الى حكم العقل .
- كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .
- كانوا قائلين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .
- كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنور عالم الروح .
- كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .
- كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .
- كانوا راضين بالجهل ، فحفزهم على طلب العلم .
- كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالإيمان الذي يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لا يمسها من الأصول التي صارت بتوالي توارثها في الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كيانا جديدا لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر اليه نظرا الى الأمور العادية ، فنعمل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضي غير مكترئين له . لأن مثل هذا ( الإيمان ) الذي يقلب كيان النفس ويحولها من حال الى حال ، لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى في أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده في الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد نجح صوت الهداة والمرشدين في كل زمان ومكان من الدعوة الى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعترضون : نعم لأن المدعويين لا ( إيمان ) لهم بهؤلاء الدعاة .

نقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور الى مسألتنا الأولى وهي الإيمان . فما الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟ قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد الى بث ( الإيمان ) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك الى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال الى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل الى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟ المسألة خطيرة ، خطيرة الى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب الى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة هو صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحمل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ؛ ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمه ، تتأدى فى سنين قليلة الى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا ممدوياً ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحققة تنمر ثمراتها فى الجماعات التى تحل بها ، دون ان تستطيع أية قوة صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » . نعم إن النبوات تلاقى عقبات كأداء فى طريقها ، ولكنها تتغلب عليها فى النهاية كما قال الله تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لأكلمات الله ، ولقد جاءك من نبا المرسلين » .

#### الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الاعجاز ( بإيمان ) راسخ بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش فى صميم روعهم من الأصول الأدبية ، والمبادئ الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة فى آمد طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق فى علمه من الانقلابات العالمية التى كان العالم فى أشد الحاجة إليها .بقى علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت فى الأدوار التى سبقت إليها تحت هداية الوحي ، وقوامه خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى التوفيق ؟

محمد فريد ومهدى

# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها » :

قلنا فيما سبق : إن القرآن له عناية كبرى بلفت الأنظار الى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومزيد حكمته ، فتراه يقول : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » ، ويقول : « وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً » ، ويقول : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل في فلك يسبحون » ، ويقول : « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » . وهذا كثير جداً في القرآن الشريف . يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقتها ، وينبه العقول من غفلتها ، الى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى أدنى الى الانسان من النفس .

ولنذكر لك بعض ما قال العلماء في هذا المقام ، نحاول بذلك تثبيت إيمانك ، وتتميم إيقانك ، فنقول :

انظر الى هاتين الآيتين « الليل والنهار » وما تضمنته من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغطي العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى إليه الحيوانات الى بيوتها ، والثير الى أوكارها ، لتستجم فيه ، وتستريح من كد السعي والتعب ، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وسباتها ، واستعدت الى معاشها وتصرفها ، جاء فائق الاصباح سبحانه وتعالى بالنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها تمزيقاً ، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف الانسان في معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها . فياله من تدبير حكيم ، وعمل عظيم ! ولكن تكرر كل يوم أسقط وقعته في القلوب فلم تنفع به النفوس ، لأن كل ما كثرت مشاهدته ضعف التأثير به والالتفات اليه ، فسبحان من لا ضعف في قدرته ، ولا قصور في حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي

من يشاء . بل نقول : إن من آياته الباهرة أن يُعَمَّى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الانسان في الماء الى حلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش » !

ثم تأمل بعد ذلك - رعاك الله - حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ؛ ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ؛ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ؟

ثم تأمل الحكمة في غروبهما ، فانه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة الى النوم ، وجرم الحواس . ومن البين أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات ، فصارت تطلع وقتنا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ، ثم تغيب عنهم كما ينطفئ السراج عندما تذهب الحاجة الى نوره ليقروا ويهدوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما ، متعاونين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى الى هذا المعنى منها عليه ، لافتا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله : « قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون . قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون » . وقال في السورة الأخرى : « تبارك الذي جعل في السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقرأ منيرا . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » . فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتى يزيله عن سلطانه أيضا .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة الفصول الأربعة ، وما فيها من المصالح والحكم ، إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه ، فلو كان صيفا كله لفاتت منافع الشتاء ، ولو كان شتاء لفاتت منافع الصيف ؛ وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفاً كله . ففي الشتاء يمتطي الحرارة في بطن الأرض وأجواف الأشياء ، فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويستكشف الهواء ، ويكثر السحاب والمطر ، والتلج والبرد ، وبذلك حياة الأرض وأهلها ، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حلتته حرارة الصيف من الأبدان . وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيظهر النور والزهو بالشجر ، ويتحرك الحيوان للتناسل . وفي الصيف يمتد الهواء ويسخن جداً ، فتضج الثمار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء ، وتغيب البرودة وتهرب الى الأجواف ، ولهذا



تبرد العيون والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الاطعمة الغليظة ، لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون ؛ فلما جاء الصيف خرجت الحرارة الى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه . فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان ، وصفا الهواء وبرد ، فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء ، لئلا تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد الى البرد الشديد فيعظم أذاه ؛ أما إذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدرج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين !

وتأمل حكمته تعالى في سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فإنه لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، ويكون الليل دائماً سرمداً على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمداً على من هي طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء وهؤلاء . فاقنضت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي الى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها في أول النهار ، فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم . ولتقف هنا اليوم ، وموعدا العدد الآتي إن شاء الله ، والمقام مقام إطناب ، سالكين في ذلك مسلك القرآن ، منشدين قول القائل :

وحدثني يا سعد عنهم فزدني شجوناً فزدني من حديثك يا سعد  
هوام هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

يوسف البرهوي

عضو جماعة كبار العلماء

## هل يفسد الزمان؟

اعتاد الناس إذا رأوا شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وفاحشة فاشية ، أن يقولوا : قد فسد الزمان . والزمان لا يفسد ولكن يفسد أهله ، كما هو ظاهر لا يحتاج الى دليل ، فاذا تطلبوا الرشد فليصلحوا أنفسهم وإلا حقت عليهم الكلمة التي حقت على الأمم البائدة . وقد أدرك هذه الحقيقة الأصمعي قبل أكثر من ألف سنة فقال :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

# السنة

## العدل

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفككه إلا العدل » . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالاً . (٢) بيان معنى العدل . (٣) آثار العدل بين الناس ، وفضل من عدل .

(١) الغرض من هذا الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من المظالم والاستهانة بالحقوق المنوطة بهم ، وإلا كانوا من الظالمين الذين يستحقون العقوبات التي ذكرناها في المقال الذى قبل هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة إلخ » ليس الغرض منه تحديد هذا العدد كما هو معروف من الأحاديث الأخرى ؛ فقد وردت أحاديث صحيحة تدل على وجوب العدل مع كل مرءوس ولو كان واحداً : قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ومسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيته ، والخدام راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخارى ومسلم . فهذا الحديث صريح فى أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال ، سواء كان مع نفسه أو مع غيره ولو كان واحداً . وسأتى فى تعريف معنى العدل بيان هذا . وإنما اقتصر الحديث الذى معنا على ذكر العشرة لأن هذا العدد كان أقل عدد يرأسه أمير غالباً عند العرب . وقد ورد ما يدل على ذلك فى الأحاديث الصحيحة : فمن ذلك ما روى البخارى معناه فى حديث طعام أبى بكر الذى كان أعده لبعض فقراء أهل الصفة فأكلوا منه ولم ينقص شيئاً ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده وفود من قبائل العرب ، فأمر أبا بكر بإحضاره وقدمه لهؤلاء الوفود وأجلس عليه كل عشرة مع رئيسهم ، فأكلوا جميعاً حتى شبعوا . وهكذا ، فقد كان عدد العشرة هو أقل عدد يستحق أن يكون له رئيس .



أما قوله : « إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا » فمعناه أنه يؤتى به وهو مقيد بقيد من حديد في عنقه أو في يده . يقال : غله غُلا بالضم ، إذا وضع في رقبته أو في يده غُلا من حديد . وقد يقال إن هذا بظاهره ينافي الأحاديث التي تدل على أن الإمام العادل يكون محوطا بعناية الله تعالى ومشمولا برحمته من أول الأمر ، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وأول هؤلاء السبعة الإمام العادل ؛ فكيف يتفق هذا مع ظاهر هذا الحديث الذي يفيد أن كل أمير عشرة يؤتى به مغلول اليدين والعنق ، وفي ذلك من الإهانة والتعذيب ما لا يخفى ؟

والجواب : أن معنى الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من الظلم ، وحثهم على العدل . فالذي يؤتى به مغلولا إنما هم الظالمون .

ومعنى « لا يفكه إلا العدل » : أن العادلين آمنون من هذه الإهانة ، بل هم منعمون من أول أمرهم لأنهم متصفون بالعدل ، وما دام العدل ملازما لهم فهم منفكون عن كل ما يصيب الظالمين من جزاء . فالعدل وقاية لهم من كل ما يمس الظالمين من عقاب ، ووسيلة للنعم الخالدة وحسن الجزاء .

أما معنى العدل فهو معروف بين الناس ، وهو ضد الجور والظلم ، ولكن علماء الأخلاق بحثوا في معنى العدل بحثا دقيقا ، فقالوا : إنه صفة من صفات النفس الخلقية الفاضلة التي يترتب عليها أداء الحقوق المشروعة لمستحقيها كاملة ، بحيث لا يظلم أحد في شيء من الأشياء التي أقرها له الدين وجعلها مقصورة عليه . وهذه الصفة الخلقية الفاضلة تظهر آثارها في ثلاث قوى نفسية : وهى القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العقلية . ولهذا عرفوا العدل بأنه التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في هذه القوى ، فتنى اعتدلت هذه القوى كان صاحبها عادلا . مثال التوسط في الشهوات هو أن يقف معها عند الحد الذي أمره به الدين والعقل ، فلا تحمله شهوته على الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم ، ولا تذهب به إلى ما يضره في خلقه أو دينه أو بدنه ؛ ولا تحمله على ما نهاه عنه الدين من حقد وحسد وغير ذلك . فن توسط في هذه الشهوة سواء كانت شهوة جاه أو مال ، أو منصب أو لذة من اللذات البدنية ، واقتصر على ما هو مشروع منها ، فقد ملك زمام العدل مع نفسه ومع الناس . أما إذا طغت عليه شهوته خملته على الخروج عما أمره الله به ، وزينت له الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وحقوقهم العامة أو الخاصة ، فقد باء بأقبح الآثام وكان من الظالمين الطاغين . هذا هو نتيجة الإفراط في الشهوات ، ويسمى عند علماء الأخلاق خلاعة أو مجنونا .

وأما الإفراط في ترك الشهوات الطبيعية التي خلقها الله تعالى لمصالح وحكم ، كاهمال الجسم من الغذاء الحلال الضروري والنظافة وغيرهما ، فانه يترتب عليه السقم الذي يحول بين المرء

وبين أداء وظيفته المطلوبة منه للمجتمع الانساني . ومثل ذلك إهمال شهوة الفرج وإماتها ، وهي مودعة في النوع الانساني لغرض التناسل وتكثير سواد الأمة ، وإعدادها للقيام بما هو مطلوب منها ، الى غير ذلك من المصالح العامة والخاصة التي تقتضيها الشهوات الطبيعية في الانسان . فمن أفرط في شهوته كآف ظالماً ، ومن فرط فيها كان جامداً ، ومن توسط كان عادلاً .

ومثال التوسط في الغضب ، هو أن يضبط نفسه ولا يطيع غضبه في الخروج عما يقتضيه العقل والدين ، فلا يغضب إلا إذا انتهكت الحرمات العامة أو الخاصة : بأن يتعدى أحد على دينه أو عرضه أو ماله أو نفسه ، أو رأى منكراً من المنكرات التي نهى الله تعالى ورسوله عنها . فالغضب لذلك ممدوح ، ولا بد منه لبقاء النوع الانساني . والتوسط في الغضب يسمى شجاعة ؛ والشجاعة وسط بين الجبن وبين التهور . ومن كان كذلك فإنه يملك نفسه ويصرفها عن إيذاء الناس وظلمهم ، والتعدى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ويحمله على إعطاء كل ذي حق حقه ، ويدفع عن نفسه وعن دينه وعرضه وعدوان الناس ؛ وبذلك ينجو من عار الجبن ، وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه .

أما الإفراط في الغضب فإنه يترتب عليه أسوأ الآثار وأشنعها ، فإن الذي يحمله غضبه على الخروج عن الدفاع عن هذه الأمور التي أمر الله بصيانتها والدفاع عنها ، يكون ظالماً لا محالة ، لأنه لا يبالي بأن يؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم ، بل وفي أنفسهم ، تشقياً وانتقاماً بدون مبرر ، وذلك شر وبيل لا يقره الدين ولا العقل ، ولا يرضاه الله ورسوله .

وأما ترك الغضب فإنه يترتب عليه الجبن وعدم المبالاة بالتعدى على الأعراض والأنفس والأموال ، وذلك خروج عما يقتضيه العقل والدين .

ومثال التوسط في القوة العقلية ، هو أن يقف الانسان مع عقله وتفكيره موقف المتدبر للأمر على ما هي عليه ، المتأمل في أسرار الكون ونظمه وما جاءت به الشرائع الإلهية من حكم واعتقاد . فمن وقف مع عقله هذا الموقف كان متوسطاً بين البلادة والغرور . ويشتمل ذلك على ثلاثة أمور : حكمة الاعتقاد ، وحكمة العمل ، وحكمة الأخلاق . فأما حكمة الاعتقاد ، فأولها توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به . وهذا متوسط بين رذيلتين : الأولى نفي الألوهية رأساً ، أو اعتقاد إلهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . وأما حكمة العمل فهي أداء الواجبات بلا إفراط أو تفريط ، وهذا متوسط بين ترك العمل رأساً ، والمبالغة فيه ، كما إذا ترك التمتع بما أباحه الله له من حلال طيب . وأما حكمة الأخلاق فهي كالجود المتوسط بين الإسراف والشح .

فهذا إيضاح ما ذكره علماء الأخلاق من الفلسفة في تعريف العدل . وقد عرفت أن العدل

معروف بين الناس ؛ وأن كل إنسان يشعر بما يحق به من ظلم وإن تفاوتت مدارك الناس في تقدير الظلم والعدل . فالرئيس الذى يتصرف في دماء الناس وأمواهم وأعراضهم وحقوقهم العامة والخاصة ، لا يجهل معنى العدل والظلم ، وليس في حاجة الى معرفة هذه الدقائق . وإذا سألته لماذا يظلم هذا لا يعدم مبررا يبرر به ظلمه . ولكن الواقع أن العدل والظلم لا يخفيان على أحد ، وأن الرئيس العادل أو الظالم لا يخفى أمرها وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

( ٣ ) أما آثار العدل بين الناس ، فهي سعادة المجتمع ، وصلاح أفراده في كل شأن من شئونهم . فتى عدل الرئيس القائم على مصالح جماعة من الناس ، وحارب العوامل التى تحول بينه وبين إقامة العدل ، فانه يكون قد ظفر بالسعادة هو ورعيته التى يحوطها بدون نزاع . ولهذا كان قوام الدين الاسلامى في صدر الاسلام ، على رجاله الذين يقومون بالعدل ويتوخونه في كل صغيرة وكبيرة . فكان الرئيس منهم ينسى شخصه وولده وأعز شئ عليه في سبيل إقامة العدل وإعطاء كل ذى حق حقه . ولو شئنا أن نذكر أمثلة لذلك من عدل حكام المسلمين الاولين لطال بنا المقام كثيرا ؛ ولكن لا بأس من أن نورد شيئا من ذلك عسى أن يكون فيه عظة وعبرة للمسلمين الذين ينالون حظا من الرياسة .

فمن ذلك ما روى عن الحسن قال : جىء الى عمر رضى الله عنه بمال فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، فجاءت ، فقالت : يا أمير المؤمنين أنشدك حق أقربائك من هذا المال ، وقد أوصى الله بالأقربين . فقال : يا بنية : حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا فال المسلمين ؛ غششت أباك ، ونصحت أقرباك ، قومى ! فقامت والله تاجر ذيلها .

ومن ذلك ما روى من أنه رضى الله عنه جمع عماله ، وجمع رؤساء القبائل معهم ، ثم قال لهم : إني والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا وجوهكم ولا لياخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، ويحفظوا دماءكم وأعراضكم ، ويقسموا بينكم فيثبكم ، فمن فعل معه سوى ذلك فليرفعه الى ، فوالذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! فوثب عمرو ابن العاص أحد الأمراء فقال : يا أمير المؤمنين : أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلومهم ، ولا تمنعهم حقوقهم فكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعهم ( الغياض جمع غيضة ، والغيضة مكان يجتمع فيه الماء ثم يقل فينبت فيه الشجر ) . وكان رضى الله عنه يباشر أحوال رعيته بنفسه ليقم بينهم العدل بقدر ما يستطيع . وكان يؤثر رعيته على نفسه وولده عند نزول الشدائد والإحـن .

وما نحن بقادرين على أن نذكر في هذا المقام ما كان عليه عمر رضى الله عنه من عدل

شامل لجميع أفراد الرعية . ولكن كان من آثار هذا العدل أن قامت الدولة الإسلامية في عهده على أساس ثابت قد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فقوى الاسلام في عهده ، وانهارت الدولتان اللتان كانتا تسودان العالم يومئذ ، وهما الفرس والرومان .

وبالجملة ، فالدين الاسلامي قد أمر المسلمين بإقامة العدل بينهم أمرا صريحا ، وهدد الظالمين تهديدا شديدا ، ولعنهم لعنا كبيرا ، قال تعالى : « إِنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ » . والله يهدي المسلمين الى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

### الحزم والعزم

يروى عن بزرجهر الوزير الفارسي المشهور أنه قال : إن الحازم إذا أشكل عليه الرأي ، بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب ثم التمسها حتى وجدها ؛ وكذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص رأيه .

وقال شهاب الدين : كن ذا عزيمة فإن عزائم الرجال تحرك الأسباب .

وقال شاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة      فإن فساد الرأي أف يترددا

وأضاف إليه بعضهم :

إذا كنت ذا عزم فأنقذه عاجلا      فإن فساد العزم أف يتقيدا

ووصف أديب عضد الدولة الوزير فقال : وجه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قاب .

وقال شاعر بمدح ملكا :

عزماته مثل السيوف صوارما      لو لم يكن للصارمات فلول

والعزيمة لا تستحق المدح إلا إذا كانت في نصره حق وإلا كانت عدوانا .

# مَجْمُوعَةُ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ

## تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

- ٦ -

### مذهب الإمام الليث :

ترجنا فى مقالنا السابق لجامعة من علماء القرن الثانى الذين اشتغلوا بالفقه والحديث فى مصر رواية وتأليفا وفتيا ، وكان من هؤلاء الذين ترجنا لهم الامام المصرى الاكبر : الليث بن سعد الفهمى .

ونريد اليوم أن نعرض لمذهب هذا الامام الجليل من ناحيتين : ناحية العوامل التى أدت الى ضياعه ، وناحية الطابع الفقهى الذى كان يتميز به .

### ١ — الأسباب التى أدت الى ضياعه :

لقد قال الامام الشافعى رضى الله عنه فى الليث كلمة تتضمن أهم الأسباب التى أدت الى ضياع مذهبه : « هو أفقه من مالك إلا أنه ضيَّعه أصحابه » . والمتتبع لتاريخ الفقه الاسلامى يعرف أن أصحاب المذاهب لم يضعوا بأنفسهم أسس مذاهبهم بحيث تكون قواعد كلية يترسمها الاتباع ، ويطبِّقون أحكامها على المسائل الجزئية ، كما يظن كثير من الناس ؛ ولكن الأمر على عكس ذلك ؛ فالاتباع هم الذين وضعوا القواعد وأسسوا الأسس معتمدين على فتاوى إمامهم ومسائله ، فكثير من الاصطلاحات المذهبية يعرفه الاتباع ولا يعرفه الامام نفسه . ومثلهم فى ذلك مثل واضعى النحو والبلاغة ؛ لم يكن العرب الناطقون بالكلام البليغ ، المتفق مع القواعد النحوية والصرفية يعرفون أن هذا فاعل أو أن هذا مفعول ، أو أن هذا مجرد أو مزيد ، أو جامد أو مشتق ، أو أن هذا الفصل لكمال الاتصال ، وهذا الوصل لكمال الانقطاع ، ولا أن فى هذه العبارة استعارة بالكناية أو استعارة تخييلية ، وهكذا ؛ وإنما هذه أشياء وضعت بعد استقرار الكلام البليغ فجعلت مقاييس للكلام . فكذلك الأئمة المجتهدون ، كل منهم يفتى برأيه وما يتضح له ملاحظا معنى فى نفسه ، ومدركا له ، يصرح به حيناً ، ويضمره حيناً ؛ فإذا جاء تلاميذه وتابعوه أرجعوا أقواله وآراءه الى قواعد ودوائر يسمونها للمذهب أخذاً من مجموعة أقوال الامام نفسه ، وربما ناقشوه فى بعض هذه الأقوال ، أو عقبوا

عليه في بعض ما رأى من الآراء ؛ ولا تكاد تجد مذهباً يخرج في جلته عن هذه الطريقة ، إذا استثنينا مذهب الامام الشافعي الذي وضع بنفسه رسالته المعروفة ، وضعتها كثيراً من قواعد مذهبه .

وهذا يظهر أن الجانب الأكبر من المسؤولية في ضياع مذهب من المذاهب ، واقع على عاتق الأصحاب والاتباع الذين لم يخدموا المذهب على الطريقة التي وصفنا ، فأدى ذلك الى بقاءه أقوالاً مبعثرة ، وآراء متناثرة ، ومسائل مبثوثة في تضاعيف الكتب من غير بيان لأصلها الذي بنيت عليه ، ومصدرها الذي أخذت منه ، كما هو الشأن في مذهب الامام الليث رضى الله عنه . على أن الليث لم يرزق بأصحاب من الطراز الأول كما رزق أبو حنيفة بصاحبيه : أبى يوسف وعبد ، وكما رزق مالك بأمثال ابن القاسم وأمثه ، وكما رزق الشافعي بأمثال البويطي والمزني والربيع .

وأكثر الأئمة دونوا لهم كتباً ، فلاك ألف في المدينة ، وأبو حنيفة وأصحابه ألفوا في العراق ، والشافعي ألف بمصر ، والأوزاعي ألف في الشام ، ولم يؤلف الليث .

وهناك سبب آخر : ذلك أن الحركة الفقهية كانت قائمة على أشدها في الحجاز والعراق والشام ، لأنها كانت حواضر الخلفاء ، ومهبط العلم ، ومقصد الراحين في طلب العلم ، ومحط أنظار المسلمين ؛ أما مصر فلم تكن الى هذا العهد بالبلد التي توحد دينها ولغتها ونظامها ، بل لم يكن المسلمون قد انبثوا بعد في قراها وأقاليمها ، ولم يكن من أهل البلاد من أقبلوا على هذا العلم يدرسونه ويثبتونه إلا قليلاً منهم لا تغني جهوده المفرقة في هذا الشأن الخطير ، فلذلك لم يجد الليث من يتعصب له ، ويهتم بفقهه . ولعل السياسة أيضاً لعبت في ذلك دوراً ، فإن الليث كان رجلاً مهيباً مسموع الكلمة ، يخافه الأمراء ويخشون حسن صلته بالخلفاء ، وكثيراً ما كتب الى الخليفة في عامل من عماله فصرفه عن عمله ، بل إنه كان قريباً من منصب الإمارة قرباً جعل بعض المؤرخين يخطئ فيزعم أنه ولي مصر فعلاً حيناً من الزمن ، وهذا القرب ، أو بتعبير أدق ، هذه الجدارة بمنصب الإمارة ، جعلته موضع دسائس ووشايات ، وجعلت أحد خصومه يكتب الى الخليفة أبى جعفر المنصور ليقول له :

لعبد الله عبد الله عندي نصائح حكمتها في السر وحدي  
أمير المؤمنين تلاف مصرأ فأن أميرها ليث بن سعد

ولسنا نزعم أن ذلك وأمثاله أصاب من نفس الخليفة موقعاً ، أو أنتج أثراً ، ولكننا نقول : إن هذه المنزلة التي تمتع بها الليث في حياته قد جعلت كثيراً من أهل العلم يُغضون عن خدمة مذهبه من حيث لا يقصدون ، وجعلت كثيراً من الأمراء والولاة يتخففون من ذكره بعد موته كما كانوا يتهيبونه في حياته ، إن لم نقل جعلتهم يصدون عنه ويعسفون عن مذهبه .

وها نحن أولاء نرى الى عهد قريب كيف كانت هيبة الامام محمد عبده وحسن صلته بكبار الرجال سببا فى كثير مما أصابه فى حياته ، ثم سببا فى ضياع كثير من آرائه وأفكاره ؛ ولولا أن الله قيض له تلميذه المخلص المغفور له العلامة السيد رشيد لضاءت أكثر أفكاره بين أعدائه السكارهين وأصدقائه المفرطين ، حسدا أو كسلا .

ولقد كان يحتمل أن تفتر هذه النزعة التى اعترضت مذهب الليث لو كان له أصحاب وتلاميذ مخلصون عنوا به ، واهتموا بمذهبه ، ولو لم تبد فى الأفق طلأع المذاهب الفقهية الجديدة الواردة على مصر من الحجاز والعراق ، والمصريون دائما عشاق ما يرد اليهم ، لا يطرهم زامرهم ، ولا يسلبهم شاعرهم . . . .

هذه هى أهم الأسباب التى ضيعت مذهب الامام الليث ، وتحالفت على كتمانها ، وحرمان العلم والفقه الاسلامى منه .

على أن فى الكتب المطبوعة وغيرها من فقه الامام الليث طائفة صالحة لو عنيت بها هيئة علمية ناشطة لاستخرجت منها خيرا كثيرا ، ولكننا لم نعرف بعد نظام التعاون العلمى ، وإنشاء الهيئات التى تتخصص لموضوع واحد فننتج فيه ، وتكتشف له ، كما يفعل علماء الآثار ، مع أن آباءنا الاقدمين هم الذين علموه لأوربا ، وأنشأوه على غير مثال !



ننظر بعد ذلك فى الطابع الذى يمتاز به فقه الامام الليث :

هل كان الليث من رجال رأى أو من رجال الحديث ؟

كان بين مالك والليث رضى الله عنهما مراسلات ومحاورات ، وكانت هذه المراسلات والمحاورات من أبدع ما عرف فى التاريخ الاسلامى بين عالم وعالم ، جمعت بين حسن الادب ، وجمال الأسلوب ، ونزاهة النقد ، والهدوء فى المناقشة والجدال ؛ ولو كنا بصدد دراسة أدبية لجلينا هذا الجمل الادبى ، فلرأى الناس فيه آية من آيات الإبداع ينبغى أن تكون فى عصرنا الحاضر من المثل العليا للعلماء والمتأدبين ، ولكننا نريد أن نستخلص من هذه المناقشات الهادئة المتزنة طريقة الامام الليث فحسب ؛ ومعروف أن العلماء فى ذلك الوقت كانوا بين مدرستين : مدرسة رأى ، ومدرسة الحديث ، وإن كانت كل مدرسة من هاتين تتشعب الى مدارس تتقارب أحيانا وتتباعد أحيانا ، فن أى المدرستين كان الليث ؟ أكان من مدرسة الحديث التى كان رجالها يتمسكون بالنصوص التى تروى ولا يحيدون عن ظواهرها ، ويرون ضعيف الحديث خيرا من جيد رأى ، أم كان من رجال رأى الذين يقيسون وينظرون ويتشددون فى قبول الأحاديث ؟

لقد كان مالك يأخذ عليه أنه يفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه أهل المدينة ، ويقول له في أدب وتلطف : « إنه يحق عليه الخوف على نفسه ، لاعتماد من قبله على ما يفهم به ، ولأن الناس تبع لأهل المدينة التي كانت إليها الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وفي أصحابها بث رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه ، وفهم يقول الله عز وجل : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » .

فيجيبه الليث بمثل هذا الأسلوب الهادئ : « لقد أصبت بالمدى الذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ... ولكن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا الى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فخذوا الأجناد ، واجتمع اليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموا شيئا علموه ؛ وكان فى كل جنود منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسرره القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموه هو ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره ، فلا زاه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد الفتيا فى أشياء كثيرة ، ثم اختلف التابعون ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم ... وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كان به بعضنا فربما كتب اليه فى الشيء الواحد على فضل علمه ورأيه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ، فهو الذى يدعونى الى ترك ما أنكرت تركى إياه » .

فالليث إذاً من رجال الحديث كما لك ، ولكنه لا يرى ما يراه من الاعتداد بعمل أهل المدينة إلا فيما أجمع عليه المتقدمون منهم ؛ أما فيما عدا ذلك فقد انبث فى الأمصار أصحاب مضت لهم فيها سنة وعمل مستندان من غير شك الى سنة من الرسول وعمل كما استند أهل المدينة ؛ ولئن كان أبو بكر وعمر وعثمان فى المدينة ، ولهم بعرف أهلها وعملهم صلة وعهد ، لقد كانوا أيضا يكتبون الى أجناد المسلمين حتى فى الأمر اليسير حذرا من الاختلاف بكتاب



الله وسنة نبيه ؛ فالأمر إذاً بين أهل المدينة وغيرهم من الأصحاب على سواء ، وكل ما ينبغى على الفقيه ، أن ينقد وينظر ، ويقارن ويتبصر ، ليخرج من معترك الآراء والفتاوى والروايات الى ما هو أشبه بالحق ، وأقرب الى الصواب .

هذا هو المعنى الذى أراد الليث أن يقنع به مالكا ، رضى الله عنهما . ولعلنا نأتى فى مقالنا الآتى إن شاء الله بشواهد من جزئيات الفقه تشهد له وتدل عليه .

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

## فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « إن الله مع الصابرين » ، ولا يعقل أنه يوجد مقام أرفع من هذا المقام . وقد صدق الحسن البصرى رضى الله عنه حيث قال : وجدت الدنيا والآخرة فى صبر ساعة . وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : احتمال الصبر عند البلية ، أسلم من إطفائها بالمشقة .

نقول : هذا كلام يوم أن من ابتلى بنازلة وجب عليه أن يصبر عليها ، وأن لا يعمل لدفعها ، وليس هذا مراد على بن الحسين ، وإنما مراده أن يعلم الناس أن الصبر صفة يجب أن يحرص عليها مهما كانت شديدة على النفس ، فقد تكون أخف عليها من التوفر على دفع البلية نفسها . وإنما يطلب الصبر فى المواطن التى لا يجدى فيها غيره ، فالصبر فى وطيس الحرب من الضرورات وإلا انقلب الدفاع الى هزيمة منكرة ، والهزيمة يتبعها الوقوع فى أسر العدو . ويحسن الصبر فى المرض ، لا بترك العلاج ، ولكن بترك الجزع الذى تكون نتيجته زيادة إعداد البنية لقبول أفاعيل الداء .

فالصبر معناه توطيد الحالة المعنوية للنفس للصمود للبلايا التى لا مفر منها فى الحياة ، لا استشعار البلادة إزاء كل بلية وتركها تفعل ما تشاء .

# صِفَتِ الْمُحِبِّ الْفَظْ بِالْفَلَسِ الْغَضْبِ

## الديانة صلاة القلب

مترجمة من كتاب فلسفة الدين للفيلسوف أجوست سباتييه

أستاذ الفلسفة بجامعة باريس (١)

« إننا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفا . فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة ، تنشئها الروح المسكوبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي أنها تابعة لها ، وأن مقدوراتها تحت مشيئتها . فالصلاة هي الدين في حالة العمل ، أي هي الدين الحق . فالصلاة هي التي تميز الظاهرة الدينية من كل الظواهر التي تشبهها أو تجاورها ، كالشعور بالأدب ، والشعور بالجمال . فاذا كان الدين حاجة عملية للانسان فتوقيفها لا تكون إلا عملية كذلك . فأية نظرية لا تكون كافية في هذا الموطن . لأن الدين لا يكون شيئا يعتد به إذا لم يكن عملا حيويا بواسطته تحاول النفس أن تنجو من الهلاك بالتجأها الى أصلها الذي تنزلت منه . وهذا العمل هو الصلاة . وهي كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات ، أو ترديد عبارات ، ولكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الانسان بوجودها حتى قبل أن يستطيع أن يطلق عليها اسما . حيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين . وعلى العكس حيث تنبع هذه الصلاة وتحرك الروح حتى في غيبة أى شكل من الأشكال وأى مذهب مقرر ، فهناك دين حتى بمعناه الصحيح . وبناء على هذا فإن إيراد تاريخ الصلاة يعتبر أحسن تاريخ لتولد الدين في النفس الانسانية . وقد رأيت أن هذا التاريخ قد بدأ بالصلاة في أحسن أشكالها ، وانتهى بالصلاة على أكل حالاتها على شفتى عيسى ، وهي لم تكن تعنى إلا الخضوع لله والثقة بآرادته الأبوية ( ينطبق هذا الكلام على قوله تعالى : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ) .

« لهذا التعريف التعييني للدين مزية إصلاح تعريف (شلاير ماكر (٢)) وتنكيله . لأنه يوفق بين العنصرين المتضادين اللذين يؤلفان العاطفة الدينية ، وهما العنصر المنفعل والعنصر الفاعل ، أى الشعور بالتبعية والشعور بالحرية . فالصلاة بنبوعها من شعورنا بالعاقبة والقهر تخليصنا

(١) راجع ما ترجم من كتابه بالصفحات من ٣٧٦ الى ٣٧٩ ومن ٤٠٤ الى ٤٠٧ من هذا المجلد .

(٢) (Scheimacher) شلاير ماكر : فيلسوف ألماني مشهور (١٧٦٨ — ١٨٣٤) .

منهما لأنها تقتضى الخضوع والإيمان . فاما الخضوع فهو يجعلنا نسلم بتبعيتنا ونرضى بها ، وأما الإيمان فيحول تبعيتنا الى حرية . ومن ناحية أخرى فإن هذين العنصرين يقابلان قطبي الحياة الدينية ، لأن الانسان فى كل تقوى حقيقية يسجد أمام القدرة العليا التى تحيط به ، ثم ينهض حاصلًا على شعور بالخلاص من الأسر ، وبالوفاق مع الله جل وعز . ولكن (شلاير ماكر) قد أخطأ بعدم اعتماده إلا على ناحية التسليم خصب . ولم يستطع بعد ذلك أن يخلص من مذهب وحدة الوجود ليصل الى باحة الحرية ، ولا أن يجد أى ارتباط بين الحياة الدينية والحياة الأدبية . وعلى هذا فالدين عملٌ حر بقدر ما هو شعور بالتبعية . وهذه طبيعة الصلاة وخاصتها فى تحويلها كل شئ عن حالته . فالشعور الساحق الذى كان اعترانى عقب هزيمتى ، انقلب شعورا بالفرح لانتصارى . وكل حالة من الحالات تستحيل الى ضدها ، بحيث إن الانسان المندين يعيش فى طاعة حرة ، وفى حرية طائعة ، فى وقت واحد .

« فإذا كان الدين فى أكثر الأحيان قد استعمل قوة للقهر ، وأداة للاستعباد ، فقد كان أيضا فى أكثر الأحيان على الأقل أصلا لجميع الحريات . فالقوة التى تستطيع أن تثنيى هى نفسها تستطيع أن تقيمى ، لأنها تمر بروحى . والآله الذى أعبدته سيصير لى فى النهاية الآله الباطنى الذى يدفع عنى كل مخافة ، ويضعنى فوق جميع التهديدات المادية . فتحقيق وجود الله فى روحى على علم منى بذلك ، هو الخلاص المحقق لذاتى ولحياتى .

« لقد عرفت الآن لماذا الديانة الطبيعية تقصر عن أن تكون ديانة . ذلك لأنها تحرم الانسان من الصلاة ، فتدع الله والانسان بعيدين أحدهما عن الآخر ؛ فلا تكون بينهما صلة صميمية ، ولا مخاطبة باطنية ، ولا مبادلة بينهما ، ولا عمل إلهى فى الانسان ، ولا رجوع من الانسان الى الله . وإذا تعمقت فى جوهر هذه الديانة وجدتها جزءا من الفلسفة ، ولدت على عهد سلطان المذهب العقلى (الراسيوناليسم) (١) ، والعمل النقدى ، والتعقل الشخصى ، فهى تجريد فلسفى ، ولم تكن شيئا أكثر من هذا . وأصولها الثلاثة وهى وجود الله ، وخلود الروح ، وأداء الواجب ، ليست إلا مواد ثقلية لأروح فيها ، بقيت فى قاع البوتقة التى ذابت فيها جميع الديانات المادية . فهذه الديانة التى تزعم أنها طبيعية لم يصادفها أحد فى الطبيعة ، ومعنى هذا أنها لاطبيعية ولا دينية . ولما كانت صناعية وميتة ، فلم تكد تترك شيئا يلحظ فيه أنه من الخصائص الدينية . وقد ظهر فى زمن من الأزمان أن من مزاياها مناعتها ضد النقد العلمى ، ولكن بامتحانها ظهر أنها أقل مقاومة للنقد العلمى من أى دين آخر . والعلة التى أوجدتها هى التى تتولى الآن هدمها ، وأصولها قد أصبحت اليوم أشد تعرضا لخطر الدحض أمام الفكر الراهن ، من أصول الأديان التى كانت ترجو أن تحل محلها .

(١) الراسيوناليسم Rationalisme مذهب فلسفى ينكر الوحي ، ويدعى تعليل كل شئ بالعقل ، وأن الآراء تتولد من العقل مباشرة لا من التجربة .

## نتيجة ما تقدم :

« علام كنا نبحث عندما بدأنا هذه الأفكار ؟ كنا نزيد من هذا البحث أن نفهم الضرورة التي تولد الدين في قلب الانسان ، وتطبع ألفاظ الصلاة على شفثيه . يلوح لى أن الضرورة في تلك الساعة تصوير أظهر ما تكون لضميرى ، وعلى حال لا يمكن دفعها . لآنى أشعر أنها تأتى من مصدر أبعد من نفسى ، ومن ثقافة أعلى من ثقافتى ، ومن عادة أرفع من عاداتى وعادات أسلافى . فلابجل اكتشاف أصلها وجب علينا الصعود الى مصدر الحياة العقلية ، والوصول الى ذلك التضاد الاسامى الذى تتألف منه وتنمو فيه ولا يلبث حتى يزول : فالديانة هى الصلاة الباطنية والخلاص . وهى من لوازم الإنسان الى حد أنه لا يستطيع أن يقتلها من قلبه ، إلا إذا حكم على نفسه أن يفصل عن نفسه ، وأن يلاشى في ذاته كل خصائص الانسانية .

« هنا قد يعترض علينا معترض فيقول : إذا كان الأمر كما تقولون فكيف يوجد هذا العدد الكبير من رجال غير متدينين وملحدين ؟

« ونحن نجيبه بقولنا : أليس من الوهم أن نظن وجود عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدين ؟ إن الناس ليخلطون ، وخاصة في بلادنا ، بين المجافة الظاهرة لصورة من صور الدين ، أو لعقيدة من عقائده ، أو لمذهب من مذاهبه ، أو لتقليد من تقاليده ، وبين الإلحاد واللا دينية ؛ وهذا خطأ كبير . فكم رجل من هؤلاء التأثيرين لا يتبع ديناً من الأديان تدنياً ، بل منهم من قطعوا علائقهم بالصور الدينية العامة ، عندما أحسوا بيقظة روح دينية في نفوسهم أعلى وأكثر تجرداً عن المصالح المادية من الأديان الموجودة بين أيديهم . وبمصادراتى الى عدد من هذه الأرواح التي يقال عنها إنها مجردة من العقيدة ، وقد ينحيل إليها هى أيضا أنها غير متدينة ، وجدت دائماً أن الناس لا يعتدون من هؤلاء إلا بما ينكرون بدون نظر الى ما يثبتونه . فالرجل الذى يعلن بأنه كافر ، هو فى الحقيقة ليس بكافر إلا بالآله الذى يعتقد به غيره . فهو ينكر إله قسيسه أو كاهنه ، وإله طفولته أو إله جيرانه ؛ ولكن تأمله جيداً تجد أن له إلهاً لا تدركه الأبصار فى صميم روحه ، يعبد به باسم خاص به ، ويجود بنفسه كل يوم فى سبيله . وإذا لم يكن هذا الإله طالياً ، كان وأسفاً إلهاً منحطاً غليظاً . فيستحيل على الانسان أن يعيش بدون أن يخرج عن نفسه ، وأن لا يهبها لشيء من الأشياء . وليس شى أكثر محالاً من اعتبار أن هناك تعارضاً بين الاعتقاد بإله لا تدركه الأبصار ، حاضر وفعال على الدوام ، وبين الحياة العليا للعقل الذى بعمله القوى فى الخفاء يوجد العقيدة بالله فينا . فيأبى العدل ويأبى الرحمة التي تخدمهما وتسعى لتحقيقهما جميع الأرواح الخيرة ، ويأبىها الحقيقة التي يبحث عنها الفلاسفة والعلماء ، ويأبىها الجلال الجذاب الذى يترأى لنا ثم يفر على الدوام ، ويتعقبه ويعبده الفنانون : ماذا أنتَ جميعاً إذا لم تكونى وجوها متعددة لهذا الهيكل الباطن القائم

في صميم كل ضمير إنساني ، الهيككل الذي يتوجه به كل إنسان الى الاله الذي ليس له اسم ، مهنديا إليه أحسن ما لديه من روحه ومن حياته !

لا يوجد في الواقع إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد : ذلك هو الصنف الفسئل (١) الذي يتخذ من فسؤولته سلاحا وستارا في آن واحد لحياة قوامها الآثرة الوحشية المتغشمة . إذاً لا توجد لا دينية حقيقية إلا تلك الحالة النفسية القاحلة المحرقة التي يتولد منها على الدوام السخر والازدراء ، ذلك المذهب الذي يهزأ أصحابه بكل شيء ويزدرونه ، وهو المذهب الذي سماه (جول لومتر) بالاستهزائية . وفي هذا أي تأكيد مؤثر لجميع ما قلناه ! فصحيح إذن أن من يهزأ بالعقيدة في الله يجب أن يبدأ بالاستهزاء بنفسه ! وصحيح أيضا أن في العيش مع الآثرة والمادية ، لا يمكن أن يوجد سبب كاف للاستمرار في الحياة . وصحيح كذلك أنه لأجل بقاء الشخصية وعدم انطفائها في الظلام الدامس ، يجب أن يتضاعف الشعور بالذات في باطن الشخصية ، أريد بذلك أن أقول : يجب أن يتضاعف بالشعور بوجود الله .

« إذا كان الأمر كذلك فاني لا أتردد في القول بأنني لا أريد أن أعتزل العالم في فكرة خالصة من جميع العلاقات وجميع الواجبات ، فان تكافلا أخويا ارتبطني قبل أن أوجد على هذه الأرض . فأنا واحد من أفراد القافلة الانسانية ، ولن أنفصل عنها ، وسأسير في طريقها ، وسأشاطرها آلامها وآمالها ، وسأقول لها : « إن إلهك هو إلهي ، وإيمانك هو إيماني » ؛ وسأجتاز مع هذه السيارة الكبيرة المسكينة (٢) الصحارى والقفار ، وإن لزم أن أكون ضحية السراب الذي يخادعها ، فسأنتج معها نحو الأفق الذي يتألق فيه ذلك الكوكب العجيب الذي يهديها ويحتذيها . جملة القول : أنني متدين لأنني إنسان ولا أستطيع أن أفر من الانسانية » ؟

### رأبنا في هذا البحث الخطير

عربنا هذا البحث الفلسفي الخطير للاستاذ الكبير ( اجوست سباتيه ) مدرس الفلسفة في جامعة باريز ، وهو كما رأى القراء يرمى الى إثبات أن الدين فطري في النفس البشرية ، وأنها لا معدى لها عنه ، وأن الانسانية لا يكون لها معنى إذا تجردت منه . وهذا يوافق ما قرره الاسلام من كل وجه . ولا يخفى ما مثل هذا البحث من الأثر في تأييد دين الفطرة في هذا العهد الذي امتلأت فيه الصدور بالشكوك ، وطمت الشبهات حتى أخذت بمُخَنَّق العقول (٣) .

(١) الفسل : الرجل الرذل الذي لامرودة له ولاجلد . وفعله : فسل يفسل فسالة وفسولة ، على وزن كرم .

(٢) السيارة : القافلة ، وأصلها القوم يسرون . قال الله تعالى : « يلتقطه بعض السيارة » أي بعض الذين يسرون .

(٣) المخنق : موضع جبل الحق من العنق .

وقد حرصنا على توفية مبدأ الترجمة الحرفية حقه ، رغما عما في البحث من تسامح في التعبير ألفته الفلسفة الغربية وجرت عليه ، وهو ديدنا في كل ما ننقله عن الفرنجة ، ليتبين منه رأيهم الصحيح ، ويتضح مرهمى ما يكتبون .

وهنا يحسن أن ننبه القارئ الى أن كتاب الأستاذ اجوست سباتييه واحد من بضعة مؤلفات قال عنها النقاد إنه يرجع إليها الفضل في إيقاظ العاطفة الدينية في القرن العشرين .

على أنى ألاحظ على الأستاذ المؤلف إسرافه في تقدير عدد المتدينين ، وفي الخلط بين الإله الحق وإله الهوى الذى يخضع له الأكثرون ، ولكنهم لا يعتبرونه إلهاً . فكل هذا الإطلاق لو سمح به فى الشعر فلا يُسمح به فى تحقيق فلسفى عميق كالذى نحن بصددده .

يقول الأستاذ سباتييه : إن من الوهم أن نظن أنه يوجد عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدون ، ويضرب لنا مثلاً بمن يكفرون بالله طفولتهم أو إله جيرانهم ، ولهم إله لا تدركه الأبصار فى صميم أرواحهم يجدون بأنفسهم فى سبيله .

هذا حسن ولا نجادل فيه ، وفى رأينا أن هؤلاء أفذاذ فيمن يصرحون بأنهم لا دينيون ، ولكن أكثرهم لا يعلنون سريرتهم ويبقون معدودين من الملل التى نشأوا فيها ، مكتفين بالترفع عما وقع فيه العامة من التجسيد والتشبيه ، وعازيه الى جهلهم وعاميتهم ، ومتربصين بحيدانهم عن القصد أن يزول عندما ينتشر فيهم العلم ، وتنير بصائرهم الفلسفة .

أما الذين اتخذوا لهم إلهاً منحنطاً غليظاً ، فلا يصح أن يوصفوا بالتدين ، لأنهم يعرفون جيداً أن هذا الإله المنحنط الغليظ هو هوائهم ، فاذا كانوا وهبوه أنفسهم فهم يعترفون بأن ذلك سيوصلهم الى سوء المنقلب . وهذه الحالة ليست من التدين فى شئ ، ولا تؤدى الى ما يؤدى إليه الإخبات والخشوع ، والشعور بالتبعية لقيوم السموات والأرض .

وقول الأستاذ : « لا يوجد فى الحقيقة إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد ، هو الصنف الفسل الذى يتخذ من فسولته سلاحاً وستاراً فى آن واحد لحياة قوامها الأثرة الوحشية المنغشمة » ، فهو صحيح ، ولكنى أخالف الأستاذ فى ذهابه الى أنه قليل العدد . نعم ، إنه كان كذلك فى القرون الماضية ، أيام كان للدين السلطان المطلق على القلوب والعقول ، أى الى ما قبل نحو ثلاثة قرون ، ولكنه بعد ذلك بدأ يكثر تحت قيادة علماء حاكموا المعتقدات الى المقررات العلمية ، وأثبتوا مجافاتها لها من كل وجه ، ونشروا ما كتبوه بين العامة ، فأنكروه أولاً ونفروا منه ، ثم ألغوه وأساغوه ، ثم هاموا به وتدهلوا فيه ، حتى أصبح اليوم دين أكثر المتمدنين . فاذا كنا نبهت عن التدين الآن ، فنحن نعد الى كبار العقول أمثال اجوست سباتييه من أقطاب المفكرين ، لا الى الأوساط الذين تشبهوا بالمبادئ المادية وجدوا عليها ، متابعين فى ذلك ما كتبه خصوم الدين فى القرون الثلاثة الأخيرة .

ولا أخفى القراء أنى مهما أظهرت إعجابى بالتحليل النفسانى الذى قام به الأستاذ اجوست سباتيه ، وأثبت به أن التدين هو معنى الانسانية ولا إنسانية بدونه ، فأنى لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه ، يأتى النفوس من ناحية الدستور الذى سنه وأصبح العمل به ضربة لازب على العقول .

ذلك أن العلم قد غرس فى النفس البشرية فى العهد الحديث ، أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس ، لا يمكن أن يؤدى الى اليقين الذى تثلج عليه الصدور ، وتطمئن اليه القلوب . فهما تأدى الانسان بواسطة التحليلات المدققة الى نتائج ، فانها لا تخرج عن كونها من المعقولات التى يعوزها الدليل المحسوس . ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملى إلا إذا وصلت الى درجة اليقين ، وأين هى فى هذه الحالة النفسية للمعاصرين ، الذين يتطلبون الدليل المحسوس ، ولا شئ غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين فى هذا العهد يحتاج الى هذا الدليل المحسوس .

ليس الحصول على الدليل المحسوس فى الشئون الاعتقادية فى هذا العصر من الصعوبة فى الدرجة التى يتوهمها الأكثرون ، فيكفى فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية ، لا من طريق الأدلة الحسية ، واكتسبت بالجرى عليها صفة المقررات اليقينية وما هى منها فى شئ .

هذه العقيدة السلبية هى أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الانسانية ، ولا شئ فوقه أو وراءه يدبره ويتحكم فيه ، فهو قديم بمبادئه وقواه ، وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه ، وأن كل ما يقال عن خضوعه لقوى أرفع منه ، وعن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية ، فهراء لا يجوز الالتفات إليه .

يتنزل من هذه العقيدة أصول تناسبها ، وهو أن لا روح مستقلة للانسان ، ولا بقاء له بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هذا العالم ، وأن الفضيلة والريضة أمران اعتباريان ، وأن الحياة البشرية قائمة على ما تقوم عليه الحياة الحيوانية من الصيال والنضال ، وأن المثل الأعلى للانسان أن يصل الى درجة السوبرمان ، أى الانسان الحاصل على أقصى ما يمكن الوصول اليه من السكالم ، السكالم المقرر عند الماديين ، وهو بلوغ قواه البدنية ، وخصائصه العقلية ، وإرادته الشخصية ، الى أعلى ما يمكن أن تصل اليه على مقتضى الاعتبار المادية ، لا الاعتبار الروحية ، التى هى فى نظرهم من بقايا الأوهام الجاهلية .

فهذه العقيدة السلبية التى أقامت صرحها الفلسفة المادية ، وأحكمت بناءها فى مدى الثلاثة القرون الأخيرة ، قد صادفت فى هذا العهد الأخير من الاستكتشافات العلمية ما هدمها من أعماق قواعدها ، بل ما نسفها نسفا وذراها فى الهواء . ونصب مكانها علكم التعاليم الروحية مؤيدا بأقوى الأدلة الحسية ، على ما تحب الفلسفة العملية ، ويتطلبه أهل العصر الراهن من الحجج المادية .



فى رأى أن تنبيه الغريزة الدينية فى هذا العصر يقتضى أولاً تحطيم هذه البنيّة الإلحادية فى عقول الناس ، فقد أوت منها على درجات شتى فى الصميم ، باعتبار أنها مصاصة التفكير الحديث الخالص من سلطان القديم . ولا يكفى فى تخلص الفطرة الانسانية من ظلمات هذه المادية ما يفصله الأستاذ أجوست سباتيه من التضاد بين الشعور الباطنى للإنسان ، وما عليه الوجود الخارجى من عدم المبالاة به . فأننا نشاهد اليوم أن هذا الشعور بالتضاد وبفداحة تكاليف الحياة قد زادت الماديين مضياً فى إلحادهم ، بل اتخذوا من شدة وطأة هذه التكاليف دليلاً محسوساً على نفي العناية الإلهية التى يدين بها المؤمنون . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور أن جسدوا على ما هم عليه ، ونشطوا لنشر آرائهم على صور شتى ، بثوا فيها من سموم الإلحاد ما قدّر سحر البيان عليه .

فالدواء كل الدواء فى نظرى ، هو هدم تلك العقيدة الإلحادية الثابتة فى أعماق ثنايا الصدور ، وهدمها لا يحتاج الى جهد عنيف ، فإن حوادث خارقة للنواميس طرأت منذ نحو تسعين سنة ، اضطرت أعلى علماء الكون عقولاً أن يبحثوا فى علّة حدوثها ، فعثروا على حدود العالم الروحاني الذى طالما كذّب به الماديون ، وبنوا على تكذيبهم به كل ما أسسوه من النظريات المادية ، ونمقوه من البحوث الإلحادية .

وفى رأى أن تدريس هذه البحوث يجب أن يبدأ به فى المدارس الدينية ، فإن ما ثبت علمياً اليوم من هذه الدراسات الروحية هو من أقوى أسلحتها فى محاربة المادية . ولا يحيط ذلك من قدر هذه المدارس بعد أن اعترف بها العلم الرسمى نفسه . فقد قررت جامعات امريكية تدريس هذه البحوث منذ بضع سنين ، وقررت جامعة كامبردج الانجليزية ، وهى من أشهر الجامعات العالمية ، تدريسها فى شهر مايو من هذه السنة ( ١٩٤٠ ) ، وستبدأ الدراسة فيها فى اكتوبر المقبل . وهذا فتح دينى خطير لم يسجل تاريخ البشرية له ضرباً . وقد أعلنه لقرء العربية فى جريدة الأهرام فى شهر يونيو الماضى .

وقد نشرت الجرائد الانجليزية هذا الخبر ، وعززته المجلة الروحية (La Revue Spirite) فقالت عنه فى عدد شهر مايو من هذه السنة : « فتح جديد قد كسبناه » بعد تمهيد :

« مما يجب أن يسجل هنا عما حدث فى جامعة كامبردج ، هو أننا لمخنا فيه أن العلم الوضعى قد خطا خطوة جديدة ودخل الى مجال سبق لعلماء ممتازين أن درسوه ومحصوه . ومما يجب تكراره فى كل مناسبة أن اليوم الذى يعترف فيه العلم بالعالم الروحاني ، يخطو فيه بالانسانية الى درجة من الرقى لا يتصورها العقل الآن . . . ونحن فى فرحنا لما حدث ، وأملنا العظم فيه ، نبعث بأفكارنا المشجعة الى الذين قاموا بوضع هذا الكرسى الجديد للدراسة الروحية بجامعة كامبردج » .



العقبات التي تحول دون تدريس هذا العلم بالمدارس الدينية :

لما ظهرت هذه البحوث في أمريكا سنة ( ١٨٤٧ ) أولاً ، ثم انتقلت الى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها ، تولاها بالبحث علماء أعلام ، وقرروا أنهم حيال عالم روحاني حافل بالمدهشات تجب دراسته بصبر وثبت عظيمين ، وغُـلَّ فيه (١) عدد لا يحصى من خفاف العقول ، وأخذوا يجربون فيه تجارب للحصول على أنباء شخصية ، وليس لهم من صفة التحجيص العلمي ، والنثبت العقلي ، ما يقبهم المزال (٢) ، فأساءوا الى سمعة هذه المباحث الخطيرة أياً إساءة ، فتخليها البعيذون عنها أن الغرض منها استحضار الأرواح وسؤالها عن توافه الأمور . هنا كان المجال فسيحاً أمام المشعوذين والمخرقين ، الذين يستغلون سرعة تصديق الناس ، فكانوا عقبة كأداء أمام تقدم البحوث العلمية في هذه السبيل .

ولكن العلماء دأبوا على ما هم فيه بصرف النظر عن كل ما حدث حولهم ، وأجروا تجاربهم في بيوتهم الخاصة وجامعاتهم ومعاملهم ، فتأدوا الى اكتشافات بعيدة في عالم الروح يجب أن تضاف لحساب الدين ليستغلها المشتغلون بنشره بالأدلة المحسوسة .

هذه العقبات قد ذلت الآن بكثرة عدد العلماء الذين ألفوا فيه ، وبكثرة جمعياتهم التي قصروها على أنفسهم ، وبتقرير عدة جامعات لتدريس هذه البحوث وزيادة مادتها ، وفي مقدمتها جامعة كامبردج كما رأيت .

فالطريق إذن قد أصبحت ممهدة أمام المجددين . محمد فريد وممدى

(١) وغل يغل وغلا على وزن ضرب : دخل متطفلاً

(٢) المزال : جمع المزلة وهو المسكان الذي يزل فيه . وأصل الزل السقوط .

## الكلام والصمت

قال على كرم الله وجهه : بكثرة الصمت تكون الهيبة .

وروى أن قوما تحدثوا عند الأوزاعي العالم المشهور وفيهم أعرابي لم يتكلم ، فقال له بعضهم : لم لم تتكلم ؟ فقال : إن الحظ للسامع في أذنه ، وإن الحظ في لسانه لغيره . يريد أن من يستمع لغيره يحظى بما يسمعه ، ولا حظ لمن يتكلم إذ ينتقل لسامعه . وقال الامام النُّخعي : كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلمون الكلام .

هذا كلام ثمين ، فإن من يعرف كيف يتكلم يجب أن يعرف كيف يسكت ، فقد يضيع المحسن بتوسعه في الكلام ، ما يكسبه من إحسانه فيما هو بسبيله .

## الكلام والملتكلمون

— ٨ —

الامام الغزالي

تتمة الحديث عن نضاله مع الفلاسفة :

هاجم الغزالي الفلاسفة مهاجمة عنيفة في كتابيه : « المنقذ من الضلال » ، و « تهافت الفلاسفة » . وقد قسمهم في الأول الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول الدهريون ، وهم عنده طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نقطة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا . وهؤلاء هم الزنادقة

واقسم الثاني الطبيعيون ، وهم في رايه قوم أكثروا بحجثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوانات والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشریح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشریح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحجثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لا اعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأنحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهمك الانعام . وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته .

والقسم الثالث الإلهيون ، وهم في نظره المتأخرون منهم ، مثل : سقراط ، وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون هو أستاذ أرسططاليس ، وأرسططاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب العلوم ، وخمّر لهم ما لم يكن مخمرا من قبل ، وأنضح لهم ما كان فجّا من علومهم ، وهم بمجملتهم ردوا على المصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحتهم ما أغنوا به غيرهم ، ( وكفى الله المؤمنين القتال ) بتقاتلهم ؛ ثم رد أرسططاليس

على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضا من ردائل كفرهم بقابا لم يوفق للنزاع منها ، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما . على أنه لم يتم بنقل علم أرسطو ليس أحد من المتفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس ينحلو من تخليط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل (١) .

وأهم ما يلتفت النظر في هذه النصوص ، هو أن الغزالي وفق الى ما لم يوفق إليه الفارابي من معرفة الفرق بين فلسفتي أفلاطون وأرسطو ، ومن الايقان بأنهما كانا خصمين في مذهبيهما ، وأنه قد وقع بينهما نضال في أصول المذهبين ، على عكس ما تصور الفارابي من أن الفيلسوفين متفقان فوضع كتابه « الجمع بين فلسفتي الحكيمين : أفلاطون وأرسطو » . ولعل السبب في تخلص الغزالي من هذه الخدعة هو أن التقريب الذي اصطنعه أتباع « الأفلاطونية الحديثة » بين هذين الفيلسوفين لم يصح عنده ، فصرح بأن خصومة قامت بينهما ؛ ولكن ينبغي أن نعلن أيضا أن أبا حامد قد أساء فهم سقراط وأفلاطون كل الإساءة ، بل إن انخداعه في مذهبيهما أكثر خطورة من انخداع الفارابي في مذهب أرسطو ، لأن سقراط لم يأخذ عليه الى الآن أحد من مؤرخي الفلاسفة المحترمين أية هفوة في آرائه عن الألوهية وخلود النفس والحياة الأخرى . وكذلك أفلاطون — إذا استثنينا مسألة التناسخ — لم يؤخذ عليه شيء في مذهبه الإلهي ، على عكس أرسطو الذي شهدت كتبه الحقيقية بقوله الذي لا شك فيه بأن العالم لا صانع له ، وبأن الإله لم يزد على كونه أول الحركات ، وبأنه لا يعلم شيئا عن العالم مطلقا ، وبأن النفس لا تحيا ألبتة حياة شخصية ، وبأن القول بشعورها أو عقلها أو حياتها بعيدة عن الجسم ضرب من الخيال العايب ، الى آخر ما قرره في كتبه ورد عليه فيه تلاميذه ومعاصروه وزعماء الأفلاطونية الحديثة .

أما طريقته في كتاب « التهافت » فهي تختلف كثيرا عن طريقته في « المنقذ » ، إذ أنه في هذا الأخير يعرض للمذاهب عرضا موجزا سطحيا لا يروى ظلما ولا ينقع غلة ، بينما هو يتناول في « التهافت » النظريات التي هي في رأيه خاطئة ، فيبسطها بفصاحة ولباقة قل أن يوفق الى مثلها صاحب النظرية نفسه ، ثم يسرد براهينها في وضوح وجلاء ؛ فإذا انتهى من كل هذا ووضع النظرية موضع المأموسات ، أخذ يوجه الى صميمها من سهام النقد ما يهدم به حججها أو يضعفها على أقل تقدير . وبهذا يتم له ما يريد من إبطالها ، أو من نزع الثقة فيها . ويعلق الأستاذ « كرادي فو » على هذه الطريقة بما يفيد أن الغزالي قد بسط بعض نظريات ابن سينا بسطا لم يتم به مؤلفها نفسه ، وبأنه إذا تعقب كتب الشيخ الرئيس لم يجد فيها أكثر من عناصر

(١) انظر صفحتي ١٠ و ١١ من كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي .

أولية لكثير من هذه النظريات التي بسطها الغزالي في كتبه ونسبها الى صاحبها بعد أن وضّحها في شيء من الدقة . ومن العجيب أن ابن رشد قد طعن عليه في هذا المنهج ، ورماه بأنه لم يحسن بسط هذه النظريات ، وبأن السبب في عدم هذا الإحسان إما أن يكون الجهل أو عدم النزاهة . ولعل في نقد ابن رشد شيئاً من التحامل .

هاجم أبو حامد الفلاسفة في عشرين مسألة ، منها ست عشرة فيما وراء الطبيعة ، وأربع في الطبيعة ، وهي تتلخص فيما يلي :

- (١) قولهم بقدم العالم . (٢) قولهم بأبدية العالم والزمان والحركة . (٣) تضليلهم في قولهم بأن الله فاعل العالم وصانعه . (٤) عجزهم عن الاستدلال على وجود الصانع للعالم . (٥) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الله واحد . (٦) اتفاقهم على استحالة إثبات العلم والقدرة والارادة للبدء الأول . (٧) قولهم بأن الأول لا يجوز أن يشارك غيره بجنس ويفارقه بفصل . (٨) قولهم : إن وجود الأول بسيط . (٩) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الأول ليس بجسم . (١٠) عجزهم عن إقامة الدليل على أن للأول مبدأ وعلة . (١١) عجز من يرى منهم أن الأول يعلم غيره ويعلم الأنواع والأجناس بنوع كلي عن إثبات ما يرى . (١٢) عجزهم عن إقامة الدليل على أن البارئ يعلم ذاته . (١٣) قولهم بأن الله لا يعلم الجزئيات . (١٤) قولهم : إن الأفلاك حيوانات مطيعة لله تعالى يحركها الدورية . (١٥) قولهم بأن للأفلاك قوى تحركها ، وغايات تتجه إليها . (١٦) قولهم بأن النفوس الفلكية مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم . (١٧) قولهم بضرورة اقتران المسببات بالأسباب . (١٨) عجزهم عن إقامة البرهان العقلي على أن نفس الانسان جوهر روحاني قائم بنفسه . (١٩) قولهم بأن النفس الانسانية يستحيل عليها العدم بعد وجودها وأنها سرمدية . (٢٠) إنكارهم لبعث الأجساد .

على أن الباحث إذا نظر في أصول هذه المسائل العشرين ، وفي الموضوعات التي تعالجها ، استطاع أن يعضطها فيحوها — كما فعل « البارون كارادى فو » — الى بضع مسائل ، مثل :

- (أ) أزلية العالم وأبديته . (ب) علم الله بالجزئيات ، وهي تتناول بالمجاورة مسألة الصفات . (ج) مسألة الأفلاك ، وهي قليلة الاهمية . (د) النفس البشرية وكل ما يتعلق بها . (هـ) نظرية الأسباب والمسببات .

فأما النظرية الأولى ، وهي نظرية أزلية العالم ، فقد وردت كما ورد غيرها من النظريات في كتب فلاسفة المسلمين صريحة واضحة ، كما يتبين ذلك من كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد . ومن أقوى الأدلة التي ساقها الفلاسفة ، وأكثرها أثراً في الحياة العقلية ، لا في الشرق وحده ، بل في أوروبا في القرون الوسطى ، هو قول ابن سينا لخصومه القائلين بمحدوث العالم ما معناه : إن كنتم تقولون بمحدوث العالم ، فإنكم لا شك تعترفون بأن كل حادث كان قبل

حدوثه ممكننا . ولما كان الامكان صفة وجودية ، ولما كانت الصفة الوجودية لا تقوم بذاتها ، فقد وجب أن يكون هناك موصوف وجودى سابق على هذا الحادث ليقوم به الإمكان ، وهذا الموصوف السابق على الحادث هو الهىولى . وإذا ، فالهىولى سابقة على كل حادث ممكن . غير أن الغزالى قد أجاب على هذا الإشكال بأن الإمكان ذهنى لا يحتاج ألينة الى موجود خارجى يقوم به ، لأن جميع المفاهيم الذهنية كالإمكان والوجوب وما أشبهها أمور اعتبارية لاحقائق خارجية حتى تحتاج الى موجود ثبوتى تقوم به .

وكما أنكر الغزالى سابقة الهىولى على الحوادث الممكنة ، أنكر كذلك كل أزلية عدا أزلية البارى ، ورد على الفلاسفة فيما زعموه من أن هذه الأزلية ضرورة لا محيص عنها لنفى وقوع التغير فى ذات البارى ، أو صيرورتها محلا للرجح الحادث ، أو انقلاب حقيقة الحادث الى الإمكان بعد الاستحالة ، أو غير ذلك مما يترتب على القول بحدوث العالم ، ولكنه قبل أن يرد عليهم أوضح نظريتهم إيضاحا تاما كما هو ديدنه دائما . وقد ورد هذا الايضاح ومناقشته ببسط واف فى صفحتى ٨٥٧ من كتاب « تهافت الفلاسفة » فارجع اليه إذا شئت .

ومن أبدع ما رد به أبو حامد على الفلاسفة فى نظرية أزلية الزمان ، قوله لهم ما معناه : إنكم صرحتم بأنه لا يوجد وراء هذا العالم لا ملاء ولا خلاء ، ولما كان هذا العالم عندكم محدودا ، فقد وجب أن يكون المكان فى رأيكم متناھيا بمتناھيه مادام لا يوجد بعده لا ملاء ولا خلاء . وإذا كان قد ثبت تناهى المكان فلا معنى لأن لا يثبت تناهى الزمان .

ومن هذه الاعتراضات التى ساقها الغزالى الى خصومه ما يأتى :

إنى لا أدرى كيف تقولون بلا نهائية الزمان مع جزمكم بانتفاء الاسباب الى سبب أول تسمونه صانع العالم . فإذا كان الزمان عندكم يتسلسل الى غير النهاية ، فلم لا تتسلسل الاسباب أيضا الى غير نهاية ؟ لا ريب أن الدهريين الذين يقولون بأزلية العالم ويشكرون صانعه بتاتا هم أكثر منكم تمشيا مع المنطق ، إذ ما قيمة القول بالصانع لعالم أزلى لم يسبقه عدم ، ولم يتقدمه هذا الصانع إلا تمعلا فقط ؟

ومن المهاجات رده القيم الذى وجهه الى ابن سينا ، إذ قرر هذا الأخير فى إشارات أن سلسلة الاسباب العامة ممكنة الوجود ، لأنها مؤلفة من حلقات ممكنة ، والمؤلف من الممكن ممكن . ولهذا كان لا بد من طرف خارج عن هذه السلسلة ، وهو واجب الوجود . فقال له أبو حامد : إنكم لا شك تعترفون بأن اليوم واليلة متناھيان ، ولا تجحدون أن الزمان مكون من الليلالى والأيام على نحو ما تكونت سلسلة الاسباب من حلقاتها ؛ فعلى طريقتكم فى التفكير ، كان يلزمكم أن تقولوا : إن المؤلف من المتناھى متناھ كما جزمتم بأن المؤلف من الممكن ممكن .

أما مسألة إنكار الفلاسفة على البارى العلم بالجزئيات ، وقول ابن سينا : إنه يعلمها بطريقة

كلية فحسب ، لأن علمه بالافراد وأعمالهم نقص في حقه ، إذ الافراد مشخصة ، والمشخصات لا تكون موضوعا إلا للعلم المؤسس على الحواس ؛ ولما كان علم الله غير مؤسس على الحواس ، فقد تنزه عن الاحاطة بالافراد المشخصة ؛ وكذلك أعمال الافراد هي متغيرة متحولة ، وتغير المعلوم يقتضى تغير العلم ، وتغير العلم يقتضى تغير العالم ، والتغير على البارى محال ، فقد وجب أن يتنزه علم البارى عن الجزئيات المتغيرة . وقد آثرنا أن نكتفى في هذه المسألة بما أسلفناه فيها حين عرضنا لفلسفة ابن سينا في مقالات سابقة تجنبنا للإعادة .

أما مسألة ارتباط الأسباب بالمسببات ، وضرورة وجود الثانية متى وجدت الاولى مستكلمة لشروطها ، وعدم وجود المسببات من غير أسباب ، وهى المسألة التى أجمع عليها الفلاسفة ، فقد أنكرها أبو حامد كما أنكرها الأشعرية من قبله ، ورد فيها على الفلاسفة ردودا طويلة جاء فيها أن أولئك الحكماء ليس لهم على صحة دعواهم دليل غير مشاهدة وقوع هذه المسببات ، وهذه المشاهدة تثبت أن المسببات وقعت عند وجود الأسباب ولا تثبت أنها وقعت بها . والفرق بين الحالتين جلى ، لأن الشمس مثلا تلقى أشعتها على وجه القصار وقاششه ، فيسود الاول ويبيض الثانى . وهو يعترض عليهم أيضا بقصة ابراهيم وعدم تأثير النار فى جسمه ، وما شاكل ذلك ؛ ولكن قد فاته فى هذه المسألة أن الفلاسفة يوجبون لتأثير الأسباب فى مسبباتها استكمال الشروط الطبيعية . وعلى هذا يكون اعتراض أبى حامد ضعيفا ، لأن الفلاسفة لا يسمون بإمكان نجاة ابراهيم من النار إلا بعلل خاضعة للناموس الطبيعى ، كانطفاء النار ، أو انطلاء جسد ابراهيم بما يحفظه منها .

لم تقتصر مهاجمة أبى حامد للفلاسفة على النظريات التى اعتقد بطلانها ، بل هاجمهم فى نظريات هو مؤمن بصحتها ، ولكنه أراد أن يثبت عجزهم عن التدليل على صحة ما يدعون . ومن ذلك مسألة جوهرية النفس البشرية ، فإنه هاجمهم فيها مع إيمانه بصحة آرائهم ، واعترافه بهذا الايمان فى قوله : « وليس شئ مما ذكروه يجب إنكاره فى الشرع ، فإنها أمور مشاهدة أجرى الله تعالى العادة بها ، وإنما نريد أن نمتز الآن على دعواهم معرفة كون النفس جوهرًا قائمًا بنفسه ببراهين العقل . ولسنا نعترض اعتراض من يبعد ذلك من قدرة الله تعالى ، أو يرى أن الشرع جاء بنقيضه ، بل ربما نبين فى تفصيل الحشر والنشر أن الشرع مصدق له ، ولكننا ننكر دعواهم دلالة مجرد العقل والاستغناء عن الشرع فيه فنطالهم بالأدلة (١) » .

ومن هذه المسائل التى صادمهم فيها وهو مؤمن بصحتها ، مسائل : وحدة البارى ، وكونه صانع العالم ومنشئه ، وكونه يعلم ذاته ، وكونه ليس بجسم ، وما شاكل ذلك مما لو حاولنا الايتان عليه لطال بنا البحث .

الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٧١ من كتاب « التفاهات » للغزالي .

# دراسات في القرآن الكريم

## الاصول العامة والمبادئ الشاملة في كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلِ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عفا الله عنها ، والله غفور حلیم . قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » :

إن مدار المعنى في هذه الآية وتفهمه فهما صحيحا ، إنما هو على فهم كلمة « أشياء » . وإن المفسرين يحملون هذا اللفظ على أمرين : الأول : التكليف الشاقة التي لا يطبقونها ؛ والثاني : أمور خفية وحوادث جزئية وقعت بالفعل تتعلق بأشخاص بأعيانهم .

هذا هو ما يحملون عليه الأشياء التي نهت الآية الكريمة عن السؤال عنها ، لما في إبدائها بسبب السؤال من مساءة للسائلين . وعلى ذلك يصير المعنى : إن السؤال عن تلك التكليف الشاقة مستتبع لا يجابها لتجاوز السائلين للاستسلام لما يلقى عليهم من قبل الرسول دون بحث في كيفية أو كية ، كما أن السؤال عن تلك الأمور الخفية والحوادث الجزئية مستتبع لا إبدائها ، وفي إبدائها مساءة وفضيحة .

ثم إنهم يستندون في الحل على النوع الاول ، إلى ما روى عن علي رضي الله عنه ، أنه قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن الله كتب عليكم الحج » . فقام رجل فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ! وما يؤمنك أن أقول : نعم ؟ ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فأتروني ما تركتم ، فأنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه » .

ويستندون في الحل على النوع الثاني ، إلى ما روى عن أنس رضي الله عنه : « إن الناس سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه في المسألة ، فقام صلى الله عليه وسلم مغضبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : والله ما تسألوني عن شيء في مقامى هذا إلا بينته لكم !



فكان ممن سألوه رجل من قریش يقال له عبد الله بن حذافة ، فقال : يا نبي الله : من أبي ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : أبوك حذافة . ثم قام آخر فقال : أين أبي ؟ فقال : أبوك في النار . هذا مجمل ما يذكره المفسرون في بيان الأشياء المنهى عن السؤال عنها . وقد قلنا : إن معنى الآية ينبنى على ما يحمل عليه لفظة أشياء .

وإننا قبل أن نعرض لبيان ما نحن مقتنعون بأنه الصواب في الآية ، لا بد لنا أن نعهد لذلك ببيان ما في هذا الذي ذكروه من خطأ أو ضعف .

ولنبدا القول في النوع الثاني ، وهو الحوادث المعينة الواقعة فعلا لأشخاص معينين ، كككون حذافة أباً لعبد الله ، وكككون أبي السائل الآخر في النار . واليك البيان :

إن مما لا يصح أن يكون مراداً للقرآن هو أمثال تلك الحوادث الجزئية ؛ وذلك لأن قوله تعالى في الآية : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم » واضح في أن ما نهوا عن السؤال عنه إنما هو من قبيل ما يكون للوحى به علاقة ، وواضح أنه لا ينبغي بحال أن يكون للوحى علاقة بتلك الأمور الجزئية ، وتلك الحوادث المتعلقة بشئون خاصة لأناس معينين ، إذ أن مثل هذا أنزل من أن يكون من مقاصد الوحى ، وأصغر من أن يكون من غاياته ؛ فالوحى أسمى من ذلك مقصداً ، والقرآن أجل وأبعد من ذلك غاية . فما أنزل القرآن إلا ليقرر مبادئ عامة الخير ، شاملة النظام ، كافلة إصلاح البشر أبيضه وأسوده ، أو لينبئ أصلاً كلياً غير مقصور النفع والترقية على أمة دون أمة ؛ ولا يختص التهذيب بشعب دون آخر . على العموم فالقرآن إنما نزل على النبي الكريم ليضع للنظام البشرى قواعد وأصولاً ، لا يبين جزئيات لأشخاص بأعيانهم . القرآن إنما جاء للهداية والإرشاد ، والتهذيب ومكارم الأخلاق ، لا لبيان من هو أبو فلان ؟ أو ما هو مقر فلان ؟ مما لا علاقة له بمقاصد القرآن التي هي مبادئ وقوانين ، وغاياته التي هي كليات وقواعد . وقد قلنا : إن من الجناية على عظمة القرآن وجلاله أن يجذب وهو خصب روى ، ويخفف وهو شاخ على . من الجناية على كتاب الله أن يحد ويقصر وهو المديد المتناول ، ويضيّق وهو الواسع الشامل .

من ذلك تعلم أنه لا يصح أن يكون ذلك مراداً من الآية الكريمة ؛ وما روه في هذا الصدد لم يرو أن الآية قد نزلت بسببه ، فليكن ذلك الذي روه - إن صح - حادثاً مستقلاً لا علاقة له بوحى ولا بتنزيل .

وأما النوع الأول مما حملوا عليه الأشياء المنهى عن السؤال عنها ، وهو الأمور التكليفية ، فالأخذ على المفسرين فيه هو أنهم قد تركوه مجملاً دون أن يفصلوه فيجددوه ، إذ هو محتمل أن يكون من قبيل الأمور التي لم يكن قد نزل فيها وحى يبين أنها من قبيل المكروه



والمحذور، أو من قبيل المطلوب المرغوب، فيكون السؤال فيه طلباً لبيان حكم الله حتى لا يسيروا فيه إلا على وفق ما شرع الله؛ ومحمّل أن يكون من قبيل الأمور التي نزل فيها وحى ولكن كانت نصوصه محتملة أكثر من معنى، فيكون سؤالهم فيها طلباً لتحديد المراد وتعيينه من بين ما احتمله النص من المعاني.

هذان معنيان محتملهما النوع الأول الذي حملوا عليه لفظ الأشياء في الآية. فإنهم كانوا يريدون الأول فذلك ما لا يصح أن يكون مراداً للآية، فقد علمت أن سيدنا عمر بن الخطاب قد كانت له في ذلك النوع مواقف عدة، وما كانت قط تلك المواقف داعية مؤاخذه له، بل كانت على النقيض من ذلك مبعث حمد له وثناء، وموجب تقدير وإكبار؛ فلقد طلب إلى الرسول أن يكون في الحجاب تشريع، كما سأل أن يكون في الخمر بيان حاسم، إلى غير ذلك من مواقف قد عدت من مفاخره، وحسبت له في مناقبه. وأى مؤاخذه على الناس في أن يعتنموا عن السير في عمل من الأعمال إلا على وفق ما يشرعه الله لهم من حظر وتحريم، أو طلب وتحتيم، تخرجاً منهم أن يساروا ومقتضى تفكيرهم، خوفاً من تغلب الهوى واستيلاء الأغراض؟ وعلى هذا، فلم يبق إلا حمل الأشياء في الآية على ما يكون من قبيل ما نزلت فيه من قبل الله نصوص محتملة لأكثر من معنى؛ ويكون سؤالهم على هذا طلباً لتحديد المراد من ذلك النص المحتمل، وتعيين المعنى المقصود منه حتى لا يبقى صالحاً للدلالة إلا على معنى واحد. وهذا هو ما أردت أن أحمل الآية عليه، وأفسرها به، وإليكم بيان ذلك، وبالله التوفيق:

إن من المعلوم أن نصوص الشريعة الإسلامية منقسمة من حيث دلالتها إلى قسمين: قسم لا يحتمل أكثر من معنى واحد، وليس له دلالة إلا عليه؛ وقسم يحتمل أكثر من معنى واحد؛ ويسمون الأول في الاصطلاح الأصولي قطعي الدلالة، ويسمّون الثاني ظني الدلالة. ومن مجيء النصوص الشرعية على هذين النحويين ندرك في يقين أن ذلك مقصود للشارع الحكيم، وأن ذلك القصد لا محالة يكون لمغزى خطير وحكمة سامية؛ وما ذلك المغزى ولا تلك الحكمة إلا أن الله قد أراد أن يدفع عن عباده الحرج فيما شرع لهم، ويرد عنهم المشقة فيما كلفهم به، رحمة منه وفضلاً، وحكمة وعدلاً. ذلك أن الإسلام هو الدين المنزل على خاتم النبيين، المرسل للناس كافة أسودهم وأبيضهم، فهو لذلك دين خالد على الزمان، عام لجميع البشر؛ فلو كانت نصوصه كلها من قبيل ما لا يحتمل إلا معنى واحداً لكان في ذلك حمل للناس على اختلاف آفاقهم وأمكنتهم، وعلى اختلاف تقاليد معاشهم التابعة لطبائع بقعهم وأقطارهم، وفي مختلف الأزمان ومظاهر العمران، على طريق واحد في جميع التكاليف، وفي ذلك من الحرج والمشقة ما لا يحتمل. ويرى في مقابل ذلك أن تعدد السبيل أمام العاملين يسراً ورخاء، يعيا المرء بهذا السبيل فيتركه إلى سبيل آخر، وفي كلا الأمرين هو شاعر أنه ممثّل لربه مطيع، بدلاً من أن يضطره العجز لترك الجادة إلى المخالفة والعصيان. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون تحقيق المصلحة التي لأجلها التشريع أو دفع المضرة مرتبطا في وقت السؤال بأشق الوجوه التي يحتملها النص ، فيصير بالتحديد والتعيين لو أجيبوا الى السؤال هو الدين الذي لا يعدل عنه الى سواه ، وفي ذلك الحرج والمشقة التي قد تقضى بهم الى الترك والكفران .

هذا ، ويجب ألا يغيب عنا في هذا المقام أن النصوص التي تحتل أكثر من معنى ، لا تكون إلا في نوع التكليف الذي يرتبط بتحقيق المصلحة أو دفع المضرة فيه بالوجوه التي يحتملها النص ، بحيث يكون الوصول الى ما قصد بالتكليف من تحصيل خير أو دفع شر غير مقصور على طريق واحد ، بل تتمعد الطرق الموصلة إليه . وأما ما ترتبط الغاية فيه من التكليف بطريق واحد فهذا هو ما يدل عليه بالنصوص القطعية الدلالة ، أعني التي لا تحتل إلا معنى واحدا . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » الآية : لا تطلبوا من الرسول تحديد نص محتمل ، ولا تحاولوا تعيين معنى من معان صلح النص للدلالة عليها ، فإنكم إن طلبتم ذلك — والوقت وقت وحى وتشريع — فليس بجائز إذ ذاك أن يعتذر الرسول عن الإجابة بعدم العلم ، بل لا بد من التحديد والتعيين ، وفي ذلك ضياع لهذا المقصد الاسمي ، وذهاب بتلك الحكمة العالية ، من رد المشقة عن عباده فيما شرع لهم ، ودفع الحرج عنهم فيما كلفهم به ، وتيسير الدين وتسهيل الأخذ بأحكامه ؛ أى : دعوا الحكم من آيات الله كما أنزل محكما ، ودعوا المتشابه منها كما أنزل متشابها ، فإن ذلك من المعمود المقصود رحمة بكم وتيسيرا لكم . وعلى هذا فيكون المقصود بالأشياء التي نهى الله عن السؤال عنها هي المتشابه من آياته ونصوص أحكامه ، أى ما يحتمل منها الدلالة على أكثر من معنى كما قدّمنا ، ويكون المقصود بالنهى هو حماية ذلك المتشابه ، وصيانة هذا المحتمل عن التحديد والتعيين حتى لا يوقعهم ذلك في الحرج والمشقة التي قد تقضى بهم الى ترك التكليف ، فيتورطون فيما تورط فيه من قبلهم من الأمم السابقة ، من مخالفة وعصيان ، وترك وكفران ، كما حدثنا به الآية الكريمة التي نحن بصددھا الآن : « قد سأها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » ، وكما حدثنا القرآن في موضع آخر عن بنى إسرائيل ، اسمع قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... » الآيات ، فلقد أراد الله بذلك أن يضع أمام أعيننا صورة من صور الغابرين ، ومثلا من أمثلة المتقدمين ، ليرينا الى أى حد بلغ التكليف من المشقة ، بمحاولتهم التحديد ، وإمعانهم في التعيين ، وقد كان بدون ذلك يسيرا سهلا . فهذا متعلق الأمر في الآية قد أطلق إطلافا دون تحديد بلون أو تحديد بسن أو شئ مما حاولوا الاستفسار عنه من رسولهم ؛ فلو أنهم بمجرد أمرهم بذلك ذبحوا بقرة ما على وفق الإطلاق في الآية ، لكانوا محققين للأمر ، ولكانوا ممتثلين مستجيبين ؛ لو أنهم ذبحوا بقرة في أى سن : فإرض أو بكر ، وعلى أى لون : صفراء أو حمراء ، وبأى حال : سائمة أو طاملة ، لكانوا بذلك

طائعين، ولكنهم بالغوا في تحديد المحتمل، وتعيين المتشابه، فُخِّد لهم باندر الجنس وجودا، وأعزه منالا، حتى كادوا لا يفعلون.

هذا، وإنك إذا نظرت الحديث الذي ساقوه للاستدلال به فيما حملوا عليه الآية، وجدته يشهد لهذا الذي فسرنا به الآية شهادة واضحة جلية. انظر قوله عليه السلام: «إن الله كتب عليكم الحج»، تجد هذه العبارة كما ترى محتملة أمرين: محتملة أن يكون الحج قد فرض مرة في العمر، وأن يكون قد فرض في كل عام مرة، وتجد سؤال السائل قد حاول به تحديد أحد المعنيين، وتجد أن محصل ما قد قال له الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد كان يصح أن مقتضى الظرف الحاضر يجعل المصلحة في هذا الوقت مرتبطة بأشق الوجهين، فيبين به النص المحتمل، ويعين به المتشابه، ويصير الحج مفروضا في كل عام، وفي ذلك من الحرج والمشقة ما يكاد يقطع معهما بالعجز عن الامتثال، والوقوع في المخالفة والكفران، فلتتركوا الأوامر والنواهي على الحال التي أودبها اليكم بها.

وعلى العموم، فإن من الواضح الجلي أن من بالغ الحكمة وعظيم المنة، أن يكون بين نصوص الاسلام تلك النصوص المحتملة المتشابهة، لما في ذلك من رفع المشقة ودفع الحرج. أما أولا: فبتعدد الطرق أمام العاملين؛ وأما ثانيا: فبعدم تعيين أشق الوجهين مرادا من النص، مما قد كان يقتضيه الأمر وقت السؤال، بأن يكون حصول المصلحة أو دفع المفسدة لا يتان في عهد السؤال إلا بأشق الوجهين.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نلتفت الى أن الله تعالى قد نوه بتلك الحكمة السامية، وأشاد بتلك المنة الجليلة: اقرأ في أول سورة آل عمران قوله عز من قائل: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...» الآية، فإن المراد بالمحكم في تلك الآية هو قطعي الدلالة، أي الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا؛ والمراد بالمتشابه هو ظني الدلالة، أي الذي يحتمل أكثر من معنى واحد. وإنما كان ظني الدلالة متشابهة لأن المعاني التي يحتملها متشابهة في دلالتها عليها وانفهامها منه؛ وكان قطعي الدلالة محكما لأن المحكم هو المتقن الذي يمنعه إتقانه من التحلل والفساد. ولما كان قطعي الدلالة ليس فيه للهوى منفذ، ولا للشهوة والغرض اليه سبيل، بتأويل ذوى الهوى له الى أهوائهم، وتوجيهه نحو أغراضهم، لما كان ذلك فيه غير ممكن لأنه لا يحتمل إلا معنى واحدا، كان بذلك متقنا محكما؛ وإنما كان قطعي الدلالة كذلك أمّا للكتاب، لأن الأم هي مرجع أبنائها إذ يفزعون، وما لهم بعد ما يترددون فيجيئون ويذهبون، واليه يردون إذ يضلون.

ولما كان محكم النصوص إنما تبني به أصول الدين وقواعده، وكان المتشابه المحتمل أكثر من معنى يجب في تأويله ألا يحمل على معنى يتجاوز تلك الأصول، بل يجب أن يكون ما يحمل عليه في داخل تلك الأصول، لما كان كذلك كان المحكم بمثابة الأم، والمتشابه بمثابة الأبناء، فالحكم هو المآل والمرد للمعنى الذى يحمل عليه المتشابه، فأى معنى مما يحتمله المتشابه لا يصح أن يحمل عليه حتى يرد الى تلك الأصول، فإن جاوزها انقطع نسبه عنها وكان من غير الدين، وإن لم يتجاوزها فهو من الدين، وذو نسب الى تلك الأصول عريق؛ ومن ذلك يصير من المفهوم الجلى قوله تعالى: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه»، إذ المعنى على ذلك: أن الذين أظلمت قلوبهم بالشك، وازدحمت نفوسهم بكراهية الحق، وولعوا بالبعد منه والميل عنه، من شأنهم أن يهملوا المحكم من النصوص لأنها لا منفذ فيها للهوى، وليست محل اختلاف وتردد من ذلك، وأن يقصروا أنفسهم على اتباع المتشابه يؤولونه الى أهوائهم، ويحولونه الى أغراضهم، وإن تجاوزوا به الأصول ونأوا به عن المحكم يبتغون بذلك فتنة الناس، إذ يكون من شبههم التى يضللون بها أن ما يلقونه على الناس لم يجيئوا به من عند أنفسهم، بل يزعمون أنه مأخوذ من نصوص الكتاب، تلك النصوص ذات الاحتمال، فى حين أنهم لم يرجعوا بها الى المحكم، مغررين بذلك ومضللين، وأنهم لو رددوه الى الله والى الرسول، لو رددوه الى المحكم من آيات الله لأدرك معناه الحق، وعرف المراد الصحيح منه؛ ثم إن هؤلاء الزائعين يبتغون الى ذلك مبتغى آخر هو تأويله، أى رده الى مآل يوافق شهواتهم ويسائر أغراضهم، دون تقييد بمحكم، ولا رجوع الى أصل.

وعلى الجملة، فالآية الكريمة تحدد مقصد الزائعين من قصر أنفسهم على اتباع المتشابه دون رجوع به الى المحكم، وتقييد بالأصول؛ تحدده بأمرين: الأول: هو فتنة الناس وتضليلهم بإيهامهم أن ما جاءوا به إنما هو من كتاب الله؛ والثانى: هو إيماله حيث شاءوا، والرجوع به الى ما يهوون ويشتهون.

ولما كان عدم رد المتشابه الى المحكم عند تأويله، وأن يمال الى الهوى حيث يكون، من لوازمه أن ماحلوه عليه من معنى جاروا به أهواءهم إنما هو معنى من عند أنفسهم، فقد رد عليهم الله ذلك، إذ قال: «وما يعلم تأويله إلا الله»، فهو يريد أن يقول: إن هؤلاء الزائعين ليسوا هم الذين يعلمون تأويل هذا النوع من الآيات، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك، وقد وضع المحكم مآلا للمتشابه ومرجعاً له فى تأويله حتى لا يعول على معنى مما يحمل عليه إلا المعنى الذى لا يتجاوز تلك الأصول، ولا يتعدى تلك المحكمات.

وإنك ترى أنه، بعد وضوح ذلك على ما قررناه، أن قوله تعالى: «والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا» قد أصبح واضحاً جلياً. فإن المراد حينئذ أن الذين

لا يعلمون ما يعلمون إلا علم حق و يقين ، فهم بذلك ثابتون على ما علموا لا يتقلقلون ، متمكنون في ما هم عليه لا يتزعزعون ، لا جرم يعرفون ربهم وما يجب له من شأن معرفة صحيحة ، وأنه محاسبهم كل أحد حسابا دقيقا ، وأنه مجاز كل إنسان بما عمل : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأنه لا يعيبه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأن يديه ملكوت كل شيء ؛ ويعلمون كذلك الدنيا على حقيقتها ، فلم تقتنهم زهرتها ، ولم تغرهم زخارفها ، فهم بهذا يقولون : آمنا يا ربنا بحكم كتابك ومتشابهه ، فإن الحكم والمتشابه كلاهما من عندك ؛ فكان علمهم الحق بربهم حتى قدروه حق قدره ، وبالدنيا حتى أنزلوها من أنفسهم منزلة تليق بها ، ما نعا لهم من أن يوجهوا المتشابه نحو أهوائهم ، ويؤولوه وفق أغراضهم ، تاركين الحكم وراءهم ظهريا .

هذا هو ما ينبغي أن تفسر به تلك الآية ، أما ما ذكره المفسرون فيها من معان يدل على عدم صحتها أنهم كلما خاطوها من ناحية تمزقت من ناحية أخرى ؛ وإلا قل لي برك كيف ينفهم أن القرآن الذي أنزله الله هداية للناس وإرشادا ، وتنظيما لحياتهم ، وتحقيقا لسعادتهم وترقيتهم ، كيف ينفهم أن يكون ذلك فيه غير المفهوم كما يقولون ، إذ يرون أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه ؟ قل لي برك : أي فائدة من أن يكون في الكتاب الذي أنزل لهذه الأغراض السامية غير المفهوم ، وهو لا يحقق غاية من تلك الغايات ؟ ! وأي عقل ذلك الذي يسبغ أن ينزل الله كلاما غير مفهوم ، مع أن ذلك هو العبث بعينه ، والسفه الذي نضن عنه ببعض الخلقين فضلا عن الخالق العظيم !

اللهم إن هذا ما لا ينبغي أن يقال في جانب الله ذي العلم الشامل والحكمة البالغة ، وما لا ينبغي أن يحس به كتاب الله الذي من أخص أوصافه أنه المبين وأنه المفصل .

هذا ، وإننا لم يكن من غرضنا تفسير تلك الآية ، آية هو الذي أنزل عليك الكتاب ... ولكن عرضنا لهذا الإجمال فيها للعناسة التي بينها وبين الآية التي نحن بصدد بيانها ، وقد تسنح لي فرصة أخرى لشرحها شرحا مفصلا .

بقي أنه لا يصح أن يكون أحد من علماء الاسلام بعد العلم بأن شريعتنا شريعة شاملة في الزمان ، فهي الشريعة الباقية على مدى الأيام حتى ينتهي الليل والنهار ؛ وشاملة في المكان فهي لجميع الناس أسودهم وأحمرهم ، عربهم وعجمهم ، لا يصح أن يكون من علماء الاسلام بعد العلم بذلك من يجهل أن شريعة ذلك شأنها لا يكون من الضروري لها أن تحتوى أمرين هما من مقتضياتها المحتومة . أما أول هذين الأمرين ، فهو أن يكون من نصوصها ذلك النوع الذي يبيناه من النصوص وهو المتشابه ، أي الذي يحتمل أكثر من معنى واحد وهو ظني الدلالة كما بينا ذلك سابقا ، حتى لا يحمل الناس في مختلف العصور ، ولكل عصر مقتضيات ،

وفي مختلف البقع والامكنة ، ولكل مكان ما يناسبه من نماذج العيش وأساليب الحياة ، حتى لا يحمل الناس والامر كذلك على السير في سبيل واحد ، لما في ذلك ما لا يخفى من الحرج والإرهاق . وأما ثانی الامرین ، فهو وجود التشريع ضمن مبادئ عامة وقوانين شاملة ، بأن تناط الأحكام بأوصاف ومعان يدور معها الحكم وجوداً وعدمًا ، حتى يعطى كل ما تلده الأيام من حوادث حكمه ، بأن يتبين ما في الحادث من وصف ومعنى أهو مناط حظر وتحريم أم مناط طلب وتحريم ، فما كان من المعقول أن يجتمع في عهد الرسول كل حوادث الدنيا حتى ينص على حكم كل حادث على حدة .

وإنى بهذه المناسبة لحريص أن أرد على الذين قد فهموا خطأ أن القياس الفقهي دليل زائد على الكتاب والسنة ، وأبين أنهم في فهمهم هذا جد مخطئين ، إذ القياس الفقهي ليس شيئاً وراء تبين ما في الحادث من مناط ليعلم أن ما ارتبط بذلك المناط من حكم هو الحكم لذلك الحادث . وساتبع ذلك في العدد القادم ببحث مستفيض كنت قد كتبتة بمناسبة ما كتبه بعض العارضين لهذا البحث فاعتبروا القياس دليلاً غير الوحي من كتاب وسنة . وفقنا الله للإخلاص حتى نهتدي به الى الحق والخير ، إنه سميع قريب ما

« يتبع »

حامد مجيب

## وصايا حربية

أوصى هارون الرشيد عبد الملك بن صالح أمير سرية حربية له فقال : أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب السكيس إن وجد ربما اتجر ، وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تخرز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد خوفاً من احتيال عدوك عليك .

هذه من خير الوصايا الحربية . والقصد منها عدم الاسراف في سفك دماء رجاله لغير ما داع موجب ، والتعويل على حسن التدبير لحركاته ، فقد يحنال على العدو ويخيل اليه أنه يصيب بذلك منه مقتلاً ، فيقع في شر من الشرك الذي نصبه ، فان للعدو عقلاً ونظراً كما له عقل ونظر . فاذا افترض أن عدوه لن يصل الى تقدير سائر حركاته ، كان مدعياً لنفسه من التفوق العقلي ما ليس له عليه دليل ، وهذه الحالة كثيراً ما أودت بالجيوش الجرارة ، وكانت سبباً في إذلال أُمم عزيزة .

وقد شرح محارب مجرب هذه الحقيقة على نحو ما فصلنا فقال : احترس من تدبيرك على عدوك ، كاحتراسك من تدبيره عليك ، قرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط في الذي احترف ، وجريح بالسلاح الذي شهر .

## نظرات في الادب العربي

جاهليه وإسلاميه

— ٦ —

الشعر العصري أيضا

أسلفت أن الشعر العصري قد وقف أو كاد ، بعد أن ذهب الرعيل الأول من رجاله الى جوار الله ؛ ووقفت عند تحليل هذا الوقوف ، وعرض أهم أسبابه . ولما لم أكن منفردا بهذا الرأي في الشعر العصري ، فأني أذكر أولاً ما أورده النقاد المعاصرون من تحليل هذا الوقوف :

يرى قادة النقاد المعاصرين ، أن السبب في وقوف الشعر بعد شوقي وحافظ وأضرابهما من الشعراء الراحلين ، إنما مردّه إلى ضعف امتزاج الثقافتين : العربية والعربية ، اللتين تتكون منهما الثقافة العصرية ، فشوقي وأضرابه ، أمكنهم أن يطعموا الأدب القديم بالأدب الأجنبي ، إلى حد ، فنجحوا في مجازاة الثقافة العصرية نجاحهم المجهود ؛ والبارودي — وإن لم يجدد في الشعر على هذا الوجه — إلا أن نجحاه إنما أتى من رجوعه بالشعر الى العصر البعيد الراقى ؛ فترسم آثار أبي نواس ، وأبي فراس ، والمتنبي ، والشريف الرضي ، من حيث الأغراض والمعاني ، وغزولة اللفظ . فاما من جاء بعد هؤلاء من الشعراء ، فهم بين رجلين : شاعر على النمط القديم ، لا يلائم شعره الذوق العصري ، وآخر ممعن في تقليد الشعر الافرنجي ، في معانيه وأسلوبه وصوره وأخيلته ، ينبو عن شعره الذوق الشرقي ؛ لأن لكل من الثقافتين مزاجا خاصا ، وطابعا خاصا ؛ فالثقافة الافرنجية أكثر ما تعنى بالحياة الواقعية ، مع مجازاة الزمن ، والنظر الى المستقبل ؛ والثقافة العربية محافظة في الاجتماع والسياسة ، وعنايتها بالماضي أكثر من عنايتها بالحاضر والمستقبل .

وعندي أن هذا السبب — على قوته وفضل اعتباره — إنما يصلح تحليليا لعدم نجاح الشعراء المعاصرين نجاح شوقي وأضرابه ، وبقي تخلفهم عن مجازاة البارودي غير معلل ، فإن ناقدا منصفا لا يستطيع أن ينكر شاعرية المغفور له الشاعر البدوي محمد عبد المطلب ، الذي كان عربي الثقافة ، وكان يجاذب أولئك الفحول أبراد التبريز والإجادة في شتى المواقف الشعرية في عصرنا الحاضر . كما لا يستطيع ناقد أن يجحد شاعرية الشاعرين العظيمين : حسن القاياتي ، وأحمد محرم ، وكلاهما عربي الثقافة ؛ ولئن شدا ثابتهما شيئا من اللغة الأجنبية ، إن ديباجة شعره لتردّه الى أساليب العصر الأموي ، لا العصر العباسي .



لا جرم أن امتزاج الثقافات ، طار بالشعر العباسى الى الذروة ، ولكن عدم هذا الامتزاج أو قلته ، لم يقصر بالشعر الأموى عن مساماته ، بل عن سبقه فى ميدان الإبداع كما سبقه فى الحياة ؛ ولم يقصر بشعراء الأندلس عن التبريز فى الشعر الرقيق ، وإن وقفوا دون شعراء الشرق فى الجزالة ، وقوة الأسر فى الغالب .

ولا يزال عندنا الأزهر ودار العلوم ، وثقافتهما تكاد تكون عربية بجته ، لم تطف عليها الثقافة الأجنبية ، ولكن جودها - مع ذلك - بالشعراء المجيدين نزر فى هذا العهد الأخير . وعلى الجملة فتعليل وقوف الشعر ، بضعف امتزاج العنصرين المكونين للثقافة الحاضرة ، هو التزام من النقاد المعاصرين لمذهبهم ، وهو طرح الأسلوب الشعرى القديم من الحساب ، لأنه أصبح لا يلائم الذوق العصرى كما سبق ؛ ولكن رجال المدرسة القديمة لا يزالون على أن التزام عمود الشعر العربى شرط أساسى فى قبول الشعر ، وأن الشعر يهز من عواطفهم ، ويحرك من مشاعرهم ، بمقدار قربه من النهج القديم أسلوبا وخيالا ، وإن كانوا يفضلون التجديد القوى المتولد عن الهضم الكامل لروائع الثقافة الأجنبية ، كما حصل فى العصر العباسى .

ورحم الله أبا عبادة البحتري ، إذ يقول - وقد عيب عليه أنه لم يسر على المنطق فى شعره :

كفتمونا حدود منطقكم	والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلجج بالمد	طق : مانوعه ، وما سببه
والشعر لَمَحَّج ، تكفى إشارته	وليس بالهذر طولت خطبه

لقد اصطلحت على الشعر فى عهده الحاضر أحداث عدة ، ليس أهمها عدم امتزاج الثقافتين ، وإن كان منها . فإن هذا الامتزاج إنما هو ضرورى ، أو قريب من الضرورى ، فى نقد الشعر ، وليس ضروريا فى إنشائه ؛ وعلى حد التعبير الحديث : فى الأدب الوصنى ، لا فى الأدب الإنشائى . ولعل أهم هذه الأحداث ، هو تلك الموجة المادية الجارفة ، التى اجتاحت الشرق العربى ، وفى مقدمته مصر ، وافدة من الغرب ، على أثر الحرب الكبرى ، وتجلي العلوم الطبيعية فيها تجليا ، أظهر من الحقائق الواقعية ، ما هو أروع من الخيال ؛ وصرف وجوه الناس عن ذلك الهدوء الروحى الذى كانت تنعم النفوس فى أفيائه ، وتسبح فى آفاقه الفيح البواسم ، الى تلك السوق المصطنعة الزاخرة بضروب الم لذات الجسمية المغرية ، التى أغنتهم بنعيمها المحقق ، عن ارتياد مسارح النعيم فى أخیلة الشعراء ؛ ومتى ضعف الخيال ، أو فقد ، انهدم الركن الأول من أركان الشعر العربى منذ كان الشعر العربى ؛ ولا عجب أن يزدهر النثر ويقوى ، ويتسنى هذه الذروة التى سما إليها على أنقاض شقيقه الشعر ، فلم يزل النثر الفنى منذ كان ، يرتكز على عماد من العقل والمنطق ، رَفَعَت من ذراه هذه الحضارة الطاغية ، التى سخرت الأرض والسماء ، والهواء والماء . بيد أن اندفاع تيار الطبيعية ، وطغيانه هذا الطغيان ، الذى كان أول



فرائسه الآمن ، قوام كل أمر ، وملاك كل سعادة ، أعاد الى نفسى بواعث الأمل ، فى أن المحنة العالمية القاسية التى تخوض الأمم غمارها اليوم ، هى النهاية الفاجعة لفشل الحضارة الراهنة ، وهى الهضبة التى ستتكرر على صخورها أمواج الطبيعة الكافرة الفاجرة ، وهى المرشد النصيح المهيب بهذا العالم المضطرب المذعور ، أن ينشد الآمن فى السماء ، بعد أن أعياه فى الأرض ، حتى فى عالم الخيال . أجل ، إن نتيجة هذا الهم الشامل ، وهذا البلاء النازل ، هو الايمان الكامل ؛ وفى هذا الايمان ضمان لعودة المدنية الفاضلة : مدينة الحق ، والعدل ، والجمال .

\*\*

يلى هذا السبب فى الأهمية ، ضعف الوازع الشعرى فى نفوس خول الشعراء الأحياء من المدرسة القديمة والحديثة معا ؛ ولهذا الضعف أسباب ، منها خلو الميدان من أعلام الشعر ، وحاملى لوائه ، الذين كان فى منافستهم ، والوقوف بجانبهم ، صراد نثار ، ومجال عظمة ، لغيرهم من الشعراء ؛ ومنها فوضى النشر ، وامتلاء السوق بالمتشاعرين ، واختلاط الأمر على القراء ، فى تمييز الشاعر من المتشاعر ؛ ورحم الله صحيفة كان نشرها للقصيد ، إجازة كالأجازات العليا فى أيامنا هذه ، يستحق بها منشئها أن يسلك فى نظام الشعراء ، تلك صحيفة المؤيد ، سقى الله أطلالها الدوارس ، وحيثما أعلامها الطوامس . . .

ومنها ، بطء التقرب بين ممثلى المدرستين : القديمة والحديثة ، فالمجددون يقابلون بفتور ، أو بنقد عنيف ، ما تجود به قرائع شعراء المدرسة القديمة ، وهؤلاء يسيئون الظن بكل نقد يصدر عن أولئك ، وليس مع التنافر وسوء الظن تعاون ولا اطمئنان .

وليس بأقل من السببين الآنفين ، أثر الإذاعة ، وإيثارها — بحكم موقفها من السواد الغالب فى الأمة — أقرب أنواع الشعر من أفهام العامة ، وإعراضها إعراضا تاما عن جزله ومحكمه ؛ وليس أقتل لنشاط الشاعر من إهمال آثاره الفكركية ، فى حين يستبد بالخط من لا يساميه شعرا ، ولا يدانيه نغرا .

هذا ، الى ما أسلفنا فى غصون هذه النظرات ، هو ما وصل بالشعر الى هذا الموقف ، الذى أصبح فيه جدرا بأن ينشد ، وأن ننشد معه :

أين امرؤ القيس والقوافى      إذ مال من تحتها الغبيط  
استنبط العرب فى الموامى      بمدك ، واستعرب النبيط

عبد الجواد رمضان

# حَيَاتُ حَبْلَاتِ لَيْسَانِ الْإِمَامِ

## عبد الله بن الزبير

صرامته في الحق — فصاحته — شجاعته

قلنا في المقال السابق إن عبد الله بن الزبير كاد يتم له أمر الخلافة وتجتمع عليه الأمة لولا خلال عدها بعض المؤرخين نقصا في استعداده لهذا المنصب الخطير ، وعددناها تساميا منه عن مزالقي السرف ومضال السياسة الجائرة ، فلا يضيره أن يكون أراد بالناس سياسة جده الصديق وعدل الفاروق ، ولم تكن له رعية الصديق ولا جند الفاروق . وإذا كان أبو خبيب قد أثنى من قبل أطماع الناس وفساد ضمايرهم فإنه قد ساعد على نفسه بما فتح من ثغر بينه وبين أقرانه من الهاشميين ، بدأت بالمنافسة التي أذكته المعاصرة ، وقد أخذت تشتد وتقوى حتى تحولت الى خصومة ظاهرة تؤثرها المفاخرة ، ويزيد أوارها المتربصون من الأمويين . روى إبراهيم بن محمد البيهقي في كتاب « المحاسن والمساوي » : أن عبد الله بن عباس دخل المسجد بعد مسير الحسين بن علي الى العراق ، فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استعلام بالكلام ، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدي ابن الزبير وقال : « أصبحت والله كما قال الأول :

يَا لِكَ مِنْ حُمْرَةِ مَعْمَرٍ      خَلَاكَ الْجَوْ فَبِيضِي وَاصْفَرِي  
وَنَقَرِي مَا شِئْتُ أَنْ تَنْقَرِي      قَدْ رُفِعَ الْفَخُّ فَمَاذَا تَحْذَرِي

خلت الحجاز من الحسين بن علي ، وأقبلت تهدر في جوانبها . فغضب ابن الزبير وقال : « والله لكانك ترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك » . فقال ابن عباس : « إنما يرى من كان في حال شك ، وأنا من ذلك على يقين » . فقال : « وبأى شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر مني ؟ » قال ابن عباس : « لانا أحق ممن يدل بحقه ، وبأى شيء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ » فقال ابن الزبير : « تحقق عندى أنى أحق بها منكم لشرفى عليكم قديما وحديثا » . فقال ابن عباس : « أنت أشرف أم من قد شرفت به ؟ » فقال ابن الزبير : « إن من شرفت به زادنى شرفا الى شرف قد كان لى قديما وحديثا » . قال ابن عباس : « أفترى الزيادة أم منك ؟ » قال : « بل منك » . فتبسم ابن عباس ، فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس دعنى من لسانك هذا الذى تقلبه كيف شئت ، والله لا تحبسوننا يا بنى هاشم أبدا » . قال

ابن عباس : « صدقت ، نحن أهل بيت مع الله عز وجل لا نحب من أبغضه الله تعالى » . فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة » . قال : « إنما أصفح عمن أقر ، وأما عمن هرت فلا ، والفضل لأهل الفضل » . قال ابن الزبير : فأين الفضل ؟ قال : « عندنا أهل البيت ، لا تصرفه عن أهله فتظلم ، ولا تضعه في غير أهله فتندم » . قال ابن الزبير : « أفلمست من أهله ؟ » قال : « بلى إن نبذت الحسد ، ولزمت الجدد » .

زادت هذه الخصومة شدة على مر الزمن ، ودفعت الهاشميين الى الامتناع عن بيعة ابن الزبير وإظهار الطعن عليه ، فشردهم ، وحبس زعماءهم ، ونفى قادتهم . قال صاحب العقد : « ولما توطد لابن الزبير أمره ، وملك الحرمين ، والعراقين ، أظهر بعض بني هاشم الطعن عليه ، وذلك بعد موت الحسن والحسين ، فدعا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعة من بني هاشم الى بيعته فأبوا عليه ، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر ، ثم قال لهم : لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار ! فأبوا عليه ، فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في سجن عارم ؛ وفي ذلك يقول له كثير عزة وكان شيعيا :

تخبر من لا قيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن عارم  
سمي النبي المصطفى وابن عمه فكذلك أغلال وقاضى مغارم

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : « إن ابن الزبير أخرج محمد بن الحنفية ونفى ابن عباس الى الطائف ، وقد كان لهذا النزاع أثر سيء في فشل ابن الزبير وتفرق كثير من أصحابه عنه » . أما شجاعة عبد الله بن الزبير ورباطة جأشه وفصاحة منطقه وبراعة بيانه ، فعن البحر حدث ولا حرج . ذكر ابن عبد ربه في كتاب العقد : « أن عبد الله لما بلغه قتل مصعب صعد المنبر فجلس عليه ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ويصفر مرة ، فقال رجل من قریش لرجل الى جنبه : ماله لا يتكلم ؟ فو الله إنه للخطيب اللبيب ! فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد عليه ذلك ، وغير ملوم . ثم تكلم عبد الله فقال : « الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، والدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء . أما بعد فإنه لم يعز من كان الباطل معه ولو كان معه الانعام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ولو كان فردا . ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه ثم يعزى ذوو الألباب الى الصبر وكرم الاجر ، وأما الذى أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة ، ولنا ذخيرة ، أسلمه الطعام الصم الآذان أهل العراق وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين . أما والله لا نموت حتفا كما يموت بنو مروان ، ولكن قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ! ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يبید ذكره ،

ولا يذل سلطانه ، فإن تقبل الدنيا على لم آخذها مأخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين » .

خرج العراق بمقتل مصعب عن طاعة عبد الله ، وكانت الشام قد استتمت طاعتها لعبد الملك ابن مروان ، ولم يبق مع عبد الله غير الحرمين على ما فيهما من دخن ممن يوالى الهاشميين ؛ فلما رأى عبد الله ذلك جمع خاصته من القرشيين ليستشيرهم ، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل من بني مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقبلا ، ولئن صبرنا معك ما يزيد على أن نموت ، وإنما هي إحدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ، وإما أن تأذن لنا فنخرج . فقال عبد الله : لقد كنت عاهدت الله أن لا يبايعني أحد فأقبله بيعته إلا ابن صفوان . فقال له ابن صفوان : أما أنا فاني أقاتل معك حتى أموت بموتك ، وإني لنأخذني الحفيظة أن أسلمك في مثل هذه الحالة ! وقال له رجل آخر : اكتب الى عبد الله بن مروان ، فقال له : كيف أكتب ؟ من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لا يقبل هذا أبدا ! أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من ذلك ! فقال أخوه عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة ، قال : من هو ؟ قال : حسن بن علي ، خلع نفسه وباع معاوية . فرفع عبد الله رجله وضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقال : قلبي إذا مثل قلبك ! ! والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنيا ، وإن ضربة بسيف في عز ، خير من لطمة في ذل !

هذا موقف ليس في حاجة الى التعليق على ما فيه من شجاعة ، وشرف نفس ، وقوة قلب ، واستهانته بالموت في سبيل الكرامة والعقيدة . وليس بغريب على ابن أسماء الصديقية وابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثمة ما هو أعجب وأسمى ، وهو ما نحب أن نطيل التأمل فيه ، ونود بمجدع الأنف لو أن كل مسلم ولا سيما الشباب أطال التأمل فيه وجعله مثله الأعلى في تكوين رجولته ، وتعلم منه كيف تكون الحياة العزبة . وكذلك نود لو أن كل امرأة مسلمة جعلته شعارها في تربية بناتها تربية صادقة الرجولة حتى يكون منهم للوطن الاسلامى عدة قوية في هذا العصر النائر الكليب .

روى أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب وجمهرة المؤرخين عن عروة بن الزبير وغيره ، قال : « لما كان قبل قتل عبد الله بن الزبير بعشرة أيام ، دخل على أمه أسماء وهي شاكية ، فقال لها : كيف تجدينك يا أمه ؟ قالت : ما أجدني إلا شاكية ، فقال لها : إن في الموت لراحة ، فقالت : لعلك تمنيت لي ، ما أحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك ، إما قتلت فاحتسبك ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عيني ! قال عروة : فالتفت إلى عبد الله فضحك ؛ فلما كان في اليوم

الذي قتل فيه ، دخل عليها في المسجد ، فقالت له : يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل ، فوالله لضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في الذل !! فقال عبد الله : يا أماه أما ترين ؟ خذني الناس ، وخذلني أهل بيتي ، فقالت : لا يلعبن بك صبيان بني أمية ، عش كريما ، ومت كريما !! ثم قبل رأسها وودعها ، وضمتها الى نفسها ، فخرج من عندها وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! إن الموت قد تغشاكم سحابه ، وأحذق بكم رباه ، واجتمع بعد تفرق ، وارجحن بعد تمشق ، ورجس نحوكم رعد ، وهو مفرغ عليكم ودقه ، وقاد اليكم البلايا تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضا ، واستعينوا عليها بالصبر » . ثم قال لعبد الله بن صفوان وكان صفيه : قد أفلتت بيعتي ، وجعلت في سعة ، فخذ لنفسك أمانا ، فقال ابن صفوان : مه ؟ والله ما أعطيتك إياها حتى رأيتك أهلا لها ، وما رأيت أحدا أولى بها منك ، فلا تضرب فتيان بني أمية هذه الصلعة أبدا ! ثم دخل ابن الزبير بيته فنام ، فجاء ابن صفوان وقد دنا أهل الشام من المسجد فاستأذن ، فقالت الجارية : هو نائم ، فقال ابن صفوان : أوليلة نوم هذه ؟ أيقظيه ! فلم تفعل ، فأقام ثم استأذن ، فقالت : هو نائم ، فأنصرف ثم رجع آخر الليل وقد هجم القوم على المسجد ، فخرج ابن الزبير فقال : والله ما نمت منذ عقلت الصلاة نومي هذه الليلة وليلة الجمل ، ثم دعا بالسواك فاستاك متمكنا ، ثم توضأ متمكنا ولبس ثيابه ، ثم قال : أنظرني حتى أودع أم عبد الله فلم يبق شيء ، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان ، فدخل عليها وقد كف بصرها ، فسلم ، فقالت : من هذا ؟ فقال : عبد الله ، فتشممته ، ثم قالت : يا بني لا ترض الدنيا ، فإن الموت لا بد منه ! قال : إني أخاف أن يمثلوا بي ، قالت : إن الكباش إذا ذبح لم يخف السلخ !

ثم خرج وقد جعل له مصراع عند الكعبة فكان تحته ، فقال له رجل من قريش : ألا تفتح لك باب الكعبة فتدخلها ؟ فقال عبد الله : من كل شيء تحفظ أخاك إلا من نفسه ، والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم ، وهل حرمة المسجد إلا حرمة البيت ؟ ثم تمثل :

ولست بمبتاع الحياة بسبّة ولا مرتق من خشية الموت سائما

ثم شد عليه أصحاب الحجاج ، فقال : أين أهل مصر ؟ فقالوا : هم هؤلاء من هذا الباب ، لأحد أبواب المسجد ، فقال لأصحابه : اكسروا أغمار سيوفكم ، ولا تميّلوا عني ، فإني في الرعيّل الأول ، ففعلوا ، ثم حمل وحملوا معه ، وكان يضرب بسيفين ، فقال رجل يقال له خلبوب لأهل الشام : أما تستطيعون إذا والاكم ابن الزبير أن تأخذوه بأيديكم ؟ قالوا : ويمكنك أنت أن تأخذه بيدك ؟ قال : نعم ، قالوا : فشأنك ، فأقبل وهو يريد أن يحتضنه ، فاستقبله ابن الزبير بضربة قطع بها يده . فقال خلبوب : حس ! فقال ابن الزبير : اصبر

خلبوب ! ثم دخل عليه أهل حمص من باب بنى شيبة ، فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا : أهل حمص ، فشد عليهم حتى أخرجهم وهو يرتجز :

لو كان قرني واحدا كُفيتَه      أوردته الموت وقد ذكيتَه

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر ، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد ، ثم انصرف وهو يقول :

لا عهد لي بغارة مثل السيل      لا ينجلي قتاما حتى الليل  
فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا وهو منصرف فضربه بين عينيه ، فنكس رأسه وهو يقول :

ولسنا على الاعقاب تدمى قلوبنا      ولكن على أقدامنا يقطر الدم

فلما علم أصحاب الحجاج بمقتله كبروا ، فقال عبد الله بن عمر : ما هذا ؟ قالوا : أهل الشام يكبرون لقتل عبد الله بن الزبير ، فقال ابن عمر : الذين كبروا لمولده خير من الذين كبروا لقتله . وروى أن عبد الله بن عباس قال لقائده : جنبني خشبة ابن الزبير ، فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها ، فقال : ما هذا ؟ فقال : خشبة ابن الزبير ، فوقف ودعاه ، وقال : « لئن علنك رجلاك لطالما وقفت عليهما في صلاتك » ثم قال لأصحابه : « أما والله ما عرفته إلا صواما قواما » . وروى ابن القاسم عن مالك أنه كان يقول : « ابن الزبير كان أفضل من مروان ، وكان أولى بالأمر من مروان ومن ابنه » .

وقال مجاهد : « كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود ، وكان يواصل من الجمعة إلى الجمعة ، وما كان باب من العبادة إلا تكلف ، ولقد جاء سيل بالبيت فرأته يطوف سباحة » . وقال عمرو بن دينار : « ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير » .

صادق إبراهيم عزمونه

## فضيلة العفو

كان المأمون بن هارون الرشيد غاية في العفو حتى إنه قال : لو علم الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالجرائم .

وقال هو أيضا : والله إنني استلذت العفو استلذاذا أظن أن الله لا يأجرني عليه .

نقول : العفو من كرائم الخصال ، وقد حض الله عليه ، ولكن في الحال التي يغلب الظن فيها أنه يكون أنفع للمذنب وللناس من العقوبة . أما إذا كان العفو مجرد هوى للنفس يضعه الإنسان حيث يفسد الأخلاق ، ويشيع الرذيلة ، ويزعج الأمن ، انقلب العفو إلى جريمة .

# التجديد والمجددون في الاسلام

من القرن الاول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الاعظم أبو حنيفة

دراسات في مذهبه

١ — هل كان يستعمل أبو حنيفة الرأي ويقدم القياس على النص ؟

زعم بعض المتعصبين أن الإمام الاعظم كان يستعمل الرأي ويقدم القياس على النص ؛ ولو فهموا مدارك مذهب أبي حنيفة ، وحقيقة الرأي ، ما قالوا هذا القول غير الصحيح ، بل كان إفراطهم وتجاوزهم الحد في ذم أبي حنيفة ينقلب إلى مدحه والثناء عليه ؛ فليس الرأي بمذموم ولا القياس إلا إذا لم يكن مندرجا تحت أصل من أصول الشريعة ، ولم يصادف قاعدة من قواعدها ؛ وكل كلام شهد له الشريعة بالصحة ، أو وافق الأصول ، أو اندرج تحت القواعد ، فهو من السنة وليس من الرأي المذموم . جاء في السنن الكبرى للبيهقي في باب القضاء : أن الرأي المذموم هو كل ما لا يكون مشبها بأصل . وعلى ذلك يحمل كل ما ورد في ذم الرأي . وأبو حنيفة في دينه وورعه لا يعقل أن يتخطى دائرة هذا الأصل . والمعروف عنه بالدليل أنه لم يكن يقدم رأيا أو قياسا على نص . ولا أدلّ على هذا من قوله : إنه يأخذ أولاً بما في القرآن الكريم ، فإن لم يجد فبالسنة ، فإن لم يجد فبقول الصحابة ، فإن اختلفوا أخذ بما كان أقرب إلى القرآن أو السنة من أقوالهم ، ولا يخرج عنهم ، فإذا لم يجد لأحد منهم قولاً اجتهد رأيه في دائرة أصول الشرع ؛ حتى إنه قال : عجب للناس ! يقولون إني أفقئ بالرأي ، ما أفقئ إلا بالآثر .

ويقول ابن حزم : جميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأي .

ويقول الامام أبو جعفر البلخي : فهذا الذي رويناه — وهو تأخير القياس عن الكتاب والسنة وأفضية الصحابة — هو النقل الصحيح عن أبي حنيفة .

ويقول الامام الجلال السيوطي : إن الامام أبا حنيفة كان يقدم الحديث على القياس ، بل كان يقدم الآثار على القياس فضلا عن الأحاديث ، وأفضية الصحابة كلها من قسم الآثار ؛ فكان لا يقيس إلا إذا لم يجد دليلا للمسألة في كتاب ولا سنة ولا في أفضية الصحابة

ويقول الامام أبو مطيع : كنت جالسا مع الامام أبي حنيفة في جامع الكوفة ، فدخل عليه سفيان الثوري وجعفر الصادق وغيرهما من الفقهاء ، فقالوا لأبي حنيفة : بلغنا أنك تكثر من القياس في الدين وأول من قاس إبليس . فناظرهم الإمام يوم الجمعة من بكرة النهار إلى قرب الزوال ، وعرض عليهم مذهبه ، وقال : إني أقدم العمل بالكتاب ثم بالسنة ثم بما اتفق عليه الصحابة ، فإذا اختلفوا قسّستُ حينئذ . فقالوا له : أنت سيد العلماء ، فاعف عنا ما مضى من وقيعتنا فيك بغير علم .

أما ما روى عن الإمام أبي حنيفة من قوله : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب منا » ، وقوله : « هذا الذي نحن فيه رأى لا نجبر عليه أحدا ولا نقول يجب على أحد قبوله ، فمن كان عنده أحسن منه فليأت به نقله » ، فالمراد بهذا الرأي ما هو واضح مما تقدم من أنه لا يجتهد رأيه إلا عند فقد النص ، حتى قال هو نفسه : « هذا القياس الذي نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى ، لا نأزده إلى الكتاب أو السنة أو اتفاق الصحابة ثم نجتهد الرأي بعد ذلك عند فقد النص » . وقد قال الإمام الشعرائي : لم يزل الأئمة كلهم ومقلدوهم يقيسون في الأحكام إلى وقتنا هذا من غير نكر حيث لم يجدوا دليلا نصا في المسألة ، بل جعلوا القياس أحد أدلة الشريعة كما قال الامام الشافعي : « إذا لم نجد دليلا في المسألة قسناها على الأصول » .

فلا خصوصية للإمام أبي حنيفة في اعتراض بعض المتعصبين عليه من هذه الناحية ؛ ثم إن صح الدليل بعده في تلك المسألة فانه معذور ، وفيما إذا وجد حديثا ولم يصح عنده فقاس في تلك المسألة على أصل صحيح ، لأن القياس على الأصول أقوى عند بعضهم من خبر الآحاد الصحيح فكيف بالضعيف ؛ وقد كان الامام أبو حنيفة يشترط في الحديث المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العمل به أن يرويه عن الصحابي جمع عن مثلهم ، وهكذا اعتقاد كل منصف في الامام الأعظم .

وبحتمل أن الذي أضاف إلى الإمام أبي حنيفة أنه يقدم القياس على النص ظفر بذلك في كلام بعض مقلديه الذين يجمدون على القياس المنقول عن إمامهم ولا يخالفونه كما عليه غالب المقلدين ويقولون : إن الإمام لم يأخذ بهذا الحديث ؛ فلما رأى المعارض ذلك في كلام بعض المقلدين ظن أن ذلك مذهب للإمام فعزاه إليه لجهله بحقيقة المذهب .

على أن غالب قياسات الإمام أبي حنيفة من القياس الجلي الذي يعرف به موافقة الفرع للأصل بحيث يفتنى احتمال افتراقهما . على أن كل معترض على الامام أبي حنيفة كما قال الامام الشعرائي جاهل بمدارك الامام ؛ وكما قال : لقد تتبعت المسائل التي قدم فيها المقلدون من الحنفية القياس على النص فوجدتها قليلة جدا ، وبقية المذهب كله فيه تقديم النص على القياس ، ولا



خصوصية لمذهب أبي حنيفة في ذلك . وهذا هو الامام الليث بن سعد يقول : « أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة للسنة مما اجتهد فيها برأيه » . وقد روى ابن أبي العوام عن نصر بن يحيى البلخي قال : قلت لأحمد بن حنبل : ما الذي نقيم على أبي حنيفة ؟ قال : الرأي . قلت : فهذا مالك ألم يتكلم بالرأي ؟ قال : بلى ولكن رأى أبي حنيفة خلد في الكتب . قلت : فقد خلد رأى مالك في الكتب أيضا . قال : أبو حنيفة أكثر رأيا منه . قلت : فهلا تكلمتم في هذا بحصته وهذا بحصته ؟ فسكت .

فان كان أبو حنيفة استعمل الرأي على الوجه المتقدم ، فهذا مالك وهذا الشافعي تكلم كل منهما بالرأي على الوجه المذكور أيضا ؛ فمعظم الأدلة التي أخذ بها الامام أبو حنيفة هي التي أخذ بها كل إمام ، وما انفرد بعضهم عن صاحبه إلا ببعض أحداث ، وكلهم في تلك الشريعة يسبحون . فالعاقل من أقبل على أقوال أبي حنيفة وأقوال جميع الأئمة وعمل بها بالنسراح صدر لأنها لا تخرج عن مرتبة الشريعة اللتين هما : التخفيف والتشديد . ولقد قال الامام الشعراني : لقد بلغنا كل أقوال الإمام أبي حنيفة فما رأيت فيها قولاً إلا وهو مستند الى صريح آية أو حديث أو أثر أو مفهوم أو الى قياس على أصل صحيح ، وما رأيت استدلالاً بحديث ضعيف ، وإنما يستدل به إذا كثرت طرقه ، ولا خصوصية له بذلك بل يوافق جميع الأئمة ؛ وقد ثبت مدح الامام مالك ومدح الامام الشافعي لأبي حنيفة ، فلا عبرة باعتراض غيرها على بعض أقواله .

## ٢ — أبو حنيفة علم المجددين — مدرسة الرأي وأئمتها :

على أننا لو سلمنا أن أبا حنيفة كان يجعل للرأي والقياس — في حدود الشرع — اعتباراً ، ويحاهي المسكان الأرفع ، فلا خصوصية له في ذلك . وهذا شأن المجددين — والاسلام دين تجديد وإصلاح ونهضة ، بنص الحديث السابق نشره — الذين لا يعرفون الجمود ، ويعتقدون أن الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وما من حادثة تحصل إلا ويمكن تطبيقها على قواعدها ومبادئها العامة ، وإيجاد حكم لها فيها مهما كانت هذه الحادثة ، ولا تخدم شريعة الله تعالى بأفضل من هذا . ولم ينفرد أبو حنيفة باعتبار الرأي والقياس وإنزالهما المكان الاسمي ، فقد ورد عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم من اجتهاد الرأي والقياس على الأصول عند عدم النص ما يطول ذكره ؛ ونقل عن كثير من كبارهم وأعيانهم قضايا أفتوا فيها برأيهم ، كأبي بكر وعمر ، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وغيرهم . والمتبع لما ورد عن السلف يرى أن الذي كان يحمل لواء مدرسة الرأي عند فقد النص : عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فكان إذا أعياه أن يجد في القرآن والسنة نَظَرَ هل كان فيه لأبي بكر قضاء ، فان وجد قضى به ، وإن لم يجد دعا رءوس الناس ، فاذا اجتمعوا على أمر قضى به . وجاء في المبسوط للسرخسي « أن عمر كان يستشير الصحابة مع فقهه حتى إذا رفعت إليه حادثة قال : ادعوا لي علياً ،

وادعوا الى زيدا . . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه . . . وأشهر من سار على طريقة عمر « عبد الله بن مسعود » ومعلوم أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود ، وأن مدرسة العراق أو مدرسة الرأي توجت بأبي حنيفة ؛ وإذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبي سليمان ، وحماد أخذ عن إبراهيم النخعي ، وإبراهيم أخذ عن علقمة بن قيس ، وعلقمة أخذ عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يجتهد رأيه حيث لا يكون وحى ، كما ترى هذا في مسألة أمرى بدر ، لأنه لو كان صلى الله عليه وسلم حكم فيها بمقتضى الوحى ما عوتب في هؤلاء الأسرى . فنبع العلم والتربية في الاسلام ، ومصدر التشريع والحكمة ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال المزنى : الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم ، وأجمعوا على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها .

وقال الحافظ ابن عبد البر : لا خلاف بين فقهاء الأمصار في إثبات القياس في الأحكام إلا من شذ ؛ ومن حفظ عنه أنه قال وأفتى مجتهدا رأيه وقائسا على الأصول فيما لم يجد فيه نصاً من التابعين :

أولاً — من أهل المدينة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبان بن عثمان ابن عفان ، وابن شهاب ، وأبو الزناد ، والإمام مالك بن أنس وأصحابه ، وابن أبي ذئب ، وابن دينار ، وابن الماجشون ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وربيعة الرأي . ثانياً — ومن أهل مكة واليمن : عطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وعمر بن دينار ، وابن جريج ، ويحيى بن أبي كثير ، وابن عيينة ، ومسلم بن خالد ، والإمام الشافعى .

ثالثاً — ومن أهل الكوفة : علقمة ، والأسود ، وشريح القاضى ، ومسروق ، وإبراهيم النخعي ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وحماد بن أبي سليمان ، وابن المبارك ، وسائر الكوفيين . رابعاً — ومن أهل البصرة : الحسن ، وابن سيرين ، وإياس بن معاوية ، وعثمان البتي ، وسوار القاضى .

خامساً — ومن أهل الشام : مكحول ، والأوزاعى .

سادساً — ومن أهل مصر : الليث بن سعد ، وابن وهب ، وابن القاسم : وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وسائر أصحاب الإمام مالك ؛ وأصحاب الإمام الشافعى : المزنى والبويطى والربيع ، وغير هؤلاء من علماء الأمصار .

فعلم مما تقدم أن الامام أبا حنيفة لم يقدم الرأى على النص ، ولم يتفرد بالقول بالقياس على الأصول ، بل على ذلك كثير من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ؛ وسقط قول من عاب الامام أبا حنيفة بذلك جمودا منه وعدم إدراك لمدارك مذهبه ؛ وما كان أبو حنيفة جامدا ، ولكنه كان عَلمَ المجددين ، وحاملا لواء التجديد ، وخير من يعمل للشرعية الاسلامية لجعلها جديدة دائما ، صالحة لكل زمان ومكان ، سادة حاجات البشر وجميع حوادث الحياة المتجددة في كل يوم ؟

السيد عفيفي

## اختيار الاخوان

قال الفضيل بن عياض : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . هذه كلمة يفهمها من كان له قلب ، فإن لمعرفة الناس واجبات لا يصح التقصير فيها ، وإلا انقلب ودم الى عداوة . فمن كثر معارفه كان منهم في شغل دائم لا يكاد يفرغ لعمل صالح يؤديه لوطنه ولنفسه ولأهله . لأنه لا يخلو أن يكون منهم مريض ، يجب أن يعوده ، وطائد من سفر ، ينبغي أن يهنئه بالسلامة ، ومصاب بكارثة ، لا بد من مواساته ، ومحتاج لمعونة ، يفرض عليه أن يكون عند ظنه به ، الى غير هذه الأصول مما لا يمكن حصره ، فإذا قام بهذا كله لم يبق له وقت ينظر فيه لمصلحة عامة ولا خاصة . ولا سبب للتورط في هذه العلائق إلا حب الظهور ، وهو داء دوى يؤدي الى عكس المراد منه . فكيف لا يكون من سخافة العقل التماذى فيه ؟

أليس الامام عبد الله بن المبارك أكيس الناس حين أجاب من سألته : ألا تستوحش من ملازمتك لكتبتك وتركك الناس ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا أجالس الله تعالى والملائكة والأنبياء والخلفاء والعلماء والأولياء والشهداء ، أفتررون أن أدع مجالسة هؤلاء وأجالسكم ؟ ومن بنى على الأساس الذي وضعه الفضيل بن عياض ، حفص بن حميد ، حيث قال : من لم ينقص كل يوم صديقا لا يفلح أبدا .

والقصد في هذا أن لا ينقطع الانسان عن الناس ، وأن لا ينهمك بهم ، وأن يتخذ بين ذلك سبيلا .

# حكم إقامة القبور في المساجد

وبناء المساجد على القبور

فتوى من حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية

أصدرت دار الافتاء في الديار المصرية الفتوى الآتية في شهر جمادى الآخرة الماضي :

كتبت وزارة الأوقاف ما يأتي : « يوجد بوسط مسجد عز الدين ايبك قبران ورد ذكرهما في الخطط التوفيقية ، وتقام الشعائر أمامهما وخلقهما ، وقد طلب رئيس خدم هــذا المسجد الى محافظة مصر دفنه في أحد هذين القبرين ، لأن جده الذي جدد بناء المسجد مدفون بأحدهما . فنرجو التفضل ببيان الحكم الشرعى في ذلك » .

## الجواب :

إنه قد أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه لا يجوز أن يدفن في المسجد ميت لا صغير ولا كبير ولا جليل ولا غيره ، فإن المساجد لا يجوز تشبيها بالمقابر .

وقال في فتوى أخرى : إنه لا يجوز دفن ميت في مسجد ، فإن كان المسجد قبل الدفن غير ، إما بتسوية القبر ، وإما بنشبه إن كان جديدا الخ ١ هـ

وذلك لأن الدفن في المسجد إخراج لجزء من المسجد عما جعل له من صلاة المكتوبات وتوابعها من النفل والذكر وتدريس العلم ، وذلك غير جائز شرعا ؛ ولأن اتخاذ قبر في المسجد على الوجه الوارد في السؤال يؤدي الى الصلاة الى هذا القبر أو عنده ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على حظر ذلك .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم « ص ١٥٨ » ما نصه : إن النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم تواترت بالنهي عن الصلاة عند القبور مطلقا ، وعن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها . ١ هـ

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن أبي مرثد الغنوي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : نص الامام أحمد وغيره على أنه إذا دفن الميت في المسجد نبش . وقال ابن القيم أيضا : لا يجتمع في دين الاسلام قبر ومسجد ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق .

وقال الامام النووي في شرح المذهب ج ٥ ص ٣١٦ ما نصه :

اتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر ، سواء كان الميت مشهورا بالصالح أو غيره ، لعموم الأحاديث . قال الشافعي والأصحاب : وتكره الصلاة الى القبور سواء كان الميت صالحا أو غيره .

قال الحافظ أبو موسى : قال الامام الزعفراني رحمه الله : ولا يصلى الى قبر ولا عنده تبركا به ولا إعظاما له ، للأحاديث . اهـ

وقد نص الحنفية على كراهة صلاة الجنائزة في المسجد لقوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على جنازة في المسجد فلا أجر له » .

وعلل صاحب الهداية هذه الكراهة بعلمتين : إحداهما أن المسجد بنى لأداء المكتوبات ، يعنى وتوابعها من النوافل والذكر وتدريس العلم . وإذا كانت صلاة الجنائزة في المسجد مكروهة للعلة المذكورة كراهة تحريم — كما هو إحدى الروايتين ، وهى التى اختارها العلامة قاسم وغيره — كان الدفن في المسجد أولى بالخطر ، لأن الدفن في المسجد فيه إخراج الجزء المدفون فيه عما جعل له المسجد من صلاة المكتوبات وتوابعها . وهذا مما لا شك في عدم جوازه شرعا . والله أعلم .

## الباقيات الصالحات

في مدينة المنصورة حتى أهل بالسكان والطلبة يطلق عليه « حوض البستان » لا يوجد فيه مسجد تقام فيه الشعائر الدينية .

وقد لاحظ جماعة من فضلاء المنصورة هذا النقص ، فانتدبوا لإكماله ، وألقوا جمعية لهذا الغرض برئاسة الأستاذ على محمود شرف أسموها « جمعية تشييد مسجد حوض البستان وملحقته الصحية » وجعلت في تصميم المشروع ملحقة صحية هي : حمام ومغسل ، ترفها للطبقات الفقيرة . وقد أهابت الجمعية بسراة المنصورة فابوا نداءها وتبرعوا بالأرض وبالمال ومواد البناء . ولكن إتمام المشروع لا يزال في حاجة الى مال ، ولذلك فهم يهيبون بطلاب الباقيات الصالحات أن ينفجوا الجمعية بشئ مما تسمح به نفوسهم الخيرة ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

## تاريخ علم التفسير

ونماذج من تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم

أُتِبتنا في المقال السابق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر القرآن الكريم ، ولكنه ليس تفسيراً بالمعنى المعروف عند المتأخرين ، أى الذى يكون مرجعه قواعد اللغة والبلاغة وغيرها ، بل هو بيان لمراد الله سبحانه وتعالى من حيث التشريع وتقديم الأحكام ، وبيان ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومنطوقه ومفهومه ، وحلاله وحرامه ، وبيان ما فيه من أخلاق سامية ، ونظم اجتماعية عالية ؛ ومرجعه صلى الله عليه وسلم في ذلك كله الوحي ؛ فلذلك قال بعض الأصوليين في مباحث الاجتهاد : إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس له أن يجتهد في الأحكام ، لأن غاية الاجتهاد ظن الحكم ، أى استفادة الحكم من الدليل على سبيل الظن ، والرسول صلى الله عليه وسلم يمكنه معرفة الحكم عن طريق العلم واليقين بالوحي . وخالفه بعضهم ، بل الجهور على أن له أن يجتهد ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى » .

ولهم في هذا الموضوع جدل وحجاج وأدلة واستدلالات ليست موضوعنا ، بل الذى أردنا أن نقرره هو أن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ليس تفسيراً بالمعنى الذى نعده من كتب المفسرين ، فلا إعراب ولا استئناف بياني ونحوى ، ولا نكات بلاغية ، ولا ما شابه ذلك مما سنعرض له عند تفسير الطبقات ، وإنما هو بيان للأحكام والتحذير من مخالفتها ، وشرح لمكارم الأخلاق والترغيب فيها ، وبيان ما في القصص من جلال وروعة وعبرة لأولى الأبصار .

نماذج من تفسيره صلى الله عليه وسلم :

١ — عن الأشعث بن قيس رضى الله عنه قال : « كانت لى بئر في أرض ابن عم لى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم بينتك أو يمينه ، فقلت : إذا يحلف يا رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين صبرٍ ليقطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان » فأزل الله تصديق ذلك : « إن الذين يشتركون به عهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة » الى آخر الآية .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرون بهذه الآية الكريمة من تصدى ليمين ، فيعود عنه مخافة الله تعالى . فمن ذلك ما وقع لامرأتين كانتا تخززان في بيت فخرجت إحداها فادعت على الأخرى شيئاً ، فرفع أمرها الى ابن عباس ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله واقراءوا عليها » إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم « الآية ، فذكروها فاعترفت .

٢ — عن عائشة رضى الله عنها قالت : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله — الى قوله أولو الآلئاب » قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » .

٣ — قول الله تعالى : « وإنى أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وإلا مريم . ثم يقول أبو هريرة : واقراءوا إن شئتم » وإنى أعينها « الآية .

٤ — قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » : روى أنس بن مالك قال : « كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلا ، وكان أحب أمواله إليه ( بيرحا ) ، وكانت مستقبله المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخاها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية : « لن تنالوا البر » قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن الله يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلى بيرحا ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعه يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ ! ذلك مال راجع ، ذلك مال راجع ، وقد سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين . قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ؟ فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وفى بنى عمه » .

٥ — قول الله تعالى : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » : روى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فديكة وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عباد بن بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول ، ( وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى ) ، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين ، والمشركون عبدة الأوثان ، واليهود ، والمسلمين ، وفى المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس كعجاجة الدابة ختم عبد الله بن أبى وجهه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ! فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم وقف فنزل فدعاهم الى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبى ابن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا ، فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع الى رحلك فن جاءك فاقصص عليه ! فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاعشينا به فى مجالسنا فإننا نحب ذلك ؛ واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثأرون ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم

يخففهم حتى سكنوا . ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد ابن عباد ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حجاب ؟ يريد عبد الله ابن أبي ، قال كذا وكذا ، فقال سعد بن عباد : يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، وقد اصططح أهل هذه البصرة على أن يتوجوه فيصعبوه بالعصاة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله ، شرق بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على الأذى . فذلك قول الله تعالى : « ولتسمعن » الآية .

٦ — قول الله تعالى : « وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » : روى الامام البخارى بسنده عن ابن شهاب قال : « أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى « وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى » فقالت : هذه اليتيمة تكون في حبر ولها تشركه في ماله ، ويعجبها ماله ، ويريد ولها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطىها مثل ما يعطىها غيره ، ففُتوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأَنزل الله « ويستفتونك في النساء » . قالت عائشة : وقول الله تعالى في آية أخرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يقيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، قالت : ففُتوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

٧ — قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » : روى البخارى بسنده عن عروة قال : « خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شريح من الحرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ثم أرسل الماء الى جارك ، فقال الأنصارى يا رسول الله أن كان ابن عمك ! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر ، ثم أرسل الماء الى جارك ، واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في شريح الحكم حين أحفظه الأنصارى ، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك » .

هذه نماذج من تفسير القرآن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم . وسنواصل كتابة هذه النماذج ، ثم نعلق عليها ونقارن بينها وبين تفسير الطبقات . والله الموفق ؟



## رجاء في دولة رئيس الوزراء

من فضيلة شيخ علماء الاسكندرية

تشرف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ علماء الاسكندرية ، بمقابلة حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، فكشف دولته بما يريجوه الناس على عهده من العناية بالأعراض والآداب العامة ، فوجد أن هذا الإصلاح من أوليات مقاصده ، فشكر لدولته هذه العناية ، ورفع الى دولته الكتاب التالى :

« نصيحتنا لدولة الوزير الأكبر ، أن يرقب الله فى كل ما يعمل ، وأن يسترشد فيه بذوى الضمائر والذمم ، وأن يؤثر مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وأن يرقب الحوادث عن كثب فى حذر ويقظة ، فانها تمر كالبرق لا تملى ولا تمهل ، وأن يمثل لنفسه دائماً شهداء التاريخ الذين جادوا بالنفائس والأعلاق فى سبيل الديار عن كرامة البلاد ، وحقوق الوطن .

« ثم الدين والأخلاق يادولة الوزير المصلح ، فإنه لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بالاعتصام بالدين ، والحفاظ على تقاليده وشعائره ، ولا يفسد أمرها إلا بالتفريط فى دينها ، والتورط فى أخلاقها ، وعكوفها على لذاتها وشهواتها ، خصوصاً فى الظروف التى تنتج فيها القلوب ، وتنصرف فيها الى الله سبحانه وتعالى ؛ وأمتنا — أأذاها الله من سخطه ونقمته ! وهى ما هى من الجور والفحط ، والهلع والكرب ، ومصيرها المعلق بخيط الهباء — لاهية عن دينها ، منحلة فى أخلاقها ؛ فانظر — يارعاك الله — الى الملاحى والمسارح والمقاصف ، وأندية القمار ، وحانات الخمر ، وبيوت الفساد والشور ، تجدها مكتظة عامرة ، ذخرة بالشباب الضائع ، بالعشى والابكار .

« ولقد نعلم يادولة الوزير أنك نشأت فى الصلاح والتقوى ، وأنه ليعز عليك أن ترى أمتك على هذا المثال فى وقت ترى فيه الأمم الأخرى قضت على كثير من الشرور والآثام ؛ وكلمة حازمة منك يادولة الوزير بصفتك حاكماً عسكرياً ، تنفذ البلاد والعباد من هذه البوائق المهلكة للأنفس والأموال والشرف ، حتى يتأذن الله بانقراج هذه الجائحة العاتية . إن يكن ذلك صالح حال هذه الأمة ، وحسن مصيرها ، وإلا يكن — لا قدر الله — كنا من الهلاك الآمين .

فإما الى صداحة تطرب الورى وإما الى نواحة فى المآتم

« وفقك الله ، وأمتك بالحسنى ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح ، ملك مصر المعظم ، فاروق الاول ، نصره الله وأعزه ، وأيد ملكه »  
 محمود أبو العيون  
 شيخ علماء الاسكندرية

## من آداب الشريعة وأخلاقها

ما من ظاهرة من ظاهرات هذا المجتمع تشع عليه نورا وبهجة ، وتعلأ مناحيه خيرا وبركة ، إلا كان لها مرد من الشريعة ، ومصدر من الدين .

واقدر عنت الشريعة فيما عنيت بتطهير المجتمع من أرجاسه ، فأقامت حدوداً للفضائل إذا عولجت بالاخلاص في العمل أثمرت ثمرتها المرجوة لها .

فبينما تحظر على الناس ربح التدابر والتقاطع والتناحر ، وتجنبهم مزالقي المحظورات الخلقية ، إذا بها تدعو الى حماية الفرد والجماعة والأمة من غوائل الانقسام ، وتدعو الى الاتحاد والتعاقد . فهي تدعو الى البر بالآبوين ، وبر الأبناء ، وصلة الرحم ، وبر الاتباع ، ورحمة اليتيم والأرملة ، وتدعو الى رعاية حقوق الجار ، وحقوق المسلم على المسلم .

فيروى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » . ويروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً قال يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك فأدناك »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : « قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التيمي جالسا ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم » . رواه البخاري وأبو داود والترمذي . ويروى البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذني فيقعدني على نخذه ويقعد الحسن على نخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : اللهم ارحمهما فاني أرحمهما » . وروت عائشة رضى الله عنها قالت : « جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ » رواه الشيخان .

ثم تتسلسل الفضائل التشريعية التي لا بد منها لحماية المجتمع ، فتشيد الشريعة المطهرة بالبر بذوى الأرحام ، ثم تتأكد صلتها وتتوثق توثقا يقوم على تركيزه في النفوس والأخلاق ، ذلك التضافر الوثيق الذي جاء في القرآن الكريم والاحاديث الصحيحة . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذرا »

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأله في أثره ، فليصل رحمه » رواه الثلاثة .

ويأتى بر الاتباع ، والمراد بهم الخول والماليك . يروى أبو داود والترمذى فى صحيحيهما عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : « كنت أضرب غلاما لى فسمعت صوتا من خلفى : اعلم أبا مسعود ، مرتين ، لله أقدرُ عليك منك عليه ! فالتفت فإذا هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله . قال : أما لو لم تفعل للفتكت النار ، أو لمستك النار » . فتلك المبادئ الحكيمة التى وردت بلسان صاحب الشريعة المطهرة ، شاهد عدل على أن خلود تلك الشريعة وقيامها على أسس صالحة ومناهج من الخير قوية ، آية الآيات على ملابتها لكل زمن ، ومسايرتها لكل جيل .

ولم تكن تلك الشريعة فى سمو مبادئها معنية بتلك الاخلاقيات التى تخلع على المجتمع أمثل المناهج وأنبى الاشكال ، وتحوطه بسياج منيع من الاخلاق الفاضلة فحسب ، بل هى معنية أيضا بتنظيم الأسرة وحماية الفرد ، ورعاية ما لكل على أخيه من الحقوق المفروضة ، فقد عنيت الشريعة بنظام الأسرة ، وهى أول حجر فى بناء المجتمع ، فشرعت فيما شرعت قيود النكاح فى الزيجة ، وشروطه وأحكامه وأركانه ، ثم موانع النكاح الشرعية ، وبيان المحلات والمحرمات من النساء ، ثم الولاية على النكاح ، ثم فى الوكالة بالنكاح ، ثم فى الكفاءة ، ثم فى المهر ، ثم فى وجوب المهر . ثم عن الحالات التى يجب للزوجة فيها نصف المهر ، والتى لا تستحق فيها شيئا منه ، ثم عن شروط المهر وقبضه وما للمرأة من التصرف فيه ، ثم فى ضمان المهر وهلاكه واستهلاكه واستحقاقه ، ثم فى قضايا المهر ، ثم فى نكاح المسلم للكنسيات ، وفى النكاح الغير الصحيح والنكاح الموقوف ، وهكذا مما يتصل بتنظيم حياة الأسرة وإقامتها على أسس السعادة والرخاء ، مما سوف نعالج بيانه فى أعداد تالية ، إن شاء الله ؟

عباس طه

# مَعْرِضُ كَلَامِ الْمُحْتَمِلِ

## فِي إِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ

( الانتشار الاسلامي بين مختلف الشعوب لا يمكن وقفه )  
( وأثر الجامعة الأزهرية فيه )

جاء في جريدة ( لا سومور فودوا السويسرية ) Le Semeur Vaudois تحت عنوان  
( على ذكر خريطة ) (١) ما يأتي :

« يعلم الناس أن للاسلام قوة انتشار عظيمة . وقد عالجت هذا الموضوع مجلات و جرائد كثيرة جدا . ونحن نشر هنا للتدليل على صحة هذا الأمر خريطة ذات دلالة قوية في هذا الموضوع ظهرت في عدد شهر فبراير سنة ١٩٣٨ من مجلة ( ليفانجيلياش داتشلاندا ) . وهي منقولة من كتاب الأستاذ ( بول شمتر ) المطبوع عند جولدمان بمدينة ليزج . وهي توضح بطريقة مؤثرة جميع الممالك التي أصبحت إسلامية محضة ، وجميع البقاع العالمية التي انتشرت فيها طلابه ، وخاصة ما كان منها في أفريقيا وآسيا .

« وقد ظهر مقال للأستاذ ( مينولف كوسترس ) في مجلة ( داتش رندشو ) فيه تفصيلات عن هذه الحركة الانتشارية ، جاء فيه : « إنه من مائة وثلاثين مليوناً من الأفريقيين أصبح سبعون مليوناً يسرون تحت لواء النبي . وقد أصبح جميع شمال أفريقيا إسلامياً . وقد كان عدد المسلمين في مستعمرة ( داتش أوستافريقيا ) مائتين وخمسين ألفاً قبل الحرب الماضية ، فأصبحوا الآن ثلاثة ملايين ! وتأثير الإسلام يمتد حتى جنوب أفريقيا . والسبب في ذلك أن الجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهي مركز الدعوة إلى الإسلام ، ترسل مندوبين غيورين إلى جميع الأقطار الأفريقية . وتصدر جرائد كثيرة في البلدان الكبيرة ، وترسل إلى تلك البقاع حاملة رسالة الكفاح ضد المسيحية ، والثقافة النصرانية إلى وسط تلك القارة الكبيرة » . انتهى مقاله الأستاذ مينولف كوسترس .

(١) نشر الأستاذ شميتز Shmitz كتاباً أسماه ( الإسلام في الغد ) ذكر فيه ما يصادفه الإسلام من الانتشار العظيم وخاصة في هذا العصر في أفريقيا وآسيا حتى يكاد لا يدع فيهما مكاناً لغيره . وقد نشر خريطة لول الممالك الإسلامية فيها بلون أسود يتضح منها أن هاتين القارتين تسكدان تصبجان إسلاميتين صرفاً .

« وقد بين الأستاذ د . ج . ريشتر ، وهو عالم إحصائي في هذه الشؤون في فصل مفيد جدا نشره عن التطورات البعيدة المدى التي حدثت في العالم الاسلامي جاء فيه قوله : « إن التطور الاسلامي قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحاضر ، فيجب تتبعه بأكثر ما يمكن من الانتباه » انتهى .

هذا ما جاء في جريده ( لوسومور فودوا ) السويسرية ، وهو موضوع كما يعرف القراء ليس بمحدث العهد ، فقد كتب جميع المبعوثين الدينيين الأجانب عنه بحثا ضافية ، أشهرها ما نشره الكاردينال لافيغري Lavigieri الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد شكاه الشكوى من فشل الدعوات النصرانية في القارة الافريقية ، وقال إن الدراويش البسطاء ، والتجار الذين يجوبون تلك الأقطار ينشرون الاسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويعاهدونهم على الاسلام دون أية مقاومة .

وقد أيد الكاردينال لافيغري مبعوثون كثيرون ، ولا يخفى أن هؤلاء يتذرعون للتجيب في ملتهم بالمال الوفير ، وبالوسائل التعليمية والتطبيعية ، ولكن كل ذلك لم يجد لهم نفعا . حتى قالوا إن من يصبأ الى ملتهم من المتوحشين لا يلبث أن يهرب الى المسلمين ، وإن كان لا يجد لديهم بعض ما يجده عند أولئك الدعاة من العيش الرغيد .

ينصح الأستاذ ريشتر في البحث الذي نشره عن تطور العالم الاسلامي ، المهتمين بأمر الدعوة الدينية ، أن يتبعوا بانتباه عظيم حركة ذلك التطور ، وماذا يفيدهم ذلك التتبع الدقيق ؟ أليس الأولى أن يدرسوا العلة الحقيقية في هذا التهافت على الاسلام من أمم وشعوب وقبائل عربية في الوثنية ، عجزت جميع المغريات المادية عن تحويلها عنها ، ونجحت دعوة مجردة من جميع المسولات لنشر هذا الدين ؟

أما وقد أغفلوا ذلك فنحن نتولى بيان هذه العلة خدمة للعلم والفلسفة والدين ، فنقول : تلك العلة هي أن الاسلام دين سهل ترشح له النفس ويستسيغه العقل بدون شرح ولا تعمق في التدليل ، يجد فيه كل من الساذج والمتقف ثلجا في الصدور ، وسكننا في القلب ، يهب على الاول من ناحية ملاءمته للفطرة الانسانية ، ومناسبتها للغرائز الجسدية ، وعلى الثاني من جهة ما يفيض عليه من نور يكشف له من معضلات الدين ، ومشكلات الاعتقاد ، ما كان يحيك في صدره ولا يجد له مصرفا ، ويرى على صدره ولا يصادف منه مخرجا ، فلا يعود يشعر بحرج في نفسه يقيمه ويقعده ولا يرى عنه معذرا . وهذا ما أشار اليه الحق جل شأنه بقوله : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وقوله تعالى : « يأبها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

هذا الشفاء للصدور هو الذي يحمل النفوس على الترامي على الاسلام لأول معرفتها به ،

حتى يمكن أن يقال إنه لا يحتاج الى دعوة غير التعريف به . وقد فتح الله مغالق قلوب أهل الجاهلية الجاهلاء بهذا القرآن وحده ، فله ينسب هذا الانتشار الذي صادفه الاسلام لأول ظهوره مما ليس له مثيل في تاريخ العالم ، ولا يزال يفتح به الدعاة اليه القلوب الغُلف التي يتصدون لها ، وكان إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو قوما الى الاسلام قرأ عليهم آيات من القرآن ، فلا يلبثون أن يمدوا اليه أيديهم يعاهدونه على الايمان .

فهذا التأثير العظيم ، لهذا الكتاب الكريم ، لا يجوز أن يغفل البحث في مصدره ، وخاصة في هذا العصر ، عصر التحليلات المعمقة ، والمقارنات المدققة . أما التفكير في صده فما لا سبيل اليه . فلقد عملت على هذا الصد جماعات وأمم في خلال تاريخه فلم يستطيعوا أن يضعفوا من ثوبته ، بل زادوه قوة على قوته . وقد أنبأ الله المسلمين بأن كل صد لهذا الدين محكوم عليه بالفشل مهما كان مصدره ، ومهما كانت الوسائل التي تبذل فيه ، فقال تعالى : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون » وقد صدق هذا الوعيد مرات لا تحصى في ظروف تاريخية معروفة . وقد تحقق في هذا العصر على أوضح ما يكون . فإن دعاة الملل يصرفون ملايين الجنيهات ليضعفوا بها من سريان هذا الدين فلم يحصلوا على طائل ، فأنفقوا أموالهم وبأؤوا بالفشل كما قال وعد الله بذلك وأيده في آيات أخرى منها : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » . ولو كان الاسلام ديناً يمكن صد تياره لأمكن ذلك في مثل هذا العهد الذي طمت فيه الشكوك ، وعمت فيه الشبهات ، ونسى الناس فيه أنفسهم ، من الضوضاء الفاتنة المصممة ، التي تحدثها هذه المدنية الساحرة . وإنك لتراه على عكس ما كان متوقعا ، تراه يخوض غمرات هذه الفتنة العمياء فيفتح فيها الى القلوب طريقا . ألسنت ترى خقوف الناس في كل بلد من بلاده الى تأليف الجمعيات للتذكير بآياته واللاهابة الى بيناته ، وانتداب الافراد الى إصدار المجلات لنشر فضائله ، والاشادة بذكر دلائله ؟ وقد تعدت هذه الحركة مواطنه الى البلاد الأجنبية فكثير الباحثون فيه ، والمعجبون به ، مما نلم به في كل عدد يصدر من هذه المجلة نقلا عن المصادر العلمية الوثيقة .

فإذا كان هذا كله والفتنة متغلبة ، والشبهات متوثبة ، والنفوس منصرفة ، والعقول معقولة ، فما ظنك حين تنجاب هذه الكسف عن الصدور ، وتزول هذه الغشاوات عن العيون ، وينشط الناس لتنور الحقائق واتباعها ، وتعرف الأباطيل واجتنابها ؟ عند ذاك ترى ما لا يخطر لك ببال من تدافع الناس بالمناكب دخولا الى حظيرة هذا الدين ، وفي الوقت نفسه تعرف أن ثوران هذه الشبهات التي كنت تشكو منها كانت سببا مباشرا في تجلية حقائق هذا الدين ، فكانها كانت محكاه .

محمد فريز ومبرى

enemies, or by their bitter persecution of him. And despite all opposition and increased persecution the new faith gained ground. The national fair at Okaz near Mecca attracted many a wild Arab of the desert and many a trading citizen of distant towns. These listened to the teachings of the Prophet, to his admonitions and to his denunciations of their sacred idols and of their superstitions. They carried back all that they had heard to their distant homes and thus the advent of the Arabian Prophet was made known to almost all parts of the Peninsula.

The Meccans, however, were more than ever furious at the Prophet's increasing preaching against their religion. They asked his uncle Abu Talib, to stop him. But Abu Talib could not do anything, except that he re-assured them. At length, as the Prophet persisted in his ardent denunciations against their ungodliness and impiety, they turned him from the Kaaba where he latterly used to sit to preach, and subsequently went in a body to Abu Talib. They urged the old venerable chief to prevent his nephew from abusing their gods any longer or uttering any ill words against their ancestors. They warned Abu Talib that if he would not do that he would be excluded from the communion of his people and driven to side with Mohammad, and the matter would be settled by fight, until one of the two parties were exterminated (1). Abu Talib neither wished to separate himself from his people, nor forsake his nephew, for the idolaters to revenge themselves upon. He spoke to the Prophet very softly and begged of him to abandon his affair. To this suggestion the Prophet firmly replied: 'O my uncle, if they placed the sun in my right hand and the moon in my left hand, to cause me to renounce my task, verily I would not desist therefrom, until God made manifest His cause, or I perished in the attempt.' (2) The Prophet, overcome by the thought that his uncle and protector was willing to desert him, turned to depart. But Abu Talib called him loudly to come back, and he came. 'Say whatever thou pleasest; for by the Lord I shall not desert thee, nay, never.' The Koreishites again attempted in vain to cause Abu Talib to abandon his nephew. The venerable chief declared his intention to protect his nephew against any menace or violence. He appealed to the sense of honour of the two families of the sons of Hashim and the sons of Muttalib, both families being kinsmen of the Prophet, to protect their member from falling a victim to the hatred of rival parties. All the members of the two families nobly responded to the appeal of Abu Talib, except Abu Lahab, one of the Prophet's uncles, who took part with the persecutors.

At this period, Omar, son of Khattab, adopted Islam. In him the new faith gained a valuable adherent, and an important factor in the future development and propagation of Islam.

(1) Abul Fida; Ibn Athir:

(2) Sale, W. Muir, Abul Fida etc.



will bear the risk of his unbelief.' 'Those who remain unbelievers will gain nothing by their obstinacy, except the hatred of their Lord. Have you considered your false deities whom you worship beside God? Show me what thing on earth they have created; or have they any share in the heaven? Surely I am sent to you with truth, to bear you good news and give you warning; and there is not a people, but a warner from God was sent to them. If you give the lie to my message, it is no wonder that you do so; other nations before you have also given the lie to their respective apostles, though they brought them clear arguments, scripture and illuminating books (1). As to Allah, the True God, know ye that it is He Who made for you the night, that you may rest therein, and the day to see; most surely Allah is Gracious to men but most men, are ungrateful. Allah, your Lord is the Creator of every thing; there is no Deity but He; why are you then turned away? Allah is He Who made the earth a resting-place for you and the heaven and horizon, and He formed you, then made goodly your forms, and He furnished you with wholesome provisions; that is Allah, your Lord; blessed then is Allah, the Lord of the Worlds. I am forbidden to worship those idols whom you adore besides God, because clear arguments have come to me from my Lord, and I am commended to submit to Him alone, the Lord of the Universe. He it is Who created you from dust, then from a minute life-germ, then from a clot, then He brings you forth as a child, then He causes you to attain maturity, and some of you may get old and some are caused to die young, so that all of you will reach a pre-appointed age. Do you now understand? Allah is He Who gives life and brings death, so when He decrees an affair, He only says to it, Be, and it is.' (2)

#### IV

### THE ARABS SACRED IDOLS

As to the sacred idols, so much honoured and esteemed by the pagan Arabs, the Prophet openly declared that 'they are naught but empty names which you (the idolaters) and your fathers have invented.'

From beginning to end the Prophet in all his recitations of the Koran never spoke respectfully of the invented gods or goddesses adopted by the heathen Arabs. There is nothing in all the trustworthy sources of Islam to confirm the allegations made by Western biographers to the contrary.

When the Prophet thus spoke reproachfully of the sacred gods of the Koreishites, the latter redoubled their persecution. But the Prophet, nevertheless, continued his preaching, undaunted by the hostility of his

---

(1) The Koran XXXV

(2) Koran XI.



Koran for a people who understand: a herald of good news and a warner; but most of you turn aside, so you hear not" (1). On other occasions he used to address the polytheists thus: "I am only a mortal like you; it is revealed to me that your Deity is one; therefore worship Him alone and ask His forgiveness; and woe to those who associate false deities with the True God..."

Despite all the exhortations of the Prophet, the Koreishites persisted in asking him for a sign. They insisted that unless some sign be sent down to him from his Lord, they would not believe. "Why", the infidels used to ask, "had not Mohammad been sent with miracles, like previous prophets?" "Because", replied the Prophet, "miracles had proved inadequate to convince. Noah had been sent with signs, and with what effect? Where was the lost tribe of Thamud? They had refused to receive the preaching of the Prophet Saleh, unless he showed them a sign and caused the rock to bring forth a living camel. He did what they asked. In scorn they had cut the camel's feet and then daring the prophet to fulfil his threats of judgment, were found dead in their beds next morning, stricken by the angel of the Lord. There are some seventeen places in the Koran, in which the Arabian Prophet is challenged to work a sign, and he answers them all to the same or similar effect: "God have the power of working miracles, and had not been believed; he who could not know even himself adequately, could not know what God had hidden; that there were greater miracles in nature than any which could be wrought outside of it; that the Koran itself was a great, everlasting miracle". The Koran, the Prophet used to assert to the infidels, is a book whose blessings shall be intercepted, a warning for the whole world; it is a collection of all that is best in any other religion and all that is best in sacred books; it is a complete guidance and explains everything necessary; it is a reminder of what is imprinted on human nature and is free from every discrepancy and from error and falsehood. It is a book of true guidance and light to all. Again when the Prophet was urged for a sign, he used to address the idolaters thus: 'O men, you are they who stand in need of Allah, and Allah is He Who is Self-sufficient, the Praised One If He please, He will take you off and bring a new generation. And this is not difficult for Him to do. A burdened soul cannot bear the burden of another (2).' In another instance the Prophet used to appeal to the unbelievers' sense of judgment by reciting to them other passages of the Word of God. 'Surely Allah is the Knower of what is unseen in the heavens and the earth; surely He is Cognisant of what is in all hearts. He it is Who made you free creatures of the earth, therefore who ever disbelieves

---

(1) Koran XL1 : 1-4

(2) Koran XXXV.

religion and embraced a new one. The king summoned the poor fugitives and enquired of them what was the religion which they had adopted, in preference to their old faith. Jaafar, son of Abu Talib and Brother of Ali, acted as spokesman for the exiles. He spoke thus: "O king, we were plunged in the depth of ignorance and barbarism, we adored idols, we lived in unchastity, we ate dead bodies and we spoke abominations; we disregarded every feeling of humanity and any sense of duty towards our neighbours, and we knew no law, but that of the strong, when God raised among us a man, of whose birth, truthfulness, honesty and purity we were aware, and he called us to profess the unity of God and taught us to associate nothing with him; he forbade us the worship of idols and enjoined us to speak the truth, to be faithful to our trusts, to be merciful and to regard the rights of neighbourhood, he forbade us to speak evil of women, or to eat the substance of orphans, he ordered us to fly from vice and to abstain from evil, to offer prayers, to give alms, to observe the fast. We have believed in him, we have accepted his teachings and his injunctions to worship God alone and to associate naught with Him. Hence our people have persecuted us, trying to make us to forego the worship of God and return to the worship of idols of wood and stone and other abominations. They have tortured us and injured us until, finding no safety among them, we have come to your kingdom, trusting you will give us protection against their persecution (1).

After hearing the above speech, the hospitable king ordered the deputies to return to their people in safety and not to interfere with their fugitives. Thus the emigrants passed the period of exile in peace and comfort. Whilst the followers of the Prophet sought safety in foreign lands against the persecution of their people, he continued his warnings to the Koreishites more strenuously than ever. Again they came to him with offers of riches and honour which he firmly and utterly refused. "I am neither" said the Prophet, "desirous of riches nor ambitious of dignity or dominion. I am a messenger of God to give you good tidings and to admonish you. If you accept the message I bring you, God will be favourable to you, both in this world and in the next; if you reject my admonitions, I shall be patient and will let God judge between us!" But they mocked at him and urged him for miracles to prove his mission. "God has not sent me" he used to answer, "to work wonders, he has sent me to preach to you". Thus disclaiming all power of wonder-working, the Prophet ever rested the truth of his divine mission upon his wise teachings. He addressed himself to the inner consciousness of man, to his common sense and to his own better judgment. "Listen", he used to address them; I bring you a revelation from the Beneficent, the Merciful God: a book of which the verses are made plain, an Arabic

---

(1) — Ibn Hisham.

dominion we shall make you our king, and if the demon which possesses you cannot be subdued, we will bring you doctors and give them riches till they cure you.' When Otba had finished his discourse, the Prophet said: 'Now listen to me O father of Walid.' 'I listen,' he replied. The Prophet recited to him the first eight verses of chapter 41 of the Koran which may be interpreted as follows: "In the name of Allah, the Beneficent, the Merciful; Here is a revelation from the Merciful, a book, the verses whereof are distinctly explained; an Arabic Koran, for the instruction of a people who understand, it is a herald of good tidings and a warner, but most of those who hear it, turn aside, so that they hear not, and they say (to the Prophet); our hearts are veiled from the doctrine, to which thou invitest us; and there is a heaviness in our ears and a curtain hangs between us and thee; wherefore act thou as thou shalt think fit, for we shall act according to our own sentiments. Say verily I am only a mortal like you. It is revealed unto me, that your God is One God; therefore take the right way to Him, and ask His forgiveness, and woe be to the idolaters, who give not the appointed alms and believe not in the life to come(1). But as to those who believe and do good, they shall receive an everlasting reward(2)."

When the Prophet had finished his recitation, he said to Otba: "This is my reply to your proposition; now take what course you find best"(3).

Persecution by the Koreishites grew fiercer and fiercer every day and the sufferings of the Prophet's disciples became unbearable. He had heard of the righteousness, tolerance and hospitality of the neighbouring Christian king of Abyssinia. He recommended such of his disciples who were without protection, to seek refuge in the kingdom of that pious king, Al Nagashi (Negus). Some of the unprotected adherents of Islam, to the number of 15, promptly availed themselves of the advice and sailed to Abyssinia. Here they met with a very kind reception from the Negus. This is called the first flight in the history of Islam and occurred in the 5th year of the Prophet Mohammad's mission (615 A.C.). These emigrants were soon followed by many more of their fellow-sufferers, until the number reached eighty three men and eighteen women(4).

The hostile Koreishites, furious at the escape of their victims, sent deputies to the king of Abyssinia to request him to deliver up the refugees, that they might be put to death, as they had abjured their old

---

(1.) — The Arabs used to regard hospitality as a virtue, but alms-giving was considered a weakness among them. A future life was generally considered a mere fable.

(2.) — Koran Chapter 41.

(3.) — Ibn Hisham.

(4.) — G. Sale.

their deeds in this world shall be weighed before the Eternal Judge, when the children who had been buried alive shall be asked, for what crime they were put to death (1).

As the number of believers increased and the cause of the Prophet was strengthened by the conversions of many powerful citizens, the Prophet's preaching aroused a serious revolutionary movement. He condemned the idols the Arabs worshipped and taught the unity of God. The Koreishites were now alarmed. Their power and prestige were at stake. They were the custodians of the idols which the Prophet had threatened to destroy; they were the ministers of the worship which he denounced; in fact their existence and living wholly depended upon the maintenance of the old institutions. Again the tone of the Prophet in his teachings was intensely democratic. He taught that in the sight of his Lord all beings were equal, the only distinction, recognised among them being the weight of their piety (2). The Koreishites would have none of this leveling of distinctions, as it reflected upon their long inherited privileges. Accordingly they organized a system of persecution in order to suppress the movement before it became firmly established. They decided that each family should take upon itself the task of stamping out the new faith on the spot. Each household tortured its own members or adherents or slaves who were supposed to have connected themselves with the new religion. With the exception of the Prophet who was protected by Abu Talib and his kinsmen, Abu Bakr and a few others who were either distinguished by their rank or possessed some influence among the Koreishites, all other proselytes were subjected to different sorts of torture. Some of them were thrown into prison, starved and then flogged. The hill of Ramada and the place called Bata became thus scenes of cruel torture (2).

One day the Koreishites sought to approach the Prophet to induce him to discontinue his teachings of the new religion which had sown discord among their people. Otba, son of Rabia, was delegated to see the Prophet and speak to him. 'O son of my brother,' said Otba on meeting the Prophet, 'You are distinguished by your qualities; yet you have sown discord among our people and cast dissension in our families; you denounced our gods and goddesses and you charge our ancestors with impiety. Now we are come to make a proposition to you and ask you to think well before you reject it.' 'I am listening to you, O father of Walid,' said the Prophet. 'O son of my brother', began Otba, 'If by this affair you intend to acquire riches, honours and dignity, we are willing to collect for you a fortune larger than is possessed by any one of us; we shall make you our chief and will do naught without you; if you desire

---

(1) It was the custom of heathen Arabs to bury their children alive from fear of want. This custom was forbidden by the Koran : 17 : 33.

(2) Koran : 49 : 13

(3) Sir William Muir

Hitherto he had preached quietly and unobtrusively. He now determined to appeal publicly to the Meccans to abandon their idolatry. For this he arranged a gathering on a neighbouring hill, and there spoke to them of their folly in the sight of God, in offering worship to pieces of stone which they called their gods. He invited them to abandon their old impious worship and adopt the faith of love and truth and purity. He warned them of the fate that had overtaken in the past, races who had not heeded the preaching of former prophets. But the gathering had departed without listening to the warning given them by the Prophet. Having thus failed to induce his fellow-citizens to listen to him, he turned his attention to the strangers arriving at the city on commerce or pilgrimage. But the Koreishites made attempts to frustrate his efforts. They hastened themselves to first meet the strangers on the different routes, to warn them against holding any communication with the Prophet whom they represented as a dangerous magician. When the pilgrims or traders returned to their homes, they carried with them the news of the advent of the bold preacher who was inviting the Arabians loudly — at the risk of his own life — to abandon the worship of their dear idols. Now the Prophet and his followers became subject to some persecution and indignity. The hostile Koreishites prevented the Prophet from offering his prayers at the sacred temple of the Kaaba; they pursued him wherever he went; they covered him and his disciples with dirt and filth, when engaged in their devotions. They scattered thorns in the places which he frequented for devotion and meditation. Amidst all these trials the Prophet did not waver. He was full of confidence in his mission. On several occasions he was put in imminent danger of losing his life (1). At this time Hamza, the youngest son of Abdul Muttalib adopted Islam. Hamza was a man of distinguished bravery, an intrepid warrior, generous and true, whose heroism earned for him the title of the "Lion of God". He became a devoted adherent of Islam and eventually laid down his life in the cause.

The Prophet continued his preachings to the Arabs in a most gentle and reasonable manner. He called the nation, so accustomed to iniquity and wrong doings, to abandon their abominations. In burning words which excited the hearts of his hearers, he warned them of the punishment which God had inflicted upon the ancient tribes of Aad and Thamud (2) who obstinately disobeyed the teachings of His messengers to them. He adjured them by the wonderful sights of nature, by the noon day brightness, by the night when it spreads her veil, by the day when it appears in glory, to listen to his warning before a similar destruction befell them. He spoke to them of the day of reckoning, when

---

(1) Sir William Muir's Life of Muhammed.

(2) Vide Book I.

### III

## MOHAMMAD'S MISSION

At the beginning of his mission, Mohammad, hereinafter called the Prophet, opened his soul only to those who were attached to him and tried to free them from the gross practices of their forefathers. After Khadija, Ali his cousin, was the next disciple. The Prophet used often to go into the desert around Mecca with his wife and young cousin, that they might together offer their heart-felt thanks to the God of all nations for His manifold blessings. Once they were surprised by Abu Talib, the father of Ali. And he said to the Prophet: "O son of my brother, what is this religion thou art following?" "It is the religion of God, of His Angels, of His Apostles and our ancestor Abraham," answered the Prophet. "God has sent me to His servants, to direct them towards the truth and thou, O my uncle, art the most worthy of all. It is meet that I should thus call upon thee and it is meet that thou shouldst accept the truth and help in spreading it." "Son of my brother," replied Abu Talib, "I cannot abjure the religion of my fathers; but by the Supreme God, whilst I am alive, none shall dare to injure thee." Then turning towards Ali, his son, the venerable chief asked what religion was his. "O father," answered Ali, "I believe in God and His Prophet and go with him." "Well my son" said Abu Talib, "He will not call thee to aught, save what is good, wherefore thou art free to cling to him."

After Ali, Zaid, Mohammad's adopted son, became a convert to the new faith. He was followed by Abu Bakr, a leading member of the Koreish tribe and an honest wealthy merchant who enjoyed great consideration among his compatriots. He was but two years younger than the Prophet. His adoption of the new faith was of great moral effect. Soon after, five notables presented themselves before the Prophet and accepted Islam. Several proselytes also came from lower classes of the Arabs to adopt the new religion. For three weary long years, the Prophet laboured very quietly to deliver his people from the worship of idols. Polytheism was deeply rooted among the people. It offered attractions which the new faith in its purity did not possess. The Koreishites had personal material interests in the old worship; and their prestige was dependent upon its maintenance; the Prophet had to contend with the idolatrous worship of its followers and to oppose the ruling oligarchy which governed its destinies.

After three years of constant but quiet struggle, only thirty followers were secured. An important change now occurred in the relations of the Prophet with the citizens of Mecca. His compatriots had begun to doubt his sanity, thought him crazy or possessed by an evil spirit.

# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية  
تصدرها شبكة الأزهر

في كل شهر عربي

المجلد الحادي عشر

رمضان سنة ١٣٥٩

الجزء التاسع

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد الدين

محمد فريد الدين

الاشتراكات عمده سنه

الإدارة

داخل القطر ..... ٢٠٠ مليم  
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ..... ١٠٠  
خارج القطر ..... ٣٠٠

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )



# فهرس

## الجزء التاسع - المجلد الحادى عشر

جلالة الملك يصلى الجمعة فى الأزهر

خطبة الجمعة ... .. بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ... (ج)	٥١٣
كلمة الأزهر ... .. » » » » وكيل الأزهر (و)	٥١٥
كلمة رمضان ... .. » » » » الأكنز ... (ح)	٥٢٤
الصلاة الجامعة لأجل السلام ... ..	٥٣٠
السيرة المحمدية - وقعة أحد ... .. بقلم حضرة الأستاذ مدير المجلة ...	٥٣٨
السنة - الرقية ... .. » فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى	٥٤٣
رمضان ... .. » » » » أبو الوفا المرازى	٥٤٨
تاريخ الفقه الإسلامى فى مصر ... .. » » » » محمد محمد المدنى ...	٥٥٢
الأصول العامة فى كتاب الله ... .. » » » » حامد محيسن ...	٥٥٦
الكلام والمتكلمون - الحركة الفكرية ... .. » حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٥٦١
عبد الله بن عمرو ... .. » فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٥٦٤
الحسن بن الهيثم ... .. » حضرة الأستاذ عبد الحميد سامى ...	٥٦٧
شهر الصيام ... .. » » » » مدير المجلة ...	٥٦٩
نظرات فى الأدب العربى ... .. » فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	٥٧١
الشعوبية ... .. » » » » احمد ابراهيم موسى	٥٧٥
الصدافقة حاجة اجتماعية .. .. » » » » محمد فهمى عبد اللطيف	
الدعوة الى الاسلام ... .. » » » » ابراهيم أبو الخشب	
من أخلاق الشريعة وآدابها ... .. » » » » عباس طه ...	
معرض الآراء - المرأة العربية فى الحرم ... .. » حضرة الأستاذ مدير المجلة ...	
تقاريف ... ..	



# جلالة الملك المعظم يصلى الجمعة بالجامع الازهر

فضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى يخطب ويؤم المصلين

كان يوم الجمعة الموافق اليوم الثانى من رمضان سنة ١٣٥٩ يوما مشهودا فى الجامع الازهر المعمور ، إذ اقتضت إرادة حضرة صاحب الجلالة الملكية تأدية صلاة الجمعة فيه ، وقد فرشت أرضه بالطنافس الوثيرة التى تفضل جلالته فامر أن تصنع خصيصا له فى المعامل المصرية . وقد حسب مقدار ما صنع منها بالآمتار المربعة فبلغت ٣٨٩٣ مترا ، وبلغت نفقاتها ٦٠٣٤ جنيا . فزاد ذلك فى نخامة المسجد وأُبهته .

قبيل آذان الجمعة بدقائق شرف الركاب الملكى ميدان الازهر ، وكان غاصا بجماهير من الشعب ، فهتفوا لمقدم جلalته هتافا عاليا ، ودخل المسجد وكان حافلا برجال العلم والوزراء وكبار الموظفين والوجهاء والطلبة ، فوقفوا تبجيلا لجلالته .

ولما تم التأذين صعد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام المنبر ، يصحبه وقاره المعهود ، وفاه بخطبة ما قرع بملئها خطيب أعواد المنابر منذ زمان طويل ، خرج بها فضيلته عن التزام التسجيع ، وأرسلها عربية خالصة ضمنها أثر القرآن فى أهله الأولين ، فأحيام بعد الموت ، وأعزم بعد الدلة ، وآتاهم خلافة الله وزعامة الأرض ؛ ثم ذكر ما أنبأ به القرآن من أخذ الله الأمم بما تكتسب أيديهم من المظالم ، وبما يجنونه على الأصول الأولية التى جعلها الله قواعد للحياة الفاضلة ، وأتى بالآيات الدالة على ذلك .

ثم قرر فضيلته أنه كما حاق بالأمم السابقة عذاب الله حين انحرفت عن سبيله ، كذلك أصاب المسلمين ما أصاب السابقين حين انحرفوا عن وصاياه وتعاليمه .

ثم اختتم فضيلته خطبته بقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم - يغيروا ما بأنفسهم » وقوله تعالى : « اعلّموا أن الله يحى الارض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

جمعت هذه الخطبة من أدواء الأمم ودوائها ، ومن آيات الكتاب الدالة عليها ، ما لم تجمعها خطبة منبرية ، وألقيت بروح موقنة بما تقول ، بصيرة بما يجرى فى العالم من أحداث خطيرة ، فكان أثرها عميقا فى النفوس ، وحملها اللاسلكى الى كل بيت وإلى جميع الاقطار الاسلامية ، فكانت أوسع مدى من أية خطبة أُلقيت فى الاسلام الى اليوم .

وبعد أن أمّ فضيلة الأستاذ الامام المصلين وتمت الصلاة ، صافح جلالة الملك فضيلته إعجاباً بهذه الخطبة الجامعة ، فكان عمل جلalته معبراً عما خالج قلوب جميع المصلين .

ثم صعد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد الفحام وكيل الأزهر المنبر ، وألقى بين يدي جلالة الملك المعظم كلمة شكر قيمة على أيادي جلalته ، وما أثر المغفور له والده العظيم على الأزهر والأزهريين ، مما طار صيته في الآفاق ، وقابله المسلمون كافة في جميع بقاع الأرض بالشكران ، وذكر أن من أحدث تلك الأيادي ما تفضل به جلalته من فرش الأزهر كله بالسجاد الفاخر - وقد كتبنا عن هذا السجاد كلاماً مطولاً في العدد السابع من مجلة الأزهر - فسر جلالة الملك مما سمع ، وصافح فضيلة الأستاذ الوكيل إيداناً بقبوله الكريم .

ونحن نأتي هنا على نصي الخطبتين :

## خطبة الجمعة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونستغفرك ونستهديك ؛ ونشهد أنك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، بديع السموات والأرض ، خلقتها بقدرتك على أكمل صورة وأتم نظام ، ودبرتها بحكمتك أحسن تدبير ، وأودعت فيها من الأسرار ما هو عبرة للعاقلين ، وعظة للمتدبرين ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، اصطفيته من بين خلقك ، وبعثته رحمة للعالمين ، وخاتماً للنبيين ، صلوات الله عليه وعلى إخوانه النبيين ، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

عباد الله : ترك فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن لحق بالرفيق الأعلى ، هدياً بالغاً ، ونوراً ساطعاً ، وواعظاً ناطقاً ، وحكمة بينة ، وحجة قائمة ، لا يضل ولا يشقى من اتبعه ، ولا يرشد ولا يسعد من حاد عنه ؛ هو كتاب الله الكريم ، وذكره الحكيم ، الفارق بين الحق والباطل ، والهادي الى الصراط المستقيم ، ألا وهو القرآن .

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويذكر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » .

حافظ عليه أقوام سلفوا ، فهموه حق الفهم ، فلك عليهم قلوبهم ومشاعرهم ، وصار قبلتهم ، فاتزموا حدوده ، وحفظوا عهوده ، وأقاموا أحكامه ، وطهرت قلوبهم ، وزكت نفوسهم ، وسمت أرواحهم ، واتصلوا بالملاء الأعلى ، وهم على الأرض يقيمون ، وكانوا رسل رحمة ، وأئمة رشد ، وقضاة عدل ، وأمراء هدى .

لم يتعدوا حدود الله ، ولم يخالفوا أوامر الله ، ولم يهتوا لما أصابهم في سبيل الله ، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا بقضاء الله .

نصروا الله ورسوله فنصرهم الله ، وقنعوا بما أصابوا من الدنيا فكانوا سعداء بها .

أحيام الله بعد الموت ، وأعزم بعد الذلة ، وكثرهم بعد القلة ، واستخلفهم في الأرض ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ؛ فداووا جراح الانسانية ، وأقاموا دعائم المدنية ؛ لكنها مدنية فاضلة ، للجسم فيها نصيب ، وللنفس فيها نصيب ، ولله فيها نصيب ، وللرحمة فيها أكمل قسط ، وأوفى حظ .

هكذا تحقق فيهم وعد الله إذ يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

مضى هؤلاء السادة الذين أنعم الله عليهم وهداهم ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأعرضوا عن الله ، فأعرض الله عنهم ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ؛ سلط الله عليهم أعداءهم ، ومكن لهم فيهم ؛ ساموهم سوء العذاب ، وأنزلهم من عليا درجات مجدهم ، فتبدلت حالهم من العز الى الذل ، ومن السعادة الى الشقاء والهون ، ومن الوحدة والتناصر الى الفرقة والتخاذل .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، وللعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

عباد الله : خلق الله الانسان وهو العليم بغرائزه ، الخبير بطبائعه ، البصير بما يصلحه وبما يفسده ، وكان من ألطافه الإلهية أن علمه وأرشده ، ونصب له الأدلة ، وأرسل اليه الرسل تنزيها ، مبشرين ومنذرين ، ومؤيدين وناصحين ، وأنزل معهم الكتب آيات بينات ، ودلائل واضحات ، ذكر الناس فيها بأحوال الماضين ، وسير الاولين ، وما أصابهم من نكال وعذاب بما نقضوا من الميثاق ، ونبذوا من الهدى والارشاد .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للعنقين » .

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب . وكذلك أخذ بك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » .

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

عباد الله : انحرفت الأمم السابقة عن هدى الله فنزل عليهم عقاب الله ؛ وأعرض المسلمون عن هدى الله وعن عظات القرآن البالغة وهدية الحكيم ، وأعرضوا عن تدبر أسرارته التي تكشف الأيام على تعاقبها ما فيها من حكمة بالغة ونظام حكيم ، فنالوا ما نال الأمم السابقة من جزاء عادل .

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

عباد الله : الطريق واضح ، والمنهج بين ؛ عودوا الى هدى القرآن ، وسير السلف الصالح ،  
حافظوا عليه وتدبروه ، وراقبوا الله والتزموا طاعته .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » « اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

عن مالك رضى الله عنه أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« تَرَكْتُ فِيكُمْ أُمُورَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ ، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

## كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ الفحام وكيل الأزهر

مولاي صاحب الجلالة :

لقد جباكم الله قوة الإيمان بالله ، والاعتماد عليه ، والثقة العظمى بمعونته ؛ وأشرب قلبكم الطاهر الرحمة ، وحب الخير ، والرغبة في الأمن والسلام يرفرفان على العالم ، ويشملان بني الانسان ؛ فأعمالكم ماثلة أمامنا ، وأيديكم البيضاء تنطق علينا بالحق .

لقد عمرتم بيوت الله بالصلاة تقيمونها ، واستمتم في مساجد الله الى الأحاديث الدينية تلقى في شهر رمضان ، والله تعالى يقول : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » ؛ ويقول جل شأنه : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يحافظون يوما تنقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » .

وها أنتم يا مولاي وقد غشى الناس من الطغيان ما غشيتهم ، وحاك بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قد فزعتم الى الله تطلبون رحمته ، وأقمتم صلاة جامعة ، ودعوتم العالم الاسلامي الى إقامتها ومناجاة الله فيها كي يكشف عن العالم لأواءه ، وأن يرد الى النفوس الأمن والطمأنينة والسلم العام .

ولقد وصل الى علمكم الشريف أن فريقا من طلاب الأزهر يجتمعون في حلقات الدرس بالجلوس على حصير خشن لا يناسب مجد الأزهر القديم ، ولا يلائم نظامه الحديث ، ولا يقي الطلاب من مضار المسكت في المساجد ؛ فدعتكم عاطفة الخير أن ترفعوا مكانة العلم ، وأن تكرموا العلماء وترفعوا على الطلبة ، فأمرتم أن يفرش الأزهر بالسجاد المصري الثمين ، فكان أن صنع ما يحتاجه المسجد على ثقتهكم الخاصة .

واليوم يا مولاي ، وفي عهدكم الزاهر ، وبرعايتكم السامية ، يرتفع شأن العلم ، وتعلو مكانة العلماء ، وينعم الطلاب بالجلوس على فراش وثير ، يحفظ لهم كرامتهم وصحتهم ، ويساعدكم على مواصلة الدرس .

يا صاحب الجلالة : ليس بدا أن تتأصل فيكم هذه الخلال السامية ، وأن يكون من سجايكم عواطف النبل والخير ، والفزع الى الله في المهمات .

فلقد كان صاحب الجلالة المغفور له والدكم العظيم راسخ العقيدة ، يدين حقا بأن لاصلاح

للمسلمين إلا باستمساكهم بدينهم القويم ، فكنت تراء لذلك دائم العطف على الأزهر ، دائم التفكير في إصلاحه وإنهاضه ؛ ولطالما تمنى أن يراه منارا عالميا عاليا يشع منه نور الاسلام فيملا بقاء الأرض هداية وعلماء .

يا صاحب الجلالة : لا يدري الأزهر بأى لسان يشكركم ، أبلسان العلماء وقد رفعت من مكانتهم ، وأسبغت عليهم ما يحفظ لهم كرامتهم ، أم بلسان المنقطعين لطلب العلم وقد رفعت عنهم ، ورعيت صحتهم ، أم بلسان الوافدين الى الأزهر من البلدان النائية وقد مددتهم بفيض فضلك ، وأعنتهم في غربتهم على القيام بما نزحوا من بلادهم لأجله ، أم بلسان الدين وقد أحييت فينا سنته ، فكنت الامام المصلح ، والقادة الصالحة ، إذ تقدمت شعبك الى مساجد الله تستمع لتفسير كتاب الله ، وإذ فزعت الى الصلاة ومناجاة رب العزة تطلب نجاته ، فأيقظت في أمتك روح الدين ، والتمسك بحبله المتين ، واللاجوء الى الله في الملمات ، وحين يطغى العدوان .

هذا يا مولاي الى ما اتصفتم به من عزيمة صادقة ، ويقظة شديدة ، وقيام بوسائل الحيلة والتأهب للملاقاة الحثان .

يا صاحب الجلالة : إن الأزهر ليشعر حقا أنه عاجز عن الوفاء بما يجب لكم من شكر وثناء ، فهو يضرع الى الله تعالى أن يشد أزركم ، ويؤيدكم بروح من عنده ، وأن يجعل على يديكم إعلاء كلمة الله ورفعته دينه ، إنه سميع مجيب .

## كلمة رمضان لفضيلة الاستاذ الامام

جری حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغی على عادة عظيمة الوقع في النفوس ، بعيدة الأثر في العقول ، وهي أن يفتتح شهر الصيام ، بكلمة من كلماته القيمة في الأهرام . وقد جرينا نحن على نقلها عنها ، فإلى القراء كلمة هذا العام الموجزة ، علاجاً مركزاً لأدواء القلوب ، ينفع الله به المؤمنين ، ويظهر به أثر الدين على عباده الصالحين :

في هذا الوقت الذي تتلاطم فيه أمواج الشرور ، وتستمر فيه نار الحقد ، وتخفى فيه طائفة الانسانية ، وتتحرك غرائز السباع الضارية ، لا منجاة للناس إلا بالرجوع الى الله سبحانه والاستعانة به .

الله سبحانه هو القادر على أن يسلط عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، وهو القادر على أن يبسط رحمته وينزل رضاه ؛ وقد حل اليوم شهر من شهوره المباركة ، وجاءت أيام من الأيام التي يتجلى فيها على عباده بالرضا إذا أطاعوه ، فلندخل في أيام هذا الشهر متجردين من المعاصي ، مطهرين أنفسنا من دنس الشرك ، ومن دنس الغل والحسد والحقد ، ومن رذيلة التواكل والترفق والإهمال ، متحليين بالأخلاق الفاضلة السكرية ، من الصبر والرضا ، والجد والعمل ، والتفكير في ذات الله وآثاره ، والتفكير في حقوق الدين وحقوق الوطن ، وفي مستقبل الاسلام والمسلمين ، متحليين بالوحدة والتناصر ، طارحين وراءنا ذلك الماضي الثقيل المملوء بالحوادث المفجعة المحزنة ، ناظرين الى مستقبل سعيد لائق بنا ، مهتمدين بهدى الله ، مستصحبين بنور الله .

جماع ذلك كله تقوى الله ، وقد أشار اليها سبحانه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . ومن التقوى طرح الانانية ، والتوجه الى خير الجماعة ، والعمل وقت العمل في سبيل إسماعاد الدين وإسماعاد الوطن .

« اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . فقد فتح بهذا باب الرحمة ، وفتح باب الأمل ، والذي يحيي الأرض بعد موتها ، يحيي الأمم بعد موتها ، ويسعدها بعد شقاءها ، ويعزها بعد ذلها ، وينصرها إن نصرته ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وإني أقدم الى جميع إخواننا المسلمين في سائر البلاد والأقطار ، مهنتاً بحلول شهر رمضان المبارك ، سائلاً مولانا عز وجل ، وهو القدير العزيز ، أن يأخذ بيدنا جميعاً الى سواء السبيل ، وأن يغفر لنا ما اكتسبنا من سوء ، ويعمنا برحمته ، إنه سميع الدعاء ؟



## أقامة الصلاة الجامعة لأجل السلام

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم  
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى يؤم المصلين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فأوفد حضرة صاحب المعالي أحمد حسنين باشا رئيس ديوان جلالتة ، الى حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، بالرسالة الملكية الكريمة التالية :

« فاروق الأول ملك مصر بعون الله .

« بما فطر عليه من حب السلام والوئام بين الأمم ، يدعو المسلمين في مصر والسودان ، وإخوانه المسلمين في سائر الأمصار ، الى صلاة جامعة تقام ليلة النصف من شهر شعبان الحاضر المبارك ، بين صلاة المغرب والعشاء ، تتلوها توجهات الى الله سبحانه وتعالى ، ودعوات بأن يرسل رحمته على العالم ، ويعيد اليه قريبا عهد سلام ووفاق ، يداوى جراح الانسانية ، ويعلى قدر المدنية ؛ وأن يبقى بلاد المسلمين من كل شر ، ويعلى قدر الاسلام والمسلمين » .

\*\*\*

وقد أذيعت هذه الرسالة بالراديو لإبلاغها للعالم الاسلامى بالموجة القصيرة وبالموجة المتوسطة .

\*\*\*

### تصريح لفضيلة الأستاذ الامام عن هذه الصلاة

وقد أفضى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام لمندوب جريدة المقطم عقب صدور هذا الامر الكريم بما يلى :

« إن النداء الملكى السامى الكريم ، يدل على عاطفة كريمة نحو العالم جميعه ، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلى حب السلام بين الأمم ، وعلى كراهة شديدة لما يجرى فى العالم الآن من التخريب والتدمير والتقتيل .

« واتجاه جلالته الملك المعظم الى المسلمين جميعهم فى بقاع الارض ، والعبارة الكريمة التى اختارها ، من نداء المسلمين بوصف الإخاء الاسلامى ، يبينان بأجلى بيان مقدار عناية جلالتة بالمسلمين جميعهم ، وحبهم جميعهم حب الأخ لأخيه ، اتباطا لقول الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة »

« والرجاء عظيم في أن يقدر العالم جميعه هذه العاطفة الكريمة حق قدرها ، وتستيقظ في الأم عاطفة الإخاء الانسانية حتى تنتهى الأحوال المكدره ، ويحل الصفاء والسلام في العالم » انتهى .

وقد أدى حضرة صاحب الجلالة الصلاة الجامعة بعد المغرب من ليلة النصف من شعبان في مسجد الفتح ، وقد أم المصلين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام . وبعد صلاة الركعتين التى نص عليهما فقهاء الحنفية والمالكية ، دعا فضيلته الدعاء الذى سياتى بعد .

وقد تولى فضيلة مدير المساجد إذاعة لاسلكية تضمنت كيفية أداء هذه الصلاة والدعاء المأثور فيها ، وفاقا لما تضمنته الرغبة الملكية السامية .

وهذا نص الدعاء البليغ الجامع الذى فاه به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام عقب الصلاة :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم ، رب العرش العظيم ، نحمده وهو الحقيق بالثناء ، ونضرع اليه وهو المقصود بالدعاء ، ونصلى على خاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأخيار .  
« إلهى أنت أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأتمل فيما لديه الراغبون ، نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا همماً إلا فرجته ، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها ، يا أرحم الراحمين .

« إلهى أسرف الناس فى العصيان ، وتمادوا فى الطغيان ، فإن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، لكننا نلجأ الى عزتك ، ونستجير برحمتك ، ونطلب عفوك ، ونستمنح رضاك .

« إلهى نسألك أن ترفع عن العالم غضبك ، وأن ترسل عليه رحمتك ، وأن تعيد اليه عهد سلام يداوى جراحه ، ويكشف بلواه ، وأن توقف فيه بنفحة من النفحات الإلهية عاطفة الإنسانية ، وتزيل عنه أحقادها التى أكلت القلوب ، وغطت على العقول ، وأظلمات النفوس الى الدماء ، وحبيت اليها الخراب والدمار .

« إلهى أسألك أن تصون بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه ، وأن تعيد الى الاسلام عزه ومجده ، وأن ترد الناس الى الحق والعدل ، وتأخذ بيدهم الى الصراط المستقيم .

« إلهى أسألك أن تقى مصرنا العزيزة من الضر ، وأن تحفظ لنا مليكنا المحبوب فاروقا الأول ، وأن ترعاه برعايتك التى لا يخذل من شملته ، ولا يضام من أظلمته ، أنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# السيرة المحمدية

## محتضن العلم والفلسفة

وقعة أحد — درس عملي في وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم ببدر شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشرفهم ، ووسموا بعار لا يحجوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكائدهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القائمون على تمثيل الدين الذي يقصدونه ، وحماية البيت الذي يحجونه . وكان أشد ما يحفزهم للتفكير في حل جماعة المسلمين ، والاستبسال في مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم في طريق تجارتهم الى الشام ، يوصدون في وجوههم بابا من الرزق ، لو ظل موصدا أصبح مقامهم في مكة من المحال ، واضطروا الى أن يعيشوا معيشة البدو الرحل ، ييممون منابت السكلاء حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يعيشون على ما يقتنونه من الأنعام ، وهي حياة لم يألفوها ، بله أنها تضطرم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيسرع اليه المسلمون ، ويكون في ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذي جعلهم يلمسون هذا المصير الحتم ، أنهم لما أدرکوا استحالة وصولهم الى الشام من طريق يثرب ، عولوا على اتخاذ طريق آخر إليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق يحميها فريق من أشداء قريش ، معهم سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب ابن عبد العزى ، وهم من صناديد قريش ، فبلغ خبرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القردة بنجد ، فقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حمتاها قاتنين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإيادتهم ؛ فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلندعهم قليلا لنرى ماذا حدث في جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

الأعمال الإسلامية بعد وقعة بدر :

( غزوة بنى قينقاع ) — لما حل النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، كان بجوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم

لما آتسوا انتصار المسلمين ببدر، أمضهم هذا الامر وأخذوا في معاكسة المسلمين، فاعتدوا على سيدة من نساء الأنصار. فدعا النبي رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي. فقالوا له: « يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس ». فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى: « ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فتنتين التقتا ( يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر )، فتنةٌ تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأى العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ». فلم يرفعوا بهذا القول رأساً ومضوا في بغيهم. فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم، فأدركهم الرعب، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم. فقبل رسول الله طلبهم، وجلّوا قاصدين الشام.

(غزوة السويق) — لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه في معركة بدر، هاج هاجبه وأقسم أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو غداً، وسوّلت له حمية الجاهلية أن يخرج في مائتين من رجاله، وقصد أن يقابل رئيس بني النضير من اليهود ليستنصر بقومه، فلم يسمح بمقابلته، فأرسل بعض رجاله خرقوا نخلاً بجوار المدينة، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه. فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم في مائتين من المسلمين، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب، فهرب هو ورجاله، وأخذوا يخفّفون أثقالهم بالقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير، ويسمونهم السويق. فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق.

(زواج علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء) — في هذه السنة وهى الثانية، تزوج علي، وصره إحدى وعشرون سنة، بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنها خمس عشرة سنة. وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين.

(غزوة بنى غطفان) — دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة، وفي ربيع الأول منها أجمع بنو ثعلبة ومحارب من غطفان على الإغارة على المدينة، فخرج إليهم رسول الله في أربع مائة وخمسين رجلاً. فلقيه رجل منهم يقال له دعثور، فلما وعى منه الاسلام، عاد الى قومه وحضهم على الدخول فيه، فأسلموا جميعاً.

(غزوة بحران) — نعى الى النبي صلى الله عليه وسلم أن جمعا من بنى سليم يريدون الإغارة على المدينة، فخرج إليهم في ثلاثمائة من أصحابه، فهرب المغيرون.

(سد طريق العراق على تجارة قريش) — لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم، حاولوا الاتصال بالشام من طريق العراق تحت قيادة أبي سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حماتها.

( غزوة أحد ) — عود على بدء — درس صلى في وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آانس القرشيون أن طرق التجارة استدت في وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستئانة في التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق في الأرض لطلب الرزق ، فأثروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبي سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم (١) ، وأبو عامر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته . وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامه ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم ، استشار أصحابه في البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو في الخروج إليهم ؛ فرأى أكثرهم أن الخروج إليهم أمثل ؛ فسار سحرا على رأس ألف رجل حتى إذا بلغ ( الشوط ) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، نكص عبد الله بن أبي شيخ المنافقين على عقبيه ، ونكص معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبي عهد بالاسلام تخاذل هذه الجماعة ، تولاهما الخور ، وكادتا أن تنجوا نحوهما ، فعصمهما الله من ذلك . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « إذ هممت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليستوكل المؤمنون » .

وتحدث بعض المسلمين في وجوب قتال المنخذين ، فأزل الله في ذلك قوله تعالى : « فالكم في المنافقين فتنتين ( أى ما لكم افترقتم في أمرهم الى رأيين ) ، والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهتدوا من أضل الله ، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا » فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشعب من أحد ، وهو جبل في الشمال الشرق من المدينة ، جاعلين ظهورهم الى الجبل ووجوههم الى المدينة ، ونزل المشركون ببطن الوادى ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد ( وكان لم يسلم بعد ) ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان ابن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حملت خيالة المشركين ثلاث مرات وفي كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من النبال ، ثم التقت المشاة وحى الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الاناشيد يحمسن الرجال ، فلم تجدهم حماستهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وماهى لإساءة حتى شعر المشركون بالخور وولوا الأدبار ، ونساؤهم يبيكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

فلما رأى الرماة الذين وضعهم النبي صلى الله عليه وسلم لحماية ظهور المسلمين ما آلت اليه

(١) الاحابيش : قوم من قريش وكنانة وخزيمه وخزاعة اجتمعوا في الحبشى ( بضم فسكون فكسر ) وهو جبل باسفل مسكة ، ومحالفوا على التناصر والتعاون .

الحال من النصر ، مالوا الى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن في ذلك مخالفة لأمر الرسول ؛ فعصوه ونزل أكثرهم ، وبقي هو وقليل من المنتهين . فلما آانس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع الى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك اختل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ؛ وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، فتسرب الفشل عند ذلك الى قلوب المؤمنين ، وانقسموا الى طائفتين .

قالت أولاهما : إذا كان محمدا قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع الى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمدا قد قتل فلا خير بعده فلنقاتل في سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طاححة الأنصاري ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فنثر كنانته وهو يقول : وجهي لوجهك فداء ! وكان كلما مر برسول الله رجل قال له انثر كنانتك لأبي طلحة . وعاونوه سعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبي أبو دجانة سمالك بن خرشة جاعلا نفسه متراسا له وهو منحن عليه ، فكان نبل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقصد رسول الله أبي بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبي في واحدة منها فأغشى عليه ، وخدشت ركبته ، فأخذ على بيده ، ورفع له طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته ( وهي السن التي بين الثانية والثالثة ) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبي بلتعة فقتله ؛ وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشج وجهه ؛ وجرحته وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر فيهما من ضربة وجهها اليه ابن قنشة من الجاهليين . وجاء أبو عبيدة فعالجهما ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثنيتاه . وسار النبي وبين يديه بعض أصحابه يريد الشعب ، فلما انتهى اليه أقبلت اليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل وجهه وتضمده .

قتل في هذه الواقعة من المسلمين نيف وسبعون ، منهم عم النبي حمزة . وكان أكثرهم جراحة المناخون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده . ومثّل المشركون بقتلى المسلمين ، حتى إن هنداً زوج أبي سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شيء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسنانها .

ثم إن أبا سفيان قائد جيش المشركين صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون في قتلكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى . ثم قفل المشركون راجعين الى مكة .

ما يجب أن يستخرج من العبر من هذه الواقعة :

إن هذه الواقعة في عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت الى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل

فيها لا يجدها تشبه الهزائم الحربية في شيء . فإن المعهود في الهزائم أنها تقتضى أن يولى المهزوم الأدبار ، وأن يتعقبه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضا آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائيا ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تبع العدو المنتصر المنهزمين الى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلا أم مدينة ، واستولى عليه وأقام فيه حامية لينعم عودهم الى معاكسته .

ولكن الذى آتسناه عقب هذه الواقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبي وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يجعله شيء عن إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يلاحظ أن قائد المشركين صعد الجبل وخطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا فى مباراة رياضية ، لا فى وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط فى تاريخ الحروب وخاصة القديمة منها ، إذ كانت الى التفانى الحيوانى أقرب منها الى التنازع الانسانى .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلوا من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم مائتا خيال تحت إمرة أمير قادة الحرب فى الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان فى وسعه على الأقل أن يحيط النبي صلى الله عليه وسلم بخيالاته فيمنعه الرجوع الى المدينة . وقد ثبت أن النبي لم يعد من ساحة القتال فى أكثر من بضعة عشر رجلا وأربع عشرة امرأة ! فأى عون من الله لنبيه أظهر من هذا فى مثل هذه المحنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بعدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأ فاحشا فى ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أى شيء فعلتم ، لا عهدا قتلتهم ، ولا الكواعب أردفتهم ، بئس ما صنعتهم ! ارجعوا .

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، ففرج اليهم فى عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استبسالهم فى الحرب ، خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذى صدر إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الله ذلك فى كتابه فقال : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسبونهام بذنه ( أى تقتلونهم ) ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ( جواب الشرط محذوف هنا تقديره : فاقبكم بالهزيمة ) ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

# السنة

## الرقية وأخذ الاجر على قراءة القرآن

عن أبي سعيد « أن رهطاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا في سفرة سافروها حتى نزلوا بحى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسموا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم شيء ! فأتوهم ، فقالوا : يأيتها الرهط إن سيدنا لدغ فسمعنا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فهل عند أحد منكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعم والله إنى لراق ، ولكن الله لقد استصفناكم فلم تضيففونا ، فإنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً ! فصالحوهم على قطع من الغنم . فانطلق فجعل يتفعل ويقرأ الحمد لله رب العالمين حتى لكأنما نشيط من عقال ، فانطلق يمشى ما به قسبة . قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسمو ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذى كان فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ، فقال : وما يُدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسمو واضربوا لى معكم بهم . » رواه البخارى فى كتاب الطب .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) شرحه إجمالاً . ( ٢ ) هل تجوز الرقية بالقرآن وغيره ؟ ( ٣ ) هل يجوز أخذ الأجرة على قراءة القرآن والرقية به ؟ ( ٤ ) وإذا كانت تجوز فهل لها ذلك الأثر الذى يعتقدونه الناس .

( ١ ) لعل معنى هذا الحديث ظاهر لا خفاء فيه إلا فى بعض ألفاظه ، وإليك بيانها :

« يضيفوهم » معناه : يتزولونهم ضيوفا عليهم . يقال : ضيف الرجل بالتشديد تضيفاً : أنزله به ضيفاً . « والرهط » : أقله ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة ، وقد يطلق الرهط على أكثر من ذلك ، وهو هنا ثلاثون كما صرح بذلك فى بعض الروايات ، حتى صرح أيضاً بأن عدد الجعل الذى أخذوه ثلاثون شاة شخص كل واحد منهم شاة . « والقطع » : هو الشيء المقتطع سواء كان من غنم أو غيرها ، والمراد به هنا الغنم كما ذكرنا . « لجعل يتفعل » ويقرأ الحمد لله رب العالمين : ينبغى أن يكون التفعل بعد القراءة لا فى أثناءها . وقد قيل : إن حكمة ذلك أن بركة القراءة تحصل فى الجوارح التى يمر عليها الرق فتحصل البركة فى الرق



أيضا ، فإذا أصاب محل الألم كان له أثره في البرء . « ونشط من عقال » : المشهور في اللغة أن نشط بالفتح وكسر والشين معناه عقد ، وأنشط معناه حل . فللمناسب هنا أن يقال أنشط لأن معناه حل من عقال ، أى حبل . ولكن الرواية نشط بضم النون وكسر الشين معناه حل من عقال ، وهذا لغة فيه . « وقلبة » بتحريك حروفه كلها معناه : علة ، وسميت العلة قلبة لأن الذي يصاب بها يقلب من جنب الى جنب لمعرفة محل العلة وموطن الداء . « وما يدريك أنها رقية » : الغرض من هذا اللفظ تعظيم ذلك الأثر الذي ترتب على قراءة الفاتحة ، لأن « ما أدراك » كلمة تقال عند التعجب من الشيء ، وتستعمل في تعظيم ذلك الشيء أيضا ، وهو المناسب هنا كما بينا .

« والرقية » بضم الراء وسكون القاف : تجمع على رقى بضم الراء ، يقال رقى يرقى رقية ، ورقيت فلانا أرقيه بمعنى عودته من شر ما يؤذيه .

( ٢ ) اختلف العلماء في جواز الرقية بالمعنى الذي ذكرناه ، فمنهم من قال إنها لا تجوز لأن الدين الاسلامي مبني على قواعد كونية ، وأسباب معقولة مرتبطة بمسبباتها الطبيعية ، فلا يجوز للناس أن يتحولوا عن هذه الأسباب الى الرقية والتعاويذ والتائم ونحو ذلك ، ويدروا ما خلق لهم ربهم من العقاقير الطبية ، والأدوية النافعة لكل داء من الأدواء . وهذا الفريق الذي ينكر جواز استعمال الرقية ونحوها يقول : إنه قد ورد في السنة ما يؤيد رأيه هذا ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن ولا تغلوا فيه ، ولا تجفؤوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به » . رواه أحمد . ومعنى « لا تغلوا فيه » : لا تزيدوا فيه ما ليس منه ، سواء كان في تلاوته أو في غيرها . ومعنى « ولا تجفؤوا عنه » لا تتحولوا عن المبالغة في احترامه . فهذا الحديث صريح في النهي عن الأكل بالقرآن سواء كان على سبيل الرقية أو غيرها . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن واسألوا الله به ، فإن من بعدكم قوما يقرءون القرآن يسألون به الناس » . رواه أحمد والترمذي . ومن ذلك ما رواه ابن ماجه عن أبي بن كعب ، قال : « علمت رجلا القرآن فأهدى لى قوسا ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخذتها أخذت قوسا من نار » . ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبادة ابن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن أبي العاص « لا تتخذ مؤذنا يأخذ على أذانه أجرا » . فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن كتاب الله تعالى قد أنزل على الناس للهداية وسلوك السبل القويمة التي توصل الى صلاح المجتمع الانساني ، والقضاء على كل ما يخالف العقل والسنن الطبيعية . فيجب على المسلمين أن يستمسكوا به ، وأن يفقهوا معانيه على وجهها الصحيح ، وأن يتدبروه كما أمرهم الله به فلا يتخذوه سلعة لا تجديهم نفعا ويتركوا قواعد الخلقية والعمرانية ، والاجتماعية التي اشتمل عليها ، فإن ذلك خسران لا شك فيه .

هذا هو رأى القائلين بعدم جواز الرقية .

( ٣ ) أما أخذ الأجرة على قراءة القرآن ، فقد عرفت من الأحاديث التى أسلفناها حجة القائلين بالمنع .

أما الفريق الآخر الذى يقول بالجواز ، فانه يقف بإزاء ذلك الكلام موقف المستمسك بالأحاديث الصحيحة التى وردت فى هذا المقام ، فيقول للفريق الأول : وماذا تصنعون بحديث البخارى الذى معنا وأمثاله من الأحاديث الصحيحة التى لا توازيها الأحاديث التى عولتم عليها فى الصحة والمثانة ؟ وقد أجاب بعضهم عن ذلك بأن حديث البخارى وأمثاله من الأحاديث التى تدل على جواز أخذ الأجرة على القرآن ، وعلى جواز الرقية بالقرآن ، منسوخة بهذه الأحاديث . ولكن هذا الجواب غير سديد ، لانه لا دليل على النسخ مطلقا . على أن الأحاديث الدالة على عدم جواز أخذ الأجرة على قراءة القرآن يمكن تأويلها : فقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول « لا تأكلوا بالقرآن » ، معناه : لا تطلبوا ولا تسألوا به الناس ، أما إذا أعطيتم من غير مسألة فذلك جائز لا مانع منه . والحديث الثانى صريح فى أن المنهى عنه إنما هو سؤال الناس بالقرآن . وحديث أبى الذى رواه ابن ماجه وإن كان صريحا فى النهى عن أخذ القوس فى نظير تعليم القرآن أجرة ، ولكن يمكن حمله على خصوص هذه الحادثة .

هذا ما يقوله المحدثون وشرح الأحاديث . ويحمل بنا أن نذكر أيضا آراء الفقهاء فى هذا المقام ، ثم نبين ما عساه أن يكون الصواب :

فأما الفقهاء ، فان الحنفية يقولون : إن الإجارة على الطاعات غير صحيحة . وهذا هو أصل مذهبهم ، لأن كل طاعة عندهم يختص بها المسلم لا يصح الاستئجار عليها ، وكل قربة تقع من العامل إنما تقع عنه لا عن غيره ، فلو لم يكن أهلا لأدائها فلا يصح أن يأخذ عليها أجرا من غيره . ويستدلون على هذا الأصل بالأحاديث التى ذكرناها . أما حديث أخذ الأجرة على الرقية الذى معنا هنا وأمثاله فانه ورد فى حالة خاصة وهى إكرام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليست المسألة قاعدة عامة يمكن اتخاذها حجة ، وإلا كانت قراءة الفاتحة على من لدغ دواء عاما ، والواقع غير ذلك ، فان سورة الفاتحة قد اشتملت على عقائد وحكم ودواء بالهداية الى الصراط المستقيم وغير ذلك من العلوم والمعارف التى لا يمكن استقصاؤها ولم تكن يوما من الايام دواء لمن يلدغ . وعلى فرض أنها دواء لذلك فالشرط فى إفاقتها أن يكون الراقى بها له حالة خاصة تقربه من الله عز وجل كهؤلاء الاصحاب الذين أخلصوا لله ورسوله ؛ فهى بمنزلة دواء يستجيبه الله منهم . وهذا هو رأى المتقدمين من الحنفية . أما المتأخرون منهم فقد أجازوا أخذ الأجرة على بعض الطاعات للضرورة كتعليم القرآن ، وتعليم العلم ، والأذان والإمامة ، والوعظ . هذا هو رأى الحنفية .

أما المالكية فانهم يقولون إن قراءة القرآن والأذكار والتهاليل ونحوها مختلف في أخذ الأجرة عليها ، والمنقول عن الامام مالك رضى الله عنه ، أن هذه الأشياء لا يصح أخذ الأجرة عليها . فالرقية بالقرآن ونحوه مختلف فيها عندهم .

أما الحنابلة فانهم يقولون : إنه يجوز أخذ الأجرة على الطاعات وتعليم القرآن ونحوه لا بعنوان كونها أجرة ، بل بعنوان كونها صلة ينتفع بها في نظير حبسه على أدائها . ووافقهم الشافعية في بعض الأمور ، فقالوا تصح الأجرة على الإمامة في مقابل إيتاب نفسه بالحضور الى موضع معين ، لا على أداء الصلاة نفسها . ومثل الإمامة في ذلك الخطبة . وأجازوا اخذ الأجرة على قراءة القرآن وعلى الأذان والإقامة ونحوهما .

هذا هو ملخص آراء المذاهب في هذا الموضوع .

(٤) والذي ينبغي أن يعلم ها هنا أن العلماء اتفقوا على جواز الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط : الشرط الاول : أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته . الشرط الثاني : أن تكون باللسان العربي . الشرط الثالث وهو أهمها : أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، وأن المريض قد يشفى بإذن الله تعالى لا بهذه الرقية . ويدل على هذا ما رواه البخاري نفسه في هذا الباب من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرقى نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات .

هذه الشروط ذكرها شراح الحديث كالحافظ ابن حجر وغيره . وقد نقل عن ابن التين « أن الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى إذا كان على لسان الأبرار من خلق الله مفيد قد يستجيبه الله تعالى ، ولكن قد عز هذا النوع فلم يوجد من المقرين من يستجاب له على هذا النحو . ومن الأسف أن الناس قد فزعوا الى تلك الرقى المنهى عنها . ومن يفعل ذلك بغير اللسان العربي المفهوم كان متهما بالشرك » .

هذا ما ذكره الفقهاء والمحدثون في مسألة الرقية ونحوها . ولكن الناس في زماننا هذا قد غفلوا عن معاني الأحاديث الصحيحة ، وتركوا آراء علماء المذاهب ، واندفعوا خلف المضللين الذين يتشبثون بظاهر الأحاديث فيصرفون الناس عن التمسك بالوسائل المشروعة طمعا في أموالهم ، فكثرت لذلك الدجالون ، وساعدتهم على تضليل الجبهة سوء فهم بعض الفقهاء لمعاني الأحاديث والفقه . وياليتهم فهموا منها ما قد يتبادر الى أذهان الصالحين من أن تلاوة القرآن ونحوه من الدعوات الصالحة يجب أن تكون خالصة لوجه الكريم ، لا أنها سلعة من السلع التي تبتز بها أموال الناس بالباطل . وحسبنا الله ونعم الوكيل ما

عبد الرحمن الجزيري

## رمضان

كان الكتاب حين يكتبون عن رمضان يدرون أحاديثهم في الكثير الغالب حول ناحية الدينية ، فيحدثون عنه لماذا فرض ، ومتى فرض ، وهل كتب صيامه على المسلمين خاصة ، أو كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم ؛ وهل كان افتراضه مجرد الامساك عن الطعام والشراب ونحوهما ، أو أن هناك غايات سامية وراء ذلك ، كتطهير النفس وتهذيب الروح وعلاج البدن مما عساه يلم بالنفس والروح والبدن من أوزار وأقدار ، وأمراض وأضرار .

كانوا يدرون أحاديثهم حول هذه الناحية ، ثم يفيضون فيها ، ويفعلون ناحية من نواحي الحديث في رمضان كانت جديرة بأن تتناولها أقلامهم ، ليس لما فيها من طرافة خصب ، بل لما فيها من مغزى سام ، وتقدير لطيف لشهر رمضان ومكانته في نفوس المسلمين : تلك هي ناحية العادات الاجتماعية التي أحدثها رمضان بين العادات الحسنة للمسلمين . ويؤسفني أن أقول « المسلمين السابقين » لأنهم أصحاب الفضل في غرسها ، والعناية بها ، والمحافظة عليها ؛ أما مسلمو اليوم فهيات من كلف نفسه إحداث عادة حسنة ، بل هيات من كلف نفسه الإبقاء على عادة من تلك العادات التي عنى بها أسلافه تقديرا لهذا الشهر وإكراما له !

ولعل من أحسن العادات الحسنة أو أحسنها ، عادة العناية بالفقراء والترفيه عنهم ، والاحتفال بهم في هذا الشهر ، فكنت ترى قصور الأغنياء ، بل بيوت المتوسطين تغص بالفقراء رمضان كله ، يشركونهم في فضل الله عليهم ، طيبة بذلك نفوس الأغنياء ، مبتهجة قلوبهم ، يفطر الفقراء من فطورهم ، ويتسجرون من سجورهم ، لا يستأثر الأغنياء دونهم بطيب ، ولا يتمتعون بشهى . ولقد بلغ من عناية المسلمين الأولين بتلك العادة والاهتمام بشأنها في ذريتهم وأهلهم ، أن وقفوا ضياعهم ودورهم على الاتفاق على الفقراء في شهر رمضان ، وقلما تجد بين الواقفين المسلمين من فاته هذا الغرض .

لهذا كنت لا تجد بين الفقراء والأغنياء ما تجده اليوم من غل وحقد وحسد وبغضاء ، ينظر كل منهم الى الآخر نظره الى العدو ، ينتظر عليه الفرص ، ويتربص به الدوائر ، بل كنت تجد بينهم النواد والتراحم ، والتعاطف والتواصل ، بمعنى الفقير للغنى المزد من فضل الله ، ويتمنى الغنى للفقير اللطف والعون من الله .

ولقد كان من العادات الحسنة أيضا إحياء ليالي رمضان بتلاوة القرآن ، تلك العادة التي كانت شائعة في سائر الأسر تقريبا ، حتى لقد كان من العار أن يخلو قصر أو دار من فقيه لهذا الغرض ، وكانت الأسر تتنافس في اختيار الفقهاء ممن حسن صوته وذاع صيته ، ولا زلنا نذكر مما كان

يقال ، أن فلانا الفقيه أحيا رمضان في أسرة فلان بكذا جنيتها ، وخلعة من جيد « الجوخ والشاهي » ، وأن فلانا الفقيه اختص بأسرة فلان ، وما الى ذلك من حديث الفقهاء . وليس من التكرار أن أقول : إن من أوقاف الأغنياء أوقافا خاصة بالفقهاء في شهر رمضان .

هذا وإن من العادات الاجتماعية ذات الأثر البعيد بين المسلمين ، عادة التزاور في شهر رمضان ، فكنت تجد الدور تعمر بزوارها ، تخالطهم البشاشة ، ويعلمهم البشر ، ويسودهم الصفاء ، يتذاكرون فيما بينهم شئون دينهم ، ولا ينسون شئون دنياهم ، يحاولون تفسير آية . مما يسمعون ، ويتساءلون عن حكم فقهي لما يعرض في رمضان من حوادث ، كحوادث الإفطار والإمساك ، والصلاة ، وزكاة الفطر ، ونحو ذلك . وما أكثر ما يعرض في رمضان من حوادث . ويتشاورون في حل مشكلة من المشكلات التي تعترض أفرادهم ، يتحققون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ؛ يحرمون ما حرم الله من ورق وزرد ونحوها مما ابتدع واتبع ؛ يظلمون كذلك رمضان كله ، حتى إذا أقبل العيد جددوا زياراتهم مسلمين مهنئين .

هذه بعض عادات السلف الصالح ، فأين أنتم يا شباب الجيل ؟ ! يا من تقى العصر ! يا حاملي لواء المدنية ! أين أنتم من تلك العادات ، وأين ما ابتدعتم منها ؟ ! والله إن الحديث عنكم لمشج وغز ، وإن المقارنة بينكم يا مثقفون وبين أسلافكم - الجهلاء كما تزعمون - لتنجلي بالحكم عليكم بما لا يسركم ولا يرضيكم .

يا شباب الجيل ! نبثوني كيف استقبلكم لرمضان ، وكيف معاملتكم للفقراء ، وما هي عنايتكم بالقرآن ، وكيف تقضون ليلاليه وأيامه ؟ أستمحون بالجواب ؟ ألا فاسمعوا قول الله تعالى : « نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يُلْقَوْنَ غِيَا ، إلا من تاب وعمل صالحا فأولئك يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » .

يا شباب الجيل « لطالما أوضعتم في الفتنة ، واضطجعتم في مرقد الضلال » ! فهل فيما يجري في العالم من خطوب وأهوال نذير لكم ، فتقلعوا عما أنتم فيه ، وتحاسبوا أنفسكم ، وتندبروا أعمالكم ، وتشتغلوا بالجد من أموركم ، وتحاولوا أن تعيدوا سير أسلافكم في برهم وتقواهم ، وتوازنوا بين أعمالكم وأعمالهم ، لتعلموا أيكم خير لنفسه وأمرته ووطنه ؟ !

إن في رمضان لفرصة للتوبة والإنابة ، وإنه خير الأوقات لاستجابة الدعاء واستئزال الرحمة ، فطهروا أنفسكم فيه بالأعمال الصالحة ، ثم ادعوه مخلصين أن يصلح أحوالكم ويحجبكم وأمتكم غضب الله وسخطه ، ويباعد بينكم وبين ما ينزل بغيركم من دمار وبوار ، ويحفظ على أمتكم أمنها وسلامتها ، ويرد عنها كيد الكائدين ، وطمع الظالمين ما

أبو الوفا المرافعي

# مَجْمُوعَةُ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ

## تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

- ٧ -

فى مذهب الإمام الليث :

لم يَرَمِ الإمام الليث فيما حاجَّ به مالكا رضى الله عنهما الى إهدار عمل أهل المدينة ، وإنما رعى الى عدم إهدار آراء الأصحاب الذين ضربوا فى أنحاء المملكة الإسلامية طولا وعرضا ، وانبثوا فى معسكرات المسلمين ودواوينهم فى سائر البلاد المفتوحة والمختطة ، ولا بسوا الأحوال والظروف التى أحاطت بهم ملابسة قريبة ، ولم يقطعوا الصلة بالخلفاء وكبار الصحابة ، بل وتفقوها بالمشاورات والمراسلات والرحل ، وهم بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، مثل تحتذى ، بما لهم من علم وفضل ، وإخلاص لله ، وغيره على شريعته .

ولم يكن مالك رضى الله عنه بالذى يغيب عنه ذلك ، أو يمارى فيه ، ولكنه أراد توحيد الناس على عمل أهل المدينة الذين استقر قرار الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، فذلك أجدى على المسلمين من تشعب الخلاف ، وتوسيع الجدل ، وتكثير صور الفقه بلا مبرر .

فمالك رضى الله عنه يرى بهذا الدافع الشريف أن المصلحة العامة للمسلمين تتحقق فى العمل بما عمل به أهل المدينة ، لأن فى ذلك جمعا للناس على عمل إن لم يكن هو عمل الرسول فى جملته وتفصيله ، فهو عمل قد أقره وسكت عليه ، أو هو على أدنى فرض أقرب العمل من عمل الرسول .

والليث رضى الله عنه يسلم لمالك فضل أهل المدينة وسبقهم ، ويقره ويشكر له هذا الدافع الشريف ، ولكنه يرى ألا يقيّد المسلمون فى جميع بقاع الأرض بعمل أهل بلد واحد فى كل أحوالهم ، وكأنه يرى أن إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لعمل من الأعمال لا يتضمن حكما بأن هذا العمل وحده هو الصحيح المقبول فى نظر الشرع ، فقد يكون غيره أيضا صحيحا مقبولا ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لو اطلع عليه لأقره أيضا ، فعمل أهل المدينة ، حتى بعد التسليم بأقراره من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يهدر عمل سواهم ، ولا ينبغى أن يكون ملزما للمسلمين .

وقد ورد فى رسالة الليث الى صاحبه أمثلة فقهية كثيرة يؤيد بها ما ذهب اليه ، فى حوار هادئ ، وجدال مهذب :

١ — مَثَل له بمسألة الجمع ليلة المطر ، فقد أنكر الليث أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، فعاب عليه مالك هذا الإنكار ، فاحتج الليث بأن مطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، ومع ذلك لم يجمع إمام في الشام قط ليلة مطر ، وفهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ ابن جبل الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » ، وقال فيه : « يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برتوة (١) » ولم يجمع عمر بن عبد العزيز بالشام بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بمخاضرة ساكننا .

هكذا مثل الليث لصاحبه ، وأحب أن يقف القارئ معي أمام هذا المثال متديرا : إن الليث يثبت أن أهل الشام وفيهم من فهم لم يجمعوا قط في ليلة مطر ، ولا ينكر ، ولا يسهه أن ينكر ، أن أهل المدينة يجمعون ، فهو إذاً يقرر أن الجمع وعدم الجمع كلاهما يستند الى عمل من الصحابة ، فما الذي دناه الى أن ينكر أن يجمع أحد بين الصلاتين ليلة المطر ؟ أو لا يقوم العذر لمالك إذا عاب عليه هذا الإنكار ؟ ولكن في المسألة باطنا غير هذا الظاهر هو الذي حمل الليث على الإنكار حين أنكر ، وعلى الإصرار حين روجع : ذلك أنه لمح العلة في إباحة الجمع ليلة المطر ، وهي التخفيف ، ثم نظر فوجد مطر المدينة قليلا بمعنى أنه ليس في كل الليالي مُلِحاً سكبوا ، فإذا سكب المطر ليلة وأسح كان ذلك بين أهل المدينة غريبا ، ووجدوا فيه مشقة لم يألّفوها ، ولم يُعَدّوا لها ، أما في الشام فالمطر أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، كما يقول الليث ، وقد ألف أهل الشام سَحَّه وتَسَكَّبه ، وأعدّوا له ما ينفي عنهم مشقته ويدفع غوائله ، فلذلك أبيع لأهل المدينة ما لم يبيع لأهل الشام ، لأن المطر يشق على أهل المدينة الذين لم يألّفوه ، بما لا يشق على أهل الشام . وهذا — فيما أرى — أحد المواضع التي تأثر الفقه فيها بالإقليم والمناخ ، أو بعبارة أدق ، أحد المواضع التي تفيد مراعاة الفقه لظروف الإقليم والمناخ .

٢ — ومن أمثلة الليث أيضا : مسألة القضاء بشاهد ويمين صاحب الحق ، كان يُقضى بذلك في المدينة ، ويقول الليث : إنه لم يقض بذلك أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام ، وبحمص ، وبمصر ، وبالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ؛ ولقد ولي عمر بن عبد العزيز ، وهو من هو في إحياء السنن ، والجد في إقامة الدين ، والإصابة في الرأي ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق ابن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق ؛ فكتب إليه عمر

(١) الرتوة : الخطوة وما أشرف من الأرض .



ابن عبد العزيز : إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا نقضى إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين .

وهذا المثال واضح ، والدليل فيه جيد ، وهو يؤيد الفكرة التي ذهبنا إليها في التعقيب على المثال الأول ، من مراعاة الفقه لاختلاف أحوال الناس والأقاليم ، فإذا اطمأن القاضي الى يمين رجل يعرف فيه التقوى والورع في زمان لم يكثر فيه الخداع ، وبلد لم يعهد فيه الفجور ، فليس له أن يلتزم ذلك في كل زمان ، وفي كل بلد ، وفي كل قضاء .

٣ — ومثل الليث لمالك أيضا بمسألة مؤخر الصداق : أهل المدينة يقضون بأن المرأة متى شئت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصر والشام لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، فهي إذاً من المسائل التي يرجع فيها الى عرف المتقاضين ، ولا ينبغي أن يصار فيها الى عرف بعينه فيلزم الناس جميعاً به .

ولم يقف الليث عند هذا الحد في محاورته لمالك ، بل انقلب في رسالته مهاجماً بعد أن كان مدافعاً ، فأخذ ينتقد على مالك بعض أقواله ، ويناقشه فيها ، فكان مما أورده عليه من ذلك :

( ١ ) أن مالكا يقول في الخليطين في المال : إنه لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ، مع أن عمر بن الخطاب كتب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان يعمل بذلك في ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم وغيره فيما حدثتُنَا — هكذا يقول الليث — والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ، ولم يكن بدون أفضل العلماء في زمنه . فهو في هذا يأخذ عليه أنه قال بشيء يخالف عمل أهل المدينة الذي سجله كتاب عمر بن الخطاب ، وقضاء عمر بن عبد العزيز وغيره .

( ٢ ) ثم يذكر له نقداً آخر يتصل برواية الحديث فيقول : « إنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدّثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغي لك — وإن كنت سمعته من رجل يرضى — أن تخالف الأمة أجمعين » .

تلك أمثلة من دفاع الليث عن مذهبه ونقده لمذهب مالك ، وكلها تدور حول ما تمسك به الليث من أن ما عليه أهل كل بلد له حجة وأصل ، وأنه لا مصلحة للناس في جمعهم على عمل أهل المدينة .



ونحب قبل أن نترك هذا الفصل أن نلخص للقراء مذهب مالك فى الاحتجاج بعمل أهل المدينة ومن خالفه فى ذلك : فعمل أهل المدينة أنواع ثلاثة :

(١) عمل أجمعوا عليه لم يخالفهم فيه غيرهم ، وهذا حجة عند الجميع بلا خلاف ، والليث من بينهم ، وفى كلامه تصريح بذلك حيث يقول فى رسالته : « ولا تجد أحدا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى » .

(٢) عمل يخالفهم فيه غيرهم .

(٣) عمل فيه الخلاف بين أهل المدينة أنفسهم .

فالأخيران هما محل النزاع ، وينبغى ألا يغيب عن البال أن العمل الذى هو حجة عند المالكية بلا خلاف هو العمل النقلى ، كأن ينقل أهل المدينة تعيين المنبر النبوى ، أو محل وقوفه أو نزوله ، أو نحو ذلك ، أما العمل الاجتهادى الذى هو عن رأى ونظر وتفقه فهو محل نزاع حتى بين المالكية ؟ « يتبع »

محمد محمد المصطفى

المدرس بكلية الشريعة

## الانس بالوحدة

للأدباء مجال مستملح فى الغلو ، وليس الغلو بمستملح إلا فى الأدب ، حتى قيل : إن أعذبه أكذبه . وقد افتن الشعراء فى مدح العزلة عن الناس ، ونحن نورد أحسن ما قالوه فى ذلك فى معرض الإطراف الشعرى فحسب : قال عبد المحسن الصورى :

أنست بوحدة حتى لو أنى رأيت الأنس لاستوحشت منه  
ولم تدع التجارب لى صديقا أميل إليه إلا ملت عنه

وقال ابن فارس اللغوى :

إذا ازدحت هموم القلب قلنا عسى يوما يكون له انفراج  
نديمى هـرتقى وأنيس نفسى دفاتر لى ومعشوق السراج

وقال غيره :

عفا الله عن هذا الزمان فانه زمان عقوق لا زمان حقوق  
وكل رفيق فيه غير موافق وكل صديق فيه غير صدوق

# دراسة في القرآن الكريم

## الاصول العامة والمبادئ الشاملة في كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

هذا هو البحث الذي قد استمداه كلامنا في الآية التي كنا بصدد الكتابة فيها بمناسبة بيان المحكم والمتشابه ، أو بعبارة أخرى : قطعى الدلالة وظنيها ، والذي وعدنا به القارئون في المقال السابق ؛ وقد كانت كتابة هذا البحث بمناسبة عرض بعض الكتّابين في بحوث له للقياس والرأى ، واليكم نصه :

ألقى بعض الباحثين محاضرات تحت عنوان « الامام الشافعى واضع علم أصول الفقه » ؛ وكان مما عرض له في تلك المحاضرات بيان معتمد التشريع الاسلامى ومستمدته ، فكان مما قاله في هذا : « كان التشريع الاسلامى في عهد الرسول يعتمد الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يعتمد رأى النبي ورأى أصحابه » . ورأينا بعد هذا كاتبا آخر في جريدة السياسة يناقش هذا الباحث في جملة القياس والرأى من مستمدات التشريع الاسلامى ، وجعل يفرق في ذم القياس والرأى ، وانتظرنا بعد قراءة تلك المناقشة أن يكتب الأستاذ الباحث بمناسبة تلك المناقشة تفصيلا لما قد يكون بالعبارة من إجمال كان هو منار الشبهة ومنشأ الغموض ، ولكن الأستاذ الى الآن لم يكتب شيئا في ذلك ؛ ولما كان هذا البحث ذا مساس بأصل شرعى خطير ، كان واجبا مؤكدا وحتما مقضيا على كل من لديه حق في هذا البحث أن يرسل من نوره على هذا الموضوع حتى يتبين للناس واضحا جليا ، وليعلموا أن الأستاذ الباحث كان غير مصيب حين أسرف في ذم الرأى والقياس ، وحين حاول إبطال كونه مدركا شرعيا وطريقا لاستنباط الأحكام لما يجده من حوادث لم يكن على حكمها في الشريعة نص خاص أو عام ، وليعلموا كذلك أن ما يتبادر الى الفهم من عبارة الأستاذ المحاضر ، سواء أكان مرادا له أم غير مراد ، من أن نتيجة الرأى والقياس شيء غير الوحي ، ليس هو الحق في التشريع الاسلامى ، بل الحق والواقع غيره . ولو أن الأستاذ الباحث كان قد ناقش الأستاذ المحاضر في هذا الموضوع من ناحية غير ذم الرأى والقياس لكان قد أصاب ، ولكان لنا العذر في ألا نعرض لهذا الموضوع ؛ فلا بد لنا إذاً أن نبسط هذا البحث حتى يتبين فيه ما نعرف من حق يقضى علينا الواجب الدينى بفشره على الناس :

الحق أن معتمد التشريع الاسلامي ليس إلا شيئا واحداً ، ذلك الشيء الواحد هو الوحي من الله الى رسوله الكريم ، سواء في ذلك عهد الرسول ، والعهد الذي بعده ، والعهد الذي بعده ، وهكذا الى يوم القيامة ؛ غير أن الوحي كان يظهر تارة في ثوب قرآني من كلام الله المعجز ، ويظهر تارة أخرى في ثوب من فعل الرسول أو قوله ، وهو ما يسمى في اصطلاح الفقهاء والأصوليين بالسنة ، كما يسمى الأول بالكتاب ، فليس شيء آخر وراء الوحي الذي يلبس مرة ثوب الكتاب وأخرى ثوب السنة يكون مصدرا ومعتمدا للتشريع الاسلامي .

أما الإجماع فهو غير خارج عن هذين الأصلين ، إذ المقرر عند الأصوليين ، كما هو الواقع ، أن الإجماع لا يكون إلا مبني على مستند من الكتاب أو السنة ، وليس هناك إجماع قط يتكون بدون استناد الى أحد الأصلين .

أما القياس فحقيقته وحاصله هو أن الواقعة حين تحدث ولم يكن قد سبق للمجتهد حكم عليها ، وليس بين النصوص ما يبين حكمها من خاص أو عام ، فإنه ينظر ما في تلك الحادثة من معان ، وأبها هو القوى الغالب ، حتى إذا أدرك من بينها معنى كان قد علم من قبل أن الشارع قد ربط به حكما فانه حينئذ يرى ذلك الحكم حكما لتلك الحادثة . وهذا الحكم في واقع الامر هو لتلك الحادثة من يوم نزل الوحي على الرسول بالحكم على أصل هذا الفرع ، غاية ما هناك أن المجتهد لم يتبين ذلك إلا حين وقوع الحادثة ونظره إياها . فأنت ترى أن المجتهد لم يستأنف تشريعا ، ولم ينشئ حكما ، بل كل ماله في ذلك هو إظهار أن تلك الجزئية تنتظمها مادة من مواد الوحي ، وتشملها قاعدة من قواعد الشريعة . هكذا شأن الاجتهاد ، وهكذا شأن القياس ، سواء كان القائل هو الرسول إن جرينا على القول باجتهاده ، أم كان ذلك من أحد أصحابه ، أم من غيرهم من أئمة المسلمين ، كما بي حنيفة والشافعي ؛ فما محصل اجتهادهم إلا تطبيق مواد الوحي ، وإظهار شمول قواعد الشريعة لما جد من حوادث ، إذ تلك القواعد قد وضعت على وجه صالح لا تنظام كل ما يحدث للناس من أفضية ، وما يجد لهم من شئون ؛ وهذا من لوازم كون الاسلام شريعة ختامية أبدية صالحة لا إقامة العدل والنظام بين جميع شعوب الأرض على اختلاف أمكنتها وأسباب معائشها ، وعلى تباين ألوانها وألسنتها في متتابع العصور والأزمان .

وعليه فمالك القياس على الحقيقة ونهايته ، هي جعل الجزئية المنظورة مشمولة لمعنى نص من النصوص ، حيث إن ذلك النص لم يشملها بلفظه .

وإليك مثلا يوضح لك أمر القياس ، ويتبين به أن المجتهد حين يرى في حادثة رأيا ليس مشرعا ولكن مظهر حكم الله فيها ومتبينه :

فاذكر إذ عرض على الامام الشافعي بيع النفاخ بالنفاح متفاضلا أو مؤجلا ، فانه حين يقيسه على البر ويسويه به في الحكم ، وهو تحريم بيعه بمثله إلا مثلا بمثل يدا بيد ، لقوله عليه السلام

« لا تبيعوا البر بالبر إلا إذا بيد مثلاً بمثل » فالشافعي لم يحرم بيع التفاح إلا حين نظر فوجد من المعاني في تلك الثمرة كونها مطعوماً ، وكان قد علم قبل ذلك بطريق من طرق معرفة العلة المقرر في علم الأصول أن الشارع رتب حكم التحريم في البر على كونه مطعوماً ، وربطه به بمقتضى النص الآنف الذكر ، فلما رأى أن العلة والباعث على تحريم البيع في البر على هذا الوجه هي كونه مطعوماً ، وأصبح مآل النص ( حديث الرسول السالف الذكر ) « لا تبيعوا مطعوماً بمطعوم إلا إذا بيد مثلاً بمثل » كان لا شك بيع التفاح بالتفاح داخلاً تحت هذا المعنى ومشمولاً له . فحكم بيع التفاح بالتفاح متفاضلاً أو مؤجلاً قد قرره الشريعة من يوم قال الرسول « لا تبيعوا البر بالبر إلخ » ، ولكن الشافعي لم يتبينه إلا يوم نظر تلك الحادثة ، فسوّى التفاح بالبر في الحكم لما وجد علة حكم الأصل وهو البر ، في الفرع وهو التفاح .

بقي هناك طرق أخرى لاستنباط الأحكام الشرعية كالاستحسان والمصالح المرسلة ، والواقع أن المصالح المرسلة مهما اختلفت عبارة القوم في تحديدها وتصويرها فهي راجعة الى القياس ، وكل ما هنالك من تفاوت أن ما اصطلاحوا على تسميته بالقياس قد اشترطوا فيه أن يكون المعنى الذى يشترك فيه المقيس والمقيس عليه ، ويسوى المجتهد بسببه في الحكم بينهما ، معنى يكون الشارع قد اعتبره بخصوصه في خصوص حكم المقيس عليه ، كما في المثال السالف الذكر ، فإن الإمام الشافعي يرى أن الشارع قد اعتبر ذلك الأمر بخصوصه وهو كون الشيء مطعوماً علة ذلك الحكم المخصوص وهو تحريم بيع البر بالبر على هذا الوجه ، فأما إذا كان المعنى المناسب الذى يعلل به الحكم لم يشهد باعتباره بخصوصه شاهد شرعى خاص ولكن فهم من جملة تصرفات الشارع اعتبار جنسه في جنس الحكم ، سمى نوع القياس للاشتراك في مثل هذه العلة بالمصالح المرسلة في اصطلاح الأصوليين .

وإليك مثلاً لهذا : قام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع القرآن الكريم بعد وفاة الرسول ، وبعد أن تردد فيه الخليفة الأول لرسول الله « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه ، وجعل عمر الفاروق يحاول إقناعه بذلك حتى أقنعه ، وبعد أن تردد في ذلك زيد بن ثابت حين كلفه الخليفة بذلك ، حتى لقد تحدث عن نفسه بأنه لو كاف نقل جبل لكان أهون عليه مما كلفه به الشيخان ، وأنه ما زال به الفاروق والصديق حتى شرح الله صدره لذلك ؛ ترى أنا إذا نظرنا في هذا العمل نجد أن الصحابة لم يستندوا فيه الى نص ؛ لذلك كانت حجة أبى بكر في ترده حين عرض عليه عمر ذلك كما كانت حجة زيد بن ثابت : « كيف أقدم على عمل لم يقدم عليه رسول الله ؟ » ثم هم الى هنا لم يقيسوه على أصل خاص لعله اعتبرها بخصوصها الشارع ، ولكن لما كان مفهومها من جملة الشريعة وروح التشريع وجوب المحافظة على أصل الاسلام وسد ذريعة الاختلاف فيه ، فهم استندوا الى ذلك الأصل فيما قاموا به من جمع القرآن الكريم .

ومن قبيل الاستدلال بالمصالح المرسله أيضا ، ما ذهب إليه الإمام مالك وشيوخ مذهبه من جواز سجن المتهم وضربه ، وإن كان السجن والضرب نوعين من العذاب ، وهو لم يمد بالشريعة إلا في الحدود ، ولكن لما رأى الإمام مالك أن أموال الناس قد يتعذر استخلاصها من أيدي السراق والغصاب لعدم البينة لأنهم حين يقدمون على تلك الجرائم يتحرون التفادي من أن يؤخذوا ببينة ، لما رأى ذلك أجاز هذا التعذيب حين كان الوسيلة لتحصيل الأموال وردّها إلى أربابها ، فترام وإن لم يستندوا في ذلك إلى نص ولا قاسوا على أصل خاص ، ولكن لما كان مفهومهما من جملة الشريعة وروح الاسلام تغليب منفعة المجتمع على منفعة الفرد ، وإشارة المصلحة العامة على الخاصة ، فهم استندوا إلى ذلك الأصل في جواز إساءة الفرد لاستتباب مصلحة المجتمع . فأنت ترى أن المجتهد حين سلك هذا النوع من الاستدلال لم يحد عن طريق القياس ، بل كل الذي حصلت به المخالفة للقياس المشهور أنه في هذا النوع من الاستدلال قد استند إلى علة هي وإن لم يشهد لها أصل من الشريعة خاص ، قد شهد لها عمومات الشريعة ، وجملة تصرفاتها .

وأما الاستحسان ، فهما اختلفت عبارة القوم في رسمه أو تحديده ، فكلها ترجع إلى أن الاستحسان عبارة عن أن يخالف المجتهد مقتضى دليل عام في مسألة من متناولات ذلك الدليل فيعطيهما حكمًا غير الحكم الذي هو لها بمقتضى هذا الدليل ، ولنظائرهما لاعتبار قام في تلك المسألة بخصوصها . أو قل : الاستحسان بعبارة أخصر من هذه : هو تخصيص دليل بدليل آخر .

وإليك مثالا يوضح هذا : أجاز الفقهاء أن يدخل الشخص الحمام دون تقدير للأجرة ، وبغير تعيين لمدة المكث فيه ، وبغير تقدير لما يستنفده من الماء في تنظيف جسمه ؛ ومقتضى الأدلة الشرعية فساد عقد الإجارة والبيع إذا جمل أحد العوضين أو إذا جهلا معا ، فكان مقتضى هذا عدم جواز دخول الحمام من غير تعيين ولا تقدير ، ولكن لما كان عرف كل بلد في مثل هذا يكاد يكون محددًا لتلك الأعواض ومقدرا لها ، فإن حصل بعد ذلك تفاوت بين تقديري المتعاقدين لم يكن إلا في نزر يسير ، فلو نحتم تفاوض الداخل مع صاحب الحمام في تقدير ذلك كله لفتحنا بذلك بابا لمفاوضات ربما أدت إلى تخاشن في القول ، وإلى مشادات ليتها كانت في شيء كثير ، بل هي في غير ذي قيمة ، بل في تافه يسير لا يحجل مثله بكرامة أخوين في وطن ، إن لم يكن في دين ، مع منافاته لما يندب إليه الاسلام من تسامح بين المتعاملين ، وفي هذا تضيق لباب المعاملة ، وخلق للمشقة والحرص ، والحرص من أول مقاصد الإسلام إزالته واستئصاله .

فالنظر تر أن المستحسن لم يشرع استنادا لاستحسان نفسه ، ولا اعتدادا على نظر عقله ، ولكنه في استحسانه قد استند إلى مادة الوحي وما أتصلته من أصول وأسنته من قوانين . وما كان الاستحسان الذي يشرع به المجتهد في مثل هذا إلا منبعا عن شعوره بقوة ووضوح

McMahon  
I am back and off

في الأصل الشرعى الذى استند إليه في التخصيص والاستثناء ، وإحساسه بانزياح الشبه عنه ، كما ترى في هذا المثال الذى أسلفناه . وبهذا ترى أن المستدل بطريق المصالح المرسله لم يخرج عن كونه قائما ، وقد علمت حقيقة القياس كما ترى ، وأن المستحسن لم يجد عن مقتضى أصل من أصول الشريعة .

هذه حقيقة اجتهاد الفقهاء ، وذلك مآل رأى والقياس في الاسلام : لم يكن المجتهد والذى رأى وقاس إلا مطبقا لمادة الوحي ، ومفصلا لقواعد الشريعة ، ليبين انتظامها لما يحدث للناس من أفضية ، وما يجد لهم من شئون ، وأن ما تقاصر عنه لفظ القاعدة الشرعية لم يتقاصر عنه معناها ؛ وكيف لا يكون كذلك ويكون كما يفهم بعض الناس من أن الاجتهاد والرأى ليسا مستمدين من الوحي بل هو تشريع من عند صاحبهما ، ولو كان كما يفهم هذا البعض لكان القائس والمستحسن مبتدعا ، وهل البدعة إلا أن يشرع الانسان من عند نفسه ؟ ولقد عرفنا رسول الله مكان البدعة وأنه النار وبئس المصير « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » ، لو كان كما يفهم بعض الناس ، ما كنت ترى الإمام الشافعى حين خالف الامامين أبا حنيفة ومالك في الأخذ بالاستحسان لا يزيد في رده له عن أن يقول : « من استحسن فقد شرع » ؛ فاكتمى في الرد بيان أن الاستحسان مفض الى تشريع المرء من عند نفسه . أما أن تشريع المرء من نفسه منكر وباطل ، أما أنه لا يدعيه من المسلمين أحد لنفسه ، أما أنه شأن الله وحده ، فذلك ما قد فرغوا منه ، وليس بين المسلمين من يخالف فيه ، فاذا عرفت بعد هذا أن الامام الشافعى ممن يحتجون بالقياس ويعتبرونه دليلا شرعيا ، عرفت أن القائس ليس مشرعا من نفسه بل مستمد من الوحي ، كما أن المستحسن كذلك في نظر الامامين أبى حنيفة ومالك ، وكما هو الواقع .

نعم لو كان كما يفهم بعض الناس ما عني القرآن في كثير من آياته بدم الذين حللوا وحرّموا من عند أنفسهم ، ولا بالغ في تخطئهم وتسفيهم ، فعرفهم أن التحليل والتحريم شأن الله وحده ، إذ هو الذى يعلم مواطن الضرر ومواقع المصلحة ، وما ينظم شئون الناس من شرائع وقوانين .

ولا بد لي أن أسوق لكم آية من تلك الآيات حتى تعرفوا منها ذلك واضحا :

« قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ ! وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ، إن الله لوفى فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » :

أكتب هذا بمناسبة ما رأيته وفهمته من محاضرة ذلك الباحث ، مع اتهاى لفهى إلى حد كبير ، إذ لا أزال أظن أن يكون مراد الاستاذ في محاضراته هو هذا الذى فصلته .

أما ما جاء بالمقال الذى نشرته جريدة السياسة من الإغراق فى ذم الرأى والقياس ، والأمعان فى حظره ، فذلك مالا يتفق مع ما روى عن رسول الله ، ولا مع ما مضى عليه عمل أئمة المسلمين من أصحاب رسول الله ومن بعدهم ، كما أنه لا يتفق بعد ذلك كله مع طبيعة الاسلام وحقيقته . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أنه حين أرسل معاذاً قاضياً الى اليمن قال له : بم تقضى إذا لم تجد حكماً فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ؟ قال : قال له معاذ : نقيس الأمر بالأمر فما وجدناه أقرب عملنا به ، فقال له الرسول الكريم : أصبت » . ومثل هذا ما جاء فى العهد الذى كتبه الفاروق عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى ، فقد قال له فيه : « اعرف الأشباه والنظائر وقس الأمور برأىك » . وإذا نحن تصفحنا عمل أصحاب الرسول وخلفائهم الراشدين وفقهائهم المجتهدين ، وجدنا أخذهم بالقياس واعتمادهم عليه فى الاستدلال قد تكرر منهم ، وتعددت حوادثه حتى شاع بينهم ، وذاع أمره فيهم ، دون أن يبدي أحد منهم إنكاراً ، أو يبدو على وجه واحد منهم علامة نضرة أو استكراه مما تقضى العادة فى مثله بقاطع العلم باعتماد القياس والأخذ بمقتضاه ، وهام أولاء الأئمة الأربعة الذين لم يبق بين المسلمين اليوم سوى مذاهبهم قد أجمعوا على الأخذ به ووجوب العمل بمقتضاه ، لا بل قد اعتمدوا ما هو دونه من المصالح المرسلة والاستحسان . وعلى العموم فإننا إذا بحثنا آراء المسلمين فى القياس وجدناهم يجمعون على حجته والعمل به ، وعلى أنه أصل من الأصول الشرعية ، ولا تجد بينهم من يخالف فى ذلك إلا فريقاً من الشيعة . وإننا بعد أن عرفنا ما للشيعة من شذوذ فى الاسلام فانه لا يبقى لخلاف تلك الفرقة منهم قيمة ينخس بها ذلك الإجماع .

أفبعد هذا وبعد ما مضى على العمل بالقياس أربعة عشر قرناً من فقهاء الشريعة وأئمة الاسلام ، يصح للأستاذ الباحث أن يكتب فيحاول منع القياس ، ويخرج فى مقال كتبه فى ساعة أو ساعتين على أعلام الشريعة وأئمة المسلمين ، الذين أفنوا أعمارهم فى بحث الشريعة وتعرف مقاصد الاسلام ، فما أقدموا على الأخذ بالقياس إلا بعد إمعان نظر وطول تحييص وتدقيق غير مشغولين عن هذا بشأن آخر من شئون الحياة ؟ اللهم إن هذا غير ما ينبغى لمن يقدم على بحث ديني كهذا . على أننا إذا أغضينا عن ذلك كله وفرضناه غير واقع فهناك ناحية ليس للنظر اليها مناص من القول بضرورة كون القياس أصلاً أسسته الشريعة ، وعلماء بناء الاسلام : تلك الناحية هى أننا قاطعون بأن شريعة الاسلام هى الشريعة الختامية ، وهى الأبدية الى نهاية هذه الحياة ، وقاطعون أنها صالحة لإقامة النظام ونشر السلام بين جميع الأوساط ، وفى كل مكان ، ومتسعة لما يحدث للناس من أقضية ، وما يحدث لهم من شئون ، فتعطى كل حادثة حكمها مهما اعترى العالم من تغير ، وطراً عليه من تطورات ؛ ثم إننا قاطعون الى جانب هذا بأن نصوص الشريعة غير متناولة بلقظها لجميع ما يحدث من الوقائع ؛ وإذا كان الأمر كذلك فليس من سبيل الى أن تنتظم أصول الشريعة جميع الحوادث فتعطى كل حادثة حكمها سوى القياس .



وإذا فما أمر الشريعة إلا إحدى اثنتين : فإما نحن قائلون بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وحينئذ فلا بد لتعميم نصوصها لجميع ما يحدث من القياس ، وإما نحن قائلون بعدم القياس ، ومن لوازم هذا ألا تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وليس هناك من ثالثة . أفلا يتق الله بعد هذا من يحاول الإقدام على نظر في الدين وبحث في الشريعة ؟ ! ولو اتقى الله الباحثون في الدين والناظرون في الاسلام ، ومحصوا نظره ، وحرروا بحوثهم ، لما منى الاسلام بما منى به من تخليط وتلبيس ، وعيب وتشويه ؛ فاللهم اهدنا سبيلك الحق إنك سميع الدعاء !

وبعد ، فلنعد الى نظرة أخرى في أجزاء الآية بعد ما بيننا المقصد الذى ترمى اليه والاصل الذى أسسته لحماية تلك الحكمة البالغة ، التى هى بقاء المحتمل من النصوص على احتماله دون توحيد لمعناه ، ولا تحديد للمراد منه ، دفعا للحرج ، وتحقيقا للرحمة .

وإن أول ما يطالعنا من روائع القرآن إذا بدأنا النظر في أجزاء الآية ، هو التعبير عن المنادى باسم موصول « يا أيها الذين آمنوا » دون أن يقول : يا أيها الناس ، أو يا عبادى ، أو نحو ذلك مما كان يصح التعبير به . وإنك إذا استعرضت استعمال الاسم الموصول على أى وضع من أوضاعه مستنداً اليه أو مسنداً ، أو متعلقاً من متعلقات الجملة وقيودها ، وجدت أمره يدور في جميع ذلك على شئ واحد هو قصد المتكلم أن يجعل من الصلة مقويا لتحقيق ما يرمى اليه . وإذا تبينت هذا المعنى فيما معنا وجدته يطالعك في بهاء وجلاء ؛ ألا ترى أن الغرض من الآية هو النهى عن المساءلة في النصوص المحتملة إبقاء على الحكمة من ذلك ؟ فهو لهذا قد ناداهم بمنوان الايمان ، لما أن الايمان داع حى ، ودافع قوى على الاستجابة والامتثال .

وإن ثانى ذلك ، ما تدركه من دقة وبلاغة في أن قدم إحدى الشرطيتين على الاخرى ، بأن قدم قوله : « إن تبدلكن تسوكن » على قوله : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكن » ، إذ السر في ذلك أنه ليس من شك في أن الناهى عن شئ يعنى كل العناية بكل وسيلة لتحقيق الانتهاء ، وليس من شك في أن من أول وسائل الانتهاء هو بيان ما فى النهى من أضرار ومساءات للغيرين ، فلو جاء في وصف المنهى عنه بما يغرى المنهى بفعله لكان عابثا ومناقضا معاً ، فلو كانت العبارة هكذا « لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكن » لكان عبثا وتناقضا من وجهين : أما أولا فلأنه ليس للسائل من غاية فوق أف يوضح له ما سأل عنه ، وما داموا إن هم سألوا يوضح لهم ما سألوا عنه ، فلا جرم أنهم يسارعون الى السؤال ويتبادون فيه ، فكيف يتحقق مع هذا غرض الناهى ؟

وأما ثانياً ، فلأنه إذا عرف السائل أن مصدر الجواب والايضاح وثيق ، كان ذلك أكثر إغراء بالسؤال ، ولا شك ان الوحى هو أوثق مصادر الايضاح والتحديد ؛ لذلك كان لا بد



من تقديم الشرطية الأولى على الثانية لما في الأولى من أن في الإبداء أضرارا ومساءات مما هو أعون على الغرض وأبلغ في تحقيقه .

وإنك لتزداد إيمانا بإعجاز القرآن حين تنظر فتجد أن الشرطية الثانية بعد أن كانت لو وضعت أولا تكون مغرية بالسؤال ، صارت بعد أن وضعت ثانيا من أقوى عوامل التنفير عن مقارفة المنهى عنه ، فانه مادام في الإبداء سوء وما يكرهون كما هو مقتضى الشرطية الأولى ، فقد صار استتباع السؤال للإبداء المسيء من أقوى الدوافع والمنفردات عن السؤال .

وثالث ذلك ، أنه لما كان من صور التكليف التي كان يصح أن يكلف الله بها عباده هي أن يجعل التكليف كلها متوحدة بحيث يكون لكل فعل من أفعال العباد حكم لا يحتمل غيره ، بأن تكون جميع النصوص محددة المعنى لا تحتمل إلا معنى واحد ، لما كان كذلك كان عدم توحيد الأحكام عقوا من الله عن الناس ، إذ لم يجرهم ولم يشق عليهم بمحملهم جميعا على سلوك طريق واحد مع اختلاف مناهج الحياة فيهم ، ومع تباين أزمئتهم وأمكنتهم ، لهذا كانت عبارة الآية الكريمة « عفا الله عنها » : أي عفا الله عن الأشياء التي حاول الناس بسؤالهم فيها أن يوحدا معاني نصوصها ، ولم يجزهم على محاولتهم ذلك مع أنهم كانوا حقيقيين أن يجزوا بتحقيقه عليهم ما حاولوه من تفسير يسر ، وتصعيب سهل ، وتضييق واسع ، لما في تلك المحاولة من الغفلة عن حكمة الله فيما أنزل من نصوص محتملة ، دفعا للحرص ورحمة بالعباد ، ولما في تلك المحاولة أيضا من إشعار بالملسكو في الاستجابة والتباطؤ في الامتثال كفعل بني إسرائيل فيما طلب اليهم من ذبح البقرة . وبذلك يتضح لك سر إشار وصفي الغفران والحلم على سائر صفاته تعالى في قوله « والله غفور حلیم » ، إذ أن ترك جزأئهم بتوحيد التكليف بعد محاولتهم ذلك بالسؤال ، غفران لهم وحلم عليهم .

هذا ، ولما كان من أبلغ الحكم وأمماها ، ومن أعظم النعم وأوفاهها ، أن يكون في نصوص الأحكام نصوص متشابهة ومحتملة أكثر من معنى واحد حتى يفضى الى اختلاف الأحكام باختلاف أنظار الأئمة ... لما كان كذلك ترى القرآن قد اشتد في حماية هذا الأصل والذود عنه بالتنفير عما قد يفضى الى جنسه ؛ لذلك تراه بعد أن نهى عن السؤال صونا لذلك الأصل ، تراه قد سلك للتنفير عما يمس سبيلا آخر ، فبين طائفة السؤال فيمن سبقهم من الأمم ، فقال : « قد سأها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » : أي أن من قبلكم قد سألوا أن يحكم لهم المتشابه ، ويحدد لهم المحتمل ، ويشخص المطلق ، فأدى بهم ذلك الى الحرج والمضايقة ، حتى انتهى الأمر بكفرهم بتلك الأحكام وتركهم لها . فما أسمى حكمة الله فينا ، وما أعظم نعمته علينا !! رب قد أخلصت اليك عملي ، فوفقتي للخير ، واهدني للصواب ؟ همار مجيبه

## الكلام والمتكلمون

- ٩ -

الحركة الفكرية بعد الغزالي

متفاسفو المتكلمين :

وأينا حين عرضنا لدراسة الغزالي أن هذا الإمام كان له من تأليفه غايتان جوهريتان : الأولى هي القضاء على كبرياء العقل البشري وثقته بنفسه ، وهذا لا يتم إلا بمهاجمة الفلاسفة وتحطيم آرائهم ومذاهبهم بعد إثبات خطئها أو ضعفها على الأقل . والغاية الثانية هي بعث الروح الدينية من مرقدها بعد أن طغى عليها سلطان العقل الذي مكنته الفلسفة الإغريقية من التباهي بعظمته وجبروته . وقد أوضح أبو حامد هاتين الغايتين بكتابه اللذين عنون أحدهما بـ « تهافت الفلاسفة » وسمى الثاني : « إحياء علوم الدين » . وهو من غير شك لم يضع هذين العنوانين عبثاً ولا عن طريق المصادفة ، وإنما قصد بالاول إخفات صوت النظر ، وبالثاني إحياء صوت الإيمان التسليمي . فلننظر الآن الى أي حد نجح الغزالي في هذه المحاولة التي قام بها لنصر العقيدة على العقل :

لما كانت الأمة الإسلامية مكونة من عامة يصلحون للإيمان التسليمي ، ومن خاصة لا بد لإيمانهم من سند عقلي من جهة ، وكانت النهضة العربية لا تزال تطبع العصر بطابعها من جهة ثانية ، لم ينجح الغزالي في أول الأمر في دعوته ، ولم يستطع أن يفرض الإيمان التسليمي على الخاصة ، ولا أن يحصرهم في دائرة علم الكلام المباح ، بل لم يلبث أن هب من خاصة المسلمين جماعة صبغوا علم الكلام بصبغة النظر المحض ، ومزجوا آراء الاسلام بالفلسفة ، وأفاضوا في بسط آراء المعتزلة والفلاسفة ، وحاولوا مناقشتها والرد عليها في مؤلفات ضخمة بلغت مجلداتها العشرات . ومن هؤلاء المتفلسفين أبو حفص عمر النسفي ، وأبو الفتح محمد الشهرستاني ، ونفرد الدين الرازي ، وعبد الله بن عمر البيضاوي ، وعضد الدين الأيجي الشيرازي ، وسعد الدين التفتازاني ، والسيد الجرجاني ، وأثير الدين الأبهري ، وغيرهم . وإليك كلمة وجيزة عن كل واحد من هؤلاء العلماء :

(١) عمر النسفي :

حياته ومنتجاته : هو أبو حفص عمر نجم الدين ، وقد ولد في نسف في سنة ٤٦١ هـ ( سنة ١٠٦٨ م ) ، وكان من أكبر علماء عصره في مذهب الحنفية . وتوفي في سنة ٥٣٧ هـ

(سنة ١١٤٢ م). وأهم مؤلفاته : كتاب العقائد النسفية الذى يعتبر بحق رمزا أعلى للعقيدة الاسلامية . وقد طبعه « كورتون » فى « لندرا » سنة ١٨٤٣ ، وطبع فى الاستانة ثم فى مصر . وله عدة شروح وتعليقات نخص منها بالذكر أدقها وأجلها فى رأينا ، وهو شرح سعد الدين التفتازانى . وأول ما يحاول شراح هذا الكتاب إثباته هو تبين أن خطة الغزالى قد نزع من علم الكلام حليته الضرورية له ، وهى النظر العقلى ، وأن هذه الحلية قد بدأت تعود إليه على أيدي النسفى وشراحه ومن نحا نحوهم .

يمتاز هذا الكتاب بميزة جديدة ، وهى مخالفته طريقة الكتب النظرية القديمة التى كانت تبدأ بحوثها بمقدمات منطق أرسطو ، وفرفوريوس حسب منهج الأفلاطونية الحديثة الذى انتقل إلى فلاسفة الاسلام فساروا عليه .

خالف النسفى فى كتاب العقائد هذه الطريقة القديمة ، فبدأ مقدمته ببيان علمى ، له قيمته فى العصر الحديث ، وهو يتلخص فى أن موضوع العلم هو حقائق الأشياء ، وأن هذه الحقائق ثابتة لا سبيل إلى الشك فيها رغم إرادة المرتابين ، وأن فى مقدرة العلم الانسانى الاستيلاء عليها ، وأن وسائل الاستيلاء هى : الحواس ، والعقل ، والخبر الصادق ؛ وأن الإلهام لا يصلح لأن يكون وسيلة من وسائل المعرفة ، فكان هذا التقرير من جانبه صدمة قاسية اتجهت إلى تعاليم الصوفية ، وعلى رأسهم الغزالى الذى أعلن أن الإلهام هو أمثل وسائل المعرفة وأصدقها : « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافا للسوفسطائية ؛ وأسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل . فالحواس خمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . وبكل حاسة منها يوقف على ما وضعت هى له . . . وأما العقل فهو سبب للعلم أيضا ، وما ثبت منه بالبديهة فهو ضرورى كالعلم بأن كل الشئ أعظم من جزئه ، وما ثبت بالاستدلال فهو اكتسابى . والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشئ عند أهل الحق » (١) .

يتألف هذا الكتاب بعد المقدمة من ثمان وخمسين فقرة ، تتناول كل واحدة منها مشكلة من المشاكل التى هى موضع خلاف بين الفلاسفة والمتكلمين ، أو بين أهل السنة والمعتزلة ، أو خبرا سمعيا انعقد عليه إجماع السلف .

فالفقرة الأولى : عالجت مشكلة حدوث العالم ، فقررت أنه بجميع أجزائه محدث ، وعلت ذلك بأن العالم أعيان وأعراض ، وعرفت الأعيان بأنها ما قام بذاته ، والأعراض بأنها ما قام بغيره ، ثم قررت أن الاولى إما مركبة ، وهى الأجسام ، وإما بسيطة ، وهى الجواهر . وهذه

الفقرة مشتملة على ثلاث مشاكل : الأولى تقرير حدوث العالم ، والثانية تألفه من جواهر وأعراض ، والثالثة القول بالذر أو الجزء الذى لا يتجزأ .

والفقرة الثانية عنيت بإثبات أن محدث العالم هو الله ، وأنه هو الواحد الأزل الحى القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، السميع البصير المريد . وهذه هى الصفات الإيجابية . ثم ذكر المؤلف بعد ذلك الصفات السلبية التى يجب تنزيه الله عنها ، وهى أنه ليس بعرض ولا جسم ، ولا جوهر ولا مصور ، ولا محدود ولا معدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متركب ولا متناه ، ولا يوصف بالمائية ولا بالكيفية ، ولا يتمكن فى مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا يشبهه شيء ، ولا يخرج عن علمه وقدرته شيء . وقد اختتم هذه الفقرة بإثبات صفات المعانى وادعائه — كما قال الأشعرى من قبل — أنها : لا هو ولا غيره . ذلك التعبير الذى اضطر اليه المتكلمون حينما أخرجهم الفلاسفة وضيقوا عليهم الخناق بقولهم : إن كانت الصفات عين البارى ، فهى ليست صفات ، وبهذا يكون قادرا بذاته ، عالماً بذاته ؛ وإن كانت غيره ، فقد استكمل بغيره ؛ وإن كانت أبعاضه ، فقد تألف . فلم يجد المتكلمون فى وسعهم إلا أن يقرروا أنها لا هو ولا غيره .

وقد عرضت الفقرة الثالثة للقرآن ، فقررت أنه كلام الله الغير المخلوق ، وأنه مكتوب فى المصاحف ، مقروء باللسن ، مسموع بالأذان ، ولكنه ليس حالا فى شيء من هذا كله .

اعتبر الباحثون الغربيون هذه الفقرات الثلاث أهم ما فى هذا الكتاب ، لأنها تتعلق بالاصول الأساسية للعقيدة ، أما ما يلها وهو من الفقرة الرابعة الى الثامنة والثلاثين ، فقد عنى فيه المؤلف بالخلق وتعلق الإرادة الإلهية به ، ورؤية الله فى العالم الآخر ، ونعيم القبر وعذابه وسؤال الملكين ، ثم بالبعث ، ثم بحكم مرتكب الكبيرة الذى كان موضع الخلاف بين المعتزلة والسلف منذ بدء الحركة الفكرية الاسلامية . ورأى المؤلف فيها أن الكبيرة لا تمحو صفة الايمان من المؤمن ، وأن المؤمنين لا يخلدون فى النار من أجل الكبائر ، ثم عالج بعد ذلك مسألة الاسلام والايمان ، وأثبت أن الايمان لا يزيد ولا ينقص ، ثم مسائل النبوة والخلافة والإمامة .

أما آخر الكتاب — وهو من الفقرة التاسعة والثلاثين الى الثامنة والخمسين — فهو يتعلق بأحكام غير منسجمة مثل أحكام صلاة الجنازة ، وانتفاع الميت بدعاء الأحياء له ، وصدقاتهم عليه ، ومثل الحديث عن العشرة المبشرين بالجنة والحواريين ، ومثل حظر الاعتقاد بالتنبؤات ، ومثل علامات الساعة ، ومثل القول بعدم عصمة الأئمة المجتهدين ، وغير ذلك .

بأن مما تقدم أن النسفى لم يزد فى الفلسفة كما فعل الغزالى ، وأن كتابه — على الرغم من أنه كتاب توحيد — لم يخل من كثير من التعبيرات الفلسفية العالية ، وأنه قد احتوى هو

وشروحه المختلفة على الفروق بين الأعيان والجواهر والزمان والمكان عند الفلاسفة والمتكلمين ، وشمل كذلك اختلافات لطائفة من وجهات النظر بين الفريقين ، بعضها مبنى على أسس إغريقية محضة ، والبعض الآخر مبنى على مبادئ قد بحثت في العصور الإسلامية بحثاً دقيقاً . ولهذا أخطأ أولئك المؤلفون في الأولى وأصابوا في الثانية .

ومن خصائص هذا الكتاب وشروحه أيضاً ، أنها حملت على المنكرين والمرتابين حملات عقلية شعواء ، ويرى أحد المستشرقين أن هذه الحملات هي أحد الفروق بين هؤلاء المؤلفين ، وبين الغزالي الذي ازوى في ركن من أركان التنسك .

ولا يمكن أن تكون هذه الملاحظة صحيحة إلا إذا حملناها على موقف الغزالي بأزاء المرتابين الذين أنكروا المعرفة البصيرية ، وإلا فكيف نغضى عن فضاله العنيف الذي فاض به كتاب « التهاافت » ضد الفلاسفة ، والذي تناول أهم آرائهم بالنقد والتجريح .

ويلاحظ « البارون كارادى فو » فرقا آخر بين النسفى وشراحه من جهة ، والغزالي من جهة أخرى ، وهى أن الغزالي هاجم الفلاسفة باسم الدين ، أما هؤلاء المؤلفون فقد هاجموا باسم العقل ؛ وثمرة الخلاف هى أن الغزالي حاول إهانة العقل ، وهؤلاء اعترفوا بأهميته وضرورة تدخله في البحث . ولا ريب أن هذا الاعتراف من جانبهم يجعل لبحوثهم قيمة في نظر العلماء المحدثين .

## ( ٢ ) الشهرستاني :

حياته : ولد أبو الفتح الشهرستاني في سنة ٤٧٩ هـ ( سنة ١٠٨٦ م ) في شهرستان بخراسان . وقد درس في نيسابور ، وهناك اطلع على مذهب الأشاعرة فاعتنقه . وفي سنة ١١١٦ م أدى فريضة الحج ، ثم اتجه إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام ، ثم عاد إلى بلده وأقام بها حتى توفي في سنة ٥٤٨ هـ ( سنة ١١٥٣ م ) .

منتجاته : يعتبر كتابه « الملل والنحل » عرضاً عاماً لأكثر مذاهب الفرق الإسلامية ، ولبعض المذاهب الفلسفية الأخرى من إغريقية وفارسية وعربية . وقد أسلفنا رأياً في هذا الكتاب حين عرضنا لمصادر الفلسفة الإسلامية في الفصل الذى أفردناه للكتيب المترجمة ؛ وكل ما نقوله عن هذا الكتاب بعد الذى أسلفناه عنه ، هو أنه طبعه « كوريتون » في سنة ١٨٤٠ م وترجمه إلى الألمانية « هاربروكير » في سنة ١٨٥٠ م . وللشهرستاني كتابان آخران ، هما « نهاية الإقدام » و « مصارعة الفلاسفة » ، الأول في التوحيد ، والثاني في مناقشة بعض الآراء الفلسفية .

## (٣) البيضاوى :

حياته : لا تعرف المصادر التى بين أيدينا الآن تاريخ مولد عبد الله بن عمر البيضاوى ، وإنما تحدثنا فقط أنه ولد فى « بيضا » إحدى مدن الفرس . وكان والده قاضيا بترك المقاطعة ، ثم تولى هو القضاء بعد أبيه فى شيراز ، ثم انتقل بعد ذلك الى تبريز ، وظل فيها إلى أن توفى فى سنة ٦٨٥ هـ ( سنة ١٢٨٦ م ) .

مؤلفاته : أشهر مؤلفاته كتبه الآتية : ( ١ ) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » فى تفسير القرآن . وقد فضل عامة المسلمين هذا الكتاب على غيره من التفاسير ، ولكن الخاصة الذين ينظرون الى الأمور نظرة نقد وتمحيص ، يرون أنه إما سطحي ، وإما مفرط فى الإيجاز حين يعرض للمسائل التى تستوجب البحث والنقاش . وفوق ذلك فهو متأثر بكتاب الكشف للزخشرى تأثرا يكاد يدرجه فى عداد المقلدين . وما لم يقتبس من الكشف ، فهو كذلك ليس من ابتداعاته ، وإنما اقتبس به بلا تصرف من مؤلفين آخرين . وقد استطاع الباحثون الغربيون أن يظهروا للعيان الفرق بين هذا المؤلف وبين عباقرة المفسرين الآخرين كالزخشرى والرازى رغم تقدم هذا الكتاب بين جماهير المسلمين على « الكشف » و « مفاتيح الغيب » . ( ب ) « تولى الأنوار » وهو فيما وراء الطبيعة . ( ج ) « مصباح الأرواح » وهو فى علم الكلام . ( د ) « منهاج الوصول » وهو فى فقه الشافعية . ( هـ ) « نظام التواريخ » وهو فى تاريخ الفرس ، وقد كتبه باللغة الفارسية .

## (٤) أثير الدين الأبهري :

حياته ومنتجاته : هو أثير الدين مفضل بن عمر الأبهري ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه توفى فى سنة ٦٦٣ هـ ( سنة ١٢٦٤ م ) .

أما مؤلفاته فأشهرها اثنان ، وهما فى الفلسفة المدرسية ، ولهما عدة شروح . وكثيرا ما يرجع اليهما العلماء فى بحوثهم ، والطلاب فى استذكاراتهم . فأولهما : « هداية الحكمة » وهو ثلاثة أقسام : المنطق والطبيعيات والإلهيات ؛ وثانيهما كتاب إيساغوجى وهو « إيزاجوج » تأليف « فرغوريوس » مع شىء من التصرف . ومن أشهر شروحه كتاب شمس الدين أحمد الفنارى ، وقد شرحه أيضا زكريا الأنصارى المتوفى فى سنة ٩٣٦ هـ ( ١٥٢٠ م ) . وعلق عليه الحفناوى المتوفى فى سنة ١١٧٨ هـ ( سنة ١٧٦٤ م ) ، ولا يعرف بعد ذلك للأبهري إلا ثلاث رسائل صغيرة فى الفلك .

الدكتور محمد غمطب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

# حياة جلالته صلى الله عليه وسلم

عبد الله بن عمرو

هذه شخصية من رجال الاسلام ، وعلماء الصدر الأول ، وتلاميذ مدرسة النبوة ، تمثل ناحية جديدة من نواحي الحياة الفكرية الاسلامية ، تلك هي ناحية اتصال الثقافة الأجنبية بالثقافة الاسلامية ؛ ولسنا نفهم ، ولا أحد يرضى عن عقله يفهم من كلية الثقافة الأجنبية وقتئذ معناها الواسع الذي يفهمه قارئ العصر الحاضر ، وإنما الذي نفهمه ونقصده من كلية الثقافة الأجنبية ، ما تعطيه الحياة في بيئة الجزيرة العربية مشرق شمس الاسلام ومطلع نوره ، على عهد البعثة المحمدية ، فقد كانت هناك جاليات من اليهود لها كتابها وثقافتها الخاصة ، تحتل جزءاً عظيماً من جزيرة العرب تعيش فيه بأسلوبها الخاص ، وقد صار هذا الجزء بعد مجيء الاسلام مركز النهضة ، ومصدر الحياة الفكرية الاسلامية ، وكانت هناك جماعات من العرب وغيرهم يدينون بالنصرانية ، لهم علومهم ومعارفهم الخاصة ، ينبشون في كثير من مواطن الجزيرة العربية .

ومن الطبيعي ألا تقف هذه الجماعات يهودية ونصرانية جامدة إزاء حدث الاسلام الأعظم الذي هز الكرة الأرضية هزة نقضت عنها آثار الجود ، وقد صور القرآن الكريم النضال القوى بين هذه الجماعات وبين أهل الاسلام تصويراً رائعاً ، يشرح في وضوح نظرة هؤلاء الى من يساكنونهم من أبناء البلاد ، وما في تلك النظرة من تحقير واستصغار ، ويشرح لنا موقفهم العنيد إزاء الاسلام وشريعته . ومن الغريب أن هؤلاء المتميزين بثقافتهم ودياناتهم لم يكونوا ينشطون في سبيل نشر ثقافتهم والدعاوة لدياناتهم ، بل كانوا حرصاء أشد الحرص على ألا يعلم أحد من الناس علمهم ، ولا يعينهم أن يدين أحد غيرهم بدينهم ، إبقاء لهذا التمايز الذي يدلون به على سواهم ، وقد صادف هذا الجود طبيعة صدوفة عند العرب ، منصرفه لتوافه الأمور ، لا تبحث عن دين أو ثقافة ، فاذا وجدنا منهم حينئذ من يقرأ ويكتب فقد وجدنا الفذ الذي لا يساميه أحد من أقرانه ، وإذا وجدنا من يتجاوز القراءة والكتابة بالعربية الى غيرها من لغات الأمم المجاورة أو الجاليات المخالطة ، فقد وجدنا علائق انفتاح العقل العربي لحياة جديدة ؛ ولكن هل كان من ذلك شيء يمثل ظاهرة عامة في الأمة ؟ ! لو حاول الباحث أن يتلخص هذا النحو لإعياء أن يجد شيئاً له قيمة اجتماعية تشعر بالتحول أو الاستعداد إلا بمعجزة إلهية ، وهذا ما قام به الاسلام بانقلابه الخطير . ومهما يكن فإن الشخص الذي يعنى



في مثل تلك البيئة بشيء من العلم والثقافة لا بد أن يكون على استعداد فكري صالح للحياة التي أنشأها الاسلام ، وهذا ما نجد شيئا منه في حياة عبد الله بن عمرو .

كان عبد الله بن عمرو أسبق الى هداية الاسلام من أبيه عمرو بن العاص . وأصحاب الطبقات يذكرون أن أباه أسلم سنة ثمان للهجرة ، قدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة مسلمين ، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظر اليهم قال : « قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . وأخرج البخاري عن الشعبي أنه « لم يكن بين مولد عبد الله ومولد أبيه إلا اثنتا عشرة سنة » . وهذا من نوادر التاريخ .

أسلم عبد الله بن عمرو في استواء رجولته واكتمال عقله ، وكان — فيما يظهر — قبل إسلامه من القلائل الذين تخطوا حدود يثنتهم ، فعنوا بشيء من المعارف الفكرية ، وكتبوا وقرءوا ؛ ولم يقتصر عبد الله بن عمرو في معارفه البدائية على لغة قومه ، بل تعلم غيرها من لغات الجاليات الأجنبية التي كانت تعيش العرب في جزيرتهم ؛ فابن قتيبة يحدثنا في كتاب المعارف « أنه كان يقرأ بالسريانية » . وكان يقرأ التوراة ، عارفا بما فيها ؛ ففي صحيح البخاري عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : « يأبى النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للآمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذنا صما ، وقلوبا غلفا » . قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا .

وقد كانت لهذه الميزة التي كان لها خطرها في ذلك العهد ، أكبر الأثر في توجيه حياة عبد الله بن عمرو ، وتكييفها تكييفا يتفق مع استعداده الفطري ، فقد اتجه عبد الله الى حياة العلم ، وصرف نفسه اليها دون غيرها من جوانب الحياة الاسلامية المتكاثرة . لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستأذنه أن يكتب حديثه فأذن له ، قال : « يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب ؟ قال : نعم ، فاني لا أقول إلا حقا » . وفي حديث أبي هريرة « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو فانه كان يعي بقلبه وأعي بقلبي ، وكان يكتب وأنا لا أكتب » . وروى الامام أحمد أن عبد الله بن عمرو قال : « رأيت فيما يرى النائم كأن في إحدى يدي عصا وفي الأخرى سمنا وأنا ألعقهما ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : تقرأ الكتابين : التوراة والقرآن ، وكان يقرؤهما » .



جعل الله قرة عين عبد الله بن عمرو في العلم والعبادة ، فكان من أعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بحديثه وسنته وأفضيته ، وكان عنده منها ما ليس عند غيره من علماء الصحابة ؛ وحسبنا شهادة أبي هريرة السابقة ، وهي من رواية البخاري : « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ... » . وأبو هريرة يقول فيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب كما في طبقات ابن سعد : « أنت أعلمنا يا أبا هريرة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظنا لحديثه » . وروى المقرئ عن حيوة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شقبة بن ماعة الأصمعي وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت : ماله ؟ فقال : حمد إلى كتابين كان شقي سمعتهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله في كذا ، وقال رسول الله كذا ؛ والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة ، فأخذهما ورمى بهما بين الخولة والباب » ( مركبين عظيمين من سفن الجمر ) . وفي استيعاب ابن عبد البر : روى شقي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل . وفي طبقات ابن سعد عن مجاهد قال « رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألت عنها ، فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد » .

وقد كان عبد الله بن عمرو أحد علماء الصحابة الذين قامت عليهم النهضة الفكرية في الأقطار الإسلامية . فالتاريخ يحدثنا أنه رحل في كنف أبيه إلى مصر حينما أثمره معاوية عليها ، وأقام عبد الله بها ينشر علمه على تلاميذه الذين دونوا هذا العلم وحفظوه ونشروه . قال صاحب خبر الإسلام : « كان من الصحابة الذين بمصر علماء علموا بها وأسسوا مدرستها ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدون ما يسمع ، وكان مع هذا كثير الإطلاع في غير الحديث ، وقد خرج مع أبيه إلى مصر عندما ولاه إياها معاوية ، ولما حضرت الوفاة عمرا استعمل ابنه عبد الله عليها فأقره معاوية ثم عزله ، ويعمد بحق مؤسس المدرسة المصرية ، فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث » . والمتأمل في آثار الفكر الإسلامي في مصر أول عهدا بالنهضة يلمح الصبغة الروائية تغلب عليه ، ويرى غلبة القصص والعناية بروايات التاريخ ، وأحاديث الفتن ، وهذا في الواقع من أثر ثقافة عبد الله بن عمرو الذي أحاط خبراً بكثير من أحاديث التوراة وقصصها .

أما عبادة عبد الله بن عمرو فقد روت لنا منها صحاح السنة مواقف تجعل عبد الله رأساً من رءوس العباد الصالحين في الأمة المحمدية ، فضلاً عما كانت سبباً له من التشريع الحكيم الذي رفع الله به الحرج عن هذه الأمة ، روى البخاري في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن

قال : « حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . فشددت فشدد على ، قلت : يا رسول الله إني أجد قوة ، قال : فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه ، قلت : وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال : نصف الدهر . فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم » .

وفي هذا الحديث ضروب من الفقه وأسرار التشريع المرتكز على رعاية المصالح ودرء المفاسد ، والأخذ من الحياة بحظ الاستقامة القوية ، فهو :

أولاً — يصور لنا صلة الفرد بالمجتمع ، ويبين أن هذا الفرد ليس ملكا مطلقا لنفسه يتصرف فيها كما يشاء ، حتى لو كان هذا التصرف في أبواب الخير الخاص ، ويشرح لنا حق الجماعة على الفرد باعتباره عضوا فيها وأحد مقوماتها ، فلا يجوز له أن يتصرف في نفسه تصرفا يؤدي الى نقص حيوية الأمة ، وإضعاف نشاطها ، وهذا كله واضح من إباء النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن عمرو مواصلة الصوم ، ولم يبال صلوات الله عليه بقول عبد الله : إني أجد قوة ، بل قال له : لا تفعل ، وقد جاء صريحا في طريق آخر حكمة هذا النهي : روى البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو : « إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل ؟ فقلت : نعم ، قال : إنك إذا فعلت هجمت له العين ، ونهت له النفس ، لا صام من صام الدهر » ! ومعنى هجمت له العين : غارت ودخلت وضعف إبصارها من قلة الغذاء ، ومعنى نهت له النفس : تعبت وكلت ، فلا تستطيع القيام بواجبها في الحياة ، وأداء ما عليها من الحقوق .

وثانيا — فيه تصوير مقام رافة النبي صلى الله عليه وسلم ورحمته بأمتة ، وحرصه على برها وخيرها ، تصديقا لقوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وثالثا — فيه بيان حق أهل الرجل عليه ، وأن الانصراف عنهم الى مداومة العبادة يوحشهم ، وربما كان سببا لقطع صلتهم به ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من هدم بناء الأسرة وتعطيل النسل ، وإهمال الذرية إذا وجدت ، فلا تتوافر لها عوامل المراقبة والتربية الصالحة التي تجعلها عضوا عاملا في الأمة ، فوق ما يكتنف ذلك من إشاعة روح الجفوة والتزمت في أفراد الأسرة مما يكبت فيها روح التوثب والعمل النشط .

ورابعا — فيه بيان حق الضيف ، والترغيب في مشاركته طعامه وشرابه ، لتندفع عنه

طبيعة الحياء التي تكون عادة عند أكثر الناس إذا كانوا في بيوت غيرهم ، فإذا أحجم صاحب البيت عن مؤاكلة ضيفه اتخذت نفس الضيف وانقمعت ، وحرمت قسطها من ضيافتها .  
 وخامسا — في قول عبد الله بن عمرو : « يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم »  
 تحقيق لمعجزة نبوية ، وتبيين لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .  
 صادق إبراهيم عزمونه

## من الحكم الحربية

قال حكيم : إن حازما واحدا في الحرب خير من ألف فارس ، لأن الفارس يقتل عشرة أو عشرين ، والحازم قد يقتل جيشا بتدبيره .  
 نقول : يشير هذا الحكيم الى عظم خطر الفنون الحربية ، فقد ينتصر جيش قليل العدد على جيش جرار بتدبير خطة يضعها قائده لا يجد خصمه أمامها محيدا عن التسليم . ولقد عرف المسلمون الاولون هذا الامر فولوا قيادتهم الذين يعرفون بالتمهر في أساليب الحرب . وقد أحسن أبو الطيب في تجلية هذا الركن الركين في علم الكفاح فقال :

الرأى قبل شجاعة الشجيمان	هو أول وهى المحل الثانى
ولربما طعن الفتى أقرانه	بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم	أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت	أيدى الكماة عوالى المرءان

المران على وزن رمان : معناه الرماح الصلبة اللدنه واحدها مُرَّانة . وإنما سميت الرماح مرانا لأن خشبها من شجر المرَّان ، وهو باسق ، أوراقه كأوراق التوت ، وله ثمر أحمر يؤكل .

## الحسن بن الهيثم

كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) من أزهى العصور فى تاريخ العرب، حيث كان قد تم نقل ما نقل من اليونانية والهندية والفارسية الى العربية من كتب الفلسفة والطب والعلم. وكان العلماء الإسلاميون قد بدءوا فى شرحها والتعليق عليها وتصحيح أخطائها. وكان قد ظهر أساطين أعلام منهم فى هذه العلوم، منهم فى الفلسفة الكندي والفارابى، وفى الطب أبو بكر الرازى، وفى الكيمياء جابر بن حيان، وفى الرياضيات أبو عبد الله محمد ابن موسى الخوارزمى، وثابت بن قرة وبنو شاذان، وفى الفلك أبو معشر البلخى وحنين ابن اسحاق وأحمد بن كثير الفرغانى وسهل بن بشر ومحمد بن جابر الحارنى المشهور بالبتانى، وغيرهم كثيرون لهم مؤلفات قيمة نقل أكتبرها الى اللاتينية، وكانت المراجع المعتمدة عند أهل أوروبا لدراسة هذه العلوم فى تلك العصور.

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس من الهجرة) ولد الحسن بن الهيثم سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م، وكان أول أمره بالبصرة.

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصرا صاحبها بحلبة الحركة العلمية المتدفقة، فبدأ فى صبر وأناة مرحلة من حياته كانت بغيتها فيها الإلمام بنواحي النشاط العلمى فى ذلك العصر، وأخذ يدرس كل ما وصلت إليه يده من كتب المتقدمين والمتأخرين، لا فى العلوم الرياضية وفروعها فحسب، بل فى الطب وفى الفلسفة من منطق وطبيعى وما بعد الطبيعة أيضا.

ولم يكن يقنع بمجرد الاطلاع على تلك الكتب، وإنما عنى بتلخيصها، وبالتصنيف فيها، وكان ينبغى من ذلك ثلاثة أمور، نقلها ابن أبى أصيبعة من خطه قال: «وأنا — ما مدت لى الحياة — باذل جهدى، ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك، متوخيا منه أمورا ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياته وبعد مماتى، والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور، فى إثبات ما تصوره وأتقنه فكبرى من تلك العلوم؛ والثالث أنى صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم».

بلغت شهرة ابن الهيثم مصر، وكان صاحبها فى ذلك العهد الحاكم بأمر الله الفاطمى، وكان قد بلغه قوله: لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص. فأرسل إليه الحاكم أموالا وهدايا، ورغبه فى الحضور الى مصر، وخرج لاستقباله عند قدومه وأكرم مثواه، ثم طالبه بما قال فى أمر النيل. فسار ابن الهيثم ومعه جماعة من البنائين متتبعا مجرى النيل حتى وصل الى أصوان وتجاوزها الى موضع الشلالات، فلم يجد

الامر متفقاً وفكرته الهندسية ، فعاد الى القاهرة واعتذر الى الحاكم بخطأ تقديره ، فقبل الحاكم عذره ، واضطره لقبول منصب في الدولة وهو كاره له ، ولما أراد التخلص منه للانقطاع الى البحث والعلم لم يجد مندوحة إلا التظاهر بالجنون والاحتجاب في داره . فلما مات الحاكم عاد الى الظهور ، وأقام بالقاهرة الى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل ، بحسب رواية القفطي .

### الناحية العلمية من ابن الهيثم :

من المعروف أن الطريقة العلمية الحديثة لم تنشأ إلا بعد عصر البعث في أوروبا ، وينسب الفضل في إنشائها الى « فرنسيس باكون » أحد فلاسفة الانجليز وكتابهم في القرن السابع عشر . فهو أول من أوضح أن الطريقة الصحيحة في البحث هي الاعتماد على الأمور الواقعة ومشاهدتها ، والمضى في جمع الحوادث وتبويبها وترتيبها حتى يمكن بالاستقراء الوصول الى المعلومات الصحيحة عنها .

هذه الطريقة في البحث التي تعد من مبتكرات العصر الحديث ، هي الطريقة التي أدرك ابن الهيثم أنها المثلى . فقد رأى ضرورة الأخذ بالاستقراء ، والأخذ بالقياس ، والأخذ في بعض البحوث بالتمثيل ؛ وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على مثل ما هو متبع في البحوث العلمية الحديثة .

ومن هنا ندرك أن ابن الهيثم سبق باكون في بناء الأسلوب العلمي بنحو ستة قرون . وقد بين ابن الهيثم طريقته هذه في كتابه « المناظر » فقال : نبتدىء في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتميز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير بظاهر لا يشته من كيفية الإحساس ؛ ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونصفحه ، استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتجرى في سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء .

ثم قال في موضع آخر :

« ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف ، وتنحسم بها مواد الشبهات . »

ثم قال :

« وما نحن مع جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية ، ومن الله نستمد العون في جميع الامور . »

كان أكثر نشاط ابن الهيثم محصورا في الرياضيات وتطبيقاتها، وكان إلى جانب هذا كثير الاشتغال بمؤلفات أرسطو وجالينوس .

ومما تحسن ملاحظته أن ابن الهيثم كان يبتغي من وراء طلبه للعلوم الحق الذي يقربه إلى الله ، حتى إننا نجد ينزع في تفكيره نزعة دينية ، بل له مشاركة في علم الكلام ، فهو يرد على الرازي في الإلهيات والنبوات ، وله كتاب في إثبات النبوات ، وهو يرد على ابن الراوندي وعلى المعتزلة في أمر الصفات ، وفي الوعد والوعيد ، وغير ذلك .

وبالبحث عن هذا الحق هو الغاية التي كان يقصدها ابن الهيثم من وراء الفلسفة ، وعنده أن الفلسفة ينبغي أن تكون أساسا تقوم عليه العلوم جميعا .

وجاء في مذكرات الأستاذ مصطفى بك نظيف : أن علماء الرياضة والفلك في عصر ابن الهيثم كانوا يقولون إن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه ، فأبطل ابن الهيثم هذه النظرية القديمة ، وأقام على أنقاضها نظرية جديدة : هي أن ضوء القمر هو ضوء ثانوي أو عرضي يشرق من سطح القمر المستضيء بالضوء الذاتي المشرق من الشمس ، كما يشرق الضوء من جسم كثيف معتاد إذا وضع بالقرب من جسم مضئ بذاته ، وليس هو ضوءاً منعكسا بالمعنى الخاص بالانعكاس .

وابن الهيثم لا يكتفى بوصف الآلة أو الجهاز ، بل يأتى بشرح مسهب مفصل لكيفية صنع الجهاز . فجهازه في الانعكاس وجهازه في الانعطاف يختلف كل منهما اختلافا جوهريا عن نظيره الذي ذكره بطليموس .

وصنع مثل هذه الأجهزة في عصر لم يكن مزودا بالعدد الميكانيكية المعروفة الآن ذات المقاييس والأبعاد والتدرجات المضبوطة ، يدل على أنه قد اجتمعت فيه الصفات التي تؤهله لأن يكون واحدا من العلماء الذين اجتمعت فيهم المقدرة الرياضية الرفيعة ، مع الكفاية العملية الممتازة .

يضاف الى ذلك أن لابن الهيثم بحوثا في علم الضوء لم يسبقه إليها أحد ، إذ كانت المعلومات في علم الضوء قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ، ولا منظم ينظمها . فان اعتبر نيوتن رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر ، فابن الهيثم رائد علم الضوء في القرن الحادى عشر .

أما فيما يتعلق بتصنيفه في علوم الرياضيات وتوابعها ، فقد بلغت ثلاثة وأربعين كتابا . وأما كتبه في العلوم التعليمية فقد وصلت الى خمسة وعشرين كتابا ( ابن أبى أصيبعة ) .

أشهر هذه المؤلفات كتاب المناظر الذى اتضح أخيرا أن كتاب الذخيرة اللاتينية ترجمة له ، وكتاب الأصول الهندسية والعددية ، وكتاب الجامع في أصول الحساب .

## شخصية ابن الهيثم :

هو رجل اضطلع برسالة علمية جديدة قام بها خير قيام ، أثبت فيها صحة نظرياته الهندسية والرياضية ، وقوض أركان النظريات القديمة التي ارتآها بطليموس وجرى عليها رجال العلم في الزمن القديم .

وكان ابن الهيثم مستقلا في تفكيره ، قويا في استقرائه ، محيطا بما عرف من علم الطبيعة الى زمانه ؛ وكان قوى الخلق لا يثبط عزيمته الإخفاق ، فكان لا يكبو حتى ينهض ، كتيار اليم يعلو ويزخر عبابه إذا اعترضت الأسداد مجراه .

وكان ابن الهيثم يؤيد رأيه بشواهد مستمدة من الطبيعة ، وكان يعتبر كل ضروب النشاط الانساني ضروبا من الفنون ، فهناك فن التفكير وفن الطبيعة وفن الدين . وكل هذا يؤدي الى أن الحياة نفسها فن .

وهذا يبين لنا بالاختصار المنهج الذي نهجه ابن الهيثم في دراساته الكثيرة ، وهو أنه جمع في بحوثه ومصنفاته بين عقل الفيلسوف ، وبصيرة الصوفي ، وتثبت العالم ؟

عبد الحميد سامي بيومي

## مقابلة الاساءة بالاحسان

قال أمير المؤمنين على رضي الله عنه : « عاتب أخاك بالاحسان إليه ، واردد شره بالإنعام عليه » . وقال الجاحظ : « من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدييره » . والذي نراه أن الجاحظ قد تعجل في حكمه ، فان هنالك حالات من الاساءة يغني فيها الاحسان مالا تغني العقوبة ، وقد يبارك في أثرها حتى تحمل المسيء على تقويم خلقه . والمدار على تحرى هذه الحالات ، والفرقة بينها وبين ما يعتبر مخالفة لتدبير الله .

على أن الاساءة إليك غير الاساءة على الاطلاق ، فأنت حر في أن تغفو عمن ظلمك ، وأن تصفح عمن شتمك ، كما أنك حر في أن تعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ، مادام قصدك أن تؤدبه ، ولكنك لست حرا في أن تغفو عمن أساء الى أهله ، ولا الى الجماعة ، ولا الى من لا تملك إرادته ، ولا تعرف أيصلح الاحسان من شأنه أم يضره .

## شهر الصيام

قد يصل هذا العدد الى أيدى قرائنا وهم في أول يوم من شهر الصيام ، واول ما يشوقهم من العنوانات الماثلة في فهرسته قد يكون الكلام عن الصيام الذي هم فيه . والكلام عن الصيام أصبح شائعا حتى لدى غير المسلمين ، لانه أضحى عاملا طبيا تعالج به أمراض خطيرة ، لايسد مسده فيها غيره . ومن يعلم أن أكثر الأمراض العضالة يأتي من طريق التغذية ، يدرك مايبتنى على الإمساك عنه من قيمة صحية .

وإنما كان التغذية سببا للأمراض ، لأن الناس لا يصدرون فيه عن علم ، ولكن عن العادة والجهل والنهم . والقاعدة العامة عندهم أنه مادام التغذية سببا لاستدامة الحياة والقوة ، فالأكثر منه يعتبر استكثارا من أسباب الحياة والقوة ، إلا أن يصل الى حد الإفراط ، ولكن ليس للإفراط عندهم معيار غير ما ينتجه من أعراض السكّظة (١) ، ويغيب عنهم أنه قد يكون إفراط ولا يكون شعور معجل بأعراض للسكّظة .

ونحن لأجل أن نأتي على أفضل ما نعلمه من حكمة فرض الصيام على المسلمين ، لا نرى بدا من التوسع في فلسفة التغذية ، فإن هذه الحكمة ثابرة في أطوائها ، فنقول :

الانسان في حاجة الى مقادير معينة من الأطعمة المختلفة ، وهي على نوعين :

(١) أطعمة معوضة لما يذثر من مادة الجسم ، كالعضلات والأعصاب والعظام والدم ، وهي كالقمح والبقول والخضر والفاكهة .

(٢) وأطعمة مولدة للحرارة الغريزية الضرورية للحياة ، وهي السبب المباشر في دوامها كالسكر والدهنيات والنشأ (بالفتح) .

فاذا تغذى الانسان ، وهو عادة يجعل غذاءه خليطا من هذه الصنوف ، هضمت هذه المواد في معدته وأمعائه ، وانتقلت الى الرئتين فالقلب ، ومنه الى الشرايين لتطوف بجميع أجزاء الجسم ، وتعطى كل خلية فيه حظها منه .

فاذا كانت الاغذية بقدر حاجة الجسم ، استوعبتها الخلايا الجثمانية ، وبقي الدم نقيا كما كان ، وإن كانت تزيد عن حاجته ، بقيت في الدم ، وكيف تستطيع البقاء فيه وهو ليس بحاجة الى المزيد ؟ فتتحول الى مواد سمية ، يصيب الجسم منها بلاء عظيم ، بعد أن تكبد الأعضاء التي

(١) السكّظة : البطنة ، وأعراض ثقيلة تعترى الانسان من الامتلاء من الطعام .



وظيفتها تخليصه من السموم ، في حمايته منها ، وتضمحل من كثرة العمل ، وتنضب عصاراتها ، وتمجز عن أداء وظيفتها ، فتعرض الحياة للخطر ، إما بطرود أدواء خطيرة على الأعضاء الرئيسية بسبب عجزها عن القيام بأعبائها ، وتراكم السموم عليها وتصلبها ، وإما بفساد الدم ، وانشحانه بمواد غريبة عنه ، وعدم صلاحيته لأداء مهمته .

هذه هي النظرية العلمية في تولد الأمراض وفساد الصحة ، وهي تخالف النظرية العامة ، فهم يتخيلون أن على الإنسان أن يأكل ما يشتهي ، وعلى المعدة أن تهضم ما ينفعه ، وأن تلفظ ما يضره ، ورأى العامة في الأمراض أنها إما تصيبهم من برد أو من أسباب أخرى لا يعرفونها . فإذا حدثت لهم عن ضرر الإفراط في الغذاء ، ضربوا لك الأمثال بأفراد من المصابين بالنهم يعرفونهم وتعرفهم ، ولفتوا نظرك لقوتهم وبداتهم ، وخلوهم من الأمراض ؛ ويغيب عنهم أن هؤلاء معرضون للصعق من طريق الفجأة ، وخير منهم الذين إذا أسرفوا على أنفسهم وجدوا جزاء إسرافهم معجلاً ، فيضطرون للاعتدال . فقد تبين أن الناس من هذه الناحية على ضربين ، أحدهما يلاقى جزاء إفراطاته على الفور ، فيمرض ويشقى ، ويتكرر عليه ذلك حتى يعتدل أو يموت ؛ وثانيهما لا يحس من تجاوزه الحد بأذى ، فيصر على ما هو عليه ، حاصلًا على ظاهر من الصحة والضلالة ، حتى يفاجئك نعيه ، فتقول : كنت معه البارحة ، وكان أحسن ما يكون صحة وقوة ، فما الذي دهاه بعد أن افترقنا ؟ !

وليست تبعات الإفراط في الطعام بقاصرة على الناحية المادية من الإنسان ، ولكنها تقع عليه في ناحيته العقلية والنفسية أيضاً ، فإن امتلاء المعدة بالأطعمة تستدعى قوة عصبية عظيمة تعين المعدة على هضمها ، فتتصرف قوى أعصابه إلى معدته ، فلا يكاد يصلح في أثناء الهضم لعمل عقلي ، وقد يستمر الهضم أربع ساعات بعد كل وجبة فتضيع عليه اثنتا عشرة ساعة من يومه سدى ، والإنسان عادة لا ينقطع في تلك الساعات عن العمل العقلي ، ولكنه لا يتقنه ؛ وقد عُرف ذلك منذ العهد الأقدم ، فقالوا : إن البطنة تذهب الفطنة .

هذا غير ما تسببه البطنة وارتباكاتها العقلية من سوء الخلق ، وضيق الصدر ، والتبرم بكل شيء ، حتى يكاد أحدهم أن يمزق ثيابه لأقل بادرة ، وإذا نام استيقظ ثقيل الأعضاء ، متتابع النفس ، متكاسلاً ، متثائباً ، كأنه خارج من كابوس ، لا من نوم مجدّد لما اضمحل قوى بدنه .

لتخليص الإنسان من هذه الشرور الحائلة بالجسم والنفس كل يوم ، نصح الله لعباده أن لا يسرفوا في التغذية ، فقال تعالى : « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حَسْبُ الْإِنْسَانِ مِنَ الطَّعَامِ لَقِيَاتُ يُقِمْنَ صُلْبَهُ » . وقال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » .

ولذلك أيضا فرض الله على عباده الصيام في كل سنة شهرا . والصيام واحد من الأسس الخمسة التي بنى عليها الاسلام ، وهو بهذا الاعتبار عبادة ، القصد منها تقريب الانسان من بارئه كالصلاة والحج ، فان كانت الصلاة قد جُعِلَتْ لِاحكام الصلوة بينه وبين ربه ، والحج لتحقيق التجرد من جميع العلائق الدنيوية ، واللجأ الى الله خالصا من جميع الاعتبارات والتعلقات ، فان الصيام قد شرع لتصفية النفس من كدور المادة ، وتنقيتها من أدرانها ، بالإفلال من تناولها إلا ما يقيم الحياة ، والإخفاف من أعبائها إلا ما لا يحيص عنه لاتقاء الأعراض . فأين تكون أنت من هذا إذا قلبت حقيقته فجعلته وسيلة للإكثار مما يتعين الإقلال منه ، وذريعة للوقوع في شرور التسخم والوخم التي تبعدك عن التمتع بصحة نفسك ، بَلَّه الزلنى من ربك ؟

ولا يجوز أن نغفل هنا القول أن لعدم التمتع بالطعام فائدة روحية لها أكبر تأثير في أخلاق الانسان وتعديل مزاجه ، لا يمكن الحصول عليها بوسيلة أخرى من وسائل الترويض والتربية .

ذلك : أن المعدة إذا لم يلق إليها إلا القدر الضروري لحفظ الحياة ، قويت على هضمه بوسائلها الذاتية ، دون أن تَضطر شطرا كبيرا من القوى العصبية للبدن أن يعينها على التخلص منه ، فتتفرغ هذه القوى لآداء مهامها الفكرية والعقلية والشعورية ، فيحصل صاحبها بسبب هذا التفرغ على ثمراتها الأدبية ؛ فيفتح له التفكير مجالات للنظر والتأمل ، ويحجى العقل من هذه المجالات ما يزيد به مادته العلمية ، ويستفيد الشعور الانساني من هذه الاعمال ما يرفع به مستوى أدبه النفسى ، واتزانه الخلقى . وما جُعِلَتْ كل هذه القوى عبئا ، ولكن لتعمل فيه ، ويتأدى هو تحت تأثيرها الى درجات متتابعة من السمو الفكرى والعقلى والأدبى . ولولا هذه القوى وفعلها فيه في خلال العصور لما ارتقى الانسان عما كان عليه قيد أنملة .

الآن يمكنك أن تقدر ما يجنيه الانسان على نفسه وعلى بنى نوعه بتعطيله القوى العصبية عن العمل فيه ، بسبب صرفها الى هضم ما يلقيه في معدته من المواد الغذائية التي تزيد عن حاجته . إن انصراف هذه القوى الثمينة فى الهضم ، يُضْعِف على الانسان عملها الأدبى ، ويتركه تحت تأثير غرائزه الحيوانية ، فيعيش كما تلميه عليه من الميول التي لا تنفق وسموه الروحى ، ولا تلتئم وكيانه العلوى ، وتحرمه من الذخر الخلقى الذى يغالب به الحوادث ويتغلب عليها ، ويصبر به على العواذى الطبيعية لا حتى تنجلي فحسب ، ولكن حتى يستفيد من كَلْبِها عليه دروسا يدفع بها أمثالها عن نفسه وبنى نوعه ؛ ويتأمل تحت ضوءها فى كل ما يحيط به ليزيد به مادة علمه ، وعدد وسائله .

أما المحروم من نعمة هذه القوى فيبيأس من كل بادرة فشل ، ويضجر من كل سائحة خيبة ، ويضيق ذرعا بأصغر الحوادث ، ويشعر بالخور أمام أقل عقبة تلوح له ، ويحس بالإعياء إزاء أدنى عمل عقلى فلا يهتم بمحاولته ، وهذه الحالات تضطره للتسلح بما يناسبها من الصخب والجلب ،

وقد تتضيق المنادح أمام عينه فلا يفرج عنه إلا مشادة أول محتك به ، وإبلاغ النزاع الى غاياته القصوى ، حتى اذا استنفد بقية قواه العصبية ، سكن جيشان صدره وهمد أوانام ، واستيقظ متأهبا لتمثيل أدوار أخرى !

في هذه الحالة لا يكون لصاحبنا نصيب من الحياة الانسانية ، وقد لا يُرزق بمن ينهبه الى أن ما به ناشئ من ضعف قواه العصبية المعدلة لمزاجه ، وأقوى أسباب إضعاف هذه القوى التملؤ من الطعام بدون انقطاع .

فهل تستطيع أن تتخيل أن لهذه الحالة علاجا خيرا من الصيام ؟

وهناك أمر آخر أعظم شأنا من كل هذا ، وهو حرمان الانسان بواسطة التملؤ الغذائي من التعرض للنفحات الإلهية ، والإلهامات العلوية ، فاذا كان الانسان بهذا التملؤ يكتسب من الرعونات الخلقية ما يكاد يخرج عن دائرة الانسانية ، فكيف يرجى أن يتصل بالملاء الأعلى وهو على هذه الحالة ، وتلك حضرة لا يقبل فيها إلا ذوو الهمم النزاعة الى الكمال ، والقلوب التواقفة الى عالم الجلال ، بمن أدركوا أن الحياة إذا لم تكن غايتها هذه الرتبة العلية ، كانت عبثا ثقيلًا على صاحبها ، تنتهى كما بدأت في آلام وتباريح ليس لها حد تقف عنده : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك ، أتنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . »

وهل يتأتى لمن وصفنا حالتهم أن يذكروا آيات الله ويعملوا بها ، أو أن يؤمنوا بها ولا يسرفوا على أنفسهم ؟

لندارك الانسان من الوقوع في هذه الحالة السيئة من الحياة البهيمية ، شرع الله الصيام ، فالصيام رياضة نفسية ، يتمكن بها الانسان أن يستولى على زمام ميوله الجسدانية ، فيعدل من تطرفها ، ويقمع من تعسفها ، وبوجهها الى وجهة الصلاح ، فيحيا حياة طيبة ، ويعمرُج بما يكتسبه فيها من القوى الروحية الى عالم القدس ، فيتعلق منه بسبب يرفعه من عالم الحيوانية ، وهو لا يرفعه اليه حتى يصل به الى أبعد غايات الانسانية .

لبلوغ هذا الشأو البعيد ، شرع الصيام ، لا ليكون سببا في التوسع في المأكول ، فتقتصر حكته على أن يشعر الانسان بألم الجوع بضع ساعات .

إن ما ذكرناه من الحكم البالغة للصيام قد أدركه الكملة من رجال هذا الدين ، فاتخذوه وسيلة للاتصال بالملاء الأعلى ، فخلوا من السعادات الروحية ، وهم أحياء ، ما لا يدور في خلد المترفين الذين استعبدوا أنفسهم للعلاذ ، فحنت على عقولهم وأجسادهم شر الجنائيات ما

## نظرات في الادب العربي

جاهليه وإسلاميه

— ٧ —

مناهج الشعراء

درج الشعراء القدامى ، على أن يستوحى الشاعر خياله ، ويترسم خواطره الخاصة ، فيما يقرضه من الشعر ، فلا ينظر الى شعر غيره ، ولا يترسم خطاه ، إلا حين يريد معارضته ، ومساهماته ؛ كما فعل كثير منهم في مختلف عصور الأدب ؛ وإذا أخذ شاعر عن شاعر ، فأنما يأخذ معنى سبق اليه الأول ، في البيت ونحوه ، أو بعض الالفاظ والتراكيب ، كما هو متعارف معلوم .

ولكن شعراء العصر الحاضر ، قد استحدثوا نوعا غير المعارضة ، واستخدموه باسراف فيما قرضوا من الشعر ؛ وهو أن يعرِّم الشاعر — إذا أراد أن ينظم قصيدة في غرض من الأغراض — الى ديوان أحد الشعراء المتقدمين ، فيتخير قصيدة من قصائده ، يتخذها إمامه في نظم قصيدته ، ويتهدي بمعانيها وألفاظها الى ما يريد من المعاني ، ويفيد من قافيتها ومن أسلوبها إفادة تختلف قوة وضعفا ، وخفاء ووضوحا ، على حسب قوة المتأخر وضعفه . وقد نبه النقاد المعاصرون على ما وقع لكثير من شعراء العصر الحاضر من هذا النوع ، بما تعرفه جبهة الأدباء ، مما زخرت به المؤلفات الحديثة ، وتناولته الصحف والمجلات بالشرح والتفصيل .

وشوقى — على جلالة قدره — قد سار في هذا الطريق غير مرة ، وأكثر قصائده التي نسجها على هذا المنوال ، عرض له جبهة من كبار النقاد ، وردوه الى مراجعه ، واتخذوه في أكثر الأحيان سبيلا الى الموازنة بين الشاعرين ، وخرجوا من ذلك الى مدح الشاعر ، أو لومه ، كل على حسب ما تملى عليه صلاته به ، وعواطفه نحوه .

ومن القصائد التي لم يتعرض لها ناقد — فيما أعلم — قصيدته في رثاء المغفور له شيخ الشعراء : إسماعيل صبرى باشا ، التي جاء في مطلعها :

أجلٌ — وإن طال الزمان — مُوافي      أخشى يدك من الخليل الوافي  
داع الى حـقّ ، أهابَ بخاشع      لئيمٍ النذيرِ على هدى وعفاف

فقد تهدي فيها بقصيدة حكيم الشعراء أبى العلاء المعرى ، التي رثى بها الشريف أبأحمد الموسوى الملقب بالظاهر ، وعزّى ولديه : الرضى ، والمرضى أبألقاسم ؛ والتي جاء في مطلعها :

أَوَدَى — فليت الحادثات كَقَفَ مالُ المُسَيِّفِ وَعَنْبَرُ المُسْتَبَافِ  
الطاهر الآباء ، والابناء ، والد أثواب ، والآراب ، والألاف

وأذكر أنني كنت ممن شهد حفل الأربعين لشيخ الشعراء ، وأعجب بروعة قصيدة أمير الشعراء ، التي ساعد على تجليها إلقاء العالم الشاعر الجليل : علي الجارم بك ، إعجابا حملني على أن أردّ على المرحوم الشاعر الكاتب يوسف يكن بك ، نقدّه لها في مقال نشرته له المقطم ونشرت الرد عليه ، واستشهدتُ على قوة القصيدة بأبيات ، منها قوله :

جُفِعَتْ رُبَا الوادى بواحد أَيْكِهَا وَتَجَرَّعَتْ تُسْكَلُ الغدير الصافي  
فَقَدَّتْ بَنَانَا كالربيع مجيدة وَشَى الرياض ، وَصَنَعَةَ الأفوافِ  
إِنْ فَاتَهُ نَسْبُ « الرضى » فربما جَرَيَا إِغْيَاةِ سُودُودٍ وَطَرَافِ  
أَوْ كَانَ دُونَ أَبِي الرضى أبوة فلقد أعاد بياض عبد مناف  
شرفُ العصاميين مُصْنَعُ نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف ؟  
قل للشير الى أبيه وَجَدَهُ : أعلمت للقمرين من أسلاف ؟  
لَوْ أَنَّ « عَمْرَانَا » نَحْجَارُكَ لَمْ تُسُدْ حتى يشار إليك فى الأعراف

ولم يخطر ببالي ، ولا مر بخاطر من قرأ كلتي من الأدباء وأثنى بالخير ، أو فند ما فيها ولم يرضه ، آنئذ ، قصيدة المعرى ، وكانت بقعة رخصبة الردّ على ؛ حتى عثرت فى بعض دراساتى لسقط الزند على هذه القصيدة ، فرأيت فيها — إلى جانب الوزن ، والقافية ، والرضى ، وكثير من ألفاظها وقوافيها — قوله :

أَنتُمْ ذُوو النَّسَبِ القصير ، فَطَوَّلُكُمْ بادٍ على الكبراء والأشراف  
والراح إن قيل : ابْنَةُ العنب ، اكتفت بأبٍ عن الأسماء والأوصاف  
وَيُخَالُ موسى جدُّكم — لجلاله فى النفس — صاحب سورة الأعراف

فعرفت أن أمير الشعراء رحمه الله ، ليس أبأعذر هذا المعنى ، كما كنت أعتقد ، وإنما أخذه من الحكيم ، ثم تصرف فيه هذا التصرف الذى لا يخلو من براعة ، وفضل حيلة ، تكفلان له ما تبوأته شاعريته الفذة ، من مقام كريم . فالمعرى يتكلم فى موسى بن جعفر الصادق وهو أبو على الرضا ، ومعنى بيته الأخير : يُخَالُ جدُّكم موسى — لشرف ذاته ، وفضائل نفسه — مثل موسى النبي عليه السلام ، المذكور فى سورة الأعراف ، فى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأعمناها بعشر » الى سائر الآيات فيها . وشوقى — بعد أن أغنى المرثى عن شرف النسب القصير الذى أحرزه الرضى ، وفاته ، بشرف العصامية ، وأيد دعواه بقوله : أعلمت للقمرين من أسلاف — نقل الكلام عن موسى جد الممدوح ، الى موسى ( ابن عمران ) وعنى أن موسى الرسول لم يحرز الكرامة ببنوته لعمران ، وإنما أحرزها

باصطفاء الله له بالرسالة ؛ ولا أكذبُ الله ، أننى لم أفهم صلة هذا البيت على وضعه هذا ، بما سبقه من الآيات ، إلا على وجه يشيع الضعف في مطاويه ؛ فلقد تعلّمنا في الأزهر أن الرسالة وهيبية لا كسبية ، فليست من صنع نفس موسى ، ولا يستحق بها شرف العصامين ؛ وعندى أن أمير الشعراء كان في غنى ، أى غنى ، عن هذا البيت ؛ لو لم يطغ هوى تقليده للمعري ، على وحيه الشعري ؛ وإنما أتكلم على قدر عقلى ، وفوق كل ذى علم عليم .

\*\*\*

قال أمير الشعراء :

ذهبَ الذبيحَ السمحَ مثلَ سَمِيئِهِ      طَهَّرَ المُسَكِّفَنَ ، طيبَ الالفافِ  
كم بات يذبح صدره لشكاته      أتراه يحسبها من الأضياف ؟ (١)

الى أن قال :

أخنت على الفلك المудар ، فلم يدر      وعلى العُيَابَ فَقَرَّ في الرَّجَافِ  
نظر في البيت الثاني الى قول المعري :

إن زاره الموتى كسام في البلَى      أكَفَّانَ أبلغ مكرم الأضياف  
وطوى في البيت الثالث ما بسط الحكيم في قوله :

رَغَتِ الرُّعُودُ ، وتلك هَدَّةٌ واجبٍ      جَبَلٌ هَوَى من آل عبد مناف  
بخلت ، فلما كان ليلة فَقْدِهِ      سَمَحَ الغامُ بدمعه الذَّرَافِ  
ويقال إن البحر غاض ، وإنها      ستعود سينفا لجة الرَّجَافِ (٢)

وقال الأمير :

يا راكبَ الحُدْبَاءِ ، خلَّ زمامها      ليس السبيل على الدليل بخفاف  
دانَ المطىَّ الناسُ ، غيرَ مطية      للحقِّ ، لا عجلى ، ولا ميجفاف  
لا في الجياد ، ولا النياق ، وإنما      خلقت بغير حوافر وخفاف  
تنتاب بالركبان منزلة الهدى      وتوَّجُّ دار الحق والانصاف  
قد بلغت ربَّ المدائن ، وانتهت      حيثُ انتهت بصاحب الأحقاف

(١) مات المرحوم بعلة الذباح ، ويقال له : الذبيحة بكسر الذال وضمتها مع فتح الباء والحاء ، وهى وجع الحلق كأنه يذبح . ( لسان العرب ) . ومنه تعرف أنه لو استبدل بصدرة : حلقه ، لكان أشبه بالصواب .

(٢) توفي المرتضى في ليلة كانت السماء ترعد فيها ( رعدت السماء ترعدت بفتح العين وضمتها رعدا ورعودا ، وأرعدت : صوتت للامطار ) ولا يخفى بدع رضاء الرعود هنا . والسيف بالكسر : شاطئ البحر ، والجهة معظم ماء البحر ، والرجاف من نعت البحر ، والضمير في أنها للشان واللقصة ، والواجب الساقط والمالأك .

ولا ريب أن مفتاح هذه الأبيات ، هو قول الحكيم :

هَلَّا استعاض من السرير جِوَادَه      وَتَّابَ كُلُّ قَرَارَةٍ وَنِيَّافِ  
هِيَهَاتِ ! صَادَمَ الْعَنِيَا عَسْكَرَا      لَا يَنْثَى بِالْكَرِّ وَالْإِيْجَافِ  
هذا ، ومن روائع قصيدة المَعَرِّي قوله :

تَكْبِيرُ تَانِ حِيَالِ قَبْرِكَ لِلْفَتَى      مَحْسُوبَاتُ بَعْمَرَةٍ وَطَوَافِ  
ومن الشواهد الأزهريّة قوله :

وَالطَّيْرُ أَغْرِبَةٌ عَلَيْهِ بِأَسْرَهَا :      فَنَخُّ السَّرَاةِ وَسَاكِنَاتُ لَصَافِ (١)  
ومن روائع الشوقيّة ، قوله :

مَا أَنْتَ يَا دُنْيَا ، أَرَوْيَا نَأْمَ      أَمْ لَيْلِ عَرَسٍ ، أَمْ بَسَاطِ سَلَافِ ؟  
كَعَاوُكَ الرِّيحَافِ ، إِلَّا أَنَّهُ      مَسَتْ حَوَاشِيَهُ تَقْيِيعُ رُغَافِ  
مَا زِلْتُ أَصْحَبُ فَيْكَ خَلْقًا ثَابِتًا      حَتَّى ظَفَرْتُ بِخُلُقِكَ الْمُتَنَافِ  
وقوله :

لَا يَوْمَ لِلْأَقْوَامِ حَتَّى يَنْهَضُوا      بِقَوَادِمِ مِنْ أَمْسِهِمْ وَخَوَافِ

وأما بعد ، فقد كان من الدروس التي ألقىتها على الفرقة النهائية في كلية اللغة العربية ، هذا العام : الموازنة بين قصيدة الحصري : يا ليل الصب متى غده ، وقصيدة أمير الشعراء في معارضتها ، وراعني ما شهدته من ثورة الطلبة ووجومهم ، عندما آنسوا مني الميل الى ترجيح كفة الحصري ، نزولا منهم على أثر العواطف الخاصة ، وتمردا على حكم النظر العلمي ، وكانت صدمة من خيبة الأمل في آساع صدورهم للنقد ، وانتفاعهم بما علموا ، قهرتني على أن أطيل القول ، وأشتد في النصيحة ، وأعيد ما كنت أظنهم في غير حاجة الى إعادته ، من أن السكّال لله وحده ، وأنه لا يقدر في عظمة شوقي ، أن يتنابه الضعف حيناً ، على حين أنه يتسمّ قة الإجادة أحيانا ، وأن عواطف نحو شوقي ، أرسخ وأقوى ، على أضعف حاله عندى ؛ الى غير ذلك من وجوه الإقناع ؛ فلم يغير محتاج في موقفى مع القراء الكرام اليوم ، الى مثل ما احتجت اليه في موقفى مع طلبتى أمس . ولم يزر بزهير بن أبى سلمى ، والناطقة الذبياني ما قاله النقاد القدامى من أنهما كانا ينظران في أشعارهما الى شعر أستاذهما : أوس بن حجر ، حتى كانوا يقولون :

١ — السراة بالمهملة المفتوحة : جبال في أرض الين ، ولصاف كعذام : جبل طيء ، وفتخ ، جمع فتخاء العقبان التي تكسر جناحها في الطيران ، والمعنى أن كل الطيور في الحزن على المرنى ، مثل الاثريّة ، وإن لم تلبس حدادا ، ولم تقل شعرا . وقد نسب الى شاعر الغرّبان رثاء الفقيده بقصده على روى القاف ، في أبيات بدئية قبل هذا البيت .

إن زهيراً كان يتوكلأ في شعره ، على شعر أوس . وذكر ابن قتيبة أبياتاً لأوس ، استغلها زهير والنابعة لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط ، منها قوله :

لعمرك أنا والأحاليف هؤلاء لنى رحقبة أظفارها لم تقلم  
أخذه زهير ، فقال :

لدى أسد شاكى السلاح مقتذف له لبد أظفاره لم تقلم  
وأخذه النابعة ، فقال :

وبنوقعين لا محالة أنهم آتوك غير مقلى الأظفار  
ولا يخامرني رب في أن الأفضل للشاعر ، أن ينزع في نظمه ، عن وحى خياله ، ويستغنى بفيض خواطره الخاصة ، وشعوره المستقل ، عن النظر إلى أشعار الأقدمين ؛ ولعل هذه قضية يقل فيها الخلاف ؟  
كلية اللغة العربية عبر الجواد رمضان

## من ثمرات الورع

روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يدفعون عن أنفسهم أربعة أشياء :  
الامامة ، والودعة ، والوصية ، والفتوى .

كان الصحابة يهربون من تولى هذه الأشياء الأربعة ، ومن العجب أنها صارت مطمح الأنظار بعدهم ، ذلك لأن الصحابة طلبوا الدين لذاته ، وغيرهم طلبوا الدين للاستعلاء على الناس بسلطانه . وأعجب من هذا أن الناس يرون هذا الرأي ، ويعرفون المتزاحمين على هذه الخطط بسيماهم ، فيعضون عن ذلتهم هذه ، ويتغابون عنها ، ويمضون في معاملتهم على ما توجبه وظائفهم ، فيزدادون مضياً في تكاليفهم ، ويضطر الناشئون لتقليدهم ، للوصول إلى أغراضهم ، على طريقة أسلافهم ، ما دام الوازع معدوماً ، وما دام الناس يشجعونهم عليه .

هذا أثر من آثار تراخي عرى التكافل بين أفراد الجماعة ، وهو نذير شؤم على المجموع لا على طائفة منحرفة من طوائفها . قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » . في هذه الآية زجر شديد عن التغابي عن انحراف الطوائف والأفراد في المجتمع الواحد . وما دامت الحياة المشتركة تقتضى التكافل فلا محل للاغضاء عن الزلات بعد ما ثبت أن عقوباتهم تعم الجماعة ، ولا تخص الجناة .



# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

— ٨ —

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد قدروا الفرس حق قدرهم ، وأزولوا من أنفسهم أسمى المنازل ، وعرفوا لهم تلك اليد العظيمة في إقامة دولتهم ، فلم ينسوا عربيتهم ، لذلك تراءى لهم يترددوا في القضاء على منيرى الفتنة ضدهم ولو كانوا من أحب الناس لديهم وأقربهم إليهم ؛ فهذا هو أبو مسلم الخراساني الذي تعهد الدولة العباسية في منبتها ، وتولاها بحذقه وبراعته حتى قوى منها العود ، وأنعى الثمر ، وآتت أطيب الأكل ، فإن كل ذلك لم يشفع له أمام تنكيل المنصور به والقضاء عليه حينما استشعر منه روح الكبرياء والمناوأة ! وهؤلاء هم البرامكة الذين شغلوا مكانا من قلب الرشيد غير يسير ، فقد أتى على بنيانهم من القواعد ، ومزق شملهم شر ممزق لما جاوزوا الحدود ، وخرجوا على المألوف ؛ ومثل هذا ما فعله المأمون بالفضل ابن سهل ! وما أقدمهم على هذا العمل إلا شعورهم بتساوي المسلمين في الحقوق والواجبات مهما كانت أجناسهم .

ومما يدل على أن الفرس كانوا يكبرون العروبة ، أن كثيرا منهم كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا عربيا ؛ فهذا أبو مسلم الخراساني انتحل لنفسه نسبا عربيا ، فزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ! ويحكى صاحب الأغاني أن إسحاق الموصلي تناظر مع ابن جامع بحضرة الرشيد ، فسبه ابن جامع ، فغضب إسحاق إلى خازم بن خزيمه العربي فتولاه وانتمى إليه ، فقبل ذلك منه ، فقال إسحاق :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى      ودافع ضيمى خازم وابن خازم  
عطست بأنف شائح وتناولت      يدائى الثريا قاعدا غير قائم

فذلك يدل على أن من الفرس من كان يتطلب الشرف من طريق الانتساب إلى العرب .

يروى الأغاني : أنه كان لعلى بن الخليل صديق فارسى ، فغاب مدة وقد أصاب مالا ورفعة ، ثم عاد إلى الكوفة وادعى أنه من تميم ، فقال بهجوه :

يروح بنسبة المولى      ويصبح يدعى العربا  
فلا هذا ولا هذا      لك يدركه إذا طلبا

ويحكى الأغانى أيضا أن والبة بن الحباب كان يدعى النسب الى العرب ، فقال فيه أبو العتاهية :

أوالب أنت فى العرب كمثل الشيص فى الرطب  
هلم الى الموالى الصيـد فى سعة وفى رحب  
فأنت بنا لعمر الله أشبه منك بالعرب

وهذا كله لا يحول بيننا وبين أن نقول : إن الشعوبية قد بلغت أقصى غايتها فى القرن الثالث الهجرى ، لما قدمنا من أن شعور الفرس بأنهم أقاموا الدولة ، وشعور العباسيين بأنهم مدينون للفرس ، قد مهد لمن يبغضون العرب أن يلصقوا بهم ما شاءت لهم أهواؤهم ونزعاتهم من ذم وقبح ، كما أنه أتاح لمنعصبى العرب أن يردوا هذا القبح بمنزلة أو بأقبح منه .

هذا ولا نحب أن يفهم القارئ أن كل الفرس وكل العرب كانوا على غرار واحد ، يبغض بعضهم بعضا ، فالحق أن الكثرة الساحقة فى الأمتين كانوا متشبعين بروح الاسلام من عدم الاعتداد بالجنسية ، فإن طرأ ذكر الجنسية عرضا عرف الفرس للعرب فضلهم ومكاتبهم وأسبقيتهم فى الاسلام ، واعترف العرب للفرس بمحضارتهم العريقة وثقافتهم القديمة اللتين أفادت العرب كثيرا ، وخطت بهم خطوات واسعة نحو الرقى والكمال .

فهذا هو عبد الله بن المقفع الفارسى يمدح العرب ويطربهم ، ويبحار بأنهم أعقل الأمم وأجدرها بالبقاء .

فقد روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخذى عن شبيب بن شبة قال : « كنا وقوفا بالمربد - موضع بالبصرة كان مألف الاشراف - إذ أقبل ابن المقفع فبشبننا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال : لو ملتم الى نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ؛ فإن الذى تطلبونه لم تغفلوه ، ومهما قضى الله من شئ تناوله ؛ فقللنا وملنا ؛ فلما استقر بنا المكان قال لنا : أى الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا الى بعض فقللنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقللنا : فارس ؛ فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيرا من الأرض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبت فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئا يعقو لهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم ؛ قلنا : فالروم ؛ قال : أصحاب صنعة ؛ قلنا : فالصين ، قال أصحاب طرفة ؛ قلنا : فالهند ، قال : أصحاب فلسفة ، قلنا : السودان ، قال : شر خلق الله ، قلنا : الترك ، قال : كلاب مختلسة ؛ قلنا : الخزر ، قال : بقر سائمة ، قلنا : فقل ؛ قال : العرب ؛ قال : فضحكنا ؛ قال : أما أنى ما أردت موافقتكم واسكن إذ فاتني حظى من النسبة فلا يقوتنى حظى من المعرفة ؛ إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم » .

على أنك لا تكاد تعثر فى العصر العباسى على قرين لابن المقفع يالف لفه ، ويشايعه فى طريقته

من امتداح العرب وتنقيص الفرس أصله ومنيته ، سوى ابن قتيبة ؛ بل الذى لا تلقى عناء فى وجدانه أن طغمة من الأاجم فى العصر العباسى أخذوا ينقّصون العرب ، ويهجنون محامدهم التى بها يفخرون ويعتزون ، ومنهم من ألّف كتباً فى مناقب العجم ، واخترعوا القصص العديدة التى تطوح بكل شيء يعتز به العرب .

وقد تصدى للرد على هذه المآل الجاحظ فى بيانه وتبيينه ؛ وألف ابن قتيبة كتاب (العرب) رد فيه على من وضع شأن العرب ، وذكر ما اختصت به العرب من الفضائل . هذا ، ولم يكن وكر الشعبوية بلاد الشرق لحسب ، بل تعدتها الى بلاد الأندلس فى الغرب . فهذا هو أبو عامر بن غرسية ، فقد أنشأ رسالة يفضل فيها العجم على العرب ، فرد عليه كثير من فقهاء الأندلس وأدبائها ، وقد نقل هذه الردود صاحب كتاب « ألف باء » .

وقبل أن نختم هذا البحث لا بد لنا أن نشير الى أمرين ، أما أولهما : فإن الشعبوية كغيرها من النزعات كانت من العوامل التى أخصبت ، ناحية من الأدب العربى ؛ وذلك ما قصدنا إليه وحده دون أن نعرض لها من الوجهة العلمية إلا نرا يسيراً استدعاه ذلك القصد .

وأما ثانيهما : فانه لا بد لنا أن نقف موقف الحاكم المنصف بين الخصمين ، فنقول : إن الأمثلة التى سردناها نثرها ونظمها لا تخلو عن هوى فى النفس من الطرفين ، وإن كلا منهما كان مسرفاً مغالياً فيما يلصقه بخصمه من شين ونقص ، مما جعل التاريخ يعيد نفسه فيعرض على الأذهان صورة من صور الجاهلية الممعة فى الفرقة والاختلاف ، المسرفة فى الهجو والسباب .

ولئن كان للجاهليين عذرهم فما عذر هؤلاء وقد جاء الاسلام معقياً على كل هذا ، داعياً الى الوحدة والاعتصام بمحبه المتين ، ناظرًا الى الشعوب على سواء ، جاعلاً مناط الرفعة والكرامة تقوى الله وطاعته ؛ فالناس بذلك يتفاوتون ، وعلى أساسه يعاملون ؟

أحمد إبراهيم موسى

تخصص البلاغة والأدب

## لا غنى عن الناس

سمع عمر أمير المؤمنين رجلاً يقول : اللهم أغنى عن الناس . فقال له الفاروق : أراك تسأل الموت . قل : اللهم أغنى عن شرار الناس . وقال رجل لابن عباس : ادع الله أن يغنيى عن الناس . فقال له ابن عباس : إن حوايج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء ، ففى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ؟ ! ولكن قل : أغنى عن شرار الناس .

إن فى هذين القولين لحكمة ، فما أكثر الذين يعتدون فى الدعاء !

# كتاب الميثاق في الأخلاق والآداب

## الصدقة حاجة اجتماعية

في رأى ابن المقفع

الإنسان في الحياة المادية زميل الإنسان ومعاونه ، وعشيرته ومؤانسه ؛ ومهما بلغ الإنسان من الرخاء والسعة والاعتداد بالنفس فهو في حاجة ملحة الى من يبادل له الرأى ، ويكشف له عن نوازمه ، ويفضى إليه بذات نفسه . تلك غريزة كامنة في الطبيعة الإنسانية . وقد بما قالوا : الإنسان مدني بالطبع ، أى أن به ميلا الى التألف والتعاطف ، وحاجة الى التعارف والتفاهم ؛ وعلى هذا قامت شتى الروابط في المجتمع الإنساني ، وكانت الضرورة الداعية لاتخاذ الأوداء والخلصاء ، واصطفاء الأصدقاء والأخلاء .

ولبلغاء العرب ولحكائهم في الصداقة والصدق أقوال كثيرة ، ولكنها تنف مبعثرة تقع موقع الحكمة ، وتجري مجرى المثل ، وقد يظهر فيها التضارب ، وربما بلغت في الأداء غاية الإيجاز والرمز ؛ ولعل ابن المقفع هو أول من اهتم بهذه الناحية الخلقية فأفرد لها في التدوين ، ونظمها في باب تمكن مذكراته والوقوف عليه ، في كتابي الأدب الصغير والأدب الكبير .

لقد كانت محنة أخلاقية هزت كيان المجتمع الاسلامي في عهد ابن المقفع ، وهو سقوط أسرة مالكة وقيام أخرى ، وكان هو في صميم هذه المحنة يرى الشر يكشف له عن ناجذيه في كل خطوة ، والبطش يتهده في كل فرصة ؛ ولقد حاول جاهداً ان يعيش على الحذر والمسألة لعله يسلم ، ولكن هيهات ! فقد طاحت به الوقعة في النهاية ؛ فلا غرو إذا ما رأينا الرجل يحفل كثيراً بالدعاية للأخلاق الكريمة ، فينشد إصلاحها ، ويعظ الناس في الأخذ بأسبابها ؛ ولا غرو إذا ما رأينا يبالغ كثيرا في الحث على اختيار الصديق ، والتمسك بما تقتضيه معاملة الأصدقاء من الخلال الشريفة : كالوفاء والإيثار ، والبذل والمساحة ، والحفظ والرعاية ، وما الى ذلك من الصفات التي هي جماع الاخلاق الطيبة .

وما كل ما كتبه ابن المقفع في الصداقة والصديق من ابتداعه ، ولا هو من فيض تجربته واختراعه ، ولكنه تلقف كثيرا من حكمة الهند ، وآداب الفرس ، وتجربة العرب ، وصنع من كل ذلك سمطاً منتظماً لو تدبرته رأيته المثل الأعلى في بابه . وفي تقدمته للأدب الصغير يقول : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على صمارة

القلوب وصقلها وتجلية أبصارها ، وإحياء للنفس ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الاخلاق ، إن شاء الله .

ولعلك تعرف أن الرجل كان من الكتاب المثاليين ، أى أنه كان يصور الأمور على ما يجب أن تكون لا كما هي كائنة ؛ ولقد كان يذهب في الصدقة ومعاملة الأصدقاء مذهباً مثالياً يسمو على طاقة البشر ، وبرهق طبيعة الانسان المتقلبة ؛ ومن هذه الناحية تهجم بعض الباحثين على ابن المقفع ، وقال : إنه يفرض فروضاً لا يمكن أن تحملها طبيعة الإنسان ، وإنه ليذهب في كلامه إلى الخيال أكثر مما يقصد إلى الحقيقة . وليس هذا على ما أرى بعباب ولا نقص ، فإن الرجل كان يشفع القول بالعمل ، ويؤيد الرأي بالتنفيذ . لقد كان ابن المقفع يقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك » ، وأنت قد تقول : ولكن أين هو الانسان الذى يبلغ في الصدقة إلى حد البذل والإيثار ؟ وأين هو الرجل الذى تدفعه رجولته فينسى من أجل صاحبه روحه وماله ؟ وأنا أقول لك : لا تعجب فقد كان ابن المقفع نفسه هو ذلك الرجل ، وما كان الكاتب الكبير في رعاية الصدقة إلا آية الوفاء وحجة الفداء . ولقد روى في سيرته أن كان جالساً مع صديقه وختنه عبد الحميد الكاتب ، فدخل عليهما الجند يطلبون عبد الحميد للاقتصاص منه عند الخليفة ، فقالوا : أيكم عبد الحميد ؟ فقال ابن المقفع : أنا ، وقال عبد الحميد : بل أنا ، وهم الجند بأخذ ابن المقفع في صاحبه لولا أن أسرع عبد الحميد فقال : تمهلوا وتديروا فإن لكل منّا سمات تميزه ، وأنا من سماتي كذا وكذا مما تعرفونه ، فأخذوه ! ولولا ذلك لذهب ابن المقفع فداء صاحبه وهو قرير العين !!

فالرجل كما ترى كان إماماً في الأخذ برأيه ، وما كان من الذين يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وليست الصدقة عنده بالأوصاف والأقوال البليغة يهول بها على الناس ، على أنها لا تقع موقعاً من نفسه ، ولكنها تضحية بالروح والمال ، وخلق كريم يخدم فيه القلب واليد واللسان ، ولذا فهو يحذر من آفة القول مع ترك العمل فيقول : « وليعرفك إخوانك — والعامة إن استطعت — أنك إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل ، فإن فضل الفعل على القول زينة ، وفضل القول على الفعل عار وهجنة ، وإن إحكام هذه الخلعة من غرائب الخلال » (١) .

وابن المقفع يبتدىء فيقسم الناس الى أربعة أقسام : الأصدقاء ، والمعارف ، والعامة ، والأعداء ثم يقرر لكل منهم حقه في المعاملة والسلوك فيقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفقك ومحضرك ، وللعامة بشرى وتحننك ، ولعدوك عدلك وإنصافك ، واضنن على كل أحد بدينك وعرضك » (٢) .

« واعلم أن من عدوك من يعمل في هلاكك ، ومنهم من يعمل في صلاحك ، ومنهم من يعمل في البعد منك ، فأعرفهم على منازلهم ، (١) وإن كنت مكافئاً بالعداوة فأياك أن تسكف عداوة السر بـعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بـعداوة العامة ، فإن ذلك هو الظلم والاعتداء ؛ واعلم مع ذلك أنه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله ، كالخيانة لا تسكف بالخيانة ، والسرقه لا تسكف بالسرقه (٢) » .

« والبس للناس لباسين ليس للعاقل يد منهما ، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما : لباس انقباض وانحجاز من الناس ، تلبسه للعامة ، فلا يُلَفونك إلا متحفظاً متشدداً متحزراً مستعداً ؛ ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك ، فتلقاهم بذات صدرك ، وتفضي إليهم بمصون حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والنحفظ فيما بينك وبينهم ؛ وأهل هذه الطبقة – الذين هم أهلها – قليل من قليل حقا ، لأن ذا الرأي لا يدخل أحدا من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختيار والتكشيف والنقة بصدق النصيحة ووفاء العهد (٣) »

محمد فخرى عبد المطلب

(١) الادب الكبير ص ٩٥ . (٢) الادب الكبير ص ٩١ . (٣) الادب الكبير ص ٧٧ ، ٧٨ .

## فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « والعصر ، إن الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة .

وقال الحسن البصري : وجدت الدنيا والآخرة في صبر ساعة .

وقد أجاد أبو الفتح البستي في قوله :

ولم أر مثل الشكر جنة فارس ولم أر مثل الصبر جنة لا بس

وقال غيره :

وليس الفتى من خوّر الخطب صبره ولكن من خار في صبره الخطب

نقول : لا يصح أن يفهم من هذا أن الانسان يجب عليه متى ابتلى بكارثة أن يصبر لها جامدا حتى تزول ، ولكن أن يعمل لإزالتها في صبر وثبات حتى لا يعزب عنه رأيه بالهلع . وقد أمر الله بالصبر في القتال ، فهل يتوهم أحد بعد هذا أن الصبر استسلام وجود ؟

## الدعوة الى الاسلام

منذ أيام غير طويلة ، طالعت في إحدى الصحف مقالا لكاتب اجتماعي ، يتهم فيه علماء الدين ، والقائمين بالدعوة إليه خاصة ، بأنهم يشجعون الناس على ما هو أشبه بما يسمى « بالفوضى الدينية » ، إذ يرحبون بكل راغب في « الاسلام » مهما كان تفكيره واعتقاده ، وعلمه وإدراكه ، غير مباليين بغرضه من هذه الرغبة ، مع أن كثيرا منهم قد لا يكون له قصد سوى الارتزاق من هذا المال الذي منأه به « الواعظون » ، أو الصدقات التي قد ينفعه بها المثلثون ، من فضل ثرائهم ؛ وأنه ربما كان فيهم مع ذلك من يريد بدينه « الجديد » أن يخلص من زوجته التي لم يجد في نصرانيتها ، أو يهوديته ، ما يساعده على أن يطلقها ، أو يفارقها بالمعروف !! ثم أهاب بالمشرعين في نهاية المطاف أن يضعوا حدا لهذه المسألة ...

والذي يقرأ هذه الكلمة ، لا يشك في أنها تنطوى في جملتها على شيء من التجنى على رجال الدين ، والقائمين بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ...

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحرص كل الحرص على « هداية الناس » حتى لا تكون فتنة (١) ويكون الدين كله لله . وكان يبالي في هذا الحرص ، الى أن ينال من راحته ونومه ، ولم يخفف من هذا السكد المتواصل ، إلا بعد أن زاده الله علما في ذلك بأمثال قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، وقوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ! » . وكان حقا على أصحابه ، أن يكونوا على قدمه مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة . وحضهم على الدعوة للاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى أنه قال : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » .

ولكنه لم يقصد بهذه الهداية أن يقود المسلم غيره للدين قيادة عمياء ، خالية من الدراية والنظر ، ولكنها هداية النور والعلم ، في هداية وثبت . وليس أدل على ذلك من قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . » فانها قد رسمت دستورا للدعوة الى الله ، لا تصل إليه أمة بلغت من الحضارة والمدنية ، ونضوج العقل ، ودقة التفكير ، شأوا عاليا ، ودرجة سامقة ، إذ تضمنت النجدة وإغاثة الملهوف ، وإيواء المستجير ، ودفع الخوف عنه ، وزادت عليه الدعوة الى الله من طريق التروى والتعقل ، في جو من الأمن والطمأنينة ، ليكون إيمانه صادرا عن تثبت واستدلال .

وكل نبي من الأنبياء يفاخر باتباعه يوم القيامة، ثم يكون أشدهؤلاء مفاخرة، وأكثرهم مباهاة، نبينا - عليه أفضل الصلاة والسلام - لا لكثرة سواد، وزيادة عدد خصب، ولكن لأن فيهم العلماء الذين نشروا اللواء بعده، وذادوا عن حياض هذا الدين، ودعوا إليه بالتي هي أحسن.

وتجد القرآن الكريم، يعنى بالنظر والتفكير، والتدبر والمعرفة، والتأمل في مصنوعات الله، ويقدم ذلك كله على ما سواه: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت؟»، «قل سيروا في الأرض ثم انظروا»، «أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض؟»، «قل انظروا ماذا في السموات والأرض...» ولعل في هذه الآيات وأمثالها، ما يدلنا على عناية هذا الدين بالفكرة والمبدأ، أكثر من عنايته بالأرقام والأعداد، فهو يريد أن يكون فكرة في النفوس، وعقيدة في القلوب، حتى يكون الله ورسوله أحب مما سواها وكفى: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين».

على أن هؤلاء الذين يقصدهم حضرة الكاتب، ممن يطهرون وراء المنفعة، ويسيروا في أعقاب الأغراض، ممن يؤمنون وجه النهار، ويكفرون آخره، لا يقيم الدين لهم وزناً، وهم أشبه عنده بالمنافقين الذين كانوا يؤمنون، ليأخذوا من أسلاب الحرب، وغنائم القتال «فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون...»

ولكن هل يستطيع المكلفون بقبول من يطلبون الدخول في الاسلام أن يطلعوا على ضمايرهم، ليقفوا على خبيثة نفوسهم، ويرفضوا طلب المحتالين منهم؟ ذلك ما لا سبيل إليه. وفيه هذا التشديد كله في بيئة انتشر فيها دعاة يغرون الناس بالمال لقبول دعوتهم، ويعدونهم بضروب المساعدات والرايات؟ فإذا لم يكن إزاء هذه الحركة النشطة شيء من التسامح في قبول طالبي الدخول في الاسلام، اعتُبر ذلك مناصداً عن الدين، وأحجم الكثيرون عن الإقبال عليه تحامياً من التشهير. على أنه لو أحصى عدد الذين يسلمون لأغراض مادية لما بلغوا عشر معشار الذين يطلبون الاسلام رغبة فيه.

وبعد: فهذه كلمة توجب التفكير على الذين يعالجون هذا الموضوع دون تعمق فيه، فإن الكلام في انتشار الأديان والدعوة إليها شئون اجتماعية يصحبها ظواهر نفسية لا يحسن إغارتها نظرات سطحية، والبت فيها دون إطالة الروية، وإنعام النظر البعيد.

أبراهيم علي أبو الحسب  
المدرس بمعهد القاهرة



## من اخلاق الشريعة وآدابها

أسلفنا للقراء شطرا من الكلام عن آداب الشريعة وأخلاقها ، وكيف أنها تحكم المجتمع بأمثل الطرائق وأنبيل الأنماط والمناهج ، وتخلع على هذا الوجود ناموسا كان وما يزال مردا للخير ومثابة للطمأنينة والأمن والهداية ، وكيف أنها تواصت بين أطوائها بالمبادئ العامة لقوانين البشر بل لقوانين الوجود كله في أمر معاشه ومعاذه في أدق صوره وأبلغ مراميه .

فهي توصي بالرحمة لخلق الله جميعا ، وتفويض في تلك الرحمة إفاضة دونها كل إفاضة ، ذلك لأن الرحمة بين الناس بل بين الكائنات ، المظهر الأول لبقاء هذا المجتمع قائما يؤدي كل جزء من أجزائه رسالة الى الجزء الآخر بأمانة وحزم وإخلاص .

فيروى الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة رضى الله عنه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » . وأخرج الترمذى في صحيحه عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق صاحب هذه الحجة يقول : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » . وجاء شيخ كبير يريد النبي صلى الله عليه وسلم فأبطل القوم عنه أن يوسعوا له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لا يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » . روى هذه الثلاثة أبو داود والترمذى . ويروى الترمذى في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر » . وعن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قبض الله له من يكرمه عند سنه » . ويروى الشيخان في صحيحهما عن النعمان ابن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويروى أبو داود رضى الله عنه في صحيحه في باب المزاح نوعا من الأخلاق المثالية تدل على مبلغ عناية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالأمن والطمأنينة تعمر القلب وتملأ النفس بهجة وتبشيرا حتى في المزاح الذى قد يند عن طرائق الحياة الجدية أحيانا بما ينساق إليه بعض الفطر والطبائع صادرا عن حسن طوية وسلامة نخبة ؛ فيروى أبو داود في هذا الصدد فيقول :

« وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفر معه ، فأخذ بعضهم من أخيه جبلا وهو نائم فاستيقظ ففزع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلما » .

ومثل هذه القصة في المزاح قصة أخرى يرويها أبو داود في صحيحه ، فقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فانطلقت لحاجتي فرأيت حمرة ( نوع من العصافير ) معها فرخان ، فأخذت فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش ( تصيح حزنا على فرخيها ) ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من فجع هذه بولدها ؟! ردوا ولدها إليها !

ومثل هذه القصص قصة أخرى هي أمثلة عالية للخلق الكريم ، وآية رائعة للقلب الرحيم ، فهي بعد حفز للأقوياء على الرحمة بالضعفاء ، بما ادخر الله لهم من مثوبة ، وما كتب لهم من باقيات صالحات . فقد روى البخارى ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رجل يمشى بطريق ، اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ فقال : نعم فى كل ذات كبد رطبة أجر .

فبينما تلك الشريعة السمحة تفيض أيما إفاضة فى تواصى الناس بالرحمة الشاملة إبقاء على ذلك الرباط الوثيق أن تتحل عراه وأن ينهار مبناه ، إذا بها توصى بعد ذلك بالبر بالفقير والحذب عليه والتوجع له إذا نزل به مكروب أو حلت بساحته فاقة ، ويشمل ذلك اليتيم والأرملة والجار الضعيف ، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى فى شأن الرحمة باليتيم والمثوبة عليها . فقد روى هؤلاء الأربعة عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى » .

والشأن فى الأرملة التى لا زوج لها شأن هؤلاء فى بذل الرحمة والمعونة ، والرفق بها ، والعطف عليها ، فقد حكى العلامة ابن رشد أن الأرملة إذا كان فيها نوع من الجمال يرغب فيها الأزواج ويحببهم إليها ، ثم غفت نفسها عنهم وحبست ذاتها على يتاماها ، كان لها أجر الصابرين . وذلك بدى الظهور لأن انشغالها بأطفالها وسهرها على راحتهم مع تغير حال واشتغال بال وكثرة بلبال مما يضاعف لها فى ذلك الأجر .

هذا وأمرار الشريعة الاسلامية لا تحصى . وسنحاول قدر الجهد أن نضع بين يدي القراء من هذا النوع ما يتيسر لنا على التتابع . فإلى الغد القريب

# معروض لأراء المحييين

## في الإسلام والمسلمين

حالة المرأة العربية في الحريم

للأوربيين ولوع بالكتابة عن المرأة الإسلامية، وكثيرا ما شطت أقلامهم طلبا للإغراب، واستنزال عجب القراء، فأتوا بما يشبه ما دُوِّن في حكايات ألف ليلة وليلة. وهم إذا كتبوا عن المرأة العربية حيث الحجاب الكشيف، والعزلة النامة عن الرجال، جاءوا بما لا يوجد إلا في عالم الخيال. وقد انتشرت هذه الكتابات منذ قرون، وزادها الكتاب المحدثون توكيدا، فأصبحت هذه الخيالات حقائق يتعذر إزالتها من الأذهان. فإذا اتفق لأحدنا وقابل أوروبيا أقبل من بلاده حديثا، وجده دهشا مما يجد من التناقض بين الصورة الذهنية التي علقها عن الشرق والشرقيين، وبين ما عليه حالهم في الواقع، ولكن الذين يزورون الشرق عدد قليل، وأكثرهم من التجار والمستعمرين، وهؤلاء لا تأثير لهم على الرأي العام في بلادهم لأنهم لا يكتبون؛ ومن يجيء إلى بلادنا من كتبهم تشوقهم الآثار والعادات، أكثر ما تشوقهم الأخلاق والعادات، فلا يعمرونها إلا نظرات سطحية. وبذلك بقي الشرق الإسلامي معتبرا دار عذاب للمرأة تعاني فيه الويل والشبور.

وقد وقفنا على مقال نشر في جريدة (جورنال دو جنيف) السويسرية، تحت العنوان المتقدم، آتسنا فيه اعتدالا، فرأينا أن نعر به لقراء هذه المجلة ليعلموا بعض ما يقال عنهم، وسنلاحظ على ما يقتضى الملاحظة منه.

قال :

« المرأة العربية في الطبقة الثرية ليست بتعسة الحظ في حريمها، فهي لا تتألم من التشدد في حبسها، وإن شدة حبسها للاطلاع على كل ما يمس عاداتنا وأزيائنا النسوية لا يقابل منها رغبة في التحرر والخلاص مما هي فيه. فهي كطفلة جاهلة كل الجهل، طيبة القلب عطوف، لا تدري مما هو خارج حملها سوى أسرتها شيئا، وكل معلوماتها تنحصر في دائرة حليها ومسائل الحبل والإجهاض، وهي تشمر بضجر لا تستطيع تحديده، ولا تعرف كنهه.

» ينذر أن يكون للعربي الثري من أهالي شمال أفريقيا أكثر من زوجتين، ويكثر

أن لا يكون له غير زوجة واحدة ، تكون سيرته معها عادية ، أعنى ليست على أسلوب الوحشية الظالمة البهيمية التي تخيلها قصاصون ليسوا على شيء من العادات العربية البيتية . وقد اعتاد العربي أن لا يقضى بشيء مما يجري في داخل داره . ويرى أنه لا يصح أن يُسأل عن أحوال امرأته . فهذا الأمر لا يجوز الإلمام به إلا إذا رأى هو أن يتكلم فيه . فإذا اتفق أن امرأته محتضرة ، فلا يذكر ذلك لأحد ، محتفظا باتزانه العادى ، وبأسلوبه الكلامى المشبع بالغاية القصوى من الأدب . وهذا التحفظ منه في هذا الموطن عادةٌ يجري عليها ، ولا يدل على عدم التأثر مما هو بسبيله . وللنساء العربيات ككل نساء العالم أزواج يختلفون في صفاتهم الطيبة والريثة .

« أما حالة هؤلاء النسوة فتلوح لمن عادية لا شية فيها . أما اللاتي يتألمن منها فهن اللاتي يردن أن يذقن لذة الحرية التي لا تصلح لها بيتتهن ، ولا يصلحن هن لها ، والعربيات وإن كن على جانب عظيم من الذكاء ، فإن نقوسهن قد ألفت العادات التي نشأن عليها ، وإن كانت تربيتهن الحديثة قد جعلتهن كالمسحطات عن مكانتهن . وقد عرفتُ شابتين عربيتين كلتاهما حاصلة على الدكتوراه في علم الحقوق ، دخلتا الحريم بالزواج بعد عودتهما من جامعة باريس عن طيب نفس ، ولم تخرجا منه . وليس هذا بالأمر النادر .

« فعلى المرأة الأوروبية التي يسعفها الحظ بأن تقبل في الحريمات ، باعتبار أنها صديقة لأهلها ، أن ترى من الواجب عليها أن لا تحاول جذب أخوانها العربيات الى قبول فكرة التحرير . فهذه قد تكون غلظة (سيكولوجية واجتماعية) . ولكن يجب عليها أن تعتبر صواحباتها المسلمات الجميلات اللاتي يشبهن ملكات بيزانطة ، مخالقات لها في الشعور . فيجب أن تعاشرهن ، وأن تحترم أسلوب حياتهن ، دون أن تسعى في بذر بذور الآراء التي لم تستعد عقولهن لقبولها .

« أما أعظم ما يمكن أن يعمل لمن فهو العناية بأمر صحتهن ، وإشراك الأزواج في هذه العناية . ذلك لأنهن مصابات بفقر الدم بسبب معيشتهن في الظل ، ولأن دورهن الفخمة تجاور فناء قدرا مملوءا بالفضلات ، تقم فيه خادما قذرات ، وأطفال مصابون بالقمل . وليس لهذه السيدات حديقة يمكن أن يستنشقن فيها الهواء بعيدين عن الأنظار . فإذا أصبن بمرض تولت علاجهن العجائز ، وهن اللاتي يقمن بصناعة التطبيب في القبيلة ، ويعشن محترمات بمبجلات ، وليس لعلاجهن أساس علمي ، بل هو مستمد من فنون الشعوذة . أما الطبيب من جنس الرجال فلا يقبل في هذه الدور إلا نادرا ، ولا يلجأ أهل المريض أن يبعثوا به الى المستشفى إلا حين لا يروجى له شفاء .

« فالمرأة الأوروبية تستطيع أن تؤدي لهذه الأسر خدمات جليلة بالتوسط في إدخال مبادئ العناية الصحية إليها ، ذلك أجدى عليها من بث الآراء الاجتماعية فيها .

« وقد اعتاد النساء المسلمات أن لا يقبلن الاخذ بالوسائط الصحية ، فيما يتصل بالأمراض النسوية ، إلا من نساء بشرط أن يكن متزوجات . ويمكن بواسطة العلاج بالحقن مكافحة أمراض كثيرة ، وآفات جمة ، مثل الزهري الذى يفتك بعدد عظيم من الجنس العربى ويدنسه !

« فإذا برت الأوروبية مرضى هذه الأسر بهذه الوسائل السهلة وبدون ألم ، فوجئت بشكر عظيم من هؤلاء النسوة ، وذكرن ذلك طوال حياتهن . وتجدهن لا يدخرن شيئاً فى سبيل الإغراب عن سرورهن ليثبتن فرط شكرهن . فبأيتها الممرضات من الجنس الأبيض ، هل تنتظرن من مرضاكم المتعدنات مثل هذه الثمرة ؟ ( د . ج )

\*\*\*

( مجلة الأزهر ) : إن هذه المقالة على خلوصها من التجنى وتعمد التشهير ، لا تخلو من المبالغة والإغراب ، فإن الادعاء بأن العربيات المحجبات كلهن مصابات بفقر الدم ، يشبه قول خصوم الحجاب هنا : إن جميع المحجبات مبتليات بهذا الداء ؛ والواقع يدل على خلاف هذا الاتهام . فإن تلك النسوة إن كن محجبات فهن لسن بمحبوسات ، وكل من زار البلاد المغربية يعرف ذلك كل المعرفة . ولكن كتاب الفرنجة يعادون الحجاب ولا يقصرون فى اتهامه بكل نقيصة ، ويقلدنم لدينا من يأخذون إخذهم ، ويزيدون عليهم فى منأوانه .

واليوم وقد أسفر النساء ، ونتج عن سفورهن ما نتج من الاستخفاف بالآداب ، والاغراق فى التبرج ، قلب أنصارهن بالأمس لهن ظهر المجن ، وأخذوا يشهرون بهن فى كل ناد ، حتى أخذوا يصيحون بوجوب إقامة شرطة للآداب !

كل هذا ولما يعض على سفورهن غير سنين معدودة ، فما ظنك حين يتغلغلن فيه ، ويرتكب الطائشات منهن من ضروب الاستهتار فى التبرج ما لا قبل للشعور الاجتماعى على قبوله ؟ عند ذاك يطرأ على الشرق داء جديد يدعو نه تهتك النساء ، يضاف الى سائر علله ، وهو أشدها فتكاً ، وأصعبها مراساً ، وأفعلمها فى إفساد نفسية الجماعات ، وتفكيك عراها ، والإسراع بها الى الهلاك .

فإذا كان يتعذر اليوم إعادة الحجاب ، فهل يعز على السلطات المختصة أن تحد من التبرج الممقوت ، وأن تصد من ضروب التهتك المعيب ؟ هل تستطيع تلك الجهات أن تضع لتقصير الثياب وتضييقها حداً ؟ هل يتسنى لها أن تمنع كشف الرأس والصدر والذراعين والساقين فى الطرقات ؟

إذا أمكن ذلك وأنا في شك من إمكانه ، لاشتداد الفتنة وتحكمها ، فإن ترك جبل الأمور على غواربها ، والاكتفاء بالشكوى منها ، لا تكون له نتيجة غير تطور الداء الى حالات يستعصى معها على العلاج ، ولا يدري إلا الله ما يؤدي إليه من الازمات الخلقية والمعضلات الاجتماعية .

وبالغ الأستاذ ( د . ج ) في حكمه بأن الزهري شائع بين العرب ، وهو يريد عرب بلاد المغرب . فما أصدق المثل العربي في هذا المواطن وهو : رمتني بدائها وانسلت !

إن هذا الداء لم يكن معروفا ببلاد الشرق قبل حلول الأجانب به ، فهم الذين جلبوه فيما جلبوه معهم من فوائد المدنية ومضارها ، حتى أنه قد نسب إليهم فساد الناس بالداء الأفرنجي . فإذا كان يكثر في عرب المغرب كما يقول الكاتب ، ولم يقدم لنا دليلا على ما يقول ، فإن هذا الداء قد يجيء من طريق العدوى ، ولا يشترط أن يكون المصاب قد التاثر به من الوقوع في الاثم المسبب له . فقد يشرب الانسان من كوب ماء في مقهى يكون قد شرب منه قبله مصاب بالزهري ، فإذا كان في فم الشارب البرىء أو في لسانه جرح ، تلمح بميكروب هذا المرض العضال ، فسرت ميكروباته في دمه وأحدثت به الزهري . وهذا المصاب الجديد يمدى أهله به ، وهؤلاء يعدون غيرهم من هذا الطريق ، فينتشر فيهم ، والجميع يتساوون في الجهل به ، وفي الخجل من الاعتراف به لطبيب ، فيتطور لديهم ، ويبلغ أشد درجاته .

وقد فطن الانجليز لهذه الحالة النفسية لدى المصابين به ، فأسسوا مصحات تتعهد لمن يترددون عليها كتمان أمرهم ، وتعالجهم منه بحيث لا يشعر بهم أقرب الناس اليهم . كل ذلك تشجيعا للمصابين على المبادرة بالتخلص من هذا الداء الويل .

فلو فطن الشرقيون لتأسيس مثل هذه الدور ، خفت وطأة هذه الآفة الخبيثة التي لا تقتصر عواذها على الشخص وحده ، ولكن على ذريته أيضا الى يوم يبعثون .

أقول هذا وأنا موقن بأن خير علاج لهذه الاباحة إعادة سلطان العقائد الأولية الى النفوس ، فهي وحدها التي تتحكم فيها ، وتحد من سطوة الشهوات عليها . وفي العلم والفلسفة أسلحة ماضية لإثبات هذه العقائد ، لا تقوى عليها الشبهات الإلحادية . وهذا العلاج وإن كانت ثمرته بطيئة إلا أنها تكون دائمة ، ولا تتربص من القوة الوازنة ضعفا لنعود أقوى وأكلب مما كانت عليه ، كما حدث ذلك في كل أدوار التاريخ .

محمد فريز ومبري

## تاريخ الفن المصرى القديم :

هذا كتاب أصدرته دار الهلال على عاداتها من طبع ملحقات سنوية فى موضوعات حيوية ، تحسن إدارتها انتخابها ، وتبدع فى تحليلتها بالصور ، وفى إتقان طبعها . وقد وصلنا منها أخيرا سفر نفيس جم الفوائد فى فن العمارة . ومن يعرف أن المصريين القدماء قد بلغوا من هذا الفن أوجه الأعلى ، يدرك أن الكتاب الذى يبحث فيه يجب أن يكون ذا قيمة عالية ؛ ومن يستطيع أن يبلغ هذه الدرجة غير الرجال الذين وقفوا حياتهم على دراسة هذه الآثار القيمة لأول وأكبر مدنية قامت فى العالم ؟ لذلك وقع اختيار دار الهلال على واحد من أولئك الاختصاصيين وهو الأستاذ القدير محرم كمال ، الأمين المساعد بالمتحف المصرى ، فهدت إليه بوضع كتاب فى هذا الموضوع . فجاء سفرنا نغما يقع فى مائتين وعشرين صفحة محلى بعشرات من صور التماثيل والهياكل ، لا يدع صغيرة ولا كبيرة مما تنوق النفس الى معرفته فى هذا الموضوع إلا أنى به فى أسهل وأبلغ عبارة . فنشكر لدار الهلال هذا الاختيار الموفق ، ونثنى على إحسان الأستاذ المؤلف فيما تصدى له ، ونرجوه المزيد .

## بردة محفوظ :

البردة قصيدة مشهورة مدح بها الأستاذ البوصيرى من أهل القرن السابع الهجرى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فنسج على منواله شعراء كثيرون الى عصرنا هذا ، كان منهم المرحومان البارودى باشا ، وشوقى بك ، واليوم يقدم الى القراء الأستاذ الشاعر المطبوع احمد محفوظ بردة جديدة سيجد فيها القراء لذة الجديد ، فى عبارات منتحلة ، وألفاظ منتخبة ، وشاعرة موفقة . قدم لها معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف فأحسن الثناء على ناظمها ، وإننا نشاركة هذا الثناء ، كافأ الله شاعرنا بما يستحقه فى هذه وتلك .

## على هامش التاريخ المصرى القديم :

عرفنا حضرة صاحب السعادة عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ محاميا مدرها ، وكاتبا سياسيا مبدعا ، وما كنا نعرفه مؤرخا محققا إلا حين حظينا بقراءة كتابه الممتع ( على هامش التاريخ المصرى القديم ) ، فقد فاجأنا به على غير انتظار ، فكانت مباغتة طريفة وقعت منا أحسن وقع ، حفزتنا الى الاكباب على قراءته ، وإذا به ثمرة يانعة لدراسات طويلة شاقة فى تاريخ مصر القديم ، بذل الباشا الأستاذ فيها سنين كثيرة ، شقها برحلات الى مواطن الآثار فى صعيد مصر ، فكان أثر هذا الجهد المتواصل ظهور هذا العمل التاريخى الضخم .

إن سعادة الأستاذ وهو يكتب هذا السفر الجليل كان يتوخى فيه غرضين : أولهما العلم

لذاته ، وقد وفاه حقه الى حد بعيد يجعله في مقدمة الدراسات الممحصنة التي لا يحتاج معها مطالعه الى المزيد ، وثانيهما باعتبار أن التاريخ خير ما يبنى في نفوس النابتة الشعور بالعزة القومية ، وهي كما لا يخفى من أكبر العوامل في بعث الهمم لا لبلاغ المجتمع أرقى ما يمكن أن يصل إليه من الشرف والسؤدد . فقد قال سعادته :

« الآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مذهب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محيٍ للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ماغن للفضائل الوطنية والاجتماعية » .  
ثم قال سعادته :

« إن الناشئ في إنجلترا أو في فرنسا أو في ألمانيا أو في غيرها من البلاد الراقية ، ينشأ وتاريخ بلاده يسايره في كل سنة من سنى تعاليمه ، فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع ما في هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتتولد رغبة في محاكاة أبطاله ، وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية ، وتتربى أو تقوى فضائل الإقدام ، وسمو النفس ، ومجادلة المخاطر ، والميل الى طيب الاحدوثة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها ، سواء أكان تاريخ مجد وبسطة في الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ متاعب وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومي أول عامل في تربية الفضائل النفسية ، وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرسم في ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئاً عنها فليس هذا الشيء سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخرافات بالاختفاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث الى النفوس حديثاً يقومها ويربى الفضائل فيها » .  
في سبيل تحقيق هذين المقصدين الشريفين ، تصدى سعادة الأستاذ صاحب البلاغ لنشر مؤلفه الذى نحن بسبيل الكلام عنه .

لقد جمع هذا الكتاب جميع المغريات على القراءة والاطلاع : فهو مدجج بقلم عُرف منذ نحو ثلاثين سنة بالإبداع في البيان ، ومبوب أحسن تبويب بحيث تتداعى فصوله تداعياً منطقياً ، ومحلى بعشرات من الصور واللوحات المتقنة الصنع وبعضها بالألوان ، ومطبوع أتقن طبع في مطبعة دار الكتب المصرية على ورق غاية في الجودة .

فنشكر لسعادة المؤلف هديته النفيسة ، راجين له حياة طيبة ، ومزيداً من التوفيق .



The next battle between the Koreishites and the Moslems, was the battle of Ohod, a hill about four miles to the north of Medina. The idolaters, to revenge their loss at Badr, made tremendous preparations for a new attack upon the Moslems. The next year, they collected an army 3000 strong, of whom 700 were armed with coats of mail, and 200 horses. These forces advanced, under the conduct of Abu Sofian, and encamped at a village, six miles from Medina, where they gave themselves up to spoiling the fields and flocks of the Medinites. The Prophet, being much inferior to his enemies in number, at first determined to keep himself within the town and to receive them there; but afterwards, the advice of some of his companions prevailing, he marched out against them, at the head of 1000 men, of whom 100 were armed with coats of mail; but he had no more than one horse, besides his own, in his whole army. With these forces he halted at Mount Ohod. He was soon abandoned by Abdulla Ibn Obay, the leader of the Hypocrites, with 300 of his followers. Thus, the small force of the Prophet was reduced to 700. At Mount Ohod the Moslem troops passed the night, and in the morning, after offering their prayers, they advanced into the plain. The Prophet contrived to have the hill at his back, and the better to secure his men from being surrounded, he placed fifty archers on the height in the rear, behind the troops, and gave them strict orders, not to leave their posts whatever might happened. When they came to engage, the Prophet had superiority at first, but afterward, through the fault of his archers, who left their position for the sake of plunder, and suffered the enemies' horsemen to surround the Moslems and to attack them in the rear, he lost the day, and was very near losing his life. He was struck down by a shower of stones, and wounded in the face by two arrows, and one of his front teeth was broken. Of the Moslems 70 men were killed, among whom was Hamza the Prophet's uncle; of the infidels 22 men were lost (1).

The Koreishites were too exhausted to follow up their advantage, either by attacking Medina or by driving the Moslems from the heights of Ohod. They retreated from the Medinite territories, after barbarously mutilating the corpses of their dead enemies.

The moral effect of this disastrous battle was such as to encourage some neighbouring nomad tribes, to make forays upon the Medinite territories; but most of these were repressed.

The Jews also were not slow to involve in trouble the Prophet and his follower. They tried to create disaffection among his people, and libelled him and his adherents. They mispronounced the words of the Koran, so as to give them an offensive meaning. They also caused their poets who were superior in culture and intelligence, to use their influence

---

(1) Ibn Hisham.

Towards the second year of the "Hijrah" the infidels of Mecca began a series of hostile acts against the Moslems of Medina. They sent men in parties, to commit depredations on the fruit-trees of the Moslems of Medina and to carry away their flocks. Now came the moment of severest trial to Islam. It became the duty of the Prophet, to take serious measures to guard against any plot rising from within or a sudden attack from without. He put Medina in a state of military discipline. He had to send frequent reconnoitring parties, to guard against any sudden onslaught. No sooner did the Prophet organise his state, than a large well-equipped army of the Meccans was afield. A force, consisting of one thousand men, marched under Abu Gahl, a great enemy of Islam, towards Medina, to attack the city. The Moslems received timely notice of their enemies' intention. A body of three hundred adherents, of whom two thirds were citizens of Medina, were gathered, to forestall the idolaters by occupying the valley of Badr, situated near the sea between Mecca and Medina. When the Prophet saw the army of the infidels approaching the valley, he prayed that the little band of Moslems might not be destroyed.

The army of the Meccans advanced into the open space which separated the Moslems from the idolaters. According to Arab usage, the battle was begun by single combats. The engagement then became general. The result of the battle was, that the Meccans were driven back with great loss. Several of their chiefs were slain; and Abu Gahl fell a victim. A large number of idolaters remained prisoners in the hands of the Moslems. They were, contrary to all usage and traditions of the Arabs, treated with the greatest humanity. The Prophet gave strict orders, that sympathy should be shown them in their misfortune, and that they should be treated with kindness (1). These instructions were faithfully obeyed by the Moslems, to whose care the prisoners were confided. Dealing with this event, Sir William Muir quotes one of the prisoners saying: "Blessing be on the men of Medina; they made us ride, while they themselves walked; they gave us wheaten bread to eat, when there was little of it, contenting themselves with dates (2)."

The remarkable circumstances which led to the victory of Badr, and the results which followed from it, made a deep impression on the minds of the Moslems. They firmly believed, that the angels of heaven had battled on their side against their enemies. The division of the spoils created some dissension between the Moslem warriors. For the moment the Prophet divided it equally amongst all. Subsequently, a Koran revelation laid down a rule, for future division of the spoils. According to this rule, a fifth was reserved for the public treasury for the support of the poor and indigent; and the distribution of the remaining four fifths was left to the discretion of the Chief of the State.

---

(1) Al Wakidi, Ibn Hisham, Ibn Athir, etc.

(2) Sir William Muir: The Life of Mohamed.

with our own people, to our assistance and good offices, the Jews of the various branches, and all others domiciled in Medina shall form with the Moslems one composite nation; they shall practise their religion as freely as the Moslems. The allies of the Jews shall enjoy the same security and freedom. The guilty shall be pursued and punished. The Jews shall join the Moslems in defending Medina against all enemies. The exterior of Medina shall be a sacred place for all who accept this charter. All true Moslems shall hold in abhorrence every man guilty of crime, injustice or disorder; no one shall uphold the culpable, though he be his nearest kin (1)."

After dealing with the interior management of the State, the charter concluded as follows: "All future disputes arising among those who accept this charter, shall be referred, under God, to the Prophet (2)."

Thus this charter put an end to the state of anarchy that prevailed among the Arabs. It constituted the Prophet Mohammad as chief magistrate of the nation.

The party of the Ansars or helpers, included some lukewarm converts who retained an ill-concealed predilection for idolatry. These were headed by Abdulla Ibn Obay, a man with some claims to distinction. They ostensibly joined Islam, but in secret were disaffected. They often were a source of considerable danger to the new-born Commonwealth and required unceasing watchfulness on the part of the Prophet. Towards them he always showed the greatest patience and forbearance, hoping in the end to win them over to the faith, which expectations were fully justified by the result. With the death of Abdulla Ibn Obay, his party which were known as the party of the 'Munafiquim' (the hypocrites) disappeared.

The Jews who constituted the third party of the Medinites were however, the most serious element of danger. No kindness or generous treatment, on the part of the Prophet, would seem to satisfy them. They soon broke off, and ranged themselves with the enemies of the new faith. They did not hesitate to declare openly, that they preferred idolatry, with its attendant evils, to the faith of Islam. Thus, the Prophet had to keep an eye on his enemies outside Medina, on the one hand, and those within the city on the other. The Meccans who had sworn Mohammad's death, were well acquainted, thanks to the party of the Hypocrites and of the Jews at Medina, with the real forces of the Moslems. They also knew that the Jews had accepted Mohammad's alliance only from motives of temporary expediency, and that they would break away from him to join the idolaters, as soon as the latter showed themselves in the vicinity of Medina. The safety of the State required the proscription of the traitors who were secretly giving information to the common enemy. About six men were executed for high treason of this nature.

---

(1) Sir W. Muir, G. Sale.

(2) Sir W. Muir, G. Sale.

to Yathrib, attended by a great number of his disciples who met them at Koba. They entered the city on the morning of a Friday, the 16th Rabi I (corresponding to the 2nd day of July 622).

Thus was accomplished the Hijrah, or the flight of Mohammad as called in European annals, from which the Islamic calendar dates.

---

V.

## THE PROPHET AT MEDINA

When the Prophet Mohammad and his companions settled at Yathrib, this city changed its name, and henceforth was called 'Al Medina Al Munawara,' the illuminated city, or more shortly, Medina, the city. It is situated about eleven days' journey to the north of Mecca. At that time it was ruled by two Kahtanite tribes, namely, Aws and Khazraj. These two tribes, however, were constantly quarrelling among themselves. It was only about the time when the Prophet announced his mission at Mecca, that these tribes, after long years of continuous warfare, entered on a period of comparative peace. When the Prophet settled at Medina, the tribes of Aws and Khazraj, forgetting entirely their old feuds, were united together in the bond of Islam. Their old divisions were soon effaced, and the 'Ansar', the helpers of the Prophet, became the common designation of all Medinites who had helped the Prophet in his cause. Those who emigrated with him from Mecca received the title of 'Muhajereen' or 'the emigrants'. The Prophet, in order to unite both classes in closer bonds, established between them a brotherhood which linked them together as children of the same parents, with the Prophet as their guardian.

The first step the Prophet took, after his settlement at Medina, was to build a mosque for the worship of God, according to principles of Islam. Also houses for the accommodation of the emigrants were soon erected.

Medina and its suburbs being at this time inhabited by three distinct parties, the Emigrants, the Helpers and the Jews, the Prophet in order to weld them together into an orderly federation, granted a charter to the people clearly defining their rights and obligations. This charter represented the framework of the first Commonwealth organised by the Prophet, and dwelt chiefly on freedom of conscience. It started thus: "In the name of the Most Merciful and Compassionate God, this charter is given by Mohammad, the Apostle of God, to all believers, whether of Koreish or Medina, and all individuals of whatever origin who have made common cause with them, who shall all constitute one nation." The following are some extracts from the Charter: "The state of peace and war shall be common to all Moslems; no one among them shall have the right of concluding peace with, or declaring war against, the enemies of his co-religionists. The Jews who attach themselves to our Commonwealth, shall be protected from all insults and vexations; they shall have an equal right

had been rejected, they decided, that he should be killed. They agreed that one man should be chosen out of every tribe for the execution of this design, and that each man should strike a blow at him with his sword, so that the responsibility of the guilt might rest equally on all tribes, to whose united power the Hashimites, Mohammad's own tribe, were much inferior, and therefore would not be able to revenge their kinsman's death. A number of noble youths were selected for the sanguinary deed. As the night advanced, the assassins posted themselves round the Prophet's dwelling. They watched all night long, waiting to murder 'Mohammad' when he should leave his house at the early dawn. By some means (1) the Prophet had been warned of the danger. In order to keep the attention of the assassins fixed upon the bed which they had been watching through a hole in the door, the Prophet directed Ali to lie down in his place and wrap himself up in his green cloak ; which he did whereas the Prophet miraculously escaped through the window. He repaired to the house of Abu Bakr, unperceived by the conspirators who had already assembled at the Prophet's door. These, in the meantime, looking through the crevice, and seeing Aly whom they mistook for 'Mohammad' himself, asleep, continued watching there till morning, when Aly arose, and they found themselves deceived. The fury of the Koreishites was now unbounded. The news that the would-be assassins had returned unsuccessful, and that 'Mohammad' had escaped, aroused their whole energy. A price of a hundred camels was set upon Mohammad's head.

From Abu Bakr's house the Prophet and he went to a cave in Mount Thor, to the south east of Mecca, accompanied only by Abu Bakr's servant, and an idolater whom they had hired for a guide. In this cave they lay hid for three days to avoid the search of their enemies whom they very narrowly escaped. It is related that after the Prophet and his companions entered two pigeons laid their eggs at the entrance, and a spider covered the mouth of the cave with its web which made the enemies look no further.(2) Abu Bakr, seeing the Prophet in such imminent danger, became very sorrowful, whereupon the Prophet comforted him with these words, recorded in the Koran: "Be not grieved, for God is with us." Their persecutors having retired, they left the cave and set out for Yathrib by a bye-road. Having miraculously escaped some horsemen who were sent to pursue them, the fugitives continued their journey, without molestation, after three days' journey they reached the territories of Yathrib. Here they were joined by Ali who had been severely maltreated by the idolaters after their disappointment at Mohammad's escape. The prophet and his companions then proceeded

---

(1) It is believed that it was by inspiration that Mohammad was so warned, vide Ibn Hisham, Al Wakidi, etc.

(2) Al Wakidi, Ibn Hisham, etc.

reasonable, and we will be faithful to him in weal and sorrow." When they had solemnly engaged to do all this, the Prophet sent one of his disciples, Massaab Ibn Omair, home with them, to teach them the fundamental doctrines and ceremonies of the religion, Massaab, having arrived at Yathrib, by the assistance of those who had been formerly converted, gained several proselytes, particularly Osaid Ibn Hodeira, a chief man of the city, and Saad Ibn Moaz, prince of the tribe of Aws; Islam spreading so fast, that there was scarce a house wherein there were not some who had embraced it.

The next year, being the thirteenth of the mission (622 A. D.), Massaab returned from Yathrib, accompanied by seventy three men and two women of that city, who had adopted Islam, besides others who were as yet unbelievers. On their arrival these Yathribites immediately sent to the Prophet and invited him to their city. The Prophet was now in great need of such an assistance, for his opponents had by this time grown so powerful in Mecca, that he could not stay there much longer without imminent danger. He, therefore accepted their proposal, and met them one night by appointment at Al Akaba, mentioned before, attended by his uncle Al Abbas, who, though he was not then a convert, wished his nephew well. Al Abbas made a speech to those of Yathrib wherein he told them that, as the Prophet Mohammad was obliged to quit his native city and seek shelter elsewhere, and they had offered him their protection, they would do well not to deceive him; and that if they were not firmly resolved to defend and not to betray him, they had better declare their minds, and let him provide for his safety in some other manner. Upon their professing their sincerity, the Prophet swore to be faithful to them, on condition that they should worship none but God, observe the precepts of Islam, obey the Prophet in all that was right and protect him against all insults as heartily as they would their wives and families. They then asked him what would be their return, if they should happen to be killed in the cause of God; he answered: "Paradise". Whereupon they pledged their faith to him and his cause. The Prophet then selected twelve men out of their number to act as his delegates. Thus was concluded the second covenant of Al Akaba. The Yathribites returned home, leaving the Prophet to arrange for his journey to their city. The Prophet directed his followers to seek immediate safety at Yathrib; which they accordingly did. About one hundred families silently disappeared from Mecca and proceeded to Yathrib, where they were received with enthusiasm and much hospitality. All the disciples had gone to Yathrib. The Prophet alone remained at Mecca, keeping with him only his young cousin Ali, and his devoted friend, old Abu Bakr.

The Meccans, fearing the consequence of this new alliance, began to think seriously of preventing Mohammad from escaping to Yathrib. They met in all haste at the town-hall. After several milder expedients



some other field, and he chose Tayef, a town about sixty miles east of Mecca, whither he went accompanied by his faithful servant Zaid. The tribe of Thakif, who where the inhabitants of Tayef, received Mohammad very coldly. However, he stayed there for one month. Though the more considerate and better sort of men treated him with a little respect, the slaves and common people refused to listen to his teachings; they were outrageously indignant at his invitation to abandon the gods they worshipped with such freedom of morals and lightness of heart; at length they rose against him, and bringing him to the wall of the city, obliged him to depart and return to Mecca.

This repulse greatly discouraged his followers: however, the Prophet was not wanting to himself, but boldly continued to preach to the public assemblies at the pilgrimage (1), and gained several new proselytes, among whom were six of the city of Yathrib, of the Jewish tribe of Khazraj. When these Yathribites returned home, they spread the news among their people, that a prophet had arisen among the Arabs who was to call them to God, and put an end to their iniquities.

It was in the twelfth year of his mission, that the prophet gave out that he had made his night journey from Mecca to Jerusalem, and thence to Heaven. All, that Moslems must believe respecting this journey is that the Prophet saw himself, in a vision, transported from Mecca to Jerusalem, and that in such vision he really beheld some of the greatest signs of his Lord. However, some trustworthy traditionists maintain that this journey, known in history as *Miraj* (ascension), was a real bodily one and not only a vision (2).

(An eminent writer, commenting on the ascension remarks: "It may, I think, be fairly asked, why Christians who believe in the bodily resurrection and bodily ascension of Jesus and of Elijah, should look upon those Moslems who believe in the bodily ascension of Mohammad as less rational than themselves?").

In this year twelve men of Yathrib, of whom ten were of the Jewish tribe of Khazraj and the other two of Aws, came to Mecca, and took an oath of fidelity to the Prophet at Akaba, a hill on the north of that city. This oath was called the women's oath; not that any women were present at this time, but because a man was not thereby obliged to take up arms in defence of the Prophet or his religion; it being the same oath that was afterwards exacted of the women. This oath was as follows: "We will not associate anything with God; we will not steal nor commit adultery or fornication, nor kill our children (as the pagan Arabs used to do when they apprehended that they would not be able to maintain them), nor forge calumnies; we will obey the Prophet in everything that is

---

(1) Sir W. Muir.

(2) Ibn Hisham; Al Tabari; Ibn Athir etc.

Hitherto he had been a violent opposer of the Prophet and a bitter enemy of Islam. His conversion is said to have been worked by the magic effect on his mind of a chapter of the Koran which his sister was reading in her house, where he had gone with the intention of killing her on account of her adoption of Islam.<sup>(1)</sup> Thus the party of the Prophet had been strengthened by the conversion of his uncle, Hamza, a man of great valour and merit, and of Abu Bakr and Omar, both men of great energy and reputation. The Moslems now ventured to perform their devotions in public.

Alarmed at the bold part which the Prophet and his followers were now able to assume, and roused by the return of the deputies from Abyssinia and the announcement of their unsuccessful mission, the Koreishites determined to check by a decisive blow any further progress of Islam. Towards this end, in the seventh year of the mission, they made a solemn league or covenant against the descendants of Hashim and Muttalib, engaging themselves to contract no marriage with any of them, and to have no communication with them. Upon this, the Koreishites became divided into two factions, and the two families of Hashim and Muttalib, all repaired to Abu Talib as their chief; except only Abu Lahab, the Prophet's uncle, who, out of his inveterate hatred against his nephew and his doctrine, went over to the opposite party whose chief was Abu Sofian Ibn Harb, of the family of Omayia. The persecuted party, Moslems as well as idolaters, betook themselves to a defile on the eastern skirts of Mecca. They lived in this defensive position for three years. The provisions which they had carried with them, were soon exhausted. Probably they would have entirely perished, but for the sympathy and occasional help they received from less bigotted compatriots.

Towards the beginning of the tenth year of the mission a reconciliation was concluded between the Koreishites and the two families of Hashim and Abdul Muttalib through the intermediation of Hisham, son of Amr, and Zobeir, son of Abu Omayia. Thus, the alliance against the two families was abolished, and they were able to return to Mecca.

During the period the Prophet and his kinspeople passed in their defensive position, Islam made no progress outside; but in the sacred months, when violence was considered sacrilege, the Prophet used to come out of his temporary prison to preach Islam to the pilgrims. In the following year, both Abu Talib and Khadija died. Thus, the Prophet lost in Abu Talib the kind guardian of his youth who had hitherto protected him against his enemies; and in Khadija his most encouraging companion. She was ever his angel of hope and consolation. The prophet weighed down by the loss of his amiable protector and his beloved wife without hope of turning the Koreishites from idolatry, with a saddened heart, yet full, of trust, resolved to exercise his ministry in

---

(2) Ibn Hisham, Sir W. Muir.



# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية  
تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

المجلد الحادى عشر

شوال سنة ١٣٥٩

الجزء العاشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفيع الدين

الاشتراكات عمدة سنة

الإدارة

مليم  
داخل القطر ..... ٢٠٠  
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ..... ١٠٠  
خارج القطر ..... ٣٠٠

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ ملما داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )

## فهرس

### الجزء العاشر — المجلد الحادى عشر

صفحة

السيرة المحمدية — وقعة الأحزاب ... بقلم	حضرة الأستاذ مدير المجلة ... .. ٥٧٧
تفسير سورة الشمس ... .. »	فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ٥٨٣
السنة ... .. »	عبد الرحمن الجزيرى ٥٨٦
تاريخ الفقه الإسلامى فى مصر ... .. »	محمد محمد المدنى ... ٥٩٢
تاريخ علم التفسير ... .. »	حسن حسين ... ٥٩٦
الكلام والمتكلمون ... .. »	حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب ٥٩٩
التجديد والمجددون ... .. »	فضيلة الأستاذ الشيخ السيد عفيفى ٦٠٣
عبد الله بن عمرو ... .. »	صادق عرجون ٦٠٦
عمر بن عبد العزيز ... .. »	حضرة الأستاذ محمد مصطفى شادى ٦١٠
نظرات فى الأدب العربى ... .. »	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان ٦١٣
سفور المرأة ... .. »	ابراهيم أبو الخشب ٦١٨
العيد ... .. »	أبو الوفا المرازى ٦٢٠
إخوان الصفاء ... .. »	حضرة الأستاذ عبد الحميد سامى ٦٢٢
إثبات الروح الانسانية حسيا ... .. »	مدير المجلة ... .. ٦٢٥
الشهور القمرية ... .. »	فضيلة الأستاذ الشيخ على حسن البولاقى ٦٣٢
من أخلاق الشريعة وآدابها ... .. »	عباس طه ... ٦٣٤
تقارظ ... .. »	... .. ٦٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

مناوشات غير خطيرة قبل المعركة الفاصلة ، وقعة الاحزاب

سرية أبي سلمة :

أهلت السنة الرابعة فيبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين ، يؤلبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأمره أن يسير حتى يطاء أرض بنى أسد بن خزيمه ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار في المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قطن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من بيوتهم ، واستاق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

سرية عاصم بن ثابت :

في صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من بني عضل والقارة ، وهما قبيلتان من بني الهون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم في الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين في دعوائهم ، بل مأجورين لبني لحيان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزءوا المسلمين بقتل رجال منهم أخذوا بالنار .

فلما بلغت السرية الرجيع ، وهي ماء بين مكة والمدينة ، أحسوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بني هذيل في طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء الى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فاغتر بعهدهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا في أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شعر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يئثار لقتلاه من أهل مكة ، وهنالك قتلوا .

سرية بئر معونة :

في صفر من السنة الرابعة وفد على النبي صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر، وكان يدعى لبطلته ملاعب الاسنة، فدعاه رسول الله للاسلام، فلم يذعن ولا كنهه لم يبعد. وقال للنبي: إني أرى أمرك هذا حسنا، فلو بعثت معي رجالا الى أهل نجد فاني أتوقع أن يستجيبوا لهم.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إني أخشى عليهم أهل نجد.

فقال ملاعب الاسنة: أنا لهم جار.

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه اشتروا بالاكثار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القراء، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة، ومنها بعثوا أحدهم، حرام بن ملحان، بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بني عامر. فلما وصل إليه لم يلتفت الى الكتاب، ولكنه ثار على مقدمه وقتله، ثم استثار قومه على بقية إخوانه، فلم يقبل بنو عامر أن يخفروا ذمة ملاعب الاسنة، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رعل وذكوان وعصية، وهى قبائل من بنى سليم، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجا، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم، أى مع حيوانات سائمة لهم، فخلص من القتل. فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذه المجزرة الشنيعة حزن حزنا شديدا.

#### غزوة بنى النضير:

بنو النضير يهود كبنى قينقاع الذين قلبوا ظهر الحجن للمسلمين فاضطروهم للجلاء عن حصونهم والهجرة الى الشام. وهؤلاء جروا على سنة سابقهم فحدثهم أنفسهم أن يغتالوا النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته فى ديار بنى النضير، تأمر رجال منهم على إلقاء صخرة عليه من مكان عال، رغما عما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء، فلما تبين رسول الله قصدهم رجع الى المدينة وأرسل محمد بن مسلمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب الى حيث يشاءون.

فنهيا القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين، فارسل اليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان، وأنهم وإياهم متكافلون فى الحياة، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه فى قوله تعالى: « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم، والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون. لا تتم أشد رهبة فى صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون. لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء

جُدُر ، باسمهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنها في النار خالدتين فيها ، وذلك جزاء الظالمين .

ولكن بنى النصير اطمأنوا الى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعبئة ، فلما اجتمع العدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى النصير خبر خروجه دخلوا الى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أبى ، فلم يمدوا اليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قينقاع من قبلهم . فطلبوا الى رسول الله أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الأبل من الأموال إلا آلة الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فمنهم من نزلوا بخيبر ، ومنهم من هاجروا الى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

غزوة ذات الرقاع :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو محارب وبنو ثعلبة ، تهبان لحربه . فجرد من صحابته سبعائة مقاتل وخرج بهم للملاقاة عدوهم . وما زالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقنن الجبال ، ثم تشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعتراهم الرعب وولوا الأدبار .

غزوة بدر التي أوعد بها أبو سفيان :

قلنا عند ما انتهينا من إيراد تفصيلات وقعة أُحُد أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء في بدر من العام المقبل ، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالنكول فعمد الى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نعيم بن مسعود الأشجعي ليأتي المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، وينال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما زالوا يسيرون حتى أتوا بدرا فلم يجدوا بها أحدا . لآب أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه الى بدر وأرسل الرجل الذي استأجره للإرجاف ، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام مجذب ، ولا يصلح للقتال غير عام معشب ، هلموا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قریشا وقت بتجديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم .

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون في سوقها الذي كان ينعقد مرة في شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسجلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة في الكتاب الكريم فقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها ( في وقعة أحد ) ، قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا فأنلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا للإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نغلي لهم خير لانفسهم ، إنما نغلي لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فأمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم . »

#### غزوة دومة الجندل :

كانت هذه الغزوة في ربيع الاول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفض جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاستاق المسلمون ما شيتهم ورعاهم . وبث النبي صلى الله عليه وسلم كتائبه الى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

#### غزوة بني المصطلق :

بنو المصطلق بطن من خزاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المريسيع أيضا ، وهوماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق يحشد الجنود لمحاربتة ، فاستعد للقاءه ، وندب الناس للقتال ، فلباه عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للغنيمة . فلما نفي خبر قدوم النبي بجيشه الى ديار بني المصطلق أدركهم الرعب حتى تناذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين اليه تراهى الفريقان بالنبل ، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ما شيتهم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برة بنت الحارث سيد بني المصطلق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى أصحابه أن بني المصطلق صاروا أصهارا للرسول الله ردوا ما أخذوه من أموالهم من الغنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت الى نبيهم بسبب . فقالت عائشة رضى الله عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية » ، تريد برة بنت الحارث وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها . وقيل إن جويرية هي التي طلبت الى النبي ليلة زفافها إليه أن يطلق سراح الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما في بني المصطلق الى حد أن حملهم على الاسلام على بكرة أبيهم .

#### نار فتنه ما شبت حتى خمدت :

شبت نار فتنه بين المهاجرين من أصحاب النبي وبين أهل المدينة ، فلولاً حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان في قلوب المسلمين ، لآدت الى انقصاص وحدة المسلمين .

ذلك أن عبد الله بن أثبج زعيم المنافقين شهد مع شيعته هذه الغزوة طمعا في غنائمها . واتفق أن أجيرا لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أولهما الثاني وأسأل دمه . فصاح الحليف ( يا للخزرج ) وصاح الأجير ( يا لكمهاجرين ) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالامر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة ، ثم حقق القضية فلم يجد المضروب حقا ، فوقف الامر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافقين أراد أن لا تقوته هذه الفرصة . فكلّم بني الخزرج قائلا : « ما رأيتم كاليوم مثله ، أو قد فعلوها ، نافرونا في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الاعز منها الأذل . ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم أيديكم ، لتحولوا الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للعنايا دون مجد ، فأيتتم أولادكم ، وقلتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده . »

فلما بلغ هذا الكلام النبي صلى الله عليه وسلم غضب وتغير وجهه ، فقال عمر : مرني أو مر غيري بقتله يا رسول الله ، فلم يقبل منه هذا الرأي ، وأمر جيشه بالعود الى المدينة ، وبينما هم ببعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهي :

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لواء رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل ، والله العزة لرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون . يأبى الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا بما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ، فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى نذبه القارئ الى العلو الخلقى ، والسمو الفكري اللذين ظهر عليهما النبي صلى الله عليه وسلم حيال إرجاف شيخ المنافقين عبد الله بن أبي . فقد كان في استطاعته قتله وقتل كل من يلف لفه من منافق المدينة ، فقد كان الحاكم المطلق في المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن أبي المذكور لإظهار الإسلام نفاقا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو كان النبي قتل زعيم المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة الغاشمة في بث دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتقدير لانتحلت وبطل أمرها من قريب . فكان في تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ، ويثبت بدليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر والتحصيل ، وقد انتشر انتشارا لم يعهد له مثيل في تاريخ العقلية الانسانية لهذا السبب نفسه .

محمد فريد وجدي



# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والشَّمْسُ وضُحَاها ، والقَمَرُ إِذَا تَلَاها ، والنَّهَارُ إِذَا جَلَاها ، واللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاها ، والسَّاءُ وما بَنَاهَا ، والأَرْضُ وما طَحَاها » :

قدّم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات الى الله تعالى ، والاعتراف بقدرته وعظمته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والمقدمات على النتيجة . وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الى يفاع عالم الربوبية ، وببدء كبرياء الصمدية .

وفى قوله : « وما بناها » إشارة الى حدوث السماء وكل ما فيها ، ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر وتدير مدبر .

هذا ، وعبر « بما » للإشارة الى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم يفعلون ذلك إذا كان الوصف عجيبا يريدون لفت النظر اليه . وكأنه قيل : والقادر العظيم الشأن الذى بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها . والمراد ببنائها إيجادها . وكذا الكلام فى قوله : « والأرض وما طحاها » أى بسطها .

هذا وفى السماء آيات بينات ، وعجائب مدهشات . ويكفيك منها أنها واقفة فى الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفعها من تحتها . ومن البدهى أنه لا بد لها من مخصص يخصصها بحيز مخصوص وسمك مخصوص ، لا بد لذلك من مخصص قادر حكيم عليم .

فان قلت : إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبيعتها وجبلتها على ما يقول الطبيعيون ، قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم فيه : من الذى طبيعتها على ذلك وأعطاها تلك الخصائص ؟ لا شك أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شيء ثم هداه وهدى اليه . أفلا يجوز فى العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن الى نحو الثمانين ؟ فن الذى أوصلها الى ذلك الحد ومتعها بتلك الخصائص ؟

ولنعد الى الكلام فى السماء فنقول :

إن هذه الأجسام إنما وقفت فى الجو العالى بقدره الله تعالى وعظيم تدبيره . وإياك أن تصفى لحديث الجاذبية الذى يتشدد به كثير من العصرين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه الاختصاصيون ؛ وعلى فرض تسليمها فخلقها فى الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ، لأن الممكن ليس له شئ من نفسه كما هو مقرر فى محله ، فلا بد أن يرجع الأمر أخيراً الى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب الأسباب « إليه يرجع الأمر كله » . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام فى ذاتها قابلة للحركة والسكون ، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بد له من فاعل مختار ، فضلاً عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها الى حيز مخصوص . وليس يخفى عليك بعد ذلك أن قطعها الفلك فى مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجب الذى لا يمكن تحليله بسبب . وليت شعرى ما الذى أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية ، وبعضها الى الشمال وبعضها الى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطيء !

وإجمال القول أنك إذا نظرت فى اختصاص كل شئ من هذه العوالم الفائلة المحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ونعته ، وخصائصه ومقتضياته ، وجدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلبقوا ربكم توفقون » .

ثم انظر بعد ذلك فى الأرض لتعلم أن زيادتها ونقصها عما هى عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التى فيها أمر جائز . أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التى تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإثباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العليم والقادر العظيم ؟

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بصورها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جداً عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جداً من الشمس لم يعش عليها إنسان ولا حيوان . أليس كل ذلك من الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر الى الجبال التى جعلها الله أوتاد الأرض ، وفيها من المنافع ما لا يأتى عليه البيان . ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التى تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة . وانتفاعنا بالجبال فى نعمة المياه والأمطار غنى عن البيان . ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال فى كثير من الآيات كقوله : « رواسى شاهقات ، وأسقىناكم ماءً قراتا » .

وإن شئت بعد ذلك فأنظر الى ما تنبته الأرض من النباتات التي لا تحصى عدا ، وفيها من المنافع والأسرار ما يدهش العقول ويملاً النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد إنعامه .  
وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أغناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » . ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون ثورا ، وبعضها ثمرا ، وبعضها ورقا ، وبعضها خشبا ، الى آخر ما يرشدك اليه الوجدان والبرهان .  
أليس ذلك كله برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على تقدير العزيز العليم ؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة ، والثاني في غاية السواد ، مع كون نسبته الى الشمس والهواء والماء والتربة واحدة .

ولننشد في هذا المقام قول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه	وذا الكون سفر واضح وهو كانه
يشكون والايمان ملء قلوبهم	ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ في الجؤ يرسل طرفه	إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده	وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبج الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربي في الأنام كثيرة	ولكن جهل المرء لاشك غالبه

أو نقول ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمتع من حديث لبه ، حيث يقول :

هاج للقلب من هواء اذكار	وليال خلاهن نهار
وجبال شواخ راسيات	وعيون مياهن غزار
ونجوم تلوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشمس مضيئة للبرايا	في نهار وفي الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج	وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير	جل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله	نفوسا لها هدى واعتبار

يوسف الجوى

من جماعة كبار العلماء

# الشيعة



## ليلة النصف من شعبان

روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « دخل على رسول الله فوضع عنه ثوبه ثم لم يستم أن قام فلبسهما ، فأخذتني غيرة شديدة ، ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي ، فخرجت أتبعه ، فأدركته بالبقيع ، بقيع الغرقد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقلت : بأبي وأمي ، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ! فأنصرفت فدخلت حجرتي ولى نفس عال ، ولحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا النفس يا عائشة ؟ فقلت : بأبي وأمي أتيتني فوضعت عنك ثوبيك ثم لم تستم أن قت فلبستهما ، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع . فقال : يا عائشة : أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ أنا في جبريل عليه السلام فقال : هذه ليلة النصف من شعبان والله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم بني كلب ، لا ينظر الله فيها إلى مشرك ، ولا إلى مشاحن ، ولا إلى قاطع رحم ، ولا إلى مسيئ ، ولا إلى عاق لوالديه ، ولا إلى مدمن خمر . قال : ثم وضع عنه ثوبه فقال لي : يا عائشة تأذنين لي في قيام هذه الليلة ؟ قلت : نعم بأبي وأمي ، فقام فسجد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قد قبض ، فقامت ألتسه ووضعت يدي على باطن قدميه ، فتحرك ، ففحرت ، وسمعتة يقول في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . فلما أصبح ذكرتني له ، فقال : يا عائشة تعلمين ، فقلت : نعم . فقال : تعلمين وعلمين ، فإن جبريل عليه السلام علمني وأمرني أن أرددكن في السجود . رواه البيهقي من طريق العلاء بن الحارث ، وقال هذا مرسل جيد ، لأن العلاء لم يسمع من عائشة . ذكره الحافظ المنذري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان حكم إحياء ليلة النصف من شعبان وما ورد من ذلك . (٣) بيان حكم الدعاء الخاص المشهور بين الناس ليلة النصف من شعبان .

(١) أما معنى الحديث إجمالاً فظاهر ؛ ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شغف السيدة عائشة رضي الله عنها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرصها على أن يكون قريباً منها قرباً تزداد به شرفاً ورضواناً من الله عز وجل ، فلما رأته خرج من حجرتها أدركها ما يدرك النفوس البشرية من الغيرة على من تحب ؛ وكيف لا تغار على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ترى وتلمس كل يوم من آيات النبوة ودلائلها ما قد لا يتيسر لغيرها من الصحب الكرام ؟ حملتها هذه الغيرة الممدوحة على أن تخرج من حجرتها وتتبعه ، فوجدته ذاهباً الى الله ، وفي طاعة الله ؛ وجدته مهتماً بالدعاء للشهداء والاموات الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ؛ فلما رأته على هذه الحالة وقارنت بين خواطر نفسها وبين عمله صلى الله عليه وسلم ، خجلت من نفسها وقالت : « بأبي أنت وأمي ، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ! » ورجعت متغيرة نادمة على ما حدثتها به نفسها ، الى آخر ما ذكر في الحديث .

ولا ريب أن الحافظ المنذرى ثقة في الرواية ، فلا يترك حديثاً مطعوناً فيه بدون أن ينبه على ذلك الطعن ، ويبين موقعه من القوة والضعف ؛ وهو لم يطعن في رواية هذا الحديث ، كما لم يطعن في رواية أحاديث أخرى وردت بمعناه . فما نقل عن أبي بكر بن العربي من أن الأحاديث التي وردت في ليلة النصف من شعبان كلها موضوعة ، غير سديد ، ولا وجه له من جهة العقل ولا من جهة النقل .

أما الأول : فلأن الشريعة الإسلامية وإن كانت لا تقدر الأيام لذاتها كما لا تقدر الأمكنة كذلك ؛ ولكن قد يقع في بعض الأيام والأمكنة ما يفضلها على غيرها ، فإذا أمرنا الله بأن نعظم مكاناً خاصاً كالكعبة ، أو أياماً مخصوصة كأيام الأعياد والمواسم ، فإنه يلزمنا أن نمثل أمر الله ، ويكون تعظيم المكان أو اليوم هو تعظيم الله عز وجل بامثال أمره .

نعم قد يقال : إن في بعض ألفاظ الحديث مبالغة لم يقع مثلها في الأحاديث الصحيحة التي يرويها البخاري ومسلم مثلاً ، وهذه المبالغة هي أن الله يعتق من النار بعدد شعر غنم بني كلب ، وهي قبيلة لها غنم كثيرة ، فإذا فرض وعق من النار كل عام بعدد شعور غنم هذه القبيلة على التحقيق ، استغرق ذلك جميع المواليذ فلم يبق أحد مستحقاً للنار . ولكن الواقع أن العرب كانوا يعبرون عن الكثرة بمثل هذه العبارة فيقولون : عدد النجم ، أو عدد الرمال ، أو عدد الحصى ، ويريدون بذلك المبالغة في الكثرة ؛ فالغرض من هذه العبارة ظاهر جلي .

وهناك إشكال آخر ، وهو أن الدين الاسلامي قد حكم في هذه المسائل حكماً واضحاً ، وهو أن حقوق العباد لا تمحى إلا بردها الى أربابها ، أو بالعفو عنها ؛ وحقوق الله تعالى تمحى بالذنوب والإفلاق عن تركها ؛ فمن يقترب خطيئة أو إنما مع الله أو مع عباد الله فليتنحلل وليتب من ذنبه ؛ وقد استثنى الحديث المذكور بعض الكبار المتعلقة بحقوق العباد ، كقطع الرحم ،

والعاق لوالديه ، ومسبل الإزار خيلاء وتكبيرا على عباد الله ، والمشاحن الذى لا ينفك عن إيذاء الناس فى معاملاته إياهم ؛ وذكر من الكبائر المتعلقة بحقوق الله الإدمان على شرب الخمر ، ولم يذكر قاتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والقتل هو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ، وكذلك لم يذكر الزانى بحليلة الغير ، ولا السارق ، وهما من الكبائر المجمع عليها ، الى غير ذلك من الكبائر والموبقات التى تقدم ذكرها فى مقام آخر .

والجواب عن ذلك أن الأحاديث الواردة فى النهى عن موبقة من الموبقات لا يلزم أن نذكرها جميعها ، فإذا كان الله سبحانه لا ينظر الى هؤلاء العصاة فى هذه الليلة فلا ينظر لغيرهم من باب أولى ، وتكون النتيجة أن الذين يمتقون من النار فى هذه الليلة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فالله سبحانه يزيد لهم العمل الصالح ، ويسره لهم ويحبب اليهم التوبة ، وبذلك يعتقهم من النار ، وإن كانوا من الأموات الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وماتوا ولم يتوبوا ، فإن الله سبحانه قد يعفو عنهم إلا إذا كانوا متصفين بهذه الأوصاف التى نهى عنها الحديث . وبالجملة فإن الغرض من هذا الحديث هو الترغيب فى الأعمال الصالحة ، والتوبة عن الموبقات فى هذه الليلة التى يغفر الله فيها للمؤمنين خطيئاتهم . هذا هو مجمل معناه ، وليس فيه شيء يستلزم إنكاره عقلا ، لأنه ترغيب فى الأعمال الصالحة الهامة ، وزجر عن الموبقات . وأما من جهة النقل فلان الحافظ المنذرى مشهور بدقة الرواية ، ولم يترك حديثا فيه جهة من جهات الضعف إلا نبه عليها ، وكفى به حجة .

(٢) أما ما ورد فيه من إحياء ليلة النصف من شعبان بعبادة الله تعالى وطاعته فى جوف الليل ، فهو أمر مشروع فى ذاته لا نزاع فى مدحه ، وليس من البدع فى الدين أن يقوم المرء الليل ويقطعه بعبادة ربه والدعاء للأحياء والأموات من المؤمنين ، إنما الذى لا يجوز هو أن يحكم الانسان حكما شرعيا لا أصل له فى الدين ، فيقول مثلا : إن إحياء ليلة كذا بالعبادة فرض أو سنة مؤكدة ، أو صيام يوم كذا سنة أو واجب بدون أن يرتكز فى ذلك على سند صحيح من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو تقليد مجتهد من المجتهدين المعروفين ، وهكذا .

نعم ورد أن الأئمة الأربعة كرهوا الاحتفال فى المساجد بهذه الليلة ، ولكن هذا شيء وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم شيء آخر . قال فى إحياء العلوم : « وأما صلاة شعبان فلياة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد فاتحة الكتاب قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد مائة مرة ؛ كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ، ويجتمعون فيها ، وربما صلوها جماعة ... الخ » . وقد قال شارحه الزبيدى : لم يصح شيء فى هذا الباب ،

وقد كره الحجازيون الاحتفال والاجتماع لإحياء هذه الليلة ، وأجاز ذلك بعض أئمة أهل الشام . فالأئمة الأربعة يكرهون مثل هذا الاحتفال كما يكرهون الدعاء الخاص اهـ .

ولا يخفى أن هذا كله غير ما نحن فيه ، وغير ما يدل عليه هذا الحديث ، لأن الحديث إنما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قام هذه الليلة يعبد الله ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهذا لا شك في كونه مشروعا نافعا يقره العقل والدين . فالأحاديث الواردة في هذا المقام صحيحة السند لا يصح إنكارها بدون دليل من العقل أو النقل ، ومن أنكرها كان مجازفا .

(٣) أما الدعاء المعروف بين الناس فلم يرد ذكره في الأحاديث التي يعول عليها مطلقا ؛ نعم ذكره الألويسي في تفسير قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » بصيغة قريبة من الصيغة المشهورة بين الناس ، ونسبه إلى سيدنا عمر ، كما نسب صيغة أخرى لبعض الرواة . ولكن لم يبين لنا صحة السند وعدمها كما هو شأن المفسرين في الغالب .

والحق الذي لا مرية فيه أن مثل هذه الاجتماعات في المساجد ، وهذه الادعية التي لم يرد لها أصل عند الأئمة الأربعة ولا عند أئمة المحدثين ، ينبغي اجتنابها ، لأن الله تعالى يكتفي من عباده المؤمنين بأي دعاء يدعوون به ما دامت قلوبهم متجهة إلى الله عز وجل ، مخلصه في مناجاته ، وقد ورد في السنة الصحيحة أن الدعاء لا يستجاب إذا كان صاحبه متلبسا بالحرام ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « يطيل الرجل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وقد غذى بالحرام ، فأني يستجاب لذلك » . فينبغي للداعين أن يلاحظوا ذلك عند دعائهم حتى يستجاب لهم .

وبالجملة فمن أراد أن يقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحياء هذه الليلة فليحيها بالعبادة وحده بدون اجتماع كما ورد في الحديث الذي معنا .

وها هنا مبحث دقيق يذكر لمناسبة قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » في هذا الدعاء : فإن بعض المفسرين يظن أنها متعلقة بالقضاء والقدر ، وأنه في هذه الليلة تكتب الآجال والأرزاق ، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بشئون العباد ؛ والله تعالى يحو ما أرادته ألا ويثبت غيره . ولكن يرد على هذا سؤال واضح ، وهو أن قضاء الله تعالى الذي انتهى إليه علمه لا يمكن أن يغير مطلقا ، وإلا انقلب العلم جهلا ، فانه إذا كان يعلم أن فلانا سيموت في يوم كذا لا محالة ثم بدا له بعد ذلك أن يغير هذا الموعد ، لزم التغير في علم الله ، وهو ما يسمونه بالبداة ، بمعنى أنه قد بدا له أمر صرفه عن إرادته الأولى ؛ وهذا ممنوع . نعم أجازوه بعضهم مستدلا بأن أصحاب النبي المبشرين بالجنة وعلى رأسهم سيدنا عمر كانوا يخافون عذاب الله تعالى أشد من غيرهم ، حتى قال عمر : « لو نادى مناد : كل الناس

يدخلون الجنة إلا واحدا ، لظننت أنى ذلك الواحد » . فهذا يدل على أن القضاء يمكن تغييره . ولكن ليس في هذا وأمثاله شيء من الدلالة ، لأن سيدنا عمر وأمثاله من كبار الصحابة قدوة للناس ، فهم إنما يقولون ويفعلون ما فيه مصلحة للمجتمع بصرف النظر عن شخصيتهم .

والحق الذى لا شبهة فيه أن هذه الآية الكريمة لا علاقة لها بهذا الموضوع رأسا ، بدليل ما قبلها ، لأن الله تعالى قال : « وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب ، يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل إلى الأمم كما أرسل سيدنا محمد بشريعة تناسب كل زمان ومكان ، فلكل أجل كتاب معناه : لكل وقت حكم يكتب على العباد بحسب ما يلائم حالهم ، فإذا جاء رسول إلى أمة من الأمم بشرع ، لا بد أن براعى حالها وصلاحتها لقبول هذا التشريع ، فيتدرج معها حسبما تطيق ، وذلك كان شأن الإسلام مع العرب في كثير من الآيات والأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والميراث ، بل والعادات والذات وهكذا ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لما أرسل معاذ إلى اليمن أمره بأن يطالبهم بالتوحيد فقط ، ثم بعد ذلك يأمرهم بالصلاة ، ثم بالصيام ، لأنه أشق ، ولا يطالبهم بالزكاة إلا بعد أن يستقر الإسلام في أنفسهم ، فكذلك شأن العادات التي كانوا يقدسونها . وما قصة تحريم الخمر بخافية على أحد ، لأن العرب كانوا مولعين بشرابه فلم يحرمه الله عليهم من أول الأمر ، بل أخذ يرشدهم إلى المضار التي تنشأ عنه ، ويلفتهم إلى أن يقارنوا بين مضاره وبين ما يجدون فيه من لذة حتى يعلموا أنهم خاسرون بشرابه ، وبعد ذلك حرمه عليهم . فقوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت » معناه ينسخ من الأحكام المؤقتة ما لا يناسب تطور الأمة ، ويثبت ما يناسب ذلك التطور ، « وعنده أم الكتاب » : الأصل الذى يريد أن تستقر عليه حال الأمة .

وهذا التفسير هو الذى اختاره الإمام على كرم الله وجهه ، وهو الصواب فيما اعتقد . وذلك لأن مسائل القضاء والقدر لا ينبغي أن تكون مرتبطة بأعمال الناس وشؤونهم العامة والخاصة ، لأن الله تعالى خلق الأسباب والمسببات ، وربطها ببعضها وربط محكمها ، وكلف الناس بأن يعملوا لدينهم ودينهم على منهج خاص أتهم به الشريعة وبيئته لهم أحسن بيان . فالمرضى الذى ينفعه دواء خاص لا يحل له أن يتركه اعتمادا على القضاء والقدر ، والقادر على السعى على الرزق يحرم عليه أن يكون عالة على الناس اعتمادا على القضاء والقدر ، والذى يترك الأرض بدون حرث وغرث وسقى اعتمادا على القضاء والقدر ، يكون آنما جاهلا بلا كلام . وهكذا كل الأسباب المشروعة النافعة ، يجب على الناس أن يستمسكوا بها ، ويحرم عليهم أن يستمسكوا بالقضاء والقدر في شأنها ، لأن القضاء والقدر مخبوء لا علم لأحد به ، ولم يكلفنا الله تعالى بالبحث عنه وعن معرفته ، بل بالعكس قال لنا : لا تنفعكم الاحتجاج به لا في الدنيا



ولا في الآخرة . فإذا كان الاستمساك بالقضاء والقدر يدفع المرء الى العمل بهمة وأنشاط وهو يقول أنا لا أبالي باقتحام المخاطر في سبيل الله لأنه لا يصيبني إلا ما هو مكتوب ، فذلك حسن . أما إذا كان الاستمساك بالقضاء والقدر يحمل الناس على التواكل وترك العمل ، فذلك قد نهى عنه الله ورسوله نهيا شديدا . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عليّ وزوجه فاطمة فسألهما : هل يقومان الليل ؟ فقال عليّ : أرواحنا بيد الله إن شاء قننا وإن شاء لا ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخرج وهو يقول : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ! » هـانا الله الى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

## فضيلة الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » . وليس معنى الحياء أن ينزوي الرجل عن الناس خجلا من الاتصال بهم ، وأن يصمت في المجلس تهيبا منهم ، كل هذا يعتبر ضعفا لا حياء ، إنما الحياء أن لا يتأخر عما يتقدم في مثله الرجال ( حياء منه ) أن يقال ضن بنفسه في حالة حاجة المجتمع إليه ، وأن لا يضعف عن الإدلاء بحجته في المجمع ( حياء منه ) أن يظن به عيا أو حصرا ، وأن لا يأتي ما يخالف الكرامة والمروءة وشرف الرجولة ( حياء منه ) أن يتهم بالخسة والدناءة وسقوط الهمة . فالحياء هو هذا لا أن يظهر الرجل كأنه امرأة خيفة تشيح بوجهها عن كل من يقابلها ، وتحيد عن طريقها حتى لا يصادفها من اعتاد أن يسلك هذا الطريق من أهل الوجاهة .

وأحسن ما وقفنا عليه مما قاله الحكماء في الحياء قول أرسطو : « من استجيا من الناس ولم يستحي من نفسه فلا قدر لنفسه عنده » .

لا جرم أن هذه من أبلغ الحكم ، فان النفس الشريفة تحجل من نفسها أن تنصف ببعض صفات السوء ، ولو لم يؤانس أحد منها ما يدل عليها . فهذه النفس واحدة من نفوس عالية كتب لها الشرف في الوجود ، والسمو في الحياة ، وإن كانت من الفقر بحيث لا يابها أحد . فهي ليست في حاجة لأن يابها أحد ، ما دامت تشعر بأنها سامية ، وبأن تناسب الملأ الأعلى ظلالة نفس ، وكرم قصد ، وبعد غاية .

## تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

- ٨ -

### المدرسة الثالثة :

تحدثنا فيما مضى عن أساطين المدرسة الثانية ، وأشبعنا القول ، بقدر ما تتسع له صفحات من مجلة سياره ، فى الليث بن سعد الفهمى ، أحد الأئمة المجتهدين ، وكبير الفقهاء المصريين . واليوم نتحدث عن المدرسة الثالثة ، ونعنى بها مدرسة التابعين للأئمة المجتهدين ، والعهد بها يبدأ بعد فترة من منتصف القرن الثانى للهجرة ، وينتهى باستيلاء الفاطميين على مصر فى أوائل القرن الرابع .

ظهر كثير من أساطين هذه المدرسة فى عصر الأئمة المجتهدين أنفسهم ، وتلمذ بعضهم لهؤلاء الأئمة فعلا ، وسمع منهم ، وروى عنهم ، وكانوا يتفاوتون ، وتختلف حظوظهم من الفقه والنظر باختلاف ملكاتهم ، ودرجات استعدادهم ، وطرق دراستهم . فمنهم من كان عمله ينحصر فى جمع أقوال إمامه ، وتمحيص الرواية عنه ، وحكاية مذهبه ، فان زاد على ذلك شيئا فلا تعدو زيادته أن تكون تخریجا ، أو ردأ لأصل ، أو تبيينا لمجمل ، أو تقریرا لمسألة من المسائل الكلية ؛ ومنهم من كان ينظر فى أقوال إمامه فيرجح منها ويختار ، ويقوى بعضها ، ويضعف بعضها ؛ ومنهم من كان يطلق لنفسه العنان ، ويمنح عقله قسطا كبيرا من حرية الرأى والنظر ، فربما رفض قول إمامه ، وعارض مذهبه ، واستقل برأى يراه .

ومهما يكن من شئ ، فقد استطاع الفقه الاسلامى أن يظفر على أيدي رجال هذه المدرسة ونظرائهم من رجال الأمصار الأخرى بنحو قرنين من الزمان استوى فى مداهما علما ناضجا له كل خصائص العلوم فى عهود رقيها ونهضتها ، من دراسة ينقطع لها نوايغ العلماء ، وتحقيق يعكف عليه ذوو العقول الممتازة ، والافهام الجبارة ، وتأليف يتوفر له أرباب الأقلام السيالة ، فلو أن امرأ زعم أن هذا العصر هو العصر الذهبي فى تاريخ الفقه الاسلامى لما كان فى ذلك مبعدا عن الصواب . وناهيك بعصر يُزهى على العصور بأمثال ابن القاسم ، وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وابن وهب من فقهاء المالكية ، وأمثال الكندى ، وابن أبى الليث ، والبويطى ، والمزنى ، والربيع المرادى من فقهاء الحنفية والشافعية !

ولقد كان المسجد الجامع يومئذ ، وهو مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أشبه بنبع صاف فياض يزدحم حواليه الورد ، بل أشبه بجامعة علمية كأرقى ما نعلم من الجامعات الحديثة ، تلتقى فيها الدراسات ، وتدور المحاورات ، وتعمد المناظرات ، وتعرض الكتب والتأليف والرسائل ، وتنقد المذاهب ، وتناقش الآراء ، وتمحص المسائل ، فى كشف من حرية الرأى ،

واستقلال الفكر، وأدب البحث، وغفة المقال؛ فإذا أفضى الأمر في شيء من ذلك الى خصومة فهي خصومة شريفة غايتها الوصول الى الحق، قد تشدد أحيانا وتعظم حتى ليخيل إليك أنها حرب عوان وهي حرب أي حرب، ولكن جندها العلماء، وقادتها الأئمة الأعلام، وسهمها الحجة والبرهان !

كل أولئك قد عاد على الفقه الاسلامي بأوفر المغنم، وتحمّل التاريخ منه كنوزا لو أنفق منها أهل الزمان مدى الزمان لأربت على الإغناق !

### كيف وردت إلى مصر المذاهب الفقهية ؟

لقد عرفت مصر في ذلك العهد المذاهب الفقهية الثلاثة المشهورة، أما مذهب ابن حنبل فلم تعرفه مصر إلا فيما بعد؛ وقد ذكر السيوطي أنه لم يظهر ولم يسمع خبره بمصر إلا في القرن السابع. فأول من نقل مذهب الحنفية إلى مصر إسماعيل بن اليسع الكوفي، وهو قاض ولاء المهدي قضاء مصر سنة ١٦٤ هـ وكان يرى رأى أبي حنيفة في إبطال الإحباس « الأوقاف »، وكان الليث بن سعد يومئذ حيا، وهو يرى صحة الأوقاف، وأهل مصر جميعا على هذا الرأي لا يحبون جدالا فيه أو مرء، فنقل عليهم هذا القاضي، الذي يريد أن يحدث لهم أحكاما لا يعرفونها، فدبروا لعزله، واستعانوا على ذلك بالليث بن سعد الذي كان يخالفه في رأيه، والذي كان له من النفوذ والسلطان ما قد ذكرنا، فكتب الليث الى المهدي فعزله.

ولكن المذهب الحنفي لم ييطل بذلك من مصر، فقد ترك هذا القاضي الحنفي في نفوس كثير من أهل العلم أثرا من فقهه ورأيه، ثم حدث ظرف سياسي بعد ذلك في مصلحة هذا المذهب، ذلك أن الرشيد أولع بأبي يوسف الفقيه صاحب أبي حنيفة، وقربه إليه، وولاه قضاءه، وكان يستشيريه في أمر تولية القضاة بالأمصار، فلا يشير إلا بقاض حنفي، فكان لا يولى ببلاد العراق وخراسان ومصر والشام إلا من كان حنفيا، وانتشر بذلك مذهب أبي حنيفة في مصر كما انتشر في أمصار غيرها.

وإذا كان هذا الحظ قد صادف المذهب الحنفي فروج له في مصر، وحض عليه العامة والخاصة، فقد نال المذهب المالكي حظوة من نوع آخر لدى المصريين، ذلك أن طائفة من أبناء مصر النبغاء قد درسوا هذا المذهب وأجادوه، وتعرف كثير منهم الى صاحبه مالك بن أنس رضي الله عنه، فرحلوا إليه، وأخذوا عنه، وبهرهم علمه، وملكتهم مهابته، فكانوا أداة لنشر مذهبه بين المصريين لا تقل عن الأداة الرسمية التي كان لها بعض الشأن في الترويج لمذهب الحنفية. فمن هؤلاء عثمان بن الحكم الجذامي أول من أدخل علم مالك الى مصر، والذي قيل إنه لم تنبت مصر أفضل منه، وهو فقيه محدث من أصحاب مالك، روى عنه وعن موسى بن عقبة، وروى عنه الليث، وابن وهب، ورشيد بن سعد، وتوفي بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ.

ومنه بطل المالكية وعمدتهم عبد الرحمن بن القاسم ، الفقيه المصرى البارع ، الذى صاحب مالكا عشرين سنة ، وقال فيه مالك : « لم أر مثله ، هو جراب مملوء مسكا » ! وحسبك أن المالكية لا يصفون قولاً من أقوال أئمتهم بأنه المعتمد فى المذهب إلا قول ابن القاسم !

والناس يختلفون فى ابن القاسم ، فمنهم من يعده مقلداً لمالك ، متبعاً فى الفقه أصول مذهبه ؛ ومنهم من يرفعه الى درجة الاجتهاد المطلق ؛ وقد غالى بعضهم فى ذلك حتى قال : إن المالكية فى الحقيقة قاسميون ! والحق أن ابن القاسم مجتهد ولكن فى حدود مذهب الإمام مالك وعلى طريقته ، وإن رجلاً يصاحب إمامه عشرين عاماً كاملة لا بد أن يكون قد تأثر به الى أبعد حدود التأثر مع نماء قوة النظر فيه ، ولذلك يعد بعض المالكية الخلاف بينهما يسيراً متقارباً ، بل يابون أن يعدوا بينهما خلافاً حقيقياً إلا فى أربع مسائل ذكرها ابن ناجي فى كتاب الزكاة من شرح المدونة . وتوفى ابن القاسم سنة ١٩١ هـ .

وقد نبغ فى المصريين إمام آخر يعد ثانى اثنين أولهما ابن القاسم : وهو أشهب بن عبدالعزيز ابن داود القيسى ، تفقه بمالك والمدنيين والمصريين ، وانتهت اليه الرئاسة بمصر بعد ابن القاسم ، وهما بالنسبة لمالك كمحمد بن الحسن ، وأبى يوسف بالنسبة لأبى حنيفة . توفى أشهب سنة ٢٠٤ هـ .

ومن كبار المالكية فى مصر لذلك العهد : عبد الله بن وهب ، ولعل القراء يذكرون أننا عددناه من قبل فى رجال المدرسة الثانية وترجنا له بينهم ، لأنه كان من أوائل المشتغلين بجمع الحديث وتدوينه ، فهو ذو شخصيتين إحداها شخصية المحدث ، والأخرى شخصية الفقيه ، ويظهر أن أولاهما قد طغت على الأخرى حتى إنك لتراه فى فقهه راوية أكثر منه فقيهاً ، وإذا كان مالك يكتب اليه : « الى فقيه مصر » أو « الى أبى محمد المفتى » فانه كان يلجح الى هذا الذى أثبتناه فيقول فيه : إنه عالم ، وإنه إمام ، وإنه ديوان العلم ، على حين كان يقول فى ابن القاسم : إنه فقيه !

هؤلاء بعض الذين نشروا فقه مالك بين المصريين ؛ وقد اشتد الخلاف بين الحنفية والمالكية ، ووجد كل مذهب أنصاراً له من المصريين يؤيدونه ويثبتون فقهه بين العامة ، ويعقدون له الحلقات فى المسجد الجامع .

وفى تلك الاثناء لمع فى بلاد الحجاز وبلاد العراق نجم ثاقب ، شرق ذكره فى الآفاق وغرب ، ذلك هو الإمام النابه الذكى الفقيه الأديب : محمد بن إدريس الشافعى .

كان رضى الله عنه تلميذاً لمالك ، وكان يعرف مقامه بين أهل المدينة ، ومقدار انتشار مذهبه فى أهل الحجاز ، فلم يطمع فى نشر مذهبه بينهم .

وكان إذا رحل الى العراق وجد كل شئ فيها الى جانب المذهب الحنفى ، فأبو حنيفة

عراقى بين عراقيين ، والعراقيون يومئذ مصدر القوة والجاه والسلطان ، فأثنى له أن يزاحم بمنكبيه في هذا المزدحم ؟

ولكنه كان إذا نظر الى مصر وجد كل شيء فيها يدعوه إليها ، فصر بلد تكرم الوافدين وتحنفل بالواردين ، وأخبار الخلاف بين فقهاء تترامى إليه ، وتلاميذه من المصريين يزبنون له الرحيل إليها ، فلتكن مصر إذاً مثابته ومقصد آماله ، وليرحل إليها كما أشار عليه تلاميذه لعل الله أن يجمع به بين المتخالفين ، ويصلح بين المتخاصمين ، ويفتح له بذلك فئحة ميبنا .

قال الزعفرانى : سأل الشافعى الربيع عن أهل مصر قبل أن يرحل إليهم ، فقال له الربيع : هما فرقان : فرقة مالت الى قول مالك وناضلت عنه ، وفرقة مالت الى قول أبى حنيفة وناضلت عنه ! فقال الشافعى : أرجو أن أقدم الى مصر إن شاء الله فأتبهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعا . فلما أراد الخروج الى مصر أنشد لنفسه :

أخى أرى نفسى تتوق الى مصر ومن دونها أرض المهامر والقفر  
فوالله ما أدرى ألسفوز والسغى أساق إليها ؟ أم أساق الى قبرى ؟

قال الزعفرانى : فوالله لقد سيق إليهما جميعا ! !

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

« يتبع »

## توفية الدين

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله » . وقال حكيم : الدين يجمع كل بؤس : هم بالليل وذلل بالنهار ، وهو ساجور الله في أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا في عنقه .

وعن عمرو بن دينار قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريت إن قتلت شهيدا فأين أنا ؟ قال رسول الله : فى الجنة . ثم قال : قال لى جبريل : إن لم يكن عليه دين .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة رجل من الانصار ، فقال : أعلية دين ؟ قالوا نعم ، فرجع ، فقال على رضى الله عنه : أنا ضامن يارسول الله . فقال له النبي : يا على فك الله رقبته كما فككت عن أخيك المسلم ، ما من رجل يفك عن رجل دينه إلا فك الله رهانه يوم القيامة !

نقول : إن هذا التشديد فى الأمور المالية من مظنة التسامح فيها ، يدل العالم الاجتماعى أن هذا الدين أسس على علم عال ، وحكمة سامية . فإن الترابط الاجتماعى لا يقوم إلا على التعاون ، فإن لم يقم هذا التعاون على الوفاء بالحقوق ، تراخت أواخيته ، وضعف الاجتماع .

## تاريخ علم التفسير

نماذج من التفسير في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

أشرنا في المقالين السابقين إلى أن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ليس على النمط الذي نعلمه من تفسير العلماء على اختلاف طبقاتهم ؛ فهو يبين الناسخ والمنسوخ ، ويخصص العام ، ويقيد المطلق . . . الخ . ومن النماذج التي نوردتها يتبين ذلك جليا .

انظر إلى المثال رقم (١) الآتي تجد الآية الكريمة أنزلت أول ما أنزلت ، عامة ، فلما شك ابن أم مكتوم ضرارته نزل الاستثناء فخصص العام ، على إحدى الروايات في ذلك ؛ أو نزلت آية فيها النص على التخصيص مكان الآية العامة ، على إحدى الروايات . ومعلوم أن تخصيص العام في آية قرآنية بآية ، أو نزول آية مكان آية ، لا يكون إلا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ هذا من شأن الوحي وهو مختص به صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض الأصوليين أن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، ويرى أكثرهم أن السنة ، ولو كانت غير متواترة ، تخصصه ، إلى آخر ما دونوه في كتبهم ، واستدلوا عليه .

وإنما الذي نريد أن ننبه عليه هنا أن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وبيانه ، ليس كتفسير علماء الطبقات ، لأجل أن يتضح لنا عند المقارنة مقدار الفروق بين التفاسير ، والعوامل التي أدت إلى ذلك .

وإذا نظرت إلى المثال رقم (٢) رأيت فيه كذلك تخصيص العام ، أو بيان المجهل . وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم في تنفيذ القصاص حيث تمسك به أصحاب الحق ، انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس : كتاب الله القصاص » ثم أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول الأرض حين رضى به أصحاب الحق .

وهكذا إذا أمعنت النظر فيما نوردته من النماذج حصلت عندك صورة صحيحة لتشريع الأحكام وبيانها وتقريرها ، خصوصا إذا كنت على علم مما قرره علماء الأصول . وإليك النماذج :

١ — قول الله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » :

لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادعوا فلانا (١) - لأحد كتاب الوحي -

(١) هو سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه كما في بعض الروايات .

لجاءه ومعه الدواة والكتف ، فقال : اكتب « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » . فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله أنا ضير ، فنزلت مكانها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » .

ويروى ابن جريج قال : أخبرني عبد الكريم أن مقسماً مولى عبد الله بن الحارث أخبره أن ابن عباس رضى الله عنهما أخبره : لا يستوى القاعدون من المؤمنين : عن بدر ، والخارجون الى بدر .

فأنت ترى أن الآية أول ما أنزلت كان نصها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » ، وقد أملاها النبي صلى الله عليه وسلم على سيدنا زيد بن ثابت بهذا النص ، فلما شكك ابن أم مكتوم ضرارته استثنى الله من أصيب بالعمى من حكم العام ، رحمة منه بالعباد ، ونزلت آية أخرى مكان هذه الآية تنص على الاستثناء على ما يفهم من قول الراوى : « فنزلت مكانها » . وبعض الروايات الأخرى تنص على أن الذى نزل بعد الشكوى إنما هو الاستثناء فقط ، كرواية البخارى بسنده عن ابن شهاب ، قال ابن شهاب : حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد فأقبات حتى جلست الى جنبه ، فأخبره أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » جاء ابن أم مكتوم وهو يملئها على فقال : يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونغذه على نغذى فنقلت على حتى خفت بأن ترضى نغذى ، ثم سرى عنه : « غير أولى الضرر » . فهذه الرواية صريحة فى أن الذى نزل بعد الشكوى هو الاستثناء فقط .

٢ — قول الله تعالى : « والجروح قصاص » :

لما كسرت الربيع ، وهى عمه أنس بن مالك رضى الله عنه ، ثنية جارية من الأنصار ، طلب القوم القصاص ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص ؛ فقال أنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك : لا والله لا تكسر سنهيا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس : كتاب الله القصاص ! فرضى القوم ، وقبلوا الأرش . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

٣ — قول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية :

عن أبي النعمان قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر ، فأمر مناديا فنادى ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لى : اذهب فهرقها . قال : فجرت فى سكك المدينة . قال : وكان

خمرهم يومئذ الفضيخ . فقال بعض القوم : قتل قوم وهى فى بطونهم ؟ قال : فأنزل الله : « ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح » الآية .

٤ — قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم عُيَيْنَةُ بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُرَ بن قيس ، وكان من النفر الذين يذنبهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولا كانوا أو شبابا . فقال عيينة لا بن أخيه : يا بن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال هـى يا بن الخطاب ! فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى هم أن يوقع به . فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله . وعن ابن الزبير فى معنى الآية قال : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

٥ — قول الله تعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة » :

روى البخارى بسنده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا جاءه فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكره الله فى كتابه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا بن أخى أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب الى من أن أعير بهذه الآية التى يقول الله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا » الى آخر الآية . قال : فان الله يقول : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة » . قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الاسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن فى دينه ، إما يقتلونه وإما يوثقونه ، حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة . فلما رأى أنه لا يوافقهما فيما يريد ، قال : فما قولك فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : ما قولى فى على وعثمان ؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن يعفو عنه ، وأما على فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، وأشار بيده ، وهذه ابنته حيث ترون . وروى البخارى بسنده عن سعيد بن جبیر قال : خرج علينا أو إلينا ابن عمر ، فقال رجل : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ قال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك ؟



## الكلام والمتمكلمون

- ١٠ -

نفر الدين الرازي :

نسبه وحياته : هو الامام أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري المعروف بابن الخطيب الملقب بفخر الدين الرازي ، وهو ينتمي الى أسرة عربية عريقة .

ولد هذا الامام في مدينة الري بفارس سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٩ م . نشأ في بيت علم وأدب ، فولده الامام ضياء الدين عمر — خطيب الري — كان على جانب عظيم من العلم ، برع في علم الأصول والمذهب ، وأخذ عنه الكثيرون . ويذكر ابن أبي أصيبعة أن له تصانيف عدة في الأصول والوعظ وغير ذلك . درس الرازي من العلوم والفنون ما عرف في عصره وكتب فيها .

اشتغل في مبتدأ أمره بالفقه والأصول والتفسير على والده ، ثم تنقل بين الحيرة وخوارزم وغيرها من المدن والأصوار ، ودرس العلوم الاسلامية دراسة عميقة متبجرة ، حتى لقبه معاصروه بشيخ الاسلام لعلمه الواسع وتقواه . وكان شافعي المذهب . ثم قصد السكالك السمعاني واختلف اليه مدة ، ثم عاد الى الري ، فألم بالطب ، ونبغ في الأدب ، ونظم الشعر بالعربية والفارسية ووعظ بهما ، وكان من أهل الدين والتصوف . كان يعظ في بلدة الري وغيرها من المدن فيلقى للناس أفانين الحكمة وأزاهيرها ، فيبكي كثيرا ، ويبكي الناس كثيرا .

غير أنه لم يكتف بهذه العلوم الذائعة في عصره ، واشتاق الى الاشتغال بالعلوم العقلية ودراسة مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، فتردد على محمد الدين الجيلي أحد أصحاب محمد بن يحيى . ولما رحل المجد الجيلي الى مراغة ليدرس بها ، صحبه نفر الدين وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة . ويقال : إنه حفظ « الشامل » لإمام الحرمين ، ثم ارتحل الى خراسان ، وفيها وقف على مؤلفات الفارابي وابن سينا وعلم منها علما كثيرا (١) . وظل عاكفا على دراسة الحكمة حتى فاق فيها أهل عصره .

ولما اكتمل علمه ، ترك الري وعبر الى خوارزم ؛ وهناك جادل المعتزلة فأخرج من البلدة ، فقصدا وراء النهر ، فحدث له هناك ما حدث له في خوارزم ، فعاد الى الري . . . في هراة لقب الرازي بشيخ الاسلام ، وحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات يسألونه وهو يجيب ، وكان بينه وبين السكرامية أحاديث جدلية عنيفة ، يتهمهم بالإلحاد ويتهمونهم ، واستعرت العداوة

بينه وبينهم حتى قيل : إنهم سموه ، وبلغ من أمر الحشوية أن كتبوا له رقعا فيها أنواع السيئات يضعونها على منبره .

وفي أواخر أيامه ، وقد بلغ أوج كماله العلمي ، حدث له ما حدث لأبي حامد الغزالي من قبل ، فقلت ثقته بالعقل الانساني وأحس بعجزه ، وأدرك تماما أنه لا يستطيع الاحاطة بالوجود في ذاته ، فأدركته حالة صوفية كانت تفتابه منها في بعض مجالس وعظه نوبات فيصرخ مستغيثا . وعظ يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري وحصلت له حال ، فاستغاث : « يا سلطان العالم ، لا سلطانك يبق ، ولا تلبس الرازي يبق » . قال ابن الصلاح : أخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع نضر الدين الرازي يقول : « ياليتني لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى » . وقال في كتابه الذي صنفه في أقسام الذات : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن . أقرأ في التنزيه : « والله الغنى وأتم الفقراء » ، وقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، و « قل هو الله أحد » ؛ وأقرأ في الاثبات : « الرحمن على العرش استوى » ، « يخافون ربهم من فوقهم » ، و « إليه يصعد الكلم الطيب » ؛ وأقرأ في أن الكل من الله قوله : « قل كل من عند الله » ، ثم أقول وأقول من صميم القلب ، من داخل الروح : إني مقرب بأن كل ما هو الأكمل والأفضل الأعظم الأجل فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزله عنه » .

مرض الرازي وأيقن أنه لا محالة مائت ، ففي الحادى والعشرين من المحرم سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة - ١٢٠٦ م أملى على تلميذه ابراهيم بن أبى بكر الأصفهاني وصية تعتبر غاية مثلى للأتقياء ، جاء فيها :

« اعلموا أني كنت رجلا محبا للعلم ، فكنت أكتب في كل شيء شيئا ، لا أقف على كمية ولا كيفية ، سواء كان حقا أو باطلا ، أو غثا أو سمينا ، إلا أن الذى نظرته في الكتب المعتمدة لى أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير منزله عن مماثلة المتحيزات والاعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة . ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتتها في القرآن العظيم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمتناقضات ، وما ذلك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية . ولهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرية من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والازلية ، والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به . وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المنفق عليها بين الأئمة المتابعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو . والذى لم يكن كذلك ، أقول : يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . فكل ما أمر به قلبي أو خطر ببالي

فأستشهد وأقول : إن علمت منى أنى ما سمعت إلا فى تقدس اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصديق ، فلتكن رحمتك مع قصدى ، لا مع حاصلى ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى زلة . فأغثنى وارحمنى ، واستر زلتى ، واحم حوبتى ، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين ، ولا ينقص ملكه بخط المجرمين . وأقول دينى متابعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابى القرآن العظيم ، وتعويلى فى طلب الدين عليهما .

#### مؤلفاته :

للازى مؤلفات لو حاولنا أن نحللها هنا لخرجنا عن خطة الإيجاز التى رسمناها لأنفسنا فى البحوث المتعلقة بالمتكلمين من هذه الفصول . ولذا نحن نكتفى فيها بهذه الإشارة الوجيزة ، فنقرر أنها كانت بمثابة موسوعة فخمة لعلوم عصره ، إذ اشتملت على الفلسفة والتوحيد وتفسير القرآن والفقه والأدب والشعر والهندسة والطب . وقد نالت كتبه من النجاح والتأثير فى أهل عصره حدا جعلها تنسبهم أكثر مؤلفات من سبقوه .

#### حافظ الدين النسفى — حياته ومنتجاته :

ولد حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى فى نسف ، ولا يعرف المؤرخون متى ولد بالضبط ، وإنما يؤكدون أنه لما شب تلقى العلم عن شمس الأئمة الكردي وعن حميد الدين الضرير ، وأنه بعد أن أتم دراسته عين أستاذا فى المدرسة القطبية السلطانية بكرمان ، وأنه ارتحل الى بغداد ثم لم يلبث أن غادرها . وفى أثناء سفره توفى ودفن فى خزرستان فى سنة ٧١٠ هـ — ١٣١٠ م .

أما مؤلفاته فأهم ما بقى منها ما يلى :

( ١ ) كتاب « المنار فى أصول الفقه » . وقد شرحه المؤلف نفسه فى كتاب سماه : « كشف الأسرار » .

( ٢ ) كتاب « الوافى » وقد شرحه أيضا بكتاب سماه : « الكافى » .

( ٣ ) « كنز الدقائق » وهو بعض ما فى كتاب « الوافى » . وقد تلقى عليه تعليظه ابن الساعاتى بعض فصوله فى كرمان فى سنة ٦٨٣ هـ . وهذا الكتاب لا يزال الى الآن يدرس فى دمشق وفى الجامعة الأزهرية ، وله شروح كثيرة أهمها ما يلى :

- ( ١ ) « تبين الحقائق » للزيلعى المتوفى فى سنة ٧٤٣ هـ — ١٣٤٢ . أو ١٣٤٣ م .
- ( ب ) « رمز الحقائق » للعينى المتوفى فى سنة ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م . ( ج ) . « تبين الحقائق » لملا مسكين الذى كتبه فى سنة ٨١١ هـ — ١٤٠٨ أو ١٤٠٩ م . ( د ) « توفيق الرحمن » للطائى المتوفى فى سنة ١٠٩٢ هـ — ١٧٧٨ م .

(٤) « العمدة في أصول الدين » وقد عرف أيضا بعنوان : « المنار في أصول الدين » . وقد نشره في أوروبا « كوريتون » في سنة ١٨٤٣ م . وقد سلك فيه مؤلفه نهج نجم الدين النسفي في العقائد النسفية ، ثم شرحه في كتاب عنوانه : « الاعتماد في الاعتقاد » . وبهذه المناسبة ينبغي أن ننبه الى أن النسفي مؤلف العقائد ليس هو النسفي المفسر كما تعتقد الكثرة المطلقة من المتعالمين .

هذه هي أهم مؤلفاته الموضوعية . أما شروحه فأهمها ما يأتي :

(٥) « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » في تفسير القرآن .

(٦) شرح كتاب « النافع » لناصر الدين السمرقندي .

(٧) « المستصفي » في شرح منظومة نجم الدين النسفي .

هذا ، ويؤكد الأستاذ « هيفينينج » في دائرة المعارف الاسلامية أن أبا البركات النسفي لم يكتب شرحا للهداية كما زعم الحاج خليفة .

الدكتور محمد غراب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## العمل للدنيا عبادة

قال المأمون : أمور الدنيا أربعة : إمارة ، وتجارة ، وصناعة ، وزراعة ؛ فمن لم يكن أحد أهلها كان كلاً على الناس .

وقال حكيم : قوام الدنيا والدين العلم والكسب ؛ فمن رفضهما فقال أبتغي الزهد لا العلم ، والتوكل لا الكسب ، وقع في الجهل والطمع .

وقال غيره وهو مستمد من أحاديث نبوية كثيرة : بذل الجهد في طلب الحلال ، وقلة الحوائج الى الناس ، أفضل العبادة .

وقد قال أحد الشعراء :

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى      وعليه من لبس المجوس مرقع  
بطرائق سود وبيض لفقت      وكأنه فيه غراب أبقع

وقال غيره في المراءاة بالتصوف :

عجبت من شيخ ومن زهده      يذكر النار وأهوالها  
يكره أن يشرب في فضة      ويشرب الفضة إن نالها

وقال الحسن البصري : إن قوما جعلوا تواضعهم في ثيابهم ، وكبرهم في صدورهم ، حتى لصاحب المدرعة بمدرعته ، أشد فرحاً من صاحب المطرّف بمطرفه . (المطرف رداء من حرير)

## التجديد والمجددون في الاسلام

### الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات في مذهبه

أين نشأ مذهب أبي حنيفة؟ ما هي البلاد التي انتشر بها؟ ما هي عوامل انتشاره؟

نشأ مذهب أبي حنيفة بالكوفة موطن الامام، ثم شاع في بلاد بعيدة؛ وإذا قدرنا عدد المسلمين على ظهر الكرة الأرضية بأربعمائة مليون نسمة، فأكثر من نصف هذا العدد يقتدى بالامام أبي حنيفة.

من عوامل انتشار هذا المذهب أنه لما قام الرشيد في الخلافة، وولى القضاء الامام أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، أصبحت تولية القضاء بيده، فلم يكن يولّى ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الى أقصى إفريقية إلا من أشار به، وكان لا يولى إلا أصحابه والمتسبين الى مذهبه، فشاع المذهب الحنفي في هذه البلاد شيوعاً عظيماً، كما شاع المذهب المالكي بالاندلس بسبب تمكن يحيى بن يحيى بن كثير من الحكم، ولذلك يقول ابن حزم: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفي بالشرق، والمالكي بالاندلس. ويقول المقرئ: لم يزل المذهب الحنفي غالباً على هذه البلاد لا يثار الخلاف العباسيين الحنفية بالقضاء؛ ولقد بلغ من تمسكهم به في القضاء أن القادر بالله استخلف مرة أبا العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعي عن أبي محمد الأكفاني الحنفي قاضي بغداد بإشارة أبي حامد الأسفرائيني، من غير رضا الأكفاني، وكتب أبو حامد المذكور الى السلطان محمود بن سبكتكين أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية، فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد بهذا حزينين ثارت بينهما الفتنة؛ فاضطر الخليفة الى صرف البارزي، وأعاد الأمر الى حقه، وأجراه على قديم رسمه، وحل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة، وخلع على الأكفاني، وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة، وكان الغالب على إفريقية — والمراد بها ما يشمل طرابلس وتونس والجزائر — السنن والآثار، الى أن قدم عبد الله بن فروخ بمذهب أبي حنيفة، ثم غلب عليها لما ولى قضاءها أسد بن الفرات كما قال المقرئ؛ ثم بقي غالباً عليها حتى حمل المعز بن باديس أهلها على مذهب مالك؛ وهو الغالب الى اليوم على أهلها إلا قليلاً منهم يقلدون المذهب الحنفي كما قال ابن الأثير.

ويستفاد من معتبرات الكتب أن أسد بن الفرات خرج من القيروان الى الشرق سنة اثنتين وسبعين ومائة، فسمع الموطأ على مالك بالمدينة، وكان أصحاب مالك: ابن القاسم

وغيره ، يحملون أسدا على سؤال مالك عن مسائل ، وكان مالك رضى الله تعالى عنه يتلطف مع أسد ويجيبه عن مسأله دونهم لكونه رحل اليه من بلد بعيد ؛ لكن لما أكثر أسد من السؤال أخذ مالك يتضايق من ذلك حتى قال له يوما : « سلسلة بنت سلسلة ، إذا كان كذا كان كذا ، إن أردت هذا فعليك بالعراق ! » وفى رواية أخرى : أنه سأل مالكا يوما عن مسألة فأجابه عنها ، فزاد أسد فى السؤال ، فأجابه ، ثم زاده . فقال له مالك : حسبك يا مغربى إن أردت هذا فعليك بالعراق ! فوجد أسد أن الأمر يطول عليه عند مالك ، وبفوته ما يرغب فيه من لقيا الرجال والرواية عنهم ، فرحل الى العراق وسمع من أصحاب أبى حنيفة ، منهم أبو يوسف ، وأسد بن عمرو البجلي ، ومجد بن الحسن ، وكان أكثر اختلافه الى مجد بن الحسن ، ولما حضر عنده قال له : إني غريب قليل التفقه ، والسماع منك نزر ، والطلبة عندك كثيرون ، فما حيلتى ؟ فقال له مجد : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتيبت عندي وأسمعك . قال أسد : وكنت أبيت عنده ، وينزل الى ويجعل بين يديه قدحا فيه الماء ، ثم يأخذ فى القراءة ، فاذا طال الليل ورأى نعست ملائيدته ونضح على وجهى فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأبى حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه ؛ وكان مجد بن الحسن يتعهد أسدا بالتفقه بعد أن علم أن نفقته نفدت ، وسعى فى نفقته عندما أراد الانصراف من العراق ، الى آخر ما هو مسطر فى معالم الايمان .

ولما انصرف أسد من العراق بعد أن زقه مجد العلم زقا ، نشر مذهب أبى حنيفة ومالك بأفريقية ، ثم اقتصر على نشر مذهب أبى حنيفة ، فانتشر فى ديار المغرب الى الأندلس ، حتى أصبح الأكثرون فى أفريقية على مذهب أبى حنيفة الى عهد ابن باديس .  
وأسد بن القرات هذا هو فاتح صقلية وناشر الاسلام بها ومذهب أبى حنيفة ، وتوفى سنة ٢١٣ هـ .

ولقد شرح المقدسى الصلة بين مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك وقال إن أهل المغرب يعتبرون هذين المذهبين بحرين ، ويعتبرون الاخاء الصادق بين الفريقين المتمذهبين بهذين المذهبين ؛ حتى قال بعض كبار الفقهاء من المالكية : إذا لم تكن فى مسألة رواية عن مالك يؤخذ بقول أبى حنيفة فيها ؛ بل حصر بعضهم الخلاف بين هذين المذهبين فى اثنتين وثلاثين مسألة . فالأئمة المتبوعون كأسرة واحدة ، ترى مالكا يذاكر أبأ حنيفة فى العلم فى المسجد النبوى وينتفع كل بما عند الآخر ، ويثنى مالك على أبى حنيفة ويقول : لم أر مثله . ومجد بن الحسن يسمع الموطأ من مالك ، والشافعى يسمع الموطأ على مالك ويتفقه على مجد بن الحسن ، وأحمد ينفقه عند أبى يوسف والشافعى وينتفع بكتب محمد بن الحسن ؛ وبهذا نالوا بركة العلم ؛ وأما ما يروى من كلام بعضهم فى بعض فأكاذيب لفقها المغرضون ، واتخذ بها

من انخدع من البسطاء ، وإذا راجعت كتب بلوغ الأمانى ، وحدوث المذاهب ، وكلام الباجى فى شرحه على حديث الداء العضال من المنتقى شرح الموطأ ، وجدت ما يكفى فى هذا ويشفى .

وكان أهل مصر لا يعرفون مذهب أبى حنيفة حتى ولى قضاءها اسماعيل بن اليسع الكوفى من قبل المهدي سنة ١٦٤ هـ وهو أول قاض حنفى بمصر ؛ وأول من أدخل مذهب أبى حنيفة إليها ، وكان من خيرة القضاة ، إلا أنه كان يذهب الى إبطال الإحباس « الأوقاف » فنقل أمره على أهل مصر وقالوا : أحدث لنا أحكاماً لا نعرفها ببلدنا ! فعزله المهدي كما قال ابن حجر وغيره .

ثم شاع بمصر المذهب الحنفى بعد ذلك مدة تمكن العباسيين ، إلا أن القضاء بها لم يكن مقصوداً على الحنفية ، بل كان يتولاه الحنفية تارة ، والمالكية أو الشافعية تارة أخرى كما قال المقرئى ، الى أن استولى عليها الفاطميون فأظهروا مذهب الشيعة الاسماعيلية ، وولوا القضاة منهم ، فقوى مذهبهم ، إلا أنه لم يقض على المذاهب السننية فى العبادات لأنهم كانوا يبيحون غالباً للرعية التعبد بما يشاءون من المذاهب . وكان مذهب مالك والشافعى وأحمد ظاهر الشعائر فى مملكتهم بخلاف المذهب الحنفى فكان الفاطميون يغيضون منه لأنه كان مذهب الدولة العباسية المناوئة لهم كما قال بعض المحققين .

ولما قامت الدولة الأيوبية بمصر قضت على التشيع فيها ، وأنشأوا المدارس للشافعية والمالكية ؛ وكان نور الدين الشهيد حنفياً ، فنشر مذهب أبى حنيفة ببلاد الشام ، ومنها كثرت الحنفية بمصر ، وقدم إليها عدة من بلاد المشرق فبنى لهم صلاح الدين الأيوبى المدرسة السيوفية بالقاهرة ؛ وما زال مذهب أبى حنيفة ينتشر ويقوى ، حتى استولت الدولة العثمانية على مصر فحصر القضاء فى الحنفية ، وأصبح المذهب الحنفى هو مذهب أمراء الدولة وخاصتها ، ورغب كثيرون من أهل العلم فيه لتولى القضاء ، ولم يزل مذهب أبى حنيفة هو المذهب الرسمى للدولة المصرية الى يومنا هذا ، وبه يفتى ويقضى ؛ وقد ملأ طباق الأرض ؛ فانك تجده منتشراً الآن بين المسلمين فى جميع قارات الدنيا على قلة فى بعضها وكثرة فى بعضها الآخر ، وقد نفع الله به الملايين من المسلمين ، فجزى الله أبا حنيفة عنهم خير الجزاء .

ومن العوامل التى أدت الى سعة انتشار مذهب أبى حنيفة أيضاً زيادة رغبة الناس فيه ، لأنه أوسع المذاهب ، وأكثرها يسراً ، وأيسرها للمجتهد استنباطاً ، لاشتماله على الأصول والقواعد وعلل الأحكام الشرعية التى علل الشارع بها الحكم ، وأداره عليها وجوداً وعدماً ، ونصها أمارات عليه ولا سيما فى المعاملات التى القصد منها مصالح الخلق ، وعماراة الكون ؟

السبر عفيفى

# حَيَاتُ حَلَالَتِهَا لِسَيِّدِ الْإِسْلَامِ

## عبد الله بن عمرو

ذكرنا في المقال السابق أن عبد الله بن عمرو بن العاص تميّز عن أقرانه من نوابغ الاسلام الاولين بغزارة علمه ، وسعة اطلاعه على السنة النبوية ، وحفظ حديث الرسول ووقائعه ؛ وعرفنا أن الذي ساعد على ذلك معرفته بالكتابة ، فكان يحفظ ويكتب ، وكان غيره يحفظ ولا يكتب ، كما أخبر بذلك أبو هريرة رضى الله عنه ؛ وعرفنا أن اطلاعه تعدى حدود القرآن والسنة الى التوراة بلغات أهلها ، فأصاب من ذلك علما تفرد به ، كان يجدر بمؤرخي الاسلام ورجال الحديث ، وكاتبى السيرة النبوية ، وعلماء التفسير ، أن يجعلوا علم عبد الله بن عمرو وأضرابه من الثقات الأثبات ميزانا لعلم غيرهم من رواة أخبار التوراة ، ومقياسا لروايات الذين أكثروا من الحديث عنها من أمثال كعب الأحبار ، وتوف البكالى ، ووهب بن منبه ، فإن منزلة عبد الله بن عمرو من الصدق والإتقان والفقه في الدين ترفعه عن منازل الارتياب ؛ ولو أن العلماء تنهبوا الى مثل هذا منذ القدم لأمكن تصفية التاريخ الاسلامى من هذه الأفاصيص الإسرائيلية المبهلة ، التى ملأت كتب التفسير والسيرة وشروح الحديث ؛ وإذ فات هذا فلا أقل من أن يجعل الباحثون أحاديث عبد الله وأضرابه بعد التثبت من صحة روايتها وسيلة لا متحان هذه القصص المسطورة فى الكتب .

وقد انضافت الى ميزة عبد الله بن عمرو العلمية ميزة أخرى لا تقل عنها أثرا فى حياته ، تلك هى شدته على نفسه فى العبادة ، فقد كان رضى الله عنه من عبّاد عبادة الاسلام ، أخذ نفسه بأحزم ما يأخذ به أنفسهم العابدون ، حتى ضجر له أبوه ، ورثى لحاله ، واحتال لإخراجه من موقفه ، فزوجه بامرأة ذات جمال وحسب علّها تأخذ من نفسه مكانا يصرفه بعض الشيء عن هذا الجهد الذى صار اليه من إدامة الصيام بالنهار والقيام بالليل ، فلم تؤثر فيه شيئا ، وشكاه أبوه الى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ روى البخارى فى صحيحه عن مجاهد عن عبد الله ابن عمرو قال : « أنكحني أبى امرأة ذات حسب ، فكان يتعهد كنيسته فيسألها عن بعلمها ، فتقول : نعم الرجل من رجل لم يظأ لنا فراشا ، ولم يفتش لنا كنفنا منذ أتيناها ! فلما طال ذلك عليه ، ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إلقني به ، فلقيته بعد ، فقَالَ : كيف تصوم ؟ قال : كل يوم ، قال : وكيف تحتم ؟ قال : كل ليلة ، قال : صم فى كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن فى كل شهر ، قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم ثلاثة أيام فى الجمعة ،



قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك ، قال : أفطر يومين ، وصم يوما ، قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم أفضل الصوم ، صوم داود : صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كل سبع ليال مرة ؛ فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وذاك أني كبرت وضعفت . قال مجاهد : فكان يقرأ السبع من القرآن بالنهار على بعض أهله ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى ، وصام مثلهم كراهية أن يترك شيئا فارق النبي صلى الله عليه وسلم عليه .

هذا الأدب النبوي الكريم رفع عن الأمة الإسلامية غشاوة الرهينة التي أوشكت أن تنفشي فيما بين كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد هم بعضهم بأمر عظيم يصيب الأمة في ذريتها ونسلها ، ولكن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم أدركتهم ، وفقهوا أن الشريعة لم تنزل لتعذيبهم وإنما جاءت لتهديهم ، فتواصوا بهذا الأدب الرحيم ؛ روى البخاري « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخى بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ؛ فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما ، فقال : كل ، قال : فاني صائم ، قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، فقال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل ، قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه ؛ فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق سلمان .

عاش عبد الله بن عمرو بعيدا عن الفتن السياسية ، لم يعرف له فيها اتجاه خاص ، رغم ما كان لأبيه عمرو بن العاص من مكانة باعتباره من دهاة العرب وقواد المسلمين وأمرائهم ، حتى اشتد الخلاف بين علي ومعاوية ، وكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين يستدعيه ليكون من حزبه في رغائب وأطماع أعطائها له ؛ ظهر حينئذ عبد الله بن عمرو إلى جانب أبيه أولا مستشارا ناصحا ، لا تميل به الدنيا ولا يستهويه السلطان ؛ ذكر المؤرخون : أنه لما انتهى إلى عمرو بن العاص كتاب معاوية وهو بفلسطين استشار ابنه عبد الله ومجدا ، وقال : يا بني إنه كان مني في أمر عثمان فلتات فلم أستقلها بعد ؛ وقد كان من هربي بنفسى حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عني ، وقد قدم على معاوية جرير ببيعة علي ، وقد كتب إلى معاوية بالقدوم عليه ، فما تريان ؟ فقال عبد الله : « أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راض ، واخليفتان من بعده كذلك ، وقتل عثمان وأنت غائب عنه ، فأقم في منزلك فاستمجمعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، وستهلكان فتستويان فيها جميعا . » وقال مجد : « أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل يصغر أمرك ،

فالحق بجماعة أهل الشام ، واطلب بدم عثمان فانك به تستقيل الى بنى أمية » . فقال عمرو : « أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لى فى دنياى » .

وقد أخذ عمرو برأى محمد وانحاز الى معاوية فى حرب على ، ولم يقو عبد الله على مخالفة أبيه ، بل وقف الى جانبه فى صفوف أهل الشام ، وكانت الراية بيده يوم صفين ، وقد ندم واعتذر لنفسه ؛ قال أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب : « واعتذر عبد الله رحمه الله من شهوده صفين ، وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم ، وأنه إنما شهد لها لعزمة أبيه عليه فى ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أطع أباك !! وكان يقول : مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين ؟ ! والله لوددت أنى مت قبل هذا بعشر سنين ! ثم يقول : أما والله ما ضربت فيها بسيف ، ولا طعنت برمح ، ولا رميت بسهم ، ولوددت أنى لم أحضر شيئاً منها ، وأستغفر الله عز وجل من ذلك وأتوب إليه ؛ وندم ندامة شديدة على قتاله مع معاوية ، وجعل يستغفر الله ويتوب إليه » .

والناظر فى موقف عبد الله يرى أنه أقجم على الحرب إقجاماً لم يكن له فيه كبير اختيار ، وأنه لم يكن كغيره يحارب عن عقيدة وإخلاص ، أو عن طمع فى دنيا يصيبها ، ولكنه كما يبدو من اعتذاره مغلوب لأبيه ، ولذلك فإنه رضى الله عنه كان لا يبالى أن يرمى بالكلمة يعنتقد أنها الحق فى آذان القوم على مسمع من أبيه ، وعلى مشهد من معاوية متى سنحت له الفرصة ؛ روى صاحب العقد عن حنظلة بن خويلد قال : « إني لجالس عند معاوية إذ أتاه رجلان محتصمان فى رأس عمار ، كل واحد يقول : أنا قتلتها ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ليطب به أحداً نفساً لصاحبه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتلك الفئة الباغية » .

وحدث البيهقى فى المحاسن أن عمرو بن العاص قال لابنه عبد الله يوم صفين : تبين لى هل ترى على بن أبى طالب رضى الله عنه ؟ قال عبد الله : فنظرت فسرأيتاه فقلت : يا أبت هاهو ذاك على البغلة الشهباء عليه قباء أبيض وقانسة بيضاء ، قال : فاسترجع وقال : والله ما هذا بيوم ذات السلاسل ، ولا بيوم اليرموك ، ولا بيوم أجنادين ، وددت أن ببني وبين موقفى بعد المشركين ! فقلت : يا أبت فما الذى يمنحك ؟ فوالله ما يحول بينك وبين ذلك أحد ! فقال :

إف يرجع الشيخ ولم يعذر إذ نزل القوم بضنك فالنظر

ثم تأمل بعد هذا أو ذر

ولعل ذلك هو السبب فى أن معاوية كان يرى عبد الله بن عمرو أقرب الى نفوس أصحاب على ، فإذا شمرت الحرب عن ساقها ، واحتوشت الشاميين بين أضرارها ، هتف معاوية رحمه الله بعبد الله ليدعو الناس الى المهادنة ؛ روى ابن قتيبة : أن معاوية دعا عبد الله بن عمرو فأمره

أن يكلم أهل العراق ، فأقبل عبد الله حتى إذا كان بين الصفين نادى « يا أهل العراق ! أنا عبد الله بن عمرو بن العاص ، إنه كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا ، فإن تك للدين فقد والله أسرفنا وأسرفتم ، وإن تك للدنيا فقد والله أعذرنا وأعذرتم ، وقد دعوناكم لأمرو لو دعوتهمونا إليه أجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله ، وإلا فاغتنموا هذه الفرصة لعل الله أن ينعش بها الحى وينسى بها القتيل ، وإن بقاء الحى بعد الهلاك قليل . »

وهذا كلام يخرج من قلب مخلص أشد الإخلاص ، وراغب أقوى الرغبة فى حقن دماء المسلمين ، وحسم ما بينهم من فتن جاثمة شهد عبد الله بن عمرو أهوالها فعبّر عنها - كما يقول صاحب العقد - بهذه الأبيات :

فإن شهدت جمل مقامى ومشهدى	بصفين يوما شاب منها الذوائب
عشية جا أهل العراق كأنهم	سحاب ربيع رفَعته الجنائب
وجئنهم نترى كأن صفوفنا	من البحر مدّ موجه متراكب
إذا قلت ولوا سراطا بدت لنا	كتائب منهم فارجحت كتائب
فدارت رحانا واستدارت رحاهم	سراة النهار ما تولى المناكب

وكان عبد الله ملازما لأبيه فى ولايته على مصر ، فكان مؤسس مدرسة الفقه والمعارف الاسلامية وصاحب الفتيا فيها ، ولما حضر أباه الموت قام بامرءه وأوصى اليه ؛ قال ابن عبد البر فى الاستيعاب : « لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى ، فقال له ابنه عبد الله : لم تبكى ؟ أجزما من الموت ؟ قال : لا والله ، ولكن لما بعده ! فقال له : قد كنت على خير ؛ فجعل يذكره صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتوحه الشام . فقال له عمرو : تركت أفضل من ذلك ، شهادة أن لا إله إلا الله ، إني كنت على ثلاث طبقات ، ليس منها طبق إلا عرفت نفسى فيه ، كنت أول شىء كافرا فكنت أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو مت يومئذ وجبت لى النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أشد الناس حياء منه ، فما ملأت عينى من رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه ، فلو مت حينئذ قال الناس : هنيئا لعمرو أسلم وكان على خير ، ومات على خير أحواله فترجى له الجنة ؛ ثم بليت بالسلطان وأشياء فلا أدرى أعلى أم لى ؟ فإذا مت فلا تبكيين على باكية ، ولا يتبعنى مادح ولا نار ، وشدوا على إزارى فأنى مخاصم ، وشنوا على التراب شنا ، فإن جنبى اليمين ليس بأحق بالتراب من جنبى اليسر ، ولا تجعلن فى قبرى خشبة ولا حجرا ، وإذا وارىتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جزور وتقطيعها بينكم أستاذس بكم . »

صادر عن عمرو

## عمر بن عبد العزيز

— ٧ —

حال عمر بعد موت ابنه عبد الملك :

كان عمر يحب ابنه عبد الملك حباً جما ، وعلى الرغم من هذا فلم يملك عليه الحزن جميع حواسه ومشاعره ، ولم يأخذ منه كل مأخذ ، ولم يشغله عن أمور المسلمين . بل لما رجع من دفنه رأى قوما يرمون ، فلما رآوه أمسكوا به فقال : ارموا ، ووقف عليهم به فرمى أحد الرامين فأخرج به فقال له عمر : أخرجت فقصر . ثم قال للآخر : ارم ، فقصر به فقال عمر : قصرت فبلغ به فقال له مسلمة : يا أمير المؤمنين أتفرغ قلبك لما تفرغ له وقد نفقت يدك من تراب ابنك الساعة ولم تصل الى منزلك بعد ؟ فقال له عمر : يا مسلمة إنما الجزع قبل المصيبة ، فإذا وقعت المصيبة فالله عما فاتك .

تعازى الناس له في ابنه :

وقد عزاه محمد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين ليسغلك ما أقبل من الموت عليك ، عما هو في شغل مما يدخل عليك ، وأعد لتزوله عدة يكن لك حجاباً وستراً من النار . يا أمير المؤمنين لو ترك رجل تعزية أخيه لعلمه وانتباهه ، لكنته ، ولكن الله قضى بأن الذكرى تنفع المؤمنين .

وقد عزاه أعرابي من بني كلاب فقال :

تعز أمير المؤمنين فإنه      لما قد ترى يغذى الوليد ويولد  
هل ابنك إلا من سلالة آدم      لكل على حوض المنية مورد

من أولاده عبد العزيز :

ولى المدينة ومكة ليزيد بن عبد الملك ، ثم ثبته مروان بن محمد عليهما ، ثم عزله .

أسند الحديث عن صالح بن كيسان ، وعن يحيى ، وعن مكحول ، وروى عن صالح ابن كيسان ، عن عثمان بن عفان . دعاه أبو جعفر وقال له : كم كانت غلة أبيك حين أفضت إليه الخلافة ؟ فقال : خمسين ألف دينار . قال : وكم كانت غلته يوم مات ؟ قال : ما زال يردّها حتى كانت مائتي دينار ، ولو بقى على قيد الحياة لردّها . وحته أبوه على ألا يسمى الظن فيما سمعه من الكلام بل يحمله على الخير ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فقال له : يا بني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير .

ومن أولاده عبد الله :

نشأ نشأة دينية ، وجمع بين العلم والأدب ، وتولى ولاية الكوفة . حضر ذات يوم يستكسى أباه وهو خليفة ، فقال : يا أبت اكسى ؛ فقال : اذهب الى الخيار بن رباح البصرى فإن لى عنده ثيابا نخذ منها ما بدالك ؛ فذهب الى ابن رباح وقص عليه قصصه ، وما كان من أمر أبيه له بالذهاب إليه ، فقال الخيار : صدق أمير المؤمنين ، ثم أخرج له ثيابا سنبلانية أو قطرية ، وقال : هذا ما لأمير المؤمنين عندى ، نخذ منها ما نعت لك أن تأخذه ؛ فقال عبد الله : ما هذا من ثيابى ولا من ثياب قومى ، ثم رجع الى أبيه وقال له : يا أبتاه استكسينك فأرسلتنى الى الخيار بن رباح ، فأخرج لى ثيابا ليست من ثيابى ولا من ثياب قومى ؛ فقال عمر لابنه : هذا ما لنا عند الرجل . فانصرف عبد الله كاسف البال ، حتى إذا كاد يخرج ناداه وقال له : هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم ؟ قال : نعم يا أبتاه ؛ فأسلفه مائة درهم ؛ فلما خرج عطاؤه حوسب بها وأخذت منه .

مرض عمر ووفاته :

لم يسلم عمر من أذى الناس له رغم ما كان عليه من حب الخير لهم ، والتفانى فى مصالحهم ؛ فدبرت شذمة منهم مكيدة له ، وأوعزت الى أشدهم جفاء لعمر ، وأغلظهم قلباً ، أن يدس السم له فى الطعام ؛ ففعل ، فما إن استقر فى جسمه حتى ثقلت حركته وفت فى عضده . فلما جاءه الطبيب وخصه قال : قد سقى السم ، ولا آمن عليه الموت ! فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت على من لم يسق السم أيضا !  
ما كتبه الى يزيد بن عبد الملك :

وقبل أن تحضره الوفاة بأيام ، كتب الى يزيد بن عبد الملك ، وكان قد أوصى سليمان ابن عبد الملك اليه بالخلافة بعد عمر ، فقال له : « من عبد الله أمير المؤمنين صر الى يزيد ابن عبد الملك ، السلام عليك ، أما بعد فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وإنى أكتب اليك وأنا دنف من وجعى ، وقد علمت أنى مسئول عما وليت يحاسبنى عليه ملك الدنيا والآخرة ، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملى شيئا ، يقول تعالى فيما يقول : « فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين » فان يرض عنى الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخط فياويح نفسى الى ما أصير ، أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يجيرنى من النار برحمته ، وأن يمن على برضوانه والجنة . وعليك يا يزيد بتقوى الله ، وإياك أن تدرك الصرعة عند الغرّة ، فلا تقال العثرة ؛ ولا تتمكن من الرجعة يحمذك من خلفت بما تركت ، ولا يعذرک من تقدم عليه بما اشتغلت به ؛ والرعية الرعية فانك لن تبقى بعدى إلا قليلا حتى تلحق باللطيف الخبير ، والسلام . »

وقبل أن يلفظ النفس الأخير من حياته سمعته زوجته فاطمة بنت عبد الملك يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار ! ووقتئذ خرجت فاطمة من عنده وجلست في مكان قريب منه فإذا هو يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يربدون علوا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » وصار يردد ها حتى عادت لا تسمع له حسا ، فقالت لوصيف له يتخدمه : ادخل عليه ، فلما دخل عليه وجده قد مات .

#### مدة خلافته وعمره ودفنه :

مدة خلافته سنتان وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وعمره ٣٩ سنة وأشهر ، وتوفي يوم الأربعاء بخنصرة لخمس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وصلى عليه يزيد ابن عبد الملك ، ودفن بدير سمعان .  
تأبين الناس له بعد موته :

ما قاله عبد الملك بن حمير : رحمك الله يا أمير المؤمنين إن كنت لغضيض الطرف ، أمين الفرج ، جوادا بالحق ، بخيلا بالباطل ، تغضب في حين الغضب ، وترضى في مواطن الرضا ، وما كنت مزاحا ولا عيا ، ولا بهاتا ولا مغتابا .

بعض ما قيل نظما في مدحه ورثائه ، قول جرير :

اليك رحلت يا عمر بن ليلى	على ثقة أزورك واعتمادا
تعوّد صالح الأعمال إني	رأيت المرء يلزم ما استعادا
الى الفاروق ينتسب ابن لبلى	ومروان الذى رفع العمادا
فما كعب بن مامة وابن سعدى	بأكرم منك يا عمر الجوادا

وقول كثير الخزاعي :

هو المرء لا يسدى الأسى في مصيبة	ولا فرحا يوما إذا النفس سرت
قليل الألايا حافظ ليمينه	وإن بدرت منه الآلية برت

وقول الفرزدق :

كم من شريعة حق قد شرعت لهم	كانت أميتت وأخرى عنك تنتظر
يا لهف نفسى ولهف اللاهفين معى	على المـسدول التى تغتالها الحفر !

تركته التى خلفها :

وحينا احتضر عمر قال لبنيه : لا تهموا الخازن فإنى لا أدع غير واحد وعشرين دينارا ، فيها لأهل الدير أجر مساكنهم ، وثمن حقلة لهم . ثم كفن منها بخمسة دنانير ، واشترى له موضع قبره بدينارين ، وقسم الباقي على بنيه فخص كل واحد من ولده تسعة عشر درهما بعد أن أخذ أهل الدير ما كان لهم من أجر مسكن وثمن حقل .

محمد مصطفى شاذى

كتاب الأدب العربي  
الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ  
١٤٠٨ هـ

# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الادب العربي

جاهليه وإسلاميه

— ٨ —

مواهب الشعراء

من الشعراء مَنْ يندفع في شعره مع السَّجِيَّة ، التي ترسله إرسالا ، وتفيض به كما يفيض اليَنْبُوع بالماء ، دون أن يتعمل أو يُروِّى ؛ وهذه الطريقة هي طريقة شعراء البادية ، ومن تأوَّهم ، وانطبع بطابعهم من الشعراء .

ومنهم من لا يندفع مع السجبة ، بل يصنع شعره صنما ، فيروِّى في معناه ، ويلائم بين أجزائه ، ثم يتخير له ألفاظه تحيرا ، وينتخبها انتخبا ؛ وهي طريقة الشعراء الفنانين ، في الجاهلية والإسلام . ومن زعماء هذه الطريقة زهير بن أبي سلمى في حوليَّاته ، وتلميذه الحطيئة ، ثم الفرزدق ، وصريع الغواني ، وأبو تمام ، والمتنبي ، وأبو العلاء ، وغيرهم .

وكلنا الطريقتين لا بد من ارتكازها على الطبع ، واعتمادها على الموهبة الشعرية ، لأن الصناعة الخالصة وإن نالت الكمال ، لا تنتج شعرا بحال . وإنما الأمر في الصناعة ، على ما سنَّ أبو تمام بقوله :

من اللاتى أمدَّ بهن طبعٌ وهتهن فكرٌ وانتقادُ

بيد أن الطريقة الأولى ، آثر عند النقاد ؛ لكثرة ماها ، وقوة رونقها ، وخفتها على السمع ، وملاءمتها للطبع ؛ على أن للأخرى محاسنها . من تلاحم النسيج ، وقوة الأسر ، وجرس الالفاظ ، وروعة الأسلوب ؛ وإنما أتيت من ناحية أن الطبيعة تأبى أن يكون الشيء ذو الأجزاء كاملا من جميع الوجوه ؛ ومن ناحية إضعاف الروح الشعرى الطبيعي بإثقاله بقيود المحسنات المعنوية واللفظية ، التي تبطئ به عن الإسراع الى النفوس ، وتعوقه - أحيانا - عن التغفل الى مكان الأسرار . ولذلك قال مروان بن أبي حفصة ، لعدي بن الرُّقاع : أما لو كنت مطبوعا ، ما أملت

ولا ساندت ، فاحتجت الى التقويم والثقيف ، لما أنشد عدى عبد الملك بن مروان ، قصيدته الرائعة : عَرَفَ الدِّيارَ تَوَّهاً فاعْتادَها .

وقال فيها :

وقصيدة قد بت أجمعُ شملها حتى أقومَ مِيلَها وسنادَها  
نَظَرَ المَشَقِّفَ في كعوبِ قناته حتى يقيمَ رِثاقه مُنادَها  
وأقرب من هذا الى الطبع قول شاعر البادية : ذى الرُّمة :

وشعر قد أرقّت له غريبِ أَجْنَبُهُ المُسَانِدَ والمُحالا  
فبتَ أَقِيمُهُ ، وأَقْدُ منه قوافي لا أَعْدُ لها مثالا  
غرائب قد تُعْرِفُنَ بكل أَفْقٍ من الآفاق ، تُفْتَعِلُ افتعلا (١)  
وقول حكيم الشعراء :

بُناةُ الشعر ، ما اكفّوا رويًا ولا عرفوا الإجازة والسنادا

لا جرم أن ملاك الشعر ، ما يحمله من الروح الذى يسرى في هيكله سريان الماء في العود ، والحياة في الجسد ، ويقوى هذا الروحُ ويطنى ، كلما اعتمد الشاعر على طبعه ، وجرى على سجيته ؛ وهذا الروح لا تحدده للنقاد الالفاظ ، ولا تنهض به الأساليب ؛ وإنما هو كدليل «الاستحسان» عند الأصوليين : معنى ينقدح في ذهن المجتهد تقصر عنه عبارته ؛ ومبلغ الالفاظ والأساليب ، أنها تقربه ، وتعين عليه ، بمقدار قربها من أساليب الشعر القديم ، وتأثرها بها ، وحظ صاحبها من الملكة التى تحصل من طول النظر ، وكثرة المحفوظ ، كما سبق في أثناء هذه النظرات .

\*\*\*

كان المغفور له أحمد شوقي بك من شعراء الطبع ؛ وكان المغفور له حافظ إبراهيم من شعراء الصنعة . فشوقي كان يجرى في شعره على سليقته ، فيصغى برونقه ومائه ومساوقته للنفوس ، عن التماس وسائل الترويح والتشويق ، وطول النظر والعرض والتغيير والتبديل ؛ وما رأيتُ ولا سمعتُ أنه أنشد شعره بنفسه في حفل ، ولا أمام عظيم . أما حافظ ، فكان يروى في شعره ، ويتشد في نظمه ، ويعرضه على من يلتفون حوله من الشعراء والأدباء ، ويقبل نقاشهم ، ويمتحن ملاحظاتهم ، ويقوم وينقف ؛ وكان ينشد شعره بنفسه ، ولا يرضى أن ينشده حتى يحفظه أجود الحفظ ؛ ويختار الموقف الأخير في كل حفل ، حتى ينفض الناس ، وقصيدته آخر ما علق بنفوسهم ، وتعلق بأذانهم ؛ على إجادته للإشاد ؛ وتمثيل المعاني وتصوير للأفكار ؛ وعلى الجملة : كان مستكملا لأدوات الصناعة من جميع الوجوه ؛ ولعل



هذا هو علة ما يقال من أن شعر حافظ أكثر صلاحية للترجمة الى اللغات الأجنبية ، لأن الخيال الساذج يتبع الذوق الخاص الذي يستعصى على الترجمة ، بخلاف المعاني المحدودة ، وهو تأييد لقضيتنا .

وإذا كان هذا الرأي لا يسلم لنا ، حتى نورد له مثالا يدعمه ، فاننا نعرض على القارئ الكريم قصيدتين لشاعرنا العظيمين ، قيلنا في موضوع واحد ، كان له خطره وجلاله ، وأنشدنا في حفل واحد ، كان له هذا الخطر ، وذلك الجلال ؛ وهما مرثيتاهما ، في الزعيم الجليل المغفور له سعد باشا زغلول ، أغدق الله عليه وعليهما فيوض رحمته ورضوانه ؛ ولا نقصد بذلك الى الموازنة بينهما على وجهها ، إذ ينقصها اختلافهما وزنا وقافية ، وإنما تقتصر على قدر حاجتنا الى إثبات ما قلناه .

افتتح شوقي مرثيته بقوله :

شَيَّعُوا الشمس ، ومالوا بضحاها وانحنى الشرقُ عليها فبكأها  
واختتمها بقوله :

ما دعاها الحقُّ إلا سارعتْ ليته يوم « وصيف » ما دعاها !  
وافتح حافظ مرثيته بقوله :

إيه ياليل ، هل شهدت المصابا : كيف ينصبُّ في النفوس انصبايا ؟  
واختتمها بقوله :

خَفَّتْ فينا مقامَ ربك حيّا فتنظّر بجنّيته الثوابا

وإذا كانت قدرة الشاعر تتجلى في مطلعته ومقطعه ، فأنا نشير في إيجاز الى فرق ما بين القولين ، وندع للقارئ الكريم — بعد ذلك — الحكم الأخير .

كُلٌّ من مطلع شوقي ومقطعه كلامان ، لا يتكل صدرُ منهما على عجز ، ولا يقوم عجز على صدر ؛ وكل من مطلع حافظ ومقطعه كلام واحد ، لا يكمل صدر بلا عجز ، ولا ينهض عجز بلا صدر . وشوقي أبان عن كنهه المصيبة وأوضحها ، تمهيدا لأن يبني عليها ما يشاء ، أما حافظ فقد أغفل هذا الجانب ، ومضى يستشهد الليل . وشوقي جعل المصيبة مصيبة الشرق كله ، فالمشيعُ الشمس ، والباكي الشرق ، وقد نتوسع فنهم أنه جعلها مصيبة العالم ، وإنما خصَّ الشرق ، لأنه مشرقها ، أما حافظ فقد جعل المصابا خاصا ، « وآل » في « النفوس » وإن كانت للاستغراق ، إنما هي لاستغراق المصريين ؛ بدليل قوله بعد :

قل لمن بات في فلسطين يبكي : إِنْ زلزلنا أجلَّ مصابا

لما نبي شوق الشمس ، استغنى عن التبليغ ، إذ غيبة الشمس لا تخفى على أحد ، وصح له بعد ذلك أن يقول :

جلَّلَ الصَّبحَ سوادا يومها فكأنَّ الأرض لم تخلع دجاها  
انظروا ، تلقَّوا عليها شفقا من جراحات الضحايا وذماها  
وتروا بين يديها عبْرَة من شهيد يقطرُ الورْدَ شذاها  
آذَنَ الحقُّ ضحاياها بها وَيَحْكُهُ ! ! حتى الى الموتى نعاها

وحافظ لما أبهم في المصاب وخصمه احتاج الى أن يقول :

بلغ المشرقين قبل انبلاج الصَّـبح : أن الرئيس وليّ وغبابا  
وانعَ للنيرات سعدا ، فسعد كان أمضى في الأرض منها شهابا  
قدَّ ياليلُ من سوادك ثوبا للدرارى وللضحى جلبابا  
انسج الخالِكَات منك نقابا واحبُّ شمس النهار ذاك النقابا  
قل لها : غاب كوكب الأرض في الآر ض ، فغيبى عن السماء احتجابا  
والبسني عليه ثوب حداد واجلسى للعزاء فالحزن طابا

وهذه الأبيات أقرب الى أن تكون منشورا رسميا ، منها الى أن تكون رثاء شعريا ؛ ولا ريب أن الشاعرين في هذا الموضع ، قد تباعدا بعد الزرقاء عن الخضراء ، لأن أحدهما يشعر في الأرض ، والآخر يشعر في السماء .

وقد ختم شوقي قصيدته ، كما افتتحها معمَّما ، مفخِّما ، شاعرا ؛ أمَّا حافظ ، فقد ختمها كما ابتدأها مخصَّصا ، مُضَيِّقا ، فقيها .

\*\*\*

وقد التقى الشاعران بعد ذلك في وصف مشهد الرِّعيم ؛ فقال حافظ :

خرَجْتَ أُمَّةً تشيِّعُ نعشا قد حوى أُمَّةٌ وبجرا عُبابا  
حملوه على المدافع لما أعجزَ الهامَ حملُهُ والرقابا  
حال لون الأصيل والدمع يجري شفقا سائلا ، وصبحا مذابا  
وسها النيل عن سُراه ذهولا حين ألنى الجموع تبكى انتحابا  
ظنَّ (ياسعد) أن يرى مهرجانا فرأى مأتما وحشدا عجابا  
لم تسق مثله فراعين مصر يوم كانوا لأهلها أربابا

وقال شوقي :

ما درت مصرُ بدفنٍ صُبِّحت أم على البعث أفاقت من كراها

صَرَخَتْ تَحْسِبُهَا بِنْتَ الشَّرَى طَلَبْتُ مِنْ مِخْلَبِ الْمَوْتِ أَبَاهَا  
وَكُنَّ النَّاسُ لَمَّا تَسَلُّوا شَعْبُ السَّيْلِ طَغَتْ فِي مَلْتَقَاهَا  
ومن فضول القول أن أبين ما بين القولين من فروق ، لا يخفى فهما على أدب .

والتقيا كذلك في وصف أثر المصاب في الأمم الأخرى ؛ فقال حافظ :

سَاقَتْ « التِّيمَس » الْعِزَاءَ إِلَيْنَا وَتَوَخَّتْ فِي مَدْحِكَ الْإِسْهَابَا  
لَمْ يَنْجَحْ جَازِعٌ عَلَيْكَ كَمَا نَا حَت ، وَلَا أَطْنَبَ الْحَبُّ وَحَابِي  
وَاعْتَرَفُ النَّامِيزُ ( يَا سَعْد ) مَقْبِيَا س ، لَمَّا نَالْ نِيلَنَا وَأَصَابَا  
وقال شوقي :

سَائِلُوا « زَحَلَةَ » عَنْ أَعْرَاسِهَا هَلْ مَشَى النَّاعِي عَلَيْهَا فَحَاها؟ (١)  
عَطَّلَ الْمُصْطَفَا مِنْ مُسْتَمَارِهِ وَجَلَا عَنْ ضِفَّةِ الْوَادِي دُمَاها  
فَتَحَّ الْأَبْوَابُ لَيْلَا دِيرُهَا وَإِلَى النَّاقُوسِ قَامَتْ بَيْعَتَاها  
صَدَعَ الْبَرْقُ الدَّجِي : تَنْشُرُهُ أَرْضُ سُورِيَا ، وَتَطْوِيهِ سَمَاها  
يَحْمِلُ الْأَنْبَاءُ تَسْرَى مَوْهِنَا كَمَوَادِي التَّكُّلِ فِي حَرِّ سُرَاها  
عَرَضَ الشَّكُّ لَهَا فَاضْطَرَبَتْ تَطَأُ الْأَذَانُ هَمْسَا وَالشَّفَاها  
قَلْتُ : يَا قَوْمُ اجْمَعُوا أَحْلَامَكُمْ كُلُّ نَفْسٍ فِي وَرِيدِهَا رَدَاها !!

ولا إخالني في حاجة إلى أن أقول : إن حافظا لم يخرج في أبياته هذه عن رسمياته ؛ أما شوقي ، فقد صدر في أبياته عن عاطفة جياشة ، وعن شعور دقاع ؛ ولا يخفى على القارئ الكريم دقة إشارته إلى حادث الثقيفة ، واستغلاله في قوله :

عَرَضَ الشَّكُّ لَهَا فَاضْطَرَبَتْ تَطَأُ الْأَذَانُ هَمْسَا وَالشَّفَاها  
قَات : يَا قَوْمُ اجْمَعُوا أَحْلَامَكُمْ كُلُّ نَفْسٍ فِي وَرِيدِهَا رَدَاها  
ولا غرو ، فأى لمّاح في بردتيه — كان —

هذا ، ولا أكنتم القراء ، أنه لم يعجبنى في هذا الموقف ، قول شوقي :

كَفَّنُوهَا حُرَّةً عَلْوِيَّةً كَسَتْ الْمَوْتَ جَلَالَا وَكَسَاها  
مَصْرَ فِي أَكْفَانِهَا إِلَّا الْمَهْدِي لُحْمَةَ الْأَكْفَانِ حَقَّ وَسَدَاها  
فإن هذا أشبه بالحديث عن غير الرجال .

\*\*\*

رحم الله الشعراء ، أوفى الرِّحَمَات ، وأجزل جزاءها الخير على ما أسديا إلى اللغة والأدب والوطن من ما أثر خالدة ؛ وعوض مصر خاصة والشرق عامة عن فقدهما خير العوض ؟

عبد الجواد رمضان

(١) لم أعر لزحلة على ضبط في اللسان والقاموس

# كلمة في الأخلاق

## سفور المرأة

من الناحية الاجتماعية

حينما دارت رحى هذه الحرب ، وخاف الناس في مشارق الأرض ومغاربها ما عسى أن تنتهي إليه من الخراب والدمار ، أدركوا قيمة الخلق القويم ، في مناعة سلطانهم ، ومتانة بنيانهم ، فأخذوا يتنبهون الى انحطاطهم الخلقى ، محاولين إصلاحهم جهد ما يستطيعون ، والناس لا يحسبون للمستقبل حسابه ، ولا تأخذ الحوادث من تفكيرهم ، أو تعمل الخطوب في شعورهم ، إلا حين يصطدمون ، فيعلموا مقدار خطئهم ، وعاقبة تفریطهم . والمصريون كغيرهم حاولوا في العهد الأخير أن يأخذوا بنصبيهم من الإصلاح الاجتماعي ، فاهتموا بالمرأة ، وشرعوا ينظرون فيما عسى أن يكون سببا في تأخرها المزرى ، الذى وصل بها الى حد أن صارت لا تصلح للأئمة ولا غيرها من شئون الحياة . وقد أدرك المفكرون أن علة العلل في ذلك تبرجها ، وخروجها عن نطاق الأنوثة الذى حددته لها الطبيعة . وهذا التبرج عادة أجنبية ، انحدرت إلينا من بلاد الغرب ، وأخذت تنطور وتظهر بمظاهر شتى ، ثم جاءت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ وجرفت بطوفانها الناس ، رجالا ونساء ، شيبا وشبابا ، وفي مثل هذه الظروف الاجتماعية العصبية قد تسقط الكلفة ، وينساح في التصون ، فرأينا المرأة الى جانب الرجل ، والفتاة الى جانب الفتى ، وبذلك تحققت دعوة أنصار اختلاط الجنسين ، ثم ظلت تأخذ في الازدياد ، حين جمعت دور التعليم العالى بين البنين والبنات .

ولقد كانت المرأة قبل هذه الثورة ، لا تعرف من الحياة إلا أنها أنثى ، ولا تفقه من العلم إلا أنه تنظيم لتلك الأنوثة ، في حدود العفاف والإباء ، والدين والأخلاق ، ولكن سفورها واختلاطها أصابها بجميع ما يولدانه من تطرفات ، فسمعنا صيحات بوجوب اشتغال المرأة بأعمال لا وقت للضرورات فحسب ، ولكن باعتبار أن ذلك من مقتضيات الحياة العصرية . وهنا أناخت بكلسكلها عليها جميع النظريات التى تخرج المرأة من حدودها الطبيعية وتجعلها كما قال الأستاذ ( جيوم فريرو ) جنسا ثالثا . والتدهور كالترقى يتداعى بعضه الى بعض ، حتى أصبحنا حيال حالة شاذة تتحرك لها الحكومة وتنحفز للعمل على وقف تيارها . فقد قرأنا في أهرام ( ١٦ أكتوبر ) أن بعض الدوائر الحكومية تفكر في معالجة حالة تهتك النساء التى وصلت الى حالة لا يحسن السكوت عليها . وهكذا بالغت المرأة في الاستسلام للفتنة ، وأغرق الرجل في تحملها حتى أصبحت من تهورها كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

وقد آلت هذه الحال السيئة الى زهد الرجل في المرأة ، وإساءته الظن بها ، وأصبح يراها كما صرحت له به بعض الأفاضل عيسى إبليساً في ثوب إنسان ، فانصرفا معا عن بناء المنزل ، وتكوين الأسرة ، ثم ألبيا بعد ذلك إلا أن يتناقشا « الحساب » على رءوس الإِشهاد ، تقول له أنت . . ويقول لها أنت . وحفلت قاعات المحاضرات بهذا الجدل الصاخب ، وفي هذا دليل من كليهما على أنهما في حاجة الى البيت ، مهما حاولا أن يفرا منه ، وأنهما لا يرضيان بالزواج بديلاً مهما أشاحا بوجهيهما عنه .

وبعد ، فيأتيها المرأة المسلمة : إن الدين الإسلامي حين أراد أن يؤدبك بأدب القرآن : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ، لم يرد بذلك إلا خيراً يرجع إليك ، ومنفعة تعود عليك ، فهل تقطنت الآن الى أنك رخصة في نظر الرجل ، إذ تبدلت له ، وزهد فيك حين صارت نواحي الأرض مملوءة بك !!

ابراهيم علي أبو الخشب

## تقدير العلماء

كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فقيهاً شاعراً ، وكان أحد السبعة من فقهاء المدينة ، قال عنه الزهري ، وناهيك بالزهري : كنت إذا لقيت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود فكأنما أخرج به بحراً .

وقال عمر بن عبد العزيز ، ومن هو : « وددت لو أن لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود لم يفتني .

ولقيه سعيد بن المسيب ، وهو أحد الفقهاء السبعة المعدودين بالمدينة في عصر التابعين ، فقال له : أنت الفقيه الشاعر . فقال له : لا بد للمصدور أن ينفث .

وقد بلغ عبد الله بن عبيد الله عن عمر بن عبد العزيز شيئاً يكرهه فكتب إليه :

أبا حفص آتاني عنك قول      قطعت به وضاق به جوابي  
أبا حفص فلا أدرى أرغمي      تريد بما تحاول أم عتابي  
فإن تك عاتبا نعتب وإلا      فما عودى إذن بيراع غاب  
وقد فارقت أعظم منك رزاً      وواريت الأحبة في التراب  
وقد عزوا على وأسلموني      معا فلبست بعد هوى ثيابي

وقد أثر عن كبار العلماء في كل عصر أنهم كانوا مخلصين بالإعزاز والتبجيل في كل عصر من الكبراء والكافة ، فإن آنسوا غلبة الهوى على الناس في زمان ، وخشوا أن يهان العلم في أشخاصهم ، اعتزلوا الناس ما استطاعوا ، ووسعتهم بيوتهم ، لا تكبراً منهم ، ولكن صيانة لكراماتهم .

## العيد

لا يتهم بالغلو من يقول إن الاسلام دين اجتماعي جعل سعادة الجماعة أساس ما شرع من أحكام .

فقرض الصلاة ليسكون من المسلمين جماعة راقية مهذبة متحابة ، تعاف الشرور وتجنب الآثام : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وفرض الزكاة لتصل بين أغنياء الجماعة وفقرائها بحبل متين من المودة ، وتنزع ما في صدور هؤلاء من غل وحسد ، وترفه عليهم شدائد العيش وكرب الحياة . وشرع الحج كمؤتمر للجماعة الاسلامية تستعرض فيه آلامها وآمالها ، وتقلب وجوه الرأي في علاج الأولى وتحقيق الثانية ، وتتبادل الثقافة والتجارة : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . ونديها الى الجهاد لتدفع عنها أذى أعدائها وأطاعهم ، وتعيش في سلام وطمأنينة ، وتستمتع بحرياتها ، وتستقل بحيراتها ، وتنهض في ظل حركتها الدينية والعملية والاجتماعية .

هذا ولا يخفى وجه المصلحة للجماعة في كثير مما شرع غير ذلك . وهل يخفى وجه المصلحة فيما شرعه الاسلام من نظام الأسرة ، وعلاقة الآباء بأبنائهم ، وعلاقة هؤلاء بأولئك ، وعلاقات المؤمنين بعضهم ببعض ؛ ووجه المصلحة في الجمعة والجماعة ، وتحية الاسلام ، وكف الأذى عن الطريق ، ونشدان الضالة ، وشهود الجنازة ، وعيادة المريض ، والرفق باليتيم ، وإحسان القيام عليه وتثمين ماله ، وحقوق الجوار ، وحقوق الصحبة ، الى غير ذلك مما لا يخفى فيه وجه المصلحة ، ولا ينكره إلا كل معاند كفور ؟

ولعل من أظهر ما يبدو فيه وجه المصلحة للجماعة ، يوم العيد . ذلك أن العيد يوم يجتمع المسلمون فيه على صلاة خاصة به ، يعقبها خطبة جامعة ، ينبه المسلمون فيها الى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، فيذكرون بركة الفطر ومصارفها ( في خطبة عيد الفطر ) ، وبوجوب الأضحية وكيفية الانتفاع بها ( في خطبة عيد الأضحية ) .

وهو يوم ندب المسلمون فيه الى الغسل والتجمل ، وإظهار الفرح والبشاشة ، والإكثار من الصدقات ، لتسل بذلك سخائم الفقراء وتصفو نفوسهم ، ويكونوا هم والأغنياء جماعة واحدة ويدا واحدة كما أرادهم الاسلام . ومن طريف ما شرع في ذلك اليوم النهي عن حمل السلاح حتى لا ينزع الشيطان بين المسلمين فيكدر صفوهم وينغص يومهم . هذا الى أن اجتماع المسلمين في ذلك اليوم فرصة صالحة يستطيع أن يستغلها المصلحون والقادة في توجيه الجماعة الاسلامية واستعراض شئونها ومعالجة أدوائها ، كما كان يفعل القائد الأعظم ؛ نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقد صح عنه أنه كان يصلي ثم ينصرف للخطبة فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم

فيعظمهم وبأمرهم ، فإن كان يريد أن يقطع بعنا ( جماعة للغزو ) قطعه ، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف ، وصح عنه أنه كان يخطب ثم يقبل على النساء فيعظهن ويذكرهن بالصدقة ، فكان يتنافسن في هذا الفضل فيلقين بحليهن في ثوب بلال استجابة لدعوته عليه السلام .

وهكذا كان عليه السلام القائد الحكيم والزعيم المنصف ، لا يؤثر الرجال بفضل ، بل كان للنساء من عدله نصيب ، ومن فضله نصيب ، فكان فضله عاما وعطفه شاملا ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ذلك سر تشريع العيد ، وتلك ثمرته . وقد سعدت الجماعة الاسلامية بهذه الثمرة ، وبشعرات التشريع عامة حين أخذت أنفسها به ، ووقفت عند حدوده . فكانت المثل الأعلى للجماعات ، جماعة يسودها العدل والإنصاف ، والتعاون والتناصر ، والعز والسلام ، فضربت بسيرها الأمثال .

تلك حال المسلمين فيما سبق ، يجتمعون يوم العيد على خيرهم وصلاحهم ، يؤدون حقوق الله وحقوق إخوانهم وأنفسهم ، يصلون ويتصدقون ويتعاطفون .

فما حال مسلمي اليوم ؟ وعلام يجتمعون ؟ وكيف يستقبلون أعيادهم ؟ وماذا يفعلون ؟ يا الله للمسلمين !! إنهم يجتمعون على المنكرات يخوضون فيها ويكرعون منها ، لا يخشون الله ولا يخافون الناس . ينتهكون الحرمات ، ويتعاطون المسكرات ، ويقامرون ويتراهنون ، يهجرون المساجد والمنازل الى مباءات اللهو والدعارة ، ويتخذون من قبور الموتى أندية خلاعة وفجور . يقطعون أرحامهم ، ويأكلون حقوق الفقراء في الزكاة ، ويسرفون على أنفسهم في النفقات ، هم كل فرد منهم أن يرضى نفسه وأولاده بما يباح ويحرم ، أما أقاربه وإخوانه في الدين فأولئك لا يشغله شأنهم ولا يعنيه أمرهم .

ذلك شأن المسلمين اليوم في أعيادهم ، وهو شأنهم في جميع أمرهم . جماعة مستهترة متخاذلة متنافرة كالنوب المرقوع ، لا بهاء ولا قوة ، حقرها الأعداء وتلقفوها تلقف الكرة بالصوالجة ، واستاموها في سوق السياسة سوم الأنعام ، وتراضوا بها كما يراضون بالمتاع ، لا يراعى لها شعور ولا كرامة ، لا تمتشأ إذا حضرت ، ولا تقنقد إذا غابت . هانت على المسلمين أنفسهم فهانوا على الناس .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » .

أسأل الله أن يهب المسلمين نفحة من رضاء تكشف كربهم وتصلح حالهم ، وتهديهم الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور .

أبر الوفا المرافق

## كتاب اخوان الصفاء

دائرة معارف فلسفية في القرن الرابع الهجرى

كان للحركة الدينية التي بعثها الاسلام في العالم القديم أن اخلطت أمم كثيرة ، واثملت شعوب شتى ، وعرف بعضها بعضا ، وكانت بينهم بجانب الصلات السياسية التي أحدثها الفتح والدين ، صلات ذهنية ، فكانت الترجمة عن الفارسية والهندية والسريانية واليونانية . وتأثرت بهذا حياة المسلمين العقلية ، حتى ظهرت آثارها في فلسفتهم وعلومهم وآدابهم .

وقد استطاع العقل الاسلامي أن يستفيد من هذه العلوم الجديدة الى حد بعيد ، فلم ينقض القرن الثاني حتى كانت عاصمة الدولة الاسلامية بغداد مباءة للعلم والفلسفة ، بما وفق اليه الخلفاء من أول عهد المنصور من تنشيط حركة نقل العلوم الى العربية ، حتى التي كان لا يسمح بتداولها في العالم المسيحي إذ ذاك ، ولكن لم يجيء القرن الرابع حتى كانت أداة الحكم في الدولة الاسلامية قد أصيبت باختلال عظيم .

ورسائل إخوان الصفاء كتاب يمثل فساد الحياة السياسية في ذلك القرن . والذين كتبوه نشأوا في البصرة ، وكانوا يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الاسلامي في ذلك الوقت ، ورأوا أن يتوسلوا الى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين .

ولا شك في أن الدراسات الفلسفية ذات دخل كبير في تحويل وجهات النظر ، ولها أثر يعتد به في قلب النظم السياسية في الشعوب . ولا سبيل الى النهوض بالمستوى السياسى الى أقصى حدوده إلا إذا توفرت البحوث الفلسفية السهلة التي تؤثر في عقلية الدهاء ، والدراسات المعوصة الدقيقة التي يفتتن بها الخاصة ويتأثرون بها الى أبعد الحدود .

رسائل إخوان الصفاء أشبه شئ بدائرة معارف فلسفية علمية . وقد بدأ مؤلفوها هذه الرسائل بقولهم :

« إن الشريعة قد دنت بالجهاالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . »

تتألف دائرة معارف إخوان الصفاء من إحدى وخمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميا وعمليا . وهى تتلخص في مبادئ الموجودات وأصول الكائنات ، ثم الهيولى والصورة ، فاهية الطبيعة ، فالأرض والسماء ، ثم الكون والفساد ، ثم شرح لعلم النجوم ، ثم تكوين



المعادن ، ثم علم النبات ، ثم أوصاف الحيوان ، ثم مسقط النطفة وكيفية اتصال النفس بها ، ثم تركيب الجسد ، ثم الحاس والمحسوس ، ثم العقل والمعقول ، ثم الصنائع العملية ، ثم الصنائع العلمية ، ثم العدد وخواصه ، ثم الموسيقى ، ثم علم النسب العددية والهندسية ، ثم المنطقيات ، ثم الكلام على البعث والنشور ، ثم الكلام عن أجناس الحركات والعلم والمعلولات ، والحدود والرسوم .

فهذه الدائرة الغنية بالعلم القديم ، تبدأ بالنظر في الرياضيات والاعداد والحروف ، وبعد ذلك تنتقل الى المنطق والطبيعيات ، فتزد كل شئ الى النفس ومالها من قوى على الجسم البشرى ، وتنتهى أخيراً الى الاقتراب من معرفة الله عن طريق التصوف الإلهي .

جاء في كتاب عيون الانباء في طبقات الأطباء نقلاً عن القاضي صاعد في ترجمة الطبيب « أبى الحكم الكرماني القرطبي » : أن هذا الرجل رحل الى ديار المشرق وانتهى منها الى حران من بلاد الجزيرة ، ثم رجع الى الأندلس واستوطن مدينة سرقسطة من ثغرها ، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفاء .

ومن الطبيعى أنه لولا ما امتازت به هذه الرسائل من الخصوبة العلمية ، والمكانة الفلسفية ، وما أفادت به البشرية من تمثيل النفس بصورة وضاعة خليقة بالإعجاب ، ما استطاعت أن تنفذ الى بلاد الأندلس على يد القرطبي بهذه السهولة ، وخاصة في هذا الوقت المضطرب الذى ظهرت فيه .

وعن هذه الرسائل كتب المستشرق الفرنسى « سلفستردى ساسى » ملخصاً عنها باللغة الفرنسية عام ١٨٣٧ . ولما وضع العالم ديتريصر المستشرق الالماني كتابه « العلوم الفلسفية عند العرب فى القرن العاشر الميلادى » ( الرابع الهجرى ) اعتمد فى كتابه على رسائل إخوان الصفاء ، ( تراجع مذكرة المرحوم أحمد زكى باشا فى مقدمة إخوان الصفاء ) . ويقول المؤرخ الفرنسى إميل برهيه فى كتابه عن تاريخ الفلسفة فى القرون الوسطى : إن رسائل إخوان الصفاء كان لها أثر عميق فى توجيه الحركة الفلسفية إذ ذاك ، وفى توثيق الصلة بين الشرق والغرب . وإن كتاب هذه الرسائل ينقسم الى أجزاء أربعة : أولها فيثاغورى وأفلاطونى ، وثانيها أرسطاليسى الصبغة ، وثالثها خليط فى الفلسفات اليونانية الثلاثة الفيثاغورية والأفلاطونية والأرسطونية ، ورابعها يتناول الإلهيات وما يتصل بالديانات والشرائع والتصوف ، وهو المزاج الذى التأم فى العناصر المؤثرة فى الفلسفة الاسلامية .

وقال : إن الكتاب كله يدور حول الجهاد الذى قام به العقل البشرى ليجد قاعدة وطيدة للتفاهم مع الدين . وختم بحثه فى الرسائل بقوله : « إن الحضارة الاسلامية قامت على العلم والدين ، وإن الحضارة الحديثة إذا أرادت أن تستقر فلا يمكن أن تستقر على العلم وحده ، أو العقل وحده ، وإنما لا بد من ارتكازها على عنصرى الدين والعلم كما استقرت الحضارة

الإسلامية من قبل ، وكما شيدت بهذا القول رسائل إخوان الصفاء في دائرة معارفها الجليلة التي لا تزال محترمة بين العلماء الى اليوم .

يخيل للعطالع على هذه الرسائل أن واضعها من أقدر رجال القرن الرابع الهجري إلهاما وإثارة للتفكير الحر ، وأقربهم الى روح العصر ، وأشداهم عناية بمشاكل الإنسانية الحقيقية ، وأحرصهم على أن يكون فكرهم حيا يفيض بماء الحياة خصبا ، يقدر على النمو من بعدهم جريشا ، يهاجم المشكلات ويبدد ما قدس من الأوهام . وبهذا استطاعت هذه المجموعة من الرسائل أن تملأ على المجتمع الإسلامي شعورا حيا بالنزوع الى تطور عقلي جديد لما امتازت به من إشراق الفكر ، واستقامة الملاحظة ، وسعة الأفق .

ولما كانت قيمة العمل العلمي تقاس بقيمة الأثر الذي يحدته فلا مشاحة في أنه كان لرسائل إخوان الصفاء أثر كبير في عقلية المسلمين . فكان الجانب الصوفي في هذه الرسائل قويا على روح الجماعات الإسلامية في القرن الرابع ، وما تعاقب وراءه من القرون ، لأن هذا الجانب كان يحارب نزغات النفس ، ويحبب الى القلوب التقوى والصالح بما يشبه الكلمات التالية : النفس البشرية قائمة مكفهرة ، تعصف بها الغرائز ، وتعبث بها الميول ، وتتعاقب عليها العواطف ، وتمتزج بها ظواهر العقل الواعي بالعقل الباطن ، وتعيش في جو خائق من الضباب الكثيف ، ولهذا لا يمكن علاج النفس إلا بتطهيرها من شهواتها ، وذلك باتباع ما أمر به الدين لتكامل للنفس السعادة ، ويكون لها النصيب الأوفى يوم الجزاء .

عبد الحميد سامي بيومي

## محاليس العلماء

قال الفضيل بن عياض : اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مسجد بالبصرة ، فقال مالك بن دينار : ما هو إلا طاعة الله أو النار . فقال محمد بن واسع لمن كان عنده : كننا نقول ما هو إلا عفو الله أو النار .

وقال مالك بن دينار في ذلك المجلس أيضا : إنه ليعجبني أن تكون للإنسان معيشة قدر ما يقوته . فقال محمد بن واسع : ما هو إلا كما تقول : وليس يعجبني أن يصبح الرجل وليس له غداء ، ويمسى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راض عن الله عز وجل .

فالتفت إليه مالك بن دينار وقال : ما أحوجنى الى أن يعطيني مثلك !

انظر بما قابل مالك بن دينار ملاحظات صاحبه محمد بن واسع من التقدير والإعجاب والشكر . فتخيل أن يحدث هذا بين صديقين طالين في عهود الانحطاط . وانظر ما تسمع من ضروب المحاولات والتأويلات لإثبات الملاحظ عليه تنزهه عن الخطأ ، وقد ينتهي الحوار بمخضومة .

## اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة قائمة على مقتضى الدستور العلمى

يتبادر لذهن القارئ أننا تحت هذا العنوان سنورد ما يقوله جبهة من علماء أوروبا منذ أكثر من تسعين سنة ، بإمكان الاتصال بما وراء الطبيعة وأرواح الموتى ، وأننا سنأتى على تجاربهم فى هذا الباب . ولكننا رأينا أن نسلك لإثبات الروح سبيلا مباشرا ، أى وهى لا تزال فى الجسم الانسانى فى حالة الحياة . فإذا كان الطريق الأول غير المباشر يمكن التمازى فى نتائجه ، بعزو الكائنات التى تتصل بالمجربين الى عالم الجن أو عالم آخر مجرد عن المادة ، فهذا الطريق المباشر لا يستطيع التردد فيه .

إن الباحثين فى المسائل النفسية فى أوروبا وأمريكا من رجال العلم والفلسفة ، لم يقصروا منذ أن اكتشف الدكتور ( ريمسبر ) الألمانى فى سنة ( ١٧٧٠ ) التنويم المغناطيسى ، فى البحث عن الظواهر النفسية المختلفة ، والحياة الباطنية ، بقصد التوسع فى معرفة خصائص الروح وضبط علائقها . وقد وصلوا بواسطة هذا التنويم الصناعى الى مدى بعيد من قواها الكامنة فيها التى تخفيها حياتها العادية ، ويكشفها ما يقع الانسان فيه من ذهول أو إغماء أو غيبوبة مرضية ، أو تحت تأثير الكلوروفورم فى الأعمال الجراحية . ضبط هؤلاء العلماء الباحثون كل هذه الحالات ، فثبت لهم بالدلائل القاطعة ثلاثة أمور :

( أولا ) أن فى الجسم الانسانى روحا من طبيعة علوية .

( ثانيا ) أن هذه الروح مستقلة عنه ، تحل فيه ساعة ميلاده ، وتغادره عند موته لتعيش فى العالم الروحانى مع أمثالها من الأرواح المجردة .

( ثالثا ) أن الروح وإن كانت أمرا إلهيا لا يدرك لها كنهه ، إلا أن لها جسدا أثيريا على صورة صاحبها ، غاية فى اللطافة ، لا يعتريه الجلى ولا التحلل ، فى قدرتها أن تستعير له مادة من الخارج ، وأن تظهر بصورة صاحبها فى أحوال خاصة ، ويكون صاحبها إذ ذاك واقعا فى غيبوبة .

هذه الامور الثلاثة من الخطورة بمكان ، وقد أتت بها الأديان قاطبة منذ أقدم الأزمان ، وخطورتها تأتى من أن ثبوتها بعد أن دحضها العلم الطبيعى ، وأثار عليها حملات منكرة ، يُحدث انقلابا أدبيا فى جميع نواحي الشخصية الانسانية لا تقف آثاره عند حد . فإن الدعوة الى السمو الأدبى لا تصادف هوى من العقول والقلوب إلا إذا كان المدعوون يعتقدون ببقائهم بعد الموت ، وبترتّب حالتهم فى الحياة الآخرة على حالتهم الأدبية فى هذه الحياة ؛ فإن زالت هذه العقيدة

فلا يعقل أن يكون للأوامر والنواهي الأدبية ، أقل تأثير في العقول ، وتصبح الدعوة الى السمو الأدبي فضولا إلا إذا قصد منها ما يعود من فوائدها على هذه الحياة .

إذا وضعنا السمو الأدبي جانبا باعتبار أنه مقصور على أفراد معدودين من كل أمة ، وقصدنا الأخلاق الأولية الضرورية لحياة كل مجتمع ، والتي قررت كل فلسفة في الأرض حتى الاحادية منها أنها المساك المعنوى لكل جماعة تود أن تأخذ نصيبها من الحياة العالمية ، رأينا أنها لا تستقر في أمة لا نصيب لآحادها من هذه العقيدة .

أجل ، إن الأمة التي لا تحرم السرقة والغش والتطفيف والخداع والتزوير واليمين الغموس الخ لا يعقل أن تأمن على وجودها من التحلل ، وماذا تأخذ من جماعة مؤلفة من أفراد متناهبين متخادعين كاذبين تمامين خفاشين الخ ، غير مجموعة من أشلاء غير مترابطة لا يمكن أن تسمى أمة إلا تسامحا . فاذا جد الجدل لم تجد رأيا موحدا ، ولا شعورا مؤتلفا ، ولا تكافلا موطدا .

قد يقولون إن التربية المنزلية إذا كانت قويمة ، وتلتها تربية مدرسية قوية ، نشأت النابتة قويمة الأخلاق ، كاملة الانسانية ، لا تتعلق بسفاسف الأمور ، ولا تشغل بما يوهن قوتها الاجتماعية ، ويوهي رابطتها القومية ؛ ويضربون لنا الأمثال على صحة هذه الأقوال بالأهم القائمة ، مدعين أنها أم لا دينية . وهم يعتمدون في تقريرهم لا دينيتها على أفراد من كل منها نالوا حظا من تربية فلسفية عالية ، ونظروا في أديانهم نظرات انتقادية ؛ ومنهم من أعلنوا عداؤهم للعقائد كافة ، وجهروا بنكرانهم لكل وجود غير مادي .

والحقيقة أن هؤلاء الأفراد يعدون على الأصابع ، ومن دونهم عدة مئات أو عدة ألوف يحومون حول مذاهبهم ويتأثرون بها ، ولكن السواد الأعظم من الأمة لا يطلع على كتاباتهم ولا يأبه لها ، وهم جارون من عقائدهم على سجيتهم التي ورثوها منذ قرون كثيرة . وبهذه البقية من العقيدة يعيشون تحت ضوء مثل أعلى من الأخلاق والآداب . فاذا نجحت المادية في نشر الاحاد بينهم انقلب هؤلاء الى وحوش ضارية لا يرد عادية بعضها عن بعضها الآخر شيء .

إذا أراد المعترض أن يدرك بدليل محسوس مكان العقائد من روابط الاجتماع ، ومحلها من قواها المعنوية ، فليذكر أن أية جماعة من الجماعات التي قامت على الأرض من أول تألف الجماعات الى يومنا هذا ، لم تخل من دين قط . فاذا نظرت الى هذا المظهر من مظاهر الاجتماع ، ولو من وجهة مادية باحتة ، قلت لا بد من أن يكون الدين حاجة من حاجات الاجتماع ، وإلا لما كانت هناك حاجة الى أن يكون عاما على هذا النحو ، وقائما - على شدة تخالف الأديان والمذاهب - على أصول عامة مشتركة بينها ، هي : أن للوجود خالقا ، وأن للإنسان روحا مستمدة منه ، وأن لهذه الروح بقاء بعد الموت تحاسب فيه على ما اكتسبت وتحجزه جزاء وفاقا .

إذا فسر الناظر في هذا الأمر على هذا النحو انكشف له سر اجتماعي عظيم الشأن، وسر فلسفي لا يقل عنه خطورة .

أما الأول فهو أن الاجتماع بحاجة الى قوة أدبية ترفع نفسية الجماعة على وجه الاستمرار الى مُثُل عليا، تتفق وكرامة الانسانية، على سنة التدرج، حتى تصل بها الى مكانة عليا . وذلك خشية أن تنحصر روابط الاجتماع في الحاجات المادية، فنقلب الجماعة الى منمر كبير لا هم له إلا سلب الآم، وتدويخ الشعوب، وإهلاك الحرث والنسل، وهي حال وحشية لا تلائم الوجود الانساني، وتبدو عدم ملاءمته له في أن كل جماعة كبيرة انقلبت بحكم فساد قلوب أفرادها الى منمر، ليس لديه ما يُقتبس منه من القوى الأدبية، هلك في سنين معدودة . والأمثلة في التاريخ لا تحصى . والفضل في بقاء الفتوحات الاسلامية وشيوع آثارها، أن المسلمين آتوا البلاد التي افتتحوها مثلاً عليا، وذخراً أدبياً قيماً لا يزال يؤثر بشعراته فيها الى اليوم .

وأما السر الفلسفي فهو : أن الحياة الانسانية لا تكفيها الأغذية المادية مهما بلغت من الدسومة والتنوع، فلا بد معها من الأغذية الروحية . فهي ليست مجردة من التفكير كالنحل والنمل وغيرها فتُطبع على الاجتماع طبعاً، ولكنها في حاجة الى ما يقيم أودها النفسى من الأصول الأدبية، وأين هي إذا لم تستمد من دين تستقيم عليه، ويتطور معها حافظاً لسموه الروحاني، كلما خطت خطوة في طريق التطور العلمى .

إن أخص ما يحتاج إليه الطبيعة الانسانية من المدد الروحاني، عقيدة راسخة في البقاء بعد الموت، لأن البقاء أحب شيء الى الانسان، والفناء أكره شيء إليه، فإذا لم يجد دليلاً له على صحة هذه العقيدة زادت همومه الدنيوية، وشغله من المحافظة على نفسه من الموت شاغل يسرع به الى الهاوية لشدة ما يدفعه الهلع إليه من الاضطرابات العصبية .

كانت العقيدة في الحياة الآخرة تكاد تكون عامة بين جميع البشر، لذلك لازمت الدين في جميع أدوارها، ولكن بعد أن قامت دولة العلم، وحرص أشياعه على اجتثاث جذور الأديان من قلوب البشر، بحجة أنها تحول بينهم وبين الترقى، ضعف سلطان الدين على العقول ولم يعد لدعوته التأثير الذى كان له في القلوب، بل عاداه الناس جهاراً، وصرحوا بأنه لا بقاء له إلا ببقاء الأمية والعمامية، واعتبروا دعاته والقائمين عليه عالة على المجتمع يتناولون حصتهم من ثمرات كده بفضل تلك البقية من الجهل في الطبقة السفلى من آحاده .

هنا قد تثور نائرة أشياع الفلسفة المادية، ويوجهون الى تثيرها شديداً على قولى بأن الدعوة الى السمو الأدبي لا تثمر في الجماعات إلا بوجود عقيدة الخلود، ويقررون بأن الشخصية الخالصة من الأوهام، المستنيرة بمقررات العلم، تنساق من ذاتها وراء المثل العليا للأخلاق، وتصبح فاضلة باسم أداء الواجب، لا طمعاً في ثواب، ولا هرباً من عقاب .

نقول : إذا سلمنا بحدوث السمو الخلقى لبعض الآحاد من غير طريق العقيدة في الخلود ، فلا نستطيع ، كما قدمنا ، أن نسلم بأن هذا السمو قد يعم مئات الملايين في جميع المجتمعات ، لأنه لا يعقل أن شخصياتهم جميعا تخلص من الأوهام ، وتستنير بمقررات العلم .

وأنا مما أسوقه تدعيا لما أذهب إليه ، أن الجماعات الانسانية الأولى كانت لا تفرق عن الحيوانات في وحشيتها إلا قليلا ، وما كانت تعرف للتقيد بالواجبات ، ولا للخضوع لحكم العواطف معنى ، فما زالت فطرتها الدينية تطف من تعجرها ، ويهذب من تغشورها ، حتى قبلت التقيد بالقيود الأدبية ، وخضعت لأحكام العواطف القلبية ، وما انفكت تجرى على هذه السنة حتى بلغت درجات عالية من الحضارة .

فإذا هُدم هذا الأساس الذى قام عليه هذا الترقى الأدبى ، وسرى الى الجماعات التى لا تزال فى حاجة إليه ، فعلى أى أساس يقوم هذا الترقى بعده ؟ ألا يخشى عليها أن تتدهور فيما حصّلت من آثاره ، وأن تنتهى الى حالة من الانحلال الخلقى لا يمكن البقاء عليها ، وقد ظهرت بوادر هذا التدهور فيها ، وشكا منه حتى الذين يقولون بمذهب المادية الباحثة ؟

لنسلم بأن الحياة الاجتماعية يمكن أن تقوم ، وأن الأخلاق يمكن أن تنقوم بدون الاعتقاد ببقاء النفس بعد الموت ، فهل تبسم الحياة لشخصية تعتقد أنها صائرة الى الانحلال ، وأنها لا تدرى متى تُدعى الى الفناء ، والمنسايا كما قال الشاعر الجاهلى زهير تجببط خبط عشواء ، من تُصب ثُمتة فى ميعة الصبا ، ومن تخطىء يعمر فيهرم ؟ فإذا ذكر هذا الهرم الموت قال كما قال الفيلسوف ( رافيسون ) (١) الفرنسى : « لقد بلغت الثمانين وكلما ذكرت الموت اعترانى ذعر شديد » ، فلو كان غير فيلسوف قالها لقليل هذه شخصية غير خالصة من الأوهام ، ولا مستنيرة بمقررات العلم !

إن إثبات وجود الروح الإنسانية بوسائل العلم الحديث ، وعلى موجب دستورهِ القيم ، من الضرورات التى أصبحت واجبة التقديم على غيرها .

( أولا ) لأنها أساس كل دعوة خلقية وأدبية توجه للآحاد ، فإن من لا يرى لنفسه بقاء بعد الموت ، لا يرى أن يتقيد بقيد أدبى يصده عن شهواته ، ويرده عن غواياته .

( ثانيا ) لأن الواجب يقضى علينا أن نذيع ما نهدى اليه العلم من الأدلة الحسية على وجودها ، فإن فى كتمانها تبعة ، لا سيما ونحن فى زمان الناس أحوج ما يكونون فيه الى الشكائم الأدبية ، ولا يصلح من الشكائم إلا ما قام على أساس عقيدة ثابتة فى المسؤولية الشخصية ، والتبعة الأدبية .

(١) رافيسون فيلسوف فرنسى وأثرى مشهور ولد سنة ١٨١٣ وتوفى سنة ١٩٠٠ .

لقد وصل العلم الأوروبي من هذه الناحية الى مناطق لا يتخيلها الناس تخيلا، أصبحت معها مسألة إثبات الروح والخلود مسألة مادية بحتة لقيامها على الحس والمشاهدة .

وقد رأينا أن أحسن كتاب جمع هذه التجارب العملية، والملاحظات الحسية في صعيد واحد، هو ما وضعه الأستاذ البسيكولوجي (إرنست بوزانو) في كتابه المدعو (La Bilocation) ومعناها خروج النفس من الجسد ثم عودتها اليه، ولذلك قد عولنا على ترجمته لقراء العربية. وإنى أرجو أن يكون أثره على المطلعين عليه هنا مثل أثره على المطلعين عليه هناك، وأن يُعنى به المرشدون والوعاظ ليستطيعوا أن يحلوا شهات المجادلين بأدلة قاطعة، بدل تلك المحاورات التي تقابل بمثلها.

وإننا نبدأ اليوم بإيراد مقدمته، ثم نوالى ترجمة فصوله حتى نصل الى نهايته، إن شاء الله، ويكون في هذا مقدمة قيمة منا لقرائنا في السنة المقبلة من حياة مجلة الأزهر.

محمد فريد ومبرى

قال الأستاذ إرنست بوزانو في مقدمته :

« إن ظواهر خروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه، ذات قيمة حاسمة في إثبات وجودها وبقائها بعد الموت، إثباتا مبنيًا على التجربة. ذلك لأنه يدل دلالة قاطعة على أنه يوجد في الجسم المادى جسم آخر أثيرى يمكنه أن يخرج حين يقع الجسم في حالات نادرة من الهبوط الحيوى (١)، كالنوم العادى، والتنويم الصناعى، وحالة الوساطة الروحية، والذهول، والانعماء، والخلد والغشى. فكل هذه الحالات تسمح له بالابتعاد وقتا ما عن الجسم المادى في أثناء الحياة الأرضية.

« إن هذا الجسم الأثيرى أو (البيرسبرى) إذا انفصل من الجسم المادى حمل معه الوعى الشخصى، والذاكرة كاملة، وجميع الخواص الحسية. وعلى هذا يتحتم الاعتراف بأن هذا الجسم الأثيرى متى انفصل عن الجسد نهائيا بواسطة الموت، فإن الشخصية الانسانية تستمر

(١) أدت التجارب والملاحظات فى المباحث الروحية الى ثبوت أن للروح جسما أثيريا على شكل الجسد الحال هو به، وهذا الجسد الأثيرى غير قابل للتحلل ولا للقناء. وهذا يشبه ما ورد فى مذهب مالك بن أنس من أن الروح صورة كالجسد. وقد أجمع أهل الأديان القديمة حتى الجماعات الساذجة منهم على ذلك. وقد عنى العلماء الأوربيون والأمريكيون بتحقيق هذه المسألة، فثبتت ثبوتًا قاطعًا، وأصبحت من الأدلة المحسوسة على استقلال الروح عن الجسد، وعلى بقائها مستقلة بعد الموت. والكتاب الذى نحن بصدده يسرد بعض الحوادث والتجارب التى جمعت فى إثباتها.



على البقاء في الأحوال المحيطة بها والمناسبة لها . ومتى سُلم بهذا فقد سُلم بأن وجود جسم أتى داخل الجسم المادى ، يثبت أن موطن الوعى والادراك هو هذا الجسم الاثيرى ، الذى هو الغلاف العلوى غير المادى للروح التى تختل عن جثمانها .

« من لدن عشرين سنة اشتغل بهذه المسألة من مشهورى القائمين بالمباحث النفسية جماعة بعناية خاصة ، وأفردوها بالتأليف فى رسائل وكتب . أذكر منها ثلاثة مؤلفات وضعت فى فرنسا ، أحدها لجبريل دولان ، والثانى لهنرى دورفيل ، والثالث للسكولونيل دوروشا . أما فى إيطاليا فقد خصها الأستاذ لومبروزو بفصل من كتابه . وفى المانيا الدكتور ا . ماتيزن وقف عليها رسالة كبيرة بحثها فيها بحثاً مدققاً بطريقة جديدة بأستاذيته .

« أما من ناحيتى أنا ، فقد نشرت فيها رسالة فى سنة ١٩١٠ عنوانها : (اعتبارات وافتراضات على ظواهر خروج الروح من الجسد ثم عودها إليه فى أثناء الحياة) ، ولكن المشاهدات قد استمرت من ذلك الحين على الاحتشاد ، ووصلت من الكثرة الى حد بعيد ، حتى أراى أملك منها الآن مواد تصلح للحكم عليها من ناحية عامة محكمة ومؤكدة بسبب تراكم موادها ومستنداتها . فإذا كنت قد صرحت فى رسالتى الأولى عن تبصر بأن الأدلة الناتجة من الحوادث التى سردها لا تكفى لأن نمنح هذه المسألة قيمة علمية ، فالى الآن حيال هذا القدر العظيم من الحوادث المجتمعة والمرتبة ، أعتبر أن الوقت قد آن لأن أصدر حكمى فيها بصراحة وتأكيد .

« أما والحالة ما رأيت ، فانا سنحاول فى هذا الكتاب زيادة مادة الموضوع الذى نحن بسبيله ، متصرفين فى رسالتنا الأولى تصرفاً تاماً ، ومضاعفين حجمها ، وسأعنى بأن لا أورد من المصادر التى ذكرتها شيئاً من الحوادث ، لأن المستندات التى جمعتها الآن من الكثرة بحيث أراى مضطراً أن لا أستغل منها إلا مقداراً قليلاً . وأرى من الحكمة أن أبى استخدام حوادث سبق أن اطلع عليها جمهور الناس ، مهما كانت مفيدة وذات دلالة فى النظرية التى أؤيدها . وزيادة على هذا قد أخذت على نفسى أن أتخذ أسلوباً خاصاً لتجنب خطر الوقوع فى تسلسل الآراء الذى يمنعنى من تدوين بحوثى الشخصية بوضوح تام .

« فأحول نظر الذين يودون التعمق فى هذه المسألة بعد قراءة كتابى أن يطلعوا على مؤلفات دولان ودورفيل ودوروشا ولومبروزو ودوماتيزن .

« والذى ألاحظه ، قياماً على أسلوبى الخاص فى الترتيب الذى أنا بصدد ، أن ظواهر خروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه يمكن أن تنقسم الى أربعة أنواع لكل نوع منها قيمة نظرية مختلفة ، فاليك :

« فى النوع الأول سنأتى على أحوال الشعور بكمال الجثمان لدى الذين بترت بعض أعضائهم أو المصابين بالشلل النصفى ، وهذه حالة قيمتها النظرية أكبر كثيراً مما يظنه الناظرون .



« وتدخل في النوع الثاني الأحوال التي فيها الشخص يرى جسمه الأثيرى منفصلا عنه وهو حاصل على وعيه في جسمه المادى .

« وتأتى في النوع الثالث الحالات التي فيها الوعى كله ينتقل الى الجسم الأثيرى المنفصل عن الجسم المادى .

« ونجىء في النوع الرابع الحالات التي فيها الجسم الأثيرى لحي أو لميت يكون مرئيا من الناس جبرة .

« أما من الناحية الفيزيو لوجية فيحسن التنبيه بأن لظواهر خروج الجسم الأثيرى للروح من الجثمان ، صفة مميزة ذات دلالة عالية ، هي أنها كلها متشابهة ولها سبب عام رغما عن الأشكال المختلفة العديدة التي تظهر بها ، وهو تشابه دائم لم يعتره تغير في أى زمان ومكان ، ولدى كل شعب من شعوب الأرض ( ومنها الجماعات المتوحشة ) ، بحيث أصبحت نقطة تلاقى جميع الأدلة التي يمكن أن تقام لإثبات وجود مستقل للروح الانسانية . ويحسن أن يلاحظ أيضا أن هذه الحوادث من الكثرة بحيث إن ما جمعته أنا منها لا يكفي سفر ضخم لاستيعابه . هذه الكثرة بعضها ناشئ من أن مجاها متسع الى حد شموله لكل ظواهر الوساطة ذات النتائج المادية ، حتى المشاهدات التجسدية التي توجب على خصوم النظرية الروحية الاعتراف بصحة حوادثها . وبعض هذه الكثرة أيضا أتى من تسرب عدد عظيم إليها من الأحوال التي كانت تعتبر الى الآن من الظواهر التلباتية .

« وأنا بعد إتمامى ترتيب هذه الظواهر ساكتفى بعرض عدد كاف من الحالات النموذجية مع تحليلها وشرحها بإيجاز ، محتفظا لنفسى بحق إبداء اعتبارات عامة عليها فى خاتمة هذا الكتاب .

## الجرةأة فى الحق

عن سفيان بن عيينة قال : قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق ، فنظر الى شاب منهم يتجوس للكلام . فقال : أكبروا أكبروا . فقال الشاب : يا أمير المؤمنين : إنه ليس بالسن ولو كان الأمر كله بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك .

فقال عمر بن عبد العزيز : صدقت رحمك الله ، تكلم .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا ، وأما الرهبة فقد أمننا الله ببدلك من جورك .

قال عمر : فما أتم ؟ قال الشاب : وفد الشكر . فنظر محمد بن كعب القرظى الى وجه عمر يتهلل . فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلبن جهل القوم بك ، معرفتك بنفسك ، فإن ناسا خدعهم الشناء ، وغرم شكر الناس ، فهلكوا ، وأنا أعيدك بالله أن تكون منهم .

فألقى عمر رأسه على صدره .

## اختلاف الناس في أيام الشهور القمرية

نشر تحت هذا العنوان بالجزء السابع من هذا المجلد مقال لحضرة الأستاذ المحترم « محمد حفظى » حاول فيه بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « شهرا عيد لا ينقصان : رمضان وذو الحجة » . فجعل ذلك إشارة الى تنبئه صلى الله عليه وسلم بما قرء عليه قرار الارصاد الفلكية من أنه لا يمكن أن يكون كل من رمضان وذى الحجة ٢٩ يوما فى عام واحد .

وإنى مع تقديرى لمجهود حضرة ، أستميحه عذرا فى أن أخالفه فى هذا رأى ، وأقرر أن الأصح ما ذهب إليه الامام النووى وغيره من أن الحديث يشير الى عدم نقصان أجرهما ولا شأن له بعددهما ؛ فإنهما قد ينقصان معا — حقيقة وشرعا — فى عام واحد ، كما منا هذا ( ١٣٥٩ ) وعام ( ١٣٤٥ ) وغيرهما ، مما يعلم بمراجعة التقاويم الموثوق بها .

والحساب الذى أطال حضرته فى بيانه وأوضحه غاية الايضاح ، إنما هو حساب وسطى لا يطابق الحقيقة شهرا شهرا وإن طابقتها باعتبار مجموع من الأشهر مثل ٢٢٣ شهرا ، وذلك أن الشمس والقمر قد يسرعان فى السير وقد يبطئان فلا تستوى مقادير الأشهر ولا السنين إلا إذا نظرنا الى مجموع من كل منهما ، وإنما اعتبروا هذا الحساب وإن لم يطابق الحقيقة لأنه يسهل العمل به فى المسائل التى يكتفى فيها بالتقريب ، ولا يصح بحال أن يكون الحديث مشيرا إليه ؛ لأنه فرضى تقربى كما عرفت ، ولأنه يقتضى أن تكون الأشهر الفردية كالبحر وربيع الأول كوامل دائما ، والزوجية كصفر وربيع الآخر نواقص دائما ، إلا ذا الحجة ، فانه يكون كاملا فى الكبائس وناقصا فى البسائط ، فيكون رمضان على هذا ٣٠ يوما دائما لأنه فردى ، وهذا يخالف القانون الشرعى المجمع عليه ، وهو أن الشهر هكذا وهكذا « أى تارة ٣٠ وتارة ٢٩ » . كما يخالف القانون الفلكى المتفق عليه ؛ وهو أنه يجوز أن تتوالى أربعة أشهر كل منها ٣٠ يوما ، وأن تتوالى ثلاثة أشهر كل منها ٢٩ يوما ؛ وتحقيق هذا يحتاج الى مقال خاص . على أننا لو جارينا حضرة الأستاذ الباحث وفرضنا أن هذا الحساب حقيقى ، فإننا لا نحصل على النتيجة التى جزم بها وكتب المقال ليبيانها ، وقد كفانا حضرة مؤنة البحث معه فى ذلك ؛ حيث قرر فى الجدول الذى وضعه أن التاسع والعشرين من شعبان يتم بتامه ٢٣٦ يوما من السنة ، فإذا لم نر الهلال فى الليلة التالية فإنها مع يومها تلحق بشعبان ، عملا بالحديث الصحيح « فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » ، فبإكمال شعبان يتم من السنة ٢٣٧ يوما ، ومن الممكن بلا شك أن يكون رمضان بعد ذلك ٢٩ يوما لأنه نقص من أوله فيجوز أن يرى هلال شوال ليلة الثلاثين منه بلا تعسر ، وبمضى رمضان مع نقصه يتم من السنة ٢٦٦ يوما ، فيكون ذو الحجة ٢٩ يوما كما قرره هو فى جدولته .

والذى أوقعه فى هذا الوهم أنه أوجب عند نقص رمضان أن يتم به من السنة ٢٦٥ يوما فقط ، وفاته أن اليوم الذى نقص من رمضان بحسب الرؤية قد ألحق بشعبان .

على أننا لو فرضنا أنه تم بـ رمضان ٢٦٥ يوما فقط وكان النقص لاحقابه من آخره لرؤية هلال شوال قبل مياعاده الحسابى ، فمن المعقول أن يلحق هذا اليوم بشوال ، فيكون ٣٠ يوما ويبقى ذو الحجة ٢٩ يوما ، فينقصان معا هو ورمضان .

وبعد : فى المقال ما يوم أن تسمية الشهرين من تفسير الراوى « خالد » لا من متن الحديث ، لأنه زادها عن الراوى الآخر « إسحاق » ، وهذا لا يصح ، لأمرين : أحدهما أنه لم ينفرد بها بل شاركه فيها غيره كما يعلم بمراجعة الكتب الحديثية ، وثانيهما أن زيادة الراوى الثقة فى متن الحديث لا يصح الحكم بكونها من عنده إلا بدليل من الأدلة المقررة فى كتب « مصطلح الحديث » ، وليس من الأدلة نقص الراوى الآخر ؛ وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد والطبرانى والبزار ، ولم يصرح أحد منهم بأن هذه الزيادة من تفسير الراوى ، ولذا ذكرت فى الكتب التى ليس فيها ذكر للراوى خالد ولا غيره كالتجريد الصريح وتيسير الوصول والجامع الصغير ، مضمومة الى أول الحديث مع نسبته كله الى النبي صلى الله عليه وسلم .

بقى فى المقال أخطاء فى الأرقام منشؤها الخطأ فى التحويل أو الجمع ، وأنا أذكر هنا الأرقام الصحيحة إتماما لفائدة القارئ الكريم :

ثانية	ق	س	يوما
٢٩	٤٤	١٢	٢٩

الشهر القمري الوسطى ٢٩، ٤٤ ١٢ ٢٩ أى ٢٩،٥٣٠٦ ، ورقم ٦ فى أول الكسر أكبر من الحقيقة بقليل لأن أصل الكسر هكذا ٠،٥٣٠٥٨٩ ، وعليه تكون السنة القمرية الوسطية ٣٦٧٠٦٨، ٣٥٤، يوما . وللاختصار يحذف الرقمان الأولان من الكسر ، ومجموع ٢٢٣ شهرا يساوى ١٨ سنة شمسية و ٩٦، ١٠ من الأيام تقريبا .

هذا ولحضرة الأستاذ الباحث فضل السبق بالبحث ، وما قصدى إلا إعادته على الوصول الى الحق الذى هو غاية آمال الباحثين .

على حسن البولاتى

المدرس بمعهد الترغابى

## من أخلاق الشريعة الإسلامية وآدابها

لم تكن الشريعة الإسلامية قانوناً تحكم عليه ملابساته وبواعثه ، وتخضعه لعصر من العصور معين ، أو جيل من الأجيال يتأثر ويسير على هداه ، بل هي شريعة أبدية البقاء ، ربطت بين أجزاء الماضي والحاضر والمستقبل بأوثق العرى ، فأخضعت النواميس الكونية ، والعوامل السفلية والعلوية لأجزائها ودلالاتها ، وتطورت الحياة تطوراً مطرداً ، فما ترى دوراً من أدوار التاريخ الانساني إلا صبغته الشريعة بآدابها وأخلاقها وعاداتها وشتى شئونها المختلفة ، وخلعت عليه طابعا من طوابعها ، فأثارت ظلمته ، وأحييت ميتة ، وحركت جامده ، وبعثت فيه الحياة والقوة والنماء باذن الله : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون » .

هذه شعوب تظأ بأخصمها تلك الرقعة السوداء فلأئها علوماً آلية ، ونظريات كونية ، ومكنونات تخضعت عنها العقول المشرقة ، والعزمات الوثابة ، فأفاضت على الوجود حياة مثمرة ، وسعادة جلى ، ولكنها صدف عن دينها ، ديز الفطرة والملة الحنيفية البيضاء ، فهوت وذوت وبيس عودها ، وأصبح داؤها عياء ، وعلمها هباء ، ذلك لأنها حادت عن طريقها السوى ، وناموسها الجلى .

وهذه دول فى الأرض اليوم تتناحر فى سبيل الفناء ، ويحاول بعضها تقتيت البعض الآخر ، وما من أمة أخذت بقسط من دينها وسهم من شريعتها إلا كتب لها الله المنعة والقوة والسؤدد ، وبوأها فى العالمين مكاناً علياً .

وهذه أمم الاسلام فى صدر الاسلام كانت تدانى الشمس فى عليائها ، والكواكب فى بعد منالها ، لأنها أخذت بالدين فى أمرى معاشها ومعادها .

وإلا فآين نظم الشرائع الوضعية على تقادم العهد بها ، واعتناق آلاف ملايين البشر لأحكامها ، من تلك الشريعة الخالدة الباقية على الزمن ، تلك الشريعة التى رسمت فى لوح المجتمع حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وحياة الأمة ، ودعت العقل الى التفكير والتعمل ، والنظر فى ملكوت الله الذى برأ السموات والأرض ، وكيف أنه سخر ما فى الأرض جميعاً للإنسان ، وكيف أنه سبحانه أخضع لذلك الجرم الصغير أجرام الكائنات ، فبصر الإنسان بالعالم كلها فإذا هى بين يديه مسخرة ، وإذا الأقدار القاهرة من حوله مدبرة ، وإذا العقل يتلاقى مع الدين ، وإذا الدين يثمر حسن اليقين . فتبارك الله أحسن الخالقين .

لقد أحاطت الشريعة هذا المجتمع بسياج صفيق ، فدبرت للجماعة وللأسرة حياة سعيدة

وعيشا رغدا ، فوضعت لعلاقة الزوجية حدودا ، وجعلت بين الرجل وزوجته مودة ورحمة ، وأحالت ما بينهما من تنكر وشتات ، الى محبة وتعارف وائتلاف ، ثم وصلت بين الإنسان وخالقه ، وصاحب الرسالة التي جاءت على يديه ، ومقام الرسل في البشر ، فابانت أسرار الوحي السماوي ، وحكمة إرسال الرسل عليهم السلام ، وعن حكمة بعثة الرسول الأعظم على فترة من الرسل ، وكيف ثبتت تلك الرسالة بشتى وسائلها ، ثم عن معجزات الرسول الدالة على رسالته ، وعن إعجاز القرآن ، وكيف تحدت به بطون العرب وأنفادهم ، ثم عن المعاملات في أوسع حدودها ومختلف شئونها ، فقد بسطت الشريعة السمحة سائر التصرفات التي تقع من المكلف كالبيع والسلم والإجارة والقراض والوقف والهبة والعارية ، وعن الربا والحكمة في تحريمه جزاء مرتكبه دحضا لنظرية فاسدة تقول بحل الربا لأنه من قبيل ما عمت به البلوى ، وهو قول لا يرتكز إلا في رءوس خلت من كل شيء إلا من الجنون ، وامتلاّت بكل شيء إلا بالعقل والحجا ، وهكذا مما يطول تعداده ، ويتمنذر حصره من آياته الباهرة ، وحكمه الظاهرة .

ولا شك أن الشريعة التي تشع على الوجود قبس النور واليقين ، وتفتح أعين الناس على عظات بالغات ، وحكم سابغات ، همت تلك الشريعة التي سمت بالجمع الى خير طريق وأبلغ محجة . ويقيننا أن الله لو أتاح في المستقبل إن قريبا وإن بعيدا للشريعة المطهرة رجالا يكشفون عن جلالها ومبلغ خطرها في المجتمع ، ويبصرون الناس بحسن آثارها وعظيم جدواها لا نصرف الناس عما هم فيه من زخرف حائل ومتاع زائل .

« ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار » فإلى الغد القريب مآ

عباس ط

## الكهال في الاعتدال

قيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ، قال من قيس بن عاصم المنقري ، رأيته قاعدا بفناء داره ، محتبيا بمجائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول . فقيل له هذا ابن أخيك قتل ابنك . فوالله ما حل حبوته ، ولا قطع كلامه . ثم التفت الى ابن أخيه وقال له : يا ابن أخي أئمت بربك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك . ثم قال لا بن له آخر : قم يا بني فوار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق الى أمه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة .

نقول : قد يبدو هذا الضرب من الحلم ، إن صح وجوده ، مثلا أعلى لبعض الناس ، وهو لا يستحق أن يسمى حلما ، فإن الذي يعرض عليه قاتل ومقتول ، فلا يقطع كلامه ، ولا يحل حبوته ، حتى ولو لم يكن ابنه ، لا يعقل أن يكون مستكملا للغرائز الانسانية .

## كتاب لدولة رئيس مجلس الوزراء

آنس حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المحترم الشيخ محمود أبى العيون ، شيخ علماء الاسكندرية ، تاخيرا فى اتخاذ الوسائل التى كانت الغرض منها صيانة الاخلاق وتحديد السهر وحماية شهر رمضان ، فرأى أن يستنجز حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ما وعد ، فأرسل فضيلته إليه هذا الكتاب . وقد وصلنا بعد ظهور المجلة فى الشهر الماضى ، فنثبتة اليوم :

حضرة صاحب الدولة الوزير الأكبر حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى كتب لك السلامة والفوز بما أعدّ لك من الاقدار والالطاف فى كل ما يتجه اليه قلبك الطيب . وتعالجه رغبتك الصادقة من الأعمال الجسام ، وفى ذلك كرامة لك من الله سبحانه وتعالى جديرة منك بالشكر له والثناء عليه .

وشكر الله عز وجل من موجبات الاستزادة من الأعمال الصالحة لهذا البلد المسكين « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج ألا نكداً » وأن أخشى ما نخشاه أن ما يجرمه الجارمون فى هذا البلد . وما يحزنونه عليه من التمرّس به والاستطالة عليه بسوء التدبير فى هذه الظروف القاسية لما يطيح به الى مصاير التدمير والانحلال .

وها أننا نبذنا أخلاق الدين ، واستهنا بتعاليمه الصالحة ، فأصبحنا فى مفترق الطريق تساورنا عوامل الفناء من كل مكان . وها هى نوادينا ومجتمعاتنا غاصة بكل فاجر وفاجرة . وفيها تقام أسواق الخنا والمتاجر الآثمة فى استهتار وقحة ، هذه حانات الخمر مفتحة الأبواب مبكرة ممسية ، وهذه ملاعب الهوى ليس لها مواعيد مؤكدة ، وهذه أندية القمار بمختلف أنواعها ، من مراهنات الخيل وسباقها ، وصيد الحمام وغير الحمام ، وهذه بيوت الفسق أعلاناً وأسراً يعج فى مسارحها أعلام الفساق عجيبة . ويعب أشباه الرجال فى آثامها عباً . فإذا جهرنا بقولة الحق فيهم مرمرؤا ورمونا بالجود والجهل بحركة العالم وتطور الدنيا .

يادولة الوزير الطيب : ألا نجدة منكم تقوم المعوج وتردع الفاجر وتصلح الفاسد . ألا صولة مرمعدة تحميها من خلفها صرامة الحق وتأديب الشارع الحكيم . فييقظ النائم . ويرهب الآثم . ألا غضبة للدين والأخلاق تجل هذا الظلام الحالك وتتر الطريق للسالك . وتحول هذا الحال الى أحسن الحال ؟

أنتنا في حاجة الى حكومة قوية عنيدة . تسوقنا الى الخير سوقا ، وآمالنا فيك أن تكون رأس هذه الحكومة القوية في الحق ، العنيدة في الباطل .

ضاق معاوية بأهل البصرة ذرعا لخروج أهلها عن جادة الحق . بانغماسهم جهرة في الفسق . فرماها بداهية العرب زياد بن أبيه ، فخطب فيهم خطبته البتراء المعروفة ، وما أعوزة الأمر بأكثر من الترهيب والتوعيد . فاستقام أهل البصرة ما بين عشية وضحاها .

نحن لا نعجزك في الطلب ، نطلب منك هينا يسيرا طلبناه من قبل فوعدت بأنجازها وأنجز حرما وعد . نطلب منك أن تحمد من هذه المشايين والمناقص بأمر عسكري . وتضيق الخناق على الجارمين باسم المدنية والحرية الشخصية .

وأن الأمم الكبيرة ، والدولات الصغيرة فعلت ذلك في شعوبها فنجحت نجاحا كبيرا . يادولة الوزير الطيب : تعب رجال الدين في الدعوة الى الله لأن الدعوة في حاجة الى التأمين والحماية . والله شرع لحماية دينه والدعوة إليه الحدود والعقوبات لأخافة أهل الباطل وردع الفجار المستهترين .

وبعد . فهذا زائر مبارك هو شهر رمضان المعظم ، واحترام هذا الضيف وتقديسه أنما يكون بتطهير البلاد من المعاصي . ومن انتهاك شعائر هذا الشهر الكريم ، ولهذا ننتظر من دولتكم أن تأمروا بتشديد الرقابة على المستهترين بجرمة الدين والآداب العامة وأخذهم بالشدة والصرامة ففي ذلك حفاظ على قدسية هذا الشهر وحرمة .

وفقك الله وأعانك ويسر لك في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول حفظه الله ؟

شيخ علماء الاسكندرية

## كتاب لسعادة محافظ الاسكندرية

وجه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ معهد الاسكندرية ، خطابا الى حضرة صاحب السعادة محافظ الاسكندرية ، يوجه فيه أن يجدد لرجال البوليس ما أصدره سعاداته اليهم من الأوامر المشددة في العام الماضي بمراقبة الآداب العامة حفظا لكرامة شهر رمضان ، ويكرر لسعاداته الشكر على ما أسلف من جهد محمود في ذلك . وهذا نص الكتاب :

حضرة صاحب السعادة الجليل محمد باشا حسين محافظ الاسكندرية .

سلام الله عليك ورحمته وتحيته .

وبعد : فإن شهر رمضان الكريم قرب حلوله ، وهو شهر مبارك يحتفل به المسلمون في أقطار الأرض ، وتقديسه ملائكة الرحمن في السموات السبع ، وتحل فيه البركات على المؤمنين . نخلق بالبلاد الاسلامية أن تستعد للقائه ، بنفوس طاهرة ، وقلوب عامرة بالايمان ، ولهذا كان جديرا بأولى الأمر فينا أن يراقبوا المستهترين بجرمة هذا الشهر ، في المقاهي والطرق العامة ، بالضرب على أيديهم ، وزجرهم بالتوعد والترهيب ؛ وفي العام الماضي كان لسعادتكم الأثر المحمود في ذلك الموقف ، ولهذا نرجو الى سعادتكم إعادة الكرة بالتنبيه على رجال الشرطة بالمحافظة على تلك التعليمات التي صدرت اليهم في العام الماضي ، وإنا بلسان الدين والاخلاق نكرر إليكم الشكر ، وندعو لسعادتكم بالتوفيق وحسن المثوبة .

شيخ علماء الاسكندرية

والسلام عليكم ورحمة الله



## دروس الفلسفة :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الكريم الزنجاني شيخ علماء النجف الأشرف بإيران قدم راسخة في مجال الفلسفة على وجه عام ، والفلسفة الإسلامية على وجه خاص ، وقد زار مصر في سنة ( ١٩٣٨ ) فكشف عن عيلم علم ودين ، ونال إعجاب العلماء المصريين ، وتقديرهم العظيم .

أهدانا فضيلته بكتاب له جديد اسمه دروس الفلسفة ، كان سبق له تدريسه ، وكان السبب في نشره ، أنه لاحظ أن الكتب الفلسفية التي ألّفها الغربيون والشرقيون في العصور الأخيرة صورت الفلسفة الإسلامية في صورة تقشعر الأبدان من قباحتها ، ولا يعرفها أهلها إذا عرضت عليهم ؛ وسجلوا عليها أنها لا تزيد على أنها نظرات يونانية ، ولا يوجد فيها شيء من الابداع والابتكار ، مما يثبت جليا أن الغربيين لم يفهموا الفلسفة العربية لغموض أساليبها فأسقطوها . والفلسفة الإسلامية وإن كانت زاخرة بالمبدعات والمبتكرات ، وكانت من أكبر وسائل النهضة الفلسفية الحديثة ، إلا أنه لا يحشمها أن تبلغ الكمال فتسجل المكتشفات قبل حدوثها بألف عام .

قال فضيلته بعد أن بسط القول فيما تقدم : « وليس المقصد من ذلك نبذ الفلسفة الحديثة ، كلا ! فإن كلا من الفلسفتين قوة عقلية ناجزة ، وعدة فكرية ناهضة يجب استغلالها ، ولا يجوز الاستغناء عن كل منهما » .

لنا كلمة بعد هذا وهي : أن هذا الكتاب يكشف من سمو الفلسفة العربية ما لا يكشفه كتاب غيره ، ويحاكم الفلسفة العصرية محاكمة دقيقة تقبين منها حاجتها الى التكافل مع الفلسفة الإسلامية . وهذا مرمى بعيد المدى جدير بإطالة النظر ، وإجالة الروية ، ولا أظن أن الفلسفة الإسلامية وجدت مدافعا عنها أكثر غيرة عليها ، وأدق نظرا فيها ، من فضيلة الأستاذ الزنجاني أثابه الحق على عمله الطيب .

## روح الإسلام :

وضع هذه الرسالة حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الغفار الهاشمي الحسيني الأفغاني من طلبة العلم الأجانب بالأزهر ، وهي كما يدل عليه اسمها تعريف بالإسلام من ناحية أصوله الروحية والجسدية . وهذا جهد منه حسن ، ومحاولة للتأليف بالعربية الصحيحة تقابلها بالتنشيط . ولكن الأمر الذي لم نقره عليه هو ما أفاض فيه من المقابلات بين الدين الإسلامي وغيره ، فهذا ما لا يحسن أن يكتب على الصورة التي أو ردها .

نحن النسخة عشرة قروش تطلب من مؤلفها برواق الاتراك بالجامع الأزهر . فنحث الخيرين على اقتناء هذه الرسالة مساعدة لهذا الطالب في غربته وانقطاع المدد المالي عنه .

### التربية الاجتماعية :

وهذا كتاب حافل بأصول التربية الاجتماعية لم نجد فيما طبع بمصر أجمع منه لها ، فقد ألم فيه مؤلفه المفضل الأستاذ على فكرى أفندى الأمين الأول بدار الكتب المصرية ، بضروب الواجبات الخاصة من أول واجبات التلميذ الى واجبات الوزراء والنواب والأمراء ، ثم بصنوف الواجبات العامة ، من أول واجبات الانسان نحو نفسه الى واجباته نحو خالقه . ثم انتقل الى ذكر الحقوق وأتى فيها بجميع أنواعها وأنواع الحريات . ثم ختم الكتاب بالامام بالآداب الاجتماعية من أول آداب المحادثة الى آداب الاحتفالات العامة .

فهذا الكتاب حاجة من حاجات هذه الآونة التى أصبح العقلاء فيها يشكون من ضياع الآداب الاجتماعية ، فكان وضعه من حظ الأستاذ على فكرى أفندى ، وهو خير من يكتب فى هذه الشؤون ، فنهنته بهذا التوفيق .

### جماعة السيدات المسلمات :

فى القاهرة جماعة للسيدات المسلمات تأسست سنة ١٣٥٦ ( ١٩٣٧ ) مركزها العام بشارع نور الظلام بالحلمية ، وهن ثلة من كرائم السيدات تحت رئاسة حضرة الأنسة النابية زينب هائم الغزالى الجبيلى ، ولها مجلس إدارة ومجاس استشارى .

مهمة هذه الجمعية رفع المستوى العلمى والفكرى للسيدات المصريات ، وتدريب بعضهن على إلقاء المحاضرات فى الوعظ والارشاد ، وقد بلغ ايرادها نحو ٨٨ جنيها ، ولكنها أنفقت ١٥٤ جنيها . وقد قام بسد هذا العجز حضرة الرئيسة المحترمة فافرضت الجماعة ٦٥ جنيها ، وإنها لأريحية يجب أن تقابل بالاكبار والاجلال .

### ختام السنة الحادية عشرة :

بهذا العدد نختتم السنة الحادية عشرة لهذه المجلة ، وسنبداً إن شاء الله سنتها الثانية عشرة فى أول المحرم لسنة ١٣٦٠ المقبلة . وإنا نعد حضرات القراء ببذل الوسع لجعل هذه الخدمة الشريفة أغزر ما تكون إنتاجاً ، وأنفع ما تكون إثماراً . ستصدر حاليا الصدر بالدروس الدينية لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام ، وهى الدروس التى جلى فيها فضيلته من كرائم المعانى القرآنية ما جلى ، وبين من مدلولاته العلوية ما بين .

وفى هذه المناسبة نذكر حضرات قرائنا بأن يعنوا بإرسال طلباتهم الجديدة إلينا مشفوعة بقم اشتراكهم بأذون بريدي يدون فيها أمام عبارة المكتب المكلف بالدفع كلمة ( الأزهر ) فحسب دون ذكر كلمة مصر .

Now great multitudes came to adopt Islam and take the oath of allegiance to the Prophet. For this purpose an assembly was held at Mount el Safa. Omar, acting as the Prophet's deputy administered the oath, whereby the people bound themselves not to adore any deity but God, to obey the Prophet, to abstain from theft, adultery, infanticide, lying and backbiting. Thus was fulfilled the prophecy embodied in the chapter of Victory in the Koran. (1)

During his stay at Mecca, the Prophet despatched his principal disciples in every direction to preach Islam among the wild tribes of the desert and call them to the true religion of God. He sent small detachments of his troops into the suburbs who destroyed the temples of Al Uzza, Suwaa and Manat, the three famous idols in the temples of the neighbouring tribes. The Prophet gave strict orders that these expeditions should be carried out in a peaceable manner(2). These injunctions were obeyed in all cases, with one exception. The troops under Khalid Ibn el Walid, the fierce newly-converted warrior, killed a few of the Bani Jazima. When the news of this wanton bloodshed reached the Prophet he was deeply grieved, and exclaimed, "Oh, my Lord, I am innocent of what Khalid has done," and he despatched a large sum of money for the widows and orphans of the slain, and severely rebuked Khalid (3). At this time the tribes of Hawazin and Thakif showed unwillingness to render obedience to the Moslems without resistance. They formed a league with the intention of attacking the Prophet. But he was vigilant enough to frustrate their plan. A big battle was fought with this new enemy of Islam near Hunein, a deep and narrow defile nine miles to the north-east of Mecca. The idolaters were utterly defeated. One body of the enemy consisting chiefly of the Thakif tribe, took refuge in their fortified city of Tayef, which, as the reader may remember, eight or nine years before had dismissed the Prophet from within its walls with injuries and insults. The remainder of the defeated force, consisting principally of the Hawazin, sought refuge at a camp in the valley of Autas. This camp was raided by the Moslem troops. The families of the Hawazin, their flocks and herds with all their other effects were captured by the troops of the Prophet. Tayef was then besieged for a few days only, after which the Prophet raised the siege, well knowing that the people of Tayef would soon be forced by circumstances to submit without bloodshed. Returning to his camp where the prisoners of Hawazin were left for safety, the prophet found a deputation from this hostile tribe who begged

---

(1) "When victory and triumph are come from God and thou seest hosts of people embrace the religion of God, you will then praise the glory of your Lord and implore His pardon, as He is ever ready to welcome penitence."

(2) & (3) T.P. Hughes — Dictionary of Islam.



Hudēibiya by attacking the Bani Khuzaah who were in alliance with the Moslems. The Bani Khuzaah of whom a number of men were massacred appealed to the Prophet for help and protection. The Prophet determined to make a stop to the reign of injustice and oppression which had lasted long at Mecca. He immediately gathered ten thousand men to march against the idolaters. On January 1st 630, the Prophet began his march. After eight days the Moslem Army halted and alighted at Marwat el Zahrān a day's journey from Mecca. On the night of his arrival, Abu Sufian, who was delegated by the Koreishites to ask the Prophet to abandon his project, presented himself and besought an interview. On the morrow it was granted. "Has the time not come, O Abu Sofian", said the Prophet, "for thee to acknowledge that there is no deity save God, and that I am His apostle?" Abu Sofian, after hesitating for a while, pronounced the prescribed formula of belief, and adopted Islam. He was then sent back to prepare the city for the Prophet's approach. With the exception of a slight resistance by certain clans headed by Ikrima and Safwan, in which many Moslems were killed, the Prophet entered Mecca almost unopposed. The city which had treated him so cruelly, driven him and his faithful band for refuge amongst strangers, the city which had sworn his life and the lives of his devoted adherents, now lay at his mercy. His old persecutors were now completely at his feet. The Prophet entered Mecca on his favourite camel 'Al Kaswa'. having Abu Bakr on his right hand, Usaid on his left, and Usama walking behind him. On his way he recited a chapter of the Koran, known as the chapter of the victory. (1) The Moslem army entered the city unostentatiously and peacefully. No house was robbed, no man or woman was insulted. The Prophet granted a general amnesty to the entire population of Mecca. Only four criminals whom justice condemned, were proscribed. He, however, ordered the destruction of all idols and pagan images of worship, upon which the 360 idols which the Holy temple of Kaaba contained were thrown down. The Prophet himself destroyed a wooden pigeon from the roof and regarded as one of the deities of the Koreishites. During the downfall of the images and idols he was heard to cry aloud. "God is great. God is great. Truth has come and falsehood has vanished; verily falsehood is evanescent." The old idolaters observed thoughtfully the destruction of their gods which were utterly powerless. After the Prophet had abolished these pagan idols and every pagan rite, he delivered a sermon to the assembled people. He dwelt upon the natural brotherhood of man in the words of the Koarn as contained in chapter XIIX, verse 13. (2)

(1) Koran, chap, IX

(2) "Verily the true believers are brethren; wherefore make peace among your brethren; and fear God, that ye may obtain mercy".

Muir in his *Life of Mohammed* Vol. III comments on this incident as follows: "It was surely a strange sight which at this time presented itself at the vale of Mecca, — a sight unique in the history of the world. The ancient city is for three days evacuated by all its inhabitants, high and low, every house deserted, and, as they retire, the exiled converts, many years banished from their birth-place, approach in a great body accompanied by their allies, revisit the empty homes of their childhood, and within the short allotted space, fulfil the rites of pilgrimage. The outside inhabitants, climbing the heights around, take refuge under tents or other shelter among the hills and glens; and clustering on the overhanging peak of Abu Qubeis, thence watch the movements of the visitors beneath, as with the Prophet at their head, they make the circuit of the Kaaba and the rapid procession between Es-safa and Marwah, and anxiously scan every figure, if perchance they may recognise among the worshippers some long-lost friend or relative. It was a scene rendered possible only by the throes which gave birth to Islam."

In accordance with the terms of the treaty, the Moslems left Mecca at the end of three days' visit. This peaceful visit was followed by important conversions among the Koreishites. Khalid Ibn el Walid, known as the Sword of God, who, before this, had been a bitter enemy of Islam and who commanded the Koreishites Cavalry at Ohod; and Amr Ibn el Aas, another important character and warrior adopted the new faith.

When the Prophet and his followers returned to Medina, they arranged an expedition to exact retribution from the Ghassanite Prince who killed the Moslem envoy. A force of 3000 men, under the Prophet's adopted son Zaid, was sent to take reparation from the offending tribe. Khalid Ibn el Walid was one of the generals chosen for the expedition. When they reached the neighbourhood of Muta, a village to the south-east of the Dead Sea, they met with an overwhelming force of Arabs and Romans who were assembled to oppose them. The Moslems, however, resolved resolutely to push forward. Their courage was of no avail and they suffered great losses. In this battle Zaid and Jaafar, a cousin of the Prophet and several other notables were killed. Khalid Ibn el Walid, by a series of manoeuvres, succeeded in drawing off the army, and conducting it without further losses to Medina. A month later, however, Amr Ibn el Aas marched unopposed through the lands of the hostile tribes, received their submission and restored the prestige of Islam on the Syrian frontier. (1)

## VII

### THE CONQUEST OF MECCA

About the end of the seventh year of the Hijra, the Koreishites and their allies, the Bani Bakr violated the terms of the peace concluded at

---

(1) Ch. Hughes' Dictionary of Islam.

Persia, Chosroes Parvis, was received with disdain and contumely. He was haughtily amazed at the boldness of the Meccan fugitive in addressing him on terms of equality. He was so enraged that he tore into pieces the Prophet's letter of invitation to Islam, and dismissed the envoy from his presence with great contempt. When the Prophet received information of this treatment, he calmly observed: "Thus will the Empire of Chosroes be torn to pieces"<sup>(1)</sup>

The embassy to Heraclius, the Emperor of the Romans was received much more politely and reverentially. He treated the ambassador with great respect and sent the Prophet a gracious reply to his message.

Another envoy was sent to an Arab prince of the Ghassanite tribe, a Christian feudatory of Heraclius. This prince instead of receiving the envoy with any respect cruelly murdered him. This act caused great consternation among the Moslems who considered it as an outrage of international obligations.

In the same year the Jews of Khaibar, a strongly fortified territory at a distance of four days' journey from Medina, showed implacable hatred towards the Moslems. Several branches of the "Nadeer" and "Quoraiza" took refuge at Khaibar, which contributed to increase the feeling of animosity on the part of their brethren towards the Prophet and his followers. United by alliance with the tribe of "Ghatfan" as well as with other cognate tribes, the Jews of Khaibar made serious attempts to form a coalition against the Moslems. The Prophet and his adherents were apprised of this movement. Immediate measures had to be taken in order to repress any new attack upon Medina. An expedition of 1400 men was soon prepared to march against Khaibar. The allies of the Jews left them to face the war with the Moslems all alone. The Jews firmly resisted the attacks of the Moslems, but eventually all their fortresses had to be surrendered, one after the other to their enemies. They prayed for forgiveness which was accorded them on certain conditions. Their lands and immovable property were secured to them, together with the free practice of their religion.<sup>(2)</sup>

After subduing Khaibar, the Moslems returned to Medina in safety.

Before the end of the year, it being the seventh year of the Hijra, the Prophet and his adherents availed themselves of their armistice with the Koreishites to accomplish their desire of visiting the holy Kaaba. The Prophet accompanied by 2000 Moslems went on his journey to Mecca to perform the rites of pilgrimage. On this occasion the Koreishites evacuated the city during the three days on which the ceremonies lasted.

---

(1) Ibn Hisham, Vol. VII

(2) Ibn Athir, Ibn Hisham, Caussin de Perceval, etc.

of any kind. If the Christians should stand in need of assistance for the repair of their churches or monasteries, or any other matter pertaining to their religion, the Moslems were to assist them. This was not to be considered as supporting their religion, but as simply rendering them assistance in special circumstances. Should the Moslems be engaged in hostilities, with outside Christians, no Christian resident among the Moslems should be treated with contempt on account of his creed. The Prophet declared that any Moslem violating any clause of the Charter should be regarded as a transgressor of God's Commandments, a violator of His Testament and neglectful of His faith<sup>(1)</sup>.

## VI

### THE PEACE OF HUDEIBIYA

Six years had already elapsed since the Prophet and his Meccan followers fled from their birth-place. Their hearts began to yearn for their homes and for their temple of the Kaaba. The season of the pilgrimage approached. The Prophet announced his intention to visit the holy centre. Numerous voices of his disciples responded to the call. Preparations were soon made for the journey to Mecca. The Prophet accompanied by seven or eight hundred Moslems, Refugees and Helpers, all totally unarmed set out on the pilgrimage. The Koreishites who were still full of animosity towards the Moslems gathered a large army to prevent the true believers from entering Mecca. They maltreated the envoy whom the Prophet had sent to ask their permission to visit the holy places. After much difficulty a treaty was concluded by which it was agreed that all hostilities should cease for ten years; that any one coming from the Koreishites to the Prophet without the permission of the guardian or chief, should be given back to the idolators; that any Moslem person going over to the Meccans should not be surrendered; that any tribe desirous of entering into alliance, either with the Koreishites or with the Moslems should be at liberty to do so without disputes, that the Moslems should go back to Medina on the present occasion and stop advancing further; that they should be permitted in the following year to visit Mecca, and to remain there for three days with the arms they used on journeys, namely, their scimitars in sheaths.

The treaty thus ended, the Prophet returned with his people to Medina<sup>(2)</sup>.

About this time it was revealed to the Prophet that his mission should be universal<sup>(3)</sup>. He despatched several envoys to invite the neighbouring sovereigns to Islam. The embassy to the king of

---

(1) Abul Feda; Ibn Athir; Al Wakidi etc.

(2) That is without fulfilling their proposed pilgrimage.

(3) Koran Chap. VII



حسب الترتيب  
١٢٩٨ هـ - ١٢٩٩ هـ  
١٢٩٨ هـ - ١٢٩٩ هـ

for twenty days. The enemy made great efforts to cross the trench, but every attempt was fiercely repulsed by the small Moslem force. Disunion was now rife in the midst of the besieging army. Their horses were perishing fast, and provisions were becoming less every day. During the night-time a storm of wind and rain caused their tents to be overthrown and their lights extinguished. Abu Sofian and the majority of his army fled away and the rest took refuge with the Qoraiza. (1) The Moslems, though they were satisfied with the failure of their enemies, could not help thinking that the victory was unsatisfactory so long as the Qoraiza, who had violated their sworn pledge, remained so near. The Jews might at any time surprise Medina from their side. The Moslems felt it their duty to demand an explanation of the violation of the pledge. This was utterly refused. Consequently the Jews were besieged, and compelled to surrender at discretion. They only asked that their punishment should be left to the judgment of Saad Ibn Moaz, the prince of the tribe of Aws. This chief who was a fierce soldier, had been wounded in the attack and indeed died of his wounds the following day. Infuriated by the treacherous conduct of the Bani Qoraiza, he gave judgement that the fighting men should be put to death, and that the women and children should become the slaves of the Moslems. The sentence was carried into execution.

Commenting on the harshness of the sentence, Mr. Stanley Lane Poole in the introduction of his 'Selections from the Koran' writes as follows: "It was a harsh, bloody sentence, worthy of the episcopal generals of the army against the Albigenes, or of the deeds of the Augustan age of Puritanism; but it must be remembered that the crime of these men was high treason against the State during time of siege; and those who have read how Wellington's march could be traced by the bodies of the deserters and pillagers hanging from the trees, need not be surprised at the summary execution of a traitorous clan." (2)

It was about this time that the Prophet granted to the monks of the monastery of St. Catherine, near mount Sinai his liberal Charter by which they secured for the Christians noble and generous privileges and immunities. He undertook himself, and enjoined his followers, to protect the Christians, to defend their churches and the residence of their priests and to guard them from all injuries. They were not to be unfairly taxed; no bishop was to be driven out of his diocese; no Christian was to be forced to reject his religion; no monk was to be expelled from his monastery; no pilgrim was to be stopped from his pilgrimage, nor were the Christian churches to be pulled down for the sake of building mosques or houses for the Moslems. Christian women married to Moslems were to enjoy their own religion, and not to be subjected to compulsion or annoyance

(1) Ibn el Athir; Ibn Hisham, etc.

(2) Vide Stanley Lane Poole, Selections from the Koran



with them, were distributed by the Prophet, with the consent of the Helpers, among the Refugees. A principle was henceforth adopted that any acquisition, not made in actual warfare, should belong to the state, and that its disposal should be left to the discretion of the ruling authorities<sup>(1)</sup>.

Certain prejudiced Western historians wrongly accuse the Moslems of having treated these Jews of Nadeer with the utmost cruelty. For instance Dr. Prideaux in his "Life of Mahomet", falsely charged them with overtaking the Jews who fled to Syria, and putting them all to death.

G. Sale has already saved us the trouble of refuting such erroneous statements.

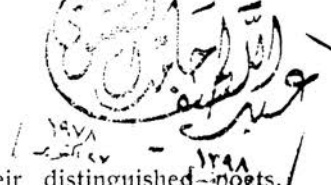
The expulsion of the Nadeers took place in the fourth year of the "Hijra". The remaining portion of this year, and the early part of the next were passed in repressing the hostile attempts of the nomadic tribes against the Moslems, and inflicting punishment for various murderous forays on the Medinite territories. Of this nature was the expedition against the Christian Arabs of Dumat el Gandal, (a place about seven days' journey to the south of Damascus) who had stopped the Medinite traffic with Syria, and even threatened a raid upon Medina; these marauders, however, fled on the approach of the Moslems, and the Prophet returned to Medina, after concluding a treaty with a neighbouring chief, to whom he granted permission of pasturage in the Medinite territories<sup>(2)</sup>.

In the same year, the enemies of Islam made every possible attempt to stir up the tribes against the Moslems. The Jews also took an active, if hidden, part in those intrigues. An army of ten thousand men, well equipped, marched towards Medina, under the command of Abu Sofian. They encamped near Mount Ohod, a few miles from the city. The Moslems could gather only a much smaller army of three thousand men. Seeing their inferiority in numbers on the one hand, and the turbulence of the Hypocrites within the town on the other, they preferred to remain on the defensive. They dug a deep moat round the unprotected quarters of Medina and encamped outside the city with a trench in front of them. They relied for safety of the other side upon their allies, the Koraiza, who possessed several fortresses at a short distance towards the south and were bound by the compact to assist the Moslems against any raiders. These Jews, however, were induced by the idolaters to violate their pledge and to join the Koreishites. As these Jews were acquainted with the locality and could materially assist the raiders, and as, on the other hand the Hypocrites within the walls of the city were waiting for an opportunity to play their part, the situation of the Moslems was most dangerous. The siege had already lasted

---

(1) Vide "Droi Musulman" by M. Querry, p. 337,

(2) C. de Perceval, Vol. III; Tabari, Vol. III.



to sow sedition among the Moslems. One of their distinguished poets, called Kaab, of the tribe of Nadeer, spared no efforts in publicly deploring the ill-success of the idolaters, after their defeat at Badr. By his satires against the Prophet and his disciples, and his elegies on the Meccans who had fallen at Badr, he succeeded in exciting the Koreishites to that frenzy of vengeance which broke out at Ohod. He then returned to Medina, where he continued to attack the Prophet and the Moslems, men and women, in terms of the most obscene character. Though he belonged to the tribe of Nadeer which had entered into the compact with the Moslems and pledged itself both for the internal and external safety of the State, he openly directed his acts against the Commonwealth, of which he was a member. Another Jew, Sallam by name, of the same tribe, behaved equally fiercely and bitterly against the Moslems, as did Kaab. He lived with a party of his tribe at Khaibar, a village five days' journey north-west of Medina. He made every effort to excite the neighbouring Arab tribes against the Moslems. The Moslem Commonwealth with the object of securing safety among the community, passed a sentence of outlawry upon Kaab and Sallam. The members of another Jewish tribe, namely Bani Quaynouqa, were sentenced to expulsion from the Medinite territory, for having openly and knowingly infringed the terms of the compact. It was necessary to put an end to their hostile actions, for the sake of maintaining peace and security. The Prophet had to go to their head-quarters, where he required them to enter definitively into the Moslem Commonwealth by embracing Islam, or to leave Medina. To this they replied in the most offensive terms; "Thou hast had a quarrel with men, ignorant of the art of war. If thou art desirous of having any dealings with us, we shall show thee that we are men (1)". They then shut themselves up in their fortress and set the Prophet and his authority at defiance. The Moslems decided to reduce them, and siege was accordingly laid to their fortress without loss of time. After fifteen days they surrendered. Though the Moslems at first intended to inflict some severe punishment on them, they contented themselves by banishing the Bani Quaynouqa. The tribe of Nadeer had now behaved in the same way as Quaynouqa. They had likewise, knowingly and publicly, disregarded the terms of the Charter. The Prophet sent them a message similar to that which was sent to their brethren, the Quaynouqa. They, relying on the assistance of the Hypocrites' party, returned a defiant reply. After a siege of fifteen days, they sued for terms. The Moslems renewed their previous offer, and the Jews of Nadeer chose to evacuate Medina. They were allowed to take with them all their movable property, with the exception of their arms. Before leaving Medina, they destroyed all their dwellings, in order to prevent the Moslems from occupying them (2). Their immovable property, warlike material, etc., which they could not carry away

(1) and (2) Ibn Hisham.; Ibn Athir.



